كتابي

حلمي مراد

ليالى الإلهام

وكتب أخرى

الملحق مع هذا العدد هدية منفصلة في ٣٢ صفحة
(القصة الأولى من "قصص كتابي للصغار")
روبنسون كروزو

كتابى

مجلة شهرية للثقافة العالمية
صاحبها ورئيس تحريرها : حلمي مراد

الكتاب رقم ١٠١

التحرير : ٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) ، شقة ١١١ ، القاهرة ـ تليفون ٤٦٤٧٥

الناشر : دار الشعب ـ ٩٢ شارع قصر العينى ، القاهرة ـ تليفون ٣١٨١٠

ثمن النسخة : ١٥ قرشا

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية
بريشة الفنان « هبة عنايت »

هل مات نابليون مسموماً؟



للعالم السويدي المحقق

ستين فورشوفود

NAPOLEON a-t-il été Empoisonné ?

Par: STEN FORSHUFOUD

تلخيص وتعليق : حلمي مراد

هذا الكتاب الخطير

◉ على اثر وفاة ((نابليــون)) ـ فى يوم ٥ مايو عام ١٨٢١ ـ راجت موجة من الشــائعات فى سائر بلاد العالم ، تجزم بان الامبراطور لم يمت ميتة طبيعية ! غير ان تلك الشائعات لم تستمر طويلا ، اذ سرعان ما خمدت وتوقف ترددها ، على اثر اذاعة مضــمون محضر تشريح جثــة نابليون ، الذى قرر فيه موقعوه ـ وهم خمسة من كبار الأطباء الانجليز ـ ان الامبراطور مات نتيجة لاصابته بسرطان فى المعدة ..

ومنذ ذلك الحين ، تداولت الأجيال المتعاقبة هذا الراى الاخير ، وتناقلته كتب التــاريخ ، ومئات السير التى الفت عن حياة المحارب الجبار الذى دوخ أوربا اكثر من خمسة عشر عاما ، حتى تالبت عليــه الدول ووضــعته فى ((القفص)) فى جزيرة (سانت هيلانة) ، حيث وافته منيته بعد ستة اعوام عاشها فى الأسر !

وقد ظل العالم مستقرا على هذا الراى بصدد سبب وفاة نابليــون .. حتى خــرج الطبيب والمحقق السويدى ((ستين فورشــوفود)) على العالم بنظرية جديدة مؤداها ان نابليون انما مات نتيجة تسميمه ((بالزرنيخ)) تسميماً بطيئا ! وقد دلل على نظريته هذه فى كتاب مطول من ٢٦٠

صـفحة كبيرة جعل عنـوانه ((هل مات نابليون مسموما ؟ ـ تحقيق قضائى)) وهو الكتاب الذى نلخص لك فى الصفحات التالية فصوله السـبعة والعشرين ، الحافلة بالمفاجآت ، لمناسبة احتفال العالم هذا العام بذكرى مرور مائتى سنة على مولد نابليون ، فى ١٥ اغسطس عام ١٧٦٩ .

هل مات نابليون مقتولا ؟

.. ومن القاتل ؟

والكتاب يجيب فى صفحاته المائتين والستين على كثير من الأسئلة الهـامة التى تتعلق بنهاية نابليـون ، والتى من بينها :

١ ـ هل مات نابليون ميتة طبيعية ، أم مات مقتولا ؟

٢ ـ واذا كان قد مات ميتة طبيعية ، فهل كانت وفاته نتيجة لاصـابته بالسرطان ، أم بقـرحة فى المعـدة ، أم بداء ((الكبد)) الذى ضاعف من تأثيره مناخ الجزيرة الحار ((القاتل)) ؟

٣ ـ أما اذا كان قد مات مقتولا ، فبأى سلاح قتل ؟ بالسم ؟ أم بوخز الأبر ؟ وما المقصود بوخز الأبر ؟

٤ ـ ومن الذى قتله ؟ من المحرض على قتله ؟ ومن المنفـذ للجـريمة ؟ هل قتـله حاكم الجـزيرة ، بتحريض من الحكومة الانجليزية ؟ أم قتله أحد أطبائه ؟ أم أن القاتل شخص ثالث ، والمحرض جهة ثالثة ، لم يخطرا على بال أحد من قبل ؟

كل هذه الأسئلة ، وعشرات غيرها ، يجيب عنها الطبيب المحقق السويدى ((ستين فورشوفود)) فى كتـابه هذا الذى نشرته دار النشر الباريسية الكبرى (بلون) ، وكتب مقدمته

البروفيسور « هنرى جريفون » ، **وعلق عليه المؤرخ والباحث المعروف هنرى لاشوك** .. وقد بلغ من دقة الدكتور فورشوفود فى التمحيص والتحقيق ، أنه حلل خصلة من شعر نابليون حصل عليها من أحد ورثة « لويس مارشان » خادم الامبراطور الخاص ، (كما هو ثابت من الوثيقة الزنكوغرافية المنشورة فى صفحة ١٠ من هذا المقال) .

ولنبدأ التحقيق من بدايته :

يدين الانجليز .. فى وصيته الأخيرة !

● **قبيل** وفاة نابليون بثلاثة أسابيع ، وقع الامبراطور — فى ١٥ أبريل عام ١٨٢١ — وصيته الأخيرة التى تضمنت (فى بندها الخامس) هذه العبارة الصريحة : « **اننى أموت قبل الأوان مقتولا بأيدى الحكام الانجليز ، وعميلهم الأثيم .. ولست اشك فى أن الشعب الانجليزى سوف يأخذ يوما بثأرى !** » وعلى هذا النحو أعلن نابليون — وهو على فراش الموت ، وعلى ملأ من الرأى العام العالمى ، وأمام محكمة التاريخ — انه مات مقتولا بتدبير من الساسة الانجليز !

.. لكن هذه الصرخة لم يقدر لها أن تحظى آنذاك بأى التفات أو اهتمام ، بعد أن أجمع خمسة من الأطباء الانجليز — فى تقريرهم الرسمى — على أن الامبراطور انما مات ميتة طبيعية ، نتيجة لاصابته بسرطان فى المعدة . وهكذا حفظت القضية رسميا بالنسبة للرأى العام العالمى !

ولكن ، الى اى حد يمكن الاعتماد على شهادة اولئك الأطباء ؟.. والى اى حد يمكن الاعتماد — من الناحية المضادة — على ما قرره نابليون نفسه فى وصيته ؟

لنبدأ بتحقيق « حكاية » وفاته بالسرطان ، قبل أن نبحث عما تضمنته وصية نابليون بشأن مسئولية الانجليز عن « قتله » !

وهنا يقرر المؤلف ، انه مع تقدم العلوم الطبية واتساع نطاق تجاربها ، أخذت تقارير الأطباء الانجليز الخمسة بشأن وفاته بالسرطان تفقد جديتها وأهميتها .. ويستند المؤلف فى تفنيد تلك التقارير الى الحجج الآتية :

١ ـ **قام** الجراح الفنلندى الكبير « كاليما » بدراسة مستفيضة لمحضر تشريح جثة نابليون ، فاذا هو يكشف النقاب عن اخطاء خطيرة تضمنتها شهادة وفاة الامبراطور ، وقد انتهى من دراسته الى الجزم بأن نابليون لم يصب بالسرطان على الاطلاق ، وبالتالى لم يمت به !

٢ ـ **والدليل الثانى** الذى يؤيد هذا الرأى أن نابليون لم يشك قط ـ قبل شهر مارس عام ١٨٢١ ـ من آلام فى معدته .. ولا اصابته أية نوبة من القىء ، قبل يوم ٢٢ مارس من ذلك العام ..

٣ ـ **فضلا عن** ان نابليون لم يصب فى الشهور الأخيرة من حياته بالهزال والنحافة ـ وهما العلامة الأولى التى تصاحب مرض السرطان ـ وانما ظل حتى ساعاته الأخيرة محتفظا ببدانته وامتلاء جسمه ..

٤ ـ **بل ان** نفس تقرير تشريح جثة نابليون الذى كتبه الطبيب الشرعى الفرنسى « دكتور أنتو مارشى » أثبت « خلو جسم الامبراطور من اية أورام أو خلايا سرطانية » ، وأن قرر وجود تضخم ظاهر فى الكبد (وفيما بعد سوف نناقش رواية وفاة نابليون بداء الكبد نتيجة لطقس الجزيرة الحار) . ومما هو جدير بالذكر أن الطبيب الشرعى المذكور كان قد أشرف على علاج نابليون خلال العشرين شهرا الأخيرة من حياته ، وانه قد أجرى تشريح الجثة بحضور أفراد حاشية الامبراطور ، والأطباء الانجليز الخمسة ، ولفيف من مندوبى حاكم جزيرة (سانت هيلانة) ، وقد دب الخلاف بين الطبيب الشرعى والأطباء الخمسة حول الاصابة بالسرطان ، فلما أصر



Paris, 24 juillet 1960.

4, RUE DE L'ABREUVOIR XVIII°
MONTMARTRE 35 37

Je certifie que les cheveux de l'Empereur Napoléon I^{er}, remis par moi à

Monsieur le Docteur Sten FORSHUFVUD
Vasagatan 33
Suède Göteborg

ont été prélevés dans un paquet provenant de la succession de Louis MARCHAND, valet de chambre de l'Empereur à Sainte Hélène, dont j'ai publié les Mémoires.

Henry Lachouque

شهادة من المؤرخ والباحث « هنرى لاشولد » يقرر فيها أن خصلة شعر نابليون التى سلمها الى المحقق السويدى مؤلف الكتاب لتحليلها ، كانت محفوظة ضمن مخلفات خادم نابليون الخاص فى (سانت هيلانة) المدعو « لويس مارشان »

كل من الفريقين على رايه ، لم يتيسر توقيع الجميع على تقرير طبى مشترك ، فكان أن انفرد الطبيب الشرعى الفرنسى بكتابة تقرير مستقل نفى فيه وجود الأورام السرطانية ، بينما كتب الأطباء الانجليز الخمسة تقريرا آخر قرروا فيه أن الامبراطور مات بالسرطان !

٥ ــ **وهناك** احتمالان فى هذا الصدد : أحدهما أن الأطباء الخمسة قد تعمدوا ــ بتقريرهم المذكور ــ تغطية « جريمة قتل » .. والاحتمال الثانى أن رأيهم كان محض « خطأ فى التشخيص » ، تأثروا فيه (ان كان الخطأ صادرا عن « حسن نية ») ، أو تعللوا فى شأنه (ان كان قصدهم منه اخفاء جريمة) بحقيقة معروفة ، هى أن والد نابليون كان قد مات بالسرطان ، وهو فى الثامنة والثلاثين من عمره ، بحيث كان من الميسور والمعقول الزعم بأن الامبراطور قد ورث الاستعداد للمرض عن أبيه !

٦ ــ **وثمة** دليل آخر ينفى تشخيص السرطان ، هو العثور عند تشريح الجثة على طبقات سميكة من الشحم ، تحت الجلد وفى البطن ، الأمر الذى لا يحدث عادة عند المصابين بالمرض الخبيث !

لم يمت بداء الكبد ، ولا بقرحة فى المعدة !

● **فاذا** خلصنا من هذه الأسانيد الى نفى زعم وفاة نابليون بالسرطان ، فقد آن أن نناقش احتمالين آخرين : أحدهما انه مات بداء الكبد ، والآخر انه مات نتيجة قرحة فى المعدة :

اما الاحتمال الأول ، فمردود بأن التضخم الذى وجده الطبيب الشرعى فى كبد نابليون لم يكن من الخطورة بحيث يمكن أن يؤدى الى الوفاة بأية حال .. كما أن الطبيب الفنلندى الدكتور « كاليما » ــ الذى استبعد بدوره فكرة

السرطان ـ قــرر أن الامبراطور لم تظهــر عليه قط أعراض التهاب الكبد (مرض الصفراء) ، وان اصفرار وجهه فى معظم الأحيان لم تكن له صلة « بالكبد » . كما أن وفاة الكثيرين من الانجليز فى الجزيرة بداء الكبد لم يكن سببه مناخها الحار ، وانما كان سببه افراط أولئك الانجليز فى شرب الخمر ـ ربما بتأثير حرارة الجو ـ فى حين أن نابليون لم يكن يقرب الخمــر الا فى القليل النادر !

وهناك قرينة اخــرى تنفى أن الوفاة حدثت نتيجة لداء الكبد ، وهذه القرينة هى أن الدكتور « ستوكوى » ـ الذى بدأ يشترك فى معالجة نابليون فى يناير عام ١٨١٩ ـ شخص متاعب مريضه على أنها من مرض الـكبد ، وعندئذ ســأله نابليون : « كم يقدر لانسان مصاب بهذا المرض أن يظل على قيد الحياة ، فيما تظن ؟ » ، فأجابه الطبيب بأن الكثيرين من مرضى الـكبد يعيشــون الى سن متأخــرة . واذ ذاك عاد الامبراطور يلح عليه فى السؤال عما اذا كان هذا الرأى يصدق حتى بالنسبة لمن يعيش فى ظل مناخ حار ، فأجابه الطبيب بالايجاب ..

وأما الاحتمال الثانى الذى ينجم عن استبعاد فكرة الموت بالسرطان ـ بعد احتمال داء الـكبد ـ فهو احتمال أن تكون وفاة نابليون نتيجة لقرحة فى المعدة . وهذا الاحتمال لم يرد الا فى تقــرير الجراح الفنلنــدى « كاليما » الذى جــزم بأن الامبراطور لم يمت بالسرطان ، واستنتج انه مات بقرحة فى المعــدة من النوع الذى يطلق عليه (Ulcus Simplex) ولكن هــذا القول مردود بأن القرحــة التى شكا منهــا انما كانت فى « الجدار المعدى » ، وهى حالة لا ينطبق عليها التشخيص الســالف ، بل انها ـ على العكس ـ مبرر يعزز مظنة أن يكون الامبراطور قد راح ضحية « جريمة قتل » ، كمــا سيجىء

البيان ، لأنها تصيب المعدة نتيجة جرعات متوالية من .. السم !

تهمة القتل بالسم .. تبرز الى السطح !

◉ **والآن** ، بعد تفنيد المزاعم القائلة بأن وفاة نابليون كانت نتيجة لاصابته بالسرطان ، أو بداء الكبد ، أو بقرحة فى المعدة .. نعود الى ما قرره نابليون نفسه فى وصيته ، بشأن مسئولية الانجليز عن « قتله » .. نعود لنبحث مدى جدية هذا الاتهام ، والحجج التى تعززه ، أو تدحضه :

١ ــ **فلقد** قيل يومئذ ــ بلسان المعارضين لجدية هذا الاتهام ــ ان نابليون لم يكن محتفظا فى أواخر أيامه بذلك الذكاء الألمعى والبصيرة الثاقبة اللذين طالما اشتهر بهما وهو فى أوج مجده وعنفوان حيويته .. كما قيل ان الآلام التى قاسى منها فى سنواته الأخيرة قد أثرت تأثيرا بينا على حالته النفسية ، وان قدرته على الحكم على الأشياء قد تضعضعت من جراء ذلك تضعضعا شديدا . ومن ثم لا يمكن الاعتماد على هواجسه التى أوحت اليه بالقاء هذه التهمة على رؤوس الانجليز !

٢ ــ **غير أن** من يتعمق مع ذلك فى دراسة وصية نابليون وملحقاتها ، ونصوصها الاضافية ، يجد نفسه مضطرا الى الاعتراف بأن ما أوتيه الامبراطور يومئذ من قوة معنوية ورجاحة تفكير ، انما يفوق بمراحل ما يلمسه المرء منهما لدى سائر الافراد العاديين ، رغم أن تلك الوصية قد كتبت قبل وفاة نابليون بثلاثة أسابيع فقط ! وليس أدل على رجاحة عقل الامبراطور واكتمال وعيه خلال تلك الأسابيع من أنه استطاع أن يتكهن بسلسلة من الأحداث والوقائع ، تحققت كلها على مر الأيام :

(أ) **فقد تنبأ** مثلا بأن أسرة « البوربون » ــ التى كانت تحكم فرنسا يومئذ ــ لن يقدر لها البقاء فى الحكم أكثر من سنوات قلائل .. وأن أسرة « أورليان » هى التى ستخلفها ، وان يكن لفترة محدودة ..

(ب) **كما تنبأ** نابليون بقيام الوحدة الايطالية ، وكذلك الوحدة الألمانية ، كنتيجة طبيعية لحكمه .. أما بالنسبة للولايات المتحدة الامريكية ــ وقد كانت يومئذ جمهورية صغيرة لا يتجاوز عدد سكانها عشرة ملايين نسمة ! ــ فقد توقع لها نموا وازدهارا خارقين ، مؤكدا أن حكم العالم سيكون فى نهاية المطاف موضع نزاع وتسابق بين روسيا والولايات المتحدة (كذا !) .. ثم نوه بالتوسع الروسى الكبير ، فذكر أن شيئا أشبه بالستار الحديدى سيفصل بين دول أوربا المختلفة ، وان هذا الحد الفاصل لن يقوم وفقا للحدود المرسومة بين البلاد ، وانما طبقا لتكتلات أيديولوجية معينة !

(ج) **وتنبأ** نابليون ايضا بأن المستعمرات البريطانية لن تلبث أن تستقل الواحدة تلو الأخرى ، وأنها ستفلت من قبضة بريطانيا .. على مر الأيام !

يرتاب فى نوايا الانجليز !

● **واذن** فقد كانت ملكات نابليون الذهنية فى وعيها التام حتى أيامه الأخيرة ، وبالتالى كان ما ساقه فى وصيته من أنه يموت « مقتولا » ، خليقا بكل اعتبار واهتمام .. بل انه كان قد كرر على مسامع طبيبه « أوميارا » وياوره « لاس كازس » أنه قد استشف نوايا الانجليز ، وبخاصة حاكم الجزيرة ، بشأن تعذيبه والقضاء عليه بكل الطرق !

.. وكانت المرحلة الأولى من مراحل تلك الخطة « للقضاء » على نابليون ، محاولة حاكم الجزيرة ــ بكافة

السبل ــ أن يفرض على « الامبراطور » حياة العزلة .. وقد بدأها الحاكم بأن حظر عليه الاتصال بأى فرد من أهالى الجزيرة ، الا فى حضور أحد الضباط الانجليز ! .. بل ان « نابليون » ما كان ليستطيع الابتعاد عن حى (لونجوود) الذى كان يقيم فيه ، الا وهو مصحوب بضابط انجليزى .. **ولم يكن مصرحا لأى مخلوق بزيارته فى داره الا اذا حصل من الحاكم على تصريح سابق !..** وحتى اذا استوجبت الظروف أن يعوده أحد الأطباء الانجليز ، فان الحاكم كان يأمر دائما بألا يدور الحديث بينهما الا حول صحة الامبراطور ، فلا يتطرق الى أى موضوع آخر !

من تلك القيود الصارمة ، بدأ الامبراطور يدرك أن الانجليز كانوا يدبرون خطة للقضاء عليه .. لكنه كان يعلم ــ فى الوقت نفسه ــ انهم لن يجرأوا على أن يمسوه بسوء بطريقة سافرة مكشوفة ، خشية ثورة الرأى العام العالمى ، وأنهم سيعمدون ــ على الأرجح ــ الى الاجهاز عليه بطريقة خفية مستترة .. فكان خير تمهيد لذلك هو عزله ، وردمه بتراب النسيان !

بالسلاح .. أم بالسم ؟

● فى يوم ١٦ مايو عام ١٨١٦ ، جرت احدى المقابلات بين الامبراطور وحاكم الجزيرة « هدسون لو » ، قام الأخير خلالها بابلاغ الأسير الكبير بأن لديه تعليمات من حكومته أشد صرامة وقسوة من تعليمات الاميرال « كوكبورن » ــ (قائد السفينة الحربية الانجليزية التى أقلت نابليون الى جزيرة سانت هيلانه) ــ فقال له نابليون : « انك تقول ، يا سيدى ، أن لديك تعليمات أشد هولا من تعليمات الأميرال . ترى أهى تقضى اذن بقتلى بالسلاح ، أم بالسم ؟ أنا لا استبعد شيئا من جانب وزرائكم ، وها أنذا بين يديك ، فلتجهز على ضحيتك ! »

ويقـول ((**مارشـــان**)) ، كبير خـدم الامبراطور — فى مذكراته — ان حاكم (سانت هيــلانة) صرح للدكتـور ((**اوميارا**)) — طبيب نابليون — بقوله : « اننى لا اريد له ان يموت بالسكتة القلبية ، ففى ذلك حرج بالغ لى ولحكومتى على السواء .. **واحسب انه من الافضـل ان يموت نتيجـة مرض بطىء .. حتى اذا قضى ، اعتبر اطبـاؤنا موته ميتـة طبيعية . اما السكتة القلبية ، فهى خليقة بان تثير العديد من التقولات ..!**

وما ان ابلغ « اوميارا » هذا الكلام الى الامبراطور ، حتى هتف هذا فى حدة : « فى هذه الحالة ، يتضح بجلاء انه اذا كانت التعليمات التى تلقاها الحاكم لا تتضمن امرا « كتابيا » بقتلى ، فان هناك امرا « شفويا » قد صدر له بهذا المعنى ! »

وفى يوم ٢٢ ابريل عام ١٨٢١ ، تحدث نابليـون الى كبير الياوران ، ((**الكونت برتران**)) فقال ان الانجليز قد سـعوا الى قتله فى اول الامر مستعينين بجو الجزيرة الضار بصحته ، ثم « بوخزات الابر » بعد ذلك ، واخيرا بمنعه مـن الخـروج والتريض ! .. وكان الامبراطـور يعنى « بوخـز الابر » تلك الاهانات المتلاحقة التى كان لا يفتأ يتعرض لها كل يوم ، ممـا كان يفت فى عضـده ، وينـال من روحه المعنوية .. **والادهى والامر من ذلك ان السلطات كانت تضايقه فى رحلاته ونزهاته ، اذ كانت تبعث بحراسها وراءه فى كل مكان ، بحيث لم يكن فى مقدوره الاتيان باية حركة دون ان يكون مراقبا** ، مما جعله يقلل من الخروج ويؤثر البقاء بالمنزل .. حتى اذا قرر الحاكم رفع الحراسة عنه فى النهاية ، كان قد غدا فى حال لا تسمح له بمغادرة البيت مطلقا !

وافضى الامبراطور ايضـا الى « الـكونت برتران » بأن الحكومة الانجليزية ستتخذ ولا شك موقفـا قويا للدفاع

عن نفسها ، عامدة الى نشر طائفة من الوثائق للتدليل على أنه لم يمت مقتولا . ومن ثم طلب الى « برتران » ورفاقه الآخرين الوقوف على أهبة الاستعداد للرد على الانجليز « ودحض مزاعمهم » عند الاقتضاء !

القهوة المسمومة !

◉ **ومنذ** سنوات النفى الأولى التى أمضاها نابليون فى (سانت هيلانة) ، بدأ يشك فى أن الانجليز يريدون قتله بالسم ، أو بأى سلاح آخر !.. ففى ذات يوم ، زاره حاكم الجزيرة فى داره ، (وقد قدر لتلك الزيارة أن تكون آخر زيارة له للامبراطور ، اذ لم يشأ نابليون أن يستقبله بعدها قط !) وأثناء الحديث ، أمر نابليون بقدحين من القهوة لضيفه الانجليزى ، ولنفسه .. وما أن انتهت الزيارة وانصرف « هدسون لو » حتى أستدعى الامبراطور خادمه ، وقال له وهو يشير الى قدحه الذى كان مازال مملوءا بالقهوة : ((**الق بهذا القدح بعيدا ، فلست راغبا فى احتسائه .. لقد اقترب الرجل منه ، واحسبه لا يتورع عن شىء ، ولا حتى عن قتلى بالسم !))**

كان ينفجر صحة وقوة ..

◉ **ولقد** تضاربت الآراء وتباينت التشخيصات حول حقيقة المرض الذى لازم نابليون فى سانت هيلانة .. الا أن من يدرس ويحلل مرض الامبراطور ، فى مراحله المختلفة ــ من واقع مذكرات الشهود ــ سرعان ما يتبين ، بما لا يدع مجالا للشك ، **ان الأعراض المرضية التى ظهرت على أسير (سانت هيلانة) ، لم تكن سوى أعراض حالة تسمم بمادة الزرنيخ !**

ولطالما نعم نابليون ــ قبل سنوات الأسر ــ بصحة قوية ،

Department of Forensic Medicine

Tel. Kelvin 2231



The University,
Glasgow, W.2

11/7/60

Dear Dr Forshufvud,

The sample lettered H.S. which you sent to me gave a value of 10.38 micrograms of arsenic per gram of hair when analysed by my activation method.

This value shows that the subject has been exposed to relatively large amounts of arsenic.

Hamilton Smith.

تقرير من ادارة الطب الشرعي بجامعة جلاسجو ، يثبت العثور على نسبة كبيرة من « الزرنيخ » في عينة من شعر نابليون أرسلها المؤلف الى الادارة لتحليلها ..

فلم يعان مرضا أو اعتلالا جسمانيا ، بل كان ذا حيوية دافقة ، وجلد خارق ، وقدرة على العمل لا تهدأ .. وحتى فى الأيام الأولى من حياته الجديدة فى (سانت هيلانة) ، كان ما زال محتفظا بروحه المعنوية العالية وقوته البدنية الحصينة ، **حتى لقد دهش هو نفسه اذ تبين ان الأحداث العصيبة التى مرت به فى السنوات الأخيرة لم تنل منه شيئا** .. ويقول « مارشان » فى مذكراته ، أن الامبراطور — رغم كل ما تعرض له من نكبات وشدائد — ظل دائما هادىء الطباع ، معتدل المزاج ، رقيق الحاشية ، مشاركا فى أفراح واتراح جميع الملتفين حوله !

وقد زعمت الدعاية الانجليزية ، وافتراءات أسرة « البوربون » ، ان نابليون كان مصابا بداء الصرع !.. والواقع ان هذا الزعم انما أوحت به بعض المآرب السياسية التى كانت ترمى الى الاطاحة بهيبة الامبراطور ، والتشهير به . واذا كان نابليون قد تعرض بالفعل فى بعض الأحيان لنوبات من التشنجات العصبية ، فمما لا شك فيه أن تلك الحالة لم تكن راجعة الى مرض الصرع ، وانما الى ما كان يعانيه من تسمم شديد يسرى فى بدنه !

ومما يؤكد هذا التشخيص أن نابليون كثيرا ما كانت تنتابه قشعريرة شديدة ، سرعان ما تسرى فى كيانه كله . فكان خادمه يلف له قدميه فى منشفتين ساخنتين ، ويغطى جسمه باللفائف الدافئة .. وكان يحلو له دائما أن يجلس الساعات الطوال أمام نار المدفأة ، وقد تدثر بأغطية ثقيلة للتغلب على برودة الجو ، حتى لقد كان الانجليز يدهشون لكمية الخشب الضخمة التى يستهلكها الفرنسيون فى التدفئة ، فكان أن انزعج الحاكم لتناقص عدد الأشجار فى الجزيرة ،

فاذا هو يطلب الى الفرنسيين الكف عن اســتخدام الخشب والاستعاضة عنه بالفحم !

كيف بدات اعراض المرض

● **وقد** كانت اول معلومات نشرت عن مرض نابليون فى سانت هيلانة ، هى التى ساقها اتباع الامبراطور فى مذكراتهم ، وعلى رأسهم « مارشان » و « لاس كازيس » ، كبير خدمه وسكرتيره ، اللذان أوردا أيضاحات كاملة حول أعراض المرض فى مختلف مراحله ، وان لم يفطنا الى طبيعة المرض ذاته ..

ويجمع هــؤلاء الشــهود على أن المرحــلة الاولى لمرض الامبراطور بدات يوم ٢٣ نوفمبر عام ١٨١٥ ، واستمرت حتى يوم ٢٦ نوفمبر ، وهو اليوم الذى بدا أن نابليون قد استرد فيه صحته . وقد ظل الامبراطور بعد ذلك على خير ما يرام لمــدة شــهر كامل ، حتى اذا حل يوم ٢٤ ديسمبر ، أحس بوعكة جديدة لازمته ثلاثة أيام .. ولم يكد يشفى منها حتى اعتلت صحته مرة ثالثة !

واثناء تلك النوبات المتلاحقة ، كان نابليون يشعر بآلام شديدة فى ساقيه وركبتيه ، وصداع حاد مستمر ، وقشعريرة تهــز بدنه هزا .. وهى الأعراض الأوليــة لتسمم زرنيخى مزمن !.. واستمرت هذه الأعراض تداهمه حتى شهر مايو من عام ١٨١٦ ، حين قرر الامبــراطور ــ لأول مرة ــ أن يستشير الدكتور « أوميارا » فى أمر انحرافاته الصحية . فلم يكد يدلف الى حجرته ، فى يوم ٥ مايو ، حتى ســأله نابليون عما اذا كان يعتبر نفسه طبيب الامبراطور ، أو موظفا انجليزيا كلفه حاكم الجزيرة بالتجسس عليه ؟ .. وبعد أن أكد له « أوميارا » بأنه قد جاءه بوصفه طبيبا ، وانه لن يوافى الحاكم بأية نشرة عن حالته الصحية الا بتصريح منه ، وافق الامبراطور على قبوله طبيبا رسميا له !

تخبط فى تقارير الأطباء

● **على أن** أطباء « نابليون » الثلاثة فى سانت هيلانة ، وهم « **أوميارا** » ، و « **ستوكوى** » ، و « **انتومارشى** » لم يلبثوا أن أعلنوا بصورة قاطعة أن مرض الامبرطور يرجع الى الأحوال المناخية ، وانه اذا لم يغـادر الجزيرة فانه هالك لا محالة قبل مرور فترة طويلة ..

واستمرت صحة نابليون تتقلب بين التحسن والانتكاس .. فى الوقت الذى كانت فيه أعراض التسمم التى ألمت به تزداد حدة ووضوحا .. حتى كان يوم ٢٥ يوليو عام ١٨١٨ ، حين تقرر أعفـاء « أوميارا » من مهمته كمشرف على علاج الامبراطور . وكان ثمة خلاف قد دب بين الاثنين ، على اثر ما ترامى الى علم نابليون من أن طبيبه دأب على وضع التقارير والنشرات عن أحواله الصحية ــ دون علمـه وموافقته ــ وارسالها الى حاكم الجزيرة !.. حتى لقـد استدعاه ذات ليلة ، وقال له : « لا تنظر الى ساقى ، فليس عندى ما أقوله لك عن حالتى الصحية .. **اننى لا أريد أن أدخل السرور على قلب الحاكم ، فأشبع ميوله العدائية نحوى ، حين يعلم بأمر كل ما سيتحتم على تحمله من آلام قبل أن يوافينى الأجل ..** وبوسعك أن تخبره بأننى لا أتشبث بالحياة الى حد يجعلنى أرتضى ــ طائعا مختارا ــ أن يكون طبيبى جاسوسا ! »

على أن اعفاء ذلك الطبيب من مهمته كان له سبب آخر فى واقع الأمر ، فان صحة نابليون كانت قد بلغت درجة من الخطورة لم يكن من الممكن معها لأوميارا أن يتحمل مسئوليتها وحده ، فلم يجد مفرا من ابلاغ كبار أطباء الجزيرة بأمرها ، وبالتالى ابلاغ الحاكم الذى كان ــ برغم كل شىء ــ المسئول الأول والأخير عن صحة الامبراطور ، سيما وان الطبيب ما كان ليشك فى أن الحاكم تراوده أية نوايا اجرامية تجاه الأسـير الكبير !

وفى الليلة التى أعقبت رحيل « أوميارا » ، انتابت نابليون حمى شديدة استمرت تلهب جسده حتى الفجر ، حيث استطاع أخيرا أن يصيب قسطا من النوم . الا أنه فى اليوم التالى ، احس فجأة بألم شديد مصحوب بنوبة قىء حادة ، كانت أول نوبة خطيرة تصيبه فى (سانت هيلانة) .. ومع أن أعراض المرض ظلت بعد ذلك تلازم الامبراطور ، الا أن مرضه لم يستفحل أكثر من ذى قبل ، بل لقد طرأ عليه التحسن والتقدم شيئا فشيئا .. حتى أن « مارشان » أورد فى مذكراته أن الاعتقاد ساوره ، خلال الأشهر الأخيرة من عام ١٨١٨ ، بأن سيده لن يلبث أن يشفى من مرضه تماما ، اذ كان قد عاد الى استئناف تمريناته الرياضية ، والى مزاولة نشاطه اليومى المألوف ..

الجانى يعمل .. وفقا لخطة مرسومة !

● **وقد** حاول الحاكم جهده أن يقنع نابليون بقبول الطبيب الذى عينه لمباشرة علاجه ــ خلفا لأوميارا ــ الا أن الامبراطور ما كان ليأمن لأى طبيب موفد من قبل « هدسون لو » ، ايمانا منه بأن هذا الأخير ليس له من غاية سوى القضاء على حياته !.. ومن ثم فقد ظل نابليون بغير طبيب لفترة من الزمن ، **ومن العجيب أن حالته الصحية تحسنت فى تلك الأثناء بشكل ملحوظ !..** ورغم أن النوبات استمرت تهاجمه بين الحين والآخر ، الا أنها كانت طفيفة عابرة ، لا تستمر أكثر من يوم أو يومين ، ولا تعاوده الا بمعدل مرة واحدة كل شهر ..

ويبدو أن القاتل الذى كان يسعى للاجهاز على الامبراطور ، كان يعمل وفقا لخطة مرسومة ، تنفيذا لتعليمات محكمة كانت تصدر اليه بانتظام ! فقد عادت اليد الخفية ــ التى كانت قد أمسكت عن نشاطها لفترة من الوقت ــ

فضاعفت ، على حين غرة ، من جرعات الزرنيخ التى كانت تدسها للامبراطور ، فاذا به يغدو فريسة لأزمات حادة متواصلة .. حتى لقد ظن كل من حوله أن نهايته قد حانت ، وان أيامه باتت معدودة !

وفى يوم ١٠ يناير عام ١٨١٩ ، سمح الامبراطور ـ أخيرا ـ لكبير الياوران بالذهاب لمقابلة الحاكم ، ليطالبه بتعيين طبيب جديد يباشر علاجه .. وان هى الا أيام ، حتى اقبل الدكتور « ستوكوى » ، الذى الفى نفسه مضطرا ـ قبل أن يصرح له بفحص المريض ـ الى توقيع اقرار ، تعهد فيه بأن يكون طبيب الامبراطور الخاص ، فيوقف خدماته عليه ، على أن يقطع صلته بالحاكم !.. فلما قبل هذه الشروط ، اقتيد الى حجرة الامبراطور ، فوجده مضطجعا على احدى الأرائك وقد ظهرت عليه آثار الاعياء ، وكسا وجهه الشحوب .

.. وبعد أن فحصه وسأله عما يشكو منه ، تبين له من أعراض المرض أن نابليون كان مصابا بداء الكبد .. فلما أتم فحصه وغادر بيت الامبراطور ، كتب تقريرا ذكر فيه أن المريض كان فى حالة هزال متناهية ، وانه كان يعانى آلاما فى الكبد ، مصحوبة بصداع ودوار شديدين .. على أن الحاكم ما كاد يعلم بمضمون التقرير ، حتى استدعى « ستوكوى » وأمره بالعدول عن قبول مهمته الجديدة ، وبعدم مقابلة نابليون مرة أخرى ! .. وكان سبب ذلك الأمر المفاجىء واضحا ، فقد قرر الحاكم ابعاده حتى لا يفسد عليه خطته ويعطل مشروعاته التى كانت تهدف الى القضاء على نابليون ! ويبدو أن ستوكوى قد فطن الى هذه الحقيقة ، فطلب احالته الى التقاعد ، وغادر سانت هيلانة عائدا الى أوربا !

بداية النهاية !

● **وفى** يوم ١٨ سبتمبر عام ١٨٢٠ ، دخل مرض

الامبراطور مرحلة جديدة طويلة ، استمرت نحو خمسة اشهر ، حتى أواخر شهر فبراير عام ١٨٢١ . وبعد هذه المرحلة ، طرأ تحسن عابر على صحة نابليون ، **حتى اذا حل يوم ١٧ مارس ، عاد الى ملازمة الفراش ، ولم يقدر له أن يبارحه بعد ذلك قط !**

ويقول « مارشان » في وصف هذه الحقبة من حياة نابليون ، أن سيده صار يجد مشقة كبيرة في القيام بنزهاته اليومية ، سواء بالعربة أو سيرا على الأقدام . وانه كان يعود منها دائما وقد استبد به التعب والاعياء .. **وكان يشعر ببرودة شديدة في قدميه ، فلا يستطيع تدفئتهما الا بدسهما بين اللفافات الساخنة ، التي كان يؤثرها على سائر وسائل التدفئة الأخرى ..**

واستطرد « مارشان » يروي في مذكراته كيف أن نابليون حاول ذات يوم أن يستنشق الهواء بالتريض في الحديقة أو القيام بنزهة قصيرة بالعربة . لكنه ما ان وصل الى العربة حتى انتابه الدوار ، فاذا به يهوى الى الأرض فجأة ، فهرع الخدم اليه وعاونوه على النهوض ، ثم أعادوه الى فراشه . ولما استرد الامبراطور أنفاسه ، نظر الى مارشان ، وكان يقف بجواره ، وقال له : **« انك تردني الى الحياة .. واحسب أن هناك أزمة في الطريق ، اما أن تنقذني .. أو تقضي علي ! »**

ومنذ ذلك الحين ، بدأ مرض نابليون يتخذ صورة جديدة : فقبل ذلك ، لم تكن آلام المعدة واضطراباتها هي أبرز ما يعاني منه ، فاذا بها تصير — فجأة — ظاهرة تلح على نابليون ، ولا تكاد تفارقه !.. **ويبدو ان الجناة كانوا قد رأوا اذ ذاك أن الوقت قد حان كي يدخل الامبراطور المرحلة الأخيرة من حياته !** .. فقد راح يتقيأ بشكل عنيف متلاحق ، على نحو يدل على زيادة ضخمة في مقدار السم الذي كان لا ينفك يجرعه منذ أمد طويل ، على غير علم منه !

الشك يحوم حول « ياور » الامبراطور !

● **وبعد** سفر الدكتور « ستوكوى » ، كان لا بد من تعيين طبيب آخر ليخلفه في مهمته .. وحين وقع الاختيار على طبيب الحامية الانجليزية الدكتور « ارنوت » ، استشاط « نابليون » غضبا ، ورفض ـ كعادته ـ قبـــول أى طبيب موفد من قبل حاكم الجزيرة !.. ومضى الجنرال « مونتولون » ـ ياور الامبراطور ـ يحاول اثناءه عن عزمه ، لكن جهوده باءت بالفشل ، فطلب الى كبير الخدم « مارشان » ، في ليلة ٣١ مارس ، فيما لو سأله الامبراطور النصح بشأن رأيه فى تعيين الطبيب الانجليزى ، أن يؤيد هـــذا الاجراء بكل قواه ، « والا لما توانى الحــاكم عن اقتحــام غرفة الامبراطور حتى يستوثق من وجوده ! »

على أن ثمة أدلة عدة تؤكد أن « هدسون لو » كان على علم تماما بأن نابليون طريح الفراش ، وان حالته الصحية سيئة للغاية ، مما جعله لا يفكر مطلقا فى اقتحام غرفة المريض الكبير . **ومن هنـــا يتضح أن « منتولون » لم يكن صـادقا فيما ساقه من مزاعم أمام كبير الخدم ، فما السر فى موقفه هذا ؟.. وأى شيء دفعه الى سلوك ذلك السبيل الملتوى ؟**

ان لرواية الجنرال « منتولون » ، ياور الامبراطور في (سانت هيلانة) ، أهمية بالغة فى هذا الصدد ، اذ هى تساعد على القاء ضوء كبير على حقيقة المأساة التى اكتنفت ساعات « نابليون » الأخيرة :

من ذلك أن « منتولون » يقول فى مذكراته أن تشخيص الدكتور « ارنوت » لمرض الامبراطور تضمن أن المرض كان بالغ الخطورة ، وان المريض كان يشــكو من احتقــان حاد حول بطنه .. فى حين أن الحقيقة كانت مغايرة لذلك ، اذ يؤخذ من مذكرات سائر الشهود الآخرين أن « ارنوت » لم يعتقـــد مطلقا أن « نابليون » كان فى حالة خطيرة !!

ويزعم الجنرال كذلك أنه فى يوم ١٠ ابريل عام ١٨٢١ ، فاتحه نابليون ـ لأول مرة ـ فى أمر وصيته ، وضرورة الانتهاء من كتابتها على وجه السرعة .. فلما حاول اليساور اقناع الامبراطور بأن ليس ثمة ما يدعو الى هذا الذى يفكر فيه ، وانه سابق لأوانه ، أجابه نابليون فى اصرار : ((**بل ساكتب وصيتى غدا ، اذا استمرت حالتى فى التحسن .**)) .. والذى حدث فى حقيقة الأمر ـ طبقا لما رواه شهود سانت هيلانة الآخرون ـ انه فى يوم ٣ أبريل ، **كان ((منتولون)) نفسه هو الذى فاتح نابليون فى أن أيامه قد أصبحت معدودة ، وان الوقت قد حان لكى ((يرتب أموره)) !**

.. حتى اذا حل يوم ١٤ ابريل ، استدعى الامبراطور ياوره وقال له : « سأملى عليك اليوم رغباتى الأخيرة ، فلتعد الى عند الظهر » .. وعندما أقبل « منتولون » فى الموعد المحدد ، **طلب اليه الامبراطور ان يغلق باب الغرفة ، ثم أملى عليه وصيته لمدة ساعتين كاملتين دون توقف** .. وأخيرا طلب اليه أن يقرأ ما كتب ، فلما فرغ الجنرال من القراءة ، سأله نابليـون : « هل تريد أن أوصى لك بنصيب أكبر ؟ » .. فأجابه بالنفى !

ومما سجله « منتولون » فى مذكراته ، يتبين ـ فى جلاء ـ انه قد حرص على تبرير ما حدا بالامبراطور الى تمييزه فى وصيته على « برتران » كبير الياوران ، فاذا هو يؤكد أن هذا التمييز انما يرجع الى أن الامبراطور لم يكن ليرتاح الى « الآراء الأرستقراطية » التى كان يعتنقها « برتران » !

وقد حاول « منتولون » أن يثبت كذلك أنه ليس هو ـ كما أشيع ـ الذى سعى حتى جعل الامبراطور يحابيه فى وصيته ، بل ان نابليون هو الذى اتخذ هذا القرار من تلقاء نفسـه ..

وايا كانت الأسباب ، فالمؤكد أن منتولون قد حرص على

تدبير الأمر ، بحيث لا يكون هناك أحد سواه بجوار نابليون ، فى ساعاته الأخيرة !.. وبذلك يصبح هو فى نظر الجميع الشاهد الوحيد الذى يعتد بشهادته بصدد الحدث الكبير ..
لذلك ، يحق للمرء أن يتساءل : ترى ما الذى جعل « منتولون » يحرص كل هذا الحرص على ابعاد جميع أفراد حاشية الامبراطور عن حجرة المريض المحتضر ، فى أيامه الأخيرة ؟ !

نهاية الآلام !

● **وأخيرا** ، قدر لآلام الامبراطور أن تصل الى نهايتها .. ففى يوم ٤ مايو عام ١٨٢١ ، استيقظ نابليون من نومه وقد احس بظمأ شديد يلهب حلقه .. فلم يكد يتناول قليلا من الماء والنبيذ حتى لفظ كل ما شرب ، وانتابته شهقة حادة متواصلة . ثم لبث ساكنا بلا حراك ، لكنه سرعان ما أخذ يهذى ، ويتفوه بكلام متقطع ، وألفاظ غير مفهومة .. وفى فجر اليوم التالى ، كان مستلقيا فى فراشه ، وقد راح فى غيبوبة تامة ، لا يأتى فيها بحركة تدل على أنه لا يزال على قيد الحياة .. باستثناء بعض تنهدات كانت تصدر عنه ـ بين الفينة والأخرى ـ فى ضعف ووهن ..

.. وفى الساعة الخامسة والدقيقة الخمسين من مساء ذلك اليوم ـ ٥ مايو عام ١٨٢١ ـ وفى اللحظة التى كان فيها المدفع يعلن غروب الشمس ، واحتلال الحراس لمراكزهم اليومية ، لمنع الامبراطور من الفرار ، كان « نابليون بونابرت » يلفظ آخر أنفاسه !

ومن تشريح جثة نابليون ، برزت فى جلاء حقيقة هامة ، على نحو لا يدع مجالا لأى شك ، هى أن الامبراطور كان قد اصيب بالفعل بنزيف خطير فى المعدة .. فلقد أثبت التشريح أن المعدة كانت تحوى كمية كبيرة من مادة أشبه بحثالة حبات البن . **ولم يكن هذا النزيف المعدى ناجما عن أية اصابة**

سرطانية ، ولا عن اية قرحة عادية فى المعـدة ، وانمـا جاء نتيجة تآكل كامل فى الجدار المعدى ، وهى ظاهرة لا يحدثها الا تسمم زئبقي خطير !

.. واذن فالسبب المباشر الذى أفضى الى وفاة نابليون كان هو التسمم بمادة الزئبق .. ومع أن الجثة كانت تحوى آثارا واضحة لتسمم مزمن بالزرنيخ ، الا أن هذه الآثار لم تكن من الاستفحال بحيث تؤدى إلى موت سريع... وكان واضحا ـ بالاضافة اليها ـ وجود حالة تسمم حادة جديدة بالزئبق !

يرفضون ارسال قلبه الى زوجته !

● **وقد** منع الحاكم الانجليزى تحنيط الجثة ، رغم أن الامبراطور كان قد أوصى بتحنيط قلبه وارساله الى زوجته « مارى لويز » . وعندما أراد « انتومارشي » الاحتفاظ بمعدة نابليـون كى يحملها معـه الى أوروبا لاجراء ابحاث عليها بالاشتراك مع زملائه ، رفض طلبه ، ولم يصدر الرفض هذه المرة من الحاكم ، بل صدر من « برتران » و « منتولون » ، رفيقى نابليون وتابعيه !

ثم أصـدر الحاكم أوامره للأطباء الانجليز بعدم السماح بانتزاع اى شيء من الجثمان .. فوضعت المعدة والقلب فى اناءين فضـيين مملوءين بالكحول ، ثم لحم الاناءان باحكام ووضعا فى التابوت .

وقد أودع جثمان نابليون تابوتا من الحـديد الأبيض ، أغلق بابه باللحـام ، ثم أدخل فى تابوت ثان من خشب المهوجانى ، وضع بدوره فى داخل تابوت ثالث من الرصاص . وكان الغلاف الخارجى تابوتا رابعا من خشب المهوجانى ، ثبت غطاؤه بمسامير فضية .. ولم يقرر الانجليز تخفيف الحراسة على الجثة الا بعد أن تم لحام التابوت الرصاصى !

واختير للمقبرة مكان يقـع على مقربة من جدول مائى

رقراق ، كان يشرب منه الامبراطور المريض كل يوم . وقد أطلق على هذه البقعة ، منذ ذلك الحين ، اسم « **وادى زهرة الجيرانيوم** » .

وبعد تسعة عشر عاما من وفاة نابليون ، استخرج التابوت من المقبرة ، وأعيد فحص الجثة ، للوقوف على ما عساه يكون قد طرأ عليها من تغييرات . **وكم كانت دهشة الطبيب الذى أشرف على العملية ، حين تبين أن الجثة كانت سليمة تماما ، ولم تتعرض لأى تحلل أو عفن ، بالرغم من كل ما تضمنه محضر تشريح الجثة ، عقب الوفاة** . على أن الطبيب ما لبث أن عزا هذه الظاهرة الى نوع المقبرة واحكام التوابيت ، التى استطاعت أن تصون الجثمان وتحافظ عليه ردحا طويلا !

والواقع أن هناك تفسيرا علميا هاما ، يعلل الصورة السليمة التى وجدت عليها رفات نابليون ، رغم عدم صونها بالتحنيط .. **ذلك أنه من المعروف طبيا أن جثث الأشخاص الذين يلقون حتفهم نتيجة تسممهم بالزرنيخ ، تبقى على حالتها وتحتفظ بكيانها طويلا ، بشكل يدعو الى الدهشة والاستغراب !**

لم تكن للانجليز مصلحة فى اغتياله !

● **وهكذا** يبدو جليا اليوم ، بصورة قاطعة ، أن « نابليون بونابرت » قد مات مسموما ، وان تهمة الاغتيال التى كان هو قد جهر بها أمام التاريخ ، تستند الى أسس من الحقيقة والواقع .. بحيث يمكن الجزم بأنه انما قتل قتلا بطيئا ، محكما ، مع سبق الاصرار ! .. **ولكن المهم فى الأمر هو تبين ما اذا كان الانجليز هم الذين قتلوه ، أم سواهم !**

لو احتكمنا الى المنطق ، فانه لايبدو أن الحكومة الانجليزية كان من مصلحتها فى شىء القضاء على نابليون !.. ولعل

الحاكم « هدسون لو » قد أصاب كبد الحقيقة حين ذكر أن بقاء أسير (سانت هيلانة) في قبضته انما كان يزود الحكومة الانجليزية بمفتاح يجعلها تتحكم في توجيه التيارات السياسية الكبرى . **فقد كان نابليون بمثابة ((رهينة ثمينة)) ، بات في مقدور الانجليز استغلالها ضد الدول الأخرى الأعضاء في ((الحلف المقدس)) ، وخاصة ضد فرنسا !** وطالما كان الانجليز « واضعين أيديهم » على الامبراطور ، كان من الميسور عليهم التفاوض مع (باريس) واملاء شروطهم عليها ، ولا سيما فيما يتعلق بمسألة الرسوم الجمركية . .

الشعب الانجليزي يرى فيه بطلا صنديدا !

● **وثمة** سبب آخر يهدم ــ من الأساس ــ فكرة تدبير « الحكومة الانجليزية » لاغتيال نابليون : اذ ما ان أعلن نبأ نفي الامبراطور المعزول الى جزيرة (سانت هيلانة) ، حتى تحول الرأي العام الانجليزي عن موقفه السابق ، المعادي للزعيم الفرنسي ، الى موقف ينطوي على العطف عليه والتأييد له ، بل واعتباره بطلا مغوارا ، جديرا بالتمجيد والخلود !. . ولما علمت (لندن) بوفاة الامبراطور ، انتشرت اللاصقات في كل مكان ، تدعو جميع المعجبين بالقائد الفرنسي الراحل الى ارتداء ملابس الحداد !. . بل لقد حدث ذات مرة ، اثناء سنوات الأسر ، أن عرض أحد الضباط الانجليز أن يمهد أمام نابليون سبيل الفرار !. . فلما أبدى أحد أتباع الامبراطور دهشته لهذا التصرف ، الذي عرضه الضابط بغير مقابل ، أجابه هذا بقوله : **((كيف تقول ان ذلك (بغير مقابل) يا سيدي ؟ !. . أتراك لم تحسب حسابا للشرف الذي سيعود على من جراء اقتران اسمي بانقاذ بونابرت ؟))**

ومن ثم ، لم تكن « الحكومة » الانجليزية لتجسر ــ حتى ولو رغبت في ذلك ــ على أن تمس الامبراطور بسوء ،

على الأقل بدافع الخشية من « رد الفعل » لدى الرأى العام الانجليزى ، الذى كان نابليون يتمتع بينه بشعبية حقيقية ، لا يسهل محوها ! .

دور أسرة ((البوربون)) !

◉ **على أن** هذا الموقف من جانب الحكومة البريطانية ؛ كان يختلف على خط مستقيم مع موقف حكومة أسرة « البوربون » المالكة فى فرنسا ، فقد كان الوضع بالنسبة لهذه الأخيرة على هذا النحو : طالما كان نابليون على قيد الحياة : كانت الملكية الفرنسية فى خطر دائم ، ومعرضة للانهيار فى أية لحظة !.. حتى **لقد كانت الحكومة الفرنسية تشعر بانزعاج بالغ ، خشية أن يتهاون الانجليز فى حراستهم للامبراطور الأسير !** ولعل هذا ما دفع وزير خارجية فرنسا فى ذلك الحين الى أن يقول للسفير الفرنسى فى لندن : « لو قدر لنابليون أن يهرب من جزيرة (سانت هيلانة) ، لكان هذا سببا فى اضطرابات لا حد لها فى وطننا التعس .. **وانه لمن المحزن حقا أن يبقى هذا الرجل بين أيدى شعب ، قد ينجم عن تغيير حكامه تدبير مؤامرات تفضى الى اعادة نابليون الى مسرح الأحداث العالمية مرة أخرى ! »** .

وكان لفرنسا مبعوث خاص فى (سانت هيلانة) يدعى « الماركيز دى مونشينو » ، وكان رجلا معروفا بعدائه الشديد لنابليون .. على أنه كان على درجة من الحماقة ، وضيق الأفق ، وضآلة التفكير ، يستبعد معها أن يكون قد قام بأى دور رئيسى فى مأساة سانت هيلانة .. ولعل شخصا آخر فى فرنسا كان يقف وراءه ليمسك بجميع الخيوط ، هو **((تاليران))** وزير خارجية نابليون السابق الذى انقلب عليه منذ عام ١٨٠٩ وأعد قرار مؤتمر (فيينا) القاضى بعزل نابليون عن الانسانية ، بل و « قتله » اذا استلزم الأمر !

على أن هناك واقعتين تبرئان ساحة « دى مونشينو » ، وتبعدان عنه تهمة الاشتراك فى وضع السم للامبراطور : أولاهما ، انه لم يكن فى وسع المبعوث الفرنسى الاقتراب من « نابليون » أو مقابلته ، على حين أن دس السم كان لابد أن يتولاه رجل يعيش على مقربة من الامبراطور بصفة دائمة . والواقعة الأخرى ، أن عملية التسميم كانت قد بدأت بالفعل قبل وصول « دى مونشينو » الى الجزيرة ، اذ أنه وفد الى سانت هيلانة بعد اربعة أشهر من ظهور أول أعراض التسمم على نابليون !

الشبهات تحاصر الجانى !

● وليس من شك فى ان قاتل نابليون كان يقيم فى سانت هيلانة منذ اواخر شهر نوفمبر عام ١٨١٥ ، ولابد أنه كان على اتصال بالامبراطور اثناء مراحل المرض المختلفة .. وكان فى مقدوره أن يكون موجودا فى غرفة نابليون ، فى الوقت الذى كان فيه الجميع بعيدين عنها !

ولم يكن فى سانت هيلانة سوى أربعة أشخاص تنطبق عليهم هذه الظروف ، وهم : الجنرال « منتولون » ، ياور الامبراطور ، و « مارشان » كبير الخدم ، و « نوفيراز » ، و « سان دينيس » الخادمان .. ومن هؤلاء الاربعة ، يجب استبعاد الثلاثة الاخيرين ، الذين كان حبهم وولاؤهم للامبراطور فوق الشبهات ، كما دلت القرائن والملابسات على استحالة ارتكابهم للجريمة .. فلم يبق سوى الجنرال الكونت « منتولون » ياور نابليون الذى تدينه الملابسات وتنحصر فيه الشبهات : ويبدو انه اضطر الى التوقف عن دس السم للامبراطور حين تولت حكم فرنسا وزارة « ديكاز » الذى كان رجلا معتدلا سبق له العمل فى خدمة والدة نابليون وكان يكن لها تقديرا واعجابا بالغين .. وهكذا تحسنت صحة بونابرت ، حتى بدا كانه شفى تماما ، خلال الفترة من اكتوبر ١٨١٩ الى اكتوبر ١٨٢٠ ، وهى المدة التى بقيت فيها وزارة « ديكاز » فى الحكم ! .. وكلها ملابسات توحى بمسئولية أسرة البوربون وحكومة فرنسا عن استخدام عميلها « منتولون » للقضاء على حياة غريمها نابليون !

ومن الملابسات الاخرى التى تزيد التهمة التصاقا ب « منتولون » ان صحة نابليون تحسنت ايضا فى مناسبة اخرى : اذ لم يكد يعلن اعتزامه

تعديل وصيته الاولى التى كان قد ترك فيها أنصبة متساوية لأتباعه ، حتى طرا تحسن واضح على صحتــــه ، استمر طوال الفترة التى قضاها نابليون ومنتولون فى اعداد الوصية الجديدة ، التى خرج منها منتولون باكبر نصيب من ميراث الامبراطور !

وعندما فرغ نابليون من املاء وصيته وتوقيعهـــا ، التفت الى منتولون قائلا : « والآن يابنى ، أليس من المؤسف حقا الا يموت المرء ، بعد أن دبر شئونه على هذه الصورة الرائعة ؟ » .. فلم يكد يحل مســاء ذلك اليــوم نفسه ، حتى أصيب الامبراطور بنوبة حادة خطيرة ، صارت تتفاقم يومــــا بعد يوم ، حتى لفظ انفاسه الاخيرة بعد أسابيع !

ومما يزيد فى الصاق التهمة بالجنرال منتولون ، انه أوحى فى مذكراته بان نابليون مات بالسرطان ، فقد زعم فيها ان الامبراطور بدأ يفقد بدانته بشكل ظاهر منذ أوائل فبراير ١٨٢١ ، وان معدته بدأت تنزف دما منذ ١٧ مارس من نفس العام .. فى حين أن هذه الاعراض لم تظهر عليه حقيقة الا فى أيامه الاخيرة ! .. كذلك زعم أن نابليون كان يقوم بنزهات طـــويلة على صهوة جواده ، فى فترة كانت ساقا الامبراطور خلالها ـ بشــــهادة الجميع ـ من الضعف والهزال بحيث لا تكادان تقويان على حمـــله ، بسبب البرودة القاسية التى كانت تسرى فيهما ، والتى هى من أعراض التسمم البطىء !

.. وقد اغفل الياور الاشارة الى هذه البرودة فى مذكراته ، رغم انه تحدث عنها الى حاكم الجزيرة « هدسون لو » ، معللا اياها بمرض فى القلب ! .. وعندما نشر منتولون مذكراته فى عام ١٨٤٦ ، كان جميع شهود سانت هيلانة قد لاقوا ربهم ، باستثناء واحد فقط هو « مارشان » كبير الخدم ، فكتب الاخير فى مذكراته يقول ان ذاكرة منتولون قد « خانتــــه » فى عدد كبير من النقاط الهامة ، وانه وعده باصدار طبعة جـــديدة منقحـــة من مذكراته ، بالتعاون معه .. لكن المنية عاجلت « منتولون » قبل أن يحقق وعده !!

على أن هذه القرائن كلها ليست أكثر من شـــبهات ، لا تمكننـــا من « الجزم » بأن منتولون ـ بالتحديد ـ هو القاتل .. كما يتعـــذر تحديد « المحرض » الذى سخر القاتل للقضاء على حيـــاة نابليون .. وان أمكن القول بأن ساسة أوربا من أعضاء مؤتمر (فيينــــا) هم جميعا « محرضون أصليون » ، لأنهم أصدروا قرارا بحرمان عدوهم اللدود من « حماية القانون »

.. أما من الشخص الذى استخدم فى « تنفيذ » الجريمة ، فلعل الايــــام تساعد على كشف النقاب عنه بصورة مؤكدة ، بفضل جهـــود المحققين ، وسعيهم الدائب للتأكد منه !

لعنة نابليون تلاحق ((المتهم البرىء)) !

● واما حاكم (سانت هيلانة) الانجليزى ((هدسون لو)) ، الذى اتهمه نابليون فى كل مناسبة بالسعى الى ((قتله)) ، فتكاد جريمتـــه تنحصر فى ((الخشونة)) و ((سوء المعاملة)) ، والطريقة الخرقاء التى نفذ بها تعليمات حكومته ب ((حراســـة)) الاسير الخطير ! .. وقد عاقبه الشعب الانجليزى نفسه على سوء تصرفه ، فحفلت مذكراته بالأنين المتواصل ، والشكوى المرة ، من المعاملة السيئة التى لقيها فى انجلترا بعد عودته من (سانت هيلانة) .. فلقــد اراد المثول بين يدى الملك ((جـورج الرابـع)) ، لكن امين القـصر استقبله فى خشونة بالغة ، وابلغه ان الملك يرفض مقابلته .. وحدث بعد ذلك ان طلب الانضمام الى نادى الضباط ، الا ان طلبه رفض باجماع الاصوات . وكان فى كل مكان يمضى اليه ، يقابل بعاصفة من السباب والشتائم ،حتى لقد اطلق عليه الانجليز وصف ((القاتل)) ، مما حدا به فى النهاية الى مغــادرة انجلترا والرحيل الى (سيلان) !

.. لكنه لم يجد فى (سيلان) الاستقبال الذى كان يحلم به ، فســـافر الى (بومباى) ، ثم غادرها الى جزيرة (موريس) ، فوصل الى هناك فى مايو ١٨٢٨ .. وذات يوم خطر له أن يذهب الى احد المسارح ، فتلقى ((تحذيرا)) بانه اذا نفذ ما اعتزمه ، فان جميع النظارة سيغادرون القاعة عائدين من حيث أتوا ! .. فلما أبحر اخيرا راجعا الى بلاده ، تبعته جموع حاشـــدة راحت تصيح مزمجرة ، وهى تشير اليه : ((انظروا الى جلاد (سانت هيلانة) ! .. اشنقوا المجرم ! .. الى قاع البحر ، ايها الوغد !)) .. حتى لقد عمد ياوره الخاص الى تحطيم سيفه على رؤوس الاشهاد ، لاعنا الظروف التى وضعته تحت امرة شخصية أصبحت موضع ازدراء الناس جميعا !

وحين وصل ((هدسون لو)) الى انجلترا ، حاول الحصول على وظيفــة حكومية ، ولكن دون جدوى .. فلما أعياه السعى ، اسقط فى يده ، فقرر فى النهاية الانزواء فى احدى المدن الصغيرة ، حيث عاش بقية أيامه متخفيا تحت اسم مستعار !

....

بيجماليون

"سيدتي الجميلة"

المسرحية الخالدة لبرنارد شو



PYGMALION : BERNARD SHAW

(ORIGINAL OF THE MUSICAL PLAY : MY FAIR LADY)

تلخيص وتعليق : الدكتور لويس عوض

هذه المسرحية الخالدة ..

● شهد العالم منذ عامين الفيلم الغنائى الناجح « سيدتى الجميلة » My Fair Lady الذى تقاسمت بطولته النجمة الحسناء « اودرى هيبورن » (فى دور « اليزا دوليتل ») مع الممثل القدير « ركس هاريسون » (فى دور « البروفيسور هيجنز ») . ومن قبل مثلت المسرحية الغنائية المذكورة على مسارح لندن ، لعشرات السنين .. والفيلم والمسرحية مقتبسان من مسرحية « برنارد شو » الخالدة « بيجماليون » ، التى يعرضها ويلخصها لك الاستاذ الدكتور لويس عوض فى الصفحات التالية :

● فى عام ١٩١٢ وضــع « برنارد شو » مسرحيتــه المشهورة « بجماليون » ، بعــد أن ظلت فكرتها تتردد فى ذهنه خمسة عشر عاما . وقــد بنــاها على الأســطورة اليونانية القديمة التى مؤداها أن فنانا يدعى « بجماليون » وفق الى صنع تمثال امرأة جميــلة ســماها « غلاطيــة » . وعشق الفنان صنع يديه فتمنى على الآلهة أن تنفخ فيها الحياة ، فاستجابت الآلهة لدعائه .. وقيل انه ندم على ذلك !

ومسرحية « بجماليــون » من أخصب مسرحيــات برنارد شو : فموضوعها متعدد النواحى ، وهو يحتمل أكثر من تأويل . فهو من ناحية اجتماعية يثبت ان الفوارق بين طبقات المجتمع فوارق مكتسبة ، اهمها استــعمال اللغة وآداب السلوك . فاذا قيض لاحقر حقير ان يتعلم النطق السليم ، وأن يتدرب على آداب السلوك ، لمــا كان هناك فرق جوهرى بينه وبين اعظم عظيم فى المجتمع . وهو من ناحية انسانية يصور العلاقة بين العالم أو الفنان الخالق

وبين صنع يديه !.. ان هناك علاقة أبدية بين الخالق وما خلق ، هي حب الأب لما انجب من ولد ، وكل خالق يرى صورته فيما خلق .

ولكن المشكلة الكبرى مشكلة حدود : فكما أن الحدود مرسومة وواضحة بين السماء والأرض ، فان الحدود مرسومة وواضحة بين كل عبقرى خالق وما خلق . ومن تجاوز هذه الحدود هلك .

وانما يسعى العبقرى الخالق ليرفع ابناء الأرض الى سمائه . وهو يقبل أن يجاورهم اذا رضوا أن يتجردوا من أدران المادة ومن أوحال الأرض ليعيشوا معه فى سمائه .

أما سماؤه فباردة لا دفء فيها ولا حياة ، لأنها سماء الفكر المجرد التى لا مكان فيها لعواطف الانسان ولا لمطالب الجسد .

وهذه هى المشكلة التى تجابه الانسانية : كيف تصعد الى الذرا الصافية دون أن تتجرد من سحر الحياة .

والحل ؟ الحل لا يزال بعيدا .

لأن غلاطية لم ترتق الا درجة واحدة من هذا السلم الطويل .. ثم خافت من الصفاء المطلق فهربت الى عالمها الأول !



● **نحن** الآن فى (كوفنت جاردن) ، وهو حى من أحياء لندن ، حيث دار الأوبرا تجاور سوق الخضر وكنيسة « سانت بول » . وقد تجاوزت الساعة الحادية عشرة مساء ، وانصرف النظارة عن دار الأوبرا ، وتفتحت مزاريب السماء فانهمرت الأمطار بغزارة ، وهرع السابلة الى مدخل الكنيسة ليحتموا بين أعمدة المدخل من البروق والرعود ومن ماء السماء .

وعلى درج الكنيسة ، وبين أعمدة مدخلها ، اختلط علية القوم لابسين ثياب السهرة ، بأوساطهم وسفلتهم ، وكلهم مشغول بهذا الجو المطير ، الا رجلا واحدا بينهم أدار ظهره للجميع وذهب يدون فى مذكرته أشياء فى انهماك تام ، وكان هذا هو الأستاذ « هنرى هيجنز » ، وهو علامة فى الأربعين من عمره تفقه فى « الفونطيقا » أى علم الأصوات .

ومن الواقفين سيدة من الوجهاء الفقراء هى مسز « اينسفورد هيل » ، وابنة لها هى « كلارا » ، كثيرة التأفف ، تتشبه ببنات المجتمع ، وابنها الشاب فريدى وهو فى العشرين من عمره ، وقد أرسلته السيدتان ليبحث لهما عن تاكسى ليعودا به الى دارهما ، فعاد اليهما مبتلا بماء المطر ، دون أن يوفق فى مسعاه .

وتعنف السيدتان فريدى لأنه فشل فى بحثه عن تاكسى ، وتلحان عليه فى أن ينطلق من جديد ليعيد البحث ، فينطلق المسكين وقد فتح مظلته ، ولكنه يصطدم فى طريقه ببنت من بائعات الزهور ، فتسقط منها سلتها وتقع منها بعض زهور البنفسج فى الأوحال . ويعتذر لها فريدى ثم يمرق كالسهم ليجدد بحثه عن تاكسى .

وتحتج بائعة الزهور على هؤلاء الوجهاء الذين أتلفوا بعض زهورها ، ويعلو صوتها مطالبة بثمن ما تلف ، بعبارات بلدية شائقة ، وبلهجة بلدية صادرة من أعماق أحياء الفقراء بلندن ، فتخرج الألفاظ من فمها منكرة النبرة ، ممطوطة السواكن ، مأكولة المتحركات ، مجوفة النطق ، كأنها عواء حيوان ثائر ، حتى لتبدو متعة للسامعين . **انها « اليزا دوليتل » ، بائعة الزهور الجميلة التى لم تتجاوز ثمانية عشر ربيعا ، وقد وقفت بشعرها المنفوش بين أعمدة**

الكنيسة ، فى ثوبها القذر ، ومعطفها الذى تراكم عليه غبار لندن .

وتحاول السيدة أن تهدىء من ثائرتها ، فتعوضها عما تلف من زهور بستة بنسات كاملة . وهنا ينضم الى الجماعة سيد آخر فى ثياب السهرة متقدم فى السن يبدو عليه أنه من العسكريين ، واسمه الكولونيل « بيكرنج » ، وهو ينـدس بينهم اتقاء للبلل . وتعرض عليه البنت « اليزا » زهورها ، فيردها عنه برفق ، فليس فى جيبه فكة . وتلح « اليزا » فى العرض ، فيصرفها ببنس ونصف هى كل ما وجده فى جيبه من نقود صغيرة .

وهنا يتدخل رجل من الواقفين وينبه البنت أن تعطى السيد زهرة لقاء ما أخذت من مال ، حتى لا يظن أحد أنها شحاذة تتوسل للشحاذة ببيع الزهور . ويحذرها من الرجل الواقف خلفهم الذى يدون كل كلمة تقولها فى مذكرته ، فهو لا شك من رجال البوليس السرى ، والا لما اهتم بتدوين ما يقوله الناس !

وتتجه جميع الأنظار الى الرجل المنهمك فى تدوين مذكراته ، فتجزع اليزا وتحاول أن تثبت للجميع انها بنت شريفة ، وانها لا تقصد سوءا من حديثها مع السيد العجوز . وتثور ثائرة الواقفين دفاعا عن البنت المسكينة التى لم ترتكب جرما حتى يلاحقها هذا الجاسوس على هذا النحو ــ فقد حسبوا الأستاذ هيجنز مخبرا متربصا لها ! ــ ويحاول الأستاذ هيجنز أن يهدىء من ثائرتها ومن ثائرة الجمع الهائج بسبب تدخل البوليس فيما لا يعنيه ومصادرته أرزاق الفقراء ، فيوضح لهم أنه ليس من رجال البوليس ، ويطلع اليزا على مذكرته فلا تجد فيها كلاما

مفهوما ولكن تجد فيها خطوطا وعلامات وحروفا لا سبيل الى قراءتها ، فتعجب لذلك ويعجب معها الواقفون . ولكن الأستاذ هيجنز يقرأ عليهم ما كتب مقلدا نطق اليزا تقليدا لا تحريف فيه . فعلماء الأصوات قد اصطلحوا على حروف الهجاء غير ما اصطلح عليه الناس لتحديد اللهجات وتسجيل الفوارق فى النطق مهما كانت طفيفة .

ولا تهدأ ثائرة اليزا لما رأت ، بل يزداد اضطرابها ، ويزداد اضطراب الجميع ، فينبرى منهم من يسب الأستاذ هيجنز : فمنهم من يصر على انه جاسوس يبالغ فى التفانى سعيا وراء الترقية .. ومنهم من يذهب الى انه مجرد رجل فضولى هوايته مضايقة الناس .. وكل ينطق بلهجته الخاصة ، والأستاذ هيجنز يستمع اليهم فى شغف واهتمام . وهذا لون من الحديث الذى جرى :

الواقف : انه ليس مخبرا . انه فضولى سخيف . نعم انه فضولى . ثقوا من ذلك .. انظروا الى نعليه .

كاتب المذكرات (يلتفت اليه فى لطف) : وكيف حال اهلك جميعا فى حى (سلسى) ؟

الواقف (وقد اخذه الشك) : ومن قال لك ان أهلى من حى سلسى ؟

كاتب المذكرات : هذا لا يهمك . انهم من حى سلسى **(ملتفتا الى البنت)** ماذا جاء بك الى أطراف لندن الشرقية وانت مولودة فى حى (ليسون جروف) ؟

بائعة الزهور (مرتاعة) : وأى ضرر هناك فى تركى (ليسون جروف) ؟ انه كان حيا قذرا لا يليق بخنزير أن يعيش فيه ، وكنت أدفع ايجارا قدره أربعة شلنات وستة بنسات أسبوعيا **(تبكي)** اهىء .. اهىء .. اهىء .. اهىء !

كاتب المذكرات : عيشى اينمــا اردت ولكن كفى عن اصدار هذه الأصوات !

ولكن اليزا تمضى فى الدفاع عن نفسها كأنهــا موضع اتهام . فهذا الرجل العجيب يعرف شــيئا عن منبتها وتنقلاتها كأنه يتعقب آثارها . ويطمئنها السيد العجوز فى حنان أبوى فلا تطمئن ، بل تمضى فى التنديد بهذا الرجل الذى يتدخل فيما لا يعنيه .

ويغتاظ احد الواقفين فيتحداه قائلا :

ـــ اتعرف من اى مكان انا ؟

وما ان يصغى الأستاذ هيجنز اليه حتى يجيب على الفور :

ـــ من (هوكستون) !

ويزداد غضب الجميع على هــذا الرجل الغريب لأن اجابته كانت صحيحة ، ويتأكد فى روع بعضهم انه جاسوس ماهر يتعقب الناس ويعرف كل شىء عنهم ، فيطالبونه بابراز التصريح الذى يخوله أن يتدخل فى شئون الناس . ويتحداه رجل آخر من الوقوف قائلا وهو يشير الى السيد العجوز :

الواقف المتهكم : نعم اخبره من اى مكان هو اذا اردت أن تشتغل بقراءة الغيب !

كاتب المذكرات : انه من (تشلتنهــام) وقد تعلم فى « هارو » ثم درس فى « كمبردج » ثم عاش فى الهند .

السيد العجوز : بالضبط !

وهنا يضحك الجميع ، ويتحول غضب العجوز المتهكم الى اعجاب بهذا الرجل الغريب الذى يعرف كل شىء عن منبت الناس ! ويحسبه حاويا يرتزق من هذه الالعاب فى الملاهى !

وينبه الأستاذ هيجنز الجمع المحيط به الى أن المطر قد انقطع ، فيمضي كل الى حال سبيله ، حتى السيدة وبنتها « كلارا » تنصرفان قبل أن يعود اليهما « فريدى » بالتاكسى . ولا يبقى على درج الكنيسة الا الأستاذ هيجنز والسيد العجوز وبائعة الزهور .

السيد : أتسمح لى أن أسألك كيف تعرف منشأ الناس ؟

كاتب المذكرات : بعلم الأصوات . لا شيء غير علم الأصوات ، علم الكلام . فهذه مهنتى وهى أيضا هوايتى . وما أسعد من يستطيع الارتزاق من هوايته ! بهذا العلم تستطيع أن تميز الايرلندى أو ابن « يوركشاير » بلهجته ! أنا أستطيع أن أحدد مكان اى رجل فى نطاق ستة أميال . بل فى نطاق ميلين فى داخل لندن نفسها ، وأحيانا فى نطاق شارعين !

بائعة الزهور : كان ينبغى أن تخجل من نفسك ، فأنت نذل جبان !

السيد : ولكن أتستطيع أن ترتزق من هذا العمل ؟

كاتب المذكرات : بالتأكيد . بل فيه رزق واسع . فنحن فى عصر المحدثين . فالناس يبدأون حياتهم فى (كنتيش تاون) بدخل سنوى قدره ثمانون جنيها ، ثم ينتهون بالاقامة فى (بارك لين) بدخل سنوى قدره مائة ألف جنيه ! .. ولكن ما ان يفتحوا أفواههم حتى يفتضح منشؤهم . من هذا ترى انى أستطيع أن أعلمهم .

بائعة الزهور : سله أن يعنى بأموره فقط ، وأن يترك بنتا فقيرة مثلى وشأنها .



النجمة العالمية ((جولى أندروز)) والممثل القدير ((ركس هاريسون))
يمثلان (سيدتى الجميلة) على مســارح نيويورك ، فى عام ١٩٥٦

كاتب المذكرات (ينفجر) : اسمعى يا امرأة : كفى فورا عن هذه الأصوات المنكرة أو ارحلى الى معبــد آخر تحتمين فيه .

بائعة الزهور (تتحداه فى ضعف) : من حقى مثلك أن أبقى هنا اذا شئت .

كاتب المذكرات : ان امرأة تنطق بهذه الأصوات المقبضة المنكرة لا يحق لها أن تكون فى أى مكان ، بل لا يحق لهــا أن تعيش . تذكرى انك الانسان ، تشتعل فيه الروح ويسمو بالهبة الالهية «.هبة الكلام !.. تذكرى أن لغتــك هى لغــة « شكسبير » .« وملتون » والكتاب المقــدس ، ولا تجلسى هنالك تهدلين كأنك حمامة ممرورة !

ثم يلتفت الأســتاذ هيجنز الى السيد العجوز ويقول . **« أترى هذه المخلوقة التى تتكلم الانجليزية بلهجة الارصفة ، تلك اللهجة التى ستبقيها فى الأوحال الى نهاية عمرها ؟ أنا مستطيع يا سيدى أن اجعل من هذه البنت دوقة فى حفلة انيقة من حفلات السفراء !** كما أســتطيع أن أجد لها عملا كوصيفة لسيدة أو كبائعة فى حانوت ، وهو أمر يتطلب معرفة بالانجليزية خيرا من معرفتهــا . هــذا بعض ما أعمله مع المليونيرات المحدثين من التجــار . ومن أرباحى التى أجنيها من هذا السبيل أنفق على أبحاثى العلمية فى علم الأصوات ، وأقرض الشعر على طريقة « ملتون » .

السيد : وأنا أيضا أدرس اللهجات الهندية .

كاتب المذكرات (باهتمام) : صحيح ؟ أتعرف الكولونيل « بيكرنج » مؤلف كتاب « السنسكريتيه العامية » ؟

السيد : أنا الكولونيل بيكرنج . ومن أنت ؟

كاتب المذكرات : أنا هنــرى هيجنــز ، مؤلف كتــاب « حروف الهجاء العالمية » .

بيكرنج (فى حماس) : لقد جئت من الهند لأقابلك !

هيجنز : وأنا كنت سأسافر الى الهند لأقابلك !

وهكذا يتعرف الرجلان كل على صاحبه ، بعد أن سمع كل منهما بالآخر كما يسمع العلماء بالعلماء . وينصرفان معا بعد أن يمطرا بائعة الزهور ببدرة من المال لتكف عن شكايتها المستمرة . وما أن ينصرفا حتى يصل فريدى وقد وفق الى اصطياد تاكسى ، فلا يجد السيدة ولا ابنتها . ولكن بائعة الزهور تريحه من الحرج الذى نزل به فتستقل التاكسى وهى تلوح بما لديها من فضة كثيرة ، وتترك فريدى فاغرا فاه من فرط العجب !

— ٢ —

◉ وفى صباح اليوم التالى يزور الكولونيل بيكرنج دار الأستاذ هيجنز فى (ومبول ستريت) ليشاهد معمله . فاذا به يجد معملا مجهزا بجميع الأدوات اللازمة لعلم الأصوات : فهناك فونوغراف واسطوانات من الشمع لتسجيل الأصوات ، وهناك عدد كبير من الشوك الرنانة ، وبيانو ؛ وتمثال يبين مخارج الأصوات فى رأس الانسان . ويعلم بيكرنج من هيجنز أنه قد استطاع أن يميز بين مائة وثلاثين صوتا من أصوات الحروف الساكنة وأن يسجلها بآلاته ، فيعجب لتقدم صاحبه فى علم الأصوات .

وفيما هما يتدارسان هذا الموضوع ، تدخل مسز بيرس ــ وهى المدبرة فى دار الأستاذ هيجنز ــ لتعلن لهما أن بائعة الزهور « اليزا دوليتل » قد جاءت تطلب مقابلة هيجنز . وتدخل اليزا قائلة انها فكرت مليا فيما سمعته من هيجنز فى الليلة السابقة ، وانها قررت أن تتلقى عليه دروسا فى الكلام حتى تتفتح امامها ابواب المستقبل ، فهى لا تريد ان تظل

بقية حياتها تبيع الزهور فى ركن الشارع عند (توتنام كورت رود) ، بل تامل ان يتاح لها فى يوم من الأيام ان تبيع الزهور فى دكان محترم . واذا كان الحاجز الوحيد بينها وبين ذلك هو حسن اللهجة ، فهى قد جاءت لتتلقى دروسا تقوم بها لهجتها ، وهى لم تجىء راجية ولا متطفلة لانها تريد أن تدفع للأستاذ هيجنز أجره على ذلك كاملا ، بل هى على استعداد لأن تضحى بشلن كامل لقاء كل درس تتلقاه !

ويعجب هيجنز و بيكرنج لهذا العرض العجيب ، ويجدان فى كلامها الساذج متعة فائقة . ويجد هيجنز فى شخصية هذه الفتاة الطموحة ، وفى قذارتها الفظيعة ، وفى وضاعتها المتعة ، ما يسحره ! .. ويذكره بيكرنج بقوله فى الليلة السابقة انه مستطيع أن يجعل من بنت الأرصفة هذه سيدة من سيدات المجتمع يراها الناس فى حفلة من حفلات السفراء فيخالونها دوقة من الدوقات !.. **ويتحداه أن يجرب علمه وفنه على هذه الفتاة . فيتراهن على ذلك الرجلان ، ويكون الرهان نفقات التجربة : فان نجحت تكبدها بيكرنج ، وان فشلت خسرها هيجنز !**

وهكذا تبدأ هذه التجربة العجيبة ، ولكن فى جو يخلو من الحرج : فالمدبرة مسز بيرس تحتج على ذلك وتتهم هيجنز بأنه خال من كل شعور انسانى ، فهى مشغولة بمستقبل هذه البنت الساذجة التى تريد أن تخرج من الأوحال . ترى ماذا هو فاعل بها بعد أن تنتهى التجربة ؟ أما هيجنز فله رأى آخر : **انه ينظر اليها نظرة العالم الذى يشرح الحشرات ويجرى تجاربه على الأحياء فى سبيل تقدم العلم وتقدم الانسانية . لقد جاءت اليزا دوليتل من الأوحال ، ولا باس أن تعود الى الأوحال بعد أن تنتهى التجربة !** ويرى بيكرنج بعض ما تراه مسز بيرس ، فيتردد بعض الشىء ، ولكنه

يخضع فى النهاية أمام اهتمام الأستاذ ، والحاح التلميذة ، وسحر التجربة !

وتبدأ التجربة بالحمام ، اذ لابد أن تزيل مسز بيرس عن جسد اليزا أكداس الأوساخ التى تراكمت عليه ، ولا بد أن تحرق ثيابها حتى لا ينتقل منهـا القمل الى بقيـة المنزل ، فتقذف بها فى الفرن ، ولا تبقى منها شيئا الا قبعتها ، على سبيل الذكرى .. ولابد أن تأتيها بثياب جديدة لتبدأ بهـا حياتها الجديدة ، فهى سوف تقيم معهـا فى دار الأسـتاذ هيجنز لتكون على صلة دائمة بها ، ولتكون تحت اشرافها الدقيق ، ولتتعلم الفتاة منهما آداب السلوك .

وحين تدخل اليزا الحمـام لأول مرة نعـلم بانهـا رأت جسدها عاريا فى المرآة للمرة الأولى ، فاحمر وجههـا خجلا وبادرت الى المرآة فغطتها بفوطة الحمام !

وفيما هى فى الحمام يأتى أبوها مستر دوليتل . وهو كناس عجوز ولكنه قوى البنية ، شـديد الذكاء ، شـديد الاقبـال على الشراب ، وقد جاء ليسـاوم هيجنز على بقـاء ابنته . ويغضب هيجنز ويهم بطرد الرجل وابنته جميعا أول الأمر ، ولكن هذا الكناس الشاعرى الفطرة يقنعه بلباقته وقوة حجته المستمدة من واقع الحياة أن يعطيه خمسة جنيهـات « كدفعة أولى » .

دوليتل : حقيقة الأمر هى انى قد استلطفتك يا سيدى ، وان كنت تريد البنت فلن أصر على عودتها الى البيت اذا كان هنالك مجال للاتفـاق معى . وهى بين الفتيات فتـاة جميلة بديعة . ولكنها كبنت لى لا تساوى ثمن طعامها . لهذا أقول لك بصراحة : ان كل ما أطلبه هو حقوقى فيها كأب . وأنت آخر من ينتظر منى أن أفرط فيهـا بغير مقابل . فأنت على ما أرى من الرجال المستقيمين يا سيدى . ما قولك ؟ ما قيمة

خمسة جنيهات لديك ؟ وما قيمة اليزا لدى ؟ (**يعود الى مقعده ويجلس جلسة القاضي**) .

بيكرنج : أظن انه ينبغى أن تعـرف يا دوليتل أن نوايا مستر هيجنز شريفة تماما .

دوليتل : طبعا شريفة يا سيدى . ولو كنت أعتقد أنها غير شريفة لطلبت خمسين جنيها .

هيجنز (مشمئزا) : اتقصد أن تقول أيها الوغد العديم الشعور أنك تقبل أن تبيع بنتك بخمسين جنيها ؟

دوليتل : بوجه عام لا ، ولكنى أفعل أشياء كثيرة لأرضى سيدا مثلك ، صدقنى !

بيكرنج : أانت مجرد من الأخلاق يا رجل ؟

دوليتل (بغير خجل) : نعم يا سيدى فهى تكلف كثيرا . ولو كنت فى مثل فقرى لتجردت منها كذلك .

ودوليتل فيلســوف على طريقته الخاصــة ، رغم أنه كناس . فهو يرفض أن يقبل فى ابنته عشرة جنيهات ، مكتفيا بخمسة ، لأنه يعلم أن المال الكثير فى جيبه سوف يسبب له المتاعب . وهو يفتن هيجنز ببلاغته الفطرية ، فيعرض عليه أن يبقى مع ابنته فيجعل منه فى ستة أشهر خطيبا مفوها يستطيع ببيانه أن يدخل البرلمان ، ولكنه يعتذر بقوله أنه يفضل الحانة على السياسة !

— ٣ —

● **وتمر** شهور قليلة على سكان المنزل رقم (٢٧ أ ، ويمبول ستريت) لا يحدث فيها شيء ، ويحدث فيها كل شيء !

فالأســتاذ هيجنز لا هم له الا تدريب اليزا على النطق السليم وعلى العبارة السليمة .. واليزا لاهم لهــا الا تعلم النطق السليم والعبــارة الســليمة . أما الكولونيل بيكرنج

فتستوعبه هذه التجربة استيعابا ، فنراه ينتقل الى دار هيجنز ليقيم فيها . ويكتشف هيجنز أن للتلميذة أذنا أرهف حسا وأقدر على تمييز الفوارق بين الأصوات من أستاذها ، ويعترف بأن اليزا لولا جهلها لفاقته فى فن الكلام !

وبعد أن يقوم هيجنز لسان اليزا ، يستبين له أن الأمر ليس على البساطة التى تصورها . فهو قد قوم لسان بائعة الزهور ، ولكن ترى ماذا هو فاعل بعقلها الساذج الذى لم يحو من العلم شيئا ؟

ولكنه لم يزل بعد فى المرحلة الأولى ، ولا تزال أمامه شهور قبل أن ينقضى الأجل المحدد للتجربة وهو ستة شهور . والحل عنده أن تتجنب اليزا فى حديثها مع الناس الكلام فى أى موضوع الا السؤال عن الصحة والتعليق على الجو .

ويصطحب هيجنز اليزا لزيارة أمه فى يوم استقبالها الأسبوعى ، ومعهما بيكرنج ، وهو يبتغى من ذلك اجراء التجربة الأولى على اليزا فى المجتمع الصغير ، قبل أن يأتى اليوم العظيم فيصطحبها الى المجتمع الكبير !

وفى دار أمه يلتقى هيجنز بآل « اينسفورد هيل » الذين كان قد التقى بهم من قبل فى تلك الليلة المطيرة ، ليلة (كوفنت جاردن) . يلتقى بالأم المهذبة الرقيقة الحاشية ، وببنتها « كلارا » التى تصطنع العصرية اصطناعا ، وبولدها « فريدى » التافه الذى لا يملك مالا ولا يتقن عملا . فآل « اينسفورد هيل » أسرة كانت على شىء من الجاه ثم ضاع منها الجاه ولم يبق أمامها الا الاحتفاظ بالمظاهر واخفاء الفقر ما استطاعت الى ذلك سبيلا .

وتنجح التجربة الأولى ، وتفشل ، فى آن واحد !

تنجح لأن اليزا قد تبدلت حالها تماما فلم يفطن الى حقيقتها أحد ! .. بل يراها آل اينسفورد هيل فى ثيابها



البروفسيور ((هيجنز)) يدرب تلميذته ((أليزا دوليتل)) على طريقة النطق باللهجة الارستقراطية السليمة ..

الفاخرة التي ابتاعها لها الكولونيل بيكرنج ، ويستمعون الى نطقها الجميل الذى أسبغه عليها الأستاذ هيجنز ، **فلا يفطنون الى انها بائعة الزهور التى التقوا بها منـذ شهور على درج كنيسة سانت بول ! .. ويفتن الشاب فريدى بجمالها من اول وهلة ، فيجلس امامها ويشخص اليها شخوص العاشق الولهان طول الوقت حتى تنصرف !**

ولكن التجربة تفشل كذلك لأن اليزا تخرج عن الحـدود المرسومة لهـا فى الحديث وهى السؤال عن صحة النـاس والتعليق على الجو . فما أن تذكر السيدة اينسفورد هيل كلمة الانفلونزا حتى تقص اليزا على الحاضرين كيف أن عمتها ماتت بالانفلونزا ، ثم تروى لهم كيف أن أباها كان يداوى أخته بشراب « الجن » وكيف أن أهلها قتلوها ليسلبوها ما تملك ثم زعمـوا أن الانفلونزا قضت عليها ! .. **وينهل آل اينسفورد هيل لهذه الفتاة الجميلة الأنيقة التى تروى أفضح الأشياء فى أجمل لهجة ، وتستخدم بين الحين والحين ألفاظا لا يستخدمها الا حثالة الناس !**

ولكن هيجنز يشرح لهم أن هـذا دأب الارسـتقراطية الجديدة التى تتعمد التشـبه بأبنـاء الشعب الحقيقيين فى استعمال الألفاظ البذيئة . وتفتن كلارا بهذه الروح العصرية فتحاول تقليد اليزا . أما فريدى فهو غارق الى أذنيه فى بحر الغرام ، ولا يهمه من كل هذا الا أن يتملى من طلعة هذه البنت الرائعة الجمال !

أما والدة هيجنز فتعنف ابنها على هذا العبث الخطر ، فلا تجد منه الا قوله :

هيجنز : أتسمين هذا عبثا ؟ ! ان هذا أصعب عمل قمت به فى حياتى . لا تخطئى التقدير يا أماه ، فأنت لا تتصورين ما هنالك من متعة فى تشكيل حياة انسان حتى يخرج منه



((اليزا دوليتل)) فى حلبة السباق ، مع سيدات الطبقة الراقية ، يتابعن الجياد المتسابقة ..

انسان آخر مختلف عنه تمام الاختلاف ، عن طريق خلق لغته خلقا جديدا . ان هذا يسد ذلك الفراغ الهائل الذى يفصل الطبقة عن الطبقة ، ويباعد بين الروح والروح .

نعم ان هيجنز لا يفكر الا فى حنجرة اليزا ، وفى موضع لسانها من حلقها أو من شفتيها كلما فاهت بكلمة ! .. حتى عقل اليزا يجد هيجنز السبيل الى تشكيله تشكيلا جديدا ، فهو يصطحبها كل يوم الى معارض الفن والى المسارح والى دور الأوبرا لتكتمل بذلك ثقافتها .

انه يحس احساس الخالق الذى يصوغ الخليقة على شاكلته . ولكنه يغفل أهم عنصر فى الخلق الا وهو **روح** الخليقة !

— ٤ —

● ويأتى اليوم العظيم . يأتى فى الموعد المضروب . ويخرج ثلاثتهم ـ هيجنز وبيكرنج واليزا ـ الى الحفل العظيم ، حيث يلتقى علية القوم بلندن فى حديقة سفير من السفراء .. وتتلو الحفل العظيم مأدبة عشاء عظيمة ، وبعد المأدبة يقصد ثلاثتهم دار الأوبرا فلا يعودون منها الا عند منتصف الليل .

وتنجح التجربة العظيمة نجاحا عظيما . فتتحدث لندن كلها بزهرة المجتمع الجديدة الآنسة اليزابيث دوليتل .



أحد السفراء يطلب الى البروفيسور « هيجنز » أن يقدمه الى تلميذته الحسناء ، ليراقصها .. فى احدى الحفلات

وهكذا تنتهى التجربة .

ويحمد هيجنز الله على أن التجربة قد انتهت .

ولكن نهاية التجربة تكون بداية المشاكل .

فالرجلان يجلسان بعد عودتهما من دار الأوبرا ويتذاكران فى اعياء شديد انتصارات اليوم ، واليزا شاخصة اليهما فى سهوم ، ثم فى غيظ شديد . **انهما لا يلتفتان اليها ولا يوجهان اليها الحديث ، كأنها شخص لا صلة له بالموضوع ، بل كأنها مجرد اداة جامدة ادت الغرض منها ولم تعد بهما حاجة اليها !**

نعم لقد احتملت اليزا الكثير . احتملت من سلاطة لسان هذا الأستاذ المتاله ومن زجره مالا يحتمله بشر . ولولا دماثة الكولونيل بيكرنج وآدابه العالية لكانت حياتها فى (ويمبول ستريت) جحيما لا يطاق . لقد كانت تكد الليل والنهار بلا انقطاع . كانت تستيقظ على الاصوات وتعيش على الأصوات وتحلم بالأصوات . لقد كانت تخدم هذا الأستاذ المتاله خدمة الأم والأخت والبنت ، بل خدمة جارية اشتراها فى سوق النخاسة بخمسة جنيهات ! .. فتعد له قهوة الصباح وتشترى له حاجاته من السوق وترتب له أوراقه وتأتيه بخفيه اللذين ما عرفت لهما موضعا ثابتا طوال الشهور الستة التى أقامتها فى ومبول ستريت ! .. **وهى لا تذكر انها سمعت منه كلمة شكر أو كلمة تشجيع او كلمة حنان . ولولا ان الكولونيل بيكرنج كان ينهض عند قدومها احتراما ويرفع قبعته عن رأسه كلما التقى بها ويفتح لها الباب لتتقدمه فى السير ويناديها من حين لآخر بقوله ((يا آنسة دوليتل)) لكانت مجرد متاع او قطعة من اثاث البيت .** نعم لقد احتملت من هيجنز فوق ما يطاق . وفى سبيل ماذا ؟ أهى تحبه ؟ نعم . لا . انها لا تفكر فى الحب . انها لا تطلب الا العطف .

كلا . ان هذا لا يطاق . وهيجنز الآن يحمد الله على أن التجربة قد انتهت . انه متعب ويريد أن ينام ، وهو يسألها ان تأتيه بخفيه !

وتنفجر اليزا من فرط الغيظ فتقذف بالخفين فى وجهه صائحة :

اليزا : اليك بالخفين . خذهما . خذ خفيك واتمنى أن يأتياك بالنحس كل يوم من ايام حياتك !

هيجنز (ذاهلا) : ماذا جرى ؟ (**يقترب منها**) ماذا جرى ؟ انهضى (**ينهضها**) أليس كل شيء على ما يرام ؟

اليزا (لاهثة) : كل شيء على ما يرام بالنسبة لك . لقد كسبت لك الرهان وهذا يكفيك . أما أنا فلا وزن لى على ما أعتقد !

هيجنز : انت كسبت لى الرهان ! انت أيتها الحشرة المدمية ؟ أنا الذى كسب الرهان !

نعم . الحمد لله ان التجربة قد انتهت . لسوف ترحل فى الصباح الباكر . ان هيجنز لا يفكر فى مصيرها ، فلتفكر هى اذن فى مصيرها ! . . لقد جاءت الى داره منذ ستة شهور بمشكلة هى مشكلة الطبقة السفلى ، وقد أعانها على حل هذه المشكلة . وهى الآن تخرج من داره بمشكلة أخرى أشد تعقيدا من المشكلة الأولى : لقد انفصلت اليزا عن طبقتها الأولى انفصالا لا رجعة فيه ، فهى الآن لا تستطيع أن تقف على ناصية (توتنهام كورت رود) لتبيع الزهور . ان هيجنز قد جنى عليها جناية كبرى ــ كما قالت أمه ــ لأنه « علمها قواعد السلوك وراضها على العادات التى تمنع السيدات المهذبات من كسب قوتهن بعرق جبينهن ، دون أن يمنحها دخل السيدات المهذبات ! » .

ولكن هذه ليست مشكلة اليزا الوحيدة ، فهي لم تتحول في المظهر فحسب ، بل اهتزت في أعمق أعماقها لهذه الحيـاة الجديدة . فنفسها قد انصقلت وقلبها قد تفتح للحياة العليا ، وهي الآن تطلب حقها في هذه الحياة العليا . هي تطلب حقها في الحب وفي الاحترام وفي العطف وفي الود الكريم . وهي أشياء ما كان لها أن تجدها في محيط الكناسين أو في عالم الأرصفة !

— ٥ —

● وفي الصباح الباكر تخرج اليزا من دار (ويمبـول ستريت) وتقصد الى دار السيدة الفاضلة والدة الأسـتاذ المتأله هيجنز . وما أن يستيقظ هيجنز و بيكرنج ولا يجدانها حتى ينزعجا أشد الانزعاج . ان هيجنز لم يخطر بباله قط أن انتهاء التجربة معناه رحيل اليزا . لقد تعود على اليزا حتى غدت جزءا من حياته اليومية ، كالأكل والشرب والعمل ، وهو لا يتصور الحياة بغيرها !

نعم انه يحبها . ولكنه يحبها على طريقته الخاصـة . يحبها حب الفنـان لصنع يديه . يحبهـا حب بجمـاليون لغلاطية ، حب المثال للتمثال . ولكن بيجماليون الذي صارت بذكره الأساطير كان فنانا أحمق لأنه تجاوز في حبه الحدود التي رسمتها الحياة بين الخالق والمخلوق ، فنزل من سموات الفن العالية ليسوى نفسه بما صنعت يداه !

ان هيجنز يريد من اليزا البقاء الى جواره ، دائما ، الى نهـاية العمر ! هو لا يريدها لا زوجة ، ولا عشـيقة ، ولا خادمة ، ولكن جزءا من حياته وقطعة من فنه وعلمه ، يرى نفسه فيها دائما !



البروفيسور هيجنز يريد من ((اليزا)) البقاء الى جواره ، دائما الي نهاية العمر !

ويتصل هيجنز بالبوليس ليبحث له البوليس عن اليزا المختفية . . ويقصد مع بيكرنج دار امه ليطلعها على ماجرى . وهناك يجد اليزا ، ويكون بينهما حديث عاصف : انه يعرض عليها أن تعود الى (ويمبول ستريت) ، ولكنها تود أن تعرف منه على اى أساس تعود . انها تحب أن تكون الى جواره ، ولكنها تشترط عليه أن يقلع عن فظاظته واستهانته بشعورها . فماذا يكون رد هيجنز ؟

هيجنز : ان هذا كل ما ستنالينه مني حتى تكفى عن حماقة السفهاء . ان أردت أن تكونى سيدة فقد وجب أن تكفى عن الاحساس بأن من حولك من الرجال يهملونك اذا لم يقضوا نصف وقتهم ينتحبون فى غرامك ونصفه الآخر فى تأديبك باللكمات . **واذا كنت لا تطيقين الحياة فى هذا العالم البارد الذى اعيش فيه ، ولا تحتملين عناءها المضنى ، فخير لك ان تعودى الى الأوحال** . عودى الى الكد والكدح حتى تصيرى أقرب الى الحيوان منك الى الانسان ، ثم أسرفى فى الشجار والشراب حتى يطبق النوم جفنيك . يا لها من حياة ممتعة ، حياة الأوحال ! انها حياة واقعية ، حياة حارة ، حياة عنيفة تحسين بها لانها تنفذ فى الجلد مهما كان سميكا ، وتنعمين بطعمها ورائحتها بالفطرة دون حاجة الى جهد أو تدريب . انها ليست كحياة العلم والأدب والموسيقى الكلاسيكية والفلسفة والفن . **انت ترين فى انسانا بارد الطباع ، خاليا من الشعور ، محبا لذاته . اذن فامضى الى الناس الذين تأنسين اليهم . تزوجى من خنزير مكتنز بالعواطف الرخيصة وبالمال الكثير ، له شفتان سميكتان يقبلك بهما ونعلان سميكان يضربك بهما . واذا كنت لا تقدرين ما حصلت عليه فلتحصلى على ما تقدرين !**

وهكذا تيأس اليزا من الوصول الى حل سوى . ان كلام

هيجنز لا شك مقنع في عالم من المجردات . ولكن منطقه ينهار امام منطق الحياة القوي . انه يعرض عليها أن يتبناها ، ولكن نفس اليزا الواضحة وانوثتها المتفتحة لا تقنعان بهذه العلاقة المفتعلة في دنيا من الأفكار الباردة . انها تطلب حقها في الحياة !

ويستقر رأى اليزا على قرار خطير :

ان الفتى « فريدى اينسفورد هيل » عاشق لها متيم بحبها ، وهو يلاحقها بهواه في كل مكان ، ويسطر لها كل يوم الرسائل والرسائل يبثها نجواه ، ويقول انها نعيمه الأبدى ويعرض عليها الزواج ليدخل بها هذا النعيم . حقا ان الفتى فريدى فتى تافه اذا قورن بهذا الخالق الشاهق هيجنز ، ولكنه على الأقل يحبها ويتمنى أن يكرس حياته لارضائها . وحقا أن الفتى فريدى فتى ساذج لا يملك مالا ولا يتقن عملا ، ولكن اليزا سوف تستطيع بارادتها الفولاذية وبحدبها عليه أن تخلق منه رجلا يعتمد على نفسه ويشق طريقه في الحياة !

هذا هو القرار الخطير الذى اتخذته اليزا دوليتل : قررت ان تتزوج من فريدى !

ويقوم هيجنز والكولونيل بيكرنج بواجبهما نحو اليزا ، فيفتحان لها دكانا تبيع فيه الزهور مع زوجها . ولا تزال اليزا بفريدى تعلمه أصول الصنعة حتى يتقنها ويصبح رجلا بين الرجال ، يعتمد على نفسه ويسوس أسرته .

وهكذا ترد اليزا دوليتل دينها للحياة ، فلقد وجدت من ياخذ بيدها ويرفعها من اوحال الفقر ، ويجعل منها امرأة استكملت عدتها للحياة الكريمة ، فاخذت بيد غيرها ورفعته من أوحال البطالة وجعلت منه رجلا استكمل عدته للحياة الكريمة ..

كارمن

(قصة الحب .. والغيرة .. والجريمة !)

الأوبرا التى خلدت مؤلفها الأديب الفرنسى
"بروسبر ميريميه"

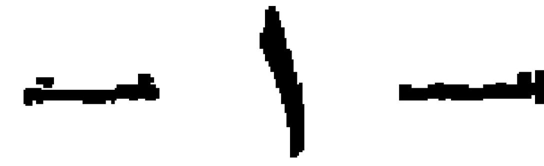


CARMEN : PROSPER MERIME

عرض وتلخيص : عميد الامام

هذه الأوبرا ..

أوبرا غنائية ، مقتبسة عن قصة للروائي الفرنسي « بروسبير ميريميه » ، ووضع موسيقاها الموسيقي الفرنسي « جورج بيزيه » . ومثلت لأول مرة على مسرح « أوبرا كوميك » (بباريس) ، مساء ٣ مارس عام ١٨٧٥ .



● يدور الفصل الأول من هذه الأوبرا في احدى ساحات مدينة (أشبيلية) ، يقع على جانب من الساحة مصنع سجائر ، وعلى الجانب الآخر مركز للحرس .. والوقت ظهر ، وجنود الحرس ــ بملابسهم الزاهية الألوان ــ مبعثرون في كسل حول مركزهم ، يدخنون ويتفرجون على المارة ..

وبينما قائدهم الأومباشي « موزاليس » يعلق على المناظر التي يرونها ، تسترعي انتباههم ــ فجـأة ــ صبية ريفية ، شقراء ، بريئة الملامح ، تقف مرتبكة بالقرب منهم .. واذ يسألها « موراليس » عما تبحث عنه ، **تتقدم منه الصبية ((ميكايبلا)) في خجل ، وتطلب مقابلة أومباشي الحرس ، فيقول لها في زهو انه هو نفسه الأومباشي ! ولكنها تجيب بانها تبحث عن أومباشي بعينه يدعى ((دون خوزيه))** ، وتسأل عما اذا كانوا يعرفونه .. وتتبين أنهم يعرفونه جميعا ، ولكنهم يخبرونها بأنه ليس من فرقتهم ، وأن الفرقة التي ينتمي اليها ستفد عما قريب لتتولى الحراسة بدلا منهم !

ويدعو « موراليس » الفتاة الى انتظار « خوزيه » داخل المركز ، ولكنها تسارع الى الرفض .. واذ يحيط بها الجنود ويلحون عليهـا في أن تنتظر معهم ، تصر ــ في خجل ــ على

الاعتذار قائلة انها ستعود فيما بعد، حين تكون فرقة الحرس الأخرى قد حضرت .. ثم تنفلت هاربة من الجنود المحيطين بها ، فيعودون متحسرين الى تأمل الجمهور المرح الذى يملأ الساحة ..

وتقبل فرقة الحرس الأخرى بقيادة الضابط « زونيجا » والأومباشى « دون خوزيه » ، لتحل مكان الفرقة الأولى . وبعد أن تتم اجراءات استبدال الحرس ، يخبر موراليس زميله « دون خوزيه » بأن شابة فاتنة كانت تبحث عنه منذ قليل .. فيقول « خوزيه » لنفسه ، بينما فرقة الحرس الأولى تنسحب : « لابد أنها ميكايلا ! » ..

ثم يبقى خوزيه مع الضابط زونيجا وحدهما فى الميدان ، فيشير الأومباشى خوزيه الى مصنع السجائر قائلا : « ان للفتيات اللواتى يعملن بهذا المصنع شهرة خاصة ! » .. ولكنه يسارع مستطردا انه شخصيا لا يهتم كثيرا بمثل هذه الأمور ! .. **فيجيبه الضابط قائلا انه يعتقد أن السبب فى عدم مبالاته هو استحواذ الفتاة التى سألت عنه على كل اهتمامه .. فيعترف خوزيه بانه فعلا مغرم بالفتاة !**

ويدق جرس المصنع مؤذنا بنهاية فترة العمل ، فيتجمع رجال المدينة حول باب المصنع لمغازلة الفتيات عند خروجهن .. وعندما تخرج العاملات ، يأخذن فى انشاد لحن يشبهن فيه دعوة من يطارحونهن الهوى من الرجال بدخان السجائر الذى يتبدد فى الهواء !

وفى هذه الاثناء ، يبدأ خوزيه فى اصلاح حلقات سلسلة صغيرة مقطوعة ، متظاهرا بعدم الاكتراث لوجود الفتيات .. ويتساءل الرجال جميعا : « ولكن أين كارمن ؟ » .. فما أن تبرز الفتاة حتى يلتفون حولها ويتوسلون اليها أن تخبرهم متى سوف تحبهم .. **فتغازلهم كارمن جميعا ، وترد عليهم**

بدلال : ((متى أحب ؟ .. لست أدرى !.. ربما لا أحب مطلقا ، وربما أحببت غدا .. ولكن المؤكد أنى لن أحب اليوم !))

.. ثم تغنى بمصاحبة زميلاتها ، بينما تحاول اجتذاب انتباه الأومباشي المتكبر اليها ، ولكن دون أن تحرز أى نجاح ظاهر .. وما أن تنتهى من أغنيتها حتى يعود الشبان الى التوسل اليها بأن تحبهم ، غير انها لا تلتفت لغير الأومباشي الذى يصر على تجاهلها تماما ! .. وعلى نغم اللحن الذى يتردد كثيرا فى هذه الأوبرا ، معبرا عن الاغراء الذى لا يقاوم الذى تحمله كارمن لخوزيه ، وعن الشؤم الذى ينطوى عليه هذا الاغراء العنيف . **تتقدم ((كارمن)) — فى دلال — من الأومباشي ، وتنتزع من صدرها وردة تقذف بها فى وجهه .. وبينما الجميع يضحكون لما يبدو على خوزيه من ارتباك ، يعلن جرس المصنع نهاية استراحة الظهيرة ، فتعود ((كارمن)) وسائر الفتيات الى عملهن ، تاركين خوزيه يلتقط الوردة وحده !**

وفى هذه اللحظة ، تعود ((ميكايلا)) فيستقبلها خوزيه متلهفا .. وتحدثه الفتاة عن بيته وأمه التى حملتها رسالة اليه ، وعن شىء آخر حملتها اياه ، أغلى من الرسالة ، هو قبلة تسارع ((ميكايلا)) بطبعها فى حنان فوق جبينه .. فيتأثر خوزيه ويتذكر ما انطوى عليه تصرف كارمن من تهديد لراحة باله ، فيشكر الله على أن القبلة التى أرسلتها اليه أمه قد أبعدت عنه خطر الغواية .. وتصر ((ميكايلا)) على تركه وحيدا لكى يقرأ رسالة والدته ، فيقرأها وهو يردد وعدا بعقد قرانه على ميكايلا .. وبينما هو يهم بالقاء الوردة التى رمته بها كارمن ، تسمع جلبة شديدة فى داخل المصنع ، وتتدفق من بابه العاملات خارجات فى فوضى ، بينما يخرج رجال الحرس من مركزهم وعلى رأسهم الضابط ((زونيجا)) !

ويتضح أنه قد حدث شجار بين كارمن وعاملة أخرى ،

وأن الفتيات قد انقسمن الى فريقين، يؤيد كل منهما احدى المتشاجرتين .. فيأمر « زونيجا » الأومباشي خوزيه بأن يذهب مع اثنين من الجنود لفض المشاجرة ، **ولا يلبث خوزيه أن يعود اليه، ومعه السمراء الفاتنة « كارمن » التي يبدو عليها الارتياح والسرور .. وترفض كارمن — في دلال مثير — الاجابة على الأسئلة التي يوجهها اليها الضابط ، وتكرر ترديد مقطع غنائي حنون ، في اغراء واستفزاز ظاهرين !** .. ولكن الضابط — رغم انجذابه لاغراء كارمن — يقرر حبسها ، فيصـــدر أمره الى الأومباشي باقتيادها الى السجن ، ويعود الى داخل المركز !

وبينما يجلس خوزيه كارمن على مقعد ويشرع في ربط ذراعيها وراء ظهرها ، تقول له في ثقة تامة انه لن يأخذها الى السجن ، وانما — على العكس — سيساعدها على الفرار ! .. ويتجاهل الأومباشي كلامها ، فتغني كارمن لحنا تدعو فيــه جنديا شابا — ليس ضابطا ولكنه أومباشي فقط ! — الى حانة (ليلاس باستيا) ليحل مكان عشيقها الذي صرفته .. واذ يطلب منها خوزيه أن تتوقف عن غنائها فورا ، ترد عليه — في دلال — قائلة انها انما كانت تردد أفكارها بصوت عال ، وأنه لا يستطيع منعها من التفكير ! .. وتعود الى مواصلة غنائها ..

وشيئا فشيئا تتغلب عواطف الأومباشي على شعوره بالواجب ، فيلتفت الى كارمن ويسألها في حرارة عما اذا كانت تعني حقا ما تقوله اغنيتها ، وعما اذا كانت ستحبه فعلا .. ثم يسألها هل ستخلص له ، فتجيبه بأنها ستكون وفية له ، فيتجاهل واجبه ، وتغلبه الغواية .. فيفك قيدها !

ويخرج الضابط زونيجا من مركز الحرس ، فتهمس كارمن بتعليماتها الى الأومباشي ، ثم تنهض لتتظاهر بالسير معه الى السجن ، وهي تنظر الى الضابط في اغراء ، وتردد مقطعا من احدى اغنياتها المثيرة .. ولكنها لا تلبث أن تدفع خوزيه بعيدا

عنها ، وترمي القيد الذي كان قد فكه لهـا قبل ذلك .. ثم تبتعد وهي تجري بأقصى ما تستطيع من سرعة !

وبينما ينزل الستار على الفصل الأول ، يتقدم خوزيه من الضابط .. ويسلمه نفسه !

— ٢ —

● ويدور الفصل الثاني في حانة (ليلاس باستيا) بأحد أطراف المدينة ، وهي الحانة التي تتخذها احـدى عصابات التهريب مكانا لاجتماعاتها ..

وعندما يرتفع الستار ، نرى احتفالا مرحا يدور في الحانة ، تغني وترقص فيه فتيـات الغجر وعلى رأسـهن كارمن وصديقتاها الحميمتان « فراسكيتا » و « مرسيدس » .. ونرى بين المحتفلين المرحين الضابط زونيجا .. ولكن سرعان ما ينتهي الحفل الصاخب ، اذ يعلن أن موعد اغلاق الحانة قد حان .. ويتبرع « زونيجا » باصطحاب كارمن وأصدقائهـا لمواصلة السهرة معـه ، ولكنهم يرفضون دعوته .. **فيقـوم بمحاولة أخيرة للظفر بابتسامة من شفتي كارمن ، ويقول لها أن الأومباشي الشاب صديقها قد أطلق سراحـه .. غير أنه لا يظفر منها بأكثر من كلمة ((حسن)) ، تقولهـا له بلهجة قاسية ، وتتبعها بقولها : ((والآن أسعدتم مساء)) !**

وفي هذه اللحظة يسمع صوت غناء آت من بعيد ، ينبيء بقدوم مصارع الثيران المحبوب « اسكاميللو » ، الذي لا يلبث أن يدخل الحانة وهو يترنح ، ووراءه عدد من المعجبين به .. ويشرع اسكاميللو فور دخوله في غناء اللحن الشهير « مصارع الثيران » ، الذي يصف فيه أولا بالتفصيل المباراة مع الثور ، ثم العيون السوداء الجميلة التي تنتظر البطل بعد انتصاره .. ويستطرد قائلا ان العينين السوداوين اللتين تجذبانه الآن ، هما عينا كارمن !.. ثم يتجه اليها عارضا عليها حبه ، فتصده

كارمن بطريقة حاسمة ، لا تخلو فى الوقت نفســـه من معنى التشجيع ، وتقول له انها الآن مشغولة بحب احد الجنود !

ويغادر المصارع الحانة ، فيتبعه جميع من فيها باستثناء « كارمن » وصديقتيهـا « فراسكيتا » و « مرسـيدس » ، وشابين من الغجر يدعيـان « رامندادو » و « دنكيرو » ، يحترفان التهريب .. ويعرض المهربان على الفتيـات الثلاث الانضمام اليهما فى عملية تهريب يدبرانها ويحتاجان فيها الى مساعدة بعض النساء ، فترحب « فراسكيتا » و « مرسيدس » بالاقتراح ، بينما ترفض كارمن ، فيندهش الآخرون ويلحون فى سؤالها عن السبب ؟

.. وتجيبهم كارمن بأنها عاشقة ! .. فيسخر الشابان من كلامها ، ويذكرانها بأن هذه ليست المرة الأولى التى تعشق فيها ، ثم يضيفان أنهـا خير من يستطيع التوفيق بين الحب والعمل ، ولكن كارمن تصر على موقفهـا .. ويسمع صوت « خوزيه » مقتربا من الحانة ، وهو يردد احـدى أغنيـات الجنود المرحة ، فتتخلص كارمن من الحاح أصدقائهـا بأن تعدهم بمحاولة اقناع الأومباشى بالانضمام الى عصابتهم ، ثم تتجه لترحب بحبيبها فى لهفة !

ويؤكد لها خوزيه ــ من ناحيته ــ حبه لها ، ولكنه يبدى غيرته عندما يعلم أن بعض الضباط قد قضوا السهرة فى الحانة ، وأن الفتيات قد رقصن معهم . غير أن كارمن تهدىء من ثورته اذ تعده بأن ترقص له وحده ، ثم تجلسه على أحد المقاعد ، وتتلوى امامه فى رقصة جميلة مثيرة ..

ولكن صوت نفير آتيا من بعيد لا يلبث أن يقطع على خوزيه استمتاعه برقص فاتنته ، فيوقفها عن الرقص ويخبرها أن هذا النفير يؤذن بانسحاب فرقته ... ولكنها تتظاهر بعـدم فهم ما يعنيه ، وتواصل رقصها وغنـاءها بمزيد من الحرارة

والاثارة ، فيعود خوزيه الى ايقافها قائلا انه مضطر أن يعود فورا الى المعسكر ..

وهنا تثور كارمن ، وتسخر منه فى غيظ ، وتوجه اليه شتائم لاذعة ، ثم تقـذف بقبعته وسيفه على الأرض !.. ويحاول خوزيه استعطافها بتأكيد حبه لها ، ولكن توسلاته لا تثمر بأكثر من زيادة غضبهـا .. ويصر الأومبـاشى على استرضائها ، ويفلح أخيرا فى حملها على الجلوس . **ثم يخرج من سترته الوردة التى كانت قد قذفته بها ، ويغنى لهـا لحنا يشرح لها فيه كيف ان الوردة التى كانت تذكره بها دائما لم تفقد نضارتها قط طيلة الوقت الذى قضـاه فى السجن !**

وبرغم ان كارمن تتأثر كثيرا لهـذا الدليل القوى على هيامه بها ، الا انها تصر على التظاهر بعدم تصـديق أنه يحبها ، قائلة انه لو كان حقا يهواها لتبعها الى الجبـال البعيدة حيث الحرية التامة ، فلا ضباط هناك يتحتم عليه أن يطيع أوامرهم ، ولا قانون يخضعان له غير ارادتهما الطليقة !

ويكاد خوزيه أن ينقاد لعاطفته الملتهبة ، وينسـاق وراء اغراء ما تعرضه عليه كارمن ، فيأخذها بين ذراعيه ويهم بتقبيلها .. ولكنه يعود الى رشده فجأة فى اللحظة الأخيرة ، ويدرك مدى ما ينطوى عليه فراره من خدمة الجيش من نذالة وخسة ، فيدفع كارمن عنه ويتجه نحو باب الحانة ، مشيعا بصرخات كارمن وعويلها . ولكن قبل أن يبلغ الباب يسمع طرقا عليه ، ثم يدخل الضابط زونيجا ، الذى لا يكاد يلمحه حتى يصدر اليه أمره بمغادرة الحانة فورا !

.. واذ يرفض خوزيه ــ فى كبرياء ــ تنفيذ الأمر ، يمتشق زونيجا حسامه ، ويشتبك الرجلان فى قتال عنيف .. وتصرخ كارمن طالبة النجدة ، فيهرع الغجر الى الحانة

من كل صوب .. ويجرد المهربان « رافندادو » و « دنكيرو » الضــابط من ســلاحه ، ثم يرغمانه ـ تحت التهـديد بمسدسيهما ـ على الخروج من الحانة .. **وهكذا لا يبقى أمام خوزيه الا أن ينضم الى المهربين الفجر .. فينزل ستار الفصل الثانى على المجموعة وهى تردد أنشـودة مرحة ، تتغنى بجمال الحرية !**

— ٣ —

● ويرتفع ستار الفصل الثالث عن بقعة نائية فى الجبال ، جمع فيها المهربون بضائعهم تمهيدا لنقلها عبر الحـدود .. وبينما المهربون ينشدون أغنية مشجعة ، نسمع بين خوزيه وكارمن حوارا نفهم منه أن أمورهما لا تسير على ما يرام ! .. فخوزيه يذكر كيف خيب آمال أمه بفراره من الخـدمة الى حياته الجديدة هذه ، **بينما تسخر كارمن من ضعفه ، وتتهكم عليه قائلة ان الأفضل له أن يعود الى امـه فورا ..** ويغضب خوزيه لتلميحها الى افتراقهما ، ويحذرها من تكرار مثل هذا القول ، فتهتف كارمن ، وقد أحست بمدى غضبه : « أو تريد أن تقتلنى ؟ ولكن ما أهمية ذلك ؟! ان الأمر كله بيد القدر » !

وفى هذه الأثنـــاء تكون الفتـــاتان « فراســـكيتا » و « مرسيدس » قد جلستا الى احدى لفائف البضاعة المهربة ، و صفتا أوراق اللعب لقراءة ما يخبئه لهما الطالع .. وتقول فراسكيتا ـ فى مرح ـ ان الورق يتنبـــأ لها بحبيب شاب جميل ، بينما تعلن مرسيدس أن الورق يعدها بحظ أحسن ، اذ يتنبأ لها بالزواج من شيخ مسن ، عريض الثراء ، يمـوت تاركا لها كل ثروته !

.. وتنضم كارمن الى الفتاتين ، وتصف بدورها أوراقها ، فتقرأ فيها نبوءات تناقض الطوالع السعيدة التى طربت لها صديقتاها ، فهى تقرر أنها ستموت أولا ، ثم يموت خوزيه !..

وتشرع فى ترديد لحن حزين يتحدث عن عدم جدوى محاولة الهروب من الموت !

ويقبل « دنكيرو » ليقول ان موعد اجتياز الحدود قد حان ، وان على خوزيه أن يبقى لحراسة ما لا يستطيع المهربون نقله من « البضاعة » فى رحلتهم الأولى . فيحمل كل مهرب حزمة من البضاعة ويخرجون ، بينما يصعد خوزيه الى قمة احدى الصخور القريبة لمراقبة الطريق .. وبعد فترة وجيزة تدخل « ميكايبلا » باحثة عن خوزيه ، وهى تحاول مداراة خوفها الشديد بالغناء والابتهال الى الله !.. ولكن ما ان يقع نظرها على خوزيه ، حتى تراه يطلق رصاصة نحوها ، فتفر مذعورة ..

.. غير أن خوزيه لا يكون قد أطلق النار عليها ، بل على مصارع الثيران « اسكاميللو » الذى رآه يتسلق الجبل قادما نحو مخبأ المهربين .. وعند اقتراب اسكاميللو ، يأمره خوزيه بالوقوف فى مكانه ، فهو لا يعرفه الا بالاسم !.. ولكن ما أن يقدم اليه اسكاميللو نفسه حتى يرحب به ، ويخبره أنه قد خاطر بحياته بالمجىء الى هذه البقعة الموحشة . فيجيبه اسكاميللو بأن الحب هو الذى أكسبه الشجاعة ، ثم ينبئه بأنه قد جاء لرؤية كارمن !

.. وعندئذ يثور خوزيه ، ويسأله عما اذا كان لا يدرى أن على الرجل الذى يريد أخذ احدى فتيات الغجر أن يكون مستعدا لدفع ثمن رغبته هذه بحد الخنجر ؟ !.. فيدرك اسكاميللو أن محدثه انما هو حبيب كارمن ، التى تكون قد أتت فى هذه اللحظة على صوت شجارهما ، وأمسكت بذراعه . وسرعان ما يدخل باقى الغجر وراء كارمن ، ويفرقون المتبارزين !

ثم يطلب « دنكيرو » من مصارع الثيران الرحيل ،

فيتمهل « اسكاميللو » ليدعو الجميع الى مشاهدة حفلته القادمة فى (اشبيلية) ، واعدا بأن يقدم لهم عرضا رائعا .. ويقول وهو يوجه نظرات ذات مغزى الى كارمن : « ان كل من يحبنى سيحضر هذه الحفلة » . فينقض عليه خوزيه ، ولكن « دنكيرو » و « رامندادو » يمسكان به ..

وبعد انصراف اسكاميللو ، وبينما المهربون يتأهبون للعودة الى عملهم ، يعثر أحدهم على « ميكاييلا » مختبئة بين الصخور ، فيندهش خوزيه لرؤيتها ، ويسألها عما جاء بها الى هذا المكان .. فتخبره بأن أمه قد أوفدتها لتطلب منه أن يرأف بحالها ، وأن يعود الى بيته . **واذ ذاك تنصحه كارمن ساخرة بان يعود الى أمه ، فيتولاه الغضب ويصر على الا يتركها !.. وهنا تضطر ميكاييلا الى اخباره بان امه فى حالة احتضار ، فيغير رأيه على الفور ، ويتأهب للعودة بصحبتها ..** ويسمع من بعيد صوت اسكاميللو ، وتهم كارمن بالتوجه اليه ، فيلتفت اليها خوزيه ويلقيها على الأرض ، ثم يواصل سيره .. بينما يسدل الستار .

— ٤ —

● ويدور الفصل الأخير فى يوم حفلة مصارعة الثيران ، فيرتفع الستار عن مدخل حلبة المصارعة. حيث تتزاحم البائعات المتجولات ، والسقاة ، والجنود ، وجمهور المتفرجات والمتفرجين ، الذين أخذوا ينتظرون دخول موكب المصارعين .

ثم يبدأ الموكب ، الذى يسير فى مقدمته مساعدو المصارع ومختلف معاونيه ، ويسير فى نهايته المصارع نفسه ، « اسكاميللو » . وقبل أن يدخل أسكاميللو الحلبة ، يقول لكارمن انها اذا كانت تحبه ، فسوف تكون فخورة به اليوم ، فتجيبه قائلة انها تحبه بكل تأكيد .. ثم تردف : « وسحقا لى ان كنت قد أحببت من قبل أحدا كما أحبك ! »

وما أن ينصرف اسـكاميللو حتى تسرع فراسكيتا ومرسيدس الى كارمن لتحذرانها من أن خوزيه مختبىء بين المتفرجين ، فتجيب كارمن بأنها لا تخشاه .. ثم تستطرد قائلة أنها سوف تنتظره فى مكانها لتتحدث اليه !.. ويتدفق الجمهور نحو الحلبة ، وتتبعه الفتاتان تاركتين كارمن وحدها .. **وفجاة يدخل خوزيه ، فتحييه كارمن فى برود ، ثم تقول له ان أصدقاءها قد حذروها من أنه ينوى قتلها ، ولكنها لا تخافه !..** فيؤكد لها خوزيه أنه لم يأت الا لكى يتوسل اليها أن تذهب معه . ولكن كارمن تجيبه ـ فى ضيق ـ بأن كل شىء قد انتهى بينهما !.. وكلما ازداد خوزيه حرارة فى توسلاته ، أمعنت كارمن فى سخريتها منه .. الى أن تصل اليهما أصوات الجماهير وهى تحيى المصارع ، فتهم كارمن بالدخول الى الحلبة ، غير أن خوزيه يعترض طريقها ويسألها عما اذا كانت تحب المصارع ؟.. **وتجيبه ـ فى تحد ـ بأنها هائمة به فعلا .. فيعود خوزيه الى سؤالها للمرة الأخيرة أن تذهب معه ، ولكنها تصيح ـ فى غضب ـ قائلة ان عليه اما أن يفسح لها الطريق ، أو يقتلها !**

وتسمع أصوات تهليل الجماهير لانتصار المصارع ، فتنتزع كارمن من اصبعها خاتما كان خوزيه قد أعطاها اياه ، وتقذف به بعيدا ، ثم تحاول التملص من الشاب والدخول الى الحلبة .. فيفقد هذا وعيه ، وتعميه الغيرة المجنونة ، فيستل خنجره بسرعة ، ويغمده فى صدرها !

.. وعندما تخرج الجماهير من الحلبة ، ترى خوزيه راكعا على الأرض ، بجوار جثة الفتاة .. فيصرخ فى الواقفين حوله ـ بصوت يائس ـ أن يقبضوا عليه ، لأنه هو الذى قتل محبوبته .. كارمن !

ويسدل الستار .

ليلة.. من ليالى البلقان!

للروائى الأسبانى الأشهر: بلاسكو إيبانيز



A SERBIAN NIGHT : BY BLASCO IBANEZ

ترجمة : حلمى مراد

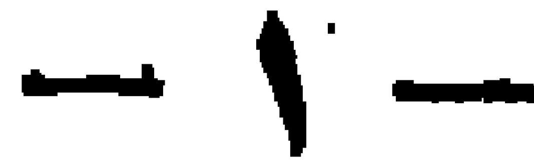
هذه القصة .. وهذا الكاتب

عزيزى القارىء ...

فى هذه القصة الرائعة ، يصور الروائى الأسبانى الأشهر « بلاسكو ايبانيز » (١٨٦٧ - ١٩٢٨) ليلتين من ليالى الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨) : ليلة فى أحد فنادق باريس ، تجتمع فيها المفارقة الصارخة بين اطفاء الانوار ، وبطاريات الأضواء الكاشفة التى تذرع السماء بحثا عن طائرات الأعداء فى الخارج .. وبين اللهو الصاخب فى داخل الفندق ، حيث يحاول المجندون فى ليلة اجازتهم نسيان أهوال الحرب ، بين الخمر ، والموسيقى ، واحضان غانيات العاصمة الفرنسية ..

ومن خلال هذا الاطار ، يروى الأديب الأسبانى القدير ليلة اخرى ، ليلة رهيبة من ليالى الحرب فى جبهة الصرب ، (أحد اقاليم يوغوسلافيا الآن) ، خلال تلك الحرب العالمية الاولى ، التى كانت الصرب مسرح الشرارة الأولى التى أشعلتها ، حين اغتال شاب وطنى صربى ولى عهد الامبراطورية النمسوية ، التى كانت تحتل بلاده وتسومها الهوان ، فكان ذلك الحادث الذى وقع فى بلدة (سراييفو) سببا مباشرا فى نشوب الحرب التى اصطلى العالم بنارها اكثر من أربع سنوات .

فتعال معى نقرأ قصة « ايبانيز » الرائعة عن تينك الليلتين :



● الحادية عشرة مساء ، وقد أغلقت مسارح باريس ابوابها قبل نصف ساعة ، ولفظت المطاعم والمقاهى روادها الى الطريق ..

.. ووقفت جماعتنا مترددة عند مدخل الشارع الكبير ، بينما كانت الجموع المنصرفة من أماكن اللهو تمر بنا ثم تختفى ظلالها كالأشباح .. ومصابيح الشارع القليلة المتناثرة تلقى ضوءها المحجب الشاحب ، فلا يلبث أن تبتلعه الظلمات ..

والنجوم التي تتخلل صفحة السماء السوداء تخالسنا نظرات خاطفة .. لقد كان الجو يوما خاليا في الليل الا من النجوم ، أما الآن ، فان الانبثاق الفجائي لرقعة الأنوار الكاشفة ـ بين حين وحين ـ يظهر بوضوح « منطادا » يبدو صغيرا ، في حجم السيجار !

وشعرنا بميل الى اطالة السهر ، وكنا أربعة : كاتب فرنسي ، وضابطان صربيان ، وأنا . ترى أين نذهب في باريس هذه ، مدينة النور ، الحالكة الظلام ، التي أوصدت جميع أبوابها ؟ اقترح واحد من الصربيين اسم فندق فاخر ، تظل قاعاته مفتوحة لاستقبال ضيوفه طوال الليل . وكان جميع الراغبين في السهر قد اعتادوا أن يدلفوا اليه كما لو كان بيتهم .. والاخوة في السلاح ـ من ضباط مختلف الدول ـ يتناقلون اسمه كلما أتوا الى باريس لقضاء بضعة أيام .

● واتجهنا اليه ..

كانت القاعة متألقة الأنوار ، الى حد شعرنا معه بعظم المفارقة ، بالقياس الى حلكة الظلام في الخارج . وبدا المكان ـ بمراياه العديدة ، وهي تعكس أضواء العناقيد المتلألئة من الثريات ـ أشبه بجوف فنار ضخم . وأحسست أننا عدنا الى الوراء عامين : **نساء ، وخمر ، وكمان تتأوه أوتاره بلحن من ألحان الزنوج الراقصة ، فكانت كلها صورا من الأيام الخوالي ـ أيام ما قبل الحرب ـ فيما عدا أزياء الرجال ، فان احدا منهم لم يكن يرتدي ثياب السهرة ،** بل كان الجميع ـ من فرنسيين ، وبلجيكيين ، وانجليز ، وروس ، وصربيين ـ يرتدون الثياب العسكرية ، متسخة ممزقة . وكان عازفو الكمان من الجنود الانجليز الذين حلوا مكان فرقة « الفجر » ذوي السترات الحمراء ، يتقبلون تصفيق الجمهور بابتسامات

مطفـأة ، باردة كالرخام .. والنسـوة يشرن الى احـدهم متهامسات باسـم أبيه « لورد .. » المشهور بذريته وثروته .. ثم راح الجنـود جميعا يغنون أغنيتهم المفضلة : « هيا نمرح أيها الرفاق ... فغدا سوف نموت !» ..

كان هؤلاء الشجعان الذين حمـل كل منهم حيـاته على كفيه ، يعبون من الحياة جرعات كبيرة ، ضاحكين ، مغنين ، لاهين ، **بتلك الحماسة المستهترة المأثورة عن البحـارة الذين يقضون الليلة على الشاطئ ــ كأسعد ما يكونون ــ ثم يعودون مع الفجر الى البحر .. والى مواجهة العواصف من جديد !**

* * *

● **وكان** الضـابطان الصربيان فى مقتبل العمـر ، باديى الغبطة بالفرصـة المواتية التى حملتهما الى باريس ، مدينة الأحلام التى طالما ملأت خيالهما ، طوال أعوامهما الرتيبة المملة فى حامية احدى بقاع الريف .

.. وكان كلاهما يتقن رواية القصة ، الموهبة التى تبدو طبيعية فى بلد يكاد كل من فيه يكونون شعراء !.. ولقد كانت هذه المكانة التى يحتلها الشعر فى حياة هؤلاء القوم من الرعاة والمحاربين ، مثار دهشة الشاعر الفرنسى « لامارتين » حينما مر ــ منـذ ثلاثة ارباع قرن ــ بولاية الصرب هذه .. **حيث كانت اغلبية الأهلين تجهل مبادئ القراءة والكتابة ، مما جعل الأفكار والذكريات تنتقل من جيل الى جيل بطريق الاشعار المحفـوظة .. وحيث الرعاة يقـومون بدور « المؤرخين » الوطنيين ، فيضيفون باغانيهم الجـديدة فصولا متوالية الى ملحمة الوطنية الصربية !**

● ومضى الضابطان يجرعان كؤوس الشمبانيا ، ويذكران مآسى بلادهما فى الشهور الأخيرة : تقهقر الجيش المهزوم .. الكفاح الرهيب ضد البرد والجوع .. المعارك القاسية فوق الثلوج ، بنسبة جندى واحد مقابل عشرة من الأعداء !.. ثم الفرار المروع لحشود هائلة من الكائنات البشرية والحيوانات ، فى اضطراب وفزع ، تحت وابل من نيران المدافع الرشاشة والبنادق التى راحت تحصد مؤخرة الطابور .. ثم القرى المحترقة ، وجموع الضالين والمشردين ، والجرحى الذين يصيحون واجسادهم تتلظى وسط النيران .. والنسوة المشوهات تحوم فوق رؤوسهن الغربان .. **وفرار الملك العجوز بطرس ـ الكسيح من الروماتيزم ـ عبر الوهاد البيض ، متكئا على عصا من الخشب ، محدودب الظهر صامتا ، يتحدى القدر .. كواحد من ملوك شكسبير !**

كنت وأنا أنصت للضابطين وهما يتحدثان ، أراقبهما على مهل : كان مظهرهما ينطق بأنهما من الفتيان العنيدين الصلاب ، كل منهما نحيف البنية ولكنه قوى العضلات .. لكليهما أنف أقنى كمنقار النسر ، وشوارب مدببة الأطراف ، تطل من تحت قبعتيهما خصلات متمردة من الشعر .. وبالاختصار ، كانت لكليهما هيئة الفنان الذى اعتادت فتيات الجيل الماضى أن يشغفن به ويتدلهن ، لا يختلفان عنه الا فى ردائهما « الكاكى » ، وفى مظهر الهدوء والشجاعة الذى يتميز به عادة أمثالهم من الذين يجابهون الموت على الدوام !.

ومضيا يرويان ويرويان الكثير مما شاهداه ، وعاشاه ، وكأنهما يعيدان سرد مآثر بطل الصرب الشجاع « ماركو كريلوفتش » الذى حارب رجال العصابات المعروفين باسم « خفافيش الغابات » وهو غير مسلح الا بثعبان !.. وطفقت أتأمل الضابطين ـ جليسى فى هذا الفندق الباريسي ـ وأنا

اهمس لنفسى : « ما أقــرب العهــد الذى كانا فيه فى جحيم المعركة ، يعيشان تلك الحياة الوحشية التى لا ترحم ، حياة الانسانية فى طور طفولتها البدائية القاسية ! » .

ورحل صديقنا الفرنسى ، بينما كان أحد الصربيين قد بدأ ينشــغل عن سرد قصصه بمخالسة النظر الى منضــدة مجاورة ، صوب منها نحــوه بريق عينين تتخللهما ظــلال ، يعانقها ظل قبعة عريضة من الريش الحريرى لأفعوان أبيض .. **لم يعد خافيا ان تينك العينين قــد اقتنصتا منا انتبــاه الضابط .. وفعلا لم تمض برهة حتى نهض ــ كما لو كان مقودا بخالجة طاغية ، واغراء لا يقاوم ــ لينتقل من مائدتنــا الى المائدة المجاورة .. حيث لم يلبث الا قليلا ثم اختفى .. ومعه اختفت القبعة ، وريش الافعوان !**

وبقيت وحدى مع أصغر الضابطين ــ وكان أقلهما كلاما ــ فاذا هو يجرع قدحا من الخمــر ، وهو ينظر الى ســاعة حائط فوق « البار » ، ثم ينظر الى نظرة من تلك التى تسبق دائما الافضاء بشيء ذى خطر .. واستطعت بسهولة أن أحزر مقدار حاجته الى أن يفرغ فى أذنى ما يرهقه من ذكريات أليمة .. ومرة أخرى رفع بصره الى الساعة .. وكانت قد بلغت الواحدة !

.. وفجــأة انهى صمته المحير ، وقد أخــذ يصــوغه فى كلمات :

« كان ذلك فى مثل هذا الوقت .. منذ اربعة شهور » .

وفيما هو يروى قصته ، رايت بخيالى كل احداثها : تلك الليلة الحالكة ، والوادى يكسوه الجليد ، والجبال البيضاء تغطيها أشجار الصنوبر والزان ، وقد أخــذت تتساقط من أغصانها براعمها الشبيهة بالقطن المندوف .. ورأيت القرية المهدمة ، وفى حمى اطلالها جنود الفرقة الصربية ــ الباقون ــ

يولون الأدبار ووجوههم الى (الادرياتيك) .. وكان محدثى هو المنوط بقيادة مؤخرة ذلك الطابور . ذلك الجمع من الرجال الذى كان يوما « فرقة » فأمسى زحاما مضطربا عجاجا بالخلق .. وخاصة بعد أن اختلطت به جموع القرويين الذاهلين ـ من فرط الخوف والألم ـ يتحركون كالآلات الصماء ، ويساقون كالماشـية .. **والنسوة بينهم يرسلن انينـا كالخوار ، وهن يجرجرن جمهرة من الأطفال .. ونسوة أخريات ، سمراوات البشرة ، طويلات القـامة ، قويات العضلات ، كن يسرن فى صمت مفجع .. وكلمـا مشين خطوات ، انحنين على جثث الموتى يجردنهم من بنادقهم ، ومن أحزمة الذخيرة الملفوفة على بطونهم !**

..والظلمة حالكة ، لا يلونها الا برق أحمر خاطف هو بريق القنابل يتوامض من بين الأطلال والأشلاء .. يجاوبه من أعماق الليل دويها المتفجر المتتابع .. والهواء الأسود المنعقد فى سماء الوادى تطن فيه قذائف الرصاص ـ حشرات الليل غير المنظورة ـ ثم يوشك الصبح أن يبزغ ، وفى ركابه الهجوم الساحق من هذا العدو الذى يربض لهم فى الظلام ، والذى لم يكونوا يعلمون أهو من الألمان ، أم النمسويين ، أم البلغار ، أم الأتراك ؟.. فقد كان يواجه التعساء أعداء كثيرون !

واستطرد الصربى : « لم يبق أمامنـا غير أن ننسحب ، تاركين وراءنا كل من يعوقنا .. فقد كان علينا أن نبلغ الجبال قبل مطلع النهـار » .. وكانت الطوابير الطويلة من النسوة والأطفال والمسنين ـ تخالطهم قطعان الحيوانات ـ قد ابتلعها كلها الظلام ، ولم يبق فى القـرية الا ذوو الأجسام القوية من الرجال ، الذين تخلفوا لحماية المؤخرة ، محتمين بدورهم فى الاطلال .. ثم جاء دور فريق منهم فى الانسحاب ، فوثب الى ذهن الضابط فجاة خاطر قاس ملح : « **الجرحى ! ماذا يكون**

من أمرهم ؟ كان هناك أكثر من خمسين ((كائنا حيا)) منطرحين على القش فى مخزن للغلال ثقبت القنابل سقفه ، يتململون فى سعير الألم والسخط . كان بعضهم قد مضت على اصابته أيام ، تحامل فى خلالها على نفسه مسافات ، حتى بلغ هذه القرية .. وآخرون أصيبوا فى تلك الليلة ذاتها فضمدوا جراحهم النازفة بضمادات مؤقتة .. وغير هؤلاء وأولئك نسوة أصابتهن شظايا القذائف المتفجرة ... الخ .

دخل الضابط المخزن ، حيث فاحت رائحة اللحم العفن ، والدماء الجافة ، والثياب القذرة ، والأنفاس النتنة .. فلم يكد يفتح فمه حتى اشرأبت نحوه أعناق من كانت بهم بقية من جهد ، واقبل بعضهم يزحفون نحوه على ضوء مصباح البترول الوحيد الذى فى المكان .. وانقطعت التأوهات ، فساد الجو صمت اشتركت فى ايجاده حدة المفاجأة ، والرعب ــ كما لو أن أولئك المشرفين على الموت خشوا شيئا أفظع من الموت ! ــ ولم يكد الضابط ينهى اليهم نبأ مصيرهم المحتوم ، فيعلمون أنه لم يعد بد من تركهم لرحمة الأعداء ، حتى **هبوا جميعا فزعين .. وحاولوا النهوض .. ولكن اكثرهم سقط من فرط الأعياء .. ولم يلبث أن غشى المكان ضجيج من التوسلات اليائسة ، والصلوات الحارة** ، فقد توجه الكل الى قائدهم ــ ومن كان خلفه من جنده ــ مستعطفين : ((أيها الرفاق . لا تتركونا . باسم المسيح لا تتركونا)) . لكنهم لم يلبثوا أن ادركوا أن التخلى عنهم قد بات ضرورة حتمية ؛ فبدت عليهم سمات الاستسلام لمصيرهم ... ولكن أى مصير أن يقعوا فى أيدى البلغار أو الأتراك ، أعدائهم لقرون خلت !؟ .. وأضافت عيونهم ما لم تجرؤ عليه شفاههم .. فان انتقام البلقانيين كان شيئا يخشى أكثر من الموت !

« أيها الأخ .. أيها الأخ » .. وحزر الضابط ما كان يصطرع وراء هذه الصيحات من رغبات ، فأدار عينيه بعيدا ، وسألهم : « أو تريدوننى أن ؟ » .. وقبل أن يتم عبارته تحركت كل الرؤوس بعلامة الموافقة : **ان واجبه الا يترك وراءه صربيا واحدا .. حيا .. وما غرابة هذا ؟ أو لم يكن هو ليطلب نفس الشيء لو كان مكانهم ؟**

وكانت ندرة الذخيرة لدى الجيش قد جعلت الجنود يحتفظون بسلاحهم فى حرص ولهفة ، فبدأ بعض الجرحى يشرع فى انجاز مهمته الأخيرة : الاجهاز على نفسه ، مستعملا مهماز بندقيته !.. لكن المهمة كانت قاسية ، غليظة ، فلم ينجحوا فى أكثر من احداث اصابات غير قاتلة ، وسيول من الدماء جديدة ، وحشرجات لا تحتمل ..!

وادرك الضابط الواجب الذى صار يواجهه !.. وكان الجرحى قد أخذوا يجرجرون اجسادهم ، مقتربين منه ، تجذبهم نحوه رتبته التى جعلت من الموت على يديه شرفا اخيرا .. كما تجذبهم خفة حركته ، التى ستجعل الموت من يده اقل ايلاما !.. وجرد الضابط سيفه راغما ..

« هأنذا أيها الأخ .. هأنذا .. »

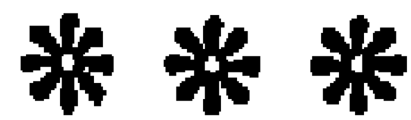
وبحد سيفه المشهر فى وجوههم ، راح يهوى على رقابهم .. جاهدا أن يقطع فى كل منها شريان الحياة بضربة واحدة ، ما أمكن : « تاك .. تاك .. تاك .. تاك .. الخ » ـ نطق بها محدثى فى عصبية ، مستعيدا مسرح الرعب أمام ناظرى ..

.. وتقاطروا عليه ، زاحفين على بطونهم ، منسلين من الأركان المظلمة ـ كالديدان ـ كى يترامو تحت سيفه . وكان فى البداية يحاول جهده أن يدير رأسه بعيداً ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، لكيلا يرى ما تفعل يمينه !.. لكن ضعفه

ضاعف من آلامه . صار لا يتقن الاجهـاز على رجاله بضربة واحدة ، ومن ثم يجد نفسه مضطرا الى اعادة الكرة ، واطالة عذاب الجريح قبل الاطاحة برأسه .. فتمالك أخيرا نفسه ، وبيـد ثابتة وقلب متجلد اندفع يضرب ذات اليمـين وذات اليسار : « تاك .. تاك .. تاك .. تاك .. » .. والصيحات تتزاحم على سمعه : « أنا أيها الأخ !.. أنا ! » .

.. كانوا يتنافسون على السـبق كمـا لو خشـوا أن يدركهم الأعداء قبل أن تتم هذه المـذبحة ((الأخوية)) !.. وكانوا قد خبروا أنسب الأوضـاع لتلقى الضربة القاضية ، فكان كل منهم يدير رأسه الى جانبه ، حتى تتصلب رقبته ويصير شريانها متوترا ، مهيئا للبتر !

« أنا أيها الأخ .. أنا ! » .. وبينما سيل الدماء يتدفق انهارا ، كانت أجسادهم تتساقط ، واحـدا فوق الآخـر ، وتفـرغ ما فيها من دم الحيـاة فى بطء ، كبرميل النبيـذ الأحمـر ..!



◉ **وكانت** قاعة الفنـــدق الباريسى قد بدأت تفرغ من زائريها .. والنساء يتقاطرن منها الى الخارج ، مستندات الى أذرع العسكريين ، تاركات وراءهن نفحة من رائحة العطر والمساحيق .. وآلات الكمان فى أيدى الجنود البريطـانيين تزفر زفراتها الأخيرة ، بين عاصفة من الضحك تنم عن قلوب خلية !

.. بينما كان محـدثى الصربى ما يزال ممسـكا فى يده سكينا صفراء يضرب بها المائدة بحركة آلية .. فى هيئة من اعجزته الذكرى عن النسيان ، ولن تفتا تعجزه ، وتزعجه : ((تاك .. تاك .. تاك .. تاك !)) .

من قصص انحلال الإمبراطورية الرومانية

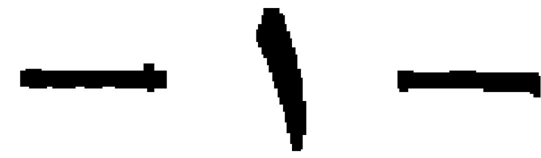
الإمبراطورة الخاطئة

"ميسالين".. زوجة الامبراطور "كلوديوس"



بقلم : ابراهيم المصرى

« تقع حوادث هذه القصة ايام انحطاط الرومان ، وتمثل ما كان يجرى اذ ذاك فى قصور حكام روما ، وما كانت عليه الامبراطورة « ميسالين » نفسها من بغى وفجور . كما تمثل القصة آلام شعب ، ويقظة أمة » .



في عام ٤٨ الميلادى ، وفى حى شعبى من أحياء روما ، وفى زقاق مظلم قذر مستطيل ، كان يرى الناظر حانة صغيرة كئيبة المظهر ، متصدعة البنيان ، يرقى اليها روادها من سلم خشبى علق على سوره مصباح خافت ، تتراقص أضواؤه منعكسة على جدران البيوت المحدودبة المتلاصقة ، فتبدو كأنها أشباح !

وكانت الحانة غاصة فى تلك الليلة بجمهرة كبيرة من العمال ، والصناع ، وقطاع الطرق ، وبنات الهوى . وكانت صيحاتهم تقصف فى الجو كالرعد ، وضحكاتهم تهدر فى الظلمة كالسيل ، وشهواتهم تنطلق انطلاقا مروعا ، كأنما هى وحوش ضارية أطلقت من عقالها ومضت تمرح فى أجمة كثيفة ، بعيدة عن العالم .

فالعمال كانوا يعاقرون الخمر ويرقصون ، وقطاع الطرق يلعبون الميسر ويتشاتمون ، وبنات الهوى يتسللن بين الرجال محلولات الشعر انصاف عرايا ، يقدح من أعينهن النهمة المكحلة شرر الطمع والاغراء !

وفجأة ، فتح الباب الكبير ، ودخلت منه امرأة . امرأة فى نحو الخامسة والعشرين من عمرها ، مديدة القامة فى

شموخ ، ناهدة الصدر فى عزة ، وطيدة البدن فى ثبات وقوة ، يستر وجهها وشاح اسود ، ويمسك بذراعها شاب مفتول العضل رائع الجمال .

واتجهت المرأة صوب احدى الموائد وطلبت خمرا . فجاءها صاحب الحانة بكوبين من النبيذ ، فمالت الى رفيقها وهى تضحك وناولته كوبه ، ثم تجرعت ما فى كوبها دفعة واحدة ، بعد أن نزعت وشاحها الأسود ، وحدقت فى جراة الى الحاضرين .

والتفت الجميع اليها ، فراعهم حسنها الباهر ، وعطرها الغامر ، وكبرها الساخر المستهتر .. فانعقدت السنتهم ، وسكن ضجيجهم ، وراحوا يتلامحون ويتهامسون .

وكانت المرأة سوداء الشعر ، عالية الجبهة ، واسعة الحدقتين ، مستقيمة الأنف ، ترف أهدابها الطويلة على خديها الناضرين فيومض وجهها الساحر ، وينسكب عليه فيض من الرواء والعظمة يخطف البصر ويأخذ بمجامع الألباب .

ونهضت بغتة وقد احتوتها نزوة طارئة ، ولعبت برأسها نشوة الخمر ، فارتمت على أحد العمال وجذبته ، وخاصرته ، ثم دفعته الى وسط الحلبة واهابت به أن يرقص ، وهى تتفرس فيه وتتأمل تقاطيع وجهه الزاخرة بالرجولة ، وتضمه وتوشك أن تقبله !

وراق الحاضرين هذا المشهد فافسحوا لهما المجال ، فانطلقا يرقصان فى عنف مخبول ، موقع على هتاف الحناجر ، وتصفيق الأيدى ، ورنين الكئوس ..

ولما أحست المرأة بالتعب ، وانتابها من فرط الرقص شبه دوار ، ارسلت صرخة منتشية ثم قبلت الرجل فى فمه قبلة

طويلة ، ونفضته عنها وارتمت على مقعد .. فضج لها الجمع بالهتاف والتهليل .

وكان صاحبها الشاب الجميل المفتول العضل ينظر اليها في كمد وسكون . فلما أقبلت بعد لحظة عليه غمغم في أذنها وهو يرتعش :

ـ الا نرحل ؟

فاستضحكت وقالت وهي تلاطف خده بأناملها :

ـ عندما يطلع الفجر !

وانفلتت كالضوء المارق وجلست على ركبة أحد قطاع الطرق ، ثم اختطفت كوبه الملىء واجترعت ما فيه عن آخره !

وعندئذ ثارت ثائرة غانية كهلة كانت بقربه . فدنت منها وربتت على كتفها وقالت وهي تصعد فيها بصرها وتتحداها :

ـ هذا الرجل هو لي . فدعيه وشأنه أيتها الدخيلة ، والا ..

فقهقهت المرأة قهقهة مدوية ، ثم عادت فاختطفت الكوب وقذفت به وجه غريمتها .. فجن جنون الغانية وانقضت عليها ، فركلتها المرأة في بطنها . فأسرع قاطع الطريق لنجدة صديقته ، وأسرع الحاضرون لطرد الدخيلين !

وفي تلك اللحظة فتح الباب في عنف ، ودخل منه رهط من الجنود .. فتراجعت الغانية ، وجمد كل من في الحانة .. بينما خرجت المرأة مرفوعة الرأس ، عارية الوجه ، باسمة الثغر ، يتبعها الشاب الجميل وهو يعض على شفتيه حنقا ، ويختلج حتى ليوشك أن يبكي !

وما أن اختفت ، حتى صاح كل من الحاضرين بالآخر :

ـ من .. من تكون هذه المرأة ؟

فوثب من احدى زوايا الحانة رجل طاعن في السن ، أبيض اللحية ، جاحظ العينين ، محدودب الظهر ، وقال وهو يقطب

حاجبيه وينتفض :

ــ الا تعرفونها ؟

فأجاب الكل متهافتين :

ــ كلا .. لم نبصرها قط قبل الآن !

فابتسم الشيخ ابتسامة مكمدة وصاح :

ــ انها ((ميسالين)) !

فأجفل الجميع ثم هتفوا :

ــ الامبراطورة ؟

فهز الشيخ رأسه وغمغم :

ــ هى بعينها . لم تظهر فى الملعب الشعبى الكبير غير مرة واحدة ، ولكننى رأيتها فيه . رأيتها تشهد حفلة مصارعة . كنت مع ولدى ، ولدى الوحيد « أوكتافيوس » . ولدى الذى يعجب بها ويقدسها ويبذل قصاراه فى التدريب على الحركات الرياضية الخارقة كى يصبح فى يوم من الأيام مصارعا ممتازا خليقا بأن يظفر منها بلقب البطولة فى سباق العربات ومصارعة الوحوش ومنازلة الجبابرة من أبطال روما . اما أنا فلا أحبها ، بل أكرهها من صميم قلبى . **انها هى التى دست السم لفينيسيوس عضو مجلس الشيوخ ، لأنه تمنع عليها وأبى أن يكون عشيقها !.. وهى التى قتلت ((كاتونيوس)) رئيس البوليس لأنه اجترأ على انتقاد سلوكها .. وهى التى نفت الفيلسوف ((سنيكا)) الى جزيرة كورسكا ، لأنه ثار فى وجهها ولم يستطع أن يغض الطرف عن آثامها وفجورها !.. انها عار روما !..** وما المحرمات التى ترتكبها الا لعنات تصبها الآلهة على هذا الوطن العزيز الذى لا يحفل بمصيره الحكام المترفون ، ولا الموظفون النفعيون ، ولا انتم أيها الشعب العابث المستسلم المتواكل !

وتوقف الشيخ لحظة وهو يلهث ، ثم استطرد صارخا

ــ ارأيتم ؟ ارأيتم ذلك الشاب الذى كان فى صحبتها ؟ انه « سيليوس » **الشريف ، عشيقها المفضل ! عشيقها الذى تريد أن تجعل منه « زوجها الثانى » بعد الامبراطور !** لماذا ، لماذا تنظرون الى هكذا ؟ تلك هى الحقيقة . ان « ميسالين » على وشك أن تستصدر من مجلس الشيوخ اذنا شرعيا يخول لها حق الزواج من سيليوس وهى فى عصمة الامبراطور !.. **انها تريد أن تبيح للنساء حق التزوج باكثر من رجل !.. انها لافجر الفاجرات !**

وشخص الى الجمع الذاهل المبهوت ، وتمتم وهو يرفع ذراعيه الى السماء :

ــ متى ، متى تنكشف الغمة عن هذا الوطن ؟.. ومن ، من يمكن أن يكون ذلك الباسل الشجاع الذى فى مقدوره أن ينقذ روما بضربة سيف ، أو طعنة خنجر ؟

فصاح أحد العمال :

ــ لقد أسرفت أيها الشيخ . انها قيصرتنا على كل حال . وأكبر ظنى أنك تلعنها لأنك مسيحى !

فرفع الشيخ رأسه وقال :

ــ لست مسيحيا ولا وثنيا . أنا من أصل اغريقى . وحياتى الطويلة انقضت فى دراسة الحكمة والفلسفة . ولقد علمتنى الفلسفة أن هذا العالم وحدة ، وانه لا بد أن يكون محكوما بسلطان اله واحد . فأنا أعبد هذا الاله الأحد ، وأنا فى سبيل وطنى أستنزل لعنته الأبدية على ميسالين !

فقال له العامل ملوحا بقبضته :

ــ احذر انتقامها ولا تتهور !

فضحك الشيخ وقال :

ــ أنا فيلسوف وعراف ، وهى تقرب العرافين لانها تخشى الآلهة ! وداعا . **لقد كشفت لكم عن الحقائق لأبذر فى نفوسكم**

بذور الكرامة والتمرد ! هذا واجبي ! طابت ليلتكم . أنا ذاهب لملاقاة ولدي ..

وتوكأ الشيخ على عصاه وانصرف وهم يتبعونه النظر ، وقد تناسوا أقداحهم ، وتناسوا الغانيات ، وشرعوا يفكرون ويتهامسون !

— ٢ —

◉ **وكانت** ميســالين التي خرجت من الحانة في صحبة سيليوس ورهط الجند من حرسها ، تريد أن تروح عن نفسها وتسهر في المدينة حتى الصباح ، **فاقتادت عشيقها الى احدى الحدائق العــامة ، وجلست بجواره تحت خميــلة كبيرة ، ومضت تداعبه وتلاطفه ، وتمنيه بتاج روما بعد أن تستصدر اذن الزواج الثاني من مجلس الشيوخ !**

وكان الشاب ساهما شاردا ، يختنق في صدره لوعته ، ويحاول أن يكبح شعوره بالحنق والاستنكار ما استطاع . بيد أن مرجل غضبه انفجر بالرغم منه ، فصاح بميسالين :

ـ لست كلبا يجر بمقود ، ويلقى اليــه فتات المائدة . اما أن أكون السيد ، واما ان أرحل !

وهم بالنهوض ، فتركته ينهض . ولكنه عاد فجلس . فنظرت اليه من خلال أهدابها الطويلة ، وقالت في هدوء ملكي وهي تبتسم :

ـ على هذا الشرط قبلت أن تكون اليوم عشيقي وغدا زوجي . نعم . أنا أقدرك قدرك . ولقد اصطفيتك من دون الرجال جميعا حبيبا لقلبي . ولكن ما حيلتي في طباعي ، في ميولي وأهوائي ؟ أنا امرأة يعز عليها ألا تستمتع بكل شيء والا تفوز بكل شيء ! ان حب النزوات في دمي ، واغراء الملذات هو مادة حياتي ! أنا امبراطورة روما ، ولكنني سأموت يوما ..

فهل يرضيك أن تموت أعظم امرأة في العالم وفي قلبها حسرة واحدة على لذة كانت تطلبها فحرمت نفسها منها ، عن طواعية ورضاء ؟ تلك حماقة ياصاحبي ، ومن العار على أن أرتكبها !
فثب الى رشدك ولا تنقض عهدنا . دعني ملك أهوائي ، واعلم ان هذه الأهواء جميعا ستنصب آخر الأمر في محيط حبك كما تنصب مياه النهر في البحر العريض !

ومالت اليه وطوقته بذراعها ، ثم قبلتـــه وهو حائر . فتملص منها واطرق برأسه ، وطفرت من عينيه الدموع ! وفي تلك اللحظة ، في تلك اللحظة التي كان يتعذب فيها سيليوس ويشعر مع ذلك أن ميسالين بقربه ، وانها له وحده .. في تلك اللحظة برز شاب أشقر الشعر باهر الحسن ، واجتاز الحديقة ثم وقف عن بعد تحت شجرة باسقة ، ثم انبطح على الأرض ، ثم نهض وطفق يثب ويتثنى ويتلوى ويقوم بحركات رياضية رائعة تحت ضوء القمر ..

وكانت اعضاؤه المرنة المفتولة تلمع كالبرق ، وصـدره الأبيض الناصع ينافس في تألقه اشـعة القمر . فارتعشت ميسالين ونهضت هي أيضا . نهضت من تلقاء نفسها ، على دهش منها . وقبل أن يتنبه سيليوس أو يتحرك ، عدت الى اقصى الحديقة وأصدرت أمرا الى رجال الحرس ، فاندفعوا صوب الشاب الأشقر الشعر وأطبقوا عليه ، ثم جروه جرا ، وهو يتملص ، ويتوعد ، وينذر ، ويقاوم !

وأدرك ســيليوس أن الفتي الرياضي قد راق في عـين ميسالين . فاقشعر بدنه ، وغشي الدم وجهــه . ولكنه لم يستطع أن يتحرك !

وفجأة سمع صراخ طويل ، صراخ متقطع يفتت الأكباد .. وشوهد الأحدب ، الفيلسوف ، الثائر ، المتمرد الذى كان يلعن الساعة ميسالين ويستنزلّ عليها لعنة الله والشعب ،

شوهد وهو يركض فى ضوء القمر خلف الجنود ويصيح فى شبه خبال :

ـ ولدى ! ولدى !

وطفق يركض حتى خانتـه قواه ، فتهاوى على نفسـه وسقط على العشب ، مغشيا عليه !

وقهقهت ميسالين واقتادت سيليوس وهو يترنح . **ولما دنت من الشيخ الصريع ألقت عليه نظرة ثم ركلته بقدمها ، ومضت تختال تيها وعجبا ، دون أن تتنبه لا هى ولا سيليوس الى شىء أبيض مطوى سقط منها وهى تعـدو وعلق بغصن شجيرة ، وظل يتراقص تحت أشعة القمر !**

وعنـدما غادرت الحديقة فى صحبة عشيقها ، هبت من الشمال ريح باردة سرعان ما اشتدت وطوحت بالأشجار . فاستفاق الأحدب الشيخ على صفيرها وتحامل على نفسـه ونهض . نهض يفتقد عصاه ويجيل الطرف حوله وهو شارد . واذا به يلمح ذلك الشىء الأبيض المطوى يتراقص فوق غصن الشجيرة . فاسترعاه منظره وانحنى عليه والتقطه . وما كاد يبسطه ويتأمله حتى بهت . بهت واعتراه من فرط الفرح شبه جنون ، فألقى بعصاه وجلس على الأرض وشرع يقرأ ..

وكان ذلك الشىء الأبيض الذى سقط من ميسالين هو عريضة الالتماس التى كانت قد اعتزمت أن ترفعها الى مجلس الشيوخ لتستصدر منه ، ان طوعا وان كرها ، اذن الاقتران بعشيقها ، فتصبح فى وقت واحد زوجة الامبراطور ، وزوجة سيليوس !

— ٣ —

• فى مساء اليوم التالى افتقدت ميسالين العريضة فلم تجـدها !.. فاستاءت ولكنها لم تحفل ، وعولت أن تكتب

فيرها ، بعد اذ تكون قد أمضت ليلة شائقة ممتعة بين أحضان الشاب الرياضي القوى الذى حمله الجند الى قصرها !

وتبرجت وتطيبت ، وارتدت أبدع غلائلهــا ، ثم ارخت شعرها الأثيث على كتفيهــا الناصعتين ، وتمددت على الأريكة .. ثم امرت بأن يدخل عليها الشاب الأشقر الجميل .

ودخل أوكتافيوس ابن الأحدب الفيلسوف . وما كاد يبصرها حتى عرفها ، وأدرك ما يراد منه !

وكان أوكتافيوس معجبا بميســالين ، مقــدرا عطفهــا وسخاءها على أبطال المصارعة ، متطلعا الى الظفر منها بلقب البطولة الذى رصد عليه جهد حياته . فلما ألفى نفســه فى مخدعها ، وأدرك أنها قد اشتهته لجماله وشبابه ، ذكر لفوره الفتاة الطاهرة التى يحبها ، واستهول أن يتلوث وينقض العهد المقــدس الذى قطعــه لها ، فانقلب اعجابه بالمرأة الى غضب مستنكر كظيم ، ماؤه العزم على التمنع والتعفف ، والمجالدة والثبات !

وطوقته ميسالين بنظرة ظمأى ، وقالت وهى تبسط له ذراعيها الناضرتين :

ـ تقدم أيها الشاب ، وقل لى ما اسمك وصناعتك ؟

فأجاب وهو يرتعش :

ـ أنا أوكتافيوس ابن الشيخ « جالبا » الفيلسوف ، وصناعتى مصارع . ولكنى ما زلت مجهولا لم أحرز بعد لقب البطولة ، ولم أتشرف بالمثول بين يدى مولاتى قبل اليوم !

فألقت عليه نظرة دل ناعسة ، وغمغمت :

ـ ادن منى .. اجلس .. هنا بجوارى .. لا تخف .. أنت منذ الساعة بطل يا أوكتافيوس !

وتماوجت أعضــاؤها تماوج الأفاعى ، وامتــدت يدها الرخصة وتصلبت كأنها مخلب ، وأمسكت بالشاب وجذبته

اليها . فانحنى أوكتافيوس أمامها ، وجثا على الأرض ، وقال وهو يرفع إلى المرأة المرهوبة بصره الزائغ ويتمتم :

ـ أنا شاب فقير لا أملك غير ساعدى .. فاليك يا مولاتى هـذا السـاعد ، فهو فى خدمتـك . أما قلبى ، وروحى ، وجسدى ، فقد وهبتها كلها يا مولاتى ، وليس فى مقدورى ان أسترد ما وهبت !

فوثبت ميسالين من أريكتها وثبة فهد كاسر ، وواجهت أوكتافيوس بعينيها الذاهلتين المتقدتين وصاحت :

ـ ما معنى ما تقول يا فتى ؟

فتمالك الشاب نفسه وأجاب :

ـ لي خطيبة احبها بل أعبـدها ، وقد تعـاهدنا على الزواج ، وليس من تقاليدنا يا مولاتى أن ننقض العهد !

فأرسلت المرأة ضحكة مدوية وقالت :

ـ العهد شىء ، وفرصة العمر شىء آخر ..!

وصمتت لحظة وهى تتلوى ، ثم أردفت فى عنف :

ـ ولقد أحببتك وميزتك يا أوكتافيوس ، فانتهز فرصة عمرك وتقدم !

ومالت اليه بجمع بدنها واحتضنته . **فاندفق الدم الى وجه الشاب ، وتراجع ثم ارتمى ثانية على الأرض ، وطفق يقبل يدى ميسالين وهو يصيح :**

ـ الرحمة يا مولاتى ! لا تلوثينى فى نظر نفسى . لا تحاولى القضـاء على مستقبل حبى . كيف يمكننى أن أتزوج غدا خطيبتى وأعيش معها وهـذه الجريمـة نصب عينى ؟ أنا لا أستطيع ان أغدر . لا أستطيع أن أخدع . لا أستطيع أن أقرب الفتاة الطاهرة التى أعبدها وأنا منتهك وملوث . ان حبى يا مولاتى لا يكمن فى قلبى فقط بل فى ضميرى أيضا . ولو انى خنقت الآن ضميرى فلا بد ان أجهز فى الوقت نفسه

على حبى ، والا أصبحت شرا من أخبث وأفتك المنافقين والخائنين .. لا .. لا يا مولاتى .. أنت عظيمة ، ورحيمة ، وعادلة ، وأنا واثق بل مؤمن بأن كرامة نفسك لا بد أن تصون كرامتى ، وشرف خلالك لا بد أن ينقذ ضميرى ووفائى وشرفى !

وجاشت عواطفه وبكى . بكى كما كان يبكى سيليوس ، فعضت ميسالين على شفتيها ، وشعت من عينيها نظرة احتقار تخللها وميض خاطف غريب ، ثم ضمت على صدرها أطراف غلالتها وارتدت الى الأريكة وتمددت عليها .. وقالت فى صوت عذب رخيم ، كأن كلمات الشاب لم تستفزها ولم تصب مقتلا من كرامتها وكبريائها :

ـ مرحى لك يا أوكتافيوس . انك فى الحق لعاشق وفى ! هذه التجربة الخارقة التى خرجت منها ظافرا تمنحك لقب البطولة الفذة عن جدارة واستحقاق ! ستصلك البراءة غدا ، وستكون أول المصارعين فى أول حفلة شعبية أقيمها !

وجاهدت نفسها لتضفى على وجهها شتى ألوان الرضا . ثم ابتسمت فجأة ابتسامة مطمئنة وصريحة ، وقالت فى بساطة ساذجة رائعة :

ـ وما اسم خطيبتك ؟

فارتاح أوكتافيوس لابتسامتها ، وأجاب على الفور :

ـ هى « أوجستا » بنت الشيخ « كاتون » صانع السلاح المشهور ..

فأسبلت ميسالين أهدابها وغمغمت :

ـ بورك لك فيها يا بنى . فلأنت جدير بملكة ! اذهب اذهب الآن الى حجرتك ، وسأصدر أمرى حالا باطلاق سراحك ..

فانحنى أوكتافيوس وقبل طرف ثوبها خاشعا وخرج .

وما كاد يختفى حتى عصف الذل والحقد والاستنكار بالمرأة فانفجر غضبها المحتجز ، وأسرعت الى أسطوانة نحاسية مثبتة فى الحائط فضربتها بمطرقة . فمثل أمامها عملاق افريقى أسود كانت قد عهدت اليه بحراسة مخدعها . فصاحت به وهى تكاد تفقد رشدها :

ـ حذار أن يمس هذا الشاب بسوء ! ولكن لا تفرجوا عنه ، وانما عاملوه أحسن معاملة وأكرموه !

واتأدت لحظة وهى تلهث ، ثم أردفت فى صوت غائر أجش :

ـ القوا القبض منذ الساعة على الفتاة المدعوة أوجستا بنت الشيخ كاتون صانع السلاح !

وكان الأحدب الفيلسوف « جالبا » الذى روعه وذهب بلبه اعتقال ولده « أوكتافيوس » ، يطوف بقصر الامبراطورة كالروح الحائر ، لا يدرى ماذا يجب عليه أن يفعل . كان يخشى على ابنه الوحيد من غدر ميسالين . كان يوجس خيفة من أن توقع المرأة الفاجرة بولده بعد اذ تكون قد قضت لبانتها منه .. فظل يحوم حول القصر ويتسقط الأنباء من الخدم ، ويستفسر فى لباقة وحذر عن موعد عودة الامبراطور .

وكان الامبراطور كلوديوس زوج ميسالين متغيبا فى مدينة « أوستيا » ، يتفقد حاميتها ، فقيل لجالبا أنه قد يعود بعد أسبوع أو شهر . **فجن جنون الشيخ ، وسدت فى وجهه السبل ، وخيل اليه أن ابنه قد استلب منه الى الأبد ، وأن القدر الغاشم قد سلط هذه المرأة على وحيده لتفقده الشرف والشباب والحياة !**

واستبدت به الهواجس ، وبرحت به الريب والشكوك .. فألقى على القصر نظرة يأس ممزقة ، ثم كر راجعا الى بيته . وكان الوقت ظهرا والحر خانقا ، والشمس تتوهج فى كبد

السماء ، فتمهل الشيخ لحظة ومسح عرقه بكم ردائه ، ثم استأنف المسير .

وبغتة طرق سمعه صهيل خيل ، وصفير ابواق ، وذوى مركبات .. فتوقف مذعورا ونظر . نظر الى الأفق القريب . واذا به يستشف عن بعد موكبا عظيما يتقدم صوبه كالعاصفة .. فأسرع وتنحى ولاذ بقاعدة أحد التماثيل واحتجب خلفها . وكان موكب مودة الامبراطور ، فترجل كلوديوس فى هدوء ، وتبعه الأشراف والأعيان .. وصدحت الموسيقى ، وهتف الحرس ، **وأطلت ميسالين من احدى شرفات القصر وجعلت تلوح بمنديل احمر مرحبة بزوجها الذى لم تكن تتوقع أن يعود من رحلته بمثل هذه السرعة !**

وامتلأت فسحة القصر بالجماهير ، وطغت أمواجها على الشوارع المجاورة ، فألفى الشيخ نفسه محاطا بها ، مندفعا معها ، مسوقا بقوتها الى حديقة القصر . فاستسلم وتقدم ، وقلبه يخفق ، وأنفاسه تلهث ، وعينه الواعية المتنبهة تبحث بين الأشراف والأعيان عن رفيق صباه الضابط العظيم « نرسيس » ملازم الامبراطور ..

.. وانه ليحدق بكل ما فى بصره الأحسر من قوة ، واذا به يلمح صديقه الكبير وهو يجتاز السلم الداخلى متأبطا ذراع القنصل مارسلوس . فما أن رآه حتى نسى نفسه ، ونسى أين هو ، وصاح بأعلى صوته غير حافل :

— نرسيس ! نرسيس !

فتلفت الضابط مذهولا وعرفه . فابتسم له . ولكنه لم يستطع أن يلبى نداءه ، لأن الجماهير كانت قد دفعته هو الآخر وغيبته فى أعماق القصر وهى تهتف ..

.. وظلت تهتف لحظة طويلة بعد أن أغلقت الأبواب ، بل ظلت تنادى وتطلب رؤية الامبراطور . **فبرز اليها كلوديوس**

فى صحبة ميسالين . فارتفعت صيحاتها وتعالى تهليلها . فتقدمت ميسالين الى حافة الشرفة ورفعت ذراعها وقالت فى صوت جهير ، وأشعة الشمس تغمرها ، وأضواؤها اللامعة تخطف أبصار الجماهير :

ــ موعدنا غدا فى الملعب الأكبر . ستشهدون أروع ضروب المصارعة . سأقدم لكم أوكتافيوس . أوكتافيوس ابن الشيخ « جالبا » الاغريقى ، بطل روما الجديد ونابغة المصارعين !

.. فدوت الحناجر بالصراخ والأكف بالتصفيق . وجمد الشيخ جالبا وفغر فاه كأبله ، وقد سحقته الريب والظنون ، ولكنه تمالك نفسه .. وبدل أن يكر راجعا الى بيته ، تحول عن طريقه وشق صفوف الجماهير ــ كما يشق السابح الجبار كتل الموج ــ ثم تأبط عصاه وعض على طرف ردائه وانطلق يعدو فى لهفة مخبولة ، نحو قصر صديقه الضابط العظيم نرسيس .

ــ ٤ ــ

● **ولم يكن** الامبراطور كلوديوس ــ فى حقيقته ــ ذلك القيصر المثالى المهيب ، الجليل ، الذى اشتهر بين العامة بالحكمة والرصانة ورجاحة العقل !.. **بل كان فى الواقع رجلا واهن العزم ، مسلوب الارادة ، متقلبا ، متلونا ، مترددا ، لا يستقر على رأى ولا يذعن لنصيحة ، ولا يتبع غير وحى النزوة العابرة ، والعاطفة الطائشة ، والهوى الجامح الوقتى !..** وكان يحب الملق ويستمرىء الزلفى ، ولا تطيب له الحياة الا فى رفقة من لا يعكر عليه صفوه ، ومن يحاول بكل ما أوتى من ذكاء أن يدخل السرور على نفسه ، ويخفف عنه أعباء المنصب وتبعات الحكم ..

وكان ــ كمعظم قياصرة الرومان فى عهد انحطاطهم ــ

مولعا بالملذات ، كلفا بالملاهى ، مستعبدا للبطنة ، متكبرا فى غرور ، مستبدا فى خبث ، طاغية فى مرح جنونى ، وفى قسوة ووحشية !

ولقد بذل المخلصون قصاراهم فى تلطيف طبعه ، وتنوير ذهنه ، واثارة اهتمامه بسلوك ميسالين .. **ولكنه كان لا يريد أن يسمع ، أو يفهم ، أو يرى !.. كان فى الحقيقة يحذر امرأته ويتهيبها ويخشاها !..** كان يرتعد خوفا منها ، وينخلع رهبة امامها ، ويضطرب ويرتبك ويتلعثم كلما اصطدم بها أو حاول اصدار أمر اليها ، أو أراد أن يشعرها بأنه هو الزوج وهو الامبراطور !

وهكذا كان يفزع من ضعفه الى الملاهى .. ويفر من جبنه الى الملذات ، ولا سيما لذة الطعام والشراب ..

وفى اليوم ذاته الذى عاد فيه من (أوستيا) ــ على غير انتظار ــ أراد أن يفرج عن نفسه ، وان يتخلص من التفكير فى امرأته ، وأن يدفن همه فى حفلة شائقة .. فاستبقى ملازمه « نرسيس » فى قصره ، وعهد اليه بتنظيم الحفلة ، ثم التمس منه أن يقضى الليل بقربه ، ليستعين بخدماته عند الاقتضاء ..

والحق أن كلوديوس كان يعلم بالعلاقة الوثيقة التى تربط زوجته ميسالين بالشريف سيليوس ، ولكنه كان لا يصدق ما ترامى اليه من انها تريد أن تتخذ من سيليوس زوجا ثانيا .. ومع ذلك فقد كان مستريبا بها ، موجسا خيفة منها ، يتوقع أن تدبر له المكائد وتحاول أن تقتله بين لحظة وأخرى !

ولقد طالما أسعفه نرسيس بشجاعته ، وحفزه للتخلص من ميسالين بطلاقها ، أو نفيها ، أو قتلها !.. ولكنه كان لا يفتأ يتردد ويتلكأ ، ويلتمس لها الأعذار ، شعورا منه بأن أنصارها فى البلاط ، وفى مجلس الشيوخ ، وبين بعض طبقات

الشعب ، يؤلفون قوة عظيمة مرهوبة ، واسعة النفوذ والسلطان !

فلكي ينسي كلوديوس كل هذا انطوى على نفسه ، وأبى أن يشهد حفلة المصارعة التى وعدت بها ميسالين جماهير الشعب ، ورأى أن يقيم حفلته الخاصة فى الوقت نفسه ، وفى جناح قصى من القصر .

وعلى هذه الفكرة التي زينها له حقده على امرأته ، وغيرته منها ، ورغبته الخفية فى مكايدتها ، ونفوره من الظهور معها فى ملعب المصارعة وهى مصحوبة بسيليوس عشيقها .. نام كلوديوس ملء جفنيه ، مطمئنا الى حراسة نرسيس ، تداعب أحلامه شتى ألوان الطعام والشراب ، تحملها اليه وتصبها له أجمل وأفتن غادات روما !

وما كادت تشرق شمس اليوم التالى حتى توافدت الجماهير على الملعب الكبير ، وأقبلت على القصر جموع الأشراف والأعيان وأعضاء مجلس الشيوخ ، للاشتراك فى حفلة الامبراطور .

وعز على ميسالين أن يقيم زوجها فى نفس اليوم مأدبة ، وأن يرفض الظهور معها فى حفلة المصارعة .. **فأوعزت الى عشيقها سيليوس أن يجرب حظه مرة أخرى ، وأن يدس لكلوديوس السم فى طعامه ، بالاتفاق مع رئيس الطهاة !.. ولم تكن هذه أول مرة يقدم فيها سيليوس على مثل هذا العمل . ولكن عين نرسيس الساهرة كانت ترقبه ، وكانت تلحق به الفشل فى كل محاولة !**

ففى الساعة العاشرة تماما اكتمل عدد المدعوين فى حفلة الامبراطور ، وبدأت الراقصات يرقصن والمطربات يغنين ، وكلوديوس يجيل الطرف فيهن تارة ، وفى ألوان الطعام تارة أخرى ، وهو جالس على منصة عالية ومن حوله اللازم نرسيس والقنصل مارسلوس .

وكان قد ارتدى حلة حريرية ناصعة البياض ، وعقد حول رأسه اكليلا من الغار ، وأسدل على كتفيه وشاحا من المخمل الأزرق ، وأجلس بالقرب منه أجمل عازفة على القيثار ، وشرع يداعبها ويلاطفها ، وهي تسكب له الخمر في كأس كبيرة صيغت من الذهب الخالص . وأمر كلوديوس بأن تغلق عليهم الأبواب ؛ كي لا تترامى اليهم من الملعب الكبير صيحات الجماهير ..

وهكذا انطلقوا يأكلون ويشربون ، ويشهدون الرقص ، ويستمعون الى الموسيقى ، وهم ممددون على الأرائك ، يحتضن كل واحد منهم غانية من غواني روما ، أو جارية من سبايا الشرق ، أو كأسا يظنها غانية فيوسعها ضما وتقبيلا !

أما الملعب الكبير فكان في تلك اللحظة غاصا بالناس . وكانت الجماهير ـ وقد الهبت خيالها دعوة الامبراطورة ـ تتسابق الى المقاعد وتتشاتم وتتضارب ، لتحتل أولى درجات الملعب . وكانت كل أم قد جاءت في صحبة أطفالها ، وكل شاب قد وفد في رفقة حبيبته ، وكل عامل أو صانع قد أقبل ومعه والدته العجوز ، أو والده الشيخ ، أو رهط من الفقراء والصعاليك والمرضى من سكان حيه والأحياء المجاورة .

وكان الملعب يبدو كقوس قزح . فأزياء الجماهير كانت متعددة وأجناسها متباينة ، تضاعف من غرابتها غرابة الوجوه ، واختلاف السمات ، وتنوع السحن .. **وفجأة سمعت في المقاعد الأمامية صرخة امرأة ، وشوهد الأحدب الشيخ ((جالبا)) يدفع هذه المرأة في عنف ، ويحتل بالقوة مقعدا ممتازا في مقدمة المدرج .**

واستنكرت المرأة وقاحته ، فهوت على حدبته بكفها ، فاحتمل اللطمة ، ولكنه جلس .. فقهقه الجمهور اعجابا ، وراح يرشق المرأة المهزومة بالنكات وهو يهتف للشيخ .

وطال أمد الانتظـار ، فعيل صبر الجمهور وبدأ يصرخ ويصفق .

وفى الساعة الحـادية عشرة تماما اقبل حمـلة الأبواق ، واصطفوا داخل حلبة الملعب فى شكل هالة ، ونفخوا فى أبواقهم .. فهللت الجماهير ثم سكنت .

سكنت وتطلعت الى العملاق الافريقى ، حارس مخـدع ميسالين ، الذى توسط الحلبة وحيا الجماهير بسيفه .. ثم تراجع بعد أن أصدر أمره بفتح الباب .

وفتح باب الحلبة وبرز منه عشرة مصارعين ، فنفخ الجنود مرة ثانية فى الأبواق ثم اختفوا .. وبدأ الصراع .

وكان الصراع بالسيوف : فتلاحمت النصال ، واصطدمت بالخوذ والدروع ، ثم سقط أول مصارع .. فالثانى .. فالثالث .. حتى لم يعد باقيا فى الملعب غير رجلين ، تقاتلا نصف ساعة تقريبـا ، فتمكن أحدهما من الآخـر وألقى به على الأرض ، ووضع قدمه على عنقه ، ثم عاجله بطعنة قضت عليه لساعته !

وتقدم المصارع الظافر ملوحا بسيفه . فهتفت له الجماهير طويلا ، ثم صمتت ، صمتت فترة وصاحت :

ــــ أوكتافيوس . نريد أوكتافيوس . المجـد والحيـاة لميسالين !

وكانت الامبراطورة لم تزل فى مخدعها ، تتجمل وتتبرج . فاسرع اليها حارس مخدعها ، فأمرته بأن يبدأ بعرض المشهد الثانى ريثما تفرغ من زينتها وتدخل الملعب .

وعاد الجند فنفخوا فى الأبواق .. ففتح الباب الرهيب مرة ثانيـة ، وبرز منه فوج من النـاس . فوج من النساء والفتيات ، والشيوخ والشبان ، فى أسمال بالية واطمار مهلهلة .. فصرخت الجماهير :

ــــ المسيحيون .. المسيحيون !

فتقدم الشهداء الى وسط الحلبة ، وطفقوا يصلون ويرتلون .. وعندئذ فتح باب جانبى صغير ، واندفعت منه خمسة نمور ضارية جائعــة ، سرعان ما انقضت على الشــهداء وشرعت تفترسهم ، وهم يصرخون وينتحبون ، ويصلون ويرتلون ..

وراق للجماهير هذا المشهد ، فعلا ضجيجهـا ، واختلط هتافها بزئير النمور وعويل الشهداء . وفى تلك اللحظة أقبلت الامبراطورة ، وعن يمينها الشريف سيليوس ، وعن يسارها البطل المرتقب أوكتافيوس .. فحيتها الجماهير بعاصفة من الهتاف ، وأمطرت منصتها بالورود .

وحدق الأحدب الشيخ فى ابنه عن بعد ، ولم يفهم . لم يفهم لماذا هو فى المنصة لا الملعب . ولماذا هو ينقلب من مصارع الى متفرج !؟

وحاول أن يشعره بوجوده . ولكن الشاب لم يبصر ولم يسمع ، وظل ساهما شاردا ، يخالس ميسالين النظر ، ولا يدرى من نواياها الخفية شيئا !!

وبعد أن أتت النمور على جثث الشهداء ، ورفعت أشلاؤها الدامية من الحلبة ، صدحت الموسيقى ، ومنحت الجماهير فترة انتظار تستريح فيها أعصابها .. وانحنت ميسالين على عشيقها سيليوس ، وهمست فى أذنه وقد دبت فى عودها هزة عنيفة ، وتألق فى عينيها ضرام جذل :

ـــ لا تحقد على غريمك . سوف ترى !

وانثنت الى أوكتافيوس وغرست نظراتهـــا فى عينيه ، وجاهدت نفسها لتخفى سورة حقدها وبغضها ، وقالت بصوتها العذب ذى الجرس الصافى :

ـــ ما عدلت عن الافراج عنك الا لأنتهز فرصة هذه الحفلة فأمنحك لقب البطولة ، على مشهد من أهل روما جميعا !

وابتسمت وأردفت :

ـــ سيجيء دورك ، وستهبط الى الحلبة .. فاطمئن !

وما ان كفت الفرقة الموسيقية عن العزف ، وعاد المتفرجون الى أماكنهم ، وتهيئوا لاستقبال المشهد الجديد ، حتى ألقت ميسالين الى عشيقها سيليوس بزهرة كانت تعبث بها ، ثم نهضت . نهضت منصوبة القامة شامخة الرأس ، متلعة الجيد ، ثم نظرت الى الجماهير ورفعت ذراعها ..

وساد صمت عميق ، كصمت السماء قبيل العاصفة !.. فتقدمت ميسالين خطوة ، وصاحت بصوت واضح المخارج ، باتر النبرات :

ـــ اليكم الآن يا أهل روما أروع مشاهد هــذا اليوم!.. ارهفوا آذانكم واسمعوا : **لقد تطاولت علي وعرضت بي فى احد المجتمعات فتاة صلفة مغرورة من بائعــات الهوى ، فقضيت عليها بالموت ! وهى ستبرز الآن أمامكم وأمام هذا البطل .. البطل المرتقب أوكتافيوس !**

وأشارت اليه وأردفت :

ـــ فاذا استطاع أن ينقذها ، فانى أمنحها الحيــاة عن طيب خاطر ، وأعفو عنها !

وأهابت بحارسها الافريقى :

ـــ افتح باب الحلبة وأطلق الفتاة !

فاندلعت العيون واشرأبت الأعناق ، وطفق الشعب يصيح وأبصاره موزعة بين المنصة والحلبة : المجد المجد لميسالين !

وفتح الباب للمرة الثالثة .. **وانطلقت منه فتاة مشعثة الشعر ، ممزقة الثوب ، جاحظة العينين ، واندفعت الى أقصى الحلبة وجعلت تستغيث وتصرخ :**

ـــ أوكتافيوس ! أوكتافيوس !

وما كادت تظهر حتى برز فى أثرها أسد ضخم فظيع ، اقعى على الأرض كالطود الشامخ ، وطفق يزمجر زمجرة هزت

الملعب من أعماقه .. وردت الجماهير واجفة القلب ، حاسرة الطرف ، منخلعة الأعصاب !

وحدق أوكتافيوس الى الفتاة وصاح :

ـــ أوجستا !

فقهقهت ميسالين وأجابت :

ـــ هى بعينها !.. فاهبط اليهـا ، انقذها ! انقـذ الآن خطيبتك ان استطعت !

فتاه عقل الشاب وذهل . ذهل ولم يتحرك . وعنـدئذ سمع صوت الأحدب الشيخ يهدر عن بعد ويقول :

ـــ قم بواجبك يا بنى وتشجع ..

ثم سمع من مؤخرة الملعب صوت آخر يجأر وهو ينتحب :

ـــ ابنتى !

وكان هو صوت صانع السلاح والد « أوجستا » . فلم يكد يسمعه أوكتافيوس حتى تمزق وصحا . صحا كمخبول ولم يتردد . **وفى مثل خطف البرق وثب من المنصة الى الحلبة ، ثم غافل الأسد وعدا صوب أوجستا . وقبل أن يتنبه الوحش ، أطبق أوكتافيوس على الفتاة وحملها بين ذراعيه وقذف بهـا الى المدرج .. فتلقفتهـــا أيدى الجماهير التى انطلقت تهلل وتصرخ :**

ـــ المجد لأوكتافيوس .. والحياة للغانية !

وفى تلك اللحظة زمجر الأسد وقفز . قفز نحو الشاب فى سورة طارئة داهمة .. فامتشق أوكتافيوس سيفه وارتمى عليه . ارتمى عليه فى حذر وطعنه فى جبهته . فثارت ثائرة الوحش وتراجع . فعاجله الشاب بطعنة أخرى . فانقض عليه الأسد بجمع مخلبه وهو يزأر . فراغ منه أوكتافيوس وعدا الى أقصى الحلبة . ولمـا أبصر الوحش مكرا عليه ثبت فى مكانه وسدد اليه بصره ، ثم أغمد فى صدره السيف .

فترنح الأسد وأوشك أن يميد . ففرح أوكتافيوس وهم بأن يطرح سيفه . **ولكن الأسد أفاق بغتة من غشيته . وقبل أن يطوح به ألم جراحه ، استجمع قواه وانقض على الشاب ، وضربه بمخلبه فى صدره .. فهوى اوكتافيوس على الارض صريعاً .. وهوى الوحش بالقرب منه يتخبط فى دمه !**

واندفع العملاق الافريقى الى وسط الحلبة وصاح :

ـــ مات البطل أوكتافيوس ، ولكنه قتل الأسد !.. المجد والحياة لميسالين !

فهبت الجماهير واقفة وانشدت على نغمات الموسيقى نشيد وداع الأبطال ، ومضت تلقى طاقات الورد على جثة أوكتافيوس وهى تغنى ..

واذ ذاك ، وفى صميم تلك الجلبة التى اختلط فيها الغناء بصياح النساء ، وولولة الأطفال ، وعزف الموسيقى .. كان الشيخ الأحدب « جالبا » ـ والد أوكتافيوس ـ يمزق وجهه بأظفاره ويضرب صدره بكلتا يديه ، ويشق صفوف الجماهير وهو يسمع نحيب أوجستا خطيبة ولده ، ويتجه فى جنون نحو منصة ميسالين .. **لقد فقد عقله فأراد أن يثأر منها وأن يقتلها . ان يغافلها ويرديها بطعنة خنجر قبل ان تغادر الملعب** . وانه ليتقدم صوبها راسخ العزم ثابت الخطى ، واذا به يقف على الرغم منه ويتراجع !.. أبصر صديقه ، صديقه الذى لم يستطع أن يتصل به أمس ـ الضابط نرسيس ـ يعتلى المنصة فى عنف وقد اتسعت حدقتاه ، وانبعثت منهما بوارق ملتمعة اشبه بشرارات نار ، ويندفع نحو ميسالين ويصرخ فى وجهها غير حافل :

ـــ اتبعينى حالاً .. هذا امر الامبراطور ! كان طعامه مسموما وقد أكل منه احد العبيد فمات !.. انه يتهمك ويطالبك الساعة للدفاع عن نفسك !

فوجمت ميسالين ولكنها تماسكت وابتسمت . ونظرت الى سيليوس ولم تتحرك . أما الأحدب الشيخ فقد أفقده الفرح صوابه . فاخترق زحمة الجماهير وصاح بكل ما فى قلبه من حقد ولوعة وأسى :

ـــ نرسيس .. نرسيس .. خذنى معك . أريد أن أرى الأمبراطور !

فنهضت ميسالين وتطلعت اليه مستغربة ، فلم يتهيبها ، بل دنا منها وتحداها .. وفى صوت غائر متحشرج تدوى فى أعماقه البعيدة نذر القدر ، ألقى فى وجهها هذه الكلمات :

ـــ انك قد قتلت أوكتافيوس ولدى ، ولكن ثارى لا بد أن يطاردك حتي تلفظى النفس الأخير !

وأردف فى وحشية ، وهو يكاد يقهقه :

ـــ العريضة معى !.. الالتماس الذى كتبته انت بخطك لترفعيه الى مجلس الشيوخ ، منتهزة فرصة غياب الامبراطور فى أوستيا .. انه معى ! وانا أريد أن أرى الامبراطور !

فأبرقت عينا نرسيس ، واختبلت ميسالين وصاحت :

ـــ القوا القبض على هذا الشيخ !

فصرخ نرسيس باسطا ذراعيه :

ـــ ويل لمن يمس هذا الرجل باذى !

والتفت الى من أقبلوا فى صحبته من الأشراف والأعيان والجند ، أنصار الامبراطور ، وقال :

ـــ فرقوا الجماهير ، وسوقوا الى القصر ميســـالين وسيليوس !

واقتاد الاحدب من ذراعه وأردف :

ـــ اتبعنا الى حيث يقيم الامبراطور ..

وطوق الجمع ميسالين وعشيقها ، ودفعهما الى الأمام دفعا ، فاستشاط غضب الأمبراطورة وصاحت :

— الى يا أجريبا !

فامتشق العملاق الأفريقي حسامه . ولكن نرسيس كان أسرع منه ، فعالجه بضربة سيف فى صدره قضت عليه !

وحاول سيليوس أن يذود عن عشيقته . غير أن أحد الضباط تمكن منه وانتزع سيفه . فامتقع وجه ميسالين وارتعدت فرائصها ، ولم تجد بدا من الاذعان ، فتقدمت .. ولكنها تمالكت نفسها وطوقت بذراعها خصر عشيقها ، وقالت له فى صوت خفيض وهى تبتسم :

— تشجع واعتمد على ! ما زلت امرأة ، وما زال فى وسع المرأة أن تهزم امبراطورا !

ومشت مشيتها الملكية وكأنها فى موكب مجد وحياة ، لا فى موكب هزيمة وموت !

وكان الامبراطور ممددا على أريكته ، يفكر فى الأمر الذى أصدره ويرتجف . كان يود أن يقضى على ميسالين ، ويود فى الوقت نفسه أن يجد مبررا للعفو عنها ! .. كان خوفه منها يشوش فكره ، ويزعزع ارادته ، ويبتليه بشبه نوبات متقطعة من الحماسة والفتور ، والاقدام والاحجام ، والبسالة والجبن !.. فلما دخل عليه نرسيس مصحوبا بالشيخ « جالبا » ، تلفت اليهما وهو ساهم .. ثم حدق الى الشيخ الغريب فى ذعر وأهاب بالضابط :

— من هذا الرجل ؟

وقبل أن ينطق نرسيس أو الأحدب بكلمة ، دخلت ميسالين وارتمت على زوجها ، وعانقته عناقا حارا وبكت .. اجهشت بالبكاء وهى تعانقه وتقبله .. ثم اختلجت وتأوهت وتثنت . وفى وقاحة منكرة كوقاحة البغايا ، حلت شعرها ونضت عنها ثوبها ، وضمت اليها كلوديوس وهى شبه عارية ، وطفقت تهمس فى أذنه بكل حرارة أنوثتها ولهب جثمانها :

ـــ لا تنصت لهم . انهم مفترون ومغرضون . الحقـد يملأ قلوبهم . هم الذين دسوا السم فى طعامك . هو نرسيس الذى يطمع فى الملك بعدك . اما أنا فأعبدك ، وأنت وحدك مولاى وسيدى . فاقتلنى ، اقتلنى اذا شئت . ولكن اعلم انى طاهرة وبريئة . انى أحبك ، وانى وان كنت مسكينة ومظلومة الا أن أسعد لحظة فى حياتى هى اللحظة التى أموت فيها بيدك !

فاضطرب كلوديوس وانتشى . ولكن نرسيس اندفع نحوه ، وجذب الأحدب من ذراعه ، وقال فى صوت جهير :

ـــ ابرز العريضة ((يا جالبا)) ! تقدم ! تقدم ولا تخف !

ففتح كلوديوس عينيه المنتفختين وقال :

ـــ أية عريضة ؟ .

فصاح الشيخ جالبا وقد احتوته شجاعة دونها شجاعة ولده :

ـــ انه التماس .. بل انذار مشوب بتهـديد واضح ومصوغ فى قالب التماس ، **كتبته الامبراطورة لترفعه الى مجلس الشيوخ أثناء غيبتك ، كى يخول لها وهى زوجتك الشرعية حق التزوج برجل ثان .. واليك المستند يا مولاى !**

ودفع بالورقة الى الامبراطور . فما كاد كلوديوس يلقى عليها نظرة حتى صرخ :

ـــ انه خطك يا ميسالين !

فهتفت المرأة على الفور :

ـــ انه سيليوس لا أنا ! هو الذى حرضنى ! هو الذى أوعز الى ! ولكنى استفقت وثبت الى رشـدى ، فألقيت بالعريضة فى احدى الحـــدائق وأقسمت بالآلهة أن أطرد سيليوس اليوم من روما ، وأن أظل طوال حياتى كما أنا

الآن وفية لك وحدك ، لا أعرف غيرك سيدا وعاشقا وحليلا !

فجحظت عينا سيليوس ، واستهول غدر المرأة ونفاقها ، فتقدم رافعا رأسه وقال :

— انها كاذبة ! الخط خطها ! وهى التى اتخذتنى عشيقا بمحض ارادتها ، وأرادت أن تفتتن بى ، ثم تسعى لقتلك ثم تتوجنى امبراطورا ! لقد ضحت بى الآن لتفلت من عقابك . ولكنك لو عفوت عنها فستكون أنت ، أنت يا كلوديوس أول ضحاياها ! أما أنا فمن المحال أن أدعك تطردنى من وطنى أو تعاملنى كمجرم فتسلم عنقى الى سيف الجلاد ! وداعا !

واستل سيفه وبقر به بطنه . فانهار وهو يجاهد كي يخنق ألمه ولا يرسل فى لحظاته الأخيرة اية زفرة . فصاح نرسيس متوسلا وهو يمد ذراعيه ويشير الى ميسالين :

— لا ترحمها يا مولاى . اتبعها بعشيقها ! انقذ نفسك وانقذنا !

فجثت ميسالين وصرخت وهى تقبل قدمى زوجها :

— الرحمة يا كلوديوس . انى أحبك !

فقال نرسيس منذرا :

— لو عفوت عنها يا مولاى ، فثق انك لا بد أن تفقدنى وتفقد منذ هذه اللحظة أنصارك جميعا !

فارتعش كلوديوس وتمتم :

— اعطوها .. اعطوها خنجرا ! لقد كانت امبراطورة ويجب أن تعرف كيف تموت !

فأسرع نرسيس وناولها خنجره .. فاصفر وجهها ، واندلعت عيناها ، وأمسكت بمقبض الخنجر وهى ترتعد من فرعها الى قدمها . عز عليها شبابها وجمالها ، ومجدها

ونعيمها ، وجبروتها وسلطانها . فجمد الدم فى عروقها ، ولم تستطع أن تدنى طرف النصل من صدرها . فدنا منها نرسيس ، وانحنى عليها ، ثم أمسك بيدها المشلولة ودفع بالخنجر فى صدرها حتى مقبضه !

وتهاوت ميسالين والدم ينزف منها ، وعيناها تحدقان فى الشيخ الأحدب المأخوذ ..

.. وعندئذ ، وفى مثل مسرى النار ، ترامى النبأ من القصر الى الخارج .. فاندفعت الجماهير الواعية ، الموالية لنرسيس ، الحاقدة على الامبراطورة ، الثائرة على نظام الحكم كله ، واقتحمت البهو الواسع . فتقدم أحد الاشراف ، وحنى سيفه أمام كلوديوس وقال :

ـــ ماتت ميسالين الفاجرة . المجد للامبراطور !

ولكن الجمهور هتف هتافا قاصفا مجلجلا :

ـــ المجد للشعب ! المجد لروما !

فانكمش كلوديوس ، وارتعدت فرائصه ! أحس قوة الشعب الغاضب لأول مرة فى حياته ، فتحامل على نفسه ونهض . ولم يسعه الا أن يلوح للجماهير ويردد صاغرا :

ـــ المجد للشعب . المجد لروما .

أما الأحدب الشيخ جالبا ، الذى كان فى تلك اللحظة أسعد الناس وأشقاهم ، فقد انسل من القصر .. ولما استقبل الشارع العريض ، انطلق من فوره الى بيت « كاتون » صانع السلاح ، وجل أمله فى هذه الدنيا أن يرى خطيبة ابنه « أوجستا » ، وأن يعيش أيامه الباقية بقربها ، **وأن يبكى معها ـ الوقت بعد الآخر ـ ولده الوحيد أوكتافيوس ، بطل العفة والشهامة والوفاء ، وآخر ضحية من ضحايا الامبراطورة الفاجرة « ميسالين » !**

....



تعال معى ..
إلى جزيرة "بالى"

أحدث كتاب للصحفى العالمى "چورچ بيلينكين"

DESTINATION TOKYO (BY : GEORGE BILAINKIN)

عرض وتلخيص : محمد بدر الدين خليل

الجزيرة الحالمة ، فى الشرق الأقصى

● اذا قلنا ان ((جورج بيلينكين)) ولد صحفيا ذا حاسة غير عادية لكشف حقـــائق السياسات الدولية ، والتعمق فى وصف بلاد العالم التى يزورها ، لا نكون مغالين اطلاقا : ففى الرابعة عشرة من عمره كان يراســـل ((لويد جورج)) رئيس وزراء ((الامبراطورية !)) البريطانية ! .. وفى السابعة عشرة كان يعلق على الشؤون الخارجيـــة فى صحيفـــة ((صنداى ميركورى)) .. وفى السادســـة والعشرين راس تحرير صحيفة كبيرة فى الملايو ، وكان ممثلا لصحيفة ((التايمز)) البريطانيـــة العريقة .. ثم كبيرا للمراسلين الديبلوماسيين لمجموعة صحف اللورد ((كيمزلى)) .. وكان ضيفا — فى مناسبات عديدة منذ سنة ١٩٣٨ — على ملوك ورؤســـاء ٤٤ دولة ، بينهم : الملك فيصل ، وسلفه الملك سعود ، والجنرال ديجول ، والدكتور سالازار ، وجون كنيدى ، و ((بيرون)) (عندما كان رئيسا للارجنتين) .. ونشرت له صحف لنـــدن وامريـــكا احاديث معهم ، وتحقيقات صحفية سياسية فى دولهم ..

و ((بيلينكين)) يمتاز ببعد نظر ، وجراة فى انتقاد سيطرة البيض على دول آسيا ، وفى مهاجمـــة الاستعمار الغربى .. وكان من اقسى من حملوا على ((ترومان)) بسبب الدمار الذى احدثته القنبلة الذرية فى (هيروشيما) ، ولسوء سياسته مع اليابان .. كما تنبـــا — فى كتاب أصدره فى مارس ١٩٣٤ — بمحاولة ((هتلر)) غزو بريطانيا ، وتحقق توقعـــه بعد خمس ســـنوات !

وفى حديثه عن سنغافورة والملايو واندونيسيا — وغيرها من دول الشرق الاقصى — يلمس القارىء نقمتـــه على السياســـة

الغربية ازاء هذه الدول ، وازاء الصين الشعبية .. ورائده في تحقيقاته ان تلميذا لكونفوشيوس سأله يوما عن مقومات الحكم ، فقال : « كفاية في القوت ، وكفاية في القوات ، وثقة الشعب » !

والكتاب الذي نلخص لك فصلا منه في الصفحات التالية ، عنوانه : « في الطريق الى طوكيو » ، وفيه يتحدث « بيلينكين » عن زياراته لبلاد الشرق الاقصى ، ابتداء من : الهند ، وكشمير ، ثم سنغافورة ، واندونيسيا .. فالفيليبين ، واخيرا : اليابان ..

وفيما يلي يحدثنا المراسل العالمي حديثا ممتعا عن زيارته لجزيرة (بالي) ، اجمل جزر اندونيسيا :

بالي : شمس مشرقة ، وابتسامات ، ونسمات ودودة

● **طالما** اجتذبتني (بالي) ، الجزيرة التي لا سبيل الى وصف فتنتها ، والتي تستلقي في مضيق (لومبوك) ، سابحة في الشمس المشرقة ، والنسائم الودودة . **فكم رغبت في أن اشهد فيها – بين الخضرة اليانعة ، وتحت القمم ذات القداسة ، ووسط المياه الزهوية – ثمار الحضارة ((الجاوية)) الشامخة ، وثقافة ترجع الى الفي أو ثلاثة آلاف عام !.. كم رغبت في أن أتأمل باعجاب سلالة الرجال والنساء الذين صدوا بنسالة غزوات فاتحين من البيض الأقوياء الحاذقين ، الى بداية هذا القرن .. ولو قدر لي أن أبقى هنا الى الأبد ، لبقيت مغتبطا .**

عندما هبطنا من الطائرة ، بدا جنود جمهورية أندونيسيا – السمر ، الذين تقل أحجامهم عن المتوسط – فخورين بثيابهم الرسمية ، رمز الحرية المكتسبة حديثا ، بعد حكم البيض الغلاظ . وتراءت على ملامحهم سيماء الازدراء لأي زائر أبيض !

على أن (بالي) نفسها استقبلتني بدفء وحفاوة .. كان

الماء تحت « مصاطب » الأرز ، يلمع عاكسا صور النساء العاملات فى الحقول .. ومزارع جوز الهند المنسقة تزين المنظر الطبيعى بوشى جميل .. والمعابد الخاصة الملحقة بالمنازل ، توجه تقريعا صامتا لعديم الايمان .. والنسيم العليل ، المعبق بشذى النخيل ، لا يمكن أن ينمحى من الذاكرة .. والسماء الصافية من الشوائب ، وخصب الأرض المزروعة ، يطبعان المشاعر بقوة وسرعة .. وفى خطوات أنعام حمل الأثقال ، البطيئة ، ما يميزها عن غيرها من النعام فى أى مكان ، حتى اننى رجوت مرافقى الثرثارين ـ أكثر من مرة ـ أن يكبحا جماح سائق سيارتى ، الذى كانت السرعة تستهويه ككثير من الآسيويين حديثى العهد بهذا الاختراع الشيطانى القادم من الغرب !

وكثيرا ما وصفت (بالى) بأنها الواحة التى تسير فيها الحسناوات السمراوات ، بخصور عارية ، ولكنى لم أر منهن الا قليلات .. وسرعان ما قدر لـ (بالى) أن تكشف عن نفسها بشكل أصدق وأصح : ثلاث نساء مثقلات ـ تتراوح أعمارهن بين الثلاثين والخامسة والثلاثين ـ يحملن على رؤوسهن كميات من الخشب المقتطع للوقود .. وكن يمشين بخطوات متزنة ، ببراعة مألوفة بين الآسيويات ، ولكن شيئا من الاحتجاج شابها ، لأن غريبا اقتحم طريقهن ! .. كن يسرن فى صف واحد ، بخفة توحى بجلد وقوة تحمل . واذ اقتربت منهن ، لمحت بريقا عابرا فى عينين معبرتين ، تحولتا بسرعة الى الأرض .. فقد ابتسمت أولى النساء فى خبث . كانت فى ثوب قطنى خفيف ، رمادى اللون تتخلله نقوش بيضاء .. وما من كساء آخر سوى منديل ليمونى اللون ، يقى الشعر الحريرى اللامع من كتل الخشب ، ولا حذاء ، ولا جوارب .. وكان يزين يدها خاتم معدنى مرصع ، وتحيط بعنقها قلادة معدنية تتخللها

أحجار خضراء .. وكانت الثانية مثلها ، وقد صدعت بالأمر الرسمى الذى أصدرته حكومة (بالى) ملزمة النساء – اللهم الا الصغيرات أو الطاعنات فى السن – بأن يسترن صدورهن . وكان للمرأة الثالثة وجه برىء ، وان كان مثيرا ، وقد سارت رافعة الرأس ، تطوح بذراعيها الجميلتى الاتساق بحركة متزنة .. ولم تجذب الوشاح – لتزيد من ستر صدرها ، امتثالا لداعى الحياء – الا بعد أن تجاوزتها السيارة !



تلقى التماثيل الخشبية النصفية التى يصنعها أهل جزيرة ((بالى)) تقديرا ورواجا فى كافة انحاء العالم .. ويرى فى الصورة صبى من أهل الجزيرة يتأمل تمثالا نصفيا منها ..

الحياة الوادعة .. فى الجزيرة الساحرة

● **ومن** الافق تمتد معالم زراعة منسقة وفقا لغاية محددة ، توحى بخصوبة رائعة ، واحترام لكرامة الانسان .. فان صفوف النبات – فى كل مكان – تكاد تكون مرسومة بدقة ، وبزوايا محددة ، كما ان المسافات بين أحواض الأرز تكاد تكون محسوبة بدقة .. ووجدت فيها أقصى ما استطاع الكادح أن يبلغه من كرامة مرتجاه ...

اصحيح ان (بالى) جزيرة أشبه بجوهرة كبيرة الحجم ؟ .. هكذا خطر لى لحظة ، ولكنها تبلغ ٩٠ ميلا عرضا ، و ٤٥ ميلا – على الأكثر – من الشمال الى الجنوب ، وتضم مليونين ونصف مليون من السكان ، معظمهم من الوطنيين – وبينهم حوالى ١٠ آلاف من الصينيين – وعدد من الأوربيين ، والأسيويين المخلطين . وتمثل الأبقار والخنازير الشطر الأكبر من الماشية ، بينما تكاد زراعتهم تقتصر على الأرز . وينافس انتاج البن أنواع النشاط الباقية . وهنالك حرف يدوية .. وتلقى التماثيل النصفية – التى يصنعها أهل (بالى) من الخشب – تقديرا فى كافة ارجاء العالم .. كما أن الأساور ، التى تتخللها ثقوب زخرفية ، من الفضة والذهب ، ذائعة الصيت .

ورغبت فى ان اعرف السر فى ان اهل (بالى) يشعرون بهناء هادىء صاف ، يقدمون الدليل عليه فى كل حركة . ولم تكن المهمة سهلة ، فرحت اراقب الخدم فى الفندق ، والشخصيات المغمورة فى (دين باسار) ، عاصمة الجزيرة ..

وكنت المح فيمن أتأملهم ـ من المارة على الأقـــدام أو على الدراجات ـ أمارات خاطفـة لشعور بالازدراء لأى أجنبى أبيض .. ولعلهم يعتبرون كل غريب أبيض هولنديا دخيلا ، فان الهولنديين موضع كراهية ، حتى فى (بالى) ، وان خيل الى أن معدل الكراهية فيها أقل منه فى بقية أرجاء الجمهورية . ففى (بالى) ـ حيث البراكين التى تحـــولت فوهاتها الى بحيرات صافية ، والغابات المزدحمة بالقرود ـ دنيا لا تربطها بدنيانا صلات كثيرة !

ويكاد أهل (بالى) أن يكونوا فنانين ، عن بكرة أبيهم ، يجيدون الرسم بالألوان ، ويحذقون الرقص ، ويعزفون على أغرب الأدوات موسـيقى حزينـــة ولكنها تهز المشـــاعر ، ويستخدمون ثيابا تنكرية ـ وان لم يعرضوها لكل مشاهد ـ تظهرهم بمظهر القردة ، أو الأمـــراء ، أو الملوك ، أو الأفاعى!
وتقوم البراكين الشاهقة ، كأنها تذكر القوم بعدم الاطمئنـــان الى الحياة . وهم يعتقـــدون أن بركان (جوننج أجونج) ـ وارتفاعه ١٠ر٥٦٠ قدما ـ هو « سرة » الأرض ، وان المرتفعات مخصصة للآلهة ، والاماكن الوسطى للآدميين ، ومنخفضات الأرض واغوارها للأرواح الخفية !

المبادىء العشرة للحياة فى (بالى) !

● **وعندما** يتوفر ثراء الطبيعة بهذا السخاء ، يغدو من الصعب الحكم لأى العوامل بالفضل الاكبر فيما لجزيرة بالى من سحر للعين وللعقل وللعواطف . ومع ذلك ، فلعل موسيقى « الجامل » الناعمة ، التى تسرى أنغامها ـ على غير توقع ـ فى

الأمسيات المكتهلة أو فى الصباح المبكر ، هى الأكثر استهواء للنفس .. فهى رقيقة ، ناعمة ، كأنها نجوى ترفع الى آلهة لا يتطاول اليها بصر البشر .. ان أنغام « الجامل » تتصاعد ببطء ورقة ، فتوحى بالرجاء فى السمو الى عوالم عليا ، ثم تحتد فجأة وكأنها تهوى الى الواقع البشرى ، وتمعن فى الهبوط وكأنها تنتهى الى الموت ــ الذى لا مفر منه ــ أو الى الخيبة !

والموسيقى تمثل ــ فى الجزيرة ــ ما هو أكثر من الحياة ، فهى تنبعث من المعابد الكثيرة ، التى يتعبد فيها الهندوكيون . وهى تسمع فى كثير من الأحيان ، لأن الأعياد تقام فى كل معبد كأحداث هامة ، ولأنها ــ الموسيقى ــ هى الغاية الكبرى فى المآدب والحفلات على طول العام .. والعام فى (بالى) ٢١٠ أيام . ويؤمن أهل الجزيرة بآله واحد ، وبخلود الروح ، وبالجزاء عن كل عمل طيب (كارمابالا) ، وبتقمص الروح فى شكل بشرى (توميتيسان) ، وبحالة الكمال التى تتحرر فيها الروح الى الأبد فلا تعود متقمصة جسدا آخر (موكسا) .

ولأهل (بالى) عشرة مبادىء اساسية فى الحياة : (اهيمسا) حب المرء لأخوته البشر ، و (براهماكارى) اى قمع الرغبات والشهوة ، و (ساتيا) اى نقاء القلب وصدق الاخلاص ، و (ايواهارا) اى تجنب المشاجرات ، و (استنيا) اى تحريم سرقة ما يملكه الغير ، و (اكرودا) وهى السيطرة على الغضب ، و (جورو سوسروسا) اى احترام المعلم والأبوين والحكام ، و (سوتجا) اى الاستقامة ، و (اهارا لاجاوا) اى القصد فى الأكل والشراب ، و (ابراماداً) اى الحذر واليقظة .

وفى عالم تسوده هذه المبادىء ، لا تحتاج الصفة الغالبة لأهل (بالى) الى دراسة أو ملاحظة طويلة .. ففى قطاراتنا ـ لا سيما فى لندن والمدن الكبرى ـ نجد الصياح والردود الخشنة من الأمور العادية ، ونجد الجباه تتجعد قبل سن الثلاثين .. ويفسد الاكفهرار ما تكون الطبيعة قد أضفته من بهاء على أقبحنا شكلا . وفى مقابل القلق والعجلة فى بلاد البيض ، نجد النقيض تماما فى طريقة كلام أهل (بالى) المتئدة ، وفى مشيهم المتزن ، المكتمل الرشاقة ، المتسم بالخفة الطبيعية ، وهم حفاة .. وفى التأرجح الجذاب للذراعين واليدين ، وفى حركة الردفين والساقين .. ولا يبدو فى (بالى) أثر للفزع أو الذعر .

انهم كثيرا ما يقدمون القرابين فى معابدهم ، أو يحضرون حفلات تتعلق بحياة الانسان عبر هذه الدنيا . **فطقوس الاحتفالات تضم مآدب تقام فى اوائل الحمل ليبارك الله الجنين ، وتسمع الحامل قصص المشاهير وفضائلهم ليأتى الجنين على خلق حسن . وفى المعابد الصغيرة المشيدة من الغاب (البوص) تقام حفلات لايداع مشيمة الوليد (أو الحبل السرى) جوف قشرة ثمرة جوز الهند !..** وعلى المذبح توضع القرابين ، وبعد ثلاثة أيام من مولد الطفل تقام مأدبة ، وفى اليوم الثانى والأربعين تنظم حفلة باذخة بمناسبة أول حمام له ، ثم يحتفل بأول مرة يمس فيها الطفل الأرض ، وفى اليوم الخامس بعد المائة يحتفل بمرور ثلاثة أشهر من عمره ، وعند تمام عامه الأول (والعام مائتان وعشرة من الايام) يقام احتفال آخر .. ولحسن حظ الطفل والأبوين والأصدقاء ، ينسى القوم أعياد الميلاد التالية !

لا يعرفون الخـوف من الموت !

● ويؤمن أهل (بالى) بوجود أعـــداء شريرين ــ هم شياطين ستة ــ وللتغلب عليهم تقرض الأسنان الأماميـــة ، ومنها الأنياب ، بمبرد . ولو قدر لشخص أن يموت قبل برد أسنانه ، يحتفل ببردها قبل طقوس الجنازة .. وقد تبـدو هذه العادات همجية ، ولكنى اقتنعت برضـــاء القـوم عن أنفسهم وأنا أتأملهم وهم يعملون فى حقـــول الأرز ، ويعنون بحيواناتهم ، ويجوسون خلال غنمهم ، ويتجاذبون الأحـاديث بجوار المعابد ، ويسيرون فى صف واحمالهم فوق رؤوسهم . وما أحسب أهل المدن الغربية أسعد منهم .

وهم لا يعرفون الخوف من الموت .. فالموت عندهم مبعث للغبطـة ، لا للحزن ، اذ انه يمثل اكتمال أقدس واجب ، الا وهو تحرر الروح لتسمو الى العالم العلوى .

وكثيرا ما وجدت الرقص فى القرى التى زرتها ، فلمست فيه بساطة عمل فنى راق .. وما قدر لأولانوفا ــ نجمة باليه بولشوى » التى لا تبارى ــ أن تسيطر على مشاهديها يومـا بسحر يفوق سحر هؤلاء الرجال السمر من أهل (بالى) .. والرقص « ضرورة لابد منها » ، تتاح لأى زائر للجزيرة ..

ولقد جعلتنى كراهيتهم للبيض ــ أى أبيض ــ اتوق الى لقاء الشباب الذين قد لا يذهب نفورهم من لونى الى هـذا الحد .. وأتاح لى مدرس شاب ــ فى الخامسة والعشرين ــ زيارة مدرسة تضم فصولا للمرحـــلة الاعـدادية ، وفصولا للمرحلة الثانوية وما يعادلها .. واستدعى ثلاث طالبـــات ،

كانت احداهن تدرس منهجا للمعلمات .. وقالت انها تتلقى اصول التربية والتعليم ، الى جانب الكرة الطـائرة ، وكرة السلة ، والجمباز ، والحرف اليدوية ، والعزف على البيانو ، والرقص المحلى ، وموسيقى « الاوركسترا » الغربيـة ! .. وقد ظلت ثلاث سنوات تدرس الاندونيسـية ، والانجليزية ، ولغة « بالى » ، الى جانب الكتابة « السانسكريتية » .. وكان ابوها يدفع ٣٠٠ روبية شهريا ـ وهو مزارع ـ مقابل التحاقها بالقسم الداخلى بالمدرسة ، حيث تشترك مع أربع طالبات فى حجرة للنوم ، ببيت الطالبات الذى يضم أربعين فتاة .

وقالت « كيتوت راى سوريادى » ـ وهذا اسم الفتـاة التى كانت فى السابعة عشرة ـ انها التحقت بالمدرسـة بعـد امتحان استغرق عدة أيام .. وقد بدأت دراسـتها فى سن الخامسة .. **وأبدت دهشـة حين سألتها ان كان والداها يبديان لها عواطفهما حين تفارقهما الى المدرسة ، ثم قالت ان أمها كانت تقبلها حتى سن السادسـة .. « ان أمى وأبى لا يقبلان الأطفال بعد السادسـة . واخوتى واخواتى يبـدون عواطفهم ، ولكن بأن يربتوا على ذراعى فقط » ! .**

وفى اليوم التالى اجتمعت بناظر المدرسـة ، فى حضور الفتيات .. وقد ذكر لى أن اللغتين الانجـليزية والألمانيـة تدرسان اجباريا فى المدرسة الثانوية حتى سن الخامسة عشرة .. أما الاندونيسية ولغة بالى ، فتدرسان ابتداء من المرحـلة الابتدائية .. وعندما يتعذر وجود مدرس للألمانيـة ، تحل اللغة الفرنسية محلها . وكل الأسـاتذة من الاندونيسيين ، وتتضمن برامج الدراسـة : التاريخ ، والشؤون العالميـة ، والعلوم الرياضية ، والطبيعة ، والكيمياء ، وعلم النبـات ، والجغرافيا ، ومسك الدفاتر ، والحكم المحلى ، وبعض الحرف



مدرس اندونيسى يرتدى ملابس
نصفها أوربى ونصفها اندونيسى

اليدوية والهوايات . وكانت المدرسة تعاني نقصا فى الكتب الدراسية ، وتعاني ضيقا فى المبانى الكافية للقسم الداخلى ، فكان كثيرون من الطلبة والطالبات يأوون الى مساكن خاصة .. ولم تكن السينما مباحة « نظرا لتأثيرها السيء على الصغار » .

تقاليد الحب والزواج فى الجزيرة

● **وهناك** ناحية تلقى فيها (بالى) درسا على أوربا الغربية ، وبريطانيا بوجه خاص ، فى التوفير والاقتصاد فى الأعراس .. فيكفى هنا أن ترد الفتاة بالايجاب ، عن سؤال واحد : « هل انت راغبة ؟ » .. ثم « تخطف » من بيتها ذات ليلة .. الأمر غاية فى البساطة ، فهى تحمل ثيابها فى « سلة » ، وتمكث مع الخطيب لدى صديقة لثلاثة أيام ، يعلن بعدها الوالدان موافقتهما ، ثم تقام احتفالات مناسبة . فان (بالى) ـ بطقسها الجميل ـ تستغنى عن كل المصارحات العاطفية الحارة تحت ضوء القمر ، فى سيارات أنيقة ، أو فى « كابين » سفينة بحرية ، أو على درجات سلم قاعة للرقص .. ثلاث كلمات تكفي لعرض عملى للخطبة ، وهزة من الرأس تعبر عن قبول الفتاة !

ان أهل (بالى) لا يعرفون المشكلات الحادة والمصطنعة فى سبيل البقاء ، اذ يعيشون فى هذه الجزيرة الناعمة الهادئة ، حيث العمل مكفول ، وحيث الفصول تتوالى فى انسياب مثالى ، والفواكه العجيبة ـ من مانجو وموز وأناناس وما اليها ـ متوفرة بغزارة دائما ، والأرض تتفجر فى غبطة عن أرز كاف ، والمساكن لا تشغل بال أحد ..

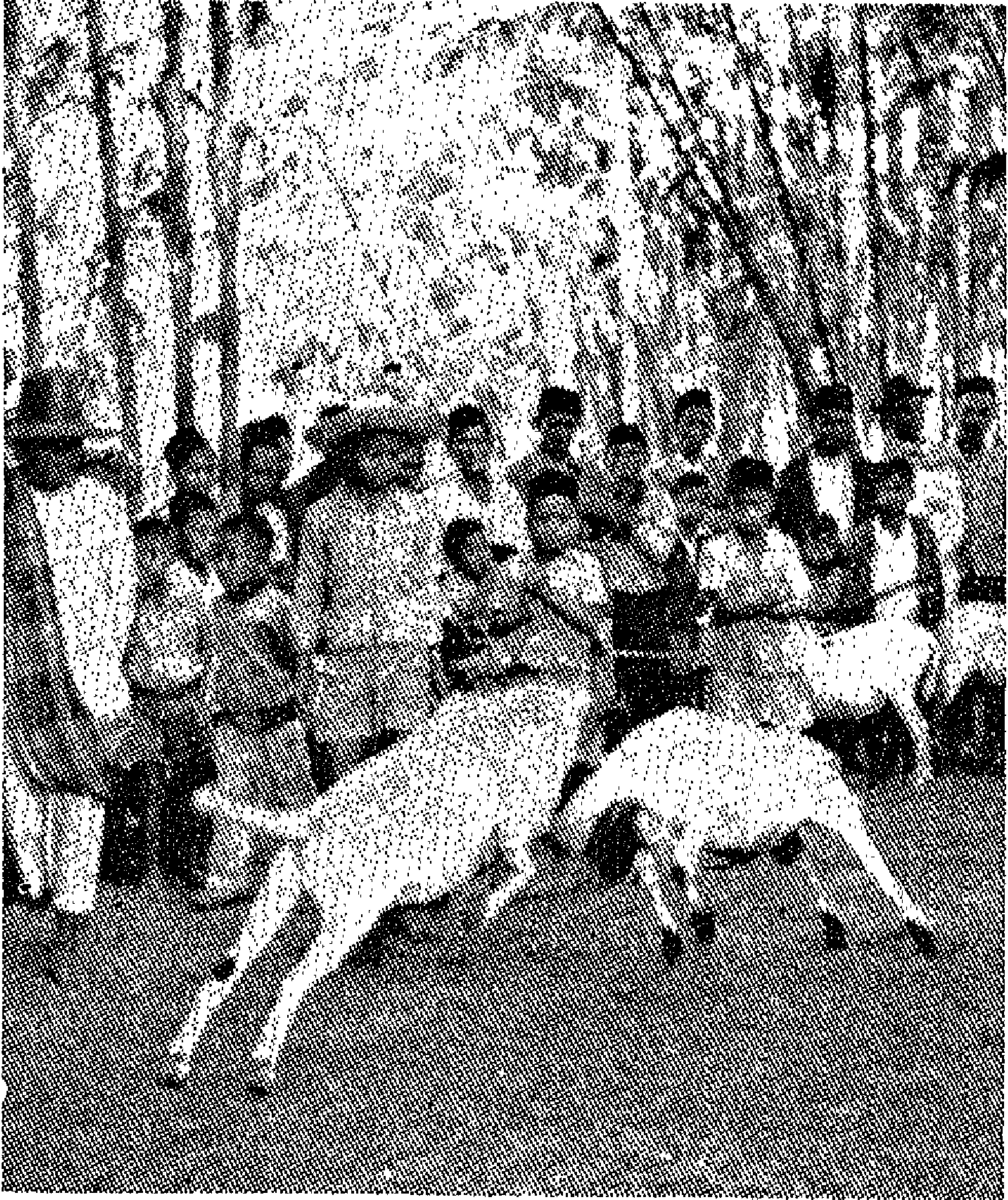
ولقد أتاح لى التلكؤ حول محطة « الاوتوبيس » الرئيسية

الوحيدة ، اكتشافات كثيرة ، منها أن بعض الاناث يفقن غيرهن اهتمـــاما بألوان ثيابهن ، وبعض الرجـــال يشغلون بألوان « الكوفية » التى تعلو رؤوسهم .. والأولاد الذين تجاوزوا سن الدراسة يعاكسون بائعات الحلوى .. والنساء يتجمعن فى حلقات لتجاذب الحـــديث ، دون أن يوجـــد بينهن رجل واحد ...

ونظرا لغيـــاب الحاكم العـــام للجزيرة ، زرت « رئيس البروتوكول » ، الذى قضى خمس سنوات فى الولايات المتحدة، والذى أوتى جهازا للتليفون فى مكتبه .. وهناك تبينت ايضاحا لمسألة أو اثنتين كانتا تحيرانى : علمت أن (بالى) تنقسم الى ثمانى منـــاطق سكنية . وكنت مشوقا لمعرفة ما حققـــه الهولنديون من اصلاحات خلال السنوات الخمسين والثلاثمائة التى مكثوها فى اندونيسيا ، والفترة الأقصر أمدا التى قضوها فى (بالى) ، اذ تغلبوا عليها نهائيا فى سنة ١٩١٤ ... وتبينت أن الاتصال التليفونى بجاكارتا يتوقف فى الساعة الرابعـــة مساء ، وأن كان مكتب البريد يظل مفتوحا فى الليل .. ومن الممكن ارسال برقيات فى المساء ، اذا كانت ذات صفة عاجلة .. واغتبطت اذ عرفت أن ثمة صحيفة يومية تصـــدر فى (دن باسار) ، عاصمة الجزيرة .. **واســـتولى الحرج على صغار الموظفين وكبارهم ، حين سألت عن مدى صحة ما سمعت عن قوانين صدرت بمنع النساء من السير فى الشوارع عاريات الصدور ، وبتحريم تصوير ذوات الصـــدور العـــارية .. وأجابونى فى فتور : « نعم »** .. وعندما سألت عما دعا لاصدار مثل هذا القانون ، قيل لى : « كان جنود الولايات المتحـــدة يفدون ، ويدفعون للفتيات نقودا لإلتقـــاط صورهن ، وكان مسلكهم العلنى يخدش الحياء » . وقد صدر القانون استجابة لطلب من الاندونيسيات ، وبتحبيذ من حكومة اندونيسيا ..

قرية (بالى) الغامضة !

● وبين أمتع اكتشافاتى (بالى) اخرى ، أكثر نقـاء ـ بداخل (بالى) ـ تفخر بحرصها على تقاليد وعادات ترجع الى



بعض اهالى جـــزيرة (بالى)
يتفرجون على أحد مشاهد مصارعة الحيوانات

ألف سنة مضت .. كانت قرية مغمورة ، تختلف عن بقية هذه الجنة ، وتفضي اليها طرق أقل صلاحية من بقية الطرق ، وتقبع محوطة بالغموض .. قرية لم تفسدها مدنية أندونيسيا ولا مدنية هولندا ، ولم يستطع حتى حكامها ـ المشهورون بروح القتال ـ أن يخضعوها تماما .. انها البقية الباقية من « امبراطورية تينجانان » التى تزعم انهـا تضم سلالة نقية من الاندونيسيين .. وقد اهتدينا اليها على بضعة أميال جنوب (كارانجازيم) .

وشاهدت ـ والسيارة تحملنى الى تلك القرية ـ عددا من القرى ، جلس رجالها فى وسط الطريق ، وهم يصنعون الحصر .. بينما وقف آخرون يعقدون صفقات خنازير كانت تنقل ببطء الى سلال كبيرة بديعة .. وفى مرات ، كنا نمر بنساء فاتنات من (بالى) يلوحن بعصى هائلة من البوص ، وامامهن صفوف طويلة من البط تسير بهدوء ونظام وكأنها جنود من مقاتلى الأدغال برح بهم التعب !

وكأنما كان سر قرية (بالى) الأصيلة محوطا بما يصونه : ففجأة ، تنتهى الطريق ، دون أية معالم ترشد لاتجـاه .. **ولكنا اكتشفنا الى اليسار ، درجات متوارية ، قادت الى مدخل ضيق يتوسط أسوارا سميكة ، ولا يسمح بالمرور الا لشخص واحد .. وتحيط الأسوار بالقرية من الجهات الأربع ((ولا يشجع اهل (بالى الأصلية) الزائرين ، ولو كانوا من بقية ارجاء الجزيرة ، بل يقابلونهم فى ازورار واكفهرار ، وهم يؤمنون بعبادة أرواح السلف القدامي ، ويعينون أناسا ينظفون طرق القرية من الدنس الذى يلحقها من اقدام الغرباء !))** .

وما ان عبرت الأسوار ، وتأملت الطريق الرئيسية البالغة النظافة ، حتى أيقنت بأن (تينجانان) ـ وهو اسم القرية ـ

بمعزل تماما عن العالم الخارجى .. ولم تكن ثمة ابتسامات ولا عبوس على وجوه القلائل الذين رأيتهم بجوار بيوت حجرية شيدت بمهارة وعناية .. وكانت قسمات وجوههم ــ الدقيقة التكوين ــ تبديهم أقرب من أبناء الطبقة الراقية فى (بالى) الى الهنود . أما لونهم فأقرب الى « الشيكولاتة باللبن » منه الى « الشيكولاتة الخالصة » . وهم يرمقون أى غريب ــ لاسيما اذا كان أبيض اللون ــ بصدود صامت ، كأى قوم مهذبين يستنكرون أن يقتحم عليهم غريب دارهم دون استئذان !.. وكانوا يمرون بنا فى صلف ، وكأنهم يفخرون بانتسابهم الى (تينجانان) ، وقد ارتدى بعضهم (السارونج) ، وهى أقمصة تصل الى الركبة أو تتجاوزها قليلا ، وان صادفنا اثنين أو ثلاثة « ثوريين » ، اذ كانوا يرتدون « البنطلون » !.. **أما النساء ، فيحطن رؤوسهن بالخمار ، ويرتدين « جونلات » ضيقة تصل الى الركبة أو دونها ، ولكنهن لا يرتدين شيئا فوق الخصر ، ولا يبدين محاولة لستر صدورهن أمام الأغراب البيض ، كما هى عادة النساء فى بقية أرجاء (بالى) .**

وبعد لأى ، عثر مرافقى على « دار » شيخ القرية .. ومكثت أسفل درجات السلم ، أتأمل الأشجار السامقة ، ومقر مجلس القرية الأنيق البنيان ، والمطابخ ، وبروج الصلاة ، وأعمدة الغاب الطويلة المتأرجحة أمام كثير من البيوت ، تحمل بقرب قممها مصابيح ورقية ، ودمى للطيور ، لترشد الى طريق الأرواح .

محكمة بلا شرطة ، لم تعقد منذ ٣ سنوات !

● وبرغم تواضع القرية بالنسبة لمستويات العالم الخارجى ، فان مهابة « الشيخ » ووقاره وطريقة حديثه كانت أقرب الى التقاليد العريقة لأمير يابانى . وكان

« ناجا تانقو » ـ الشيخ ـ يرتدى صدرية شديدة الزرقة ، فوق قميص خفيف الزرقة ، وقد أحاط رأسه بمنديل أنيق ، وتبدت اساريره جادة ، معبرة ، فيها ود ولكنه يخلو من الابتسام . **واخبرنا انه يراس القرية منذ حوالى ثلاثين عاما ، وانه وأباه وجده قد ولدوا وعاشوا فى (تينجانان) . وقال ان بالقرية ـ التى تضم ٣٥٠ نسمة ـ مدرسة ، ومحكمة ـ هو رئيسها ـ ولكنها لا تضم شرطيا واحدا .. كما ان المحكمة لا تنعقد الا لماما ، وكان آخر اجتماع لها قبل ثلاث سنوات ، وللنظر فى قضية طلاق !** .. وان كانت القرية لا تقر الطلاق بوجه عام . وكانت مفاجأة قاسية ان اعلم ان بالقرية ما لا يقل عن عشر طبقات ، اعلاها « البراهميين » .

وكنت ـ طيلة اللقاء ـ أتأمل أظافر الشيخ ، التى يبلغ طولها بوصتين أو ثلاثا ، وتلك سمة رئيس القوم . ولم يعارض فى أن التقط له بعض الصور ، فلما استأذنت لمقابلة زوجته ، دار بينه وبين مرافقى حوار طويل ، بصوت خافت ـ وكأننى كنت قادرا على فهم ذلك المزيج من لغة (بالى) واللغة الاندونيسية ـ وانتهى الأمر باعتذار لأنها « متوعكة » !

وفى تؤدة ، ووقار ، واعتزاز ، أكد لنا الشيخ ـ بلهجة لا تدع سبيلا لتساؤل ـ ان (تينجانان) لا تعرف الجريمة ، ولا تختلط ـ اجتماعيا أو اقتصاديا ـ ببقية قرى (بالى) . وهناك اجراس تدعو الناس للصلاة فى منتصف النهار وعند المساء .

ومع الشيخ ، انطلقنا فى جولة . ولكنه لم يصل معنا الى آخر الأبواب الاربعة التى تتخلل أسوار القرية .. ولعله تسلل عند الأشجار المصونة ، التى تستخدم ـ كما يقال ـ لبعض طقوس خاصة وصلوات سرية .

وليس فى (تينجانان) ملكية خاصة للارض ، كما انه

ليس لأهل القرية أن يفلحوا التربة الخصبة ، لان هذا لا يليق بكرامتهم .. ويستخدم « الارستقراطيون » أفرادا من القرى المجاورة لأداء أعمالهم .

حفلة راقصة للعذارى !

● **واخذت** السيارة تبتعد بنا ببطء ، اذ صادفنا مواكب الرجال والنساء وهم يحملون القرابين الرائعة من الفاكهة والزهور الى الآلهة ، وقد ارتدت الفتيات من الثياب ما ترضى عنه أقرب الآلهة وابعدها .. والعلاقات الجنسية عند أهل (تينجانان) تدنس براءة الشباب . وتقام سنويا حفلة راقصة للفتيان والفتيات ، الذين لم يمارسوا هذه العلاقات من قبل . وتقف الفتيات ساكنات ، وقد ارتدين ثيابا من نسيج ذهبى — اشتهرت به القرية — وتحلين بالحلى الذهبية والأحجار الكريمة . **وتنطلق الموسيقى وتزداد صخبا وحرارة .. ويتقدم الشبان ، فيقترب كل منهم من الفتاة التى تروق فى عينيه .. فاذا لم تعجب به ، بارحت مكانها وسارت نحو الشبان الآخرين .. اما اذا راق لها ، فانها ترقص أمامه . والفتى الذى تتحول الفتاة عنه ، يغدو مثار سخرية القرية . على انه ليس للفتاة أن تتزوج من خارج القرية ، ولا من غير طبقتها !**

و (بالى) هى التحفة التى تريها أندونيسيا اضيوفها الرسميين ، وكبار السياح .. وهى المنتجع الذى يجدد قوى الذين ترهقهم (جاكارتا) ، الحافلة بالتوتر ، المزدحمة بالفقراء وبالجنود الساخطين احيانا. فان (بالى) بمنجاة من الازدحام والتوتر ، والعناء ، والمرارة التى تفيض بها العاصمة . ومع ان أهلها فى أدنى مراتب الفقر — فى الجمهورية كلها — فانهم لم يغادروها فيروا سواها ، ولم يسمعوا بوجود مكان يفضلها ، وقد جعلتهم عزلتهم من عشاق الرسم ، ومن نقاد الجمال ،

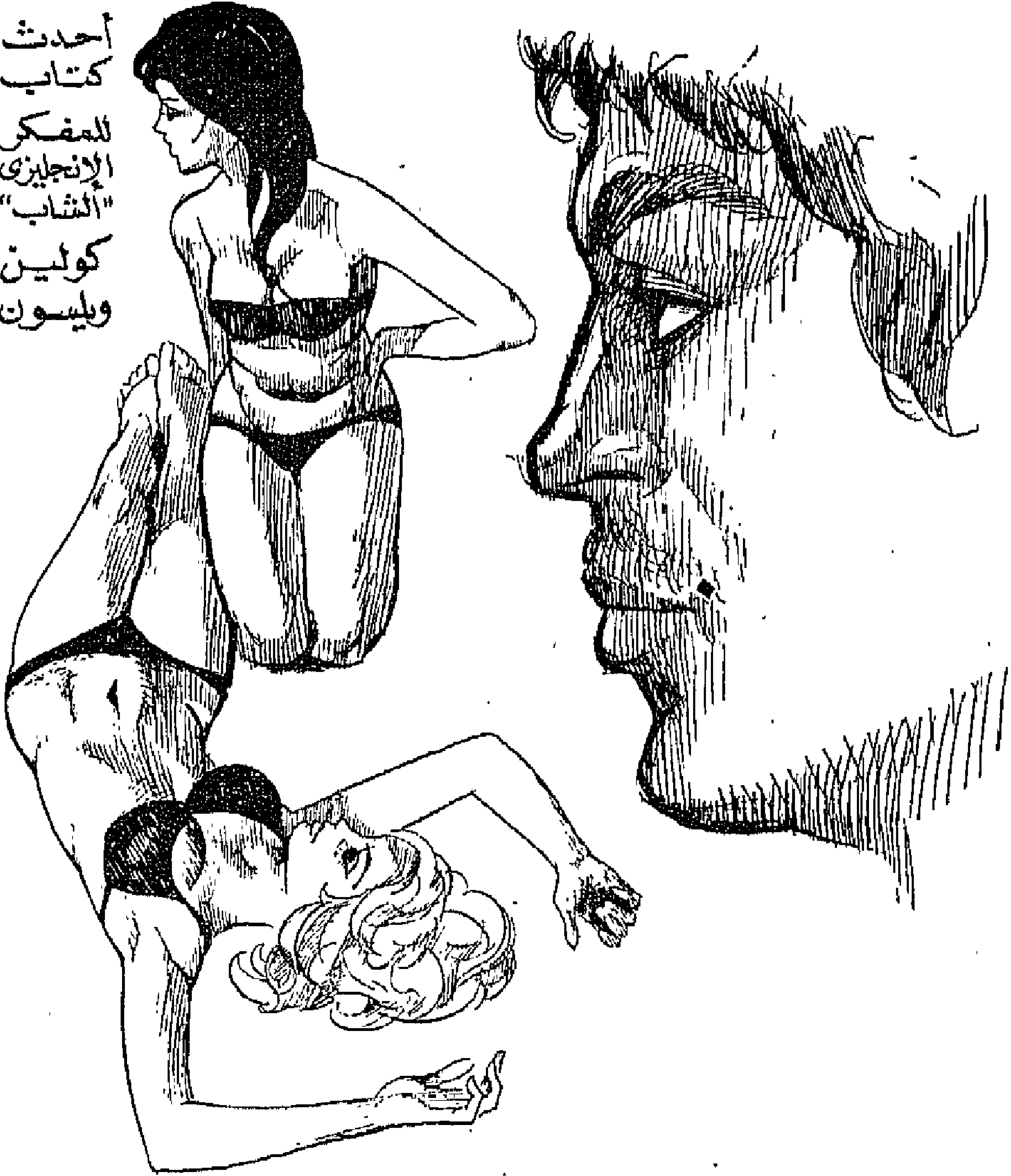
ومن هواة الموسيقى الذين يفضلون عزفها على سماعها ! .. واذ اضطررت لاطالة اقامتى فيها ، لتعذر الحصول على مكان فى الطائرة ، فقد رحبت بالفرصة لأقوم بجولات لمشـــاهدة الصور والتماثيل والسجاجيد التى ينتجها الأهالى ، ولشراء بعضها .

ومهما قيل عن (بالي) ، فهناك ناحية لا يغفلها السياح الدقيقو الملاحظة ، على تباين جنسياتهم ، فى كافة البــلاد الاسيوية . تلك هى ان ميزات نسائها ـ كنساء البلاد الحارة جميعا ـ تستهوى الأمريكيات اللائى فى اواسط العمر ، واللواتى يجاهدن لمقاومة البدانة ، بالزهد فى الطعـــام ، والمشى على الأقدام ، والسباحة ، والاقلال من النوم . ونســـاء (بالى) يعترفن بتعدد الزوجات ، اذ ((يدركن)) جموح فحولة الرجال ، ولا يتذمرن .

وكنت أستيقظ فى (بالى) فى حوالى السادسة صباحا ـ بسحر نداء الفجر ـ وأنا منشرح الصدر ، مرتاح النفس .. وقد كانت نزهاتى ـ على الأقدام ـ فى الفجر ، وعند الغروب ، على الرمال الدافئة ، حول الفندق ، أشبه بخطوات تقربنى من الجنة .. لا لعدم وجود كثير من الاناس ، وانما نتيجة البهاء الذى تضفيه السماء ، والآلهة غير المرئية ، على الجزيرة .. وكنت أجلس فى شرفة الفندق ارقب رجال (بالى) ونساءها على البعد ، وهم يرتادون الماء ، ويجمعون الأصداف والطمى لعمل التماثيل ، فأشعر كأننى فى عزلة ، برغم أن جيرانى فى الفندق كانوا يشاركوننى الشرفة .

ولعل احب ما ارتحت اليه ، هو عـــدم وجـود اجهزة الراديو والتليفون والصحف على شاطىء (بالى) ..

الجنس .. والمراهق الذكي



SEX AND THE INTELLIGENT TEENAGER :
COLIN WILSON

عرض وتعليق : د. حكمت كامل

هذا الكتاب ..

● **ماذا** يريد « كولين ويلسون » أن يقول فى هذا الكتاب الجديد الذى أصدره ، فصادف نجاحا لدى جماهير القراء ، وكبار النقاد ، فى آن معا ؟

انه خطوة اخرى يخطوها مؤلف كتاب « اللامنتمى » و « صعلوك فى حي سوهو » و « طقوس فى الظلام » نحو **تخطيط صورة واقعية جدا ، ونفاذة جدا ، لحياة هذا « النوع الجديد » من البشر الذى بدأ فى الظهور بعد الحرب العالمية الثانية !** .. وهو نوع جديد كاد ينفصل عن جذور البشرية القديمة ، أعنى بشرية ما قبل الحرب العالمية الثانية . فالأخلاق « القديمة » لم تعد تعنى شيئا . والآمال القديمة لم تعد ـ تقريبا ـ تعنى شيئا . وأساليب السلوك وتحقيق الذات صارت مختلفة ، كأنما الجيل الجديد نوع آخر فعلا لا يشبه البشر الا فى الشكل الخارجي ، أما المضمون .. ؟

واشد ما يلفت نظر هذا الدارس المتصل عن قرب بالجيل الجديد فى عالم الغرب هو تلك الطريقة العفوية المستهينة التى ينظر بها الجنسان للعلاقات الجنسية ، باعتبار الغريزة الجنسية اقوى الدوافع الحيوية النفسية الأولية ، والأساس العميق لكثير جدا من الأنظمة الانسانية الاجتماعية والفردية .. وقد استولى الفزع على الكاتب « الشاب » ـ فهو اليوم لم يجاوز الثلاثين الا قليلا ـ وهو يستعرض تاريخ البشرية وأصلها « القديم » ، بينما كانت تطحنه ـ فى الوقت نفسه ـ أزمات الجيل الناشىء .. وهكذا وجد نفسه مكلفا ، أمام وجدانه ، بمحاولة فكرية جادة ، وواعية ، وواقعية ، للامساك بالزمام قبل أن يفلت .. ومن هنا جاء كتابه هذا عن « الجنس

للمراهق الذكى » ، **وقد جاب فيه متاهات الحيــاة الجنسية للنوع البشرى بلا تحيز أو تغافل عن الحقائق .. وحلل .. واستنتج .. وتصور نهجا مناسبا للجيل الجديد ، فى عالمــه الجـديد ...**

وقد نقف منه موقف الخلاف فى هذا الرأى أو ذاك ، أو فى النتيجة النهائية برمتهـــا ، ولكن تصويره للحــالة وكأنه يستخدم أشعة « اكس » ، وتحليله لها بمنهج المعمل الكيميائى المحايد ، ونظرته الفنية التى تمتع الذهن وتفتح الآفاق واسعة أمامه .. كل ذلك يجعل لقراءته قيمة فى حد ذاتها : قيمــة المعرفة أولا ، وقيمة الانفتاح على جوانب الرأى وقيم الحياة المخالفة لنا ثانيا ، وقيمة الحوار العقلى بين ما نعتقده وما يراه غيرنا ، ذلك الحوار الذى يستطيع وحــده أن يثمر حقيقــة جديدة حية ..

وكولين ويلسون لا يخفى أهدافه ، فهو ــ ككل كتاب العالم الجديد ــ صريح بلا تهيب . **فهو بعــد أن « يفحص » تاريخ العلاقات الجنسية من أقدم العصور « يقفز » الى لجة الواقع ، ويغوص وراء تعقيدات الدافع الجنسى لدى الانسان ، ولا يتردد فى أن « ينسف » الكثير ، والكثير جدا ، من المعتقدات الساذجة التى لم تزل معششة فى أذهان بعض الناس فى هذا الصدد .**

وينتهى بعد جولة « واقعية » فى كهوف النصف الثــانى من القرن العشرين الى نظريته الخاصة عن الدافع الجنسى ودوره فى تطوير انسان الغد ...

والآن ، لنترك الكلمة للمؤلف .. لفيلسوف الشــــباب الانجليزى المعاصر « كولين ويلسون » :

الخيال .. هو الذى يميزنا عن البهائم !

● من المفارقات التى أذكرها أن أحد أعمامى كان يقول لى

دوما أنه ما من انسان يتمتع بصواب الرأى قبل سن الثلاثين .. وهو يعنى طبعا بصواب الرأى ضياع الاصالة الفردية ، واعتياد التفكير على النسق المألوف لدى « الكبار » فى المجتمع ، مما يجعل الفرد مجرد نسخة على وجه التقريب ، لا يقدم وجودها ، ولا يؤخر عدمها !

وكم جرت مناقشات ومناقشات بينى وبين عمى هذا ، وهو يطنب فى قيمة الخبرة و « معرفة الدنيا » اللتين لا تتيسران قبل الثلاثين ، والواقع اننى اكتشفت أن معظم ما لديه منهما هراء وزيف ! **وكانت حملاته الكبرى ضد ملكة الخيال فى الانسان وتحيزا للواقع الجامد الملموس . ولم استطع أن ادخل فى راسه ان الخيال هو مملكة الانسان الذكى وموهبته التى تميزه عن البهائم التى تشاركنا الواقع الجامد الملموس .** وقد استطاع بلباقته ووقاره وسمته المحترم أن يجعلنى أشعر أحيانا بالبلاهة والغباء ... ومع هذا ظل دافع غريزى فى أعماقى يكافح ضد هذه الحكمة السامية التى يبشرنى بها عمى ، حتى لقد شعرت انه من الخير لى أن أنتحر لو أن العالم كان كما يصوره لى حقا ! .. ولكن هذا التصوير كان يتردد صداه على لسان الكثيرين جدا من « الكبار » المحترمين ، المعتزين بسنهم وتجربتهم . وهأنذا قد بلغت ــ وأنا أكتب هذه الصفحات ــ سن الرابعة والثلاثين ، ومع ذلك لم أكتشف بعد روعة التجربة الواقعية . وانه ليسعدنى أن أقرر أن عمى الفاضل وجميع من اليه ، انما يخدعون أنفسهم ! فالعالم يحير الكبير كما يحير المراهق تماما ، وكل ما هنالك ان الكبار يحسنون اخفاء حيرتهم تحت قناع من الرزانة والحصافة الخادعة ! وانهم ليعلمون انه قد اسقط فى أيديهم ، ولكنهم يجتهدون فى نسيان هذه الخيبة وتجاهلها وهم يواصلون حياة لا يفهمونها ، ولكنهم يحملون أعباءها !

ولست أنكر أن التقدم فى السن له فوائد ، أهمهـــا أن سخونة الدماء تقل ، مما يسهل الامســاك بزمام الانفعــالات وحسن سياستها ، وأكثر ما تكون هذه السياسة باسنكاتهـــا طوعا أو كرها ! وثمة فائدة أخرى للتقدم فى السن ، هى قلة الاكتراث بالآخرين . **فحينما كنت مراهقا كان يزعجنى جدا الا يرد على انســـان أكلمه ، أو يتجاهلنى ، فيحمر وجهى كاشارة المرور ، ويخيل الى أن جميع النـــاس يحملقون فى بزراية . أما الآن فلا يكاد ذلك يحرك فى ساكنا .** وكذلك عندما كنت مراهقا كان النقاش مع المغفلين والحمقى يتخذ أهميـــة جسيمة ، وتثور أعصابى . واذا رمانى من أناقشه بنقائص أعلم يقينا انه لا أساس لها ، أجد جانبا من سريرتى يتساءل : أتراه على حق وأنا لا أدرى ؟ . . وبعد أن كبرت لم يزل الحمقى يزعجوننى كما يزعجنى الذباب ، ولكنهم لم يعودوا يمارســـون على نفسى أدنى سلطان ! ومع تقديرى لكل هذا أؤكد ان المرء لا يزداد حكمة بتقدمه فى السن ، حتما . . بل الأرجح أنه يزداد غباء ، وبلادة حس !

الفجوة . . بين الكبار والمراهقين !

● **وقد** يبدو هـــذا جائرا ، فهناك كبـــار « معقولون » ولا بأس بهم مطلقا . ولكن ليس هذا ما أرمى اليه ، وانما الذى اعنيه أن الأطفـــال والمراهقين لديهم « شىء ما » فقده معظم الكبار بلا رجعة ، بحكم انهم ـ أى الكبار ـ قد تقبلوا نوعا من الهزيمة ، وتصالحوا مع الحياة على هذا الأساس . .

وأنا اعترف أن نسبة الأغبيـــاء بين المراهقين تكاد تقارب نسبتهم بين الكبار ، ولكن الأذكياء حقا من المراهقين يتساوون فى شىء واحد : انهم يجدون الحياة أمرا شاقا ، لأن مشاعرهم او انفعالاتهم تسبب لهم الاضطراب والصراع الداخلى ، وهى انفعالات نشطة على تناقضها ، لا تريد أن تسلس القيـــاد أو

« تتفاهم » مع غيرها تفاهما يؤدى الى التصالح وسكينة النفس . **ومن تحت هذا الخليط المضطرم ، بركان من الطاقة الذهنية يريد أن يشق طريقه وسط الركام الى وضح النهار . ولعل هذا الصراع هو السر فى توقد أذهان أولئك المراهقين ، ذلك التوقد الخارق للمألوف عند الكبار ..**

ولكن للأسف الشديد يتحتم على أولئك المراهقين المتوقدين أن يكافحوا « مؤامرة الكبار » ضدهم ، بالاضافة الى مشكلاتهم الانفعالية الخاصة . وكلما كان الكبار أشد جمودا وغباء ، كانت مؤامرتهم ضد اليافعين أشد ضراوة . فالغباوة دائما من وراء حب السيطرة والتحكم ، والتلذذ بافساد المسرات . ويجب ألا ننسى أن الكبار يحسدون الايفاع على شبابهم وحرارة دمائهم . وهم يطالعون فى صحفهم عن سهرات المراهقين الحمراء التى تمتد حتى الصباح وتنتهى بالعربدة الجنسية ، فيخيل اليهم أن المراهقة الحديثة شىء من هذا القبيل باستمرار ، ما بين رقصة الروك أند رول ، أو التشاتشا ، أو التويست ، والشراب ، والممارسة الجنسية التى يخلع فيها الجميع العذار . وانى لأذكر سهرة عجيبة من هذا النوع حضرتها منذ سنوات قلائل ، وكان الحاضرون تتراوح أعمارهم ما بين السادسة عشرة والستين . وكان المفروض أن يغادر من تجاوزوا الخمسين مكان الحفل فى موعد مبكر نسبيا (أعنى عند منتصف الليل مثلا) لولا أن احدى الفتيات سكرت وخلعت ثوبها ثم غابت عن الوعى تماما فوق الأريكة من غير أن ترتديه . وحدثت أيضا بضع أشياء أخرى غير محتشمة الى حد ما من هذا القبيل ، وكانت النتيجة أن من تجاوزوا الخمسين ظلوا ساهرين فى الحفل الى الرابعة صباحا ، والنعاس بطبيعة الحال يكاد يقتلهم ، الا أن عيونهم ظلت مفتوحة كالفناجين من فرط الفضول ، آملين أن تبدأ

« العربدة » الحقيقية فى أى لحظة . وكم بدت عليهم خيبة الأمل المضحكة عندما جروا أقدامهم فى النهاية مثل أى فرد منا منصرفين الى بيوتهم دون أن يحدث ما توقعوه . ومما يجدر ذكره ان الفتاة التى خلعت ثوبها وجزءا من ثيابها الداخلية كانت سنها فوق العشرين ، أى تجاوزت مرحلة المراهقة . والواقع اننى لم أصادف مراهقة يمكن أن تتغلب على حيائها بحيث تخلع ملابسها وسط حفلة صاخبة . ولعل تجربتى محدودة ، ولكن بفرض وجود مراهقات « قليلات الحياء » الى هذه الدرجة من العلنية ، فنسبتهن على كل حال أقل بكثير مما يظن المتقدمون فى السن . .

والناس ينسون عادة أن الجديد مستمد دائما من القديم . فما من شىء فى شخصية الفتى الا وهو مستعار من هذا أو ذاك منذ طفولته عن طريق المحاكاة . الا أن كل واحد تقريبا يعتقد أن شخصيته أصيلة ، مع أن حركاتنا وألفاظنا ، وطريقة مشينا ، بل وأفكارنا ، مستقاة من أشخاص لعلنا نسينا معظمهم بمضى الوقت . ومهما بلغ من اختلاف نظرتك الى العالم عن نظرة والديك ، فأنت ترى العالم أساسا من خلال عيونهما . .

ولكن ما علاقة هذا كله بالجنس ؟

ان الجنس من أقوى الدوافع فى السلوك الانسانى ، وأشدها سيطرة على توجيه حياتنا . ولا ريب فى أن الجنس بالنسبة لتسعة وتسعين فى المائة من البشر البالغين يعتبر أعمق وأقوى تجربة تمر بهم . وهو مصدر أعنف انفعالاتهم ولذاتهم . ولكنهم للأسف لا يدركون معنى هذه الحقيقة ادراكا كافيا . ولست أبالى ما يقول عنى النقاد من افراطى فى الاهتمام بالجنس ، فأنا أعترف بهذا طائعا فخورا . وأعتقد أن الجنس والتجربة الجنسية من الموضوعات القليلة التى ينبغى أن يعنى بها جميع

الأذكياء عناية تامة . بل ما من موضوع فى نظرى على وجه الأرض أهم من هذا . وأنصحك أن تتجاهل كلام الحمقى الذين يقولون دائما أن الجنس يجب أن يبقى محبوسا فى أضيق الحدود . ونظرة واحدة الى هؤلاء تقنعك بأنهم ما كانوا ليصبحوا جامدين بلا طعم ، لو انهم خرجوا على شعارهم البالى !

وبصدد الجنس ، ذهب « برنارد شو » — فى مسرحيته الشهيرة « الانسان والسوبرمان » — الى أن المرأة هى التى « خلقت » الرجل ، أى هى التى ابتكرته لتنتج شيئا أفضل مما يستطيع النظام الجنسى المفرد أن ينتجه . ولكنها أخطأت حين خلقت كائنا صارت كل غايته منها انجاب الأطفال ! .. ولأنه لا يحبل ولا يلد ، وجد الفراغ لاختراع الحضارة من غير أن يستشيرها فى ذلك ، لأنها مشغولة برعاية الأولاد ، أو انجابهم ، أو خدمة البيت ، وبذلك صار الرجل هو « الجنس المسيطر » !

هذا الكلام قاله برنارد شو فى سنة ١٩٠٢ ، فلم يأخذه أحد على محمل الجد ، واعتبروها نكتة من فكاهات شو . أما الآن ، بعد تطور العلم ومكتشفات علوم التناسل ، فالأمر يبدو أقرب للجد ..

جولة فى تاريخ الجنس

● **ولنلق الآن** نظرة على تاريخ الجنس ، أو على الأصح لنلق نظرة على الدور الذى قام به الجنس فى تاريخ البشرية .

والأرجح أن الانسان الأول لم يكن يبالى كثيرا بالزواج ، ولا بالاخلاص ، ويقول العلامة « باخوفن » : « كان الانسان الأول يشبع غريزته الطبيعية على نحو ما يفعل الحيوان الأعجم ، بدون رابطة شخصية دائمة مع أنثى بعينها » — ويجب الا يغيب عن بالنا انه ما من احد كان يعلم أن الاتصال الجنسى له صلة بانجاب الأطفال ! — **وعلى هذا كان أقوى**

الذكور أو أمهر الصيادين يحظى بشبه احتكار لأشد نساء القبيلة جاذبية ، على نحو طبيعي جداً ، مثلما أن من حقه اختيار أفضل قطع اللحم من الفرائس التى يصيدها ، دون أن يتوقع أحد منه أن يختار قطعة معينة من اللحم كل يوم ، وبذلك كان يتغير فراش الرجل وفراش المرأة كل يوم ، وتتوزع النساء الباقيات ـ بعد اختيار ((الزعيم)) ـ على بقية الصيادين ، كل حسب قوته ومهارته ومكانته ، بحيث تبقى الحثالة للحثالة ! .. أما الأطفال فكان المظنون أنهم يأتون بفعل السحر ، أو هبة من الآلهة . (ولم تزل فى استراليا عشائر بدائية الى اليوم لا ترى أى صلة بين الاتصال الجنسى ونعمة النسل !) .

الغيرة لم يكن لها وجود !

● وفى مجتمعنا تعتبر الغيرة شيئاً مفروغا من أمره ، مسلما به ، بحيث نجد من العسير علينا أن نفهم كيف كان البدائيون مجردين منها . ومع هذا لم يزل الاسكيمو حتى اليوم يمارسون « اقراض زوجاتهم » لضيوفهم . فاكرام الضيف عندهم لا يتم الا بأن ينام مع زوجة مضيفه . والكل ينامون فى كوخ واحد . وفى الصباح يسأل الزوج زوجته هل كانت شهية الضيف مفتوحة لها أم لا . **وتعتبر اهانة كبرى الا يكون قد اقبل على ((الوليمة)) الجنسية بشهية كافية ! واما بعض قبائل استراليا البدائية فيمارسون الى يومنا هذا تقارض الزوجات فيما بينهم ، علامة على الألفة والترابط ، كما يتبادل الأصدقاء والأقارب منا الهدايا وباقات الورد فى المناسبات !**

وهذا يدل على أن الغيرة مسألة اجتماعية وليدة العرف ليس الا ، وان كنا لا ندرك ذلك للوهلة الأولى . وفى السنوات الأخيرة توصل علماء الحيوان الى أن السلوك الجنسى فرع من فروع الدافع الاجتماعى والاقليمى . فأقوى ذكر فى قبيلة من

القرود يضيق بأي محاولة لسرقة احدى زوجاته ، لأن ذلك يعتبر تحديا لسلطانه الاجتماعي ، لا لأنه يثير غيرته الجنسية . ومراهقو الاسكيمو يلعبون في الشتاء لعبة يسمونها « اطفاء الأنوار » ، ذلك أنهم يطفئون المصابيح واحدا بعد واحد ، وفي الظلام التام يختار الأولاد والفتيات شركاء ليلتهم اختيارا أعمى وبالصدفة المحضة ، ويمتلىء الكوخ بالأصوات المتصاعدة المعبرة ... ولاشك أن اطفاء المصابيح واحدا بعد واحد انما الغرض منه تصعيد الاثارة الجنسية بخلق حالة ترقب غامضة .

وهذا النوع من السلوك قد يكون طبيعيا جدا بالنسبة لأناس يعيشون « على الطبيعة » ، وهو دليل على أن اسلافنا الاقدمين لم يعرفوا شيئا من النظم التي نسميها نحن زواجا . فعندما يكون الناس في حال البداوة يكونون واقعيين : يخطفون ما يقع تحت أيديهم حيثما اتفق . أقرب صيد . وأقرب ثمرة، وأقرب سمكة . وأقرب امرأة . ولكن بتقدم الحضارة ونشأة الزراعة المستقرة اتسع الوقت لأحلام اليقظة . ولتزجية الفراغ ودفع السأم بدأت الحروب . ولتنظيم الاستقرار نشأت الأنظمة والمؤسسات الاجتماعية ، ومنها الزواج . وهكذا بعد أن كان الكل قبيلة متآخية تتقاسم الخيرات والنساء ، بدأ التدرج في المقامات الاجتماعية . وبدأت « الملكية » في الظهور ، سواء في شكل ملكية المراعي ، أو الأرض الزراعية ، أو النساء . وسرقة الزوجة تعتبر اهانة وتحديا للكرامة ، لأنها مجرد « ملكية » للزوج .. ولذا نشبت حرب طروادة الضروس التي دامت عشر سنين عندما أغوى « باريس » هيلانة وهرب بها الى طروادة ..

الجنس عند الاغريق .. والرومان

● وعلى ذكر الاغريق ، حملة شعلة الحضارة والفكر

الرفيع ، نجد أن المرأة عنـــدهم لم تكن « كل » الجنس . فالجنسية المثلية (أو الشذوذ الجنسى) كانت منتشرة جدا ومن الأمور العادية المسلم بها . فكل رجل متزوج له امرأة لانجاب الأطفال . أما الحب فمسألة أخرى تماما يتكفل بهـا « صديق » جميل صغير السن من الفتيان المرد . وكثيرا ما كان الرجل يكتفى بالصـــديق الأمرد ولا يفـكر فى الـزواج ومسئولياته وشرذمة الأطفال التى تنتج عنـه . لذا كان والد الفتاة يغرى الرجال بالزواج من ابنته بتخصيص رأس مال أشبه بالطعم لاستدراج الرجل الى مصيدة الزوجيـــة ! . . **ومن هنا نشأت « البائنة » أى المهر الذى تدفعه الزوجة للزوج كى يرضى بها . ثم يصبح مكان الزوجة هو البيت ، وليس لها أن تتدخل فى صلات زوجها الغرامية بصـــديقه الصغير ، ولا يخطر ببال أحد أنها « شريكة حياة » حقا لزوجها . بل وللزوج أن تكون له عشيقات من الراقصات أو بنات الهوى أو الغانيات وليس للزوجة أن تعترض** . واذا كان الزوج من المرموقين كان والد أى غلام يعتبرها علامة شرف أن يقع عليه الاختيار ، ذلك ان الرجل فى هذه الحالة كان يعتبر نفسه بمثابة والد للغلام يرعاه ويدربه على شئون العمل والسياسة والمال والعـــلم ، وينمى عقله وعواطفه فى مقابل التمتع الجسدى بمحاسنه . ولا يلحق بذلك أدنى خزى ! . . أما الفتاة فكانوا يفرضون فيها الاحتفاظ ببكارتها الى أن تتزوج ، وأن تظل مخلصة وفيـــة لزوجها بلا قيد أو شرط !

واذا انتقلنا الى الامبراطورية الرومانية وجدنا الشـــذوذ الجنسي على أشده ، وبابتذال يجرده من العواطف الخياليـة المعهودة عند الاغريق . وكان الزواج عند الرومان نظـــاما اجتماعيا دينيا ، كل الغرض منه انجاب النسل ، ومن هنـا كانت عفة المرأة شيئا هاما . وكانت عقوبة كل من يغوى امرأة

متزوجة بالفة الصرامة . وفى الوقت نفسه كان البغاء مسموحًا به ومعترفا به اجتماعيا لدى الرومان ، ولدى سائر الأمم القديمة . ولذا كانت المرأة فى الحضارات القديمة على ثلاث فئات : الزوجات المحصنات العفيفات أو الحرائر ، والبغايا ، والمحظيات أى العشيقات الخصوصيات .

وهذا يؤدى بنا الى التمييز فى وظائف الجنس بين أمرين : اللذة وانجاب الأطفال . وتحت اللذة يندرج العشق والشذوذ الجنسى . وتحت انجاب الأطفال يندرج الزواج والسلوك الجنسى السوى . ولم تكن الزوجة أكثر من ربة بيت وماعون للنسل فى أغلب الأحيان .

نظرة المسيحية الى الجنس

● ثم جاءت المسيحية فكانت أول صيحة تهيب بالانسان انه ليس جسدا فقط ، وليس حيوانا بهيما ، انما هو نفس خالدة . وكان الناس قد تقززوا من الأجساد وشهواتها ، وصاروا متهيئين لدعوات الروح ، وبذلك حدث رد فعل عنيف ضد المادية والشهوانية . كما كانت المسيحية ايذانا بالتحرر من تعصب اليهود وضيق أفقهم . والحقيقة أن بولس الرسول هو الذى أضفى على المسيحية اتجاهها المعادى للجنس بصراحة ، فهو الذى قال : « من لم يستطع العفة فليتزوج . لأن الزواج أفضل من الاحتراق » ، وبذلك ربط بين الصلاح الحقيقى والابتعاد عن كل نشاط جنسى . والحقيقة ان العداء للجنس كان عداء الوثنية التى كانت تجعل شعائرها مختلطة بالجنس والاباحية فى أعيادها ، مثل عيد باخوس اله الخمر .

وها نحن فى عصرنا الحالى أشبه بالوثنيين القدامى فى سلوكنا الجنسى الاباحي ، وبذلك صرنا بعد ألفى سنةمن ميلاد المسيح متقززين من الفساد ومن العالم ، وبحاجة الى رد فعل جديد يرد اعتبار الروح . وهاهي مدنيتنا تتداعي من الداخل

وينخرها السوس كما تداعت المدنيـة الرومانيـة التى كانت مثلنـا مغرقة فى المـادية وشـهوات الجسد . ألم يتزوج « نيرون » رسميا من غلام ألبسوه ثياب امرأة ، وتم ذلك فى حفل بالغ الأبهة ! ألم يقترف نيرون أيضا الفسق مع أمه بحثا عن نشوة جنسـية من نوع طريف ؟! ومثله كان الامبراطور « تيبريوس » و « كاليجولا » .. ومن شاء المزيد من التفاصيل المذهـلة فليقـرأ تاريخ الاثنى عشر قيصرا .. ولست أشك فى أن مؤرخى المستقبل سـيقولون عن عصرنا مثـل هذا ، وسوف يستشهدون على انهيـار الأخلاق بكتب من قبيـل « لوليتا » ، و « عشيق الليدى شترلى » ، و « فانى هيل » وروايات جيمس بوند . والحقيقـة أن الجنس فى عصرنا الحديث لم يعد وثيق الصلة بالنسل ، بل بالعكس ! كم من الاحتياطات تتخذ ضد النسل بفضل العلم الحديث ، توقيا لكارثة الانفجار السكانى . وأما التفنن كله والتنويع والشذوذ فبقصد اللذة ! والمرأة فى عصرنا تنافس الرجل فى الاباحيـة الجنسية ، لأنها أسعد حالا من جدتها الرومانية والاغريقية ، بسبب أقراص منـع الحمل واللوالب والطواقى الهولنـدية وما أشبه من هذه المبتكرات التى أعطت المرأة كل فرصة بدون ذعر من العواقب .

وأما جرائم الانحراف والاغتصاب فقد تضاعفت منـذ نهاية الحرب العالمية الثانية ، وهى تزداد كل سنة عن سابقتها فى أمريكا بمقدار ١٠ ٪ . وليس الحال فى انجلترا وفرنسا بأخف منه فى أمريكا .. وتدخل فى الصورة جرائم الادمان على أنواع المخدرات .. وبنفس النسبة تزداد معدلات الاختلال العقلى ، والانهيـار العصبى ، والانتحـار .. وهذا كله يؤيد ما ذهب اليه الفيلسوف « اشبنجلر » من أن « حضـارة الغرب تنهار ، بعد أن أدركتها الشيخوخة بكل عللها » ، وأن

كنت شخصيا لست متشائما الى هــذا الحد ، لأن للعملة وجهــا آخر .. ويجب الا ننسى أن عصر الفضـــاء والقنبلة الذرية يقدم تحديات للقيم القديمة ويفضى بنا الى نوع جديد من البربرية .. ومع هــذا ففى الصين وروسيا ينظر الى التحلل الجنسى نظرة منكرة ، ولا يعتبر أمرا مسلما به على الاطلاق . فسلوك الناس هناك منظم وهادف ، مثل كل شيء فى حياتهم العامة والخاصة ...

فى اليابان : لا حياء فى الجنس !

● **ولكن** بالقرب من روسيا والصين توجد اليابان . وفى اليابان يتعاملون مع الجنس بطريقة مختلفة تماما ، وبحرية يكاد يعجز عن فهمها أهل الشرق والغــرب على الســـواء ! اذ يبدو أنه لا إرتباط بين الجنس والخجل أو الحيـــاء لدى اليابانيين . والذكر فى اليابان هو السيد غير منازع . بحيث يعتبر الغلام الصغير أعلى قدرا بكثير جدا من أمه وشقيقاته ، حتى وهو فى المهد !.. **كما أن علاقات الرجل الجنسية خارج الزواج أمر مفروغ منه . وما من زوجة تجسر على الاعتراض على زوجها لان له خليلة ، ولا سيما اذا كان ثريا ، أو ذا نفوذ ومقام مرموق .**

وحيث ان ابن الأسرة هو بموضع أملها واعجابها ، فالغالب أن يتم تعريفه بأساليب الجنس فى سن مبكرة ، فيأخذه أبوه بكل وقار وهدوء الى ماخور بمناســبة عيد ميلاده ، بعــد بلوغه مباشرة ! ومن العجيب الى جانب هذا أن اليابانى ــ الذى لا يعرف التحريم أو الكبت فى أمور الجنس أو الخمر ــ يعيش حياته وتصرفاته كلها فيما عدا ذلك مكبلا بقيود واحتشـــام وتقاليد تكفى لدفع اى غربى الى الانتحار !

الجنس ، والاجهاض ، والسجون .. فى السويد

● **وننتقل** الى أقصى الشمال : الى السويد ، فاذا الجنس مسألة طبيعية سهلة يتعامل معها الناس بكل بساطة .. والاجهاض هناك قانونى ، وله مستوصفات مجانية منتشرة .. والرقابة على المطبوعات ضئيلة جدا . ولذا فعندما نشرت هناك رواية « لوليتا » التى كانت من أوسع الكتب انتشارا فى انجلترا وامريكا ، لم تحقق رواجا ملحوظا . والسويد من ارقى البلاد ، وادارتها الحكومية على جانب عال من الكفاءة ، وكذلك اقتصادها . والدخول عالية جدا . والترف عام . وليست هناك بطالة . وسجونها مفتوحة ، أشبه بدور الضيافة الفاخرة ، وهى أفخر بكثير من الفنادق العادية فى انجلترا . والنتيجة أن الزنا والانتحار اصبحا هوايتين قوميتين فى السويد ! **ولكن الملاحظ أن انجلترا وفرنسا وامريكا والمانيا وكل عالم الغرب يزداد قربا من النمط السويدى عاما بعد عام ، ومن واجب الجميع التنبه لما يعقب ذلك من النتائج منذ الآن !**

والسؤال الكبير الذى يواجهنا الآن : ماذا بعد ذلك ؟

مشكلة الشذوذ الجنسى

● **ان** الشذوذ الجنسى ، وكل الانحرافات الجنسية على العموم وعلى رأسها الجنسية المثلية ، لا يمكن أن يكون موضوعا مستحبا . ولكن ما الحيلة وهو غير منفصل عن النشاط الجنسى البشرى من أقدم العصور ، وهو اليوم يأخذ طريقه الى العلانية واكتساب الحقوق القانونية فى كثير من البلاد المتحضرة ؟ **لابد اذن من فهمه ، كى نتوصل الى مقاومته !**

ويجب قبل كل شىء أن نفرق بين المألوف وبين الطبيعى . أى بين ما هو من املاء التعود وما هو من املاء الغريزة . وفى

الجنس نجد الدافع الجنسي غريزة لا عادة . وهــذا الدافع اناني بالضرورة في جوهره ومصدره وليس اجتماعيا . فهــو كالحاجة الى الطعام ، والى الدفء والى النوم . والأعضــاء التناسلية أشبه بمراكز تجميع شحنات من الطاقة الجنسية لابد لها من تفريغها ، كأنها بندقية محشوة في انتظار ضغطــة على الزناد ! ويصدق هذا على الحيوان وعلى الانسان معا ، لأنه يحدث للجانب « الحيواني » من الانسان .

ولكن ثمة فرقا بين وسائل الحيوان ووسائل الانســان : فعند الانسان لابد من شخص ننجذب اليه فنختاره للضغط على الزناد ! ولكن هذه المشكلة ليست قائمة لدى الحيوان ، وأنثى الحيوان « تطلب » الذكر في وقت الحاجة الى التلقيح ، أي انها تطلق رائحة نفاذة من اعضائها التناسلية لا يستطيع الذكر مقاومتهــا .. في حين ان البشر ليست لديهم هــذه الوســيلة .

ومن جهة أخرى اذا تجاهلنا الحافز الجنسي لدى الانسان وجدناه مستقلا عما نسميه « الحب » . بل ان ثمة اعتبــارا قويا للتحريم والمحرمات يؤثر اكبر الاثر في النشاط الجنسي . فالجنس يتأثر ويهيج بدافع « الغرابة » لا بدافع « الألفة » . بل أن الألفة تضعف الحافز الجنسي . والغرابة أشد ما تكون توفرا فيما نسميه « المحرمات » . وهــذا الاعتبــــار كاف لتوضيح أهمية ومنشأ الانحرافات وانواع الشذوذ الجنسي . فكل شيء يتوقف هنــا على ما تراه محرما أو تحس بغرابتــه وتحريمه ، فان وجد من يعشق اخته جنســيا ، فلأنه يحس فيها غرابة تجعله لا يألفها . أما معظم الرجال فلا يجدون في اخواتهم هذه الغرابة ولذا لا يفكرون فيهن جنســيا . وكذلك الحال بالنسبة للشذوذ الجنسي أى المثلية الجنسية . فالرجل الذي يجد غيره من الرجال مثله تماما بلا غرابة لا يميل اليهم

جنسيا ، أما من يجد فيهم غرابة تمنعه من أن يألفهم فيتجه اليهم بميله الجنسي . وكذلك اذا وجد فتى أثناء البلوغ وأوائل البحث عن مخرج أو منفذ لحوافزه الجنسية فى مدرسة داخلية مثلا يكتنفها جو تحريم شديد للهو الجنسي مع زملائه ، فهذا التحريم كاف لتمسكه بهذا الاتجاه . ومتى تم استهواء الخيال بفكرة أو صورة أو اطار معين للغرابة والتحريم ثبت ذوق الشخص غالبا عند هذا الاتجاه بصفة دائمة .

ولكن الى جانب هذا الشذوذ الجنسى المكتسب يوجد بلاشك شذوذ جنسي ذو أصل جسدى بحت : **فاذا كانت الهرمونات هى التى تحدد جنس الشخص ، فهمنا كيف يولد ذكر فيه ميل جسدى شديد للسلوك الانثوى . والعكس بالعكس ، أى تولد انثى فيها ميل جسدى شديد للسلوك المذكر . ولا ريب فى أن العلماء سيحددون فى يوم قريب بالضبط ما الذى يحدث الشذوذ الجنسي فى هؤلاء الشواذ بالفطرة والتكوين ، لا بالاكتساب ...**

وهناك فريق من الناس يلتمسون الأعذار لـ « المصابين » بالشذوذ الجنسى ، ويقولون انه لا ضرر منهم على أحد ، وأنهم قد يكونون مؤهلين للنجاح كغيرهم من « الطبيعيين » . **ولكننا فى مقابل هذا لا يمكن أن نتصور عباقرة من طبقة أو طراز ((بتهوفن)) أو ((نيوتن)) أو ((برنارد شو)) من ذوى الشذوذ الجنسى . فهذا الصنف من الرجال الشواذ لا يكون منهم فلاسفة وعلماء افذاذ ، لأنهم لا يتمتعون بالولاء الكامل الموضوعى للمعرفة . انهم دائما ذاتيون مغرقون فى الذاتية .. كالنساء !** ولكن اتجاه العصر الحاضر على العموم الى رفع الحظر عن الشذوذ الجنسى . فما أبعدنا عن الروح التى هدمت حياة ومستقبل أوسكار وايلد لعلاقته باللورد دوجلاس الشاب ! ولست أستغرب أن يأتى قريبا يوم يوضع فيه بين البيانات الشخصية فى دليل المشاهير كلمة « مثلى الجنسية » ،

بنفس الوصف الموضوعى الذىيحدد به لون العينين والشعر ، والكلية التى تلقى فيها علومه ، ومحل ميلاده ! ..

أسطورة نشأة الجنسين ، فى ((مادبة)) افلاطون !

◉ **ويجرنا** حديث المثلية الجنسية الى نوع آخر من الشذوذ أو الانحراف ، وهو غرام بعض الرجال بارتداء ملابس النساء ، أو قطع منها داخلية . وقد يرتبط هذا بالجنسية المثلية ، ولكنه أحيانا لا يرتبط بها — فمفتاح هذا الانحراف هو الولوع بالغرابة والتحريم كمثير للجنس واللذة الجنسية . **وقد يلقى بعض الضوء على هذا الانحراف وما اليه ما يذكره افلاطون فى محاورته المشهورة ((المادبة)) — على لسان اريستوفان المؤلف المسرحي المشهور بكوميدياته الخالدة — من أنه ابتدع أسطورة فكاهية عن نشأة الجنسين ، ومؤداها انه كان فى البداية جنس واحد ، وان البشر كانوا موجودات كروية ذات أربع أذرع ، وأربع أرجل ، ورأسين ! بيد انهم صاروا كائنات بالغة القوة بحيث أثارت قلق الآلهة ، فاتفقوا على طريقة لتقليل قوتهم ، بأن يقسموهم نصفين . ومنذ ذلك الحين وكل نصف يبحث عن نصفه الآخر الحقيقى ، فصرفهم ذلك عن تحدى الآلهة وتهديد سلطانهم !** وهذا يفسر جبروت الحافز الجنسى وسلطان الحب على تصريف مقادير البشر ومصائرهم . ولكن هذا قد لا يفسر الانحرافات الجنسية لأول وهلة الا اذا تذكرنا أن عملية القسمة قد تجور فتضع مزيدا من الذكورة فى الأنثى ، ومزيدا من الأنوثة فى الذكر ... !

ويجب ألا ننسى ان من بين ألوان الحافز الجنسى لون خاص ((بحب الذات)) ، أى عشق الفرد لجسده الخاص ، بحيث يثيره منظره ويهيجه . وهذا ينشأ عن التربية الجنسية الفاسدة التى تغرس فى نفس الطفل أن جسده العارى

« عيب » . ومن هذا التحريم تنشأ الاثارة الجنسية فيما بعد ..

ويأتى بعد ذلك فى قائمة الانحراف « الفتيشية » أى التهيج الجنسى لمرأى أو ملمس قطعة ملابس داخلية أو خارجية تقترن فى الوعى بالالتصاق بأجساد الجنس الآخر عادة . وينشأ هذا عن اقتران تلك القطعة بأول تجربة جنسية ، بحيث يغنى « الأثر » عن الفعل نفسه ، ويصبح منبها كافيا ومستعيدا للذة . وكان هذا النوع منتشرا فى القرن التاسع عشر بالنسبة للمشدات (الكورسيهات) لأن النساء جميعا كن يلبسنها . أما الآن وقد بطل استعمالها ، فقد اندثر تقريبا هذا النوع من الانحراف ، وحل « البكينى » محل الكورسيه . والموضوع عموما يتوقف على التجربة الجنسية الأولى وما يقترن بها من ثياب المرأة . وهذا يختلف باختلاف كل حالة على حدة .. والمهم أن « الأثر » يصبح أهم لدى المنحرف من العمل الجنسى نفسه . .

وهناك حالات أشد انحرافا وأخطر بكثير من هذا كله ، تصل الى حد الاجزام الجنونى ، وهى حالات من يقتلون النساء ــ أو الرجال ــ اللذين يمارسون معهم الجنس ، بعد انتهاء المتعة . ولعل أدق وصف لهذه الحالات ما ذكره اميل زولا فى روايته « الحيوان البشرى » عن بطله : « كان يريد أن يمتلك المرأة ، الى درجة القضاء عليها ! » . وهذا يصدمنا لأننا نقرن الجنس بالحب ، والحنان ، والرقة ، والتدليل ، والرغبة فى حماية المرأة التى نحبها .. مع أن علاقة الجنس المحض الصريح فى جوهره الحقيقى هى علاقة الذئب بالشاه . انه افتراس نحوله بالتهذيب والرياضة النفسية والخيال الى حب وحنان وحماية . وهكذا يتدرج الجنس من الاغتصاب والعدوان الى الحنان .. ولكن آثارا من العدوان تظل كامنة تحت هذا الحنان .

السادية : أسوأ أنواع الانحراف

● **وهذا** ينتهي بنا الى أسوأ أنواع الانحراف ، وأكثرها اثارة لاهتمام من يدرسون السلوك البشرى ، أعنى السادية . والسادية تشتق اسمها من « الماركيز دى ساد » الذى ولد بفرنسا سنة ١٧٤٠ . والكثيرون يتصورونه وحشا يجتمع فيه مزيج من « فرانكشتاين » و « دراكولا » ، أحمر العينين بارز الأسنان !.. وهذا خطأ يضارع تصور الناس لكازانوفا على غرار نجوم السينما وسامة وفتنة ، مع انه كان ــ اى كازانوفا ــ فى الواقع نصابا قبيح الخلقة . وكذلك الماركيز دى ساد كان قصيرا ، بدينا ، زيتى البشرة ، قذر التفكير ..

ويكمن سر الماركيز دى ساد فى حبه لاحداث صدمة لمشاعر الناس واثارة استنكارهم . وقد كان غنيا وضعيف الشخصية والارادة ، فلم يجد ما يشغل به باكورة شبابه سوى قضاء أوقاته فى المواخير .. ثم خطف طباخة أو خادمة الى أقبية قصره وتسلى بصب الشمع الساخن على جسدها العارى ، فقبض عليه .. وكثر بعد هذا تردده على السجون بتهم مشابهة لهذه ، وهناك غالبا كتب سلسلة من الكتب أراد بها أن تكون صفعة على وجه المجتمع ، منها « جوستين » و « جولييت » و « ١٢٠ يوما فى سدوم » ــ الموطن الأصلي للوط ــ وفيها صور كل أنواع الناس المحترمين ، من قضاة ونظار مدارس ، وهم يقترفون شتى أنواع الشذوذ الجنسي . وانتقم فيها من النساء الشريفات بأن جعل بطلاته الفاضلات يتعرضن للاغتصاب العنيف بين كل صفحة وأخرى من كتبه . وكانت دعواه أن الفضيلة عاثرة الحظ ، أما العهر فله فى النهاية النصر ..! وأهم ما يكشف عنه فى كتاباته تعرية الحافز الجنسي لدي الرجل وبيان ما يتصف به هذا الحافز من العنف والعدوانية التى تحاول الحضارة تمويهها بالتهذيب والعواطف الرقيقة .

واهم ما نلاحظه على السادية (أى التلذذ الجنسي بالايلام البدنى والمعنوى) **أن الساديين فى الغالب أغبياء ، وأن وحشيتهم تزداد مع الممارسة ، الى أن يقترفوا جرائم التعذيب الدموية ، والقتل . والى هذا الفريق تنتمي كل الجرائم الجنسية البشعة التى تكتشف ضحاياها فى الحدائق العامة والأماكن البعيدة عن العمران** . ويثبت غالبا أن الضحية تم تعذيبها ساعات طويلة قبل أن يتم اغتصابها ، وعلى أثر ذلك طعنت ، أو ذبحت ، أو استقرت فى رأسها بضع رصاصات !. . والدليل على « تعاسة » أولئك الساديين أن المجرم ما لم يسقط فى يد الشرطة فانه ينتحر من تلقاء نفسه ، بعد فترة من الوقت ، عندما يكتشف أن أقسى الجرائم لم تعد تكفى لامتاعه بلذته « المرضية » !

وقد ثبت من الأبحاث الدقيقة أن منشا هذه الانحرافات كلها هو حرمان الطفل فى نعومة أظفاره من الحنان ، مما يجعله غير قادر على الحنان أو الرحمة . وأجريت تجارب من هذا القبيل حتى على الحيوانات الصغيرة ، كالكتاكيت والفيران ، ادت الى نفس النتائج . فالتوافق الاجتماعى بذرته الأولى الشعور بالحنان فى الطفولة . وبدون هذا الحنان يعجز الكائن عن التوافق مع قواعد المجتمع ، ويشب لصا ، وقاتلا ، ومغتصبا للأعراض . وأكبر مثل على هذا ما حدث لمارلين مونرو . لقد كانت عندما انتحرت — فى عام ١٩٦٢ — أشهر كوكب سينمائى ، وفى السادسة والثلاثين من عمرها ، واسعة الثراء ، بارعة الجمال . فلماذا قتلت نفسها ؟ نجد الجواب فى السنوات الأولى لطفولتها : فهى لم تعرف أباها قط ، لأنه هجر أمها وهى بعد فى بطنها ، ولم يكن قد تزوجها رسميا . وكانت أمها مهتزة العقل ، وانتهى أمرها بالجنون المطبق . وبذلك تنقلت مارلين الصغيرة بين البيوت التى تبنتها . وفى التاسعة من عمرها اغتصبها أحد السكان فى بيت الأسرة التى

تأويها ، وقضت عامين فى ملجأ للأيتام .. وهكذا شلت جذور العطف والاستقرار النفسى فى أعماقها ، فلما آن لها أن تستقر وتسعد بالزواج ، عجزت عن أن تعرف لذلك كله طعما . وعجزت عن الثقة بالحياة وهى مقبلة عليها بالمجد والجاه والشهرة . لأنه ما من عادة يصعب التغلب عليها كعادة الخوف أو الفزع . ومارلين كانت فى خوف دائم من الحياة ! ولم تجد لها خلاصا من الخوف الا بالانتحار !

هذا الأدب المكشوف ..!

● **والآن** فلنلق نظرة أدق وأقرب على « الثورة الجنسية الكبرى » فى القرن العشرين . وخير منطلق لهذه النظرة أدب القرن العشرين نفسه ، لأنه من المشكوك فيه جدا أن تكون هذه الثورة الجنسية ممكنة لولا كتب من قبيل « عشيق الليدى شترلى » ..

لقد كان القرن التاسع عشر قرن الحب الرومانسى . وكانت الفكرة الأساسية لدى الناس يومئذ أن لا شىء يضارع فى الدنيا استقرار حبيبين ليعيشا معا فى سعادة الى الأبد ، أو على الأصح الى أن يفرقهما الموت . وما زلنا نجد أكداسا من هذا الحب الرومانسى فى أيامنا هذه معروضة بصورة مضحكة فى المجلات النسائية الواسعة الانتشار . أما فى القرن التاسع عشر فكان التعبير عن هذا الحب بأقلام بعض كبار الأدباء ، كما يبدو ذلك فى صفحات « مرتفعات ويذرنج » وما الى ذلك . ولأن هذه الكتب أعمال فنية عظيمة فهى تستطيع أن تقنع القارىء بأنها صادقة ، وأن الحب الرومانسى حقيقة . **ولكننا اذا دققنا النظر وجدنا ذلك القرن ليس رومانسيا كله ، فاكبر كتابه : ديكنز ، وثاكراى ، وتولستوى ، ودستويفسكى ، وأبسن ، لم يكونوا يكترثون بالحب الرومانسى**

كثيرا ، بل كانوا يتركون حمل رايته والدعاية له عند سواد الناس للمستويات الرخيصة من فنون الترفيه وكتبه ..

وعندما تجاسر فلوبير على كتابة رواية واقعية ـ « مدام بوفارى » ـ عن امرأة حطمت زواجها الشرعي المقدس في سبيل جوعها الضارى الى الحب الرومانسي ، اتهمه الناس بالخسة والقذارة . وبعد ذلك بسنوات قليلة حدث هذا الشيء نفسه لابسن عندما عرض على المسرح صورة بديعة لزواج رومانسى فى مسرحيته « بيت الدمية » ، ثم جعل هذه البطلة تهجر زوجها واطفالها لتبحث عن نمو شخصيتها الحرة المستقلة . وكأن ابسن يقول للناس بصراحة قاسية : « أن كل هذا الحب الرومانسى أكذوبة سخيفة ، فالحياة قد منحت للانسان كى يحقق فيها أمورا أهم من هذا وأولى بالاهتمام ! »

وقرب نهاية القرن التاسع عشر كانت الثورة الجنسية قد نضجت تحت السطح الخارجى للأفكار السائدة ، وهز « برنارد شو » المشاعر عندما صور فى مسرحياته نساء مستقلات التفكير ، لديهن المبادأة فى الحب ، فاذا وقع اختيارهن على رجل لم يترددن فى الهجوم واعلان الحب عليه ! و « ويلز » كاد يتعرض للمحاكمة لأنه نشر روايته « آن فيرونيكا » عن فتاة صغيرة السن تستمتع بلا خجل ولا حرج بالحب الحر .

« عشيق الليدى شترلى » .. و « نساء عاشقات »

● وفى سنة ١٩١٠ نشر لورانس أولى رواياته ، وتعرض للمتاعب لصراحته البالغة بصدد الجنس . ولما نشر روايته « نساء عاشقات » صودرت فعلا ! ولكن لورانس كان شاعرا ومصورا قبل كل شيء . وهو ـ كأى شاعر أصيل ـ كان يشعر أن معظم الناس عمى ، صم ، بكم ، عن كل ما هو جوهرى فى الحياة ! وفى اعتقاده أن الجنس ـ بمعناه العميق ،

لا الأهوج السطحى — من أهم عناصر الحياة ومكوناتها الجوهرية ، وان الحياة العصرية تزداد بمرور الأيام ضحالة وتفاهة ومسخا . ولذا تعمد فى أهم رواياته المعبرة عن أفكاره — وهى عشيق الليدى شترلى — أن يبين ما تشعر به امرأة ضائعة حائرة ، وكيف أنها وجدت احساسا أعمق بالواقع وبالحياة فى علاقة غرامية مع حارس الصيد ، فى كوخه وسط الغابة ...

ولكن لورانس ، برسالته عن اهمية الجنس بالمعنى العميق ، كان نغمة فريدة فى مهرجان الثورة الجنسية الصاخب ، فمعظم الثوار الآخرين لم يكن لديهم اى غرض بناء ، وانما هم هدامون ، كل همهم تقويض المحرمات السائدة والاستهزاء بالعاطفيات الرومانسية ، فنزلوا بالجنس الى مستويات سطحية تافهة حيوانية .

ولعل أوضح علامة على طريق هذه الثورة كان كتاب « يوليسيز » الذى نشره « جيمس جويس » الايرلندى قبل ظهور عشيق الليدى شترلى بست سنين . وقد قال معظم الناس أن « يوليسيز » ابذأ كتاب أخرجته المطابع ، ففيه مشهد كامل يدور داخل ماخور للدعارة ، ويفيض بألفاظ لم تطبع فى كتاب من قبل ! وكلمة الختام فيه قبلة يطبعها الزوج على جسد زوجته الذى لم يزل نديا من أثر عناق عشيق لها ، أسهب المؤلف فى وصف اتصاله بتلك المرأة الهلوك !

جيمس جويس ، و « فوكنر » أفسدا الجيل !

◉ **والواقع** أن قصة « يوليسيز » كانت بداية طوفان الأدب المكشوف الذى جرف كل العوائق ، وصار يملأ الاسواق بطبعات رخيصة لا تتجاوز نصف الريال ! وبها أيضا بدأت المعركة بين أنصار الحظر وخصومه .. ولم يكن « جويس » أول من تعرض للمتاعب بسبب البذاءة أو الفحش ، فحتى

« توماس هاردى » تعــرض لها بسبب قصـــته « چود الغامض » ، واميل زولا بسبب معظم قصصه . ولكن الواضح أن هــذين كانا واقعيين لا أكثر ، ولم يقصــدا الاثارة . أما « يوليسيز » فكان التصريح بنشرها فى ســنة ١٩٣٠ فى انجلترا وأمريكا بداية عهد جديد فى الأدب المكشوف ، فها هو الروائى الأمريكى « فوكنر » ــ الحاصل فيما بعد على جائزة نوبل ــ يحذو حذوه فى روايته « الملجأ » التى لا تقل بذاءة عن قصص غيره من كتاب الجنس !.. **وقد أصبحت قصة فوكنر هذه قدوة تحتذى فى الأدب الأمريكى خاصة ، فما جاءت سنة ١٩٣٩ حتى كانت هناك ملايين من الروايات الرخيصة تدور كلها حول العنف ، والعصابات ، والجنس ، والاغتصــاب ، والسادية . ومن اشــهر هذه القصص : « لا أزهار للآنسة بلاندش »** التى تدور ــ مثل قصة فوكنر ــ حول فتاة غنية ، ابنة مليونير ، فى السابعة عشرة من عمرها ، اختطفتها عصابة تتزعمها امرأة لها ابن وحيد مصاب بالانحراف الجنسى ، فهو سادى المزاج ، يتفنن فى التلذذ بالتعــذيب ، وكل اهتمامــه الجنسى ــ قبل أن تقع عينه على الآنسة بلاندش ــ موجه الى الغلمان . وكان من رأى العصابة قتل الآنسة بمجرد الحصول على الفدية ، ولكن الزعيمة قدمتهاهدية لأبنها ــ واسمه سليم ــ الذى أخذ يمارس معها كل ما خطر بخياله المريض من أنواع الانحرافات الجنسية . وفى النهــاية يتمكن رجال الأمن من انقاذها ، ويخر سليم قتيلا أثناء المعركة .. ولكنها لا تلبث أن تنتحر بعد قليل لأنها لم تعد قادرة على الحياة الطبيعية ، بعد أن أفسدها المأفون « سليم » !

وقد أصبحت هذه القصة نموذجا لموجة القصص العنيفة التى صــدرت فى أوائل الأربعينات ، أى الى نهــاية الحرب العالمية الثانية تقريبــا ، ولقيت انتشارا هائلا طبـــع أفكار

الجمهور بطابعه . وكلها كتب رخيصة الثمن جدا كان يتداولها المراهقون ، وهى خالية من أى بطولة ، ومن أى اعتبار للقيم : فالشرطة مرتشون ، ولا يختلفون عن رجال العصابات الا فى انهم موظفو الدولة ! ولم تزل هذه الموجة سائدة الى اليوم . وهى ثمرة مباشرة لقصة فوكنر ، وقصة فوكنر ثمرة مباشرة ليوليسيز .. وهـــذا دليل كاف على أن انصار حظر نشر « يوليسيز » كانوا على حق فى مخاوفهم !

رواية ((جيمس بوند)) .. و ((لوليتا))

وبعد ســنة ١٩٥٠ ، أحدث « ايان فلمنج » موجة جـديدة فى روايات العصــابات والأدب المكشوف بسلسلة مغامرات « جيمس بوند » . وهى رغم انها أكثر اتقــانا من سابقاتها فى الأربعينات ، الا انها فى نهاية المطاف أعمال قذرة متعفنة ، فما هى الا تجسيم لأحلام اليقظة التى تجول بخاطر تلميذ مراهق عامى الذوق « فالجائزة التى يحصــل عليها جيمس بوند دائما بعد كل انتصار هى فتــاة بارعة الجمال تلقى نفسها فى أحضانه بعد لقاء عابر !.. **ويحرص المؤلف على أن يجعل روايات جيمس بوند تتضمن كل أحلام المراهقين ، بكل سذاجتها وسطحيتها . ويخرج منها القارىء دائما بذلك الاحساس الذى توحى اليه به ((لا أزهار بلآنسة بلاندش)) وهو اننا نعيش فى عالم بلا قيم ، ولا شىء فيه سوى العنف والحيوانية والشهوة الجامحة !**

.. واستمرت الثورة الجنسية الى اليوم ، فكانت أولى طلائعها بعد موجة « جيمس بوند » هى قصة « لوليتا » بقلم فلاديمير نابوكوف . وقد نشرت فى باريس ســـنة ١٩٥٥ ، وتدور حول اغواء رجل ناضج لفتاة فى العاشرة من عمرها ! وتمتاز بجودة الأسلوب ، ودقة الوصف للانفعالات . وليس

الانحراف الجنسي فيها هو مادتها الأساسية ، بل يدور موضوعها حول الجوع الجنسي الذى لا يعرف الاشباع فى عصرنا . وما لوليتا الا نموذج لملايين البنات الشهيات (رغم صغر سنهن) اللواتى ينظر اليهن الرجل كما ينظر الطفل الى واجهة محل للحلوى ! وعلى هذا الأساس أمكن نشر لوليتا فى أمريكا وانجلترا بدون حظر ، لأنها عمل أدبى له قيمته الفنية . ثم أن المشاهد الجنسية فيها غير صريحة ، اذ يترك المؤلف العمل الجنسي وتفاصيله لخيال القـارىء . وبذلك سقط حاجز آخر من حواجز حظـر الأدب المكشوف ، وأصبحت الخطوة التالية الطبيعية اباحة نشر « عشيق الليدى شترلى » علنا فى أمريكا ، فغدت ذائعة الانتشار ووزعت مئات الألوف من النسخ . وكان من الممكن أن تنشرفى انجلترا فى طبعة غالية الثمن بدون اعتراض ، لولا أن ناشرا انجليزيا كبيرا تعاقد على نشرها فى طبعة شعبية ضخمة . ورفعت قضية ضد الكتاب ، ولكن الحكم صدر باباحـة نشرها فى انجلترا سنة ١٩٦٠ ، فلقيت رواجا هائلا ، وحققت أرباحا طائلة .

« هنرى ميلر » .. و « جان جينيه »

◉ **وكان** من الطبيعى أن يبحث الناشرون الأمريكيـون خاصة عن أعمال أدبية من هذا النوع ، ويتنافسون فيما بينهم على شرائها . وكان « هنرى ميلر » على رأس القائمة بالطبع ، فكتـابه « مدار السرطان » هو الضـالة المنشودة والنموذج الوافى بالغرض . وقد صدر فى الثلاثينات فى باريس ، وظل يباع للسائحين الأمريكيين خلسة !.. وبمجرد نشره فى أمريكا اكتسح الأسواق ، وتلته على الفور كتب هنرى ميلر الأخرى ، مثل « مدار الجدى » ، و « الربيع الأسود » ، و « الصلب الوردى » .

وبعد كتب هنري ميلر بحث الناشرون عن أعمال « كلاسيكية » في الأدب المكشوف ، فوقع اختيارهم على « فاني هيل » لمؤلفها كليلاند ، وهي مذكرات بائعة هوى ، وقد صدرت سنة ١٧٤٩ ، وظلت تباع خلسة برواج كبير منذ ذلك التاريخ . وتروى قصة فتاة ريفية ساذجة جميلة حضرت الى لندن ، واستدرجها أبناء السوء الى ماخور للدعارة ، ولكن صاحبة الماخور عشقتها ، وكانت مصابة بالجنسية المثلية ، واستأثرت بها بعض الوقت . ويروى المؤلف التفاصيل بكل صراحة . ولا يكفيه هذا بل ينتقل الى مرحلة أخرى ، وهي اشتراك الفتاة مع صاحبة الماخور في لذة منحرفة هي التلصص من ثقب بالجدار على خلوات بقية النزلاء .. وتعشق « فاني هيل » أحد الرواد فتهرب معه ، وهو من أبناء الأشراف ، ويعدها بالزواج فتستسلم له ، ولكن أهله يرسلونه الى الخارج ليبعدوه عنها ، فتعود الى حياة الدعارة .. وفي نهاية مغامراتها يعود حبيبها من الخارج ثريا ، مستقلا بموارده ، فيتزوجها .. وتستقر حياتها في أطار من الاحترام !

وكانت نتيجة كل هذه الاباحية في النشر أن بدأت تلك الكتب تفقد سحرها . ولم يعد الجنس كافيا لترويج مئات الآلاف من النسخ .. وصار واضحا أن نجاح أي كتاب جنسي يتوقف على تضمنه ((وجهة نظر)) معينة .

وهذا ينطبق أيضا على الكاتب الفرنسي « جان جينيه » الذي أبيح نشر كتبه « الممنوعة » في انجلترا وأمريكا في السنوات الأخيرة . وهو في قصصه يحاول أن يمثل المتمرد الكبير ، والمجرم العظيم ، والمنحرف الذي لا يخجل ! بيد أنه **لا يفلح الا في اقناع القارىء بان الانحراف والجريمة مرادفان لعدم النضج . فالانسان الناضج اقرب ما يكون الى الاتزان**

أو التوازن النفسي . وكل هذه الكتب لا تترك في النهاية لدى القارىء الا شعورا رهيبا بالتقزز والغثيان . وبان هذه الفوضى الخلقية شيء يختلف كل الاختلاف عن التحرر أو الحرية !

أجل أن الفوضى هي الصـــفة التي تتلخص فيها روح العصر . وهذه الاباحية في نشر الكتب الجنسية بلا ضـــابط انما هي تطبيق خاطىء لشعار حرية الفكر وحرية النشر . فليس معنى الحرية ألا تكون هناك مستويات وقيم . **وكأن دعاة هذه الاباحة حين يزعمون أن حظر بعض الكتب الجنسية المكشوفة اهدار للحرية يزعمون أيضا أن الحرية مهددة لأننا لا نبيع الخمر والسجائر في كانتين المدرسة الاعدادية !** ان هذا الحظر انما يقصد به حماية القصر الذين لم يكمل نضجهم ، ولا يقدرون على حفظ توازنهم . وكما نمنع عنهم في المدارس الخمر والسجائر ــ وهما متاحان للكبار في الشوارع والأندية ــ نمنع عنهم أيضا هذه السموم الجنسية التي لا يعرفون لها حسابا صحيحا .

انهم في البلاد الاسكندنافية يرفعون أسعار الخمور الى مستوى باهظ ، لأن الناس هناك ميالون للاسراف في تعاطيها ، وبذلك يصبح الثمن المرتفع حائلا دون الافراط فيها . فلماذا لا يحظر نشر الكتب الجنسية الا في طبعات غالية ، لا تقل عن ثلاثة جنيهات أو عشرة دولارات للكتـــاب ، وبذلك يفـكر المراهقون مائة مرة قبل اقتنائها ؟.. لعـــل هـــذا هو الحل الوسط بين الحظر التام وبين الاسراف في اطلاق حرية النشر بلا ضابط !

الجنس .. وعالم الغد

● **وما ذكرناه** عن الأدب المكشوف ينطبق فيما أعتقد على موضوع الحرية الجنسية برمتها . فنحن ولا مراء نعيش في عصر تتزايد فيه حرية الممارسة الجنسية تزايدا مطردا ..

ولكن ما هو الوضع الصحيح لهذه الحرية في المستقبل ؟
لعل الاجابة عن هذا تأتينا من الاجابة عن سؤال آخر :
ـ ما الفرق بين رجل مولع بالخمر ، وبين السكير ..؟
والجواب في هذه الحالة بديهي . فالرجل المولع بالخمر يستخدم كل ذكائه وكل ذوقه ليستمتع بالخمر التي يحتسيها الى أقصى حدود الاستمتاع . أما السكير فيريد أن يحطم كل ذكائه ، وبعد كأسه العاشرة لا يدري ما يشربه أهو نبيذ ، او جعة ، أو بوظة !

ومثل هذا يقال عن الحرية الجنسية . فكل شيء يتوقف على مراهقي الغد . فاما أن يكونوا سكيرين جنسيا ـ وبذلك يحطمون جانبا هاما من ذواتهم ـ وأما أن يتعلموا كيف يستخدمون العقل والذكاء في امور الجنس ، وفي هذه الحالة تكون الحرية خالية من الأضرار الوبيلة .

ومن يريد أن يغدو خبيرا في الأنبذة يبدأ بتعلم شيء عن الكروم ، ومكان استنبات الجيد منها ، وكيفية عصرها ، وما الفرق الذي ينتظر بين نبيذ بوردو ونبيذ برغنديا . وان لم يجهد نفسه في تعلم هذه الأمور فلن يكون في وسعه أن يميز الخبيث من الطيب في الأنبذة ، وانما يستوي عنده كل ما يدخل فمه !

وهذا ينطبق بحذافيره على الجنس . فالفعل الجنسي نفسه بسيط ومتشابه ، مثل عملية فتح زجاجة نبيذ وتجرع ما بداخلها . وهذا هو السر في أن الأدب المكشوف الذي ليس به الا حديث العمليات الجنسية متشابه ويؤدي الى الملل بسرعة . أما الدراية العقلية والذوقية بأمور الجنس فتحتاج الى تفهم ، واحساس ، وتذوق ، ومعرفة ، وخبرة يستغرق تحصيلها العمر كله !.. **وهذا ما كان يعنيه لورانس بقوله ان الجنس يجب أن يكون شيئا جادا ، جليلا ، عميقا ،**

يستوعب كيان الانسان بأكمله . وبذلك يمكن ان تتلخص كل النساء في امرأة واحدة ، لا تغني عنها ألف امرأة !

المسألة اذن مسألة « الكم والكيف » في صورة أخرى .. فما أكثر الجنس من حولنا في هذا العصر ، وما أسهله ! ولكن معظمه ضحل ، سطحي ، تافه ، لا يعني شيئا ، ولا يترك اثرا باقيا . انه جنس لا يتعدى تأثيره الأعصاب والحواس . ولا يعقبه اشباع نفسي ووجداني عميق . وهذا ما نعنيه حين نقول ان « مارلين مونرو » أو « بريچيت باردو » رمز الجنس العصري . فنحن نعني بهذا أنها رمز للاثارة الجنسية السريعة ، الهينة ، السهلة . وهذا بلا شك ما كان لورانس يعترض عليه بشدة ، ويرى أنه مجرد « اهدار » للطاقة الجنسية ، وتبديد أشبه بسكبها في بالوعة . وهذا ـ للأسف ـ هو الدرك الذي يزداد الجنس في عصرنا اقترابا منه . تضخم في الكم يقابله هزال في القيمة الحقيقية !

ان الحرية ليست خيرا في ذاتها على الدوام . انها قد تكون أكبر شر ، كما يمكن ان تكون أكبر خير ، وذلك يتوقف على أسلوب استخدامها . وليست حرية الجنس بدعا ولا استثناء من سائر أنواع الحرية ..

ان الحيوان لا يعرف لحياته معنى ولا غاية . ولا يتساءل عن معناها أو غايتها . حسبه أن يعيشها بغرائزه الفطرية . أما الانسان فيتميز بأنه يتساءل دائما عن معنى وغاية لحياته . ولهذا لا يكفي أن يعيش بغرائزه كالبهائم ، وأن يشبع شهوته الجنسية حيثما اتفق ، كلما شعر بالجوع ، **بل يجب لكي يكون الانسان انسانا أن يتعلم كيف يستخدم أهم غرائزه بحيث يحقق لحياته معنى ، ويجعل لها غاية أرفع من الوجود السلبي المنقاد للغرائز .**

بهذا وحده يمكن أن يكون للانسانية غد تتطلع اليه الأنظار !

....

محتويات الكتاب

كتابى

تصدر عن **الشعب** مؤسسة صحفية عربية

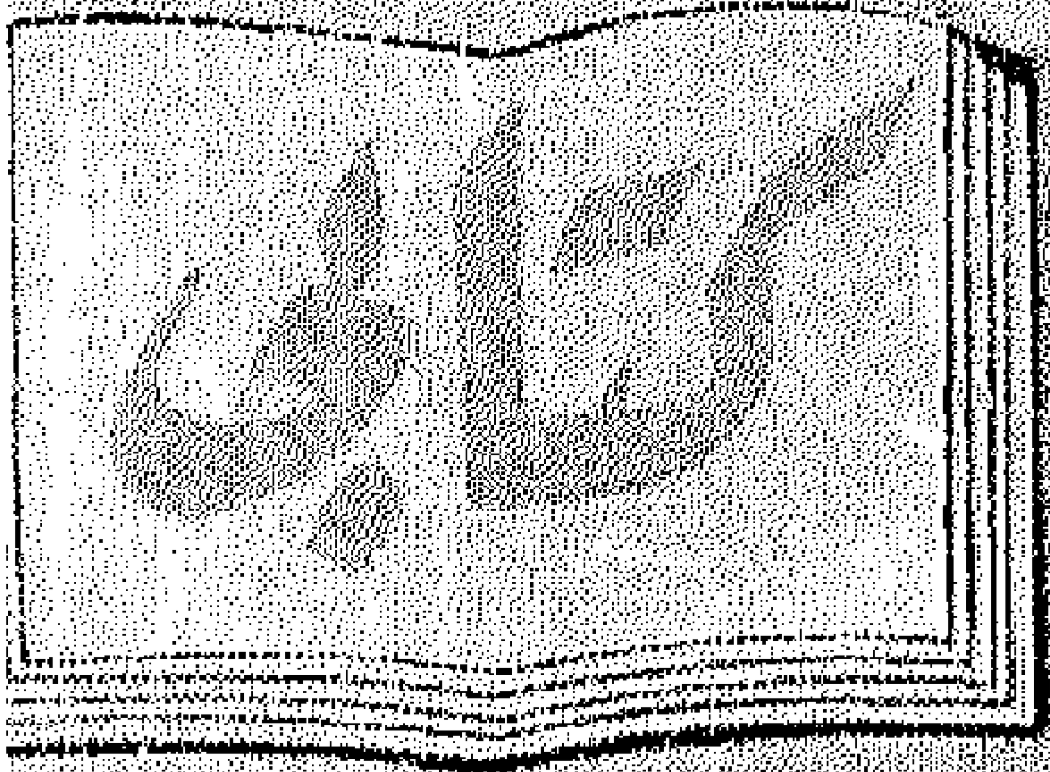
اخصائيون فى المطبوعات العاجلة



الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ • مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١

التوزيع : مكتبة دار الشعب

رئيس مجلس الإدارة السيد ابراهيم



حلمى مراد

من الأرض .. إلى القمر

وكتب أخرى



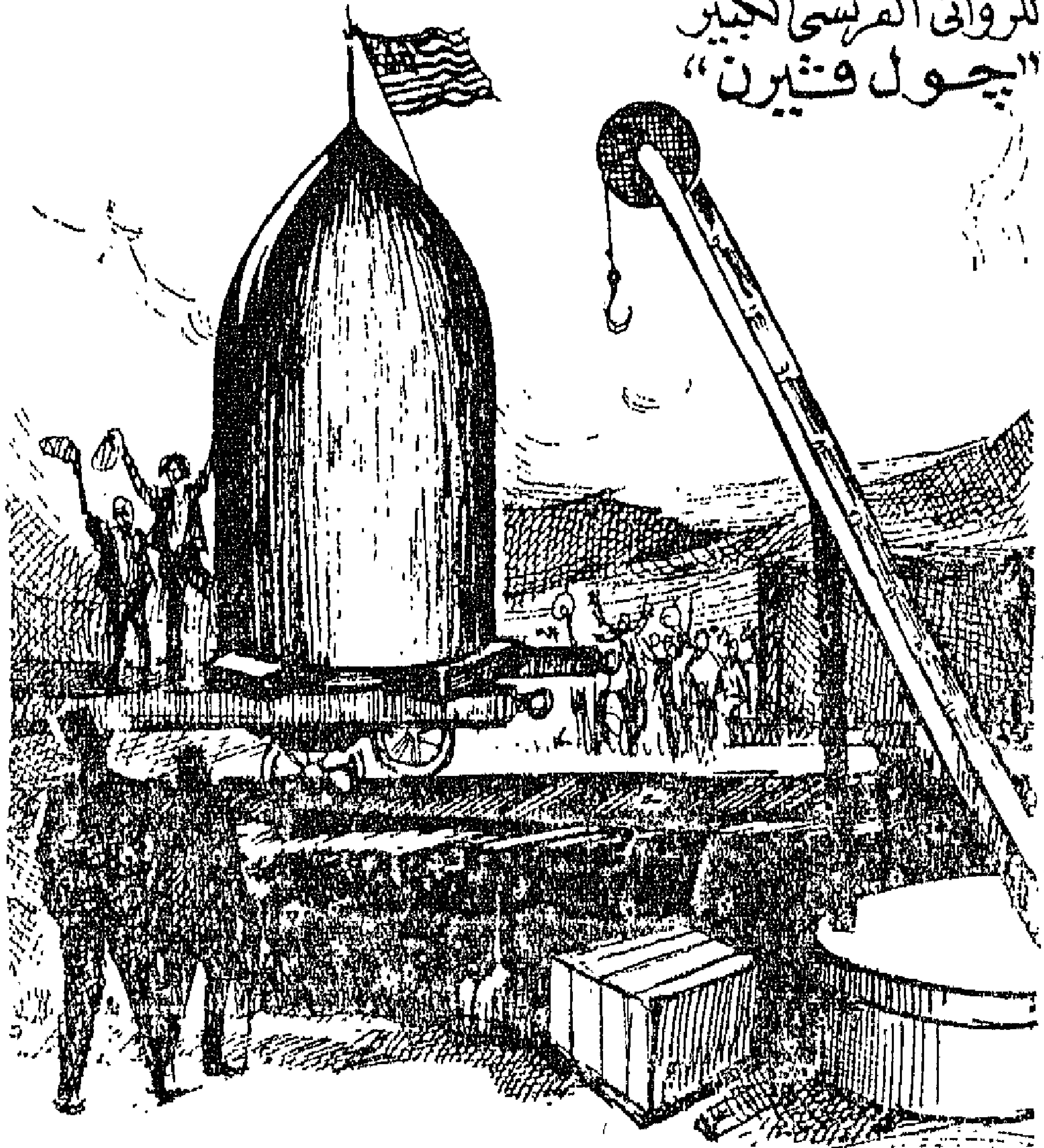




الرواية التى تنبأ فيها "جول ڤيرن"
منذ ١٠٠ عام بهبوط الإنسان فوق القمر!

من الأرض .. إلى القمر!

للروائي الفرنسي الكبير
"چول ڤيرن"



DE LA TERRE A LA LUNE

PAR : JULES VERNE

عرض وتلخيص : ميشيل تكلا

بين خيال الروائى .. وواقع العلم

ظل القمر ـ منذ بدء الخليقة ـ مثار انبهار الانسان ومحور قسط كبير من تفكيره ..

عبده اقوام ، واستانس به ـ فى ليالى السهاد ـ عشاق ، وناجاه شعراء وادباء ، واستلهمه فنانون أجمل التحف الفنية .. وحلم الكثيرون بالصعود اليه ! .. وظلت عقول العلماء تعمل وتعمل لتسخير العلم فى سبيل الوصول اليه !

واستطاع الأدب ان يسبق العلم بقرن وبضع قرن .. فمنذ مائة عام واربعة ، تخيل الروائى الفرنسى « جول فيرن » ـ فى الرواية التى نلخصها لك فى الصفحات التالية ـ كيف يقدر للعلم ان ييسر للانسان الوصول الى القمر .. وكان اعجب ما فى روايته هذه ، ان خياله اوشك ان يطابق كل ما حدث فى صيف عام « ١٩٦٩ » ، عندما هبط على سطح القمر اول رائدين من البشر ، خلال رحلة « ابوللو ١١ » .. وهى الرحلة التى تبعتها فى شهر (نوفمبر) ١٩٦٩ رحلة « أبللو ١٢ » ..

وفى الصفحات التالية ، نلخص لك رواية جول فيرن « من الارض الى القمر » ، ثم نردفها بتعقيب يبين مدى التقارب المذهل بين تنبؤاته وبين ما حدث فعلا ، بعد اكثر من قرن كامل من الزمن !

« جول فيرن » .. فى سطور
(١٨٢٨ ـ ١٩٠٥)

● كتب « جول فيرن » ـ خلال حياته الطويلة المثمرة (٧٧ عاما) ـ ٨٠ قصة طويلة او رواية ، الى جانب كتبه غير الروائية ، التى منها : « الجغرافيا المصورة لفرنسا ومستعمراتها » (١٨٦٨) ، « تاريخ الرحلات الكبرى والرحالة الكبار » (١٨٧٨) ، « كريستوف كولمب » (١٨٨٣) .. كما اشرف ، او شارك فى الاشراف ، على ١٥ مسرحية ..



• بدأت شهرته تعم ، وتلفت اليه الانظار ، فى الاعوام من ١٨٦٣ الى ١٨٦٥ ، حين نشر رواياته الثلاث الاولى ، والكبرى : ٥ أسابيع فى منطاد ، رحلة الى جوف الارض ، من الارض الى القمر .

• عاش « جول فيرن » فى القرن الذى انجب كل هؤلاء العباقرة من الروائيين : بلزاك ، ديكنز ، ديماس الاب ، تولستوى ، دستويفسكى ، ترجنيف ، فلوبير ، ستندال ، جورج اليوت ، زولا .. لكنه يقارن ، أكثر ما يقارن - فى عبقريته وقوة خياله - ب « ديماس الاب » ، مع فارق واحد : فبينما سلط الاول اشعاع خياله على « الماضى » يستخرج منه أروع الروايات ، سلط الثانى هذا الاشعاع على المستقبل ، يستنبئه اعجب النبوءات ، التى تحقق الكثير منها - ويا للعجب ! - بعد نصف قرن من نبوءاته ، واحيانا بعد قرن كامل !

• والقارىء لروايات « جول فيرن » يعجب لهذه الطاقة الخارقة من الخيال وقوة الابتكار عند هذا « الساحر » الذى عكف (طوال خمسين عاما كاملة !) على تطويع الكشوف العلمية غير المنظورة فى عصره ، لمجهوده اليومى فى الخلق والابتكار ، على صفحات رواياته العديدة الباهرة . ولكن هذا لا يعنى أنه قدم الوسائل التكنولوجية التى تسمح بتحقيق أحلامه « المستقبلية » .. فهو ليس عالما هندسيا مثل « اديسون » مثلا ، ولا ميتافيزيقيا يحمل رواد فضائه روح « باسكال » فى رحلاتهم الكونية ، ولا عالما فى الاجتماع ، يضمن روايته ذات الطابع التاريخى « ميشيل ستروجوف » تحليلا خفيا للقوى الثورية فى روسيا القرن التاسع عشر .. وانما تقييمه الصحيح أنه يعد « شاعر » القرن التاسع عشر ، أكثر منه « مهندس » القرن العشرين !

• وقد ولد « جول فيرن » فى مدينة (نانت) بفرنسا ، فى ٨ فبراير عام ١٨٢٨ . وكان جده لأبيه قاضيا ، فاتجه أبوه « بيير فيرن » فى عام ١٨٢٥ لدراسة القانون ، وفى عام ١٨٢٧ تزوج من أمه « صوفى الوت دى لا فوى » ، التى تنتمى الى أسرة من رجال الملاحة وصناع السفن . ورزق الزوجان ولدين : « جول » ، ثم « بول » (١٨٢٩ - ١٨٩٧) ، و ٣ بنات .

• وفى سن السادسة بدأ يتلقى تعليمه ، وفى سن ١١ سنة أبحر خلسة الى الهند على سفينة صغيرة ، لكن أباه لحق به فى (بامبوف) ، حيث اعترف بانه سافر ليشترى لابنة عمه « كارولين » عقداً من المرجان !.. فلما عنفه والداه بشدة وعد بالاقلاع عن السفر مدى الحياة « الا فى الاحلام » !.. وفى سن ١٦ التحق بمدرسة الليسيه فى (نانت) حيث اتم تعليمه حتى حصل على البكالوريا وبدأ دراسة القانون كابيه .. دون أن ينسى حبه لابنة عمه « كارولين » ، حتى تزوجت فى عام ١٨٤٧ ، فادركه الياس ...

• وخلال تلك السنوات بدأ يكتب أشعاراً غنائية ، ثم وضع مسرحية شعرية رفض مسرح العرائس تمثيلها ، فحصل على اذن من ابيه باكمال دراسة القانون فى باريس ، حيث الحركة المسرحية فى قمتها . وفى العاصمة اقام فى غرفة مفروشة مع زميل ، كان يتبادل معه سترة السهرة الوحيدة لديهما ، ليحضر سهرات المسارح .. وصام من الطعام ٣ أيام ليشترى مسرحيات شكسبير !.. واستمر فى الكتابة ، وتعرف ب « ديماس الاب » ، الذى أوحى اليه بفكرة ٣ مسرحيات ، مثلت احداها فى « المسرح التاريخى » فى ١٢ يونيه ١٨٥٠ ، لمدة ١٢ ليلة !.. ثم مثلت فى مسقط رأسه (نانت) !.. واغراه النجاح فكتب مسرحيتين آخريين ، لم تمثلا .

• وانهى دراسة القانون فى ١٨٥٠ ، لكنه رفض ممارسته ، مؤثراً مزاولة هوايته المفضلة : الادب .. مستعينا على المعيشة باعطاء الدروس الخاصة . وفى ١٨٥٢ نشر اول قصتين له ، هما (السفن الأولى للبحرية المكسيكية) و (رحلة فى منطاد) ، ثم أتبعهما بقصته الطويلة الأولى ، التاريخية العاطفية « مارتان باز » . وفى العام التالى مثلت له « أوبريت » من فصل واحد . ثم عكف على التاليف فى مسكنه الصغير بشارع (بون نوفيل) ، فنشرت له روايتا : السيد زاكاريوس (١٨٥٤) ، شتاء فوق الثلوج (١٨٥٥) .

• وفى ١٠ يناير ١٨٥٧ تزوج من « اونورين آن هيبيه موريل » ، وكانت ارملة فى سن ٢٦ ، ولها ابنتان من زوجها الاول . ثم انتقل للاقامة فى شارع مونمارتر ، وتتابعت كتبه عن رحلاته : الى انجلترا واسكتلندا (١٨٥٩) ، والنرويج وسكندنافيا (١٨٦١) . وفى ٣ أغسطس ١٨٦١ رزق بطفله الوحيد الذى لم يرزق سواه : « ميشيل فيرن » . وفى العام التالى قدم روايته الجديدة (٥ أسابيع فى منطاد) الى الناشر « هيتزيل » ، فتعاقد معه على نشر كتبه لعشرين عاما تالية . وحقق الكتاب نجاحا ساحقا ، فى فرنسا والخارج ، فبدأ نجمه فى التالق ، واشركه الناشر فى انشاء مجلة

(البقية صفحة ١٦٨)

نادى السلاح

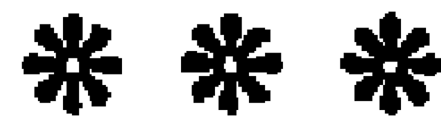
● أثناء الحرب الفيدرالية فى الولايات المتحدة الامريكية ، تأسس فى بلدة (بالتيمور) ـ بولاية ماريلاند ـ ناد اكتسب شهرة ونفوذا ، أطلق عليه « نادى السلاح » .. وكان يضم مجموعة نادرة من العسكريين المتقاعدين ، الذين كانت لهم صولات وجولات فى المعارك وفنون الحرب ، وان لم يتخرج معظمهم فى الكليات الحربية .. واستطاعوا بقدرتهم وكفاءتهم ان يحققوا انتصارات عظيمة ..

والحق ان العسكريين الامريكيين تفوقوا على اقرانهم الأوربيين فى علوم الفلك ورصد الكواكب ، كما بلغت أسلحتهم من الكمال درجة رفيعة لم يبلغها سواهم .. وقد لا يثير هذا دهشة ما ، اذا عرفنا أن « اليانكيز » كانوا ميكانيكيين بفطرتهم ، ومهندسين أفذاذا بالسليقة .. وكانوا مغرمين بصنع المدافع الضخمة طويلة المدى ، وقد قويت المنافسة بين الشماليين منهم والجنوبيين ابان الحرب الفيدرالية ، التى استخدمت فيها الأسلحة الرهيبة الفتاكة ، فتطور علم السلاح تطورا سريعا عندهم .

وغريب أمر الأمريكيين ! .. فعندما تختمر فكرة فى راس أحدهم ، يبحث فى الحال عن أمريكى آخر يشاركه تنفيذها .. واذا اجتمع ثلاثة بادروا الى تعيين واحد منهم رئيسا ، واصبح الآخران سكرتيرين .. واذا كانوا اربعة ، فسرعان ما ينشئون شركة ، اما اذا كانوا خمسة فانهم يؤسسون ناديا ..

وهكذا أسس نادى السلاح ، وبعد شهر واحد بلغ أعضاؤه ١٨٣٣ عضوا عاملا ، و ٣٠٥٧١ عضوا منتسبا .. وكان شرطا على كل راغب فى الانضمام ، أن يكون على علم

ودراية بمختلف انواع الأسلحة .. وعن طريق النادى حقق عدد كبير من الأعضاء عدة مخترعات لها أهميتها ، فاخترع بعضهم صواريخ فضائية ، وصمم بعض آخر مركبات فضاء كذلك ، حتى بدت الأسلحة الأوربيــة بدائيــة أمام الأسلحة الأمريكية .. وقد فتكت هذه الأسلحة بعدد كبير من الثوار الجنوبيين ، ووضعت حداً للحرب الضروس .



ولكن عدداً من أعضاء نادي السلاح ، ظلوا ــ برغم انتهاء الحرب ــ يحلمون بالمدافع والقنابل » ويقضــون الوقت فى وضع تصميمات يعرضونها على جدران النادى ، او يتركونها مبعثرة فى قاعاته ، وليس الى تنفيذها من سبيل ، لما كان يتطلبه ذلك من مال ، ولأن الحرب ــ التي يمكن أن تختبر فيها هذه الأسلحة الرهيبة ــ كانت قد انتهت .

هكذا كان العســكريون المحترفون يقضون اوقاتهم فى النــادى ، يتذاكرون امجاد الحــرب ، ويتندرون بقصص البطولة ، ويرتقبون الفرص لأعمال خارقة لم ياتها انسان من قبل .. الا يمكن لهذه الصواريخ القوية أن تنقلهم ــ مثلا ــ الى الفضاء الخارجى .. الى القمر او النجوم او الكواكب فى يوم قريب ؟ .. وهكذا كان السفر فى الفضــاء يستهويهم ، فيحلمون به .

وذات ليلة ، جلس ثلاثة من أعضاء النادى ، وقد سيطر عليهم الحزن والشرود .. واخيرا ، تململ أحدهم ــ وكان يدعى « توم هانتر » ــ وبدأ يقلب نار المدفأة بســاقيه الخشبيتين ، ثم قال :

ــ شيء محزن حقــا .. لا عمل نؤديه ، ولا خلاص من الملل .. أين ذلك الوقت الذى كان صوت المدفع فيه يوقظنا

من أعمق سبات ؟ يا لها من حياة كئيبة !.. أصبحنا عاطلين ، لا عمل لنا بعد أن كسدت صناعة البنادق .. ما لذة الحياة بعد أن ذهبت عنا متعة العمل والكفاح ؟ !

فأشار ثانى الرجال ــ وكان يدعى « بيلسبى » ــ بذراعه الوحيدة نحو صور الأسلحة المعلقة ، وكان قد فقد ذراعا اثر حادث انفجار ، وقال : « هــذه آثارنا تدل علينا ! .. لقــد انقضت تلك الأيام !.. أيام كان الناس يتقاطرون فيها على المصانع يطلبون السلاح ، وكان اطراؤهم يلهب حماسنا فنقضى الأيام والليالى أمام البواتق والأفران نشكل الحديد والصلب ونخضعهما لارادتنا ، فنخرج للناس آيات من انواع السلاح.. ولكن ، سبحان مغير الأحوال ، لقد انصرف الناس الى أعمالهم وتجارتهم ووظائفهم .. أى عصر هذا !.. الناس ــ سامحهم الله ــ يريدون اليوم مزيداً من السيارات الأنيقة .. والجنود ينصرفون الى عمل غير القتال .. والقادة استبدلوا مدافعهم بتجارة القطن .. ان مستقبل أمريكا فى السلاح قد ضاع ! »

وعقب الثالث ــ وكان يدعى « ج.ت.ماستون » ــ على حديث زميله بقوله : « لقــد أطلت التفكير ، وسهرت الليالى لتصميم مدفع ثقيل قد يغير استراتيجية الحرب .. ولكن ، ما من انسان يعاونني .. أين ذهب محبو السلاح ؟.. اذا كانت الحــرب قد انتهت ، فلا بد لحــرب أخرى أن تتفجر يوما .. ماذا دها الناس ؟.. لقـــد كسدت بضاعتنا .. يا للمأساة ! »

وتلفت حوله يستشف وقع كلامه على وجوه الآخرين ..

كان ماستون من أشــهر العلماء ومصممى البنــادق والمدافع ... ذاع صيته لمقدرته الخارقة على انتاج عدد كبير من الأسلحة الفتاكة ، كما كان ضخما عملاقا ، يبدو زميلاه أمامه كأنهما طفلان صغيران .. عاد يقول ، وهو يتراجع فى

مقعده : « يبدو أن سكان العالم الجديد قد وحدوا كلمتهم على عشق السلام أو التعايش السلمى مع جيرانهم من سكان القارات الأخرى !.. لقد تنبأت صحيفتنا « التريبون » بعدة كوارث من جراء الزيادة الفادحة فى السكان ! »

قال هانتر : « هذا ما يدفعنى الى أن اصبح فلاحا .. وأعيش ما بقى لى من أيام على ذكرى البنادق واشكالها وأحجامها وطلقاتها » .. فأردف بليسبى : « أما أنا ، فلا أستطيع الفلاحة بيد واحدة .. سأصبح مدرسا اتحدث الى تلاميذى عن البنادق ومجدها التليد ! »

فصاح ماستون : « ولكنى يا سادتى ، سأواصل تصميم المدافع ، برغم عقوق النـاس وكساد بضـاعتنا ، ولو ظلت التصميمات حبيسة مكتبى .. فلست أعرف شيئا سوى تصميم البنادق والمدافع .. ان لسكان العالم القديم افكارا تقدمية تختلف عما لدينا .. ولن يعترفوا بخبرتنا العسكرية وقوة مدافعنا الا اذا رأوها بأنفسهم .. **ان امامنا فرصة نادرة ، هى تجـربة الصواريخ .. لن يمتلىء الجو ـ بعـد اليوم ـ بطلقات مدافعنا ، ولكن يوسع صواريخنا ان تمرق فيه الى عوالم اخرى .. »**

* * *

ودخل المكان خادم يحمل ثلاثة خطابات ، قدم لكل واحد منهم خطابا يحمل اسمه .. وفضوا الرسائل فى فضول ، فاذا بها متشابهة :

« بالتيموز فى ٣ اكتوبر :

« يتشرف رئيس نادى السلاح بدعوة زملائه الأعضـاء الى اجتماع عاجل ، فى اليوم الخامس من هذا الشهر ، سيعلن فيه نبأ هام ... ـ ايمبى باربيكان »

محاضرة الرئيس باربيكان

ضاق البهو الكبير فى « نادى السلاح » بالناس ،فى مساء ٥ أكتوبر ، اذ أن الاعلان الذى نشره الرئيس « باربيكان » بشتى وسائل الاعلام ، أوحى لأهل (بالتيمور) جميعا بأن النادى أعد اجتماعا خطيرا .. وكان المقعد الذى أعد للرئيس عبارة عن عربة مدفع استخدمت فى معركة (الطرف الأغر) .. اما المائدة ، فصنعت سيقانها من البنادق القديمة ، وغطى سطحها بقطعة من الصلب شقت من جانب بارجة قديمة مشهورة .. واستوت الى جوارها سبورة ضخمة .

فى الثامنة الا دقيقة واحدة ، أقبل الرئيس « باربيكان » .. كان طويلا ، نحيفا ، فى الأربعين من عمره ، ذا عينين زرقاوين باردتين .. ولم يكن يتكلم الا بقدر معلوم ، ولكنه كان طيب القلب ، استثمر أمواله فى التجارة .. وكان يختلف عن بقية أعضاء النادى ، فى أنه ظل متكامل الأعضاء ، لم يفقد ساقا أو ذراعا .

واتخذ الجميع مقاعدهم ، وبينهم من اضطر الى الوقوف على جانبى القاعة . وساد الصمت ..

وفى تمام الثامنة ، بدأ خطابه .. تحدث عن الكساد الذى اعقب الحرب ، وقال :

« .. اننا لا نحب البطالة .. والعلم لا يمكن أن يقف جامدا .. وقد دعانى هذا الى التفكير فى خطة درستها مرات ومرات .. انكم ولا ريب قد رأيتم القمر ، وهو ـ كما تعلمون ـ كرة فى السماء قطرها ٢١٦٠ ميلا .. »

ورسم على السبورة الكرة الأرضية ، وكتب تحت قطرها ٧٩٢٧ ميلا .. وفى الركن المقابل رسم القمر ، وكتب تحت قطره ٢١٦٠ ميلا ، واستطرد قائلا :

« بوسع جندى ماهر ان يصيب دائرة قطرها بوصتان من مسافة تتراوح بين مائة وثلاثمائة ياردة ، وتستطيع طلقة مدفع من احدى بوارجنا ان تصيب دائرة قطرها بوصتان ، على بعد ميل واحد . ولكن امامنا الآن كرة قطرها ٢٠٠٠ ميل .. ومن المؤكد ان نادى السـلاح يستطيع اصـابتها اذا شاء .. »

وسرت بين القوم غمغمة ، ولكنـه تجاهلها ، واستأنف قائلا :

« ان القمر بعيد عنا بمقدار ٢٥٣ الفا من الأميال ، فى اقصى نقاط بعده عن الأرض ، أو ــ ان شئنا الدقة ــ هو يبعد عنا بمقدار ٢٥٢٫٧١٠ أميال . ولكنـه لا يدور حول الأرض دورة كاملة الاسـتدارة ، وعنـدما يقترب مداره من الأرض ، يكون البعـد بينه وبينها ٢٢١٫٤٦٣ ميلا فقط .. ومما لا شك فيه ان المسافة بعيدة جدا ، اذا كان على طلقتنا او مركبتنا الفضائية أن تمرق فى الهواء طيلة الوقت .. ولكن الهواء يقل ويقل كلما ارتفعت الطلقة أو المركبة عن الأرض ، وعلى ارتفاع مائتى ميل ينعدم الهواء تماما ، فيتسنى للطلقة أو المركبة مواصلة رحلتها خلال الفراغ .. »

وصاح أحد الأعضاء : « برغم هذا كله ، فالمسافة بعيدة جدا » .

فالتفت اليه قائلا : « ليست كما تتصور ، فعندما تقطع الطلقة أو المركبة خمسة أسداس المسـافة ، يجذبها القمر نحوه ، فتشرع فى الهبوط فوقه . وفى السبعة والثلاثين الف ميل الاخيرة ، لا تحتاج الطلقة الى قوة دافعة ، لأنها تكون فى حالة هبوط مستمر » .

وسـاد الحضور صمت غريب ، وقد راحوا يتصورون الهبوط على القمر فى مخيلاتهم . ولكن احدهم ــ وكان يدعى

الكابتن نيقول ــ هب واقفا فى نهاية القاعة ، ليبدى رأيا .. كان صغير الجسم ، أحمر الوجه ، مارس صناعة الصلب أثناء الحرب . وكان غريما لباربيكان ، فكلما صنع هذا بندقية يخترق رصاصها أى نوع من الصلب ، صنع « نيقول » نوعا جديدا من الصلب منيعا على طلقات البندقية الجديدة .

قال كابتن نيقول : « لن يبدو الأمر بهذه السهولة ، اذا امعن الانسان فى تأمله . فلكى تهــرب الطلقة من الجاذبية الأرضية ، لا بد أن تنطلق بسرعة سبعة أميال فى الثانية .. فهل هناك جهاز يرسل الطلقة بهذه السرعة ؟ »

فأجاب باربيكان بهدوء : « نعم .. هناك قذيفة اسمها آتوميت .. »

وصاح الكابتن ساخرا : « قذيفة !.. ولكن أين المدفع الذى يطلقها ؟ .. ما من نوع من الصلب يمكن أن يصنع منه مدفع يتحمل قوة هذه القذيفة .. »

ــ لن يصنع المدفع من الصلب ، فهناك معادن أقوى منه ، وقد صار استخدامها ممكنا بعد الحرب ..

* * *

ووقف رجل وخط الشيب شعره ، فتكلم بصوت خافت رصين .. كان عالمـا مرموقا يدعى الدكتــور « بيلفاست » تجاوزت دراساته البنادق الى النجوم .. فقال : « وكيف ستعرف أن قذيفتك بلغت القمر ؟ .. ان أكبر « تليسكوب » لا يزيد قطره على عشر أقدام .. »

قال باربيكان : « بل تسع .. ولن يزيد قطر طلقتنا على تسع أقدام .. »

قال الدكتور بيلفاست : « شكرا .. اذا أمكن اطلاق قذيفة كهذه ، فمن الميسور التأكد من سقوطها فوق القمر ، وقد

يتسنى استخدام ضوء باهر للدلالة على ذلك .. ولا أملك الجزم بامكان صناعة مدفع ضخم .. »

ولم تبلغ بقية كلماته الآذان ، اذ نهض نيقول قائلا : « هلا اخبرنا الرئيس بطول المدفع الذى يطلق قذيفة بهذا الحجم ؟ .. ان طول المدفع عادة ، يعادل قطر القذيفة ٢٥ مرة .. أى اي مدفعك سيبلغ طوله ٢٢٥ قدما ، فيما أرى .. فهل يعتبر هذا الطول مناسبا ؟ »

ونهض ريتشارد بيلسبى ، فقال : « ٢٢٥ قدما ؟.. لا اظنه طولا كافيا ، فان قذيفة كهذه ستطلق كميات هائلة من الغاز .. والمعروف أن الغاز الذى تطلقه القذيفة العادية يحد من سرعتها .. »

وبدت فى عيني « نيقول » نظرة غريبة ، وهو يتساءل : « ما طول المدفع ؟ »

فأجاب باربيكان بهدوء : « تسعمائة قدم » .

ـ ها !.. تسعمائة قدم ؟.. وكيف يمكن لصديقنا تحريكه لاحكام تصويبه الى القمر ؟

قال العالم المكتهل ، وهو جالس فى مكانه : « لا داعى لتصويبه نحو القمر » .

وكان الرئيس باربيكان ينصت ، دون أن يلفظ بكلمة واحدة ، والسرور يغمره لأن الموضوع استهوى القوم .. ونهض « توم هانتر » الذى كان يود أن يصبح فلاحا ، وكان يقبل فى أوقات فراغه على صيد الطيور ، فقال : « انك لا تطلق بندقيتك على الطائر ، وانما على المكان الذى تقدر أن الطائر سيصل اليه عندما تنطلق القذيفة .. وأظن أن الرئيس باربيكان سيطلق مدفعه على المكان الذى يرى أن القمر سيبلغه فى السماء .. »

وامن باربيكان على قوله .. وخلال الصمت الذى رأن

على المكان ، قال الدكتور بيلفاست :

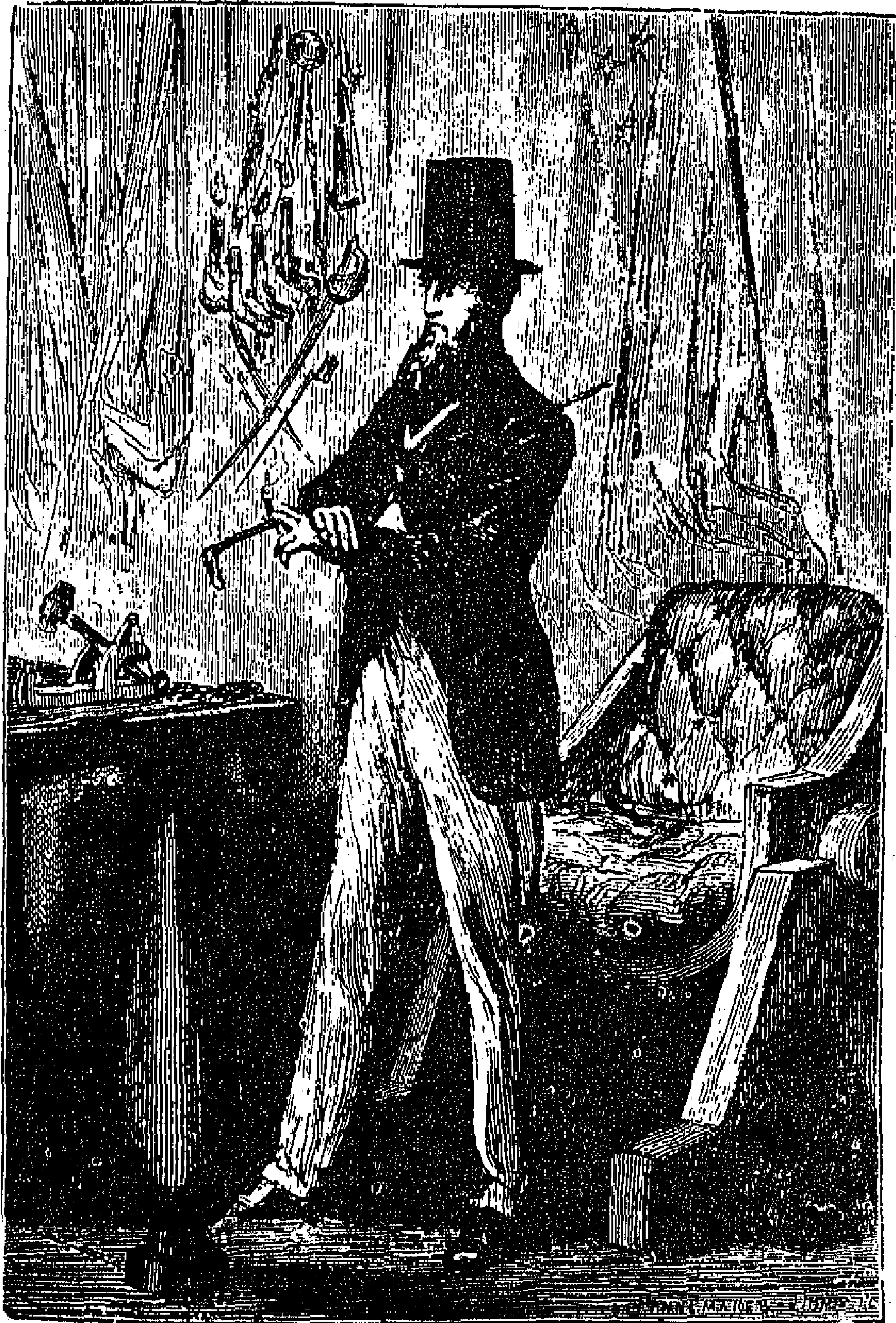
ـ سيصوب المدفع نحو مكان في السماء ، يكون فيه القمر على بعد ٢٢١٤٦٣ ميلا من الأرض .. ولكن كم من الوقت تستغرق القذيفة للوصول الى القمر ؟

فأجاب باربيكان : « سألت بعض اصدقاء بجامعة شيكاغو أن يحددوا الرد الصحيح .. لو اندفعت القذيفة طوال الوقت بنفس السرعة التي تترك بها المدفع ، فلن يزيد الوقت على تسع ساعات .. ولكن الأمر ليس بهذه السهولة ، فستنطلق القذيفة بتباطؤ ، حتى تقترب من القمر فتزداد سرعتها بفعل جاذبيته حتى تهبط فوقه .. واظن أن الوقت لن يزيد على ٧٩ ساعة وربع الساعة .. »

وشرع الدكتور بيلفاست يحسب المسافة على وريقة ، بينما ارتفع الضجيج ، اذ أخذ الاعضاء يتكلمون بعضهم الى بعض .. واخيرا ، نهض نيقول قائلا لباربيكان :

ـ لنفترض أن طول مدفعك ٩٠٠ قدم ، وانه ثابت في مكانه ، ولا ضرورة لتحريكه .. وانك صوبته نحو نقطة في السماء ، يبلغها القمر بعد ٧٩ ساعة وربع الساعة ، فهل فكر مستر باربيكان فيما يحدث لقضيب طويل مستقيم ، أمسك به من نهايته ومن وسطه ؟ .. مهما يكن القضيب متينا فلن يبقى مستقيما ، لأن قوة جاذبية الأرض ستجذب الطرف الآخر .. وهذا ما سيحدث للمدفع ، اذ انه سيتقوس .. ولو زدته متانة ، فسيزداد ثقلا ، وبالتالي ستكون درجة انثنائه أكبر .. فكيف يصيب مستر باربيكان القمر بقذيفة من مدفع منثن ؟

ودوت ضحكات من بعض الحاضرين ، بينما غضب آخرون .. واخيرا ، عاد الصمت ليسمع الجميع صوت دكتور بيلفاست ، وهو يقول « اذا انثنى المدفع بوصة



« باربيكان » رئيس نادى السلاح

واحدة ، فى مسافة قدرها ٢٢١٤٦٣ ميلا ، فان القذيفة تنحرف عدة أميال عن المكان المحدد لسقوطها . . »

وعقب الكابتن نيقول قائلا : « وهكذا تضيع ألوف وألوف من الدولارات ! »

ورد باربيكان : « ولماذا يفترض مستر نيقول أن المدفع سيستند على طرف واحد وعلى وسطه ، مثل مدافع الجيش والسفن ؟ . . سأضع المدفع فى ثغرة فى الأرض ، فترتكز فوهته عليها ، ويظل مستقيما . . »

وارتفع الهرج ، ولكن العالم « ماستون » نهض قائلا : « لقد طرح علينا مستر باربيكان مسألة تدفعنا للعودة الى كتبنا وأوراقنا ، بأمل جديد . . وأنا أعرف صديقى باربيكان جيدا ، وأعتقد أن خطته ممكنة ، ولكن الأمر يحتاج الى مال كثير ، وبوسع الذين ربحوا أموالا طائلة ، من تجارة الأسلحة فى الحرب ، أن يمدونا بالذهب لصناعة مدفع لن يؤذى انسانا ، فليس هناك انسان واحد فى القمر . . »

قال الدكتور بيلفاست : « لا أجزم بهذا . . واذا بلغت قذيفتنا القمر ، أمكننا معرفة الكثير عن جارنا . . فهل استقر الرأى على تنفيذ المشروع ؟ »

ورددت القاعة هتافات التأييد ، الا أن كابتن نيقول ظل صامتا . . وكذلك الدكتور بيلفاست ، الذى قال وهو يغادر القاعة : « لست أفهم كيف يمكننا أن نعرف شيئا عن القمر ، ما لم يذهب اليه انسان داخل كبسولة ! »

الكبسولة

بعد المناقشات التى احتدمت بين الأعضاء ، رأى « باربيكان » ضرورة استشارة الفلكيين ، قبل أن يعكف على الوسائل الميكانيكية . . فأعد مذكرة وافية حول مشروعه ،

ضمنها أسئلة دقيقة ، وارسلها الى مرصد (كيمبريدج) ، بولاية (ماساشوسيت) التى أنشئت فيها اول جامعة للولايات المتحدة الأمريكية ، والتى إشتهرت ـ فيما بعد ـ بمرصدها الكبير الذى يضم مجموعة عظيمة من علماء الفلك .

وبعد يومين ، تلقى ردا جاء فيه أن أعضاء المرصد ناقشوا أسئلته ، ووصلوا الى :

« **السؤال الأول** : هل يمكن ارسال مركبة فضائية الى القمر ؟

« **الجواب** : نعم .. اذا أمكن تزويدها بسرعة ابتدائية تعادل ١٢ الف ياردة فى الثانية . فقد اثبتت الحسابات الرياضية الدقيقة ، ان هذه السرعة كافية لوصول المركبة الى القمر . وكلما ابتعدنا عن الأرض ، قلت حركة الجاذبية بتناسب عكسى .. الى آن تتلاشى قوة الدفع نهائيا فى اللحظة التى تكون فيها جاذبية القمر متعادلة مع جاذبية الأرض . وفى هذه اللحظة لا يكون للمركبة أى ثقل ، أى أن وزنها ينعدم تماما .. وإذا تجاوزت المركبة هذه النقطة ، فانها تهبط على القمر بفعل جاذبيته . وعليه فان تحقق الفكرة يتوقف على قدرة وقوة الجهاز أو الصاروخ أو المحرك المستعمل لهذا الفرض ..

« **السؤال الثانى** : ما هى المسافة الحقيقية بين الأرض والقمر ؟

« **الجواب** : لايدور القمر فى دائرة كاملة حول الأرض ، بل انه يدور فى مدار بيضاوى ، يبعد عن الأرض فى اقص نقاطه بمسافة ٢٤٧ر٥٠٠ ميل ، وفى أدناها بمسافة ٢١٨ر٦٥٧ ميلا .

« **السؤال الثالث** : ما المدة التي تقطعها المركبة الفضائية المزودة بسرعة ابتدائية مناسبة ، وما الوقت المناسب لاطلاقها كي تهبط على القمر فى نقطة معينة ؟

« **الجواب** : اذا استطاعت المركبة الاحتفاظ بسرعة قدرها ١٢ الف ياردة فى الثانية ، فلن تستغرق الرحلة أكثر من تسع ساعات تقريبا . ولكن ، بما أن هذه السرعة ستكون تنازلية ، فان المركبة تصل الى نقطة تعادل الجاذبية الأرضية والجاذبية القمرية بعد أربع وعشرين ساعة وعشرين دقيقة . ثم تهبط من هذه النقطة الى القمر فى مدى خمسين ألف ثانية ، أى بعد ثلاث عشرة ساعة وثلاث وخمسين دقيقة وعشرين ثانية .

« **السؤال الرابع** : فى أى لحظة يكون القمر فى الوضع المناسب ، والأفضل لهبوط المركبة عليه ؟

« **الجواب** : يجب أولا اختيار الوقت الذى يكون فيه القمر قريبا من الأرض ، حتى تقل المسافة التى تقطعها المركبة .. وفى الوقت ذاته ، يجب أن يكون القمر مارا بنقطة السمت ، فتقل المسافة التى يجب أن تقطعها بما يعادل نصف قطر الكرة الأرضية أى ٣٩١٩ ميلا — فتصبح ٢١٤٩٧٦ ميلا فقط .. وعليه يجب أن ننتظر مرور القمر بنقطة السمت ، وكذلك اقترابه من الأرض . ولحسن الحظ أن هذا سيتحقق فى ٤ ديسمبر من العام القادم .

« **السؤال الخامس** : الى أية نقطة من السماء يجب أن نصوب فوهة المدفع لاطلاق المركبة الفضائية ؟

« **الجواب** : يجب اطلاق المركبة نحو نقطة السمت ، فى اتجاه رأسي بالنسبة للأفق ، وبسرعة تمكنها من مقاومة الجاذبية الأرضية .

« **السؤال السادس** : فى اى مكان يكون القمر عند اطلاق المركبة الفضائية ؟

« **الجواب** : سيكون بعيدا عن نقطة السمت بنحو ٥٢ درجة و ٤٢ دقيقة و ٢٠ ثانية .. »

اسند « نادى السلاح » المشروع الى اربعـــة رجال : الرئيس باربيكان ، و « ج.ت. ماسـتون » .. ثم الجنرال مورجان ، والصاغ الفينســتون لمباشرة المسائل الماليــة والادارية .

وتبين أن الكبسولة يجب ألا تزيد فى الوزن على ٢٠ الف رطل ، فاذا زادت وجب أن يفرغ جوفها بدرجة مناسبة .. وقال ماستون : « لابد أن يكون سمك الكبسولة بوصـتين فقط » . فقال الجنرال مورجان : « ليس هذا كافيا . . لأنها لن تكون متينة بالدرجة المطلوبة . »

قال باربيكان : « يجب أن تصـنع من مادة اخف من الصلب .. من الالومنيوم » .

فضحك ماستون ، وقال : « أعرف ما يدور بخلد صديقنا باربيكان .. انه يفكر فى المعدن المعروف باسم (ر . ر .) أليس كذلك ؟ »

ــ هذا صحيح ، فهو المعدن الأمثل .. انه ألومنيـوم مخلوط بستة معادن أخرى ، بنسب ضئيلة جدا ولكنها تكسبه صلابة ومتانة .. وقطعة من (ر.ر.) أقوى ثلاث مرات من قطعة من الصلب بنفس الوزن . وقد وجدت أن وزن الكبسولة ــ بالشكل والحجم المطلوبين ــ لن يتجاوز ١٩٢٥٠ رطلا .

قال ماستون : « وما نفقات صناعة هذه الكبسولة ؟ »

ــ لنترك ذلك لأصدقائنا العسكريين ، وقد وعد أغنياء العالم بمعاونتنا .

والحق ان المشروع أثار اهتمام العالم ، وقال بعض كبار العلماء انه ضرب من المستحيل ، وقال بعض آخر انه امتحان لقدرة العلم .. وصارت كبسولة القمر موضوع حديث كل انسان ، حتى أولئك الذين لم يكونوا يعرفون شيئا عن العلم او القمر .

أين يوضع المدفع ؟

حار العلماء والخبراء ازاء المكان المناسب لوضع المدفع الذى تطلق منه المركبة الفضائية .. وفى قاعة «نادى السلاح» اجتمعوا أمام خريطة كبيرة لتدارس الأمر .. وأرهف الجميع أسماعهم عندما اعتلى الرئيس باربيكان المنصة ، وعرض المشكلة :

« .. أين يقام مدفعنا الضخم ؟ .. فى أى مكان من قارتنا يوضع حتى تندفع الطلقة او المركبة فى اتجاه القمر دون أى انحراف أو خطأ ؟ .. لقد أوضحت على هذه الخريطة الأماكن التى يمكن وضع المدفع فيها ، وسترون آن أنسب الأماكن تقع فى جنوب الولايات المتحدة ، أو الجزء الشمالى من أمريكا الجنوبية ، أو شمال افريقيا ، او فى ارجاء من الهند أو الصين .. ولعلنا نتفق ـ بعد المشاورة ـ على أن يكون مدفعنا بالولايات المتحدة .. وأصلح مكان هو تكساس ، أو فلوريدا ... »

وهنا قاطعه الكابتن نيقول : « لا شك أن مدفعك سينفجر بقوة رهيبة فيقتل عددا كبيرا من الناس الذين يعيشون فى دائرة قطرها عدة أميال حوله .. فليوضع بعيدا عن المدن ! »

قال باربيكان : « لأول مرة يا سادة ، أتفق مع الكابتن نيقول على رأى .. »

ونهض الدكتور بيلفاست ، فواجه الأعضاء قائلا : « لا ينبغى أن نفكر فى الموقع فقط ، بل لنفكر فيما تحته أيضا . لقد اقترح المستر باربيكان حفر مكان للمدفع على عمق تسعمائة قدم ، فأين تكون هذه الحفرة ؟ .. اذا حفرها فى أرض ناعمة فلن يجدى هذا مدفعه شيئا . واذا حفرها فى أرض رخوة فستغمرها المياه .. واذا حفرها فى أرض صلدة ، فلن يتعمق لمسافة بعيدة .. وقد عكفت على فحص خريطة أراضى فلوريدا وتكساس ، فاكتشفت مكانا يطلق عليه (جبل الحديد) ، بالقرب من مدينة (تامبا) بفلوريدا .. »

قال الجنرال مورجان : « يجب اختيار منطقة خالية ننشر عليها أكواخ عمالنا ورجالنا ، وأن نكون قريبين من مدينة نحصل منها على المؤن والذخيرة .. وأن نكون — فى الوقت ذاته — على بعد مناسب من العمران ، حتى لا نهدد حياة الناس »

فقال الصاغ الفينستون : « ان الجبل يقع على مسافة الى الشمال من مدينة (تامبا) ، ويرتفع الى ٣٥٠ قدما ، ويتوسط خلاء ، وسيكون .. »

وقاطعه الكابتن نيقول كعادته : « ما أطرف أن يحفر صديقنا باربيكان حفرة عمقها ٩٠٠ قدم ، فى كتلة من الحديد ... »

فضحك الدكتور بيلفاست قائلا : ((ليس بجبل فلوريدا حديد على الاطلاق ، فهو يتكون من مادة كتلك التى تستخدمها الرئيس باربيكان فى الكتابة على السبورة .. أحجار جيرية ..))

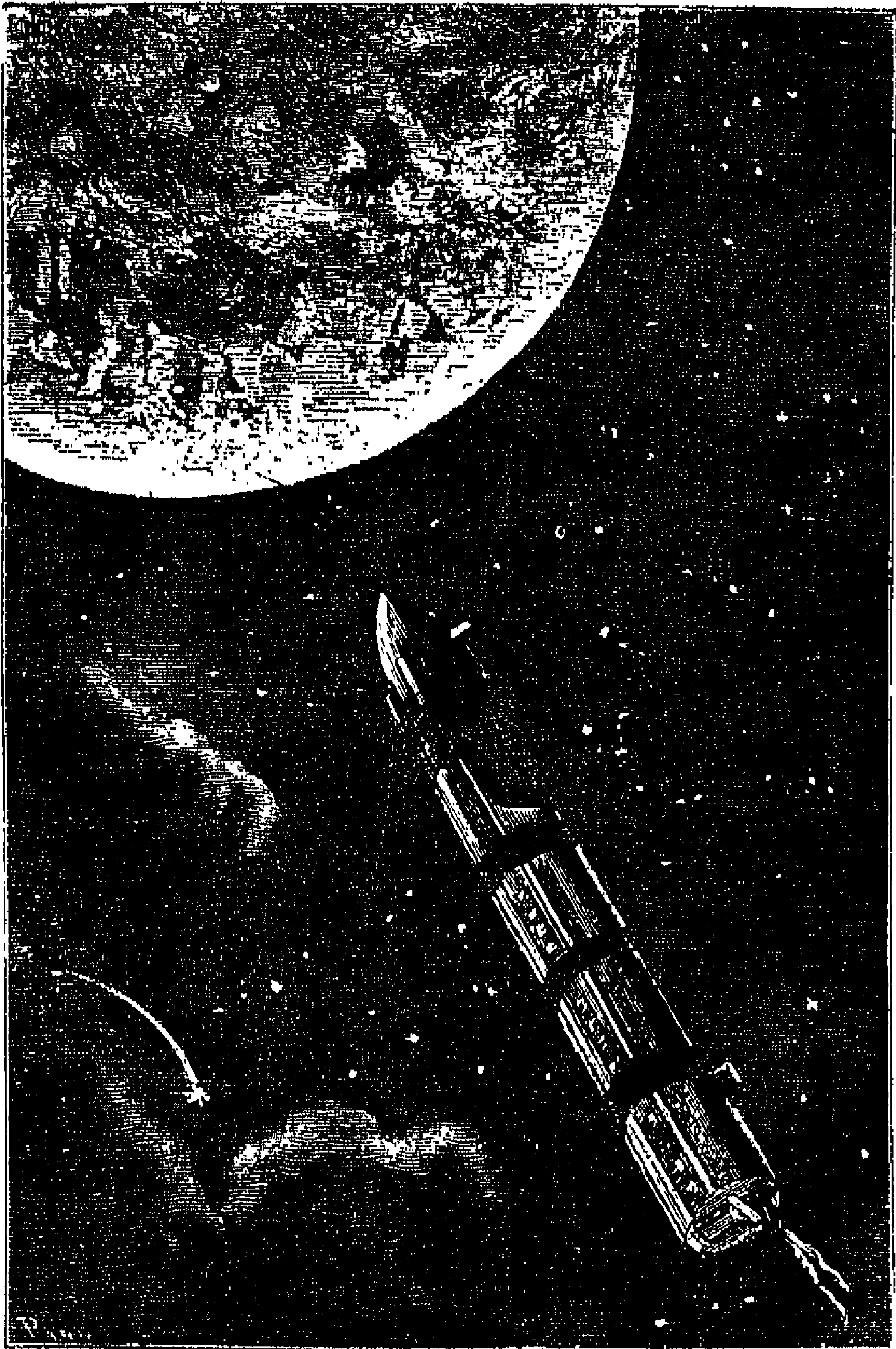
وضج الأعضاء بالضحك ، فامتقع وجه الكابتن نيقول وجلس محنقا .. وأقر الجميع اقامة المدفع فوق جبل الحديد ، بالقرب من مدينة (تامبا) . ثم قال باربيكان :

ـ فهمت من أصدقائنا بجامعة شيكاغو أن تليسكوب مرصدهم لن يستطيع متابعة المركبة الفضـائية ، فى رحلتها الى القمر .. لذلك فانهم سيصنعون « تليسكوب » أكبر ، وقد قرروا أن يتكفلوا بنفقات صناعته .. فلننشط للعمل بحماس وعزم وصدق وايمان ، ولنحقق للبشرية جمعـاء حلما من الأحلام .. ولنثبت للعالم كله أن آفاق العلم لا حدود لها ، وأن العالم لا يعترف بالمستحيل ، بل يحطم السدود ويتخطى العقبات ...

صناعة المدفع العظيم

فى الخامس والعشرين من أكتوبر ، وصـل باربيكان وماستون ومورجان والفينستون الى جبل الحديد ، وأشرفوا من ربوة عالية على الوادى الأخضر والسهول المنبسطة ، ثم تطلعوا الى السماء .. وما لبث أن لحق بهم رجلان ، كان أحدهما ــ ويدعى هاريسون ــ يحمل خريطة كبيرة . أما الآخر فكان يدعى « مارشيسون » وهو الذى عهد اليـه بانجاز المشروع . وعلى هدى الخريطة حددوا بدقة المكان الذى تطلق منه المركبة ، ومواقع أكواخ العلماء والعمال ، والأفران الضخمة لصهر المعادن وتكوين سبائك متينة تحتمل رحلة الفضاء والهبوط على القمر ، ولصنع جسم المدفع الجبار .

وان هى الا ايام حتى أخذ العمال يتقاطرون على الجبل ، وبدأت الأكواخ تظهر تباعا ، وأنشىء خط حديدى بين المرفأ ــ فى مدينة (تامبا) ــ وجبل الحديد . وقرر المشرف على المشروع أن تبدأ أعمال الحفر فى العاشر من نوفمبر . وفى ذلك اليوم ، ألقى باربيكان كلمة فى العمال والمهندسين والعلماء قال فيها ان العمل يتطلب حفر حفرة عمقها ٩٠٠ متر ، تتوسطها دوائر من الصخور مثبتة بأسياخ من الفولاذ ، ويقام



القذيفة التى تحمل كبسولة الفضاء ، منطلقة نحو القمر
(كما تخيلها « جول فيرن » منذ ١٠٠ سنة !)

أمامها سياج من مواد عازلة للحـرارة ، ثم تصب في الحفرة معادن منصهرة لبناء مدفع ضخم لاطلاق سفينة الفضاء .

وتوالى العمل ليل نهار ، بدون انقطاع . وبرغم كل المصاعب والعقبات ، استمرت الجهود بعزيمة لا تعـرف الكلل ، حتى اكتملت الحفرة في العاشر من شهر مايو . ثم أعدت الدائرة لصب المعادن التي تؤلف فتحة تدخلها الطلقة أو المركبة الفضائية . وفي هذه الأثناء ، كانت هناك أعمال أخرى متممة لصناعة المدفع الفريد في نوعه وحجمه .

وفي أوائل شهر يوليو كان كل شيء قد أعد ، وتقـرر أن تصب المعادن المنصهرة في الحفرة في اليوم الثامن من الشهر . فلما حانت الساعة الثانية عشرة من ذلك اليوم ، فتحت أبواب مائة فرن في لحظة واحدة ، فاندفعت السوائل المتوهجة الى الحفرة ، لتملأ فراغ الدائرة التي أعـدت لاستقبالها . وتصاعدت الأبخرة كثيفة لبضعة أيام .. وفي منتصف أغسطس ، كانت الحرارة قد هدأت ، واستطاع العمال استئناف عملهم ، فأمكن تحديد مكان المدفع .. وفي سلة كبيرة ، هبط باربيكان والخبراء الى جوف الحفرة . وكانت الحرارة شديدة . ومن الداخل ، استطاعوا أن يروا خلال الدائرة ، رقعة صغيرة من السماء ، هي التي كان منتظرا أن يمر بها القمر بعد ساعات من اطلاق الكبسـولة الى الفضاء .

أول رجل فضاء

كان الرئيس باربيكان يتناول غداءه — في غرفته بمدينة (تامبا) مع الدكتور بيلفاست ، في اليوم الحادي عشر من سبتمبر ، حين تلقى برقية قرأها ، ثم أعاد قراءتها وضحك .. وتطلع اليه الدكتور بيلفاست ، فقرأ عليه ما جاء بالبرقية :

« باريس ، فرنسا ــ ٢ سبتمبر : اصنعوا المركبة طبقا الخطة التي وضعتها بنفسي ، وسأستقلها في الرحلة المرتقبة الى القمر . اصل على الباخرة اطلانطا ــ ميشيل آردان »

وأردف باربيكان : « انه مجنون بلا شك .. كيف يتسنى ذلك ؟ .. سيموت ان حاول ! »

قال الدكتور بيلفاست : « ما من مستحيل ! .. من الممكن أن تصنع الكبسولة بحيث يتوسطها صندوق لا يتأثر بانفجار المدفع .. هناك طريقتان تقومان على تزويد الصـــندوق بزنبركات تمتص الصدمات والارتجاجات أثناء الانطلاق من المدفع ! »

واستعلم باربيكان تليفونيا ، فعلم أن الباخرة تصل في اليوم الرابع عشر .. وقال بيلفاست :

ــ أرى أن تأمر بارجاء صنع الكبسولة حتى يصل رجل الفضاء المتطوع لزيارة القمر .. فلابد أن لديه تفصيلات ، وانه أعد للأمر عدته !

بعد أيام ثلاثة ، كان ماستون وباربيكان في المينـــاء ، ينتظران وصول الباخرة اطلانطا .. لم يكن أحدهما يعرف « آردان » ، ولكن باربيكان اتصل بأصدقائه الفرنسيين في نيويورك ، للسؤال عنه ، فكان جوابهم أن كل فرنسى يعرف « آردان » المخاطر الجزيء ..

قال ماستون : « أتظن أنه لا يعلم مدى الخطر الــذى ينتظره ؟ .. ان الموت في انتظاره . »

فقال باربيكان : « أعتقد أن العلماء الفرنسيين أوفدوه ، وحرصوا على أن يعيش ، فهم يودون معرفة ما اذا كان في الامكان اطلاق انسان بمدفع فيظل حيا لا يموت »

ووجدا « آردان » ــ عندما وصلت السفينة ــ شابا في الثلاثين ، صغير الجسم ، صلبا قويا ، ذا شعر أحمر غزير ،

ووجه عريض وعينين واسعتين .. كأنه قط كبير .

وسرعان ما جلس ثلاثتهم ـ وقد انضم اليهم الدكتـور بيلفاسـت ـ حـول مائدة نشر عليهـا « آردان » أوراقه وتصميماته .. وقال آردان بعد نقاش :

ـ الفكرة ببساطة هي أن الكبسولة تتكون من جزءين ، الأسفل منهما غير ملتصق تماما بالمركبة ، ليسقط عنها عند اطلاقها ، وهذا قد يبدد بعض قوة الانفجار ، ولكن الكبسولة اخف من تلك التي صممها نادى السلاح ، وسيكون فى طول المدفع وكمية الانفجار ما يكفي .

وراح الدكتور بيلفاست ينعم النظر فى الخطة ، ثم قال : « هناك أمر واحد لا أفهمه .. كيف ستعود المركبة الى الأرض ثانية ؟ »

وأضاف ماستون : « وانا الآخر لا أفهم عدة أمور .. قد لا يقتلك الانفجار ، ولكنك ستموت حتما اذا سـقطت كبسولتك على القمر فى نهاية الرحلة الشاقة » .

وهنا قال آردان : « لقد أعددنا لكل شيء عدته ، فأسفل الكبسولة أثقل من أعلاها ، وعندما تدخل فى نطاق الجاذبية الأرضية ، يكون جزؤها الأسفل فى اتجاه الأرض ، وحين تكون فى جاذبية القمر ، يصبح الجزء الثقيل فى اتجـاه القمر » .

ـ وما الذى سيحد من سرعتها عند هبوطها فوق القمر فلا تتهشم ؟

قال أردان : « فى قاع الكبسولة عدة صواريخ تشعل عند اقتراب الكبسولة من سطح القمر ، فتمكنها من الهبوط ببطء وهدوء » .

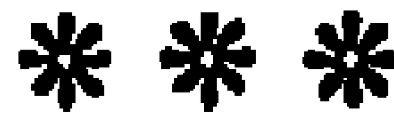
وهنا تساءل باربيكان : « وما هذه المربعات التى بداخل الكبسولة ؟ »

ـ بعضها يستخلص الهواء من الغازات المستهلكة ، والآخر يضيف للهواء أوكسجين جديدا ، وستحمل الكبسولة خزانات بها أوكسجين يستخدم عند الحاجة .

واستطرد آردان يشرح تصميمه : « وفي داخل الصندوق الموجود بالكبسولة باب يتصل بانبوبة تمتد الى الفلاف الخارجي ، حيث يوجد باب آخر يفتح بتحريك ذراع في الصندوق الداخلي ، وبذلك تتسني الرؤية خلال هذه النافذة المزدوجة ، كما يمكن اغلاق النافذة الداخلية وفتح الخارجية .. وهناك أربع نوافذ مزدوجة بهذا النمط ، في كل جانب للمركبة واحدة .. »

وتساءل الدكتور بيلفاست عن طريقة العودة للأرض ، فقال الفرنسي : « اذا ما هبطت كبسولتنا الأولى الى القمر ، فبوسعنا اطلاق كبسولة أخرى تحمل صاروخا يعود براكب الأولى الى الأرض . وبما أن جاذبية القمر صغيرة ، فستكفي قوة بسيطة لدفع المركبة من القمر الى جاذبية الأرض .. »

قال الدكتور بيلفاست : « اننا نعلم أن القمر خال من الهواء ، ولابد أن تصطحب كمامة تمدك بالهواء عندما تغادر الكبسولة » .



وفي الخامس والعشرين من سبتمبر ، اجتمع اعضاء « نادى السلاح » مرة أخرى ، فاطلعهم باربيكان على تطورات المشروع ، ورسم الكبسولة على احدى سبورتين وضعتا خلف المنصة ، وشرح كل صغيرة وكبيرة فيها .. وعندما حاول الكابتن نيقول أن يثير المخاوف ازاء عودة راكب الكبسولة ، قال باربيكان : « هل تحبون أن يقال ان الأمريكيين يخافون على أموالهم ، في حين أن الفرنسي لا يخاف على حياته ؟ »

وتعالت الأصوات تطالب بالمضي في المشروع .. فتساءل نيقول : « وحياتك أنت أيها الرئيس ؟ » فانتظر باربيكان حتى هدأت الأصوات تماما ، ثم قال بوضوح وجلاء :

ــ انني ذاهب معه !

قال نيقول : « ذاهب لأنك توقن من أن الكبسولة لن تغادر فوهة المدفع » .

وهنا قال آردان : « اذا كنت متأكدا من هذا ، فلماذا لا تأتي معنا ؟ »

وارتفعت ضحكات القوم ، بينما قال نيقول : « لأن أحدا لم يوجه لي الدعوة » .

وانتظر باربيكان حتى هدأ الضحك وقال : « يسعدنا أن تشرفنا بالسفر معنا للقمر » .

وعكف الدكتور بيلفاست ــ بعد ذلك ــ على اجراءات صناعة الكبسولة .. وآثر ــ في باديء الأمر ــ اعداد نموذج مصغر ، وضع فيه كلبا ، وأطلقه من فوهة أضخم مدفع لدى الجيش الأمريكي ، فهبطت الكبسولة المصغرة في المنطقة الرملية الواقعة في شمال (تامبا) ، وأخرج منها الكلب سليما .. وهز نجاح التجربة البلاد بأسرها .

وصنعت الكبسولة في مصانع الحديد والصلب بمدينة (بيتسبرج) ، ثم نقلت على عربة سكك حديدية صنعت خصيصا لها ، وخرجت جحافل الناس ليشاهدوها أثناء رحلتها الى موقع الاطلاق .. وفي تلك الأثناء ، كانت القذيفة التي اعدت لتحملها عبر الفضاء ــ أي الصاروخ (آتومينت) ــ في الطريق الى (تامبا) بحرا ، ثم الى جبل الحديد ، حيث كان بانتظارها ــ عند أسفل المدفع ــ عدد كبير من الرجال ، لتركيبها ومد الأسلاك الكهربائية اللازمة .. حتى اذا وصلت الكبسولة ، وضعت بجوار المدفع الهائل .

فى داخل الكبسولة

كانت مدينة (تامبا) تعج بالناس والحركة ، فى صباح اليوم الأول من ديسمبر ، الذى حدد لاطلاق الكبسولة الى القمر .. وكان أعضاء « نادى السلاح » قد خفوا الى الموقع . وحددت الساعة العاشرة والدقيقة السادسة والأربعون من مساء ذلك اليوم موعداً للاطلاق ..

وفى داخل حلقة حول الموقع ، جلس ماستون وباربيكان وآردان وكابتن نيقول .. وكان الرئيس صامتا ، يقرأ فى كتاب ، والى جواره كلبه المدلل ، الذى تقرر أن يذهب معهم .. وبعد أن وضعت حول الكبسولة درجات خشبية ، ظهر مارشيسون وقال : « أمستعدون أنتم يا سادة ؟ »

وفى صمت ، نهض باربيكان فتأبط كتابه وسار ، وتبعه كلبه ، ثم آردان والكابتن نيقول . وتقدم الفرنسى فتسلق لدرجات الى قمة الكبسولة ، ثم أومأ لرفاقه ، فتبعه نيقول ، ثم باربيكان وكلبه . وما لبثوا أن غابوا داخل الكبسولة .. وأغلق بابها .

ورفعت الكبسولة فى الهواء — بوصة فبوصة — وفى داخلها رجال الفضاء ، لتتدلى بحبال من الفولاذ الى فوهة المدفع .. حتى اذا هبطت عليها ، أخذت تنزلق فى ((ماسورته)) الطويلة تدريجيا ، حتى بلغت القاع .. وأصبح كل شيء على أهبة الاستعداد .

واستقل جميع من كانوا فى الموقع قطارا أقلهم الى (تامبا) ، بعيداً عن المنطقة الخطرة . ولم يبق غير «ماستون» الذى تريث برهة ، حتى اذا اطمأن الى خلو المكان من الناس، استقل سيارة خاصة الى مسافة نصف الميل من الموقع ، حيث أعدت حفرة كبيرة ، أقيم فيها كوخ حديدى ، فطى

سقفه بطبقة سميكة من الرمال الناعمة ، كما أقيم جدار سميك بين موقعي الكوخ والمدفع .. وعلى منضدة داخل الكوخ ، كان ثمة صندوق صغير يتصل كهربائيا بذخيرة المدفع ، وساعة صغيرة دقيقة أشار عقرباها الى الدقيقة الحادية والثلاثين بعد العاشرة مساء ..

وكان على « ماستون » ــ بعد ربع الساعة تماما ــ ان يضغط كرة حمراء تتدلى من الصندوق، فيسرى تيار كهربائى فى كتلة المتفجرات بالمدفع .. فاما أن يموت أعز أصدقائه ــ فى اول محاولة جريئة فى تاريخ العالم ــ واما تنطلق الكيسولة فى رحلتها الميمونة الى القمر .

وأشار عقربا الساعة الى العاشرة والدقيقة الأربعين .. ونهض « ماستون » فسار الى باب الكوخ ، ثم عاد الى مجلسه .. وأشار العقربان الى الدقيقة الرابعة والاربعين بعد العاشرة .. اذا لم يضغط الكرة الحمراء ، فلابد أن تمر ثمانى عشرة سنة قبل أن يقترب القمر من الأرض بالدرجة التي كان مرتقبا أن يقتربها الليلة .. وحانت الدقيقة الخامسة والأربعون .. ووضع « ماستون » يده على الكرة الحمراء ..

الدقيقة السادسة والأربعون بعد العاشرة تماما ..

وفتح « ماستون » عينيه ، فاذا به طريح على ظهره ، وثمة دم يسيل على وجهه .. واذا الساعة الدقيقة قد سقطت بجواره وتحطمت .. وفطن الى أنه قد أطلق المدفع .

وخرج « ماستون » من الكوخ ، فلم ير سوى سحابة سميكة قد خيمت على العالم من حوله .. وعاد الى الكوخ ، فسقط على أرضه مغشيا عليه !

اهتزت مدينة (تامبا) بأسرها على أثر الانفجار العظيم ، وانهارت الجدران ، وطارت سقوف البيوت ، وتحطمت النوافذ .. وعندما انقشعت سحابة الدخان ، اضطرب الجو



كبسولة الفضاء من الداخل ،
كما تخيلها « جول فيرن » !

فاذا الأمطار تهطل بغزارة لعدة أيام متواصلة ، على الساحل الشرقى لأمريكا .. وحالت الغيوم دون أن يكشف « تليسكوب » جامعة شيكاغو عن شيء ما .. وأخذ الناس ـ فى العالم كله ـ يترقبون فى قلق ولهفة أنباء الكبسولة وماجرى لها ..

وفى ٦ ديسمبر ، أصدر المرصد بيانا رد على تساؤل الناس وتكهناتهم :

« .. ان الكبسولة لم تصل الى القمر ، وانما مرت بجانبه ، وهى الآن على بعد ٢٨٣٣ ميلا منه ، وستظل معلقة فى الفضاء الى أن يحدث احد امرين :

« ١ ـ قد يجتذب القمر الكبسولة اليه ، بعد فترة من الزمن ، فتسقط على سطحه .

« ٢ ـ او قد تظل تدور حول القمر الى الأبد ..! »

وكان فى الكبسولة « أوكسيجين » يكفى لشهر كامل ، وطعام وماء لمدة أطول .. ولازم « ماستون » و « بيلفاست » مرصد (ماونت لوك) يتابعان ـ خلال التليسكوب ـ الكبسولة وبداخلها أصدقاؤهما الثلاثة الذين تطوعوا لأول مغامرة من نوعها فى تاريخ البشرية .. يحتمل ألا يعودوا منها .

فماذا جرى فى داخل الكبسولة ؟

لم تكد الكبسولة تستقر فى داخل « ماسورة » المدفع ، حتى أخذ ركابها يتأملون مقرهم الجديد .. كانت الغرفة الصغيرة المستديرة ـ فى جوف الكبسولة ـ ذات جدران مبطنة بمادة طرية ، حتى لا يصاب الرواد بأذى اذا ارتطموا بها .. وقد توسطتها مائدة وثلاثة مقاعد .. وتحت المقاعد المثبتة ، وضعت كميات من الطعام والشراب . وفى السقف ، ثبتت أجهزة تنقية الهواء ، وثلاثة مصابيح ..

وقال آردان : « انها سيارة لطيفة تقلنا عبر السماء ! »

فقهقه باربيكان قائلا : « بل سجن متحرك جميل ! » .. وعقب نيقول : « أو مقبرة متنقلة ! » .. وانصرف باربيـكان الى قراءة كتـابه ، بينما أخـذ آردان يسجل مـذكراته .. وما لبث الرئيس أن قال : « لم يبق غير عشر دقائق ، فلنستلق على الأرض ، لأنها أسلم مكان لنا ! » .. وبعد خمس دقائق ، قال : « سأطفيء المصابيح ! »

ــ بقيت دقيقة .. نصف دقيقة .. لم يبق ..

ثم حدث شيء رهيب !

بعد اطلاق المدفع

كان « ميشيل آردان » أول من فتح عينيه ،فرأى زميليه مستلقيين على الأرض ، وكأن الحياة فارقتهما .. وكان نيقول منكفئا فوق باربيكان ، الذى بدا فى حال سيئة ، فأسرع يرفعه عنه .. وأفاق نيقول من غشيته ، وبدأ يفطن الى الواقع ، فأهاب به آردان أن يساعده على اسعاف باربيكان ، الذى كان الدم يغمر وجهه من جرح فى عينـه اليسرى .. وكان نيقول يبدى ارتيابا فى أن المركبة قد انطلقت بهم ، وآردان يسخـر منـه ..

واذ افاق باربيكان ، تساءل : ((هل نحن نتحرك ؟)) .. ثم اردف : ((ان المكان شديد الحر .. أرى أن درجة الحرارة بلغت التاسعة والسبعين فارنهايت .. لابد اننـا نتحرك ، وهذه الحرارة ناشئة عن احتكاك الهواء بجسم الكبسولة !))

وتحرك نحو احدى النافذتين الجانبيتين ، ففتحها وحرك ذراع النافذة الخارجية .. وخلالها رأى الرجال الثلاثة ظلاما دامسا ، فقال نيقول : « لابد اننـا فى قاع البحر » .. ولكن آردان صاح : « كلا .. انظر هناك .. النجوم تلمع فى السماء » .. ومالبث ان قال متسائلا : « ولكن ، أين القمر ؟ » .. فقال

باربيكان: « لنبحث عنه فى الجانب الآخر ! »

ووقف ثلاثتهم يتأملون السماء والقمر ..فى اقل من ست وتسعين ساعة سيصلون اليه ! .. وفجـــأة هتف آردان : « ما هـــذا الجسم الكبير ؟ » .. وصرخ نيقــول : « اسرع يا باربيكان ! »..

أخذ الجسم يكبر رويدا ، مندفعـــا نحوهم ، فامتقعت وجوههم ، وظنوا أن نهايتهم قد اقتربت .. ولكنه مالبث أن مرق بجوار الكبسولة ، دون أى ســوء .. فقال باربيــكان : « كان شـــهابا .. جزءا من نجم تفتت ، وقد راح يسبح فى الفضاء ، ثم دخل فى نطاق الجو المحيط بالأرض ، فأحــدث احتكاكه بالهواء حرارة شديدة .. انالشهب الصغيرة تحترق قبل أن تصــل الى الأرض ، أما الكبيرة كهذا ، فلا تشــدها جاذبية الأرض ، وتصبح قمرا ثانيا فى فلكها .. ولكنا لا نراه من الأرض ، لأنه صغير جدا نسبيا ، وحركته سريعة جدا ، فضلا عن أنه غير لامع .. » .

واغلق باربيــكان النافذتين الجانبيتين ، وفتح النــافذة السفلى ، واذا أبصارهم تقع على قوس فضى ، هو كل مابدا من الكرة الأرضية ، التى غابت بقيتها فى ظلام دامس ، اذ كانت الشمس فى الجانب الآخر منها .. وقال آردان : « أخبرنى يا باربيكان .. لماذا لم نسمع صوت المدفع عند الانطلاق ؟ »

ــ لأننا اندفعنا بسرعة تفوق سرعة الصوت . هيا نتناول أول فطور لنا خارج الكرة الأرضية .. ولعل الكلب سيبتهج بالطعـــام !

وفتح صندوقا كان الكلب قد أودع به ، فوجده ساكنـــا وهتف قائلا : « انه مريض .. أظنه يعــانى سكرات الموت » .

ومرت الليلة الأولى بسلام .. ونقول « ليلة » مجازا ، فليس بالفضاء ليل ولا نهـار .. وفى اليوم التالى ، تقـاسم الرجال أعمالا لابد من انجـازها ، فتفقد باربيكان الكلب ، ووجده فى حال يرثى لهـا ، ثم فحص أجهزة الأوكسيجين فوجدها فى خير حال .. وتفقد آردان المؤن ، بينما جلس نيقول يكتب مذكرات ملأها برموز هندسية وجبرية ..

وانقضى يومهم الأول ــ بداخل الكبسولة ــ فى هدوء تام .. وبعد أن تناولوا غداءهم ــ فى اليوم التالى ــ عاد نيقـول الى أرقامه ورموزه ، فلما سأله باربيكان عنها ، قال : « اننى أعيد حساب كل شيء ، لأقدر متى نصل الى القمر .. ولكنى أرى ان كمية المتفجرات لن تحمل المركبة الى نطاق جاذبيـة القمر .. ولم يبق أمامنا غير خمسين ساعة ، ثم نسقط ثانية فى اتجاه الأرض ! »

واخذ باربيكان يراجع الحساب بدقة ؛ ثم قال لنيقول : « انك عملت فى البحار طويلا ، وتستطيع قراءة خريطة النجوم لتحديد موقع السفينة .. وستجد فى هـذا الصـندوق كل ما تحتاج اليه ، فادرس النجوم وحاول تحديد موقعنـا من الفضـاء ! »

وتطوع آردان لمساعدته ، اذ عمل بحارا لمـدة سـنوات .. وعاد باربيكان الى مراجعـة الأوراق . وفجـأة صاح آردان : « هذا غير جائز ، أرنى الأوراق ! .. هل حسبت ــ ضمن وزن الكبسـولة ــ ذلك الجزء الذى سقط عنها بعـد مغادرتها المدفع ؟ »

وهنا هتف نيقول : « انك على حق .. يا لغبائى ! اننى لم انقص وزن هذا الجزء من الوزن الكلى للكبسولة ».

وفى رابع أيام الرحلة ، شغل الرواد الثلاثة بمناقشـة احتمالات وجود الهواء فى بعض أجزاء القمر .. فلمـا كان

صباح اليوم الخامس ـ ٥ ديسمبر ـ فوجئـــوا بأن كلب باربيكان ودع الحياة ... وكان لابد من التخلص من جثته ، فاقترح آردان فتح النافذتين الداخلية والخارجية ، والقــاء الجثة فى الفراغ ، ولكن « نيقول » أنذر بأن البرد شديد خارج الكبسولة .. وقال باربيكان :

ـ ان الجو بارد خارج الكبسولة ، لعــدم وجود هــواء يمتص حرارة الشمس . ولكن الأخطر من هــذا أن يتسرب الهواء الموجود فى الكبسولة اذا فتحنا النافذة ..

وانتهوا الى فتح النافذة الداخلية ـ فى أحد الجانبين ـ ووضع الكلب خلفها ، ثم اغلاقها قبل فتح النافذة الخارجية بوساطة الذراع الموجودة داخل الكبسولة .. وبهذا تخلصوا من الجثــة .

وفيما كانوا يتأهبون لتناول الفطور ، لاحظوا أن الأشياء أخذت تسبح فى جو المكان ..

وقال باربيكان اذ لاحظ دهشة زميليه : « ليس فى الأمر قوة سحرية .. كل هذا راجع الى انعدام الوزن للأجسام .. ان وزنك على الأرض ١٥٠ رطلا يا آردان ، ومعنى هــذا ان الأرض تجذبك اليهـــا بقوة ١٥٠ رطلا .. والأرض أكبر من القمر ست مرات ، اى ان جاذبية القمر سدس جاذبيتها ، أى انك تستطيع أن تقفز الى مسافات عالية جدا فوق سطحه .. اننا نفقد وزننا تماما على هذه المسافة من الأرض ، حوالى ١٨٧٢١٠ أميال .. فهنا تتساوى جاذبيتا الأرض والقمر ، ولهـــذا فالكبسولة لا تسعى نحو القمر فى هذه اللحظـــة بالذات .. » .

وهتف آردان جزعا : « اذن فالى أين نتجه ؟ »

ـ لا أدرى .. قد تتجه الكبسولة نحو الأرض .. كان لزاما أن ينقلب وضعها ، لأن قاعها أثقل من أعلاها ، مما يمكن

جاذبية القمر من أن تكون أشد تأثيرا عليها من جاذبية الأرض .. فلنر ان كانت قد انقلبت فعلا ! .. لنفتح النافذة السفلى .. اذا كانت الكبسولة قد انقلبت فسنطل مباشرة على السهل المتوسط العظيم بالقمر ..

واذ شرع باربيكان يفتح النافذة ، صرخ آردان : « هناك شهاب قريب جدا .. لونه أسود ! »

واختفى الشهاب ثم عاد .. ومالبثوا أن تبينوا انه جثة الكلب ، فقال باربيكان : « كان يجب أن نتوقع هذا .. ان جثة الكلب تهبط بدورها على القمر .. وفى الهواء تتباين سرعات هبوط الأجسام لأن احتكاك الهواء بها يخفف من سرعتها حسب أوزانها .. أما اذا أنعدم الهواء ، فكل الأجسام تسقط بسرعة واحدة .. » .

واتجه باربيكان الى النافذة السفلى ، ثم قال : « ان قاع المركبة يتجه الآن نحو القمر ! » .. وفتح النافذة ، فهتف آردان : « ان القمر الى يميننا ! »

قال باربيكان مفكرا : « حقا .. والكبسولة تدور الآن حوله ، ولكنها لم تنقلب كما توقعت .. هذا أمر غريب ! » .

وظل هذا الأمر يشغل باله حتى مساء اليوم التالى .. ففى منتصف ليل ٥ ديسمبر ، كان مقدرا للقمر أن يكون فى أقرب نقطة من مداره الى الأرض .. وكان محددا للكبسولة أن تهبط ، فى منتصف السهل الأوسط العظيم ، اذ أن المدفع كان قد صوبه نحو هذا الموقع ..

وقال باربيكان مهموما : « لا شك أن علماء شيكاغو ارتكبوا خطأ جسيما .. كان لزاما أن تنقلب الكبسولة — فى هذا الوقت — رأسا على عقب ، وأن تتجه مباشرة ، فى خط مستقيم ، نحو منتصف السهل .. وأخشى ان تنحرف فتهوى على سفح جبل ، واذ ذاك تتهشم .. »

وفى حوالى الساعة التاسعة ، ألقى باربيكان نظرة أخرى، خلال النافذة .. كانت أضواء فضية تكسو سطح القمر .. وانقلبت الكبسولة فعلاً ، وشرعت تهبط نحو السطح .. ولكن السهل الأوسط كان قد اختفى ، وبدت لهم منطقة جبلية وعرة ، وقال نيقول : « يبدو أننا سنصطدم بهذه الجبال » .. فقال باربيكان :

ـ الساعة الآن التاسعة وثلاث عشرة دقيقة .. ونحن نتحرك ، والقمر يتحرك كذلك .. وربما تغير الموقع عندما نبلغ منتصف الليل .. اننى موقن من أن المدفع صوب نحو مركز السهل الأوسط ، وان الوقت والمكان تم حسابهما بدقة متناهية .. ومع ذلك، فها نحن متأخرون عدة ساعات عن الموعد المحدد ، وها نحن بعيدون عن مسارنا .. فلماذا ؟

وران صمت مطبق على الكبسولة وركابها .. ثم انصرف باربيكان الى مذكراته وحساباته بينما افترض نيقول أنهم فى سفينة فى البحر ، فأخذ يستخدم فنونه البحرية فى محاولة رسم مسار الكبسولة .. أما آردان ، فأخذ يعد العشاء .

وقال نيقول : « لا أستطيع تحديد السرعة التى نهبط بها بدقة .. وأرى أن الكبسولة تسير فى خط منحن ، ولكن الوقت قصير .. »

.. وانتصف الليل ، ولم تهبط الكبسولة .. وفى الجو الواجم الحزين الذى ساد ركابها ، قال باربيكان : « هناك قوتان تتصارعان .. قوة اندفاع الكبسولة ، وما من هواء هنا يخفف منها .. وقوة جاذبية القمر .. فاذا كانت الأخيرة أكبر ، فان طريقنا منحن على شكل قوس يتجه الى القمر .. أما اذا كانت الأولى أكبر ، فان القوس يكون مقعرا ، طرفاه الى أعلى ، فتمر الكبسولة بالقمر دون أن تسقط عليه .. وسننطلق فى الفضاء حتى يجذبنا كوكب آخر ! »



« .. منذ الصباح ، تجمعت جماهير غفــيرة
في الميدان ، تنتظر اللحظة الحاسمة ! »

فى شمال القمر

كان الطـريق الذى سلكته الكبسولة يحملها نحو الجزء الشمالى من القمر . وراح نيقول يقيس بعدها عن سطحه فى فترات مختلفة ، بمساعدة آردان ، بينما كان باربيكان يحدد المواقع التى يمرون فوقها .. ومرت الكبسولة فوق قمة جبل (كوبرنيكوس) ، والى جوارها ، رأى الرواد قمما أصغر ، وفجوات غريبـة تغطى سطح القمر .. وفى الساعة الواحدة صباحا ، تبين نيقول أن البعد بين الكبسولة والقمر أصـبح ٦٠٠ ميل فقط ، ثم انخفض فى الساعة الثانية الى ٥٠٠ ، مما أكد أن الكبسولة تهبط ..

وفى الساعة الثالثة صباحا ، كانت الكبسولة قد اقتربت جدا من القمر .. فلما حانت الرابعة ، اذا بها تنتقل من الضوء الى الظلام فجاة .. وأصبحت تدور حول القمر ، فى الجانب الذى لا تراه الأرض . وبدا أنهـا اقتربت جدا من السطح . ولكنها لم تسقط !

واستبد التعب بباربيكان ونيقول ، فقررا أن يخلدا الى سـنة من النـوم .. على أنه لم ينقض طويل وقت حتى استيقظا على صرخة من « آردان » .. كان ثمة شهاب أخذ وهجه يزيد ويشتد ، ثم انفجر فجاة .. وعلى وهجه ، أتيح لهم أن يلقوا نظرة على ما لم يره انسان من قبـل .. على الجانب المظلم من القمر . وقال آردان : « قد يصطدم بنـا شهاب ونتمزق أربا ! » فقال باربيكان : « بل نتحول لغازات »

وبعد يوم قضته الكبسولة فى ظلام دامس ، تراءت لركابها أشعة الشمس ..

وقال نيقول : « معنى هـذا اننـا ندور حول جنـوب القمر .. »

وحاول باربيكان أن يعلل عدم هبوط الكبسولة الى سطح القمر .. وداخلته هواجس آثر أن يكتمها حتى لا يزيد من ذعر زميليه . وعكف على دراسة خريطة القمر ، وتحديد الأماكن التى كانوا يحلقون فوقها ... وما لبثوا أن تبينوا أنهم يبتعدون عن القمر ، وان الكبسولة تغير اتجاهها بانحراف جانبى .. واذ ذاك هتف باربيكان :

ـ الحمد لله ، هذا ما كنت أرجوه .. لقد حانت فرصتنا الوحيدة .. ان الكبسولة تنقلب أثناء حركتها حول القمر ، فاذا وصلت الى جنوبه فانها تواصل الدوران وأحد جانبيها ـ وليس مقدمتها أو مؤخرتها ـ متجه نحو القمر ..

وأسرع باربيكان الى النافذة العليا ، وراح يتأمل خلالها القمر والسماء .. كانت السماء قد بدت لهم ـ عندما دارت كبسولتهم خلف القمر ـ سوداء داكنة ، اذ أنها تبدو لنا ـ من الأرض ـ زرقاء ، لوجود الهواء المحمل بذرات الماء ، فاذا انكسر ضوء الشمس فى الهواء بدا لنا اللون الأزرق .. ولكن انعدام الهواء حول القمر يؤدى الى رؤية السماء سوداء قاتمة . وفى منتصف النهار فى القمر ـ فى ذلك اليوم بالذات ـ كانت الأرض تتوسط الشمس والقمر تماما ، وثلاثتها على خط مستقيم ، فحجب ظل الأرض الضوء عن القمر .. ولم تكن هناك ألوان واضحة ـ على القمر ـ عدا اللونين الأحمر والرمادى على بعض الصخور .. يضاف الى هذا ، أن النهار والليل يتعاقبان على القمر بسرعة ، فليس هناك اظلام بطىء .. وكأنك تضغط زرا فيختفى الضوء فى الحال . على أن جداول من الأضواء الذهبية والحمراء القانية كانت تسقط على القمر فتتحول الى ظلال خضراء زاهية وزرقاء لامعة .. واستهوى هذا المنظر الرواد ، بينما قال باربيكان :

ـ انه كسوف الشمس على القمر ، تسببه الأرض ..

وعاد بعد برهة يقول :

ـ أغلب الظن أننـــا عائدون الى الأرض .. تأملا هـذا الرسم . اننا الآن ننطلق الى النقطة البعيدة عن القمر ، حيث تتساوى جاذبيتا الأرض والقمر . وما لم يحدث ما ليس فى الحسبان ، فاننا سنظل مشدودين نحو القمر ، وندور حوله .. شىء واحد فقط يخرج الكبسولة من نطاق جاذبية القمر ، لترتد الى الأرض ..

فقال آردان : « اذن فأنت تفكر فى قوة الصواريخ المركبة فى الكبسولة ! »

ـ أجل .. كانت الغاية منها تيسير الهبوط السهل على القمر .. ولكن نقص الهـواء والطعام يضطرنا للعـودة الى الأرض .. فهل نتفق على هذا ؟

ـ اذا استخدمنا هـذه الصواريخ ، فلن يبقى لدينـــا ما يخفف سرعة اندفاعنا الرهيبة الى الأرض ، فى العودة .

ـ ان ثلاثة أرباع الكرة الأرضـية مغطاة بالماء ، ففرص هبوطنا فى البحر بنسبة ثلاثة الى واحد ..

وكانت الكبسولة تقترب الى نقطة التعادل بين جاذبيتى الأرض والقمر .. وعندما تساوت الجاذبيتان ، انعدم وزن كل شىء فى الكبسولة ، فأخذت الأشياء تسـبح فى داخلها . وكانت الساعة الواحـدة قبل خمس دقائق ، فتأهب آردان ليضغط الذراع الذى ينقل الكهرباء الى الصواريخ ، فقال باربيكان : « انتظر .. سـأعد من واحد الى عشرة بترتيب عكسى ، فاذا وصلت الى الرقم واحد ، فاضغط الذراع » ..

انهم عائدون !

فى **اليوم** الحادى عشر من ديسمبر ، كانت البـــاخرة الأمريكية « سالم » تقيس عمق المياه ــ فى المحيط الهادى ــ على مسافة مائتى ميـل من السـاحل . فلما أتمت عمليات

يومها ، اتجهت عائدة الى (سان فرانسيسكو) .. ولم يكن من حديثه للربان وبحارته ـ اذ جلسوا للعشاء ـ الا الكبسولة التي انطلقت نحو القمر ، وركابها الثلاثة . وقال الربان : « لقد مرت عشرة أيام ، فما الذى جرى لهم ؟.. الا تزال الكبسولة تدور حول القمر ؟ »

قال ضابط يدعى فيلد : « بل أنهم سيعودون يا سيدى » .

ـ هراء .. كيف يمكن أن يعودوا ؟

ـ بل انهم سيعودون الى الارض .

وغادر مكانه لتفقد بعض واجباته ، فلما بلغ سطح السفينة ، تطلع الى القمر قائلا : « انهم عائدون ! »

وفى تلك اللحظة بالذات ، سمع « فيلد » صوتا غريبا .. واخذ الضجيج يشتد ، حتى أنه اجتذب الربان وضابطا آخر فاقبلا ليتبينا جلية الامر .. واذا جسم شديد التوهج يهبط من السماء ، ثم يهوى فى البحر ، فيرتفع الماء الى مسافة كبيرة ..

وهتف فيلد : « صح ما قلت لكم .. لقد عادوا الى الأرض ! »

وطيرت الباخرة النبأ الى وزارة الحربية ، فى وشنطون .. وقال الربان :

ـ ليس لدينا ما نستعين به على رفع هذا الجسم من الماء ، فلننتظر !

وسرعان ما انتشر النبأ فى العالم ، وراح الناس يتكهنون بحقيقة الجسم الذى سقط من السماء ، فبعضهم اكد انه شهاب ، بينما رجح آخرون انه الكبسولة .. وكثرت الشائعات ، ولم يكن فى العالم كله سوى رجلين يملكان أن يجزما بانه الكبسولة ، اذ انهما كانا يراقبانها من مرصدهما

ـ ليل نهار ـ بالتناوب .. وهما « ماستون » والدكتور بيلفاست » .. وقد كان اولهما يتولى المتابعة فى اصيل ذلك اليوم ، فراى الكبسولة تدور حول الطرف الجنوبى للقمر ، ونادى زميله ليشهدها .. ولكن القمر كان قد دخل فى منطقة كسوف الشمس ، فقال الدكتور بيلفاست : « لن نرى الكبسولة الليلة .. فاذهب لتنام ! »

* * *

وكان ماستون يغط فى نومه ، عندما رن جرس التليفون فى الساعة العاشرة ، وطلب المتكلم « ماستون » ، فأيقظه بيلفاست .. واستمع ماستون الى الحديث ، ثم هتف : « ماذا ؟.. بقرب ساحل المحيط الهادى ؟.. هل حدد المكان ؟.. بيلفاست ، لقد عادوا ! »

وكان لا بد من سفينة ذات اعداد خاص ، لانتشال الكبسولة ، فقد كان وزنها يجاوز ١٩٢٥٠ رطلا . وكانت المياه عميقة فى ذلك الموقع من المحيط .. وقد استغرق اعداد السفينة ـ فى سان فرانسيسكو ـ خمسة ايام ، ثم ابحرت وعلى ظهرها ماستون والدكتور بيلفاست .. وفى تلك الأثناء ، كان الكثيرون يمخرون عباب المحيط ليشهدوا المناسبة .

ولكن السفينة لم تر اثرا للكبسولة ، حين بلغت الموقع .. وقال القبطان :

ـ ان الماء عميق ، ولا يستطيع غواص ـ مهما تكن الامكانيات ـ أن يتجاوز ٣٠٠ قدم تحته .. لذلك لا بد من ان ندلى كرة مجوفة ضخمة من الفولاذ ، بها عدة نوافذ ومصابيح قوية ، ومزودة بالهواء ليهبط فيها غواص ، ثم نحركها فوق القاع ، حتى نعثر على الجسم الذى سقط ، فندلى حبالا فولاذية متينة لرفعه ..

وهبطت الكرة الى الماء .. وواصلت الهبوط حتى القاع ، والغواص على اتصال تليفوني بالربان .. وقال له أخيراً : « انني ارى القــاع ولا أثر للكبسولة .. حركوا الكرة ببطء نحو الشمال » .

وحركت الكرة نحو الشمال ، ثم نحو الغرب .. ثم ناحية الشرق ، فالى الغرب .. واستمرت الجهود ستة أيام دون جدوى ، والقلق يستبد بماستون .. فلما اكتمل الأسبوع ، ثار على الربان ــ وكان يدعى « فينك » ــ قائلا : « لقد ظل أصدقائي فى قاع المحيط اثني عشر يوما ، دون أن نوفق فى العثور عليهم .. ان الهواء الذى لديهم لن يكفيهم طويلا » .

وقال الدكتور بيلفاست : « من الجائز أن يكون تيــار قوى قد جرفهم بعيداً » .

وبعد أربعة أيام أخرى ، أصدر الربان « فينك » أوامره للسفينة بالعودة قائلا : « لن نستطيع الاستمرار فى البحث .. واذا أسرعنا فقد نصل الى سان فرانسيسكو فى وقت مناسب لقضاء ليلة عيد الميلاد » .

وفى أصيل ٢٥ ديسمبر ، سمع الربان أحد رجاله يصرخ : « هناك .. ناحية الشرق ، ارى جسما فضيا ، يعلوه علم » .

وتحولت السفينة متجهة الى الجسم . واذ اقتربت ، بدا أن العــلم أمريكي .. وألقى الدكتــور بيلفاست المنظار المقــرب من يده ، وهتف : « يا لى من أحمق !.. كم وزن الكبسولة ؟ » .. واذ أجاب ماستون بأنها أقل من عشرين ألف رطل ، صاح :

ــ هذا الوزن ، بالنسبة لحجمها ، يجعلها أخف من الماء ، فلماذا كنا نبحث فى قاع البحر ؟

وسرعان ما حمل قارب صغير الربان وماستون والدكتور بيلفاست الى الكبسولة .. وكانت النافذة الخارجية العليا

مفتوحة ، وأصوات الرواد الثلاثة تسمع بوضوح ، وهم يرددون بعض الأناشيد ، فقال الربان : « يبدو أنهم يتناولون عشاء عيد الميلاد ! »

اجتماع فى نادى السلاح

امتلأ « نادى السلاح » عن آخره بالناس .. وما ان ظهر باربيكان وآردان ونيقول ، حتى سيطر الهدوء لحظة ، ثم دوت عاصفة من التصفيق الحاد .. فلما هدأت ، قرأ الفينستون تقريرا عن أعمال النادى ، فى العام المنصرم ، ثم نهض باربيكان قائلا :

« نرى أنه قد تبقى فى خزانتنا حوالى سبعين الف دولار ، بعد أن سددنا جميع تكاليف صناعة المدفع الضخم ، والذخيرة ، وغيرها . فماذا نفعل بهذا المال الوفير ؟ »

ووقف الجنرال مورجان ، فوصف ما آلت اليه الحقول والأشجار فى منطقة المدفع ، من جراء اطلاق الكبسولة .. وكانت المنطقة مقصد الناس فى عطلاتهم من قبل .

فقال الرئيس باربيكان : « هل تقصد أن ننفق المال فى عمل شىء من أجل سكان مدينة تامبا ، الذين عاونونا خلال أيام التجارب العلمية ؟ .. اذن ، أقترح اقامة مبنى عال فوق موقع المدفع الضخم ، تعلوه ساعة كبيرة تدق كل ساعة ، فاذا سمع الناس دقاتها تذكروا رواد القمر » .

والى اليوم ، يقوم ــ فوق جبل الحديد ــ « مبنى الأجراس » .. فاذا لم تصدقنى ، فاذهب الى هناك ، لتتحقق بنفسك !

***

تعقيب

الدراسات العلمية فى ادب ((فيرن))

لعل رواية « جول فيرن » ـ كما قرأناها فى الصفحات السابقة ـ مثال رائع لدقة الأديب اذا ما عالج موضوعا علميا .. فان الروائى الفرنسي الخالد الذكر لم يطلق خياله على عواهنه ، وانما درس كافة الحقائق العلمية دراسة دقيقة ، ليبنى عليها وقائع روايته ..

على أن الدراسة العلمية لم تكن المجال الأوحد للمجهود الفكرى الذى بذله « جول فيرن » .. بل ان هذا المجهود تشعب فى اتجاهات كثيرة ، لعل ابرزها يتمثل فى تعمق الكاتب فى دراسة طبيعة الشعب الأمريكى ، الذى تنبأ بأنه سيكون أسبق الشعوب الى بلوغ القمر .. فقد استطاع ان يسبر غور الطبيعة الأمريكية ، والشعب الأمريكى ـ اذ ذاك ـ فى طور الحداثة ، فيقول :

((وغريب امر الأمريكيين ! .. فعندما تختمر فكرة فى راس احدهم ، يبحث فى الحال عن امريكي آخر يشاركه تنفيذها .. واذا اجتمع ثلاثة بادروا الى تعيين واحد منهم رئيسا ، واصبح الآخران سكرتيرين .. واذا كانوا اربعة فسرعان ما ينشئون شركة .. اما اذا كانوا خمسة فانهم يؤسسون ناديا ..))

واستطاع « جول فيرن » منذ أكثر من قرن ـ أن يتبين ناحية أخرى من نواحى الطبيعة الأمريكية ، تلك هى أن الأمريكيين يقيمون حضارتهم واقتصادياتهم على صناعة أسلحة الحرب والدمار .. وقد رأينا كيف راح أعضاء

« نادى السلاح » ينعون على الناس انصرافهم عن الحروب ، مما أدى الى كساد صناعة الأسلحة ، حتى ليقول المدعو « بيلسبى » (أحد أشخاص الرواية) :

« لقد انصرف الناس الى أعمالهم وتجارتهم ووظائفهم .. أى عصر هذا ؟! .. الناس ـ سامحهم الله ـ يريدون اليوم مزيدا من السيارات الأنيقة .. والجنود ينصرفون الى عمل غير القتال .. والقادة استبدلوا مدافعهم بتجارة القطن .. ان مستقبل أمريكا فى السلاح قد ضاع ! »

ويزداد « فيرن » تعمقا فى استجلاء طبيعة الشعب الأمريكى ونفسيته ، حتى ليكشف الحقيقة التى تبينها العالم جليا ، عقب الحرب العالمية الثانية .. وهى أن أمريكا لا تتورع عن اشعال نيران الحروب ، لتفتح مجالات لتجارة الأسلحة .. فيقول على لسان « ماستون » :

« اذا كانت الحرب قد انتهت ، فلابد لحرب أخرى أن تنفجر يوما .. ماذا دها الناس ؟.. لقد كسدت بضاعتنا ! »

أما الحقائق العلمية التى توصل اليها خيال الروائى « فيرن » ، قبل أن يبلغها اجتهاد العلماء بأكثر من قرن ، فقد أجاد عرضها « وليام ا . هـ . بيرنى » ، فى مقال نشرته مجلة « ريدرز دايجست » أخيرا ـ فى عدد أكتوبر ١٩٦٩ ـ ومما جاء فيه :

« فى عام ١٨٦٥ ، كتب « فيرن » يصف الرحلة من الأرض الى القمر ـ وحول القمر ـ فشابهت أحداث قصته العمل العظيم الذى قامت به « أبوللو ١١ » ، فى عام ١٩٦٩ : من ذلك مثلا أن كبسولة « جول فيرن » كانت تحمل ثلاثة رجال ـ امريكيين وفرنسيا ـ و (كبسولة « أبوللو ١١ » حملت ثلاثة) ، كما كان حجم الكبسولة مقاربا لحجم مركبة الفضاء « أبوللو ١١ » ، اذ كان ارتفاع كبسولة « فيرن » ـ المخروطية الشكل

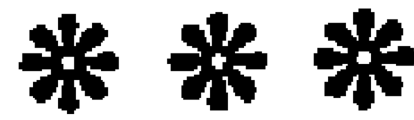
والمصنوعة من الألومنيوم ـ خمس عشرة قدما ، وقطرها تسع أقدام ، بينما كان ارتفاع مركبة « أبوللو ١١ » عشر أقدام وسبع بوصات ، وقطرها اثنتى عشرة قدما وعشر بوصات .

.. وكان المكان الذى انطلقت منه الكبسولة ـ أو الذى اختاره « فيرن » لانطلاقها ـ يقرب من خط العرض ٧٧ فى (فلوريدا) ، على بعد ١٤٠ ميلا من (كيب كينيدى) التى انطلقت منها « أبوللو ١١ » ! وفى رواية « فيرن » نجد أن (تكساس) جاهدت الى اللحظة الأخيرة ، لتحصل على شرف اطلاق الكبسولة من أراضيها . وقد قدر لتكساس أن تكون المكان الحقيقى الذى اختارته هيئة الفضاء مقرا للاشراف على سير رحلة مركبة « أبوللو ١١ » .

ولقد قدر ((فيرن)) سرعة الكبسولة ـ عند اطلاقها ـ بستة وثلاثين الف قدم فى الثانية .. وبعد اطلاق مركبة ((ابوللو ١١)) ، كانت سرعة محرك المرحلة الثالثة ٣٥٫٥٣٣ قدما فى الثانية ! .. وقدر ((فيرن)) لكبسولته زمنا لا يزيد على ٩٧ ساعة و ١٣ دقيقة و ٢٠ ثانية لكى تصل الى القمر ، وكان الوقت الذى استغرقته ((ابوللو ١١)) ـ فى رحلتها ـ ١٠٣ ساعات و ٣٠ دقيقة ! .. ودارت كبسولة ((فيرن)) عدة مرات حول القمر ، وعلى نفس الارتفاع الذى وصلت اليه مركبة ((ابوللو ١١)) القائدة ..

ولقد عاين رجال الفضاء ـ الذين كانوا فى الكبسولة ـ حالة انعدام الوزن ، وصور كل من الفريقين السطح القمرى .. كما رسم « فيرن » ـ منذ نحو مائة عام ـ بحر الهدوء الذى هبط اليه فى ١٩٦٩ كل من « نيل آرمسترونج » و « أدوين آلدرين » ، حتى أن خاتمة القصة وخاتمة رحلة « أبوللو ١١ » تشابهتا الى درجة تدعو للغرابة والدهشة ،

فقد هبطت كبسولة « فيرن » فى المحيط ، وهبطت كبسولة « أبوللو ١١ » فى المحيط أيضا .. والتقطت سفينة ضخمة رجال الفضاء بعد هبوطهم من القمر الى المحيط فى الحالتين !



وهكذا يمكن القول أن « جول فيرن » كان من أعظم كتاب القصة العلمية الخيالية فى عصره ، أى فى منتصف القرن التاسع عشر الذى عاش فيه .. وكان أحد هؤلاء الذين تنبأوا بهذا الانتصار العلمى الرائع ، كما كانت له عدة كتب علمية على جانب كبير من الأهمية ، منها : « عشرون ألف فرسخ تحت الماء » ـ التى تصور فيها الغواصة قبل أن تخترع ـ وقصته المشهورة « ثمانون يوما حول العالم » ، التى وصف فيها الطائرات قبل أن تظهر الى الوجود !

وفى قصته المشهورة هذه : « من الأرض الى القمر » ، كانت حساباته وتقديراته كلها صحيحة ودقيقة ، لأنه اعتمد على قوانين الطبيعة وطبقها فى تصوراته وتخيلاته ، واعتمد كذلك على النظريات الفلكية القديمة ..

بل لقد أمدت ((التكنولوجيا)) الحديثة سفينة الفضاء ((أبوللو ١١)) بالقوة اللازمة للهروب من جاذبية الأرض ، تماما كما تخيلها ((فيرن)) عندما فرت كبسولته من الجاذبية الأرضية وهى مندفعة من الارض بقوة عظيمة .. ولعل الأغرب أن ((فيرن)) صوب كبسولته نحو القمر بنفس الطريقة التى صوبت بها هيئة ((ناسا)) NASA مركبة ((أبوللو ١١)) نحو النقطة التى حددت لها على القمر ..

.. ووصف « فيرن » لحظة انطلاق الكبسولة (كما تخيلها فى عام ١٨٦٥) ، بهذه العبارات : « وزلزلت الأرض زلزالها ، وانطلقت الكبسولة تشق طريقها نحو السماء ،


جول فيرن .. فى
اخريات ايامه

بصوت الرعد يصم الآذان ، وكان بركانا قد انفجر فجأة ، فالتهبت السماء ، وظهرت كرة من النيران ، وتراكمت حولها الأبخرة وسحب الدخان .. »

وهذا ما حدث عند أطلاق كبسولة « أبوللو » ..

ولم يهبط رجال « فيرن » على سطح القمر ، لأنهم ارتكبوا خطأ بسيطا ، وكان ذلك من حسن حظهم ، لأن المؤلف لم يمدهم بأردية فضاء خاصة .. ولكن « فيرن » العظيم أمدهم بمحركات صاروخية مثل المحرك الصاروخى الذى استخدمه رواد « أبوللو ١١ » عند عودتهم من القمر الى المحيط الهادى !

.. وأخيرا ، منذ أسابيع ، احتفلت قرية (آمى) بفرنسا بابنها البار « فيرن » ، ومنحت ــ فى هذه المناسبة ــ كلا من « آرمسترونج » و « كولنز » و « آلدرين » التقليد المعروف بأن يصبحوا « مواطنين لها » ، تماما مثل سلفهم العظيم « جول فيرن » .



SEXUAL LIFE IN ANCIENT GREECE

BY: HANS LICHT

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

لـكي تفهم قوما .. ادرس حياتهم الجنسية

النوازع الجنسية للانســـان ، تضفى اضواء على معظم نواحى سلوكه وتصرفاته ، وعلى مختلف نشاطاته الفنية والادبية والذهنية بوجه عام ..

لذلك كان لهذه النوازع ـ وما يصحبها او يترتب عليها من عادات وتقاليد ـ دور كبير فى دراسة حضـــارة اى شعب ـ او اية امة ـ وثقافتهـــا .. ولعل الدراسة التى قام بها البروفيسور « هانس ليشت » ، خير مثال لذلك . فان الحضارة الغربية الراهنة ، اخذت الكثير من فنونها وفلسفاتها ومثلها الاخلاقية ونظرياتها السياسية عن الاغريق ، شعب اليونان القديمة . لذلك كان لزاما ـ لادراك وتقييم الحضارة الغربية المعاصرة ـ ان نلم بالحياة الجنسية لدى الاغريق، ومكانة المراة فى حياتهم .. مكانة المراة من الرجل ، ومن البيت ، ومن المجتمع ، ومن الدولة .. المسائل الجنسية فى الدين وفى الادب .. البغاء ، والانحرافات الجنسية عند الرجل .. البغاء واثره فى النهضة الفكرية !!

كل هذه النواحى ، عالجها البروفيسور « ليشت » فى دراسته ، باسلوب رشيق مشوق ، يمزج الفائدة الثقافية بالتسلية . . وفى الصفحات التالية ، نقدم الحلقة الاولى من هذه الدراسة ، ونرجو ان نتبعها بحلقات اخرى ..

الحياة الجنسية عند الاغريق

⊙ **بالرغم** من أن الشباب ومباهجه ـ ومن بينها الحب بوجه خاص ـ كانت أهم عنـاصر السـعادة الكبرى لـدى اليونان ، فان هنالك عناصر أخرى كانوا يتطلعون اليها لتحقيق السعادة ، ومنها : الزوجة ، والولد ، والشهرة ، والظفر فى

الحرب . والسمعة المشرفة لصاحبها ، والصحة . . وان تباينت آراء كتابهم وفلاسفتهم فى أى هذه العناصر أولى بالتقديم على سواه !. . وكان الشاعر « ثيوجينس » أول من وضع الصحة كأعظم سعادة يجدر بالانسان أن يسعى من أجلها ، ثم أردفها ب « الظفر بما يحب المرء » . . ويبدو ــ لأول وهلة ــ ان الشاعر تعمد أن يجعل عبارته « الظفر بما يحب المرء » مبهمة لكيلا يقطع بما اذا كان يعنى « الحب » بمعناه المعروف ، أو « الحب » بمعنى الرغبة فى اقتناء أشياء أو تمنى تحقيق امور مبتغاة . ولكن الأرجح أن « ثيوجينس » قصد الحب بمعناه الأول ، وانما تعمد الابهام لأن الاغريق كانوا يعرفون من الحب نوعين : الحب الذى يربط رجلا وامرأة ، والحب الذى يربط اثنين من جنس واحد . .

ومهما يكن الأمر ، فليس من شك فى أن الاغريق كانوا يضعون الشباب والجمال والحب فى مقدمة ما يشتهى لتحقيق السعادة . . وكان شعراؤهم يتغنون بأن : « الصحة أفضل ما يشتهى الانسان الفانى ، يليها الجمال الشخصى الفاتن ، ثم الثروة المكتسبة بدون غش ، ثم أن يكون المرء الأنضر شبابا بين أصدقائه » .

ويرى كثير من المتعمقين فى دراسة الاغريق ، أن الثقافة الاغريقية كانت « أغنية » مقصورة على اطراء « هيدون » ، اى الاستمتاع البهيج بالحياة ، وأحلى مباهج الحياة هو الحب . ولقد كانت الشهوات الحسية العارية فى أعمق بذور طبيعتهم ، وان لم يطلقوها الى درجة الوحشية أو البهيمية ، كما فعل الرومان ، بل جعلوا منتهاها النشوة والحبور . ومن هنا نرى السر فى أن كبار المفكرين الاغريق كانوا يقرون حق الانسان فى المتع الحسية . ولم يدع « سوفوكليس » الى امتداح الشيخوخة « لأنها تحرر المرء من ربقة الشهوات الحسية » الا عندما طعن فى السن !

الجنس .. حتى بين الآلهة !

◉ **وليس** ادل على هذا ، من أن الشعر اليونانى القديم ـ منذ هوميروس ـ لم ينزه الأرباب والآلهة الإغريقية عن الاستسلام لشهوة ارضاء الحواس الجنسية . فالربة « هيرا » ـ فى « الياذة » هوميروس ـ عمدت الى فتنة زوجها « زيوس » بتشويقه واثارة رغبته .. ولم تكتف بما أضفته على نفسها من زينة ، بل استعارت من الربة « افروديت » حزامها السحرى : « حزام الحب والشبق الذى يخضع بسحره قلوب كل الآلهة وكل المخلوقات الفانية على وجه الأرض » .. **ويصف « هوميروس » الحزام بانه كان يحتوى على كافة فنون الغواية وطرق المتع الجنسية ، مما يسلب الحكيم عقله . وحاولت « هيرا » ـ بعد ذلك ـ أن تغرى الرب « هيبنوس » ـ اله النعاس ـ بأن ينيم « زيوس » ، بعد أن تحظى معه بكل لذائذ الحب ، حتى تنفسح لها الفرصة لمساعدة الاغريق الذين كان « زيوس » يوشك أن ينصر الطرواديين عليهم فى الحرب المعروفة ..**

ولقد أفرد « هوميروس » جزءا ليس بالبسيط من الكتاب الرابع عشر من « الالياذة » ، لوصف ما دار بين « هيرا » و « زيوس » من لقاء .. كما افرد شطرا من الكتاب الثامن من « الأوذيسة » لوصف ما كان من الربة « أفروديت » ، اذ انصرفت عن زوجها القمىء « هيفايستس » لتغرى « آريس » ـ رب الحرب الجميل ، الشاب ، القوى ـ وتندمج معه فى غرام غير مشروع .. فما كان من الزوج المصدوم الا أن دعا الآلهة جميعا ، وأراها العاشقين عاريين وقد غابا فى عناق شهوانى .. وبدلا من أن تثور آلهة الاغريق للمشهد الفاضح ، قال ابن كبير الآلهة « ابوللو » للاله « هرمس » ـ ابن زيوس ـ ما معناه : « الا تحب ـ اذا اتيح لك ـ ان تضاجع

افروديت الذهبية ؟ » .. **هـذا بالرغم من أن افروديت ربة الحب كانت زوجة ، وكانت ــ فى ذلك المشهد ــ تخون زوجها فتهدر الفضيلة الزوجية والوفاء الزوجى ! .. ولكن « بهجة الاشباع الجنسى » أعمت الآلهة عن « بشاعة الخطيئة » !**

ولقد كتب الفيلسوف « هيراكليدس بونتيكس » ــ وهو من تلاميذ أفلاطون ــ كتابا عن « اللهو واللذة » ، قال فيه أن الترف فى الحياة ــ لا سيما فى الخلاعة والمتع الجنسية ــ حق مقصور على الطبقات الحاكمة ، فى حين أن الشغل والكدح نصيب الفقراء والعبيد .. وهكذا أدخل « الجنس » فى الحقوق التى تفرق بين الطبقات !!

و « المتعة » كغاية حقيقية فى الحياة » كانت شعار مدرسة فلسفية انشأها « اريستيبوس » . ولعل فى الفقرات السابقة ما يكفى لاظهار مدى ما كانت « الملذات الحسية » تحتله فى ثقافة الاغريق .

المرأة والزواج عند الاغريق

◉ **خطأ** ما يقال من أن مركز المرأة المتزوجة ــ عند الاغريق ــ كان وضيعا . والواقع انهم كانوا من أول الشعوب التى أخذت بالفكرة الحديثة ، التى تقول ان المرأة صنفان : **ام ، ومحظية !**

ولم يخلع أحد من التكريم على الصنف الأول ــ أى الأم ــ قدر ما خلع الاغريق ، اذ كانوا يعتبرون أن المرأة تحقق غاية حياتها عندما تصير أما ، فكانوا يعهدون اليها بمهمتين هما ارقى المهام : تدبير الشؤون العائلية ، وتربية الأطفال الى أن تتزوج البنات منهم ، والى أن تستيقظ الفردية الروحية للنفس لدى الذكور . **وهكذا كان الاغريق يرون أن الزواج وسيلة الى غاية ، هى توفير جيل من الأبناء الشرعيين يخلف**

الجيل الذى سبقه ، الى جانب ان الزواج يوفر ادارة موثوقا بها لتدبير شؤون البيت والأسرة .ولهذا كانت للمرأة السيطرة الكاملة علي هذه الشؤون .

ولقد يتساءل أبناء العصر الحديث : ألم تكن حياة كهذه تحرم المرأة من النشاط الاجتماعي ، وتلقى بهـا الى عزلة مملة ؟ .. والجواب بالنفي ، لأن المرء لا يهفو الى أشـياء لا يعرفها ، فضـلا عن انهـا كانت تأخـذ المهمتين الموكولتين اليها ــ البيت والنشء ــ مأخذ الجد والفخر . وان الزواج والمـرأة ليترددان ــ فى أقدم ما سجل من آداب الاغريق ــ بكثير من التمجيد والاعزاز اللذين لا يخطران ببال . **وليرجع من لا يقتنع بهذا القول ، الى ((الاوديسة)) ، وليقـرأ الدور الذى قامت به ((بنيلوبي)) زوجـة ((اوديسيوس)) ، وكيف ظلت وفية لعهده طيلة السنوات المضنية التى غابها عنهـا ، حتى اذا آذى مشاعرها مسلك المعجبين بهـا ــ ممن راحـوا يخطبون ودها ــ استمدت من ضعفهـا قوة ، وانبرت لهم فى جلال الملكة التى اهينت ، فردتهم الى حدودهم بكلمات ماكانت لتصدر الا عن امرأة تعتز بمكانتها كامرأة .**

وما كانت أشعار ((هوميروس)) لتزخر بالصور الرائعـة عن حياة المرأة ، لو أن المرأة الاغريقية كانت شقية بنصيبهـا .. ولقد أشار ((اريسطوطاليس)) الى ان أشعار ((هوميروس)) تبين أن الرجل كان يشترى عروسه من أبويها ، بما يقـدم من هدايا .. ولكن من واجبنا أن نشير الى أن الاغريق كانوا يعتبرون البنات غير المتزوجات من أغلى أعضاء البيت ، ومن ثم فلابد من تعويض قيم ، اذا أريد انتزاعهن من البيت عنـد الزواج .

الخيانة الزوجية ابشع ذنوب المرأة

● **ومن** ناحية أخرى ، كان لخيانة الزوجة دور كبير فى

الأدب الاغريقى القديم .. حتى ان الحروب الطروادية قامت على ما قيل من أجل خيانة « هيلين » لزوجها « منيلاوس » ، وانطلاقها الى بلاد أجنبية وراء « باريس » الفاتن .. كما روى « هوميروس » قصة « كليمتيمنسترا » — زوجة « اجاممنون » — التى أستسلمت لغواية « ايجيستوس » سنوات غياب زوجها الطويلة ، ثم ذبحت هذا الزوج — عند عودته — بعد أن تظاهرت بالابتهاج لرؤيته !

ومع ذلك ، فان تصوير « هوميروس » للخيانتين ، يوحى بأن الغادرتين انما كانتا ضحيتين لغواية سلطتها عليهما « افروديت » .. ولكن هذا لم يكن كافيا لتبرير الخيانة الزوجية ، مما فتح الباب لتحقير الجنس الانثوى ، ولظهور « كارهى النساء » فى الثقافة الاغريقية .

واذا كانت أشعار « هوميروس » قد صورت نساء المشاهير وعلية القوم ، فان اشعار « هسيود » تؤكد ان نساء الفلاحين والرعاة والصيادين — ومن اليهم — لم يكن اقل حظا من نساء الطبقة الراقية .. مما يعزز أن المرأة الاغريقية كانت تستمتع بحياة كريمة . ويغدق « هسيود » أرق الكلمات ، اذ يصف الفتاة التى لم تتزوج بعد بأنها « تبقى فى البيت بجانب أمها العزيزة ، لأنها لم تكتسب بعد خبرة بفنون أفروديت الذهبية » .. وبينما يتعرض الرجال — خارج البيت — للعواصف الهائجة ، والبرد الزمهرير ، تنعم هى بحمام ساخن فى حجرتها الكاملة التدفئة ، وتزيد من ليونة والتفاف أعضاء جسمها العذرى اذ تدلكها بزيت البلسم ..

على أن هذا الشاعر — الذى نشأ فى بيئة ريفية — لم يغفل أن بين النساء من هن صالحات ، وبينهن الفاسدات .. « فالزوجة الصالحة ثروة ثمينة ، أما الشريرة فهى أسوأ عذاب » .. وقد خلع كل سوء وشر فى العالم ، على امرأة اورد

ذكرها فى كتابه « أعمال وأيام » ، هى « باندورا » الحمقاء المغرورة ، التى صبت من صندوقها على الجنس البشرى كل الشرور .. ولم ينس أن يحذر الفتيات الساذجات من الغرور الذى يقود الى الخلاعة ، والذى يغريهن بأن يضاعفن مفاتنهن بحركات خليعة لمؤخراتهن ، وبتسليط فتنة « أعضاء الشباب » ـ أى الأعضاء المثيرة جنسيا ـ على الرجال ..

المرأة بين البيت والمجتمع

● **وعلى** مر الأعوام ، ازداد تركز الثقافة اليونانية على الذكور ، حتى أن الحديث عن التعليم أقتصر على الصبية والغلمان .. وحتى لقد قال « هيبوليتس » فى كتابه عن « يوريبيدس » ان المرأة المتزوجة لا ينبغى أن تكون أمهر واحذق مما يناسب مهمتها فى الحياة . لذلك استولى على الاغريق الاقتناع بأن أصلح مكان للمرأة والفتاة ، هو قسم « الحريم » فى البيت ، حيث لا حاجة بهما الى كتب العلم !.. ولما كان الحديث والنقاش والجدل هى أشهى المتع لدى الرجال ـ فى اللقاءات الاجتماعية ـ فان النساء لم يلبثن ان شعرن بنقص كفاءتهن فى هذا المضمار ، فازددن انزواء فى عزلة « الحريم » .. اللهم الا فى (اسبرطة) غالبا !

ومع ان الزواج كان يتيح للمراة قدرا اوفر من الحرية ، فان ((البيت)) ظل المملكة التى يجب الا تتجاوزها .. و ((المراة التى لا تبقى فى بيتها ، تجتلب اللوم لنفسها)) ! .. بل اننا لنستنبط من الثقافة الاغريقية ، انه لم يكن يليق بالمراة ان تخرج من بيتها ، الا اذا بلغت سنا لا يتساءل عندها من يراها عن ((زوجة)) من هى ، وانما ((ام)) من هى .. وأن الفتاة غير المتزوجة تحتاج الى مراقبة وحراسة .

وكان من التقاليد أن المرأة اذا أضطرت للخروج من بيتها وجب أن يكون فى صحبتها رجل مسن من الأسرة ، أهل للثقة

.. بل ان « يوربيديس » كان ينصح الأزواج بتجنب السماح لزوجاتهم باستقبال نســـاء أخريات فى بيوتهن ، لأن « بين النساء معلمات لتلقين كل سوء وشر » .

وصحيح ان هذا الوضع للمرأة لم يكن قائما فى كل بلاد اليونان ، ولكنه كان قائما فى كثير من الأماكن ، وفى (أثينـــا) بالذات .. ونحن لا نملك هنا أن نخوض فى التفصيلات ، لأن همنا الأول هو أن نرسم صورة للحضارة الاغريقية فى أوسع نطاقاتها .. صورة نعتبر فيها بلاد اليونان وحدة متماسكة برباط اللغة والعادات ، دون أن نتجشم عناء الخوض فى نواحى الاختلاف ، فى كل مناسبة .. وما أبعد الفوارق ، لو أننـــا انسقنا لبيانها . **فبينما كان كثير من الاغريق يحسبون نساءهم فى ((الجينايكونيتس)) ــ أو ((الحريم)) ــ فى غرفة موصدة الباب ، محكمة الحراســة ، يقف على مدخلها كلب ضخم شرس .. نجد ان أهل (ليديا) ــ على ماذكر هيرودوتس ــ لم يكونوا يرون أى حرج فى أن تمارس الفتاة البغاء لتكسب نفقات ثيابها ! .. ونجـــد أن نساء (اسبرطـــة) كن يرتدين ثيابا مشقوقة الى ما يقرب من الخصر ، بحيث تكشف عن معظم افخاذهن حين يمشين ..**

المهم ان العزلة التى فرضت على المرأة الاغريقية ــ بوجه عام ــ أدت الى سذاجة فى شخصيتهـــا ، وضيق فى تفكيرها وعقليتها .. حتى لقد ورد فى كتاب لبلوتارخ أن غريما للملك « هيرو » عيره بأن لفمه رائحة كريهـــة ، فأسرع الملك مغضبا الى زوجته ، يؤنبها لانها لم تنبهه الى ذلك .. وبكل بســـاطة وسذاجة ، اجابتـــه الزوجة : « لم أر داعيا لتنبيهك ، فقـــد كنت أظن أن لجميع الرجال هذه الرائحـــة » ! .. على أنه بقدر ما يزخر الأدب الاغريقى بحكايات من هذا القبيل ، نجده حافلا بحكايات تبين أن الرجـــال كانوا يحترمون الزوجات ،

وكان الواحد منهم يميز زوجته بأن يلقبهـا « أم الأولاد » ، بينما يطلق على سواها لقب « المرأة » ـ مجردا من كل لباقة ومجـاملة ـ دون تفريق بين الملكة أو المرأة العـادية .. ولا نصادف لقب « سيدتى » أو « مولاتى » للملكة ، الا بعـد قيام الامبراطورية الرومانية ..

السبب الرئيسى للزواج

● **وكانوا** يقسمون النسـاء الى ثلاث طبقات : « الغوانى المحظيات للهونا ومتعتنا ، والجوارى للخـدمة اليومية ، والزوجات ليحملن لنـا أطفـالا وليدبرن شؤون بيوتنـا باخلاص » !

على أن مكانة « الجوارى » لم تكن مقصورة على الخدمة ، فنحن نجد فى آثار الاغريق الأدبية أن « الجوارى » كن رقيقا، لأصحابهن الحق فى بيعهن ان شاءوا .. كما نجـد انهن كن يذكرن مع الأم والزوجة والأخت والابنـة ، مما يوحى بأن العلاقة بين الرجل وجاريته ربما كانت على غرار علاقة الرجل بزوجته .. يؤكد هذا ، أن تعدد الجوارى فى حوزة الرجل ، لم يكن شائعا قبل العهد البطولى الذى وصفه « هوميروس » فان الغالب أن يمتلك الرجل جارية واحدة .. ومن المحتمل انه لم يكن يجعلها كالزوجة ـ لتحمل له أطفالا ـ الا فى أوقات الحاجة ، كفترات الحروب ..

وكان السبب الرئيسى الذى يحدو بالرجل الى الزواج هو الرغبـة فى ((انجـاب نسل شرعى)) .. وكان الأمـر فى (اسبرطة) يذهب الى ابعد من هذا المدى ، اذ لم يكن من غير المالوف ـ كما ذكر ((بلوتارخ)) ـ ان ((يحول الزوج حقوقه الزوجية لرجل اقوى منه فحولة ـ يستطيع أن ينجب أطفالا يمتازون بالجمال والقوة ـ دون ان يؤثر هذا على الزواج)) !

.. وقبل أن نعقب على هذا ، يسبقنا « بلوتارخ » فيذكر ان

الزواج الاسبرطى كان أشبه ب « توليف الخيل » ، من حيث ان أهم ما فيه هو انجاب سلالة تمتاز عددا ونوعا !

ويمتلىء الأدب الاغريقى القديم بقصص السخرية من الأزواج الذين على هذه الشاكلة ، أو الذين كانوا يتخذون زوجاتهم شباكا للايقاع بالأغراب وابتزاز نقودهم ..

الزواج فرض يلقى تاركه التحقير

● **غير أن** الزواج كان يعتبر فى (أثينا) — وفى بلاد اليونان بوجه عام ، اذا جاز لنا أن نصدق « أفلاطون » ، فى كتابه « القوانين » — أداء لواجب مفروض نحو الآلهة ، اذ يجب على المرء أن ينجب أولادا ليكونوا خداما وعبادا للآلهة . كذلك كان يعد أداء لواجب أدبى ، هو ضمان بقاء الدولة بانجاب مواطنين لها . على أننا لا نجد معلومات — يوثق بها — عن قوانين تفرض الزواج على الرجل ، اللهم الا فى (اسبرطة) .. واذا كان « أفلاطون » قد اتجه الى جعل الزواج فرضا ، يعاقب الرجل — اذا لم يؤده — بالغرامات وبفقدان الحقوق المدنية ، فانه قد اتفق ، فى هذه النظرية ، مع الاسبرطيين الذين لم يكونوا يعاقبون الأعزاب فحسب ، بل كان عقابهم يمتد — على ما أورد « أريستون » — الى الذين يتزوجون فى سن متأخرة ، والى الذين يعقدون زيجات سيئة ، كتلك التى لا تتوفر فيها الكفاءة بين الزوجين ، أو التى لا تثمر أطفالا ! .. **وكان القانون الذى وضعه المشرع الكبير « ليكورجوس » ينص على عقوبات لغير المتزوجين ، منها : « الحد من الحقوق المدنية ، فلا يسمح لهم بالاشتراك فى مهرجانات الغلمان العرايا » .. وكانوا فى الشتاء « يؤمرون بان يطوفوا بالأسواق وهم يرددون أغنية تحط من شانهم ، ويعلنون أنهم يستحقون ما يصيبهم ، جزاء لعدم طاعتهم قوانين بلادهم » .. كذلك كانوا يحرمون من الاحترام والتوقير الواجبين على الصغار نحو الكبار !**

ولا يبدو أن هـذه القوانين كانت كبيرة الأثر ــ حتى فى (اسـبرطة) ذاتها ــ اذ أن عدد الرجال غير المتزوجين فى اليـونان ، كان كبـيرا .. فكثير من الرجـال كانوا يؤثرون الاحتفاظ بحريتهم وراحة بالهم ، التى تعكرها مسـئوليات وهموم الزوجة والأطفال . وبعض الرجال كان يعرض عن الزواج نتيجة كراهية طبيعية للنساء عامة !

ولعـل فيمـا أجـراه « بلاوتوس » عـلى لسـان « بيريبلكتومينوس » ــ بطل احدى تمثيلياته ــ خير تصـوير لذلك ، فهو يقول لضيفه « باليستريو » :

« ــ الحمد لله الذى وفر لى أسباب اكرامك فى بيتى .. كل واشرب ما شئت فى صحبتى ، واستمتع أكمل استمتاع .. انني أملك حريتى ، واحب أن أعيش على هواى .. اننى غنى ، وكان بوسعى أن أتخذ زوجة ذات ثروة وجاه ، ولكنى لا أميل الى ايواء « عنصر عكننة » فى بيتى !

« باليستريو : كيف يا سيدى ؟ .. ان انجاب الأطفال واجب بهيج ، كما تعرف .

« ــ أقسم أن مباهج الحرية أكثر متعة .. من المفرح جدا أن يتزوج المرء من زوجة صالحة ــ اذا وجدت على الأرض بقعة يمكن العثور فيها على واحدة ــ ولكن ، أأحضر لبيتى امرأة لن ينطق لسانها قط بعبارات كهذه : « اشتر لى بعض الصوف يا زوجى ، لأصنع لك وشاحا دافئـا وبعض ثياب لا تشعرك ببرد الشتاء » .. لن أسمع شيئا كهذا من زوجة ، ولكنها ستوقظنى قبل صياح الديك لتقول : « اعطنى نقودا يا زوجى ، لأقدم هدية لأمى .. اعطنى نقودا أقدمها للعرافات والساحرات فى عيد منيرفا ، ولمفسرى الاحلام ومستطلعى الغيب .. وهناك صانعة الأزياء ، لابد أن أكافئها بما يليق .. والقابلة « الداية » كذلك ، فهى تحتج لانني لا أرسل لها من

المنح الا القليل .. ثم ، ألن ترسل شيئا للممرضة التى تعنى بالعبيد المولودين تحت سقف دارك ؟ » .. هذه الاتجاهات المسرفة لدى النساء ـ وكثير من أمثالها ـ تمنعنى من أن أتخذ زوجة تعذبنى ... »

تبنى الأطفال وبيعهم

● الى جانب كثرة الرجال ـ الذين كانوا على هذه الشاكلة ـ فان الاناث كن أغلبية ، من حيث العدد ، فى اليونان ، اذ ان الحروب كانت تلتهم صفوة شبابها . لذلك فلسنا نغالى اذا قلنا ان « العوانس » لم يكن قلة نادرة ، وان لم يتجشم المؤلفون اليونانيون عناء الاسهاب فى الحديث عن هذه الطائفة ، اذ كانت المرأة ـ بوجه عام ـ ذات دور ثانوى فى الأدب الاغريقى .. وان كان « أريستوفانيس » قد أجمل أمرها ، على لسان بطلة مسرحيته « ليسيستراتا » اذ تقول : « ولكن عمر المرأة قصير ، وما لم تحسن استغلاله فلن يرغب أحد فى الزواج منها ، وتظل جالسة ترقب الطوالع » !

واذ كان السبب الرئيسى للزواج هو « انجاب نسل شرعى » ، فان الأدب الاغريقى يحفل بذكر « الرجل المتزوج العقيم » .. الذى كثيرا ما كان يلجأ الى « التبنى » ، متعللا بالرغبة فى أن يترك خلفه من يحمل القرابين وآيات الحب الى القبور !

ويقول بلوتارخ أن شريعة « ليكورجوس » ـ فى اسبرطة ـ كانت تقضى بوضع الأطفال الضعاف والمشوهين فى أخدود بأعلى جبل (تايجيتوس) ، وتركهم معرضين لعدوان الطبيعة .. ولكن شيئا من هذا لم يعرف فى (أثينا) ، لا سيما فيما يتعلق بالبنات .. **فالأطفال الذين كان أهلهم يزهدونهم ـ لعيوب فى تكوينهم ـ كانوا يوضعون فى قوارب كبيرة من الفخار ، بطريقة تكفل أن يعثر عليهم من قد يكونون محرومين**

من الأطفال ، فيعطفوا عليهم ويأخذوهم . كذلك كان يحدث أن يبيع أناس أطفالهم ، لا سيما للزوجات المحرومات اللاتى يخشين أن يفقدن أزواجهن من جراء عدم الانجاب .

وقبـل أن ننتقل الى « عادات الزواج » ، نذكر ذلك الحديث الذى وجهه بطل « اكسينوفون » الى عروسه ، بعد زواجهما بقليل ، من أن الزوجة يجب أن تكون عفة طاهرة ، عاقلة ، تعرف كيف تصنع الثياب ، وكيف تغزل الصـوف ، وتعطى لكل خادم ما يناسبها من أعمال البيت . وعليها أن تحافظ على ما يكسبه زوجها بعمله من مال ومقتنيات ، وأن تحسن استخدام ثروته . أما مهمتها الرئيسية فهى تغـذية وتربية الأطفال . كما كان عليها أن ترعى صحة ورفاهية كل من فى بيتها — من سادة وعبيد — أناثا وذكورا .. ومن واجبها أن تعلم أفراد الأسرة كل ما يجدر تعلمه ، وأن تحكمهم وتربيهم بحكمة ..

عادات الزواج لدى الاغريق

● كان الاغريق يدبرون زيجاتهم بعقلية حسابية : فلم تكن الخطبـة الطويلة معروفة عنـدهم ، وكان لمركز الأسرة و « الدوطة » — عند اختـيار العروس — نصيب أوفر مما للجمال والخصال .. على أن هذه لم تكن بالقاعدة الجامدة ، فاذا ما بهر جمال ابنة رجل فقير شابا غنيا ، كان أبوها يسارع الى إقنـاعه بالتجاوز عن « الدوطة » الضخمة ، كمـا فعل « يوكليو » فى قصة « أولولاريا » للشاعر « بلاوتس » ، اذ قال للشاب :

— اليك الموقف كما أراه يا مجادورس : انك غنى ، ذو مكانة . اما انا ، فرجل فقير . واذا قدر لى ان ازوجك ابنتى ، فانني اتمثل انك ستكون الثور ، وانا الحمار . فاذا اسرجنا

معا الى مركبة ، فلن اقوى على جز نصيبى من الحمل ، واذ ذاك ساقع فى الوحل ، فى حين انك لن تحفل بى . انك تفوقنى بكثير ، وسيوسعنى قومى انتقادا . ولو قدر لى ان اقع ، فلن يقبلنى قومى ولا قومك بينهم .. انها لمسالة محفوفة بالمخاطر ، ان يحاول الحمير التسلق الى طائفة الثيران !

ولا يحتمل أنهم كانوا يسمحون للخطيب والخطيبة بأن يكثرا من الالتقاء فى خلوة . يدل على هذا ما كان يطالب به « أفلاطون » ـ لتفادى الغش والخداع ـ من السماح للطرفين بمزيد من الحرية فى التلاقى . ومن ثم ، فسرعان ما كان الزوج يرى الزواج قيدا ثقيلا ، وتجد الزوجة أن الزواج مخيب لآمالها ، وانها كانت أسعد حالا فى بيت أبيها .. أو على حد تعبير « سوفوكليس » فى بعض كتاباته : « فان الجهل يكسبنا مسرة . أما حين ننضج ، ونزداد معرفة ، فاننا نساق بعيدا عن آلهتنا وآبائنا وأقاربنا ، ونباع .. بعضنا لأجانب ، وبعضنا لهمجيين ، وبعضنا لبيوت غريبة .. وبمثل هذا الحظ ـ وبعد ليلة واحدة تربط بيننا ـ يتحتم علينا أن نرضى ، وأن نرى أن هذا هو الخير » !

الخاطبة .. فى دورها الخالد !

● **وكانوا** يحسبون لحكم الطبيعة حسابه ، فالمرأة أسرع ذبولا من الرجل ، لذلك كان ينبغى أن تكون العروس أصغر من العريس سنا ، بدرجة مناسبة .. وبالتالى ، اذا لم يقدر للأب أن يجد زوجا لابنته ـ وهى فى سن مناسبة ـ كان عليه أن يلجأ الى احدى الخاطبات ، اللواتى كانت مهارتهن تتجلى فى ابراز صفات الزوجة ومزاياها .. ويبدو من كتابى : « أكسينوفون » و « أفلاطون » ، أن مهنتهن لم تكن تحظى بسمعة فوق مثار الريب ، فمنهن من كن يدبرن اللقاءات

الغرامية ، التى قد تفقد فيها الفتـاة عفتها ، دون أن تظفر بالجانى زوجا !

واذا قدر للخطبة ان تتم ، كان مقدار ((الدوطة)) يحدد بالاتفاق بين الطرفين ، اتماما للصيغة القانونية . واحيـانا ، كان اهل الخير ـ أو الدولة ـ يوفرون ((الدوطة)) للعروس الفقيرة . ويروى ((بلوتارخ)) ان كلا من ابنتى ((اريستيد)) تسلمت ٣٠٠٠ دراخما ـ اى حوالى ١٣٥ جنيها مصريا ـ لهذا الغرض .

ولسنا بحاجة الى أن نذكر أن الزوجة كانت ملزمة ـ الى جانب الدوطة ـ بالمفروشـات ، والملابس ، وأثاث البيت ، والعبيد أحيانا . ولقد أورد « سولون » فى تشريعه ، أن الجزء النقدى من الدوطة يجب أن يستبعد ، لكى لا تطغى المـادة على الغاية السامية من الزواج . ولكن هذا القانون ظل ـ فى الغالب ـ حبرا على ورق .. كما يؤثر عن « بلوتارخ » قوله ان الإقلال أفضل للرجل من أن يغدو رقيقا مستعبدا لدوطة زوجته !

العريس يختطف عروسه ويغتصبها !

● وكان الشتاء عادة هو انسب فصل للزواج ـ وان لم نجد فى التراث الاغريقى سببا يبرر هذا ـ وكان أول شـهور الشتاء يدعى « جاميليون » ، وهو اسم مشـتق من كلمة الزفاف باليونانية ، وكانت المعتقدات الخرافية تدعو لتجنب فترة تناقص القمر ـ بعد اكتمال البدر ـ لاتمام الزفاف .

وهناك طقوس كانت تؤدى قبل الزواج ، أهمها تقـديم القرابين للآلهة التى ترعى الزواج ، لا سيما الربة « هيرا » والرب « زيوس » .. وفى يوم الزفاف بالذات ، كان لزاما ان تقدم قرابين أو تضحيات (تقدمات) للربة « أفروديت » .. ويقول « بلوتارخ » ، ان التقاليد ـ فى بلدة (تيسبيا) ـ كانت

تقضى بأن يأوى العروسان الى معبد « ايروس » ، ليستمدا من تمثال الرب السعادة والبركات . وفى كثير من الأماكن كانت العادة أن تقدم العروس على المذبح خصلات من شعرها ـ رمزا لانتقالها من مرحلة الصبا ـ وحزام عفتها ، رمزا لتحللها من البكارة ..

وكان يسبق هذه الطقوس ـ أو يعقبها ـ حمام العروس ، الذى كان يعهد الى صبى من جيران العروس باحضار الماء اللازم له ، من مكان خاص فى بلدتها .. وفى (اسبرطة) بالذات ، كان على العريس أن يختطف عروسه بعيدا ـ وفق خطة معروفة لوالديها ـ أثناء الاحتفال بالزواج ، ثم يغتصبها ويفض بكارتها .. وكان ينام ليله مع أصدقائه ، ثم يتسلل خلسة الى عروسه .. وهو فى خجل وخوف من ان يراه أحد من أهلها !

ويقول « بلوتارخ » أن العروس نفسها كانت تساعده فى ذلك .. « ولم يكونا يقتصران على فترة قصيرة ، بل كثيرا ما أنجب الزوجان أولادا قبل أن يتردد الرجل على مخدع زوجته نهارا » .. ومثل هذه اللقاءات لم تكن تعلمهما كبح النفس والاعتدال فى الشهوات فحسب ، بل انها كانت تساعد على اذكاء شوقهما ، وبالتالى على ممارسة اللقاء بكل قوة واستمتاع ، مما يساعد على انجاب أطفال أقوياء ، أصحاء !

موكب الزفاف وحملة المشاعل

● **واذا** كانت التقاليد السالفة متباينة من مكان الى آخر ، فان مأدبة الزفاف كانت عادة عامة فى كل أرجاء اليونان .. وكان لكعك السمسم مكانة خاصة فيها ، فكان يعهد الى صبى وسيم الخلقة أن يحمل كمية منه ويدور بها على الضيوف ـ وهو عارى الجسد ، مزدان بالاشواك واوراق

شجر البلوط ــ مرددا : « لقد تجنبت الاثم ، ووجدت ما هو أحسن » !

وبعد الاكل وشرب الانخاب ، كانت العروس تحمل الى بيت عريسها فى مركبة تجرها الثيران ، أو البغال ، أو الخيل .. وتجلس فيها بين العريس وأصدق أصدقائه او اعز قريب لديه .. وبعد بلوغها البيت ، كان محور عجلات المركبة يحرق احيانا ، لكى تجنبها الآلهة أية رغبة فى مبارحة بيت الزوجية ! .. اما اذا كانت العروس ارملة تتزوج للمرة الثانية ، فكان العريس يبقى فى بيته ، بينما يرافقها اليه واحد من اخلص أصدقائه او اقربائه .

وكانت المشاعل عنصرا لا غنى عنه فى مواكب العرس ، تشعلها والدتا العروس والعريس ، ويحملها أفراد يرافقون العربة على أقدامهم .. وكان ثوب العروس يصنع من قماش مزركش بالألوان ، فى حين أن ثوب العريس كان يتخذ من أغلى أنواع الصوف الأبيض .. وكذلك كانت أثواب مرافقى الموكب . وكان العروسان يتوجان بتاجين مزخرفين وملونين .. وتضمخ العروس بالعطور ، ويرفرف فوق رأسها وشاح أحمر اللون .

وبينما يردد مرافقو الموكب نشيد الزفاف ، يستقبل الناس العروسين ــ فى الطرقات التى يجتازها الموكب ــ بالتهانى وامارات الاغتباط .. ويحيط الشباب بالموكب وهم يرقصون على أنغام القيثارات والمزامير .

ليلة الزفاف .. ومخدع العروسين

● **وكان** الشباب والشابات يتنافسون لاعداد مخدع العروسين وتزيينه بالأزهار ، فى احتفال يزيد من اهتمام القوم به ، أنهم كانوا يعتقدون أن ربة الحب تهبط بنفسها ــ وهى

تتألق جمالا وبهاء ــ لتتأمل حسن العروس ، وما للعريس من نضارة . فكان أصدقاء العريس ، وصديقات العروس ، يجتمعون فى بيت العريس ، وينهمكون فى اعداد المخدع واضفاء أبهى الزينات عليه . فاذا أقبل الليل ، احتفل المجتمعون بالمناسبة ، حول مأدبة حافلة .. حتى اذا لاح ضوء مشاعل موكب العرس ، انقسموا الى فريقين : فتيان وفتيات ، وأخذوا يتبارون فى الغناء لنجم الحب الوادع « هسبيروس »

وتبدأ الفتيات ، مرددات : « يا هسبيروس ، أنت أسوأ النجوم اللامعة فى السماء .. أنت تسرق كل ما لا تحيطه الرعاية العاشقة بحمايتها ، لذلك فان الحب يصبح يقظا وعلى حذر ، كلما أشرقت أنت .. »

.. ويتحداهن الفتيان ، فيمجدون النجم : **« هسبيروس ، يا أجمل النجوم اللامعة طرا ، يا من تجلب كل ما كان الفجر قد أقصاه ، تجلب الشاة وتجلب الماعز ، وتجلب الابن الى أمه ، وتجلب الفتاة الى الرجل . صحيح ان كل فتاة تقول : ((سابقى دائما عذراء)) ، ولكنها تفكر فى نفسها : أواه ، ليتنى أصبح زوجة صغيرة ! »)**

ويتراشق الشبان والفتيات بالأشعار والأغانى .. تعير الفتيات الرجال بأن الزوجات لا يجدن فى كنفهم سوى المتاعب النفسية وأعباء المسئوليات .. بينما يصف الشبان مدى حظ المرأة التى تتزوج ، فتجد فى زوجها العائل والمعين .. « فالكرم لا يثمر ما لم يحدث اللقاح .. وتعسا للعذراء التى لم تشعر يوما بلمسة العاشق ، فهى كالكرم المحروم » .

ولا يلبث العريس والعروس أن يتقدما الى القاعة المتألقة الأضواء ، فتنطلق من جميع الحناجر الهتافات : « مرحى العروس .. مرحى للعريس ! » .. ثم يعود الشبان والشابات الى تطارح الشعر والأغانى . وفى هذه المرة ، يطرى الشبان

جمال العروس ويمتدحون حسنها وعفتها .. وتتغنى الفتيات بنضارة شباب العريس ومحاسنه .

العروسان فى ((ليلة الاسرار))

● ويظل الغناء والرقص الى ساعة متأخرة من الليل ، ثم ينهض العريس فجاة ، فيحتضن العروس وهى تقاوم فى استحياء ، ويحملها بين ذراعيه ـ على سنن التقاليد البطولية ـ ويهرع الى المخدع ، يتبعه أخلص أصدقائه ليحمى باب المخدع من العذارى اللائى يحاولن استرداد واحدة منهن ، هى العروس .. وما أن يدخل العريس المخدع بعروسه ، حتى يوصد الباب بالرتاج ، ويهتف ساخرا بالفتيات : ((ارجعن ، فما أكثر الفتيات !)) .. ولكنهن اذ يقتنعن بعدم جدوى اقتحام الباب والتغلب على الحارس ، يشرعن ـ وسط الضحك والصخب ـ فى أغنية حجرة الزفاف ، التى تتضمن معانى من هذا القبيل :

((ماذا يا عريس ، هكذا مبكرا تنام ؟ .. أتراك اشتقت الى وسادتك ، أو أنك أفرطت فى الشراب ؟

((اذا كنت تستسلم للنعاس مبكرا ، فمن الخير أن تنام وحيدا .. وأن تترك العذراء مع العذارى ، تأوى الى جانب أمها الحنون حتى الفجر !

((تحت غطاء واحد ترقد معك ابنة ((زيوس العظيم)) وقد أصبحت سيدة لا تقع العين لها على نظير ..))

وتطول الأغنية ، وتنطلق لتجوس مجالات كثيرة ، ثم تنتهى بحديث طويل الى العذراء التى أصبحت زوجة ، يحثثنها فيه على اغراء العريس ، كما فعلت ((هيلين)) فاتنة الأبطال .. وأخيرا :

((فوداعا يا عروس ، ووداعا يا عريس .. ولتهبهما يا ((ليثو)) أطفالا كما تشاء ..

« ولتهبهما « سيبريس » حبا متعادلا متبادلا .. وليهبهما « زيوس » الرخاء ..
« ناما واستريحا .. وعلى اى الصدرين فلتتراقص انفاس الحب ..
« ناما الآن ، ولكن اذا ما طلع النهار ، فلا تنسيا ان تهبا من الرقاد ..
« لأننا سناتيكما مع الفجر .. وبمجـرد أن يرفع ديك عقيرته بالانشاد » .

على أنه لابد لأحلى ليالى العمر — « ليلة الأسرار » كما كان الاغريق يسمونها — من نهاية ، فليس الهناء المقيم من حظ البشر فى دنيا الفناء .. ومع مطلع اليوم التالى ، يستيقظ العروسان على الموسيقى والأغانى وهتافات الأهل والأصدقاء وهداياهم .. وفى ذلك اليوم ، تقام مأدبة كبيرة فى بيت والد العريس ، تمتاز بأنه ما من امرأة — حتى العروس — تحضرها !

المرأة فى البيت بعد الزواج

● وتبقى الزوجة بعد ذلك فى « الحريم » ، ولا تكون هناك حجرات مشتركة بين الزوجين ، عدا حجرة النوم ، وحجرة المائدة — مالم يستضف الزوج أحدا — فقد كانت عادة الزوجة الاغريقية الا تحضر المآدب التى تقام فى بيتها ، والا اعتبرت « غانية » أو « جليسة » ! ..

وليس معنى هـذا ، أن المرأة الاغريقيـة كانت مهيضة المكانة ، مقضيا عليها بملازمة المطبخ ، ورتابة الأعمال المنزلية .. بل يكفى لادراك مدى تقدير الاغريق لها ، ما ورد على لسان أحد أبطال المسرحيات القديمة : « ان الله يتجلى لنا فى الأم ، أكثر مما يكشف عن نفسه فى أى شىء آخر » . وبرغم هذه العزلة الظاهرية ، فقد كانت هناك ثلاثة عوامل تساعد المرأة — فى أزهى العهود الاغريقية — على أن تحظى بتفوق مادى

وأدبى على الرجل : التفوق العقلى فى بعض الأحيان ، والنزوع الفطرى الى النفوذ متحالفا مع ما لطبيعة المرأة من رقة ولطف ، و .. الدوطة الكبيرة .

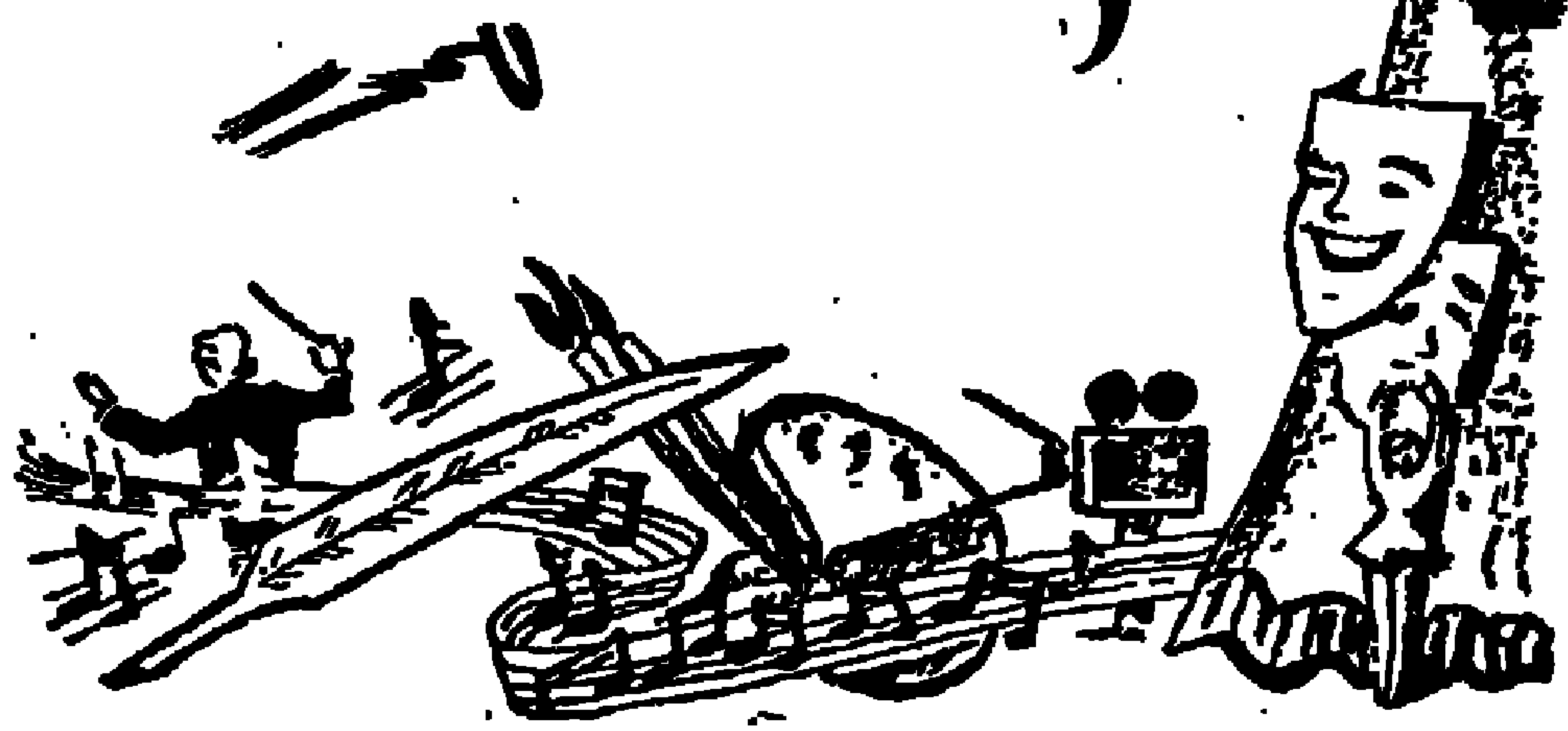
وكان بوسعنا أن نضرب مثلا بـ « اكسانثيب » زوجة « سقراط » ، لولا أن الأساطير والحكايات ظلمتها ، اذ أنها كانت زوجة رائعة ، لم تتجاوز قط الحدود المعينة للمرأة .. **على أن هناك ((أومفيل)) ـ ملكة ليديا ـ التى أوسعت ((هرقل)) اذلالا ، وهو أعظم وأمجد الأبطال .. فاضطرته الى ارتداء ثياب النساء ، وأن يجلس عند قدميها يمارس أشغال النساء ، بينما كانت هى ـ الملكة ـ ترتدى جلد أسد ، وتطوح بهراوة ضخمة فى الهواء ، فوق رأس البطل الذليل .. وتضع قدمها ـ الغائبة فى نعلها ((الشبشب)) ـ فوق عنقه . ومن ثم أصبح ((الشبشب)) رمزا للوضع المشين للزوج الذى يخضع لزوجته ، كما أصبح أداة للزوجات الشرسات .. لتأديب أزواجهن !**

ولسنا نجد فى تراث الاغريق ما يبرر اللوم والتثريب ، على رجل مل رتابة الحياة الزوجية ، فأخذ ينشد التغيير بين أحضان امرأة ذات ذكاء وثقافة ، أو فى مداعبات صبى أو غلام .. ذلك لأن الاغريق ـ فى تلك العصور ـ لم يكونوا يتصورون أن مجرد الزواج معناه الحرمان من الاستمتاع بالجمال ، ولا كانت أية زوجة ترتقب هذا من زوجها .. وان كان بين الفلاسفة والمصلحين ، فئة قليلة العدد جدا ، طالبت بالمساواة بين الزوجين أمام القوانين الأخلاقية ـ مثل « ايسوقراط » ـ كما طالب « أريسطوطاليس » بحرمان الرجل من حقوقه المدنية « اذا ضبط وهو يجامع امرأة غير زوجته ، أو رجلا » .. على أن هؤلاء الدعاة كانوا قلة ، فلم تخرج دعواتهم الى حيز التنفيذ .

وفى العدد القادم حلقة جديدة من هذه الدراسة الممتعة



دراسات ومطالعات



اضواء جديدة على شخصية مؤلف ((مدام بوفارى))

استطاع ((كتابى)) ان يحصل على صفحات مجهولة من حياة الاديب الفرنسى الكبير ((جوستاف فلوبير)) ، مؤلف الروائع الادبية التى خلدت اسمه بين اعظم ادباء القرن التاسع عشر ، وفى مقدمتها (مدام بوفارى) ، التى قدمت ((مطبوعات كتابى)) ترجمة امينة كاملة لها ، فى عدديها : ٩ ، ١٠ .

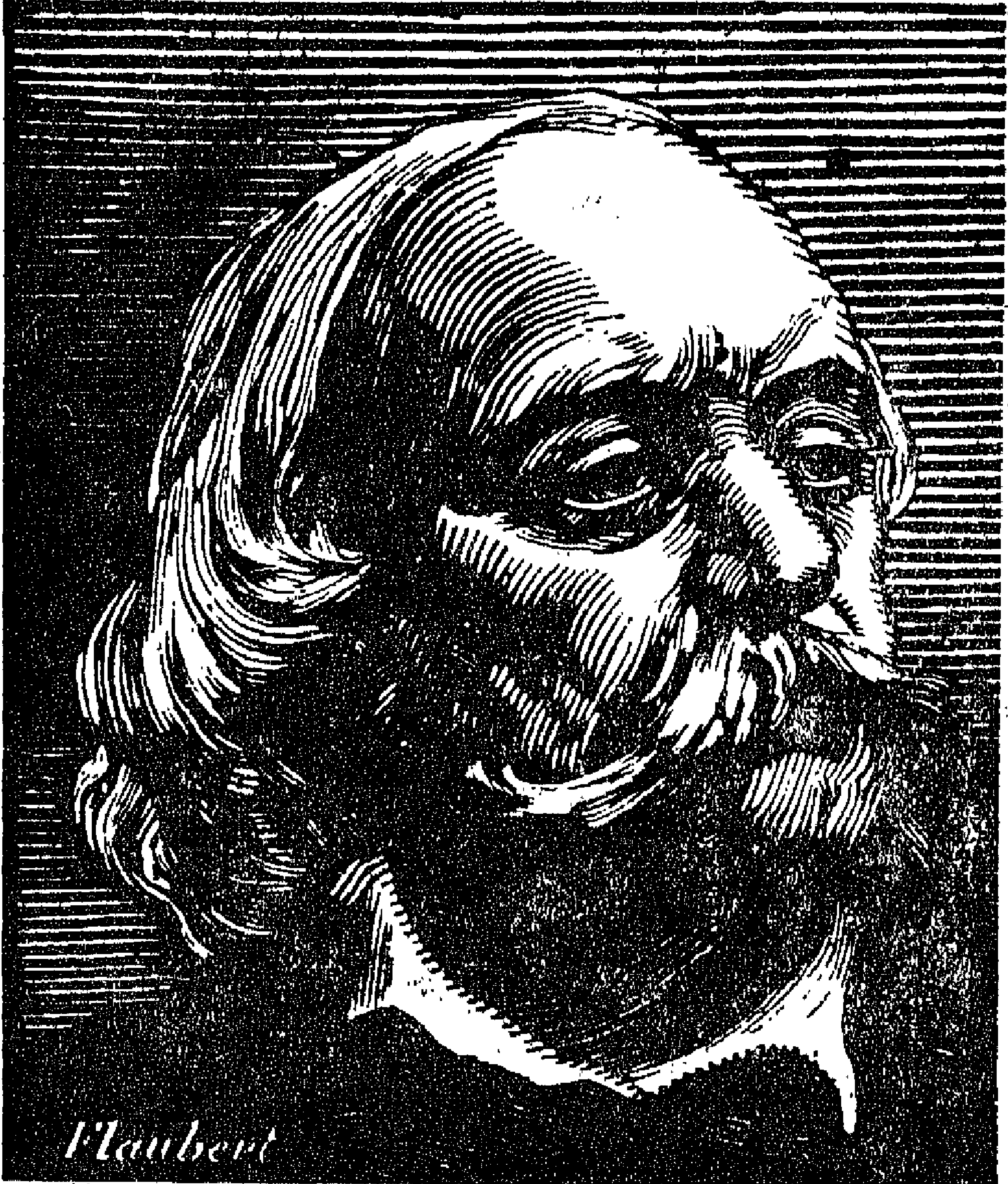
ومن هذه الصفحات المجهولة التى عثر عليها (كتابى) فى احد الكتب النادرة ، اخترنا لك ـ فيما يلى ـ ما تعلق برحلة قام بها ((فلوبير)) الى مصر ، منذ ١٢٠ سنة ، اى فى سنة ١٨٤٩ على التحديد .. وهى صفحات تضمنت رسائل الى امه واصدقائه ضمنها ادق الاوصاف للمغامرات والمشاهدات والانطباعات التى مرت به فى الرحلة التي طاف خلالها بارجاء مصر حتى اقاصى الصعيد ، وصور بيزاعة ورشاقة ما كانت عليه الحياة ـ اذ ذاك ـ فى هذه البلاد التى طالما حلم بزيارتها .. وتتخلل الرسائل بعض صفحات من مذكرات ((فلوبير)) ـ اثناء الرحلة ـ ومما كتب زميله فيها ((مكسيم دوكان)) ، فى كتابيه ((ذكريات ادبية)) و ((النيل ومصر والنوبة)) ..

فتعال معى نعش مع ((فلوبير)) فى : بولاق ، والاسكندرية ، ورشيد ، وفى السفينة النيلية التى حملته الى الصعيد .. ثم نصاحبه فى مغامراته الغرامية مع ((الغوازى)) ونساء الهوى : مع ((كوجك هانم)) فى (اسنا) ، ومع الراقصة التى قضى ليلة فى مخدعها باحد شوارع القاهرة الجانبية .. الخ .

ولنبدأ معه الرحلة من اولها : منذ قضى اياما قبل السفر مشغولا من وداع امه ـ التى كان تعلقه بها ((مرضيا)) ! ـ حتى ارسلها الى اسرتها فى (نوجان) ، لتقوى على فراقه ، ولينتزع نفسه من حنانها الغامر ، فيبدأ رحلته باكيا فى ٢٥ اكتوبر عام ١٨٤٩ :

فلوبير.. في مصر!

صفحات نادرة من مذكرات الأديب الفرنسي الكبير
عن رحلته الطويلة في ربوع مصر، منذ ١٢٠ سنة



بقلم : حلمي مراد

لوعته لفراق أمه ، فى بداية الرحلة !

كان ذلك اليوم (الخميس ٢٥ أكتوبر) يوما فظيعا .. أسوأ يوم مر بى . ولم يكن مقررا أن يكون رحيلى قبل بعد الغد ، ولكنى صممت على السفر فورا ، وحددت الساعة الخامسة موعدا لانطلاقى ، ولكن الساعة بدت وكأنها توقفت عن السير . ووضعت قبعتى فى قاعة الجلوس ، بينما أرسلت حقيبتى الى المحطة لتسبقنى ..

وتأهبت للرحيل .. كانت أمى جالسة فى مقعد كبير بجوار المدفأة .. وفى غمرة تدليلى اياها وحديثى معها ، قبلت جبينها فجأة ، واندفعت مغادرا الحجرة ، ثم تناولت قبعتى ، وأسرعت أبارح البيت .. ولكم صاحت معولة وأنا أغلق باب حجرة الجلوس ورائى .. لقد ذكرتنى ساعتئذ بصراخها يوم أمسكت يدى أبى فوجدته قد فارق الحياة !

كانت عيناى جافتين .. ولم يساورنى اى انفعال ، اللهم الا شىء من الاضطراب العصبى ، ونوع من الغضب ..

وفى مدخل المحطة ، صادفت قسا وأربع راهبات .. فال سيىء ! .. وكان ثمة كلب يعوى بنواح كئيب ، على مقربة من البيت ، طيلة الأصيل .. لكم أحسد أولئك الأقوياء الأعصاب ، غير المتطيرين ، الذين لا ينتبهون لأمور كهذه ، فى مثل هذه اللحظات !

وبينما كنت مع خالى « باران » ، فى قاعة الانتظار بالمحطة ، ظهرت الخادم « أوجينى » فجأة ، وهتفت به وعبراتها تنهمر : « ان مدام فلوبير تريدك يا مسيو باران .. لقد انتابتها هستيريا ! » .. وهرع خالى اليها .. ولم تمض لحظات ، حتى وصل القطار ، فركبته .. فى طريقى الى الشرق البعيد ، الذى طالما حلمت به !

من نوجان الى باريس : يا لها من رحلة ! .. كنت بمفردى

فى المقصورة ، فأغلقت النوافذ ، ورفعت منديلى الى فمى ، ورحت أبكى .. وأعادنى صوت نشيجى الى الصواب ، بعد قليل . ولكن الشهقات ما لبثت أن عاودتنى من جديد ، الى ان شعرت بدوار أثار خوفى ، فأخذت أهدىء نفسى ..

فى مونترو : دخلت مطعم المحطة ، فتناولت ثلاث أو أربع كؤوس من « الروم » ، لا لأحاول النسيان ، وانما لمجرد أن افعل شيئا .. أى شىء !

ثم اتخذ شقائى شكلا آخر ، فخامرتنى فكرة العودة من حيث اتيت ! (وكنت فى كل محطة أوشك أن اغادر القطار ، ولكن خوفى من أن أكون جبانا منعنى من ذلك) ..

الوصول الى باريس : كان لزاما ان احزم امرى قبل أن أصل الى بيت صديقى « مكسيم ديوكان » .. ولم أجده فى البيت ، ولكنى وجدت خادمه .. وعاد « مكسيم » فى منتصف الليل ، وكنت أحس بخور العزيمة ، والتردد ، فقال ان الاختيار متروك لى .. وقررت — فى النهاية — الا اعود الى (نوجان) .. وفى الساعة الواحدة صباحا — بعد ساعات من اللوعة والبكاء اللذين لم يسبب لى مثلهما أى فراق من قبل — كتبت رسالة الى أمى ..

وعشت اليومين التاليين فى لهو مفرط : مآدب عشاء هائلة ، وكميات من الخمور ، وزيارات للمواخير .. ان الملذات الحسية ليست بمعزل بذكر عن الانفعالات ، وقد كانت أعصابى المضناة فى حاجة الى استرخاء !

٨ خطابات الى امه .. فى اسبوع !

(من فلوبير الى امه) : باريس فى ٢٦ أكتوبر ١٨٤٩

الساعة الواحدة صباحا : لعلك نائمة الآن يا حبيبتى المسكينة . لا بد انك بكيت الليلة كثيرا ، كما بكيت انا ..

أخبرينى عن حالك . لا تخفى عنى شيئا ، لأننى اذا قدر لى أن أعرف ــ فيمابعد ــ ان رحلتى هذه كانت أكثر مما تتحملين حقا ، فسوف يجتاحنى ندم رهيب .

ان « ماكس » عطوف جدا ، فلا داعى لخوفك . لقد وجدت جوازات سفرنا جاهزة ، وكل شىء يسير على مايرام ، وهذا فأل طيب .



تمثال لوالدة فلوبير « مدام اشيل كليوفاس فلوبير » كمـــا بدت فى « قنـــاع الموت »

وداعا .. هذه رسالتى الأولى ، وسوف تتبعها رسائل اخرى ، عما قريب . سأبعث اليك غدا بواحدة أطول . وانت ؟.. اكتبى لى مجلدات .. أفيضى فى رسائلك الى ! وداعا .. اننى أضمك الى أحضانى ، وقلبى يمتلىء بك .. ألف قبلة .

كان حبا عجيبا بين « فلوبير » وامه .. ولم تنقض سويعات على الرسالة السالفة ، حتى كتب لها رسالة ثانية .. وتوالت خطاباته حتى بلغت ثمانية ، منذ وصوله الى باريس حتى صعوده الى السفينة فى (مرسيليا) .. ومما جاء فى رسالته الثانية الى امه :

« انقضى يوم يا حبيبتى البائسة ، لعله أسوأ الأيام .. اننى لا انفك أتمثل وجهك الحبيب الحزين .. ان « ماكس » مثال الكرم والعطف ، حتى انه عرض أن يدبر لى السفر بالقطار اذا ارتأيت العودة الى (نوجان) . ونحن متفاهمان على ان اعود بمجرد مشاهدتنا مصر ، اذا لم نكن بخير ، أو اذا شعرت بأننى لا أطيق البقاء بعيدا عنك ، أو اذا أنت دعوتنى للعودة . فلا تعذبى نفسك ، ولا تخافى ، اذ أننى أشعر بأن الحنين للعودة اليك سيذلل لى كل شىء . أواه ! لكم سأضمك فى أحضانى ، عند عودتى ، يا حبيبتى ! »

وبرغم ما تصوره رسائله من فرط حبه لامه ، وشدة أساه لفراقها ، فان صديقه ـ وزميله فى الرحلة ـ « مكسيم دوكان » يمدنا بصورة أبلغ ، فى هذه الصفحات من كتابه (ذكريات ادبية) :

الرحلة الى مصر

عند عودتى فى تلك الليلة ـ ٢٦ أكتوبر ـ أبلغنى خادمى ان فلوبير جاء خلال فترة غيابى خارج البيت .. فلما دخلت غرفة مكتبى ، لم أره لأول وهلة ، ثم تبينته ـ بعد برهة ـ مستلقيا بطوله فوق جلد دب أسود ، أمام خزانة للكتب ..

وخلته نائمـا ، ولكنى سـمعته يتنهـد . لم اكن رايت قط انسـانا مسـتلقيا بجسـمه المديد على هـذه الصـورة ، لا سيما أنه ضخم الجسم ، قوى البنية . واذ سألته ، قال بلهجة باكية : « لن يقدر لى أن أرى أمى أو وطنى ثانية . فهذه الرحلة طويلة كل الطـول ، بعيـدة كل البعـد .. يا للجنون ! لماذا نقوم بها ؟ ! »

وشعرت باستياء . وأخبرنى بانه ترك حجرة مكتبـه فى (كرواسيه) ، تماما كما لو كان عائدا اليها فى اليوم التالى : على المكتب كتاب مفتوح عند آخر صفحة قراها ، وعلى المقعد رداء الحجرة ، وبقرب الأريكة نعلاه !

وهيأت له ــ فى تلك الليلة ــ كل ما يشفيه من هذه الحال من التردد والتقاعس ، ولكننى فى الصباح التالى دخلت عليه حجـرته قبـل أن يبـرح الفـراش ، وقلت له : « ليس هناك ما يلزمك بالرحيل معى . فاذا كنت ترى أن الرحلة اكثر مما تطيق ، فعليك أن تتخلى عنها . وسأرحل وحدى » . ولم يدم صراعه لنفسه طويلا ، بل صاح : « كلا .. سأكون مدعاة للسخرية الى درجة لا أجسر معها على تأمل وجهى فى المرآة ثانية ! »

وفى الثامن والعشرين من اكتوبر ، أقمنـا مأدبة عشـاء للوداع ، فى احدى الحجرات الخاصة بمطعم « الاخوة الثلاثة الريفيين » فى حى (باليه رويال) ، جمعتنا ــ أنا وفلوبير ــ بتيوفيل جوتييه ، ولوى دى كورمنان ، وبوييه .. وأمضينا المساء فى حديث عن الفن والأدب والعالم القديم .. **واستخف الحماس « فلوبير » فتحدث عن اكتشاف منابع النيل ، بينما راح « جوتييه » يحثنى على اعتناق الدين الاسلامى ، ويمنينى بتقبيل الحجر الأسود فى مكة ، وبارتداء الثياب الحريرية .. أما « لوى دى كورمنـان » فكان مكتئبا لرحيلى .. وراح**

« بوييه » يقرض طرف سيجاره فى سكون ، بعد أن طلب منا أن نذكره حين نقف أمام آثار كليوباترا !

ثم بدأنا رحلتنا من باريس الى مارسيليا ، وكانت طويلة ـ اذ لم يكن لقطار « الاكسبريس » وجود فى تلك الأيام ـ وفى اليوم التالى ركبنا عربة البريد ، ثم الباخرة من (شالون) الى (ليون) ، ثم استقللنا سفينة (الرون) حتى (ڤالنسيا) ، حيث توقفنا بسبب الضباب . ومن هناك ركبنا عربة الى (اڤنيون) . . وأخيرا أخذنا القطار الى (مارسيليا) فى اليوم الأول من نوفمبر .

وفى الرابع من الشهر ـ وكان يوما ردىء الجو ، ملبد الغيوم ـ صعدنا الى السفينة «النيل» ، وهى سفينة تجارية قوتها ٢٥٠ حصانا ، كانت تهتز كأنها شخص ثمل ، وهى تمضى ببطء الى الأمام .

ولا أستطيع أن أقول ان « فلوبير » لم يعد الى اكتئابه ، فقد وقف طويلا منحنيا على أحد حواجز السفينة ، يحدق فى ساحل (بروڤانس) وهو يختفى رويدا وسط الضباب . . وبعد أحد عشر يوما من الرياح والأمواج العالية ، لمحنا شاطىء . . مصر !

من فلوبير الى أمه

مالطة ـ من على ظهر السفينة « النيل »

ليلة الأربعاء ـ الخميس : ٧ ـ ٨ نوفمبر ١٨٤٩

. . . كان وجه « مكسيم » من أكثر الوجوه مدعاة للضحك ! . . لم يكن ـ الفتى المسكين ـ يتوقع أن يكون هو المريض ، فعهد بى الى رعاية طبيب السفينة ، مع أننى لم أشعر قط بلحظة تعب واحدة ، فى حين أنه لم يتوقف عن المعاناة لحظة واحدة ! . .

وفى اليوم الخامس عشر من نوفمبر ، وصلا الى الاسكندرية .. ومن هناك ، كتب « فلوبير » الى امه فى ١٧ نوفمبر :

« بينما كنا على مبحرة ساعتين من ســـاحل مصر ، توجهت نحو مقدمة السفينة مع ضابطها ، فرأيت « سراى » عباس باشـــا تبـــدو كقبة صماء فوق زرقة البحر الأبيض المتوسط ، والشمس تصليها نارها ..

« كانت نظرتى الأولى الى الشرق ، من خلال ضوء متالق اشبه بفضة مذابة فوق سطح البحر .. وسرعان ما تجلى الشاطىء للانظار ، فكان اول ما رايناه على اليابسة جملين يقودهما حاديهما ، ثم تراءى رصيف الميناء يعلوه بعض اعراب يصيدون السمك فى هدوء ..

« وهبطنا الى البر وسط ضجيج لا يتصوره أحد .. سمر وسمراوات ، إبل وعمائم ، هراوات تطيح يمينا ويسارا ، صيحات من الحناجر تمزق الآذان ، ألوان تفيض بغـــزارة وسخاء .. والضرب بالهراوات يلعب هنا دورا كبيرا ، فكل ذى ثياب نظيفة ، يضرب كل ذى ثياب قذرة .. وعنـــدما اقول ثيابا ، فانما اعنى السراويل القصيرة .. وكم من سادة ترينهم يتسكعون فى الشوارع ، وليس عليهم سوى اقمصة وسراويل طويلة !... وكل النســـاء محجبات ـــ عدا أدنى الطبقات ـــ وتتدلى من أنوفهن حلقات معدنية تهتز من جانب الى آخر .. انك لتجدين الحشمة تغير مواقعها ، كلما انتقلت من بلد الى آخر ، وكأنها مسافر تملكه الملل فأخذ يتنقل من مقعد الى آخر فى المركبة !

« ومن أغرب الأمور هنا ، ذلك الاحترام ـــ أو بالأحرى الهـــلع ـــ الذى يظهره الجميع فى حضرة « الافرنج » ، كما يسمون الأوربيين .. وتكاد الاســـكندرية تكون مدينـــة أوربيـــة ، تزخر بالانجليز والأوربيين وغيرهم .. وقد رأينـــا

بالأمس موكبا رائعـا ، احتفالا ب « طهور » ابن لأحد التجار الأغنياء . كما رأينـا فى الصـباح مسلتى كليوباترا (وهما مسلتان هائلتان على شاطيء البحر) ، وسنرحل غدا الى رشيد ، ونعود خلال ثلاثة أيام أو أربعة .. اننا نطوف ببطء ــ دون ارهاق ــ ونعيش بتعقل ، ونرتدى ثيابا من « الفانيلا » برغم أن الحرارة داخل المبانى تصل الى ٣٠ درجة أحيانا .. أما الرمد فلا يتفشى الا بين الذين يعيشون فى أزرى الظروف .. ومن ثم فلا تخافى يا أماه ، وتجـلدى ، فسـأعود فى خير حال » .

وعاد « فلوبير » يكتب الى امه من الاسكندرية ، فى ٢٣ نوفمبر ، يصف الرحلة الى رشيد :

« انطلقنا فى فجر يوم الأحد الماضى ، على صهوات جيادنا ، فى ثياب الركوب وقد حملنا الأسلحة ، يصحبنا أربعة رجال يعدون وراءنا ، و « ترجمان » يمتطى بغلة ويحمل معاطفنا وزادنا . ان الصحراء تبدأ عند أبواب الاسكندرية مباشرة : تلال صغيرة من الرمال هنا وهناك ــ فى البداية ــ تكسوها أشجار النخيل ، ثم تمتد الكثبان الى ما لا نهاية ..

« وفى مكان يدعى (ادكو) ــ ستجدينه على خريطتك ــ ركبنا « معدية » ...

« وفى السادسة مساء ــ بعد غروب جميل بدت فيه السماء كطلاء أحمر مذاب ، ورمال الصحراء كالحبر ــ وصلنا الى (رشيد) ، فاذا كل أبوابها مغلقـة ، ولكنها فتحت بمجرد سماع اسم حاكم المدينة « سليمان باشا » ..

« وكانت الشوارع مظلمة ، ضيقة لا تكاد تسمح بمرور أكثر من رجل واحد فوق جواده . واخترقنا الأسواق ، فاذا كل حانوت مضاء بمصباح زيتى من الزجاج ، يتدلى بحبل .. حتى وصلنا الى الثكنات ..

واستقبلنا الباشا (سليمان باشا) وهو قابع على أريكته يحيط به رجال سود أحضروا لنا القهوة والغلايين .. وبعد مديد من التحيات والمجاملات ، قدموا لنا العشاء ، ثم صحبونا الى الأسرة التى سننام عليها ، وكانت مجهزة « بناموسيات » ممتازة .

« وفى الصباح التالى ، جاء « الباشا » الى غرفتنا ونحن نغتسل ، يتبعه طبيب الفرقة .. وهو ايطالى يتحدث الفرنسية بطلاقة ، وقد قدم لنا تحية المدينة ، وأمضينا بفضله يوما ممتعا جدا . وعندما عرف اسمى ، وعلم باننى ابن طبيب ، قال انه سمع عن أبى .. وقد احسست ببعض الارتياح يا أمى العزيزة ، عندما رايت أن ذكرى ابى مازالت تفيدنى وترعانى على هذا البعد !

« أجل يا عزيزتى المسكينة .. اننى أفكر فيكما معا باستمرار . وفى الوقت الذى يمضى فيه جسمى فى رحلته ، تظل أفكارى تلتفت الى الوراء ، وتدفن نفسها فى أيام مضت .. »

من مذكرات « فلوبير » خلال الرحلة

ليلتنا الأولى على النيل : اشعر بارتياح واحساس شاعرى ، حتى اننى أردد أبياتا من شعر « بوييه » ، ولا أستطيع أن آوى الى فراشى ، فاظل أفكر فى « كليوباترا » ! ان الماء أصفر رقراق ، والنجوم فى السماء قليلة . لقد لففت نفسى جيدا فى عباءتى . واستغرقت فى النوم على فراشى الصغير فوق المركب ..

استيقظت قبل « مكسيم » ، فلما استيقظ ، مد يده اليسرى ـ بطريقة لا شعورية ـ ليطمئن الى وجودى !

كانت الصحراء تمتد على أحد جانبى النهر ، بينما تكسو الجانب الآخر مروج خضراء ، تشبه من بعيد ـ بما

يتخللها من أشجار الجميز ـ سهول نورماندى التى تزخر بأشجار التفاح .. والصحراء رمادية مشوبة بحمرة .. لقد بدا أمامنا هرمان ، ثم تلاهما هرم أصغر حجما .. والى يسارنا ظهرت القاهرة قابعة فوق تل ، وقبة مسجد محمد على ، تمتد وراءها تلال المقطم الجرداء ..

وصلنا الى بولاق .. هرج وارتباك عند الهبوط الى الأرض ، ولكن الضرب بالهراوات أقل منه فى الاسكندرية قليلا .. ومن بولاق الى القاهرة ، يمتد طريق على نوع من الجسور تحف به أشجار السنط ، حتى وصلنا الى الأزبكية .. مناظر طبيعية رائعة .. أشجار ... خضرة !

حجزنا غرفا لنا فى فندق الشرق (لوريان) .

ومن القاهرة ، كتب فلوبير الى أمه مزيجا من الاحاديث عن رحلته ، وعن صحته ، وثيابه ، وعن الفوارق بين عاصمتى مصر ، التى قال فى وصفها « ان الاشتراكية ليست قريبة منها » .. وكانت نبوءته قبل قيام الاشتراكية فى مصر بقرن واعوام لاتتجاوز عدد اصابع اليد الواحدة .. قال :

القاهرة فى ٢ ديسمبر ١٨٤٩ :

ها نحن أولاء فى القاهرة يا حبيبتى المسكينة ، حيث سنبقى على الأرجح طوال شهر ديسمبر .. الى أن يعود الحجاج من مكة ، بعد ما يزيد قليلا على ثلاثة أسابيع . سنهتم بزيارة القاهرة بعناية ، وسنحمل أنفسنا على أن نسجل شيئا كل مساء ..

وحوالى أول يناير ، سنستقل سفينة نيلية وننطلق الى أعلى النهر لمدة ستة أسابيع ، ثم نرتد الى أسفله ، ونعود الى هنا بعد ذلك . ان الرحلة الى أعالى مصر ميسرة تماما ، خالية من أى خطر ، لا سيما فى هذا الفصل من السنة ، عندما لا تكون الحرارة شديدة .

واذا اردت معرفة ما أرتديه هذه الأيام يا حبيبتي



مكسيم دوكان ، صديق « فلوبير » الحميم ، ورفيقه في رحلته الطويلة الى مصر ، عام ١٨٤٩ (منذ ١٢٠ سنة)

السكينة ، فاعلمي أنني أرتدي حزاما من ((الفانيلا)) حول جسمي ، وقميصا وثيابا داخلية من ((الفانيلا)) ، وبنطلونا سميكا ، وصدارا دافئا ، ووشاحا كبيرا حول العنق .. فضلا عن معطف . وفوق هذا ، اضع تحت طربوشي الأحمر طاقيتين بيضاوين كل صباح ومساء .

ان الشرق يبدأ من القاهرة ، اذ أن الاسكندرية تزخر بالأوربيين الذين لا يحتفظون لها بطابع محلي بحت .. هنا لا تجدين من القبعات غير القليل .. اننا نطوف بالأسواق والمقاهي والمساجد ، ونرى المهرجين .. وهم أولئك الممثلون الهزليون المتجولون ، الذين يتمتعون بمواهب كبيرة ، ولكن فكاهاتهم تتخطى الأدب ..

ومن أوائل زياراتنا ، زيارة لسوق العبيد .. اى احتقار للجسم البشرى ! .. ان الاشتراكية ليست قريبة فى مصر !

لكم يستغرقنى الاعجاب بالجمال التى تجتاز الشوارع باستمرار ، وترقد بين الحوانيت فى الأسواق !

وكان فلوبير يسجل فى مذكراته مايكتبه لامه ، وفى هذه الصفحة يروى قصة مغامرة نسائية رخيصة فى القاهرة :

مغامرة نسائية . فى القاهرة !

فى بيت بشارع صغير خلف فندق (لوريان) ، اصطحبونا الى غرفة كبيرة فى طابق علوى .. كانت تبرز منه ــ فوق الشارع ــ مقصورات تتخلل كل جانب منها نوافذ صغيرة لا يمكن اغلاقها . وفى مواجهة المقصورة نافذة كبيرة دون اطار أو زجاج ، تتراءى خلالها نخلة .. وعلى أريكة كبيرة الى اليسار ، تربعت امرأتان ، بينما وضعت زجاجة من « العرقى » ومصباح فوق شىء يشبه رف المدفأة .

ونزلت أولى المرأتين .. « لاتريستينا » .. كانت صغيرة الحجم ، شقراء ، ذات وجه أحمر ، وشفتين غليظتين ، وأنف

افطس .. وكانت مرحة ، بهيمية ! .. أما الثانية فكانت ذات عينين سوداوين واسعتين ، وأنف مستقيم ، يبدو عليها الضيق والاكتئاب ، لعلها كانت عشيقة واحد من الأوربيين.. كانت تفهم كلمتين أو ثلاثا من الفرنسية !

وكانت « لاتريستينا » شديدة الخوف من البوليس ، وقد توسلت الينا الا نحدث أى صخب ، فان الوالى عباس باشا يقسو على النساء ، لأنه مولع بالرجال !

وكان الرقص والموسيقى محرمين فى هذا البيت ، ومع ذلك فقد نقرت « لاتريستينا » على المائدة باصابعها ، بينما رقصت الأخرى بعد أن أحاطت الجزء الأسفل من ردفيها بوشاح .. أدت رقصة سكندرية ، كانت ترفع خلالها يديها الى جبينها بالتثاوب .. ثم رقصة أخرى بسطت فيها ذراعيها الى الأمام ــ واحداهما أعلى قليلا من الأخرى ــ وظل جذعها بلا حراك ، بينما أخذ ردفاها يرتعشان !

وكان لابد من انتزاع عدد من القطط الصغيرة من الفراش .. ولم تخلع « هاديلى » ــ وهو اسم المرأة الثانية ــ سترتها ، وأفهمتنى بالاشارات أنها تعانى ألما فى صدرها ..

وفيما كانت تتقدمنى ، استمتعت بسماع حفيف ثيابها ، ورنين العملات الذهبية التى تزين شعرها .. جسم سليم ، وقسماته واضحة ، فى ضوء القمر .. وكانت تحمل مشعلا !

.. وفى الفراش ، كان جسمها بدينا فى غير ترهل ، أسمر ، خاليا من الشعر والشحم .. ثم ساعدتنى على ارتداء ثيابى ، ولم أفهم كلماتها العربية اذ راحت تسألنى وترتقب الاجابة .. وخيل الى أن عينيها تغوصان فى عينى ، وعينى تغوصان فى عينيها ، وقد تضاعف تركز نظراتها .. وتولى جوزيف (الترجمان) الشرح .. كانت عملية جنسية بمعونة مترجم !

ويعود « فلوبير » فى الصفحة التالية من مذكراته خلال الرحلة ، فيصف طوافه بأهم معالم القاهرة التاريخية :

الأهرام : انطلقنا عند الظهيرة من يوم الجمعة .. « مكسيم » على جواد أبيض لم يكف عن أن يهز رأسه ، و « ساسيتى » ــ خادم مكسيم ــ على جواد أبيض كذلك ، وأنا على فرس سمراء ، وجوزيف (الترجمان) على حمار .. وعند الجيزة ، رأينا مرجا شاسعا ، شديد الخضرة ، يمتد أمامنا ، تتخلله مربعات من التربة السوداء ، هى القطع التى حرثت حديثا وانحسر عنها الفيضان .. وهنا وهناك ، كان بعض الجاموس يرعى .. ومن آن الى آخر ، كانت خيولنا تغوص فى جداول موحلة ، نضب ماؤها .. ولا نلبث أن نخوض بركا أو جداول مائية .

وبلغنا حافة الصحراء تقريبا ، حوالى الساعة الثالثة والنصف ، فاذا الأهرام تنتصب أمامنا شاهقة . ولم أعد أملك زمام نفسى ، فدفعت مهمازى فى بطن جوادى ، فانطلق راكضا ، وهو ينثر ماء المستنقع .. وحذا « مكسيم » حذوى بعد دقيقتين .. كان سباقا عنيفا . وأخذت أصرخ بالرغم منى ، ونحن نصعد المرتفع مسرعين الى « أبى الهول » ، تحف بنا سحب من الرمال .. وتبعنا مرافقونا من الأعراب فترة ، وهم يصيحون ويشهقون .. وأخذ « أبو الهول » يكبر رويدا ، ولاح أنه ينهض من الأرض ككلب يرفع جسمه على ذراعية ..

مشهد أبى الهول : أبو الهول أى أبو الرعب . الرمال ، الأهرامات الثلاثة : كلها سمراء اللون ، تسبح فى ضوء وردى .. والسماء صافية الزرقة ، والنسور تحوم ببطء فوق قمم الأهرام .

وتوقفت أمام أبى الهول . لقد بدا وكأنه يحدجنا بنظرة مروعة ، فشحب وجه « مكسيم » تماما ، وخشيت أن أروح فى غيبوبة ، فحاولت التغلب على انفعالى .. وانطلقنا مبتعدين

بسرعة جنونية ، ثم درنا ببطء حول قاعدة الأهرام .. لقد تأخر وصول امتعتنا ، وأخذ الليل يرخي سدوله ..

. . . . . .

ثم نصبت الخيمة ، وقدم العشاء على ضوء مصباح صغير ، يتدلى من عمود الخيمة .. وكانت بنادقنا مكومة بجوارنا .. وجلس الأعراب حول النار ، أو ناموا تحت اغطيتهم فى حفر صنعوها فى الرمال بأيديهم ، فبدوا وكأنهم جثث هامدة فى أكفانها .. واستغرقت فى النوم داخل عباءتى ، وأنا أتأمل كل هذه الأشياء ، بينما كان الأعراب يرددون أغانيهم الرتيبة .. واسمع احدهم يروى حكاية .. هكذا حياة الصحراء !

فى الساعة الثانية أيقظنا « جوزيف » ، معتقدا أن الفجر قد بزغ ، غير أنها كانت مجرد سحابة بيضاء فى الأفق المواجه لنا . ودخنت غليونى على ضوء النجوم ، متطلعا الى السماء ، وعواء ابن آوى يتردد !

استيقظت فى الخامسة صباحا ، وكنت الأسبق ، فاغتسلت أمام الخيمة فى دلو من القماش السميك .. وكنا نسمع عديدا من أبناء آوى تعوى .. وانطلقنا لتسلق الهرم الأكبر ، الهرم الذى الى اليمين ، هرم خوفو .. كانت الأحجار ــ التى لاحت من مسافة مائتى خطوة فى حجم احجار رصف الطرق ــ كتلا ارتفاع كل منها ، بل ارتفاع أصغرها ، ثلاث أقدام ! .. وتسلقنا عند الركن الأيسر ، فى مواجهة هرم خفرع .. كان الأعراب يرفعوننى ويسحبوننى .. واصابنى الاعياء بسرعة ، فهى محاولة مرهقة للغاية .. لقد توقفت خمس مرات أو ستا فى طريقى الى أعلى ، وسبقنى « مكسيم » الذي بدأ التسلق قبلى .. وأخيرا وصلت الى القمة .

وعلى جانب الهرم الذى غمرته أشعة الشمس البازغة ، رأيت بطاقة مثبتة الى الصخر ، وقد كتب عليها : « همبرت

ـ مقاول بياض » ! . . كان « مكسيم » في حالة يرثى لهـا ، حتى اوشكت أنفاسه أن تنقطع . . فقد سبقنى الى التسلق ليقرأ هذه البطاقة !! . . وكم من أغبياء كتبوا اسماءهم فى كل مكان : « بيفار ــ ٧٩ شارع سان مارتان ــ صانع ورق الجدران » . . وبحروف سوداء كتب أحد الإنجليز : « جينى ليند » . . كل الأسماء تقريبا حديثة ! . . وكان الهبـوط سهلا عند الركن الآخر .

وبعد الافطار زرنا جوف الهرم : ممر املس مستو ــ اشبه بأنابيب المجارى ــ تهبط فيه لتجد ممرا آخر ، يصعد الى أعلى . . وكنا ننزلق فوق مخلفات الخفافيش . ويبدو أن هذين الممرين صنعا لتيسير سحب التوابيت الضخمة ببطء الى أماكنها .

وبينما كنا نخرج ــ زحفا على أيدينا وركبنا ــ من أحـد الممرات ، التقينا بجماعة من الانجليز فى طريقهم الى الداخل . .

ولم تقتصر رسائل « فلوبير » ــ خلال رحلته ــ على ما كتب لامه ، فقد كان يكتب لاصدقائه من آن لآخر . . وهذه رسالة منه الى « لوى بوييه » :

القاهرة فى نهاية ديسمبر ١٨٤٩ :

لم نر بعد أية راقصة ، فهن جميعا مبعـدات الى مصر العليا ، غير اننا رأينا رجالا يرقصون . .

فى أقصى قاعة المائدة بالفندق ، يعزف ثلاثة أو أربعـة من الموسيقيين على أدوات غريبة ــ سنحضر بعضها عند عودتنا ــ بينما يمضى أحد السادة فى استكمال عشائه ، وقد جلس بقيتنا على أريكة ندخن الغلايين . . أما الراقصان ، فتصور وغدين على درجة بالغـة من البشـاعة ، وان كانا فاتنين فى خلاعتهمـا وفجـور نظراتهمـا ، وقد اتسمت حركاتهما بالأنوثة ، وكحلا عيونهما ، وارتديا زى النساء : سروالا فضفاضا ، وسترة مطرزة تصل الى حافة البطن ،

وحزاما عريضا من الكشمير ــ لتثبيت السروال ــ يلتف عدة طيات اسفل البطن .. اما البطن بالذات ــ وكذلك الخصر وقمة الردفين ــ فكلها تبدو عارية خلال قماش شفاف اسود يلتصق بالجلد ، ويتثنى ــ من لحظة لأخرى ــ فى تموجات غامضة !

ولم تتغير الموسيقى ولا توقفت طوال ساعتين .. تأوهات الناى الحادة ، ودقات الطبول تكاد تحسها تدوى فى صدرك ، وصوت المغنى يعلو على كل شيء .. والراقصان يقبلان ويدبران ، يهزان أردافهما بحركات قصيرة تشنجية ، وقد سكن باقى جسميهما ، أو يهزان صدريهما وبقية الجسم بلا حراك كذلك .. ويقتربان منك وأذرعهما مبسوطة ، وهما يدقان نوعا من الصنج المعدنية (الصاجات) ، ووجهاهما جامدان ــ تحت العرق والطلاء الأحمر ــ كوجهى تمثالين .. اعنى أنهما لا يبتسمان قط !

وينشأ تأثير رقصهما من المفارقة بين رزانة الرأس وحركات الجسد الداعرة .. وكانا ــ فى بعض الأحيان ــ يستلقيان على ظهريهما كما تستلقى المرأة فى الفراش ، ثم ينهضان بحركة من الخصر تشبه ارتداد شجرة ثنتها الريح .. وخلال انحناءاتهما للتحية ، كان سروالاهما ينتفخان فجأة كبالونين بيضاويين ، ثم يتسرب الهواء منهما فكأنما كانا يتلاشيان .. وأخشى الا نجد النساء فى براعة الرجال ، فان دمامة الرجلين ساعدت على اظهار رقصهما على أنه فن !

اننا نتحدث مع رجال الدين من كل العقائد .. ان المواقف والأوضاع التى يتخذها الناس ــ أثناء الطقوس ــ جميلة حقا ، فى بعض الأحيان . ولقد حملناهم على أن يترجموا لنا الإناشيد والحكايات والأثورات .. وهى أكثر الأشياء أصالة فى شعبيتها وشرقيتها .

ونحن نستأجر علماء لهذا ، ونتصرف فى تعاظم ، ونبيح لأنفسنا كثيرا من الوقاحة والتحرر فى الكلام ، حتى أن صاحب فندقنا يرى أننا نتمادى أحيانا . ومن المقرر أن نستقبل — فى أحد الأيام — جماعة من العرافين والسحرة ، أملا فى أن نرى مزيداً من الحركات الشرقية الجميلة .

أكثر يا « لوى » من زياراتك لأمى ، وبث فيها الشجاعة والجلد ، واكتب اليها اذا كانت بعيدة عنك ، فان المسكينة بحاجة لكل هذا . .

من كتاب « ذكريات أدبية » ، لمكسيم دوكان

« . . كان الرجل « خليل أفندى » عالما الى درجة لا بأس بها ، يعرف كل شيء عن فروض الاسلام ، وعادات المسلمين ، والتراث الشعبى الذى يمتزج تماما بالطقوس الدينية حتى يصبح جزءاً منها . وقد اتفقنا معه على أن يقضي معنا أربع ساعات يوميا ، مقابل ثلاثة فرنكات عن كل ساعة ، ليجيب عن الأسئلة التى نوجهها اليه . وكنت أتصدر توجيه الأسئلة ، اذ أعتزم استخدام المعلومات فى كتاب عن « الآداب الاسلامية » وقد عالج « خليل افندى » النقاط الست التى تجمع — فى الشرق — خلاصة الحياة كلها تقريبا : الولادة ، والطهارة ، والزواج ، والحج الى مكة ، وشعائر الموت ، والآخرة . . وكنا نسجل الملاحظات خلال الحديث . وقد اعتزم « فلوبير » أن يستخدم ما سجل فى قصة شرقية خطرت له . . »

ولم يكن « فلوبير » يغفل — طيلة هذه الاثناء — عن الكتابة الى امه . . وفى ٥ يناير ١٨٥٠ ، كتب اليها يقول :

« . . وصل خطابك الطويل البديع — المؤرخ ١٦ ديسمبر — فى وقت مناسب ليكون هدية رأس السنة ، يا حبيبتى المسكينة ! . . كنت أؤدى زيارة رسمية للقنصل الفرنسى يوم رأس السنة ، عندما وصلت حقيبة البريد ، فبادرت



« لوى (لويس) بوييه » صديق فلوبير ، الذى استمر فلوبير يراسله خلال الرحلة ، ويصف الكثير من انطباعاته عنها .

الى فتحها . والتقطت المظروف الذى تعرفت عليه بين مئات غيره . وكانت أصابعى تتحرق شوقا لفضه ، غير أن التقاليد منعتها للاسف . وشاء الحظ آن يدعونا القنصل الى صالون مسكنه ، لتقدم تحياتنا لزوجته ، واذ كان بين الرسائل خطاب من أمها ، فقد أذن كل منا للآخر بقراءة رسالته فورا !

هـذا هو الشرق ، مهبط الأديان !

ومنذ أيام ، قضيت أصيلا جميلا فى زيارة بطريرك الأقباط ، كى أجرى معه حديثا . ودخلنا ساحة مربعة الشكل ، تحيط بها الأعمدة ، وتتوسطها حديقة تحوى عددا قليلا من الأشجار الضخمة ، وتحدها نباتات داكنة الخضرة ، يمتد حولها نوع من الأرائك المصنوعة من الخشب المفرغ . وتقدمنى الترجمان بسرواله الفضفاض ، وسترته ذات الأكمام الواسعة . وفى ركن من الأريكة ، جلس البطريرك ، بلحيته البيضاء ، يرتدى طيلسانا ثقيلا ، وقد تناثرت حوله كتب مخطوطة بنوع غريب من الخطوط . وعلى مسافة منه ، وقف ثلاثة من الأطباء فى ثياب سوداء ، ذوو لحى طويلة مثله ، وان كانوا أصغر سنا . وقال الترجمان : « هذا خواجه فرنساوى يطوف العالم بحثا عن المعرفة ، وقد جاء اليكم لتحدثوه عن دينكم » .

واستقبلنى البطريرك بكثير من الحفاوة ، وأحضرت القهوة ، وما لبثت أن بدأت أوجه الأسئلة عن الثالوث ، والعذراء ، والأناجيل ، والقربان المقدس .. كان المشهد رائعا : السماء زرقاء فوقنا ، والأشجار ، وكميات كبيرة من الكتب . والشيخ المسن يعبث بلحيته قبل أن يرد على أسئلتى ، وأنا أجلس بجواره متشابك الساقين ، مشرعا قلمى

لأدون ملاحظاتي ، بينما وقف « حسن » بلا حراك ، يترجم أقوالنا بصوت عال ، وجلس الأطباء الثلاثة الآخـــرون في مقاعدهم الصغيرة ، يهزون رءوسهم ، ويعلقون بكلمات عابرة .

لقد استمتعت كثيرا بهذه الجلسة .. هذا هو الشرق القديم حقا ، أرض الديانات والعباءات الفضفاضة .. وعندما انصرف البطريرك ، حل محله واحد من رجاله ، حتى اذا رأيت ــ في النهاية ــ أن وجوههم قد احمرت من التعب ، انصرفت على أن أعود فيما بعد ، فهناك الكثير الذى يمكن تعلمه في هذا المكان .. ان القبطيـــة هي أقـدم الطوائف المسيحية القائمة ، ولم يعرف عنها في أوربا الكثير ، على قدر علمي .. ولسوف أتحدث كذلك مع الأرمن والروم والسنيين وعلماء المسلمين بوجه خاص .

مازلنا ننتظر عودة القافلة (المحمل) من مكة ، فهذا حدث عظيم يجب الا أضيعه ، ولذلك فلن نرحل الى مصر العليا الا بعد وصول الحجاج ، فهناك بعض أشياء غريبة جـــديرة بالمعرفة كما يقولون لنا .. مشهد جياد الشيوخ وهى تسير فوق أجســام المؤمنين المنبطحة على الأرض ، وكافة فئـات الصوفيين والدراويش ، الخ .. !

انني حين أفكر في مستقبلي ، وهو ما يحدث نادرا ــ اذ أنني لا أفكر في شيء اطلاقا ، بصفة عامة ، برغم ما ينبغي أن يراود المرء من أفكار ، أمام الأطلال ــ أسائل نفسي : ماذا سأفعل بعد عودتي ؟ ماذا سأكتب ؟ ما الذى سأصلح له ؟ أين سأقيم ؟ أى طريق سأسلك ؟ وما الى ذلك .. اذ ذاك أمتلىء بالشكوك والتردد .

لقد اعتدت ــ في كل مرحلة من حياتي ــ أن أتجنب مشكلاتي بهذه الطريقة ، وسأموت في الستين من عمرى ولما اتخذ أى رأى فيما يتعلق بنفسي ، بل ربما قبل أن أكتب شيئا يريني مدى قدراتي .. انني كثيرا ما أسائل نفسي : هـــل

كتابي « القديس انطوان » كتاب جيد ام ردىء ؟ .. هل كنت مخطئا فى تاليفه ام ان الآخرون هم المخطئون ؟

على اننى لا أعبأ بشىء من هذا ، وأعيش كالنبات ، أملأ كيانى بالشمس والنور ، بالألوان والهواء المنعش .. وبتعبير آخر ، أظل آكل .. ولابد لمشكلة الهضم من حل فيما بعد ، وهذا أهم الأمور !

تسألينني عما اذا كان الشرق قد حقق ما كنت أتصوره عليه .. أجل لقد فعل ذلك وأكثر منه ، حتى انه ليمتد الى ما هو أبعد من الفكرة الضيقة التى كانت تراودنى عنه فى غير وضوح .. لقد حلت الحقائق محل الافتراضات ، بدرجة رائعة ، حتى أننى كثيرا ما أخال أننى عثرت فجأة على أحلام قديمة منسية !

من فلوبير الى امه

القاهرة فى ٣ فبراير ١٨٥٠ :

قد نرحل الى مصر العليا يوم الأربعاء القادم ، وسوف نتناول العشاء قبيل رحيلنا مع سليمان باشا ، بينما تكون سفينتنا فى الانتظار أمام أبواب قصره ، على شاطىء النيل . واذا كانت الريح مواتية ، فسوف نقلع بعد العشاء مباشرة ، فنتجه الى أعالى النهر بأسرع ما يمكننا ، ولا نتوقف الا عندما تتوقف الريح — وهو شىء لا يحدث كثيرا — وفى طريق عودتنا سنتوقف لزيارة بعض الأماكن فى أوقات فراغنا .

وسفينتنا مطلية باللون الأزرق ، وربانها أو « ريسها » يدعى « ابراهيم » ، كما أن فيها تسعة من الملاحين ، وقد خصصت لاقامتنا عليها غرفة بها أريكتان متقابلتان ، وغرفة كبيرة بها فراشان ومكان لأمتعتنا ، وثالثة سينام بهنا « ساسيتى » (بجانب استخدامها كمخزن للمؤن) . أما « الترجمان » فسينام على السطح .. وهو رجل لم يتخلع

ثيابه غير مرة واحدة منذ استخدمناه .. ولفته غريبة ، ومظهره أكثر غرابة ، ولكنه طيب القلب ، أهل للثقة ، يستطيع المرء أن يذهب معه الى آخر العالم دون أن يصيبه خدش !

تسالينني عن رسالتى التى أؤديها خلال رحلتى ؟ .. لا يكاد يوجد ما أؤديه ، واعتقد أننى لن أفعل شيئا تقريبا . فانا ازداد شعورا بعدم المبالاة بكل شىء .. وبعد عودتى سأستانف حياتى الهادئة وعملى ، فى مقعدى الكبير المريح ـ على مقربة منك يا حبيبتى ـ فى حجرة مكتبى .. هذا كل ما أعتزم ، فلا تتحدثى بريك عن دفع نفسى الى الأمام ، فلماذا أدفع نفسى ؟ .. ماذا يمكن أن يرضينى أكثر من البهجة التى أشعر بها عندما أجلس أمام الطاولة المستديرة التى أكتب عليها ؟ .. ألست أمتلك فعلا كل شىء يعتبره الناس جديرا بالحسد !

انتى أتمتع بالاستقلال وحرية الخيال ، ومائتى قلم للكتابة ، ومعرفة بكيفية استخدامها .. ثم ها هو الشرق ـ ومصر بوجه خاص ـ يعمل على تبديد بواعث غرورنا الدنيوى .. فان رؤية الكثير من الأطلال القديمة تجعلك تفقدين الرغبة فى بناء أى جديد .. وغبار الماضى يجعلك لا تبالين بشهرة . وأنا فى الوقت الحالى لا أرى ما يدعو ـ حتى من الناحية الأدبية ـ لأن أفعل أى شىء يجعل الناس يتحدثون عنى .. ان الحياة فى باريس ، ونشر الكتب ، وتنشيط نفسى .. كل هذه تبدو ـ من هذه المسافة البعيدة ـ أمورا لا تطاق .. ولكن ، ربما غيرت رأيى فى هذا الشأن بعد عشر دقائق فقط !

(وهكذا نلمس فى حديث « فلوبير » الى امه ، ما لمسناه فى رسالته الى صديقه « بوييه » من زهد فى العمل ، وميل الى عدم المبالاة .. أما الرحلة النيلية ذاتها ، فلا تجد وصفا لها ، سوى ما كتبه « مكسيم دوكان » فى كتابه « النيل : مصر والنوبة ») :

من كتاب (النيل : مصر والنوبة) لمكسيم دوكان

.. كان «ريس» مركبنا شابا وسيما فى الخامسة والعشرين يدعى ابراهيم ، وقد اعتاد أن يقضى أيامه فى مقدمة السفينة، يحدق الى الأمام مباشرة ، ويلقى بعض الأوامر بين حين وآخر .. وما أقل ما يتحدث مع بحارته ، وهو يأكل بمفرده، ولا يدخن قط .. شخص دقيق أنيق ، نظيف ومهندم .. ورغم البساطة المتناهية فى ملبسه ــ الذى يتكون من ثوب أزرق وعمامة بيضاء ــ فقد كان محوطا بجو من الكبرياء ، يزيده مهابة لونه الأسمر وملامحه المعبرة وعيناه الوادعتان .

وعندما خلع عمامته يوما ليحلق رأسه ، رأيت خصلة من الشعر تنحدر حتى خاصرته .. شعر أسود جميل ، تحسده عليه أكثر النساء .. وكان خشنا متعاليا مع رجاله ، يضربهم أحيانا ، ولكنه كان ــ اذا ما تطلب الأمر أن يضرب لهم مثلا وسط تيار شديد ــ يمسك المجاديف أو الزانة ، ويدفع المركب بنفسه .. وكان ابراهيم يؤدى صلواته الخمس بانتظام كل يوم ، ولم يهبط قط الى الشاطىء .. ولا أذكر أننى وجهت اليه كلمة لوم واحدة ، طيلة الأشهر الخمسة التى عمل فيها فى خدمتى .

أما الترجمان « جوزيف » ، فكان رجلا فريدا ، فى الخامسة والخمسين من عمره ، يقظا ، نحيلا ، ذا لحية طويلة بيضاء ، وكانت له زوجة شابة تستهلك كل مليم يكسبه .. وهو أصلا من أهالى (جنوه) ، وقد بحث عن حظه فى الجيش المصرى ، وفى التجارة ، وفى خدمة السائحين ، دون أن يصيب توفيقا يذكر .. وكان قد وصل الى مصر بعد شباب ملىء بالمغامرات ، وأصبح يعرف البلاد حتى أصغر قرية وآخر نخلة .. أما لغته فكانت خليطا من العربية والفرنسية والايطالية . ولم يكن من السهل دائما فهمه ، ولكن الخمول

والخمر وحب النساء ــ وهى العيوب المتادة فى التراجمة ــ لم تكن موجودة فى جوزيف . وكان ــ برغم غروره الذى لا يبارى ــ مثابرا كدودا ، غير أن نظافته كانت موضع شك ، ففى كل صباح ، كان يمر بطرف منشفة مبللة قليلا على جوانب عينيه ، فى حركة خفيفة ، ثم يقول بارتياح : « لقد أتممت زينتى » !

ولم يكن جوزيف ملما بالقراءة والكتابة .. وكانت هذه الأمية تسبب له اذلالا واسفا دائمين .. وقد قال لى ذات يوم : « كان فى امكانى ان اكون كولونيلا لدى الأتراك ، أو ربانا لفرقاطة تركية ، لو أننى كنت أعرف كيف أكتب ! »

ولعله كان محقا فى ذلك .. لم يكن يمثل قط ، ولا كان يسرف فى سرقتى .. وكان يطيع الأوامر بسرعة ، كما انه كان مفيدا جدا فى سفرنا على النيل .. وكان على وفاق مع خادمى « ساسيتى » الذى رافقنى من باريس ، والذى تمكنت بفضل مساعدته وذكائه من اتمام عملى الفوتوغرافى بنجاح ، اذ كان يقوم بتقطير الماء ، وغسل الأوعية ، ويتركنى حرا ، اكرس كل جهودى لعملية تحميض الأفلام السلبية .. وهى عملية مرهقة ، اذ لم يكن التصوير الفوتوغرافى سهلا فى ذلك الحين كما هو الآن !

وكنت كلما زرت بعض الآثار القديمة ، اصطحبت احد بحارتنا وجهاز التصوير ، وكان هذا البحار نوبيا وسيما جدا ، يدعى الحاج اسماعيل .. فكنت اجعله يصعد فوق الأثر الذى أريد تصويره ، ليتسنى لى استخدام مقياس موحد للنسب فى كل صورة من لوحاتى الفوتوغرافية .. وكانت الصعوبة الكبرى هى جعل الحاج اسماعيل يقف ساكنا ريثما أؤدى عملى .. وأخيرا خطر لى أن أقول له ان الأنبوبة النحاسية التى تبرز منها عدسة آلة التصوير ، ليست الا

مدفعا سيغمره بسيل من الطلقات اذا هو تحرك من مكانه .. وهى خدعة جعلته يكف عن الحركة تماما !

ومن الأشياء التى تعلمتها من الرحلة ، بعض الطقوس والتقاليد الدينية ، منها انه وفقا للشريعة الاسلامية ، لابد من التطهر التام بعد أداء بعض الأفعال البدنية : فعندما يغادر الزوج فراش زوجته ــ مثلا ــ عليه أن يغمر نفسه تماما فى بركة ماء أو نهر أو ما شابههما ، على أن يبقى رأسه تحت الماء بعض الوقت . حتى اذا خرج من الماء ، يرفع يديه الى السماء قائلا : « أشكرك يا الهى على نعمتك التى أسبغتها على ، وأبتهل اليك لترشد الطفل الذى قد أنجبه ، الى طريق الهدى .. اللهم أغمض عينى عن المعاصى » ..

من مذكرات « فلوبير » خلال الرحلة

٦ فبراير ١٨٥٠ ــ على ظهر المركب : عندما حان غروب أول يوم لنا بعيدا عن القاهرة ، لاحت السماء حمراء قانية الى اليمين ، وردية الى اليسار ، بينما كانت الأهرام ترسم مثلثات رمادية حادة فى الأفق القرمزى .. والى اليسار شحبت السماء عند السمت ، وتحولت من اللون الوردى الى الأصفر ، فالأخضر .. ثم شحب اللون الأخضر ، وبتحول لا يكاد يشعر به أحد ، أصبح لونها أبيض .. وعلى الجانب الأيمن من السماء ، كان هناك وهج يغمر السماء بضوء ذهبى .

البحارة يرقصون .. و « جوزيف » أمام مواقده ، والمركب تتمايل فى سيرها ، بينما يتوسط النيل المنظر الطبيعى .. ونحن فى وسط النهر ..

.. وفى مكان بعيد ، وعند نهر أكثر رقة وأصغر عمرا من هذا النهر ، أعرف بيتا أبيض ، أدرك أن مصاريع نوافذه



صورة فوتوغرافية لجوستاف فلوبير ، بملابس عصره ..

مغلقة الآن ، لأننى لست هناك ! » (١) .

ليالية مع غوازي قنا واسنا !

من فلوبير الى « بوييه » ، فى ١٣ مارس : نحن الآن على مسافة ١٢ فرسخا جنوب (اسنا) .. بعد ست أو سبع ساعات ، سنجتاز مدار السرطان الشهير .. ان درجة الحرارة فى الظل تبلغ ٣٠ درجة ، ونحن حفاة الأقدام ، لا نرتدى غير القميص .. اننى أكتب لك هذا وأنا جالس فوق أريكة ، أستمع الى دقات « الدربكة » يوقعها بحارتنا وهم يغنون ويصفقون بأيديهم ، بينما السماء تصلى سطح مركبنا بشواظ من نار ، دون رحمة .. والنيل منبسط كأنه نصل من فولاذ ، وعلى الضفتين مجموعات من نخيل باسقة ، والسماء شديدة الزرقة .. لكم افتقدك الآن يا صديقى !

اننى اقرأ « الأوديسة » — كل يوم — باللغة اليونانية . ومنذ ركبنا النيل ، طالعت اربعة اجزاء منها .. اننا سنعود الى الوطن عن طريق اليونان ، ولهذا فانها قد تكون مفيدة لى .. وفى أول يوم على ظهر المركب ، بدأت أكتب قليلا ، غير أننى أحمد الله اذ لم أمض طويلا قبل ان أدرك سخافة مثل هذا العمل ، فمن الأفضل الآن أن أكون كلى عيون ..

اننا نعيش فى أكبر قسط من الخمول ، نتمدد فوق أرائكنا ، ونرقب كل شىء يمر بنا : الابل ، وقطعان الثيران القادمة من (سنار) فى السودان ، والمراكب المتجهة الى القاهرة محملة بالنساء الزنجيات وسن الفيل .. اننا الآن يا سيدى العزيز فى أرض تسير فيها النساء وهن لا يرتدين غير الأقراط فى آذانهن .. لقد رأيت فتيات من النوبة تنحدر

---

(١) يشير فلوبير بهذه العبارة الى بيت أمه ، الذى خلا منه .

قلائدهن المصنوعة من العملة الذهبية الى ماتحت خصورهن ، وبطونهن السوداء مزدانة بعقود من الخرز الملون ..

وبين القاهرة وبنى سويف لم يحدث شىء ذو بال ، وبعد (بني سويف) استغرقنا خمسة أيام للوصول الى بحيرة مويس . وفى مدينة (الفيوم) قضينا الليل فى بيت رجل مسيحى من أهل دمشق ، عرض علينا ضيافته .

وعندما تقطع هذه الرحلة برا ، تقضى لياليك فى بيوت من الطين الجاف ، تتطلع الى النجوم من خلال شقوق فى السقوف التي تبدو كاقماع السكر . وعند وصولك الى احد هذه البيوت ، يذبح الشيخ الذى يستضيفك خروفا ، ويأتي كبار رجال القرية لزيارتك وتقبيل يديك !

وفى قنا : نزلنا الى البر لشراء المؤن ، ورجعنا نسير فى سلام ، تداعبنا الأحلام ونحن نستنشق عبير خشب الصندل وسط الأسواق . وفجأة وجدنا أنفسنا عند منحنى فى الشارع ، وسط حى البغاء فى البلدة ، وتصور يا صديقى خمسة او ستة من الشوارع الملتوية ، وعلى جانبيها أكواخ من الطين الأسمر الجاف ، ارتفاع كل منها حوالى اربعة اقدام ، تقف على أبوابها النساء ، أو يجلسن على حصائر من القش ، وهن يرتدين ثيابا زاهية الألوان تتطاير أطرافها فى الهواء الساخن .. وعلى صدورهن العارية قلائد طويلة من العملات الذهبية ، ينبعث رنينها كلما تحركن ، وهن ينادينك بأصوات مغرية : « تعال يا خواجة !.. يا خواجة ! »

لقد مررت بتلك الشوارع عدة مرات ، معطيا الهبات للنساء ، تاركا اياهن يحطن وسطى باذرعهن محاولات اجتذابى الى داخل أكواخهن . ولكننى قاومت متعمدا ، اذ عقدت العزم على الا أفسد جو الأسى الذى أشاعه المنظر فى نفسى !

بيد اننى لم أكن بهذا الزهد والمزاج الفنى دائما .. ففى

(اسنا) زرت « كوجك هانم » ، وهى غانيـــة مشهورة .. وكانت خادمتها الأمينة قد جاءت الى المركب فى الصباح ، يصحبها خروف مدلل تناثرت فى فرائه بقـع من « الحنـاء الصفراء » وعلى أنفه كمامة من المخمل الأسود .. كان يتبعها كالكلب .. مشهد غريب جداً !

ولم يغفل « فلوبير » تسجيل زيارته لمنزل « كوجك هانم » بتفصيل دقيق ، فى المذكرات التى كان يكتبها خلال الرحلة ، كما سترى :

٨ مارس ١٨٥٠ ـ اسنا : منزل « كوجك » هانم .. خادمتها « بمبه » تتقدمنى يصحبها خروفها ، فتفتح بابا يفضى بنا الى منزل ذى ساحة صغيرة .. وفى مواجهة الباب درجات سلم ، وعلى الدرجات وقفت امرأة يحيط بها النور ، وتتراءى من خلفها زرقة السماء ، وقد ارتدت سروالا فضفاضا وردى اللون ، وليس على بقية جسمها غير قماش رفيع شفاف ، بنفسجى اللون .

كانت قد برزت من الحمام لتوها ، فانبعث من نهديها الممتلئين المتماسكين ، عبير منعش .. شىء أشبه برائحة زيت « التربنتينا » المعطر . وبادرت بتعطير أيدينا بماء الورد .

و « كوجك هانم » غانية طويلة ، بديعة ، أصفى لونا من العرب ، وقد جاءت من دمشق .. واذا مالت ، كان بدنها ينثنى فى موجات برونزية . وعيناها سوداوان واسعتان ، وفتحة خياشيمها مستطيلة .. عريضة المنكبين ممتلئتهما ، ولها نهدان ممتلئان كالتفاحتين .. وكانت ترتدى طربوشـــا كبيرا ، يزين قمته قرص ذهبى مقوس تتوسطه قطعـــة من زجاج أخضر كالزمرد ، بينما انتشر زر طربوشها الأزرق على هيئة المروحة وانسدل على كتفيها .. وعند الحافة السفلى للطربوش ، وضعت فرعا صغيرا من زهور صناعية بيضاء . وكان شعرها الأسود المتموج ينحدر من مفرقها فى فرعين على جانبيها .. وحول معصميها التف شريطان ذهبيان مجدولان

كالضفائر .. وكانت تتزين بقلادة ذات ثلاثة فروع من حبات ذهبية مجوفة ، وقرطين أشبه بقرصين ذهبيين مقعرين قليلا وقد علقت بأطرافهما قطع ذهبية صغيرة . وعلى ذراعها اليمنى وشم ازرق يمثل كتابة ما .

وسالتنا « كوجك هانم » عما اذا كنا نرغب فى شىء من الطرب ، ولكن « مكسيم » قال انه يؤثر ان يلهو معها وحده اولا ، فنزلا الى الطابق الأسفل . وبعد ان انتهى من خلوته بها ، حذوت حذوه !

وجاء الموسيقيان : طفل ورجل مسن غطيت عينه اليسرى بقطعة من القماش . وأخذ الاثنان يعزفان على الربابة ، وهى نوع من الكمان صغير ، مستدير ، له ساق حديدية ــ تستقر فوق الأرض ــ ولها وتران من شعر الخيل ، وعنق طويل جدا بالنسبة لبقية جسم الآلة ، وكان الصوت المنبعث منها نشازا يثير النفور ، ولم يكن العازفان يتوقفان عن العزف الا عندما كنت أصرخ فيهما !

وبدأت « كوجك هانم » و « بمبة » الرقص .. كان رقص « كوجك » عنيفا .. فهى تضم نهديها العاريين معا بين طرفى سترتها ، وتضع حزاما من شال بنى اللون به شرائط ذهبية ، وتنهض على احدى القدمين ، ثم على الأخرى ، فى حركات رائعة .. وعندما تكون احدى القدمين على الأرض ، تتحرك الأخرى الى أعلى والى الأمام ، وكل ذلك بقفزة خفيفة .. لقد رايت مثل هذه الرقصة على الأوانى الاغريقية القديمة .

أما « بمبة » فتفضل الرقص المستقيم : تتحرك مع رفع وخفض أحد الردفين فقط ، فى تمايل ايقاعى بديع .. وكانت تخضب يديها بالحناء ، ويبدو أنها خادم وفية لكوجك هانم ، وكانت قبل ذلك وصيفة فى بيت ايطالى بالقاهرة ، ولهذا فهى تفهم بعض الكلمات الايطالية . وكانت عيناها مصابتين

برمد خفيف . على أن رقص الاثنتين كان بوجه عام ــ فيما عدا قفزات « كوجك » التي وصفتها من قبل ــ أقل جودة من رقص « حسن البيبيسى » ، وهو الرجل الذى رأيتــه يرقص فى القاهرة . أما رأى جوزيف ، فهو ان كل الراقصات الجميلات الشكل ، رديئات الرقص !

واخذت « كوجك » الدربكة .. انها عندما تعزف عليها تتخذ وضعا ممتازا : الدربكة على ركبتيها او على فخــذها اليسرى ، وتخفض الساعد الأيسر بينما ترفع معصم اليــد اليسرى ، وباصبع من هذه اليد تدق على الدربكة ، بينما تهوى اليد اليمنى بدقات بعرض الكف لضبط الايقــاع .. وتميل العازفة براسها الى الخلف ، فى وضع جامد ، بينما يكون جسمها منحنيا ــ بعض الشيء ــ على الدربكة .

وكانت المرأتان والموســيقى المسن يشربون الكثــير من « العرقى » ، وقد رقصت « كوجك » وهى تضع الطربوش على راسها ، ثم صحبتنا الى مؤخرة مسكنها ، وصعدت فوق ظهورنا ، وهى ترسم بملامح وجهها أوضاعا وصورا هزلية ، كأى مهرج أوربى .

فى المقهى : كوخ يتسلل ضوء الشمس من خلال الأغصان التى شــيد منها ، فيحدث بقعا منــيرة على الحصائر التى جلسنا فوقها ونحن نحتسى القهوة .. وكانت « كوجك » تطرب لرؤية راسينا الحليقين ، ولسماع « مكسيم » يقول : « لا اله الا الله محمد رسول الله » ..

وانطلقنا لزيارة الآثار مرة أخرى .. وبعد تناول العشاء ، عدنا الى بيت « كوجك » .. كانت الغرفة مضــاءة بثلاث فتائل فى أكواب مليئة بالزيت ، وضعت كل منها داخل قمع من الصــفيح مدلى على الحائط .. واتخــذ الموسيقيان مجلسيهما ، وشرب الجميع أقداحا كثيرة من الخمر بسرعة !

واقبلت « صفية الصغيرة » ، وهى امرأة صغيرة الحجم ، كبيرة الأنف ، ذات عينين سوداوين » غائرتين ، تومضان بشهوة وحشية .. وكان لقلادتها المصنوعة من قطع العملة رنين كرنين عربة ريفية .

جلست النساء فى صف على الأريكة يغنين ، والمصابيح تلقى ظلالا مهتزة ، ذات أشكال هندسية ، على الجدران .. الضوء أصفر ، و « بمبة » ترتدى ثوبا وردى اللون واسع الكمين (وكل الثياب النسوية زاهية) وقد غطت شعرها بمنديل أسود كما تفعل الفلاحات .. ورحن يغنين ، وصوت الدربكة يرتفع ، بينما تضفى الربابة بنغمها الرتيب ايقاعا ناعما ولكنه حاد .. كانت الأغنية أشبه بأنشودة مرحة فى جنازة !

ورقصت « كوجك » رقصة النحلة . وقبل أن تؤديها ، اخرجت النسوة « فرغلى » وبحارا آخر ــ كانا يشهدان الرقصات ، وهما يمثلان العنصر الخشن فى الصورة حتى الآن ــ وذلك لاغلاق باب الحجرة علينا . ثم وضعت عصابة سوداء فوق عينى الطفل الموسيقى ، وانزلت طية من عمامة الموسيقى الكهل فوق عينيه .. وراحت « كوجك » تخلع ثيابها قطعة قطعة ــ اثناء الرقص ــ حتى أصبحت عارية تماما الا من منديل تمسكه فى يدها ، وكانها كانت تستتر وراءه !.. واخيرا القت المنديل ايضا ..

هذه هى رقصة النحلة ، وقد أدتها فى ايجاز شديد وقالت انها لا تحب أن ترقصها عادة ! وبعد أن كررت أمامنا الرقصة البديعة التى أدتها فى النهار ، القت بنفسها فوق الأريكة وهى تلهث ، بينما ظل جسدها يهتز فى ايقاع خفيف .. وناولتها احدى النساء سروالها الأبيض الكبير المطرز بالورد ، فجذبته الى أعلى حتى بلغ عنقها . ونزعت العصابتان عن عيون الموسيقيين .. وعندما تربعت « كوجك » على

الأريكة ، بدت ركبتاها فى أكمل بهاء ، وكأنما صاغتهما يدا فنان مبدع .

رقصة أخرى : يوضع قدح من أقداح القهوة على الأرض ، وترقص « كوجك » أمامه ، ثم تهبط على ركبتيها ، وتواصل تحريك جذعها ، وهى تدق الصاجات وتحرك يديها فى الهواء وكأنها تسبح .. ويستمر هذا ، بينما تخفض رأسها تدريجا حتى تصل الى القدح ، فتمسكه من حافته بين أسنانها ، ثم تنهض بسرعة فى وثبة واحدة .

ولم تكن « كوجك » شديدة التحمس لقضاء ليلتها معنا ، خوفا من اللصوص الذين قد يأتون اذا علموا بوجود غرباء لديها . ونام بعض الحراس أو الخفراء فى غرفة جانبية بالطابق الأسفل ، مع جوزيف وفتاة زنجية ، وعبد حبشى ..

وأصرت « كوجك » على أن تنام فى الجانب البعيد عن الحائط من الفراش ، بينما أضاء الحجرة نور خافت من فتيلة فى قدح بيضاوى الشكل .. ونام كلبها على سترتها الحريرية فوق الأريكة ، فكنت أغطيها بسترتى اذا سعلت .. وأسلمت نفسى الى ذكريات متوترة ، ودفء جسدها يلهبنى .

واستيقظنا مع الفجر وقد امتلأنا رقة وحنانا ..

ما أبدع الزهو الذى تشعر به عندما توقن — فى لحظة رحيلك — من أنك تركت وراءك ذكرى .. وأن المرأة ستوليك من تفكيرها أكثر مما تولى غيرك ممن كانوا هناك .. وأنك ستبقى فى قلبها !

وفى الصباح تبادلنا الوداع فى هدوء شديد .

٩ مارس ١٨٥٠ — أسوان : هذه الفتاة الطويلة القامة اسمها « عزيزة » ، إنها أكثر حذقا للرقص من « كوجك » ، وقد خلعت ثوبها الفضفاض ، وارتدت ثوبا قطنيا على الطراز الأوربى ، ثم بدأت الرقص .. عنقها ينزلق الى الوراء والأمام فوق عمودها الفقرى ، وكثيرا ما كان يميل جانبا ، فكأن

رأسها كان يسقط على الأرض !

انها تقف على احدى القدمين وترفع الأخرى وقد ثنت ركبتها فى زاوية قائمة ، ثم تنزلها فى ثبات .. وفى رقصة أخرى ، وضعت القدم اليسرى مكان اليمنى ، واليمنى مكان اليسرى ، وأخذت تبدل وضعهما فى سرعة بالغة .

وخلعت ثيابها .. كانت تضع فوق بطنها حزاما من خرز ملون ، بينما كانت قلادتها الطويلة ــ المصنوعة من قطع العملة ــ تتدلى من عنقها حتى اسفل بطنها ، وقد « لضمت » طرفها فى الحزام الخرزى . وحاولت طفلة صغيرة ــ فى الثانية أو الثالثة من عمرها ــ أن تقلدها متأثرة بالموسيقى ، فأخذت ترقص مثلها دون أن تحدث أى صوت .

حدث هذا فى كوخ من الطين ــ لا يكاد ارتفاعه يكفى لكى تقف المرأة فيه منتصبة القامة ــ فى حى خارج المدينة ، أغلبه انقاض وأطلال تتساوى بالأرض !

٢٩ مارس ١٨٥٠ ــ ابو سنبل : تأملات : ان المعابد المصرية رغم جلالها ، تبعث فى نفسى الملل .. مثلها مثل الكنائس فى مقاطعة بريتانى .. أو مساقط المياه فى جبال (البيرنيز) !

عقاب « الأفندى » لشيخ القرية !

٤ ابريل ١٨٥٠ : غادرنا بسفينتنا بلدة « السبوع » فى الرابعة صباحا . وحوالى الحادية عشرة ، قابلنا مركب « أفندى » سبق أن رأيناه فى (وادى حلفا) ، وهو « ناظر » مكلف بجباية الضرائب بالقوة ، من أسوان حتى وادى حلفا . لقد فاجأ « الأفندى » شيخ احدى القرى واعتقله بالقوة لأنه لم يقدم مليما واحدا من الضريبة المطلوبة ، وكان الشيخ مقيدا بالسلاسل فى قاع المركب ، لا نستطيع أن نلمح غير رأسه الأسود العارى يلمع تحت الشمس .

وتواصل مركب «الأفندى» سيرها على مقربة من مركبنا فترة من الوقت ، ثم تلمس مقدمتها ، ويحمل الينا رجل منها خروفا صغيرا ، هدية من « الأفندى » .. وعلى الشاطىء ، كنا نرى ــ طوال اليوم ــ رجالا ونساء من قرى كثيرة ، يتابعوننا ، أو ــ على الأصح ــ يتابعونه هو ، على ضفة النهر .

وقام «الأفندى» بزيارة طويلة لنا ، اهديناه خلالها زجاجة من نبيذ قبرص واخرى من العرقى . وعرفنا أن الشيخ الذى اعتقله سيساق الى بلدة (الدر) ، حيث يتلقى اربعمائة او خمسمائة ضربة ، يترك بعدها مقيدا الى شجرة حور ضخمة ، الى أن يدفع أحد عنه كفالة ..

وحدثنا الناظر عن الضرب « بالفلقة » .. فاذا كان المراد قتل الشخص ، فان أربع أو خمس ضربات تكفى .. لقصم العنق أو تحطيم الفخذ !.. واذا كان المنشود هو مجرد العقاب ، فانه يضرب على مؤخرته .. والعدد المعتاد من الضربات هو اربعمائة او خمسمائة ، يمرض بعدها الانسان خمسة أشهر ، أو ستة .. وهى المدة الكافية لتبديل الجلد القديم بآخر جديد . أما فى (النوبة) ، فان الضرب يوقع دائما على أسفل القدمين . ويخشى أهل النوبة هذا العقاب بشدة ، اذ يصبح المشى بعده صعبا أليما !

الشرق والغرب عنده .. يلتقيان !

(من كتاب « ذكريات أدبية » لمكسيم دوكان)

« .. ان أى معبد يبدو كغيره تماما فى عين « فلوبير » .. كما ان المساجد والمناظر الطبيعية كلها سواء لديه . ولست أوقن من انه وهو يحدق فى جزيرة (فيله) ، لم يتنهد لذكرى مروج (سوتفيل) ، أو انه حين شاهد النيل لم يشعر بالحنين الى (السين) .. وفى جزيرة (فيله) جلس فى ظل احدى قاعات معبد ايزيس العظيم ، ليقرأ كتاب « جيرفو » لشارل

دى برنار ، الذى اشتراه من القاهرة .. والتفكير فى أمه يجذبه دائما فى اتجاه بلدة (كرواسيه) ـ حيث تقيم ـ فى حين أن خيبةأمله فى كتابه عن «القديس انطوان» لا تزال تثير أساه.

من « فلوبير » الى أمه

(فيله) فى ١٥ ابريل ١٨٥٠ : ها نحن أولاء ، قد عدنا من النوبة فى صحة جيدة ـ اذا كان للمرء أن يقول مثل هذا القول ، بعد أن قضى شهرين طويلين ، دون أن يتلقى كلمة من أولئك الذين يحبهم أكثر ممن عداهم من البشر جميعا !

لقد عدنا الى (فيله) أمس ، والليل يرخى سدوله . وعلى الفور انطلقت مع « جوزيف » على حمار الى أسوان ـ التى تقع على مسافة فرسخ من هنا ـ على أمل العثور على حزمة من الرسائل ، ولكنى لم أجد شيئا . وخيل لى أنه قد فاتك البريد مرة واحدة ، وأن كل الرسائل الأخرى موجودة فى القنصلية الفرنسية بالقاهرة . لهذا كتبت لتوى أطلب ارسالها الى (قنا) ، والا بقيت بدون رسائل منك حتى نعود الى القاهرة فى نهاية مايو .. وبهذا أقضى أربعة أشهر دون أن اعرف ماذا حدث لك !

كانت السماء جميلة ـ ليلة أمس ـ والنجوم تتلألأ ، والأعراب يرددون أناشيدهم فوق إبلهم .. كانت ليلة من ليالى الشرق حقا ، وزرقة السماء تذوب فى فيض من تألق النجوم . ولكن قلبى كان جد حزين يا حبيبتى المسكينة !.. اكتبى لى مرتين ـ فى كل بريد ـ بل مائة مرة لا مرة واحدة . فان الخطاب الواحد يمكن أن يضيع بسهولة ، وكم من رسائل لكسيم اختفت .. لو اننى اوقن من أن رسائلى تصل اليك ، لما شكوت .. هذا هو سر لوعتى الكبرى ، فكم تتملكنى التعاسة اذ اتخيل قلقك !

قد تكونين مريضة يا حبيبتى ، أو لعلك تبكين فى هذه اللحظة ، وتتأملين بعينيك الجميلتين الخريطة التى لا تبين لك منها سوى مساحة خالية ، يضيع فيها ابنك !.. لا ، لا ، لسوف أعود... لا يمكن أن تكونى مريضة لأن الرغبة القوية فى الحياة تصونها .. لن تلبث أن تكتمل ستة أشهر على رحيلى ، وبعد ستة أخرى لن يطول ارتقاب عودتى .. يحتمل أن يكون هذا فى يناير أو فبراير المقبل .

احضر « الأفندى » ـ مساء أمس ـ رسائل لمكسيم ... حتى « ساسيتى » تلقى رسائل ، أما أنا فلم يصل لى شىء منك ، ولا من أخى « آشيل » الذى كان ينبغى أن يوافينى ببعض أخبارك ..

طيبة ـ ٣ مايو ١٨٥٠ : الساعة الرابعة والنصف صباحا ، وقد نهضت على عجل يا حبيبتى المسكينة ، لأرسل لك هذا الخطاب عن طريق الوكيل الفرنسى فى قنا ، وسيقوم رسول خاص ـ على صهوة جواد ـ يحمله الى القاهرة ويعود بالرسائل الواردة منك ـ اذا كانت هناك رسائل ـ فهل أكون أسعد حظا فى (قنا) منى فى (أسوان) ؟ آمل !

وصلنا الى طيبة فى التاسعة من ليلة أمس .. وقد جبنت خلال الأقصر فى ضوء القمر ، الذى كان يرتفع خلف صف من الأعمدة ، ليلقى ضوءه على الأطلال العظيمة : آه ، ما أجمل المساء هنا يا عزيزتى ! .... يا للنجوم ويا لليالي ! .. إننا لم نر بعد شيئا من (طيبة) ، ولكنها ولابد رائعة .. سنبقى هنا أسبوعين كما أظن !

بين قفط وقنا ـ فى ١٦ مايو ١٨٥٠ :

كنت أفكر فى صديقى « الفريد » دون انقطاع والا فى (طيبة) ، كما افكر كثيرا فى الآخرين أيضا يا حبيبتى ... انى لا استطيع ان أعجب بما أرى فى صمت ، فلابد لى من أن

أصيح والوح بيــــدى ، واصرخ ، واحطم المقاعد أو افعل اى شىء يدعو الآخرين لمشاركتي بهجتى وسرورى .
عندما أتناول رقعة ورق لأكتب لك ، لا تكون لدى ايـة فكرة عما أوشك ان أقول .. ثم تبدأ الخواطــــر تتوارد من تلقاء نفسها ، وأجدنى أثرثر واطيل الحديث . اننى أشـــعر بمتعة فى ذلك .. سطر يتلو سطرا . وعندما ينضب معينى أقرأ ما كتبت كأننى أودعه ، واهمس له بافـكارى قائلا : « اذهب سريعا وقبلها نيابة عنى » .

قنا فى ١٧ مايو : فرحة ! فرحة ! ان قلبى يثب معها يا أمى العزيزة .. عشر رسائل لى بينها واحــدة من « بوييـــه » ، واخرى من « ماران » .. اننى اقبلك حتى تختنقى .. انك على ما يرام ، وأرى انك كنت عاقلة . احبك ألف مرة من أجل ذلك . ما أعز رسائلك ! اننى التهمها كرجل جائع .. وداعا والف قبلة مرة اخرى !

من فلوبير الى « بوييه »
بين جرجا واسيوط ـ فى ٤ يونيو ١٨٥٠ :

فكرت فى امورى منذ افترقنـــا يا لوى .. استرجعت حياتى الماضية باهتمام عميق ، وأنا جالس فى مقدمة مركبنا النيلى ، ارقب الماء وهو ينساب وراءنا برفق ... عادت بى الذاكرة الى اشياء نسيتها ، فكأنها مقاطع من اناشيد رددتها المربية خلال الطفولة . اترانى فى بداية فترة جديدة ، أم اننى بلغت منتهى التدهور ؟

ومن الماضى أنطلق لاحلم بالمستقبل . واننى بلا خطط ولا أفكار ولا مشروعات .. والأسوأ من ذلك اننى بلا طموح .. والسؤال الخالد « ما الفائدة ؟ » يضـع حاجزه البرونزى دائما عبر كل طريق اشقه فى عالم الافتراضات .. ان السفر لم يزدنى ابتهاجا ، ولا ادرى ان كان منظر الأطلال سيوحى لى

بافكار عظيمة ، غير اننى أود أن أعلم مصـــدر السخط الذى يغمرنى ـ فى هـــذه الأيام ـ عنـــدما أفكر فى أن أجعل نفسى انسانا مشهورا يتحدث عنه الناس .. لست أشعر فى قرارة نفسى بالقدرة الجسمانية على أن أنشر شيئا ، وأن أجرى الى صاحب المطبعة وأختار الورق واصحح البروفات الخ ! من الأفضل أن يعمل الانسان لنفسه فقط . ان الجمهور شديد الغباء ، فمن الذى يقرأ ؟ وماذا يقرأ ؟ وما الذى يعجب ؟

أجل ، عنـــدما اعود سأستانف ـ ولفترة طويلة كمـا أرجو ـ حياتى القديمة الهادئة ، جالسا أمام مائدتى المستديرة بين المدفأة والحديقة .. سأعيش هناك كالعرب ، لا اعبأ بشىء .. لن أعبأ بآراء النقاد ، ولا بأى انسان على الاطلاق !

لقد رأيت « طيبة » يالوى ... انها جميـلة جـدا .. وصلنا اليها ذات ليلة ، فى الساعة التاســعة ، وضوء القمر يغمر أعمدة الآثار ، والكلاب تنبح ، والأطلال العظيمة البيضاء تبدو كالأشباح .. وكان القمر فى الأفق مستديرا تماما ، وقد بدا كأنه يلامس الأرض بلا حراك .. ولقد أوحى الينا الكرنك بحياة العمالقة ، فأمضيت ليلة عند قدمى تمثال (ممنون) ، يلتهمنى البعوض ... ان للوغد القديم وجها جميـــلا وهو مغطى تماما بالنقوش المكتوبة ومخلفات الطيور ، وهما الشيئان الوحيدان فى أطلال مصر اللذان يقدمان أى دليل على الحياة . واكثر الصخور تفتتا لا تنبت ورقة من الحشائش ، بل لا تلبث أن تهوى مسحوقة ، وكثيرا ما ترى مسلة طويلة مستقيمة بها بقعة بيضاء طويلة تمتد على طولها بأكمله كشريط من القماش اكثر عرضا عند القمة واكثر ضيقا عند القاعدة .. وهذا من مخلفات العقبان التى تركت علامتها هناك عبر القرون .. انه اثر جميل جدا وله رمز عجيب ، وكأنما تقول الطبيعـة لآثار مصر : « لن تنالى شيئا منى .. لن تغـــذى بذور حشيشة

البحر ... وسوف أضع مخلفاتى عليك !! »

وفى (اسنا) شاهدت « كوجك هانم » مرة اخرى .. كانت حزينة ، وقد وجدت انها تغيرت ، فقد أصابها المرض .. كان يوما حارا ، مليئا بالغمام .. وكان خادمها الحبشي ينثر الماء على الارض ليبرد جو الغرفة .. وحدقت فيها طويلا حتى استطيع ان احتفظ بصورتها فى ذهنى . وعندما انصرفت قلت اننا سنعود فى اليوم التالى ، ولكننا لم نفعل .. لقد استهرات كثيرا حرارة كل شىء ، وهذا هو الأمر الذى اجد له قيمة عندى ، وقد احسست به فى أعماقى ذاتها !

ورأيت البحر الأحمر عند (القصير) .. كانت رحلة استغرقت اربعة أيام للذهاب وخمسة للعودة ، على ظهور الجمال ، وفى درجة حرارة كانت تصل — وسط النهار — الى ٤٥ درجة ، وهى حرارة لافحة الى حد ما .. وكنت اشعر أحيانا بحنين الى شىء من البيرة ، لاسيما أن ماء الشرب الذى كنا نتناوله من « قربة » من جلد الماعز كانت به آثار من رائحة العنزة ، فضلا عن روائح الكبريت والصابون .

وكنا نستيقظ فى الثالثة صباحا ، ونأوى الى الفراش فى التاسعة ليلا .. كنت أعيش على البيض المسلوق ، والطعام الجاف المحفوظ ، والبطيخ .. انها حياة الصحراء حقا . وعلى طول الطريق كنا نلتقى بجثث الجمال التى نفقت من الارهاق .. وهناك أماكن تجد فيها مساحات كبيرة من الرمال ، تبدو وكأنها تحولت الى نوع من مساحات ممهدة ناعمة لامعة ، أشبه بأرض مخزن حبوب لدرس الغلال ...

ولقد التقينا بقوافل كبيرة للحجاج ، تسعى الى مكة . فان (القصير) هى المركز الذى يستقلون منه السفن الى (جدة) ، التى تبعد عن (مكة) بمسيرة أيام ثلاثة فقط .. وتسير جمال القوافل واحدا وراء الآخر أحيانا ، بينما تتقدم

ـ أحيانا أخرى ـ فى صف عريض .. ورأينا فى (القصير) حجاجا من أعماق افريقيا ، زنوجا فقراء بدأوا السير منذ عام ، بل ومنذ عامين . كذلك رأينا قوما من (بخارى) ، من التتر ، يرتدون القلنسوات المدببة .. أما صائدو اللؤلؤ ، فلم نر سوى زوارقهم . وينطلق فى كل زورق رجلان ، أحدهما يجدف ، والآخر يغوص اذا ما خرجا الى عرض البحر .. وعندما يعودان ، ينساب الدم فى نزيف من اذنى وأنف وعينى الغواص ..

اما تساؤلك عن اى تغير قد يكون اعترانى خلال فراقنا ، فلا اظن يا ((لوى)) ان هذا التغير ـ ان وجد ـ كان فى صالحى ! .. بل احسبنى فقدت الكثير من جراء تشتت بالى ، وشرود فكرى ، حتى لقد اصبحت فارغا جدا ، عقيما جدا . اننى اشعر بذلك فى اعماقى . ولعل هذا راجع الى أن جسدى فى تحرك مستمر ، وليس بوسعى أن أقوم بعملين فى آن واحد . أو ربما أكون قد خلفت ذكائى ورائى ، مع ثياب البيت ، وأريكتى الجلدية ، ومجتمعكم يا سيدى العزيز .. وبالنسبة لى ، يلوح اننى اذا أخفقت فى أول عمل أضطلع به بعد عودتى ، فسألقى بنفسى فى البحر !

القاهرة فى ٢٧ يونيه ١٨٥٠ :

ظاهرة نفسية غريبة تنتابنى . لقد عدنا للقاهرة ، ومنذ قرأت رسالتك الرائعة ، أشعر بأننى أتفجر بفيض فكرى . بدأت القدر تغلى فجأة ! أشعر بحاجة ملحة الى الكتابة !

أشكر لك زياراتك لأمى يا « لوى » ، فأنت الوحيد الذى تستطيع أمى أن تتحدث اليه عنى كما تحب أن تتحدث ، لأنك الوحيد الذى تدرك هى أنه يعرفنى حق المعرفة . هكذا ينبئها قلبها .

ما أحسبك تصدق انني و « مكسيم » لا نكف عن الحديث عن مستقبل المجتمع . وفي رأيي انه من المحقق انه سينتظم على نسق آية كلية ، ان قريبا أو بعيدا . وسيقوم المدرسون بوضع القواعد ، وسيكون كل امرىء في زى موحـــد ، ولن تعود الانسانية الى ارتكاب الأعمال الهمجية . ولكن ، أي اسلوب تعس هذا ! أي افتقار الى الشكل ، والتناسق ، والروح !

من مذكرات فلوبير في نهاية الرحلة

الاثنين اول يوليو ١٨٥٠ — القاهرة :

آخر يوم لي في القــاهرة . تبــــادل الوداع . ان حزني للرحيل يجعلني إدرك مدى الغبطة التي لابد انني احسست بها يوم وصولي ..

لن أرى الفلاحين مرة أخرى .. لن أرى طفلا يستحم في قناة الساقية الصغيرة ..

بولاق : وداع من البحارة . كان الانفعال الحقيقي بالأمس عندما ودعنا « الريس ابراهيم » وعانقناه ..

ليلتنا الأخيرة .. ظللنا مستيقظين حتى الثالثة صباحا .. طلع الفجر وبدات الديكة تصيح .. ان شمعتي ما زالت مضيئة ، ولكني اتفصد عرقا ، وعيناي تلتهبان .. انني اشعر بنوبات من القشعريرة في الصباح .. سوف نغادر القاهرة بعد أربع ساعات .. يا لله كما يقول العرب !

من الاسكندرية الى بيروت : ركبنا السفينة « الكسندرا » في الساعة الواحدة ، ولكنها تعطلت . لن نرحل قبل الغد .

رحلت السفينة وأنا نائم .. لم اســـتطع أن أرى أرض مصر وهي تختفي عند الأفق ، قبل أن أودعها الوداع الأخير ..

ترى هل اعود مرة أخرى ؟!



العَهْد!

قصة للكاتب السويسري
فريدريش دورينمات

عرض وتلخيص : الدكتور حسين مؤنس

هذه القصة ..

احسب اننى عرفت فريدريش دورينمات Friederich Duerrenmatt قبل قرابة العشرين سنة ..

كنا طلابا فى كلية الاداب بجامعة زيوريخ . ما كان احد منا يعرف ـ اذ ذاك ـ من سيكون ماذا ... كنا نتجمع فى مشرب صغير ، لا يزال قائما فى ردهة الكلية .. مشرب لا يتسع لاكثر من عشرة اشخاص ، ولكنه كان فى نظرنا ـ اذ ذاك ـ شيئا عظيما ..

هناك كنا نلتقى بعد دروس الادب الالمانى التى كان ـ ولا يزال ـ يلقيها الاستاذ « اميل اشتايجر » . وكنت آخذ بطرف فى المناقشات الادبية ، التى تدور بين هذا الاستاذ وتلاميذه . واذكر اننى اثرت ـ ذات مرة ـ موضوع الملحمة الشعرية ، والى اى مدى يمكن ان تعتبر مادة تاريخية .. لا اذكر الان ماذا كان رأيى اذ ذاك ، او ماذا كان راى الاخرين ..

ولكنى اذكر اننى كنت اعرف ان « فريدريش دورينمات » هذا من قرية (كونولفنجين) فى مقاطعة (بيرن) ، وهى قرية قضيت فيها بعض الوقت . وذات مرة ، قال لى استاذ الاجتماع ـ وهو اليوم استاذ لنفس المادة فى جامعة كولونيا ـ ان هذا الشاب « دورينمات » كتب مقالا ممتعا فى مجلة « الفيلت فوخه » ، وانه من الممكن ان يكون كاتبا كبيرا يوما من الايام .

وصار « فريدريش دورينمات » كاتبا كبيرا بالفعل .. كبرى مسرحياته « زيارة السيدة العجوز » ، مثلت على مسارح الدنيا بكل لغة .. وروايته ـ التى انتهى اليوم ـ اصبحت من معالم القصص فى عصرنا .

والرجل اليوم فى السابعة والاربعين من عمره ، فقد ولد سنة ١٩٢٣ ، وكان ابوه قسا بروتستانتيا .. ودرس الاداب واللاهوت فى جامعة زيوريخ ، ثم انصرف بعد ذلك للتاليف .

ومن حسن الحظ انه لم يجر فى طريق « الابسوردية » او اللامعقول ، بل انشا ادبه على الاصول التى تواضع الناس عليها ، منذ عرف الناس الانشاء الادبى ، وهى ان يكون الكلام واضحا مفهوما ، والافكار انسانية او مقبولة عند الناس على الاقل .. ومن ثم فانت لا تعانى معه ما تعانيه مع الكثيرين ممن يكتبون فى عصرنا ، وبخاصة « صمويل بيكيت » و « كابل تسوكماير » ، ومن اليهما .

سخرية من القصص البوليسى المرتب المحكم

القصة التى أقدمها اليوم ، قصة بوليسية ..

هكذا تبدو فى ظاهرها ، وبهذا ينطق القـــالب الذى صيغت فيه . ولكنها ــ فى الحقيقة ــ تأخذ بعـد البداية مباشرة ، اتجاها يختلف كل الاختلاف عن اتجاه ما نعرف من القصص البوليسى .. تتحول الى دراســة نفسـية ، مأساة رجل بوليس وقف عاجزا أمام جريمة لا حل لها .. هنا تشبه القصة ــ من بعيد ــ « يوميات نائب فى الأرياف » لتوفيق الحكيم .. هى الأخرى تبدأ وكأنها قصة بوليسية ، لتتحول بعد ذلك الى صورة انسانية بالغة الابداع .

قصتنا هذه تبدأ بجريمة قتل .. صبية فى الرابعة عشرة من عمرها ، اعتدى عليها وحش آدمى ، ثم قتلهــا وشوه جسدها بموسى ، والقى جثتها فى غابة ، ومضى دون ان يخلف أدنى أثر . عقب هذا تبدأ التحقيقات والبحوث البوليسية المعروفة ، دون نتيجة .. **بقية القصة هى حكاية مفتش البوليس الذى جن جنونه أمام هــذه الجريمة ، ورصد حياته لكشف سرها ، وما زال يلح فى ذلك ، حتى تحطم هو نفسه وضاع عمره بددا !..**

انها ــ فى حقيقتها ــ سخرية من القصص البوليسى .. « دورينمات » نفسه يقول هذا ، على لسان مفتش آخر ، فى حديث له مع أحد الكتاب .. يقول مفتش البوليس : « .. المشكلة اننا نجد فى كل هذا القصص البوليسى ، الذى يكتبه الكتاب ، لونا مختلفا من التزييف ، يتكرر ويتردد . اننى لا أشير بذلك الى ما يحدث عادة فى هذه القصص ، من القبض على المجرم وانزال العقــاب به .. فمثل هــذه الإساطير الخرافية اللطيفة ضرورية فيما أظن . انها من ذلك الطراز من الأوهام الذى يعين على حفظ النظام ، مثلها فى

ذلك مثل العبارة الورعة التى تتردد قائلة أن الجريمة لا تثمر، فى حين أن أى انسان لا يحتاج الى أكثر من تأمل احوال المجتمع ، ليتبين مقدار الحقيقة فى هذا القول ! .. لا بأس عندى فى أن أسلم بهذه الأوهام ، ولو لمجـرد صالح المهنة التى نقوم بها ، فان كل جمهور من الناس ، أو من دافعى الضرائب ، له الحق فى أن يستمتع بأبطاله ونهاياتهم السعيدة .. ونحن ، رجال البوليس ، وأنتم ــ الكتاب ــ ملزمون بأن نقدم للناس هذه المتعة .. هذا كله لا يضايقنى ، اما الذى يثير غضبى ، فهو التصميم القصصى ــ Plot ــ الذى تقدمونه ، هنا يبلغ الزيف الى أن يصبح بالغ الجفوة وقلة الحياء .

« اننا لا نستطيع أن نحل معضلة جريمة كما نحل معادلة رياضية ، لاننا لا نملك كل المجهولات اللازمة .. فى العادة » نعرف قليلا من هذه المجهولات ، وأقلها أهمية بصورة خاصة ان الحظ ــ ذلك الشيء الذى لا يمكن حسابه أو تقديره ــ يلعب دوراً أكبر مما ينبغى له . قواعدنا مبنية على الاحتمالات والاحصائيات ، لا على العلل الحقيقية . انهــا تنطبق على الواقع ، فى صورة عامة فقط .. ان أدواتنا لكشف الجرائم غير كافية ، وكلما حاولنا ضبطها وتحديدها » ظهرت قلة كفايتها بصورة أوضح !

« ولكنكم ــ معشر المشتغلين بالادب ــ قلمــا تحفلون بذلك . لا تريدون أن تشغلوا أنفسكم بهذا اللون من الحقائق الذى يفر من بين أصابعنا دائما .. بدلا من هذا ، تنشئون عالمــا تستطيعون التحكم فيه .. هذا العالم ربما كان كاملا .. من يدرى ؟ .. ولكنه ــ أيضا ــ اكذوبة ! ..

« لا بد لكم من التخلى عن ذلك الكمال المفتعل ، اذا كنتم تريدون أن تصلوا الى شيء .. اذا كنتم تريدون أن تصلوا

الى حقائق الأشــياء .. بدون هذا ، ستجدون أنفسكم متخلفين دائما ، تلهون بألاعيب أسلوبية ..! »

هذه السطور تلقى ضوءا كاشفا على طبيعة القصة التى سنقرأها . انها جريمة ملغزة ، من النوع الذى يواجه رجال البوليس فى معظم الحالات .. جريمة دون مفاتيح ، جريمة لا نجد فيها هذا الترتيب الهندسى ، الذى نجده عند «كونان دويل» . و «جورج سيمينون» ، «وأجاثا كريستى» و « ايان فليمنج » .. الترتيب الجميل المحكم ، الذى يهدى رجل البوليس الذكى الى الحقيقة خطوة خطوة ..

فى قضيتنا هذه ، لا يوجد مفتاح واحد . ومعنى ذلك أن رجل البوليس لن يستطيع أن يخطو خطوة واحدة ..

فى مثل هذه الجرائم ــ وهى الغــالبية ــ يســتمر التحقيق والبحث حينا ، ثم تقفل القضــية ، تدرج تحت ما يسمونه : « جنايات من فعل مجهول » .. ثم تتراكم من ورائها القضايا والجرائم ، لأن الدنيا لا تتوقف . قد ينكشف سرها يوما ما ، ولكن شــيئا لا يحدث اذا لم ينكشف !

ولكن ، ما الذى يحدث اذا اصر واحد من رجال البوليس على أن يكشف امر جريمة من هذا الطراز ؟ .. اذا أراد أن يواجه جريمة طبيعية ، من النوع الذى يحدث كل يوم ، واصر على أن يصل الى سرها ؟ ..

ذلك هو الموضوع الطريف الذى يعالجه « فريدريش دورينمات » فى هذه الرواية ..

اشياء تحتاج الى تفسير

نبدأ القصة اذن من أولها ..

« دورينمات » رجل واقعى جدا ، يقص عليك ما يريد فى بساطة تحسب معها أن يده كفنان لم تتدخل فى العمل

قط .. فى نهاية القصة فقط تشعر أن بساطته تلك هى عمله كفنان ، وانها فى ذاتها عمل عسير كل العسر .

لقد سمع القصة من رئيس سابق لادارة البوليس فى (زيوريخ) ، ثم أصبح هذا الرجل نائبا فى البرلمان ، لقيه فى مدينة (خور) ـ أو (كوار) كما يقولون ـ بالفرنسية ـ وهى عاصمة مقاطعة (الجراوبندن) أو (الجريزون) .. كان الكاتب قد ذهب الى هنـاك ليلقى محاضرة عن فن القصص البوليسى ، ولم يحضر المحاضرة الا نفر قليل . وكان الجو باردا ثقيلا ساكنا .. وعاد الى فندقه ، وهناك لقى رئيس البوليس السابق هذا .. شربا وسهرا معا ، بحكم الضرورة ، لا عن استلطاف أو مودة ، واتفقا على أن يعودا فى الغد الى زيوريخ ، فى سيارة رئيس البوليس .

فى الغد ، مضت بهما السيارة من (خور) نحو زيوريخ .. فى الطريق وقفا عند محطة بنزين .. على مقعد فى تلك المحطـة جلس رجـل مسن ، مهمل الهيئة ، يبدو لأول وهلة أنه فى حالة غير طبيعية .. تبينا بعد قليل أنه صـاحب المحطة فطلب اليه مدير البوليس ، أن يملأ الخزان وينظف درع الريح الزجاجى .. ثم مضيا الى مشرب ملحق بالمحطة .. كل ما فى المشرب يثير الاشمئزاز .. المنظر العـام ، والسيدة التى تعد المشروبات ، والفتاة التى تخدم ، ثم .. القهوة التى شرباها !

كان يبدو بوضـوح أن رئيس البوليس يعرف جميع أولئك الناس ، وهم يعرفونه .. وعندما خرجا ، وجـدا الرجل جالسا كما كان بعد أن ملأ الخزان وتظف زجاج السيارة . انصرف رئيس البوليس دون أن يحييه . وقبل أن تتحرك السيارة بهما ، رأياه يهز يده فى شبـه جنون ويقول :

ـ سأنتظر .. سأنتظر .. سيأتي .. لا بد أن يأتي !

رجل مثالي .. وفرصة جميلة ضاعت !

كان لا بد أن يكشف مدير البوليس لرفيقه عن سر هذه المحطة ، والمشرب الملحق بها ، والرجل الجالس هناك . ولم يكن الكاتب بحاجة الى أن يطلب اليه ذلك ، فقد كان من الواضح أنه يريد أن يتكلم ..

قال ، بعد مقدمة يسيرة : هذا الرجل العجوز اسمه « ماتاى » . كان من أنجب مفتشي البوليس عندى .. كان يحمل درجة « كابتن » ، لأننا في قوات البوليس ـ في المقاطعات ـ نحمل ألقابا عسكرية . كان رجل قانون مثلى ، حصل على دكتوراه في القانون من جامعة (بازل) ، وكان ميالا الى الوحدة بطبعه .. كان شديد الدقة في عمله ، يسير في خياته كأنه آلة مضبوطة ، حتى سماه زملاؤه .. « مات در أوتومات » .. (ماتاى الأتوماتيكى) .

وكان دائما حسن الهيئة والزى ، مستعدا للعمل .. ولم يكن يدخن أو يشرب . كان يأخذ عمله أخذا عنيفا جعله قليل الحظ من حب زملائه ، برغم توفيقه الكبير . كان عزبا ينفق وقته كله وجهده كله في عمله .. ولم يكن له بيت ، فكان يقيم في غرفة في فندق (أوريان) في ميدان (بلفى) .. لم أسمعه مرة واحدة يتحدث عن حياته الخاصة ، ربما لأنه لم تكن له حياة خاصة .. كان عنيدا شديد العزم ، لا يكاد يتعب من العمل ، ولا مكان للعاطفة في تفكيره أو عمله !

قبل تسع سنوات ـ وهو التاريخ الذى بدأت فيه مأساة « ماتاى » هذا ـ كان قد وصل الى القمة في عمله . كان مساعدى الأول ، وكان بديهيا أن يخلفنى ، فقد كنت اذ ذاك في أواخر سنوات عملى ، وكان من الطبيعي أن يفكر ولاة الأمور فيمن يخلفنى . ولكن فكرة ترقية « ماتاى »

مكانى كانت تلقى بعض الصعوبات فهو ــ اولا ــ لم يكن ينتسب لأى حزب سياسى .. ولم تكن هذه بالعقبة الكبيرة . اما العقبة الحقيقية ، فكانت نفور رجال البوليس منه ، وخوفهم من أن يسوقهم سوقا عنيفا .. ومن هنا فقد كان من المنتظر أن يعترضوا عليه .. وفى نفس الوقت ، لم يكن من الممكن للجهات العليا أن تتجاهل هذا الاعتراض ، ولم يكن ممكنا كذلك ان تتخطى اكفأ الموجودين . **ولهذا فعندما تلقت حكومة الاتحاد فى (برن) طلبا من حكومة (عمان) أن تنتدب لها رجلا كفءا ليقوم بتنظيم البوليس ، بدا هذا الطلب كأنه استجابة لدعوة حارة . فأسرعت ادارة مقاطعة زيوريخ باقتراح اسم « ماتاى » ، ووافقت كل من (برن) و (عمان) . وسر « ماتاى » بذلك ، فقد وجد فيه فرصة لتغيير الجو والقيام بعمل جديد . وأفضى الينا بأنه ــ بعد أن ينتهى عقده مع حكومة الاردن ــ لن يعود الى بوليس (زيوريخ) ، بل سيرتب أمر معاشه ، ثم يذهب الى (الدانمرك) ليعيش مع أخت له تزملت هناك .**

وتمت الاجراءات على عجل .. رتب « ماتاى » شؤونه ، واتم الاتفاق مع (الأردن) ، ولم تبق الا أيام قليلة ليسلم عمله لهنزى ــ المساعد الثانى بعده ــ ثم تمضى به الطائرة ، عابرة جبال الألب والبحر الأبيض .. كان هذا هو المنتظر ، عندما دق جرس التليفون ــ فى مركز البوليس ــ فى عصر يوم من تلك الأيام . كان المتحدث تاجرا متجولا يسمى « جونتن » ، يعرفه « ماتاى » معرفة جيدة ، اذ كان قد ارتكب ــ قبل ذلك ــ جريمة اخلاقية حققها « ماتاى » ، وأدين فيها الرجل ، فقضى فى السجن فترة ..

تكلم الرجل من قرية صغيرة بجوار زيوريخ ، تسمى (ميجندورف) ، وقال انه عثر على جثة صبية مقتولة ، فى غابة قريبة من البلدة .

وكان من الطبيعى أن يتضايق « ماتاى » ، فهذه هى أيامه الأخيرة فى العمل ، وما كان يحب أن ينفقها فى تحقيق جناية منفرة مثل هذه ، ثم ان المطر كان ينهمر مدراراً ، والجو مع ذلك حار خانق ، مع اننا كنا فى النصف الثانى من ابريل .. ولكننى كنت متغيبا فى (برن) ، فلم يكن لـ «ماتاى» مفر من أن يتولى القضية ، ريثما أعود على الأقل .. فطلب الى (جونتن) أن يبقى حيث هو ، ثم اتصل بمركز البوليس فى القرية ، فرد عليه الجاويش « ريزن » ، وأبلغه أن المطر غزير فى (ميجندورف) أيضا . فأمره بأن يراقب التاجر المتجول ، وكان جالسا ينتظر فى مشرب الهيرش (الوعل) . ثم أخطر وكيل النيابة ، والملازم « هنزى » ، والسائق فيللر .. وبعد قليل ، انطلقت بهم السيارة نحو القرية الصغيرة .

جريمة بشعة ورجل تحوم حوله الشبهات

عندما وصل الركب الى القرية ، تبين « ماتاى » أن الأمر بمراقبة « جونتن » كان خطأ جسيما ، فان (ميجندورف) قرية صغيرة ، أهلها فلاحون ، لا يخطر ببالهم الا أن هذا البائع المتجول هو المجرم .. وأهل القرى ينفرون عادة من الباعة المتجولين ، الذين يتنقلون من قرية الى أخرى ، حاملين حقائب فى أيديهم ، يبيعون أشياء صغيرة ، مثل شفرات الحلاقة والصابون وأربطة الأحذية والعطور والدبابيس والفرش وما أشبه ذلك .. فلم يكد الخبر ينتشر ، حتى أخذ الفلاحون يفدون الى المشرب ، ويتجمعون ببابه ، ونذر الشر بادية فى أعينهم !

وذهب « ماتاى » ومن معه الى الغابة ، مصطحبين البائع المتجول .

هناك وسط كومة من ورق الشجر والحطب ، تمددت صبية فى نحو الرابعة عشرة من عمرها ، كان نصفها الأسفل

عاريا ، وقد عبث المجرم به عبثا فظيعا ، ورقبتها مجروحة ـ بل ممزقة ـ فى أكثر من موضـــع . من حسن الحظ أن الوجه سلم من هــذا التشــويه ، ولــكن المنظر كان بشعا ، لا يستطيع تثبيت النظر فيه الا رجل بوليس معتادا على هذه الأشياء .

غير بعيد من ذلك الموضع ، وجدوا نصف الرداء الأسفل مخضبا بالدم ، ملفوفا ومدفونا فى التراب وورق الشجر ..

وأجريت الأعمـــال الروتينية بغـــاية الدقة ، وأخذت مجمـــوعة كبيرة من الصـــور الفوتوغرافية . وقام الطبيب الشرعى بالكشف الأول ، ودون ملاحظاته .. ثم أذن وكيل النيابة بنقل الجثة الى أقرب مستشفى . وتبين أن القتيلة تسمى « جريتــلى موزر » .. ابنـــة وحيـــدة لزوجين من الفلاجين ، يعملان قرب الغابة .

ذهب « ماتاى » وأبلغهما الخبر .. كان مشهدا عنيفا مؤثرا ، ولكن لم يكن من ذلك بد .. وبعد أن أفاقت الأم من صدمة الخبر المفاجىء ، نظرت اليه بعينين قويتين ـ تجمدت فيهما لوعة الألم المضنى ـ وقالت :

ـ من القاتل ؟

ـ سأبحث عنه ..

ـ أتعد بأنك ستفعل ذلك ؟

ـ أعد يا « فراو » موزر .. (اى السيدة موزر)

ـ وتقسم على هذا بخلاص روحك ؟

ـ أقسم ..

ـ تستطيع ان تذهب الآن !..

وابتعد « ماتاى » فى سرعة .. وقبل أن ينحرف ويختفى عنه منظر البيت ، سمع صرخة عالية شقت الفضاء ، أعقبها انفجار بكاء .. ذلك ألم الوالدين !.. اهتز كيانه كله ، وزاد

اسراعا فى خطوه ، وقد قرر أن يبـذل كل ما يستطيع ، ليجد ذلك المجرم .

فى سورة الغضب هم الناس بالفتك بالمتهم

عنـدما عاد « ماتاى » الى (ميجندورف) واجه أولى مشاكل هذه القضية المحزنة .. كان أهل القرية وما جاورها من الحقول ، قد سمعوا بأن « جونتن » ــ البائع الجوال ــ له يد فى هذه القضية ، على صورة ما .. فقطعوا بانه المجرم ، خاصة وقد وجدوا أن البوليس رصد رجلا لمراقبته ، وأخذوا يتجمعون شيئا فشيئا أمام المشرب ، الذى جلس هذا المسكين فيـه .. ثم وصلت سـيارة البوليس الكبيرة ، ورأى رجال البوليس ان الأفضل أن ينقل « جونتن » اليها .. **وتم ذلك ، وجلس الرجل فى السيارة بين اثنين من رجال البوليس ، فلم يشك رجال القرية فى أنه المجرم ، وأحاطوا بالسيارة وطالبوا بتسليمه اليهم ليقتصوا منه . وحاول « ماتاى » ووكيل النيابة ورجال البوليس أن يصرفوهم عن ذلك دون جدوى .**

كان غضبهم يشتد دقيقة بعد دقيقة ، واقبل ناس من القرى المجاورة ليشدوا ازرهم . وبدا بوضـوح أن الأمر سينتهى بهجومهم على السيارة ، وأخذ الرجل وشنقه على شجرة ..

وأخيرا لجأ « ماتاى » الى اقناع أولئك الناس بسخف ما يريدون ، فى بلد تعتبر العـدالة الكاملة من أسس الحكم الرئيسية فيه . فأعلن اليهم أنه مستعد لتسليم « جونتن » اليهم ، اذا تعهـدوا بأن يعاملوه معـاملة عادلة ، وتحملوا مسئولية ذلك . ودارت بينه وبينهم مناقشة تعتبر نموذجا لما يجرى بين أهل سويسرا من المناقشات فى شئونهم العامة ، وهى مناقشات تضع يدك على سر سلامة نظم هذا البـلد ومتانتها ، فهى قائمـة على أساسين لا ثالث لهما : الحرية والمسئولية .. حرية كل مواطن فى أن يقول ما يريد ، وفى

أن يستمع الناس له فى احترام .. ثم مسئولية كل مواطن عن كل عمل يقوم به ، وهى مسئولية كاملة لا تعرف التجزئة أو التحايل أو القاء بعضها على الغير .

فى نهاية هذه المناقشة ، تبين الناس انهم لا يستطيعون تحمل مسئولية ما يطلبون ، وان المعقول والعادل هو أن يترك الأمر للبوليس ، وتتحرك سيارة البوليس أخيرا .. ويودع « جونتن » السجن ، ويبدأ التحقيق .

هذا هو كل ما عرفه المتهم عن الجريمة

قص « جونتن » على المحققين ما كان يعرفه ..

قال انه زار قرية (ميجندورف) ، وباع أشياء قليلة ، يوم الحادث .. ثم حان وقت الغداء ، فمضى بسفط طعامه الى حافة الغابة الصغيرة ، ليأكل ويستريح قليلا ، ثم يعود الى القرية . ولكنه فضل أن يذهب الى مشرب « الهيرش » فذهب ، وأكل ، وشرب قدرا كبيرا من البيرة . ثم ذهب الى الغابة ، واستلقى على حافتها ونام ..

ولم يدر ما الذى ايقظه قبل أن يستتم نومه .. خيل اليه انه سمع صوتا مفزعا ، اشبه بصرخة مكتومة ، أو صراخ طائر .. ظن انه صوت بومة .. افاق قليلا ، ثم غلبه النوم . لم يطل نعاسه هذه المرة ، اذ أيقظه سكون الغـابة الرهيب حوله .. وعاد الى ذاكرته الصوت المفزع الذى سمعه .

شعر بشىء من الخوف فنهض ، ونفرت نفسه من فكرة العودة الى (ميجندورف) ، وقرر العودة الى المدينة عن طريق الغابة ، متحاشيا الجاويش « ويرن » ، وهو رجل البوليس فى (ميجندورف) .. وفى نقطة ما من الغابة ، عثرت قدماه بشىء فوقع .. وريع اذ تبين أنه وقع على جثة قتيلة مغطاة بأوراق الأشجار .

لم يضيع وقتا .. فأسرع الى (ميجندورف) ، واتصـــل

ببوليس زيوريخ ، وتحدث الى الرجل الذى كان يعرفه هناك ، وهو « ماتاى » . وذلك كل ما يعرف عن الموضوع .

كان احساسى أن الرجل لا علاقة له بجريمة القتل .. حقا انه كان شخصا منفرا لا يدعو الى الثقة ، ولكن هذا شعور شخصى .. ومهما ساء الظن فيه ، فهو لا يحمل طابع القتلة أو السفاكين .. ولكن الاجراءات هى الاجراءات ، وكان علينا أن نسير فيها الى النهاية ..

هنا كان ينبغى أن تنتهى القصة

خصصت خيرة رجالى للقضية .. كان المفروض أن يتولاها الكابتن « هنزى » ، الذى تقرر ان يخلف « ماتاى » ، ولكن هذا الأخير كان خير رجالى ، ولم أجد مفرا من الاعتماد عليه فيها ، الى أن يرحل .

وهكذا أخذ الرجل يعمل فى القضية وهو شبه مستقيل من عندنا ، ووظيفته الجديدة تنتظره فى عمان بعد أيام !

وقمنا بكل البحوث الممكنة . لم ندع شبرا من أرض الغابة دون بحث .. حللنا كل المواد التى عثرنا عليها .. أبلغنا كل المصابغ و « جراجات » السيارات ، لعل قطعة ثياب أو سيارة — عليها بقع دم — تصل اليها .. درسنا تاريخ البنت وخلقها وعاداتها ، وسبب ذهابها الى الغابة وما أشبه .. ولم نصل الى شىء !

هذه معضلة بلا مفاتيح ، بل بلا مفتاح واحد !

ولكن لأمر ما ، كان الجميع ميالين الى اتهام « جونتن » .. استجوبه « هنزى » مائة مرة ، حتى انهك قواه ! .. وفى **مثل هذه الحالات ، لا بد أن يقع تضارب فى الأقوال . وحينما يقص الانسان نفس القصة مائة مرة — الأولى فى الساعة الثانية بعد الظهر ، والأخيرة فى الرابعة صباحا — لا يمكن ان تتفق القصتان تماما ..**

وكان « هنزى » رجلا عنيفا بفيضـا .. رجوناه مائة مرة ان يقلع عن أساليبه ، ولكن أمثاله لا يسمعون النصح .. انه شاب من أسرة موسرة ، تزوج فتاة من أسرة غنية أيضا ، ووصل الى أن يحل محل « ماتاى » وهو بعــد فى حوالى الخامسة والثلاثين .. شاب كهذا لا يؤمن الا بنفسه ، وقلما يفيد من تجارب الآخرين .

وفى مساء اليــوم التالى ، أتانى باعتراف الرجل ! نعم اعترف « جونتن » هذا بانه هو القاتل !..

ولم أصدق أنا ، ولم يصدق « ماتاى » ذلك . فذهبنا وســألنا الرجل ، فأكد اعترافه .. كشفنا عن آثار ضرب أو سوء معاملة .. لا شىء !

امام هذا ، لم يكن فى استطاعتنا الا أن نســلم بصحة الاعتراف ..

كسب « هنزى » نصرا باهرا ، فى أول قضية تولاها .

ولم يطــرب « ماتاى » للأمر .. هز كتفيــه فى انكار وصمت ... على أى حال ، كان عمله معنا قد انتهى فعلا ، وبعد غد تحمله الطائرة الى (الأردن) ..

وفى مساء يوم الاعتراف نفسه ، فوجئنا بأن « جونتن » انتحر .. وجد البائع الجائل مدلى من حبل فى غرفة سجنه .. شنق نفسه !

على هذه الصورة انتهت القضية نهائيا ، بالنسبة لى ، ولبوليس زيوريخ ، وللقضاء ..

ولكن ماتاى اصر على الوفاء بعهده

ولكنها ــ مع الأسف الشديد ــ لم تنته بالنسبة لـ«ماتاى» ! **.. شىء أشبه بالجنون تمكن من هذا الرجل .. كان مؤمنا بأن « جونتن » لم يفعل شيئا ، وان المجرم لا يزال طليقا !**

قبل سفره بيوم ، ذهب الى (ميجندورف) ، وحضر

جنازة الفتاة القتيل « جريتلي موزر » ، ورأى رفيقاتها فى موكب الجنازة .. وامتلأت نفســه بالغيظ والخوف .. الغيظ من المجرم الوضــيع ــ الذى عدا على فتاة بريئة ــ والخوف من أن يعتدى على فتاة أخرى من رفيقاتها !

وهذا حق .. ما دام مثل هذا الرجل طليقا فالخطر قائم .. وقــد ســبق أن ارتكبت ــ قبــل هذه ــ جريمتان مماثلتان ، فى مكانين عالى نفس الطــريق من (زيوريخ) الى (خور) .. الأولى فى (سان جالن) ، والثانية فى (شفيتس)

وفى اليوم التالى ، ذهب الى المطار ليرحل الى عمان .

فى المطار ، وجد عشرات البنات الصغيرات ، اتت بهن مدارسهن فى رحلة للمطار .. وأحس وهو يتأملهن انهن فى خطر ، وأنه لا يليق به أن يتركهن تحت رحمة مجرم فاتك ويمضى ..

فجاة ، الغى سفره ، وعاد الى زيوريخ !

وجاء ليقابلنى .. جاء ليقول انه يريد أن يســير فى القضية !.. اعتذرت له ، فهذه قضية انتهت رسميا ، ثم انه لم يعد يعمل معنا ، فليس من حقه أن يتولى قضايانا !.. أضف الى ذلك ، أن هناك اتفاقا رسميا بين حكومة الاتحاد السويسرى وحكومة الاردن ، وهذا الاتفاق ينبغى أن ينفذ .. لا بد أن يترك هذا الجنون ويرحل !

ولكنه لم يترك هــذا الجنون ، ولم يرحل .. قرر أن يتعقب القاتل لحسابه الخاص .. قرر أن يتعقب قاتلا وهميا فى رأيى ، لأن القاتل الحقيقى اعترف ووقع على اعترافه ، ثم انتحر !

لم يكن فى يد ((ماتاى)) خيط واحد مفيد ، ولكن هوسه بالعثور على القاتل جعله يتصور أن فى يده خيطا ..

ذهب الى (ميجندورف) وتحدث الى صبية كانت صديقة

ل «جريتلى موزر» ، فعرف منها أنها رسمت صورة ما ـ بالقلم الرصاص ـ قبل أن تموت بأيام .. وقد رسمت فى الصورة ماردا ، وقنافذ ، وتيسا ، وشيئا يشبه سيارة كبيرة سوداء !

بعـد تفكير طويل ، أتانى ليقول ان المارد يرمز الى أن المجرم رجل ضخم ، وأن القنافذ ترمز الى نوع من الشيكولاتة كان القاتل يعطيه ل « جريتلى »وأن التيس هو شارة مقاطعة (جراوبندن) .. ومعنى هذا ، أن القاتل يركب سـيارة سوداء كبيرة ، فى (الجراوبندن) .. وحيث أن الجرائم الثلاث ارتكبت على نفس الطريق ، فلا بد أن القـاتل يمـر خلاله بسيارته !

ولكى يعثر عليه ، اشترى محطة بنزين ، ليعمل فيها بنفسه ويراقب ..

ثم تبنى فتاة فى هيئة « جريتلى موزر » لتـكون طعما للقاتل !

لم يكن يشك فى أن القاتل سيقع قريبا .. ولكن القاتل لم يقع ، لا قريبا ولا بعيدا .. ظل « ماتاى » ينتظر وينتظر .. كانت المحطة تغل ربحا لا بأس به .

وطول النهار ، كان « ماتاى » يظل واقفا على قدميه يتأمل كل سيارة سوداء كبيرة .. وعلى مقربة منه كانت تجلس الفتاة الصغيرة ـ التى تشبه « جريتلى » ـ واسمها « آن مارى » .

ومرت شهور ثم سنون .. و « ماتاى » ينتظر !

ومع طول الانتظار العقيم ، وتركيز أفكاره فى نقطـة واحدة ، أخذت شخصيته تنحل شـيئا فشـيئا .. وأهمل مظهره ، فلم يعـد يحلق ذقنه أو يعنى بثيابه .. وأهمل النظافة ، فكان لا يكف عن القاء أعقاب السجائر على الأرض .

وكان قد أخذ أم الفتـاة الصغيرة ، لتعمل فى بيته .

وحسبت المرأة أنها أعجبته، فلما عرفت أن غرضه كله أن يتخذ ابنتها طعما لقاتل ، احتقرته !.. وكانت من أصلها امرأة سوء ، فمضت تسيء معاملته ، ثم أنشأت من ماله ذلك المشرب الذى رأيته . ولم يحفل « ماتاي » بشيء من ذلك .. وصل الى الحال التى رأيناه فيها — فى أول القصة — دون أن يشعر .. كان لا يزال ينتظر القاتل .. **وقبل أن أحال الى المعاش بأيام ، استدعتني سيدة تسمى « شروت » الى مستشفى زيوريخ ، لأسمع اعترافا خطيرا منها وهى على فراش الموت ..**

وانتهيت الى الغرفة التى رقدت فيها المحتضرة . قصت على قصة سخيفة تملأ مجلدات .. وكان الى جانبها قس يقول بين الحين والحين : « اختصرى قصتك يا فراو شروت ، والا فلن يتسع الوقت لاعطائك البركة الأخيرة ! »

وبشق النفس ، عرفت أن هذه السيدة تنحدر من أسرة من أسر مدينة (بازل) الموسرة ، وانها من أسرة « شتيتزلى » ذات الصيت البعيد ..

وكان لها زوج مجنون يسمى « البرت » .. كان جنونه يخيل له ان السماء تأمره بقتل فتيات صغيرات ، ذوات شعر ذهبى ، و « جونلات » حمراء .. قتل بالموسى فتاة تسمى « سونيا » — فى مقاطعة (سان جالن) — وأخرى تسمى « ايفيلى » فى مقاطعة (شفيتس) ، وثالثة تسمى « جريتلى » فى (ميجندورف) .

وقالت المرأة ان هذا المجنون المنكود أراد أن يقتل رابعة ، كانت تجلس الى جانب محطة بنزين ! .. بنتا جميلة لطيفة ، ذات شعر أصفر و « جونلة » حمراء .. بالضبط من النوع الذى يحبه البرت !.. ولكنها — أى زوجته التى تحتضر الآن — غضبت وأنبته تأنيبا شديدا ، فأخذ سيارته

« البويك » السوداء ، وخرج بها فاصطدم بشجرة ومات !

وقبـــل أن تغيب الشمس ، كانت المرأة قد أسلمت الروح ..

وختم رئيس البوليس السابق كلامه قائلا : « أنت ترى أن « ماتاى » كان على وشك أن يضع يده على القاتل .. كان تقديره كله صحيحا ، لولا مصادفة سيئة .. لولا تأنيب السيدة لهذا المجنون !..

« ولقد قصصت ذلك كله على « ماتاى » .. أصغى الى وهو شبه غائب عن الوجود كعهده ، ثم ابتسم ساخرا منى .. تصور أننى أكذب عليه !.. وقال دون أن يلتفت الى : سيعود القاتل يوما ما .. سأقبض عليه ! »



MULATTO (A PLAY BY : LANGSTON HUGHES)

كيف استطاع الزنوج أن يفرضوا أدبهم ؟

• لم يكن للزنوج فى أمريكا — حتى العشرينات من هذا القرن — ادب ولا مسرح .. اللهم الا ما كان البيض يكتبونه عنهم .. واللهم سوى أدوار « مصطنعة » ، كان البيض يؤدونها على المسرح ، وهم يصبغون بشرتهم بالسواد ! .. فاذا قدر لزنجى أن يبلغ من المعرفة ما يمكنه من الكتابة عن آمال قومه وآلامهم ، كان الناشرون يمتنعون عن نشر ما يكتب .. لانهم بيض ! واذا استطاع زنجى أن يضع مسرحية عن حياة بنى جلدته ، وما يلقون من عنت ، كانت المسارح تعرض عن اخراجها .. لأن المسيطرين عليها من البيض !

بيد ان الزنوج ظلوا يجاهدون ، حتى استطاعت أعمالهم الادبية والمسرحية ، ان تفرض نفسها على صحف البيض ، ودور نشرهم ، ومسارحهم ..

والمسرحية التى نلخصها لك فى الصفحات التالية ، مثال لصراع الزنوج — عن طريق الادب والفن — لكى يصلوا بأصواتهم الى آذان الانسانية .. وقد عالج « لانجستون هيوز » فكرتها فى بادىء الامر فى « قصيدة » ، فرضت نفسها على مجلة « ساترداى ريفيو » — احدى المجلات الادبية الامريكية الكبرى — فنشرتها فى صيف ١٩٢٦ تحت عنوان « الخلاسى » ، (اى الذى يجرى فى عروقه مزيج من الدم الابيض والدم الاسود) .. وقوبلت القصيدة بضجة فى الدوائر الادبية والسياسية على السواء ، فما لبثت أن تحولت الى مسرحية ، تفضح أبشع الوان الظلم الذى يوقعه البيض — فى الجنوب الامريكى — بالزنوج .. واضطر « لانجستون هيوز » الى أن ينشىء عددا من المسارح الزنجية ، لعرض مسرحيته ، وغيرها من مسرحيات بنى جلدته ..

واستطاعت المسرحية — التى ظهرت أيضا تحت عنوان « الخلاسى » Mulatto — ان تثير ضجة اشد مما اثارته القصيدة .. وقوبلت من النقاد وذوى الرأى باهتمام كبير ، اذ اجمعوا على انها بمثابة « انذار » من الزنوج الى البيض فى أمريكا ، فى وقت لم تكن فيه حركة الزنوج — للمطالبة بالحقوق المدنية — قد اتخذت شكلا جديا ..

وبلغ من الاستقبال الذى استقبلت به المسرحية ، أن اضطرت مسارح (برودواى) الكبرى — فى سنة ١٩٣٥ — الى ان تتنازل عن صلفها ،

وتعرضها ، رغم كونها ((زنجية)) الكاتب ، و ((زنجية)) الموضوع ! .. وقد ظلت تعرض هناك عاما كاملا .. كما أوحى نجاحها بأن تصـاغ فى قالب ((أوبرا)) باسم ((الحاجز)) ـ The Barrier ـ عرضت فى سنة ١٩٥٠ .

ولقد ترجمت ((الخلاسى)) ـ أو ((ابن الجارية)) ـ الى عدة لغـات .. ومع ذلك ، فانها لم تنشر فى كتاب بلغتها الاصلية ، الانجليزية ، قبل سنة ١٩٦٣ ، عندما بدأ الادب الزنجى والمسرح الزنجى يفرضان وجودهما .. وعندما اخذت قضية الزنوج فى أمريكا تتطور الى حركة جدية عنيفة ، تنذر بحرب أهلية ..

مؤلف المسرحيـة

• أما ((لانجستون هيوز)) ، المؤلف ، فقد ولد فى عام ١٩٠٢ ، فى مدينة (جوبلين) ، بولاية ميسورى ـ وهى أحد معاقل البيض الغالين فى العنصرية فى امريكا ـ وقضى معظم أعوام صباه فى (لورنس) ، بولاية كنســاس .. واستطاع ان يظفر بقسط من العلم ، مكنه من أن يجد ((متنفسا)) لما كان يتفاعل فى أعماقه من مشاعر وآلام ، وهو يرى الملونين فى أمريكا يعاملون معاملة دون معاملة الحيوانات !

وقد بدأ ((لانجستون هيوز)) حيـاته الادبية شاعرا .. وتنقل بين (نيويورك) و (باريس) ، حيث ذاق علقم المهانة ، ومرارة الفقر .. وفى أوائل العشرينات ، بدأ اسمه يتالق كشاعر ، فى (نيويورك) .. وفى سنة ١٩٢٦ ساهم فى اصدار مجلة زنجية فصلية ـ أى تظهر كل ثلاثة أشهر ـ اطلق عليها اسم ((النار)) .. وهو اسم كان كافيا فى حد ذاته لأن يصـور ما يعتمل فى نفوس الزنوج ..

وشجعه نجاحه كشاعر ، على أن يؤلف مسرحيات .. لكنه قضى شطرا كبيرا من الثلاثينات من هذا القرن ، فى علاج مشكلة اظهار مسرحيـاته ـ ومسرحيات بنى جلدته ـ الى النور .. وعمد فى سبيل ذلك الى انشاء عدد من المسارح للتمثيليات الزنجية !

واستطاع أن ينتصر .. واضطرت الاوساط الادبية والفنية فى أمريكا الى تقديره .. ومنذ سنوات قلائل ، توفى ((لانجستون هيوز)) بعد أن ترك لقومه ـ وللادب الانسانى عامة ـ ثروة أدبية .. وقومية !

تمهيـد

تكاد مشاهد هذه المسرحية تنحصر فى مكان واحـد ، هو قاعة الجلوس ، فى قصر سيد ضيعة ، فى ولاية (جورجيا) ـ

احـــدى ولايات الجنوب الأمريكى ــ حيث يتخـــذ التمييز العنصرى أبشع صورة ، فيمعن البيض فى انزال ألوان الخسف بالسود !

والحجرة واسعة ، فخمــة الأثاث ــ برغم قدم قطعـــه وطرازها ــ وتنتهى مؤخرتهـــا بباب كبير يفضى الى المدخل الأمامى للقصر .. بينما يوجد ــ الى اليسار ــ سلم رخامى عريض ، يفضى الى الطابق الثانى .. وبجواره باب يفضى الى حجرة المائدة والمطبخ .. يقـابله ــ الى اليمين ــ باب حجرة المكتب ..

ومن هذا الباب الأخير ، يبرز ــ عند رفع الســـتار ــ الكولونيل « توماس نوروود » .. رجل قوى البنيـــة ــ برغم أعوام عمره الستين ــ بادى الغلظة والغطرسة ، سريع الانفعال .. ونسمعه ينادى « كورا » ، فى صبر نافد ، فتجيبه ــ من أعلى السبـــلم ــ زنجيـــة فى حوالى الخامسة والأربعين من عمرها ...

وقبل ان تبدأ الأحداث ، يحسن بنا ان نذكر ان ((كورا)) تشرف على قصر الكولونيل ((نورروود)) ، وانها خليلته ــ أو على الأصح محظيته ــ منذ ماتت زوجته ، قبل ثلاثين عاما .. وقد انجبت له اربعة أولاد او خمسة ، لن نرى منهم خــلال الأحداث سوى ثلاثة ، هم : ويليم ، أكبر الأبناء .. وهو شاب بدين ، وادع ، ضعيف الشخصية ، أسمر اللون ــ وسط بين البياض والسواد ــ وله ابن صغير يلازمه .. ثم « سالى » ، وهى فتاة فى السابعة عشرة من عمرها ، يغلب عليها البياض ، حتى ان من لا يعرفها لا يتصور أن أمهـــا زنجيـــة .. ثم « روبرت » ، وهو شاب فى الثامنـــة عشرة من عمره ، قوى البنية ، متين البنيان ، خفيف السمرة الى درجة أنه يبـدو أقرب الى الصفرة منه الى السواد .. وهو مزهو بأنه يشبه

« الكولونيل » الى حـد كبير ، ويأبى أن يحمل واخوته لقب « لويس » عن أمهم ، بدلا من « نوروود » عن أبيهم .. ويرفض ما درج عليه البيض فى ولايات الجنوب الأمريكى من نبذ للأولاد الذين ينجبونهم سفاحا من الزنجيات .

الفصل الأول

وعنـــدما يبرز « نوروود » من حجرة المكتب ، تكون الساعة الثانية من بعد ظهر أحـــد أيام الخريف .. ويصيح الكولونيل فى « كورا » أن تعد ابنتها للرحيل ، والا فاتها القطار .. فتجيبه بأن الفتـــاة قادمة فورا ، وان أخاها « روبرت » قد وعد بأن يقلها الى المحطة ، فى السيارة « الفورد » ، ولكنه ذهب الى المدينة ، ولن يلبث أن يحضر ..

نوروود : من أذن له بالذهاب فى السيارة الى المدينة ، فى وسط النهار ؟ .. لقد اشتريت « الفورد » لتستخدم عندما آمر باستخـــدامها ... **فاذا شـــئت أن يستقيم العيش لابنك الأصفر العنيد هذا ، فيحسن به أن يصغى لأوامرى . انه لا يزيد على أى بغل أسود فى هـــذه الضيعة .. وعليه أن يعمل كالآخرين .** ولست أقبل مثل هذا التصرف من شخص تحت امرتى .. كيف ينطلق بالسيارة الى المدينة ، فى وسط النهار ، بعد أن أمرته بأن يحنى ظهره فى العمل فى زراعة القطن .. كيف يستطيع تالبوت (المشرف على الزراعة) أن يحمل السود الآخرين على العمل ، اذا كان هـــذا الولد يضرب لهم أسوأ المثل ؟ .. **الأنه ابنك ، ولأننى كنت أحمق فأرسلـــته للمدرسة خمس سنوات أو ستا ، يظن أن له حقا فى الامتياز على سواه ، ويتصرف ــ منـــذ عاد فى الصيف ــ وكأنه يملك المكان ؟**

وتحاول « كورا » أن تهدئه ، وهى خائفة مشفقة ، تتملق عواطفه فى ذلة الجارية ، وكأنها لم تشاطره الفراش قط ..

ولكن الكولونيل يخرسها فى كل مرة ، ليواصل غضبه .

نوروود : لن أسمح لابن زنجى لى ـ أو لك ، أو لنا ـ بأن يعصى أوامرى .. لقد ارسلته الى الحقل ليعمل ، وسيبقى فى الضيعة الى أن أسمح له بالرحيل . سأخبر « تالبوت » بأن يسوطه ، اذا دعا الأمـر .. ولو لم يكن ابنك ، لذاق السوط منذ أيام .. اصعدى وعجلى برحيل « سالى » ، ولو نطقت بكلمة أخرى فلن أدع ابنتك الجميلة نصف البيضاء تسافر .. أن ابنك لم يتعلم فى الكلية سوى الوقاحة ، وسيمكث هنـا ويعمل لحسابى فترة ، قبل أن يعود الى أية مدرسة ..

كورا : أجل يا سيدى الكولونيل توم . (**فى تردد**) ولكنه صغير يا سيدى ، وقد انهار حين قلت ـ فى الأسبوع الماضى ـ انه لن يعود للكلية !

ويرمقها الكولونيل بنظرة آمرة ، فتمسك عن الكلام ، ثم تعود فترجوه ـ فى تلطف ـ ان لا يستسلم للغضب ، اشفاقا على صحته .. ولكنه يصرخ فيهـا أن تصعد ، وان ترسـل « سالى » لتودعه .. ويروح يذرع المكان فى انفعال ، ثم يجلس فى مقعده وهو يزمجر ، ويدق جرس الخـدم فى عنف .. وسرعان ما يقبل « سـام » ـ وهو عبد شيخ يقوم بخـدمة الكولونيل ـ معتـذرا عن تأخره بأنه كان ينقل حقـائب « سـالى » ..

نوروود (**غاضبا**) : الزنوج يخدمون الزنوج ، ولا أجد من يخدمنى فى بيتى . أحضر لى ويسكى وصودا ، وثلجا فى كوب !

سام : سمعا يا سيدى . (**يتراجع بظهره**) عفوا ، ولكن .. طلبت كورا أن أسـألك اذا كنت تسمح بانزال الحقيبـة القديمة ـ التى أعطيتها لسالى ـ خلال الباب الأمامى ، اذ لم نستطع انزالها على السلم الخلفى الضيق .

نوروود (**مغضبا**) : لن تلبثوا أن تطلبوا الدخول والخروج

من الباب الأمامى .. ان الزنوج يزدادون جرأة فى هذا الجزء من البلاد .. لا تخرج الحقيبة من الباب الأمامى !

سام (فى خبث وكيد) : لقد رأيت روبرت يستخدم الباب الأمامى ..

نوروود : رأيته ؟ .. سأكسر عنقه اذا فاجأته !

وتهبط سالى فى استحياء ، وتقترب من أبيها .. وتبدو بشرتها بيضاء ، وان كانت قسماتها زنجية .. ويرمقها الكولونيل دون أن يتكلم ، فتخطو فى خوف ، وتشكره على سماحه بعودتها الى المدرسة ..

سالى (وكأنها تلقى خطابا) : انك جد كريم معنا معشر الملونين ، وامى تقول انك خير رجل أبيض فى جورجيا .. **ولقد كنت كريما مع أولادك .. أقصد معنا . نحن الصغار الملونين ، فسمحت لأختى ولى بالذهاب الى المدرسة .. وفى العام القادم ، ساذهب الى مدرسة المعلمات .. اتسمح بهذا يا كولونيل توم ؟**

نوروود : اعتدلى فى وقوفك . أراك كبرت . هل يعلمونك فى المدرسة ان تكونى حسنة الاخلاق : وأن لا تخافى العمل ، وأن تحترمى البيض ؟

سالى : أجل .. وقد علمونى الطهو والحياكة كذلك .

نوروود : لقد جعلت هذه المدرسة من أختك طاهية ماهرة .. وتقول « كورا » انها تعمل الآن بفندق فى شيكاغو ، فيحسن أن تلحقى بها فى الشمال بعد عام أو اثنين .. ستكونين قد أصبحت امرأة نامية ، ولا يليق وجودك هنا .

سالى (متراجعة ، مأخوذة) : ولكنى أريد الاقامة مع أمى ، والتدريس فى المدرسة الخاوية هنا ، فهى لم تحظ بمعلمة منذ خمس سنوات ..

نوروود : لا تطمعى فى هذا .. لن يكون للمدرسة معلمة ،

فالقطن يعلم أبناء الزنوج ما فيه الكفـــاية .. انما أحضرت معلمة للمدرسة يوما ، لسبب واحد ، هو تعليم أولاد « كورا » .. لا ادرى لماذا فعلت ذلك ، فما من أحـــد من البيض ــ فى هذه البقـــاع ــ فعل هذا ! .. احسبنى لم أستسغ أن أرى اولاد ((كورا)) يعملون هنا ، راسفين فى الجهل ، كبقية هؤلاء الزنوج التافهين .. أو لعلى لم اشأ أن يضع ((تالبوت)) عينه على البنتين .. ويسرنى انك وبيرتا اتجهتما اتجاهاً سليماً .. ولقد حاولت أن أساعد أخويكما كذلك ، ولكن ((وليم)) ثقيل العقل كالثـــور ، وان كان صالحـــا للعمـــل .. أما ذلك الـ ((روبرت)) فوقح ، صلب الرأس ، أصفر اللـــون .. وساقصم عنقه يوما ، أو أسلط عليه ((تالبوت)) !

ويستولى الجزع على الفتاة ، فتتوسل اليـــه ألا يضـــع اخاها تحت رحمة « تالبوت » ، ناظر الزراعة الأبيض ، الذى يسوم الزنوج العذاب ..

نوروود : اتملين على ما أفعل ؟ **(فى صرامـــة)** ســـأصفعك بظهر يدى اذا لم تخرسى ! **(يسمع صوت السيارة)** ها هوذا « بيرت » . سيقلك للمحطة ، ويحسن ــ خلال الطريق ــ أن ترشديه .. وقولى له اننى أريده بمجرد عودته !

وتدخل « كورا » حاملة حزمـــة من قماش ومظلة .. وبينما تستحث الفتاة على الرحيل ، تفد ســـيارة أخرى ، فتقول « كورا » للكولونيل ان صديقه « هيدجنز » ــ وهو من رجال السياسة فى المقاطعـــة ــ قادم لزيارته .. وتدفع ابنتها نحو الباب الأيسر ، لتغادر القصر من باب الخدم ، بينما تسرع فتفتح الباب الأمامى للزائر ..

ويدخل « هيدجنز » ملقيا بثقل جسمه البدين على سائق سيارته « مـــوز » الزنجى ، الذى يســـاعده على المشى لأن « الروماتيزم » يكاد يقعده .. ويحاول الكولونيل مداعبـــة

صديقه ، ولكن هذا يبدى تجهما ، ويصرف سائق سيارته .. ثم يشرع فى الشكوى من وقاحة « ذلك الزنجى الأصفر ، ابن « كورا » ، لأنه صادفه فى الطريق ، فلم يفسحه له ، بل تعمد ان يسبقه بالسيارة « الفورد » ، مثيرا الغبار فى وجهه !! ..

ويحتقن وجه « نوروود » غضبا ، وهو يعتذر لصاحبه ..

هيدجنز : لن يبقى هذا الولد هنا طويلا ، بسبب تصرفاته هذه . لن يمكنه البيض فى البلدة من البقاء .. ولذا رأيت من واجبى أن أخبرك . ان البيض لن يحتملوه طويلا .. لقد كسروا باب سجن الشرطة اربع مرات ، لينتزعوا من ورائه زنوجا ويشنقوهم على الأشجار .. ويحسن أن تمنع فتاك الأصفر من الذهاب الى المدينة ، بعد الذى فعله هذا الصباح !

كان « بيرت » قد ذهب ليتسلم صمامات للراديو ، وصلت فى طرد باسمه ــ الى مكتب بريد البلدة ــ بحيث يدفع قيمتها قبل الاستلام ، وقد دفع القيمة ، ولكنه وجد الصمامات مهشمة داخل الطرد ، فحاول اعادتها الى عاملة البريد البيضاء ، واسترداد ما دفع ..

هيدجنز (مستأنفا سرد القصة) : وبدأ زنجيك فى الجدال ، ففزعت مس جراى ، وصرخت تستدعى بعض العاملين فى المكتب ــ وألقوا ببيرت فى الخارج . (**فى صلف**) ان هذا الـ « بيرت » فى حاجة الى ضرب مبرح ، لجداله مع امرأة بيضاء .. واثارته الغبار فى وجهى وانا قادم .. ان هذا البغل الأصفر لا يعرف مركزه ، وهذا ذنبك أنت يا توم ، اذ أرسلته ليتعلم !

وبينما يعده « نوروود » بالويل والثبور للعبد المتمرد ، يمضى زائره فى سرد « مخالفات » الشاب المنكرة :

هيدجنز : .. انه يقود السيارة فى الشارع الرئيسى للبلدة ، ويأبى أن يقف لأى انسان ، أبيض كان أو أسود .. ويأتى لمتجرى ، وما لم تلب طلباته بالسرعة التى تلبى بهنا

طلبات البيض ، ينصرف وهو يخبر كاتب المتجر بأن نقوده ليست أقل قيمة من نقود البيض .. **وفى الاسبوع الماضى ، قال — وهو يقف امام متجرى — انه ليس زنجيا خالصا ، وان لقبه ((نوروود)) وليس ((لويس)) كبقية أسرته .. وان جزءا من مزارعك سيؤول اليه عندما تموت !.. (ويستطرد ، و ((نورورود)) منذهول)** انك لتعلم ان هذا لا يقابل بالتسامح فى هذا الجزء من (جورجيا) ، ولا فى اى مكان آخر فى الجنوب ، فان سماع مثل هذا الكلام يفسد الزنوج الآخرين . **وكل هذه الدعاية المنطلقة من ((الراديو)) — عقب الحرب — عن الحرية والديموقراطية .. لماذا يأخذها الزنوج على انها لهم ؟.. يا للجنون ! انهم يتحدثون عن الحقوق المدنية !..** اننى اندرك يا نورورود . يحسن أن تقصى بفلك هذا عن هنا ، اننى احدثك بهدوء ، وانا أبصر ما وراء الحاضر .. انك تتساهل مع زنوجك .. وهاهى المقاطعة بأسرها تعانى من وقاحة زنوج يتلقون دروسا من عبيدك . والقوم متذمرون من هذا .. ولعله السبب فى عدم ترشيحك رئيسا للجنة البلدة منذ سنوات !

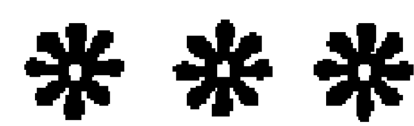
نورورود (مهتاجا) : ربما ! .. اللعنة على الزنوج ! .. كل شىء هنا ينتج زنوجا ، زنوجا ، زنوجا .. ولا عجب فى أن أهل الشمال يسمون هذا الجزء ((الحزام الأسود)) !

ويحاولان الانتقال بالحديث الى موضوع آخر ، ولكن ((نورورود)) يظل مهتاجا ..

هيدجنز : يحسن بك أن تتزوج ثانية يا توم ، وتحضر امرأة بيضاء ، الى هذا المكان الموبوء . بوسع امرأة بيضاء أن تساعدك فى تسيير الأمور .. لا شىء فى بيتك سوى السود . والرجل بينهم لا يلبث — فى أعماقه — أن يصبح رخوا ، متساهلا . **فضلا عن أنك تعيش مع امرأة سوداء ! .. أعرف**

آننا جميعا فعلنا مثل هذا .. وما كنت أعرف أن بوسع المرء مضاجعة امرأة بيضاء ، حتى تجاوزت سن العشرين ! ! .. وكم من فتـاة سمراء انجبتهـا طفـلا في شبابي . ولكن الرجل يحتاج ـ في بيته ـ الى ((زوجة)) ، وليس الى امرأة سوداء !

ويسلم « نوروود » بهذا ، ولكنه يرى أن فرصة الزواج قد فاتته . ثم يتجهان بحديثهما نحو الزراعة ، والمحصولات ، والقطن .. ولا يلبثان أن يخرجا معا . وتبـادر « كورا » ، فتحضر للكولونيل عصاه وقبعته . وبينما يأمرها في خشونة بأن تستبقى « ابنها الأصفر » في انتظاره حتى يعود ، تبدى هي اشفاقها عليه من الانسياق وراء الغضب !



وما أن يخرج الرجلان ، حتى تنادى « كورا » ابنهـا الأكبر « ويليم » ، لتريه ـ باعتزاز وزهو ـ مفرشـا طرزته أخته « سالى » بيديها .. وتفطن ـ فجأة ـ الى أن « بيلي » حفيـدها قد جلس في مقعد « الكولونيل » وأخـذ يتأرجح ، فتهيب به أن ينزل عنه ، لأنه مقعـد الكولونيل المفضـل ..

بيلي : ان الكولونيل جدى . أليس كذلك ؟ أليس هـو جدى الأبيض ؟

وليم (ينتزعه عن المقعد) : سألهب جسمك بالسـوط اذا لم تخرس ! .. **(ويلاحظ جزع أمه)** انك لتعرفين أنني لم أقل له هذا يا أماه .. **((بيرت)) هو الذى يقول لأهل الضيعة كلها ـ منذ عودته من (اتلانتا) ـ اننا أولاد الكولونيل نوروود . ويأتى الى كوخي فيقول لبيلي وماريبيل ان لهما جدا أبيض .. انه بذلك سيثير المتاعب لأولادى .. هو نفسه تسبب في ايذاء نفسه حين جلده الكولونيل توم بالسوط منذ عشر سنوات .. وهو الآن في مأزق ، لا يستطيع العودة للمدرسة ، كما كان**

منتظرا لو أنه تعقل .. اننا لا نستطيع خـــداع البيض ، والكولونيل لم يحب ((بيرت)) منذ ضربه أول مرة !

كورا (مستغرقة في الذكريات) : كلا .. ولم يحاول أن يفهمه . كان « بيرت » اذ ذاك في السابعة من عمره .. وجرى الى الكولونيل توم ، في حظيرة الخيل ، عندما كان الكولونيل يصطحب ثلة من كبار البيض ، لرؤية جياده .. **يا الهي ، ان هذا الطفل طائش دائما ! جرى الى الكولونيل ، وأمسك به ، وصاح فيه أمام البيض : ((كورا تقول ان الغداء جاهز يا بابا !)) .. لم يكن قد ناداه ((بابا)) من قبل قط ــ ولست أدرى من اين جاء بهذا النداء ! ــ فركله الكولونيل تحت سنابك الجياد .** وبعد انصراف البيض ضربه بلا رحمة ، حتى خلت أنه أوشك أن يقتله .. وغضب على ــ أنا الأخرى ــ عدة شهور ، قائلا انني أعلم أولادى انه أبوهم .. كان « بيرت » ــ حتى ذلك الحادث ــ أحب الأطفال الملونين اليه !

ولكنه لم يعد يحبه ــ بعد هذا الحادث ــ فأرسله الى المدرسة ، ليغيب عن عينيه أكثر من ست سنوات .. ولولا توسلات « كورا » وتضرعاتها ، ما دعاه هذا الصيف للمجيء ..

وليم : لقد كبر خلال هذه المدة ، وازداد شبها بالكولونيل .. بل انه يرى نفسه رجلا أبيض .. انظرى ما فعل حين وصل ، ولم يكن قد رأى الكولونيل ست سنوات . لقد بسط اليه يده ليصافحه ! .. تماما كما يفعل البيض . واشــاح الكولونيل عنه وابتعد .. لست ألومه ، فهو لم يعتد مثل هذه الأفعال من الملونين .. لست أدرى ما دهى « بيرت » !.. انه يأبى أن يقول « نعم يا سـيدى » و « كلا يا سـيدى » للبيض . **سأله ((تالبوت)) في الصباح ، عما اذا كان يعمل في الحقل ، فأجاب : ((كلا)) ، ومضى .. واستشـــاط الأبيض غضبا ، حتى كاد الزبد الأبيض يطفح من فمه .. ولو لم يكن**

الفتى ابنك ، لأطاح برأسه .. لقد حاولت نصحه ، فضحك وقال اننا مجرد زنوج مذعورين ، أما هو فليس زنجيا .. انه ابن « نوروود » ، ونصف أبيض .. وسيتصرف على هذا الأساس .

وتبدى « كورا » جزعها وحيرتها ، اذ قرر الكولونيل أن يبقى « بيرت » في الضيعة كأى زنجى ، ولا يرسله الى المدرسة ، ليريه « حقيقة لونه » ! .. وتبكى « كورا » وهى تشعر بقلة حيلتها ، وتتوجس من أن شرا قد يحدث ، فقد رأت القمر ــ فى المنام ــ مضرجا بالدم ، والطريق المحيط بالقصر ملطخا بالدم كذلك .. وما ان تسمع صوت السيارة عائدة ، حتى تهيب بـ « وليم » أن يدعو « بيرت » اليها .. ويخرج « وليم » من الباب الأيسر ، بينما يدخل « بيرت » من الباب الأمامى ، فيحتضن أمه ، ويطمئنها الى سفر ابنتها .. واذ يرى عينيها مخضلتين بالدموع ، يسألها عما بها ..

كورا : لماذا لا تشفق على يا بنى ؟ .. ألم أخبرك ألا تأتى من الباب الأمامى أبدا ؟ .. ما الذى أصابك أثناء وجودك بالمدرسة ؟

روبرت (في جد تخالطه الدعابة) : أليس هذا قصر أبى ؟ . ألست ابنه ووريثه ؟

وليم (مقبلا من اليسار) : أين بيرت ؟ لم أجده .. (يراه فيسأله) كيف دخلت الى هنا ؟

روبرت (مبتسما) : ان للبيوت أبوابا أمامية .. لماذا أقيمت الأبواب الأمامية أيها الزنجى الرعديد . . **اننا ــ على أية حال ــ نصف زنوج ، وسأتصرف كما يليق بنصفى الأبيض ، لا نصفى الأسود !**

ويحاول « وليم » أن ينبهه الى الأوضاع فى (جورجيا) ، والى تعسف البيض وقسوة نقمتهم ..

روبرت: سأبقى هنا فترة ، ريثما أعلم بعضكم كيف يفكرون مثلى .. وحتى يضيق الكولونيل الشيخ بوجودى .. ولكن ، لا مزيد من الانحنـــاءات للبيض .. لن ينحنى لهم روبرت نوروود .. فى ضيعة أبيه !

وتبهت الأم لجرأته ، وتحاول أن تردعه .. ويمضى أخوه يجادله ، ولكنه يجيب بأنه يعيش فى ولايات الشمال ، حيث رأى الزنوج متساوين مع البيض .. ولعب فى فريق كرة القدم ، وحظى بتكريم الناس .. وينصرف « وليم » وهو غاضب .. وتخلو الأم بالابن المتمرد ..

كورا: لقد اشتغلت وأذللت نفسى لأحمل الكولونيل على ابقائكم فى المدرسة .. ولكنك ، دون اخوتك ، تأتى مفعم الرأس بالعناد ، ملىء الفم بكلام فارغ لى وللبيض ولكل امرىء .. **انك لتعلم أنه ليس للملون أن يتحدث بمثل هذا الكلام الى البيض .. فما بالك بالكولونيل وبالشيطان تالبوت ؟ انهم لن يتحملوك ، ولن تدفع الثمن وحدك ، بل سيدفعه كل ملون فى هـذا المكان ..**

ويتطرق الحديث الى ما جرى — فى الصباح — فى مكتب البريد ..

روبرت: ... أحسب أنه لولا « الفورد » لتكاثروا على ، وضربونى حتى الموت .. وكان هناك بعض فتية من الزنوج ، لم يتحرك واحد منهم .. يا للانذال ! .. انهم منذ حضورى يرددون لى (**يقلد لهجة الزنوج**) « ليس لك أن تجادل البيض .. انك أحمق ! » .. ولعلى أحمق حقا ، ولكنى لم أعد إلى هنا برغبتى ! .. ليس هنا — فيما عداك — سوى بيض يملأهم الشر ، وزنوج يملأهم الجبن ! (**فى حرارة**) أأنا زنجى يا أماه ؟ ... انني نصف أبيض ، ووالدى الكولونيل ، أغنى رجل فى المقاطعة ، ولن أتقبل ما يلقاه الزنوج ، ولو من أبى نفسه ! ..

أيظن اننى سأعمل فى الحقل ، تحت الشمس ، و « تالبوت » فوق رأسي وكأننى من العبيد الذين كانوا يساقون الى العمل مغلولين بسلسلة ؟ .. اننى « نوروود » ولست عامل حقل زنجيا !

وتحاول امه أن تثنيه عن عنـــاده .. لكم تضرعت الى الكولونيل لكى يرسله للدراسة ، ولكن الدراسة لم تعلمه سوى افكار لا مجال لها فى ولاية (جورجيا) ..

كورا : لسنا فى الشمال ، حيث تعيش أختك الكبرى كالبيض .. **انها لا تعمل فى مطبخ باحد الفنادق ، كما يظـن الكولونيل ، وانما هى تعمل على الآلة الكاتبة . وكذلك تدرس « سالى » الآلة الكاتبة لتلحق بها ، ولكن اباك لا يعلم ، لأن المفروض ان لا تتعلم الزنجيات سوى الطهو والعمل الشاق ..** اننى أعمل فى هـذا القصر طيلة عمرى ، وعندما ماتت زوجة الكولونيل ، جئت للاقامة وأنجبتكم .. ولقد أكرمنى الكولونيل وسمح بأن تناموا هنا معى وأنتم صغار ، وأرسلكم للمدرسة .. ما من أبيض فى هذه المقاطعة يفعل هذا .. اذا عاد الكولونيل ـ بعد قليل ـ وتحدث اليك ، فكن كما ينبغى ، وكلمه بأدب الملونين ، فأنت لست أبيض ..

روبرت (فى غضب) : ولست أسود كذلك .. تأمليني ! الا ترينني أشبه أبى ، ألست صافى اللون مثله ؟ ألست أشهب العينين مثله ؟ (**ينبعث من الخارج صوت سيارة**) .

كورا (مضطربة) : أسرع يا بنى ! تعال الى المطبخ !

روبرت : لن الوذ بالمطبخ . أليس هذا بيتنا ؟

وتسرع الى الباب الأيسر وهى تهيب به أن يتبعها ، ولكنه يقترب من الباب الأمامى .. ويدخـــل الكولونيل ، فيكاد يصطدم به ، ويقف برهة يحملق فيه مأخوذا ، بينما تلتصق « كورا » بالباب الأيسر .

الكولونيل (مشيرا لباب الخدم) : اخرج من هنا !
روبرت (فى شبه ابتسام) : ألست تريد أن تتحدث الى ؟ لن أخرج من هذا الباب !

يرفع الكولونيل عصاه ، فيصمد الفتى ، ويشد قامته ، بينما يشحب وجه الكولونيل ، ويهاجمه فى كبرياء .. ثم ترتعش يده ، ويحتبس صوته وهو يأمره بالخروج .. وفى شمم يتجه الفتى الى الباب الامامى ويخرج ، بينما يسرع الكولونيل ـ فى هياج ـ الى خزانة صغيرة ، يتناول منها مسدسا ، ويتجه نحو الباب الأمامى ، ولكن « كورا » تلحق به وتمسك بذراعه ..

كورا : انه ابنك يا توم ! **(تجثو ببطء على ركبتيها)** تذكر .. انه ابننا !

الفصل الثانى

المشهد الأول

نفس المنظر السابق ، وقد بدا « سام » ـ خادم الكولونيل الخاص ـ خارجا من باب حجرة المكتب ، فيقف قليلا ، ليؤكد للكولونيل انه سيستحث « كورا » على احضار « روبرت » .. ويخلو المسرح لفترة .. ومن الخارج يتناهى نباح كلب ، وغناء الزنوج وهم يعودون من الحقول ، مع غروب الشمس .. ثم تدخل « كورا » من الباب الايسر ، يتبعها « روبرت » .

وتتلطف الأم الى ابنها ، وهى تحاول اقناعه بأن يترفق بالكولونيل ، فيعامله كما يعامله الجميع .. وتذكر أن الرجل رفض تناول اى طعام ، وانه جد مستاء ..

روبرت : الساعة السادسة الآن .. لعله يريد أن أوافيه فى حجرة المكتب ؟
كورا : انك لتعلم أنه لا يسمح لزنجى سوى سام ، بدخول

هذه الحجرة .. ألا تعقل يا روبرت ؟ .. اننى قضيت ثلاثين عاما فى هذا البيت ، ولم أدخل هذه الحجرة مرة .. قف هنا وانتظر حتى يخرج منها ، وساصعد الى الطابق الأعلى .. فلا تحنقه بالله ! .. وافق على ما يقول ، فانى مشفقة عليك يا بنى من تصرفاتك .. لا تثر هياجه يا حبيبى ، لأننى أحبك .. ولأنك تعلم مايصيب جميع الملونين هنا ، حين ينحرف مزاجه ..

روبرت : حسنا يا أماه ! (فى ثورة) كان هـذا هو اليوم المحدد لسفرى للدراسة .. لماذا لم يف بوعده لى ؟

وتهيب به « كورا » أن يصمت ، وتوصـيه بألا يثير الكولونيل ، ثم تصعد السلم .. وتدق ساعة مؤذنة بالربع بعد السادسة .. وتختنق الشمس امام زحف الليل .. ويفتح باب حجرة المكتب ، ويقبل « نوروود » منحنى القامة ، شاحب الوجه .. ثم يرى الفتى فيشد قامته فجـأة ، وتقفز الى وجهه معالم السيطرة والسـيادة ، ويخطو نحوه .. ويقف الفتى بين الخوف والتحدى . ثم يعود « الرجل الأبيض » الى مقعد بجوار منضدة ، الى اليمين ، فيجلس ، ويشعل سيجارا ، ثم يتكلم بلهجة تجمع بين التسامح والازدراء :

نوروود : لا أريد أن أضربك كما ضربتك وأنت طفل ، فقد أقتلك اذا لمستك مرة أخرى .. اننى أدير هذه الضيعة منذ خمس وثلاثين سنة ، لم أضطر خلالها الى أن أضرب زنجيـا فى عمرك .. كما اننى لم أضرب أحدا من أولاد « كورا » سواك ، فالباقون من العقل بحيث يتحاشون أن يرونى ، واذا خاطبونى تأدبوا كما ينبغى .. أبدا لم أعان متاعب من الزنوج ، فهـم يفعلون ما أقول ، أو ما يقول « تالبوت » . وأنا أعطيهم فرصة ، فاذا جاء المحصول جيدا ، كافأتهم ، وتركت لهم حرية التصرف فى نقودهم كما يحلو لهم . كذلك أتيح لأولاد « كورا » فرصا لم يحظ بمثلها أحد من الملونين هنا .. أرسلتكم الى المدرسة ،

وتركت « بيرتا » ترحل الى الشمال حين أتمت دراستها ، وكذلك ستفعل « سالى »،ومنحت أخاك « وليم » البيت الذى يقيم فيه ، عندما تزوج ، كما أعطيه أجرا عن عمله ، وأساعده عندما يحتاج . وأرسلك للكلية لتتعلم .. وكنت أعتزم اعادتك اليها ، ولكنى لن أنفق على أسود ـ ولا على أبيض ، لو كان لى ابن أبيض ـ يتصرف كما تتصرف . اننى أريد أن اعرف ماذا دهاك ! .. **ان من عادتى أن أقول للناس ما يجب ان يفعلوا ، وليس أن أناقش أمورهم .. هل جننت ؟ .. اذا كان ذلك ، أمرت بحبسك ، واذا لم تكن جننت ، فعليك ان تغير مسلكك ، والا فلن يكون مقامك هنا مأمونا ، وانت تعرف** .. فليس لك أن تصب وقاحتك على نســـاء البيض ، وأن توقف السيارة أمام بابى ، وأن تقودها بأقصى سرعة ، فى كل مكان ، على هواك .. والآن ، تكلم ، ولكن .. تكلم كما ينبغى ! .. أعنى كما يجب على زنجى أن يخاطب أبيض !

روبرت : ولكنى لست زنجيا ياكولونيل توم . **اننى ابنك !**

نوروود (فى استخفاء) : انك ابن كورا .

روبرت : ان النساء لا ينجبن أطفالا من تلقاء أنفسهن .

نوروود : الزنجيات لا يعرفن آباء أطفالهن . **فانت ابن سفاح !**

ويضم روبرت قبضته ، فيتناول الكولونيل مسدسه ، وتهب الريح ، وتتراقص الظلال .

روبرت : لقد سمعت هذا من قبل . سمعته من زنوج .. ومن بيض . والان أسمعه منك ! **(ببطء) انك تتكلم عن أمى** .. وأنت والد أبنائها . (بغضب) كيف تسنى أن أشبهك لو لم تكن أبى ؟

نوروود : لا ترفع صوتك فى وجهى ، فأنا أسمعك **(نصف مبتسم)** كيف تسنى أن يكون لونك أصفر ، ومرفقاك اجربين ؟

كيف تسنى أن يلقوا بك اليوم خارج مكتب البريد جـــزاء حديثك مع امرأة بيضاء ؟

روبرت : لم يكن لهم حق فى القاتى .. تماما كما لم يكن لك حق فى أن ترفع عصاك اليوم ، وأنا واقف عند باب هـذا البيت ، الذى تقيم فيه بينما أنام فى كوخ مع عمال الحقل . (ببطء) ولكن أمى تنام معك !

نوروود : الا يروق لك ذلك ؟ .. ماذا تملك أن تفعل ؟

روبرت (بعد فترة صمت) : اود أن اقتل جميع البيض فى الدنيا !

نوروود (وقد بدأ ينفعل) : الزنوج أمثالك يشنقون على الشجر . ألست تحب عنصرك ؟ .. ومع ذلك ، لاتحب البيض ايضا ؟ .. من الواضح انك لا تحبنى !

روبرت (فى وداعة الطفل) : كنت أحبك ، عندما علمت ــ لأول مرة ــ أنك أبى .. عندما كنت غلاما ، قبل أن تضربنى تحت سنابك الجياد .

نوروود (ويده على مسدسه) : حقا ؟ .. أينادينى زنجى « بابا » ؟ كان خليقا بى أن أقصم عنقك فى تلك المرة الأولى .. كما كان خليقا بى أن أهشم رأسك اليوم ! .. كان يجب أن أتخلص منك قبل هذا ، ولكنك ابن كورا ، وقد حاولت أن أساعدك . **(فى غضب)** عاملتك بتســاهل ، وأرســلتك للمدرسة ، ودفعت نفقات تعليمك . ولكنك الليلة ستغرب عن هذا المكان .. أبرح هذه المقاطعة ! .. غادر هذه الولاية ! .. سيأتى « تالبوت » الليلة ليحدثنى عن القطن ، وساخبره بأن يتولى اقصاءك . **(يشير له نحو الباب الأيسر لينصرف)** قل لسام ــ وأنت خارج ــ أن يأتى ، ليشعل الضوء .

روبرت (متوافحا) : دق له الجرس ، فلن أخرج من باب المطبخ . **(يتجه نحو الباب الأمامى)** لست خادمك ، ولن

تملي على ارادتك ، ولن تخبر تالبوت بأن يطردني كأى عامل فى الحقل لم تعد لك به حاجة .

نوروود (يقفز عن مقعده ، ويعترض طريق ابنه للباب الأمامى ، والمسدس فى يده) : يا لك من ابن سفاح أسود !

ويتقدم « روبرت » نحوه ، فيلوى ذراعه حتى يسقط المسدس على الأرض . ويتراجع الشيخ فى ألم وهياج ، بينما يضحك « روبرت » ، ويقبض على عنقه ، قائلا : « لماذا لا تطلق الرصاص يا أبى ؟ » .. **ويناضل « نوروود » ، ويلهث ثم يشهق مختنقا ، والفتى يشدد الضغط على عنقه ، وهو لا يزال يضحك .. وتقبل « كورا » – من رأس السلم – فتصرخ ، وتسرع اليهما .. واذ ذاك ، يلقى « روبرت » بالكولونيل عند قدميها ، جثة هامدة ، فوق شريط كاللهب من ضوء الشمس الغاربة ..**

روبرت (مهتاجا) : لماذا لم يطلق الرصاص يا أماه ؟.. لم يكن يريد أن أعيش . **(ضاحكا)** كان السيد .. الرجل الأبيض .. فلماذا لم يطلق الرصاص ؟

وتنكفىء « كورا » على جثة الكولونيل تناديه ، وتذكر الفتى بأنه أبوه ..

روبرت : لقد مات .. مات الرجل الأبيض ! مات أبى ! **(يضحك)** ولكنى أعيش .. والزنوج يعيشون ! **(يلتقط المسدس)** هذا ما أراد أن يقتلنى به ، ولكنه مات .. سأستخدمه ضد كل البيض فى الدنيا ، لأنهم لن يلبثوا أن يقبلوا ليقتصوا منى .

وتنهض « كورا » – وقد انتبهت الى الخطر الذى يهدد ابنها – فتستحثه على الاسراع بالهرب ، وعلى أن يخترق الحقول ، الى منطقة المستنقعات ، فان الكلاب لا تستطيع أن تشم الأثر فى الماء .

روبرت : لن أهرب من بيت أبي ، ولكني سأخرج من الباب الأمامي ، على مهل . فاذا وجدتهم سيلحقون بي قبل ان أبلغ المستنقع ، فسأعود يا أماه (**بشمم وكبرياء**) وسأدعهم يأخذونني من بيت أبي .. اذا استطاعوا .

وتستحثه أمه على الاسراع بالهرب ، فيفتح الباب الأمامي بهدوء ، ويشد قامته وهو يقف في أشعة الشمس المحتقنة ، وكأنه في جدول من الدم !.. وفجأة ، تفطن الأم الى أن « تالبوت » قادم مع أمين المخازن ، فتصعق ، وتتأوه ..

ويمضي الفتى ، بينما يقبل الرجلان يسألان « كورا » عن الكولونيل .. ولكن لسانها المعقود لا يجيب ، فيزيحها « تالبوت » عن الطريق ، لتلتصق بالحائط ، ويتقدم فيضيء المكان .. ثم يجمد الرجلان جزعا ، اذ يريان جثة الكولونيل .. ويسرعان لفحصها ، فيتبينان ان الرجل مات .

أمين المخازن (ينهض منفعلا) : ذلك الزنجي الذي رأيناه خارجا !.. ابن كورا من السفاح !

تالبوت (يندفع نحو الباب) : سنقبض عليه .. التليفون في حجرة المكتب ، فاتصل برئيس الأمن (الشريف) ، واستحث البيض ليطاردوا الزنجي !

ويندفع أمين المخازن الى حجرة المكتب ، ويروي القصة تليفونيا لرئيس الأمن ، ويحضه على دعوة كل البيض ، لينطلقوا نحو منطقة المستنقعات ، ومعهم كلاب المطاردة . بينما يحاول « تالبوت » أن يحمل « كورا » على الكلام ، ثم يدفعها .. وينطلق الرجلان الى الخارج ، ويسود الظلام للحجرة ، و « كورا » جامدة في وقفتها ..

كورا : لن يستطيع ابني الوصول الى المستنقع ، فقد

استنفروا البيض الى هناك . ومن ثم فسيعود الى البيت .. لن تصل أيديهم اليه .. سأخبئه فى حجرتى .. سأعد له مخبأ تحت أرض الحجرة ، تحت سريرى .. **(وتتحول الى الجثة المسجاة)** اتسمعنى يا كولونيل توم ؟ ابننا يحاول الهرب . **(فى نقمة)** أنت قلت انه ابنى .. ابنى من السفاح .. ولكنه ابنك كذلك .. وهو يهرب فى الظلام من قومك ، من البيض .. **(فى ضراعة)** لماذا لا تنهض وتوقفهم ؟ انه ابنك .. عيناه كعينيك ، طوله كطولك ، شممه وكبرياؤه كشممك وكبريائك .. **(فى لهجة آمرة)** لماذا لا تنهض وتوقفهم ؟.. أتقول انه ليس ابنك ؟ ابنى الأصغر من السفاح ؟

(بفخر وأنفة) أجل ، هو ابنى . ولكن لا تقل انه ابن سفاح . لا تضع يديك البيضاوين عليه .. انه ابنى ، ولن يمسه أحد من البيض . سأعد له مخبأ تحت سريرى ، فلا تأت لمخدعى وهو هناك . **لا تأت لمخدعى بعد اليوم ! اننى أدعوك فتظل راقدا هنا ، وكنت تدعونى ــ فى بهيم الليل ــ لتضاجعنى ، فافتح لك ذراعى !.. ان ابننا الأصغر يجرى فى الظلام .. يجرى منك أنت الآخر .. انه ابنك ، ويهرب منك !.. والكلاب والمسدسات مع قومك ، و ((تالبوت)) وراءه بحبل ليشنقه** .. ما أحسبك نائما يا كولونيل توم . انك تخدعنى . ما كنت ساكنا هكذا فى أى يوم .. **(فى تقريع)** ابنى يجرى خلال الحقول فى الظلام .. كولونيل توماس نوروود ، انك تطارد ابنى المسكين ، الذى لا حول له ولا سند .. تطارده فى الظلام لتشنقه .. **(تتراجع بظهرها نحو السلم ، وهى ترمق الجثة)** اللعنة عليك يا توماس نوروود !.. لعنة الله عليك !

المشهد الثانى

نفس المنظر السابق ، بعد ساعة ، وقد هبط الظلام ..

و « الحانوتى » يتكلم مع الخادم « ســـام » عنـــد الباب الخارجى ، وصيحات البيض المنطلقين فى المطاردة تتناهى من وراء المنظر ..

الحانوتى : لم يكن للكولونيل أقارب ، فيما أعرف .. هل كل شيء من أمواله هنا فى حرز مكين .. ما أسوأ الا يكون هنا أناس من البيض يرعون أشياءه ، اذ انطلق البيض جميعا فى المطاردة .. أحسبهم سيظفرون بذلك الزنجى ويشنقونه قبل الســـاعة العـــاشرة !.. وأين تلك الزنجيـــة التى كان الكولونيل يعيش معها ؟.. أود أن أراها . احملها على أن تهبط الى هنا !

ويصعد ((سام)) ، ولا يلبث أن يعود و ((كورا)) خلفه .. وتظل صامتة ، لا تتكلم ، بينما يتاملها ((الحانوتى)) مليا ..

الحانوتى : اذن فأنت « كورا » التى أنجبت أولئك الأولاد الزنوج المتعلمين ؟.. أحســـبك سترين أحدهم ــ عنـــدما تستيقظين فى الصـــباح ــ مشنوقا ، ملىء الجسم بثقـــوب الرصاص .. أو لعلهم سيحرقونه !

كورا (بهدوء) : الهذا دعوتنى ؟

الحانوتى : لا تتكلمى بهذه اللهجة . لعلك تحسبين أنه لم يعد هنا من يحكمك ؟.. هات لنا شرابا قبل أن ننصرف !

كورا : لا أتلقى أوامر الا من الكولونيـــــل نوروود ، يا سيدى .

وتابى أن تصدق ان الكولونيل مات ، فهى تعتقد انه مع البيض الذين يطاردون ابنها .. ولا يلبث ((الحانوتى)) أن ينقل التابوت الى عربة الموتى ، وينطلق .. ويصعد « سام » ويجزع ، لاصرار « كورا » على أن الكولونيل على قيد الحياة ، فينسحب هو الآخر .. وتغلق « كورا » الباب الأمامى ،

وتسدل الستائر ، ثم تنظر الى البقعة التى كان الكولونيل مسجى فيها ..

كورا : كل الملونين يهربون منك الليلة يا كولونيل توم المسكين .. ما كان لك أن تنطلق مع الغوغاء .. اننى لاتذكر يوم شنقوا « ليوك جوردون » ، اذ أرسلت كلابك معهم ، ثم قتلت الكلاب فى الصباح التالى .. كان قلبك رقيقا ، لا يرضى عن هذا الأسلوب .. وقلت لى – وأنت فى فراشى ذات ليلة – انك تسمع نباح الكلاب وأنت نائم .. ولكنك كنت معهم يوم أحرقوا المحكمة ، حيث كان الفتى – الذى قيل انه احتضن فتاة بيضاء – حبيسا .. وها أنتذا الآن تطارد ابنى .. (**فى عجب**) رجال بيض ، ونساء ملونات ، وأولاد سفاح .. هكذا الحال فى الجنوب ، ولكن هذا كله انتهى الآن . ان لك ثلاثة اخوة سمر ، انجبهم أبوك من الخالة « سالى ديل » .. ان لك أقارب ملونين ، ينتشرون فى المقاطعة ..

ويقبل « وليم » ، فيمكث ساكنا ، اذ يراها تجلس ، وتحدق أمامها دون أن تبصر .. ثم يخبرها بانه فكر فى اصطحاب زوجته وولديه ، ليلوذوا بحمى الكنيسة .. ويحاول اقناعها بأن تصحبهم ..

كورا : لسوف يعود أخوك يا بنى ، ولن أكون وحدى .. لن يقبضوا عليه ، وسيعود لى ، وسأتولى حراسته .. وسيأتى الكولونيل بالتأكيد .. سيأتى وراء ابنه ! (**يحملق فيها ويليم مذهولا**) اذهب يا بنى ، فأنت لم تكن يوما مثل الكولونيل أو مثل « بيرت » .. أحسب أن قسطا كبيرا من دمى انتقل اليك . فما أحببت « بيرت » يوما ، وكنت دائم الخوف من الكولونيل . انك لم تؤذ احدا ، ولم تتمرد على احد . وكذلك كنت أنا ، حتى الليلة ! (**تخاطب الفضاء حولها**) **لقد حاولت ان اعيش مستقيمة يا الهى !** (**بغضب**

حاولت أن اعيش مستقيمة يا الهي ! (تطوح بذراعيها ، وكانها تقول : ها هي ذي النتيجة !) ماذا جرى يا الهي ! انك لست معي !

ويقترب نباح الكلاب ، فينصرف « وليم » مهرعا ، خائفا .

كورا (تنحني على البقعة التي كان الكولونيل مسجى فيها) : كولونيل توم ! اسمع ! ان بيرتا وسام ووليم وبيرت .. كل اولادك يهربون منك ، وأنت مستلق على الأرض ، ميت ! وانت فى الخارج مع الحشد ، ميت ! وعندما تأتى ، وتصعد ، وتنام فى سريرى ، ميت ! **(تجلس وتتكلم كانها تتذكر حلما بعيدا)** لست سوى كورا لويس المسكينة ، ياكولونيل نوروود ! فتاة فى الخامسة عشرة من عمرها . **منذ ثلاثين سنة ، مددت يديك وتحسست ثديي ، وقلت : ((يا لك من قطعة لحم جميلة ! سوداء وحلوة !)) وجذبتنى اليك ، ونمنا تحت الأشجار ، وأنا أسائل نفسى ، ترى هل يقدر لزوجتك أن تعرف ، عندما تعود اليها !.. وكانت أمى تقول انها ارضعتك كما ارضعتنى !.. ولكم بكيت ، ثم قلت لأمى ما جرى ، فلم تغضب كما ظننت ، بل قالت ان الرجال البيض الراقين يعنون دائما بنسائهم السوداوات ..** وان هذا أفضل من أن أتزوج من زنجى يعمل طيلة عمره فى حقول القطن وقصب السكر **(صيحات الحشد تقترب باطراد ، ونباح الكلاب يزداد وضوحا)** وكنت سعيدة ، لأننى أحببتك . وعندما ماتت زوجتك **(مس لوم)** التى لم تنجب لك طفلا واحدا ، أدركت انك تريدنى . كنت اذ ذاك حبلى بأول أولادنا ــ « وليم » ــ وجئت أدبر شئون بيتك وأنظفه .. وشيئا فشيئا ، لم تشأ أن أفعل شيئا ، وأصبح الزنوج الآخرون يخدمونك ويخدموننى .. ولم أعد أفعل شيئا سوى الحياكة ــ من آن

لآخر ـ وحفظ فواكه الصيف ، واعداد فطائر وكعك عيد ميلادك .. **وكنت دائما على استعداد ، حين تأتيني في الليل .. وانجبنا أولئك الأطفال معا .. ولكن « روبرت » كان أقربهم اليك ، وأشبههم بك . كان مليحا ، رفيقا ، صلب الرأس ، غريبا ، عنيدا ، متكبرا مثلك .. وكان أحبهم الى قلبي ، لأنه كان محتاجا الى الحب ..** وكان يريد أن يدعوك « بابا » ! ولقد حاولت أن أردعه ، ولكنه لم يرتدع .. وضربته انت يا كولونيل توماس نورwood ، فتغلغل الضرب في قلبه .. وفي هذا الصيف ، اصبح يشبهك كما عرفتك ـ في البداية ـ تحت الشجر !.. وما كنت أملك سوى أن أحبه ، كما كنت أحبك !.. ولكنه كان يكرهك !.. لقد ورث عنك طباعك ، ومع ذلك فانك ضربته .. **وبعد أن ضربته مت ! وكنت تعيش ميتا طيلة هذه السنوات الطويلة !.. وعندما سألتك الليلة أن تساعدني ، كنت ميتا من زمن بعيد .. و « بيرت » يقف فوق جثمانك حيا ، حيا !.. لماذا كنت تكرهه ؟ لماذا كنت تريد قتله ؟.. ولكنك لن تقتله ! سيأتي الى هنا أولا ، سيأتي لي .. انه عائد لي !**

ويشتد الضجيج في الخارج ، وتنبعث أضواء السيارات خلال النوافذ مخترقة الستائر ، وتظل كورا جالسة ، مترقبة .. وتتعالى أصوات من الخارج ، تدعو الى محاصرة البيت والأشجار المحيطة به .. ثم يصرخ صوت بأن الفتى الزنجي يهرع الى الباب .. وينبعث صوت طلقات نارية . ويفتح الباب فجأة ، ويدخل « روبرت » وهو يرد على الطلقات بمثلها .. ويسمع تهشم زجاج ، وصرخات ، وسباب .. وتقفز « كورا » فتحكم رتاج الباب ..

كورا (مستندة الى الباب) : كنت في انتظارك يا حبيبي .. مخبأك معد ، تحت سريري .. شققت لك في الخشب فجوة ، ولن يعثروا عليك .. أسرع ، قبل أن يأتي أبوك !

روبرت (لاهثا) : الوقت لا يتسع للاختباء . سيقتحمون البيت (**اصوات طرقات وزجاج يتهشم**) من الأبواب .. من النوافذ .. سيأتون من كل مكان . ولم تبق سوى رصاصة واحدة يا أمي .. رصاصة لى !

كورا : ادخرها لنفسك . اصعد ، ونم على فراشى ، واسترح !

روبرت (يصعد السلم ببطء) : عمي مساء يا أماه !.. لقد تعبت من الجرى ، فقد ظلوا يطاردوننى ساعات !

وتقف « كورا » فى أسفل السلم . وبينما « روبرت » فى أعلاه ، يتداعى الباب الأمامى تحت ضغط البيض المهتاجين ، وفى مقدمتهم « تالبوت » .

تالبوت : أين ابن السفاح الأصغر .. ابنك . أفى الطابق الأعلى هو ؟

كورا : نعم . سينام ، فالزموا الهدوء ، وانتظروا !

وتسد الطريق الى السلم بذراعيها ، ولكنهم يندفعون .. **وينبعث من الطابق الأعلى دوى طلق نارى ، فترسل « كورا » اشارة حب ووداع ، نحو حجرتها** .. ويتدفق النـاس فى المكان ، صائحين ، صارخين .. وفجأة ، يبدو « تالبوت » عند رأس السلم ، فيسود الجميع صمت مترقب ..

تالبوت : فاتت الفرصة يا رجال .. لقد تأخرنا قليلا !

وتنبعث من القوم زفرة استياء .. ويهبط « تالبوت » السلم ، فيسير الى « كورا » ، ويصفعها على وجهها ، صفعة واحدة . ولكنها لا تتحرك ، وكأنها مطمئنة الى أنه لم يعد فى وسع يد بشرية أن تنال منها ..

« وتهبط الستار »

(بقية المنشور فى صفحة ٨)

جديدة بدأت تنشر له رواياته التالية مسلسلة قبل جمعها فى كتاب ، فظهرت له : مغامرات القبطان « هاتيرا » (١٨٦٤) ، ثم رحلة الى جـوف الارض (١٨٦٤) ، تليها « من الارض الى القمـر : رحـلة مباشرة فى ٩٧ سـاعة و ٢٠ دقيقة » (١٨٦٥) .

● ثم أنشأ « فيرن » سلسلة (رحلات خارقة للمألوف) ـ التى استمرت اربعين عاما ـ فنشر فيها على التوالى : أبناء القبطان جرانت (١٨٦٧) ، ٢٠ الف فرسخ تحت المـاء (١٨٦٩) ، حول العالم فى ٨٠ يوما (١٨٧٣) ، الجزيرة الغامضة (١٨٧٤) ، ميشيل ستروجوف (١٨٧٦) ، الهند السوداء (١٨٧٧) ، قبطان فى سن ١٥ (١٨٧٨) ، مغامرات صينى ، ٥٠٠ مليون بيجوم (١٨٧٩) ، الشعاع الأخضر (١٨٨٢) ، كيربان العنيد (١٨٨٣) ، الحريق (١٨٨٤) ، ماتيا ساندورف (١٨٨٥) ، « روبور » الفاتح (١٨٨٦) ، اجازة لعامين (١٨٨٨) ، القصر (١٨٩٢) ، الجزيرة (١٨٩٥) ، مواجهة الراية (١٨٩٦) ، « أورينوك » الرائع (١٨٩٨) ، مأساة فى ليفونيا ، سيد العالم (١٩٠٤) . وفيما عدا هذه المؤلفات الأكثر شهرة ، كتب « فيرن » عشرات الكتب الأخرى التى لا يتسع المجال لسرد عناوينها .

● وكان فيرن ـ بعد نجاحه ـ قد انتقل فى عام ١٨٦٦ الى منزل فاخـر فى (كروتوى) ، بحوض « السوم » ، كما اشترى سفينة للصيد أطلق عليها اسم « سان ميشيل » ، تيمنا باسم ابنه ، ووصفها بأنها « مكتبه العائم » ، وعلى ظهرها كتب قصته (٢٠ الف فرسخ تحت الماء) . وفى عام ١٨٦٧ سافر فى رحلة الى الولايات المتحدة الامريكية . وفى عام ١٨٧٤ اشترى « يختا » فاخرا (سان ميشيل الثانى) ، وبلغ قمـة مجده وثرائه خلال السنوات ١٨٧٢ ـ ١٨٨٦ ، فاشترى يختا آخر (سان ميشيل الثالث) . وفى ١٨٧٨ التقى بالشاب اريستيد بريان (رئيس وزراء فرنسا فيما بعد) ، فسافرا معا فى رحلات عديدة فى البحار والاقطار الأوربية . وكان فيرن قد فقد أباه فى عام ١٨٧١ ، وأمه فى ١٨٨٧ ، وشقيقه بول فى ١٨٩٧ . وفى ١٩٠٢ أصيب بالمياه الزرقاء فى عينيه . ومن مآسى حياته اصابته فى عام ١٨٨٦ برصاصتين من قريب له ذى لوثة ، وعلى اثر شفائه هجر باريس وعاش بقية حياته فى (آميين) حيث فاز فى انتخابات المجلس البلدى ، فتقاسمته أعباء التأليف والادارة المحلية ، خلال أعوامه التالية ، حتى أدركته منيته فى داره بالمدينة ، فى ٢٤ مارس ١٩٠٥ ، عن ٧٧ عاما .

ترقب فى اول مارس ، فى العدد الجديد الفاخر من

مطبوعات كتابى

هذه القصة الانسانية الرائعة

أقوى ما كتب الروائى العــــالمى ((ستيفان زفايج)) :

ترجمة : حلمى مراد

((.. كان ضباب الفجر ما يزال يغطى مبانى البلدة ، حين خرجنا فى اليوم التالى لنقوم بجولة الصباح ، وفيما نحن نركض بجيادنا باقصى سرعتها ، ونسيم البكور الندى يحمل الى انفاسنا عطر الحقول المزدهرة ، فنعب منه جرعات تملأ صدورنا انتعاشا وحبورا ، ودماء الشباب الدافئة تتدفق فى أجسامنا النابضة بالحياة .. لاحت لنا من بعيد اسوار القصر البيضـــاء ، وللفور طعن قلبى احساس مباغت بالرثاء للفتاة ، المحرومة من نشوة الصحة والحرية ، والفرحة بقوة الشباب !.. خيل الى انه قد يجرح شعورها أن ترانى هكذا منطلقا كالسهم المارق او الطائر السعيد .. وشعرت بالخجل من سعادتى الجسمانية ، كما يخجل المرء من امتياز لا يستحقه !.. لكن ذهنى تصدى لعاطفتى بالحجة المقنعة والمنطق السليم ، فلم ألبث أن تبينت سخافة اذلال النفس على هذه الصورة . أدركت أنه لا جدوى فى أن ينـكر الانسان على نفسه متعة ما ، لا لشىء الا لان غيره محروم منها ، ويابى على نفســه السعادة ، لأن غيره شقى ! .. ففى الوقت الذى نضحك فيه ، ونتبادل النكات ، يوجد أناس – فى أماكن مختلفة من العالم – راقدين على فراش الموت .. وآخرون ، خلف ألف نافذة ونافذة ، يعانون البؤس ، أو يتضورون جوعا .. وهناك المستشفيات المليئة بالمرضى والجرحى .. والسجون العامرة بالمعذبين .. والمصانع والمناجم والمكاتب التى يشقى فيها الملايين من البشر ، فى كل ساعة من ساعات النهار .. ولن يخفف من شقاء انسان واحد أن يشقى انسان آخر نفسه بنفسه ، بغير مبرر !.. بل لو حاول شخص أن يفكر فى مآسى الغير ، ويصور لنفسه صنوف البؤس التى تنطوى عليها الدنيا فى كل وقت ، لاستعصى عليه النوم ، وماتت البسمات على شفتيه الى الابد !))

((وفجأة .. فتح الباب ، ودلفت منه لفحة هواء ، اعقبتها فتاة جميلة سمراء ، ذات عينين لوزيتين ، ترتدى ثوبا أنيقا .. يا الله ! ما اجمل رقعتى القطيفة السمراء المدعوتين عينيها ! كانتا مثل حبات ((البن)) ، وحين تضحك كانتا كأنما تحدثان صوت البن اثناء ((تحميصه)) على النار !.. وكانت لها أذنان صغيرتان تكادان تكونان شفافتين ، تختبآن تحت ثروة كبيرة من الشعر الفاحم الغزير .. ولها ذراعان عاريتان ، خيل الى أن ملمسهما لابد يشبه ملمس الخوخ المقشور !))

محتويات العدد

الموضوع | **الصفحة**

هدية العدد : مجلة الصغار فى ٣٢ صفحة منفصلة .

كتابى

تصدر عن **الشعب** مؤسسة صحفية عربية

إخصائيون فى المطبوعات العاجلة



الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة - ت ٣١٨١٠ ● مكتبة دار الشعب - ت ٢٩٩٩١

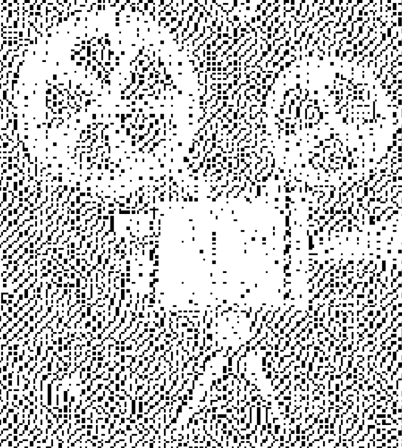
التوزيع : مكتبة دار الشعب

مكتبة الشباب

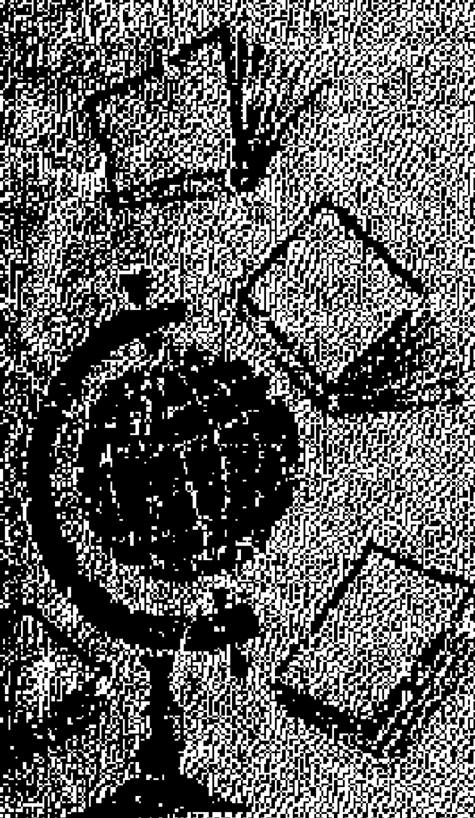
وتتفرع عنها هذه السلاسل :

١ - التراث العالمي للشباب
٢ - التراث العربي للشباب
٣ - قصص حياة الخالدين
٤ - لكل سؤال جواب

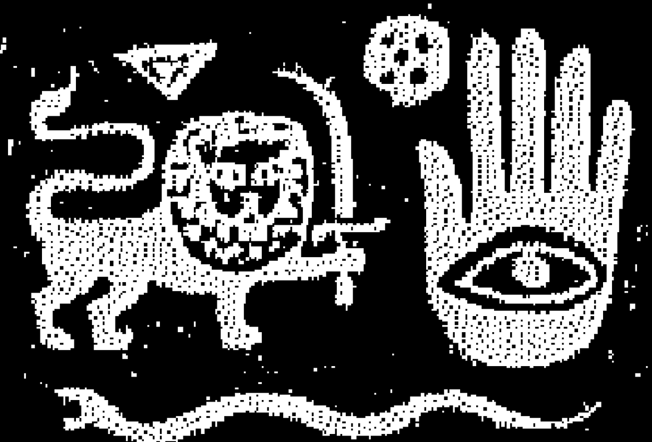




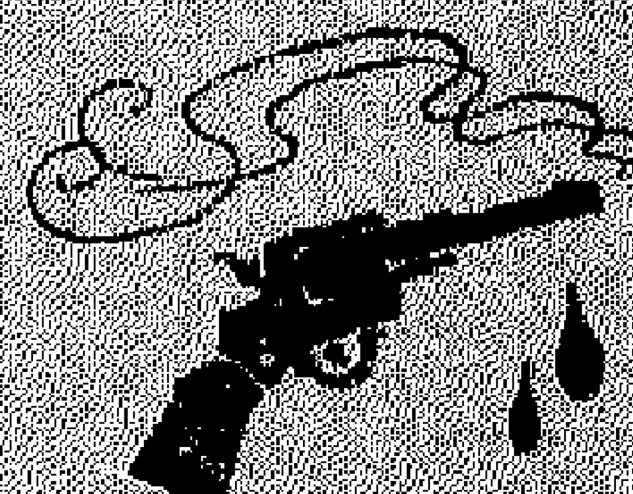
مكتبة
أدب السينما
قصص أشهر الأفلام العالمية
القديمة والحديثة ، مزينة بالصور



ألف قصة وقصة من آداب العالم
مسح شامل لأعظم ألف قصة قصيرة
من آداب جميع البلاد ، في جميع العصور

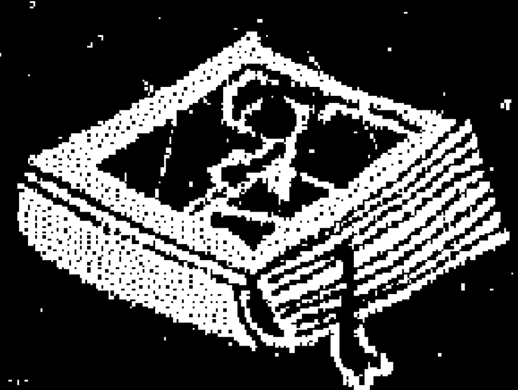


مكتبة
القصص الشعبي
أساطير فولكلورية
من شتى بلاد العالم





مكتبة
القصص العلمي
ترتاد بك عالم الغد ،
كما تتأهب له البشرية ..



مكتبة
القصص الواقعي
اعترافات يرويها أصحابها
وتجارب يرويها أكبر علماء النفس



مكتبة
الحياة الخاصة
لعباقرة الإنسانية



دائرة معارف المرأة
كل ما يهم المرأة أن تعرفه عن نفسها
وكل ما يهمك أن تعرفه عن نساء العالم
منذ فجر التاريخ .. حتى اليوم

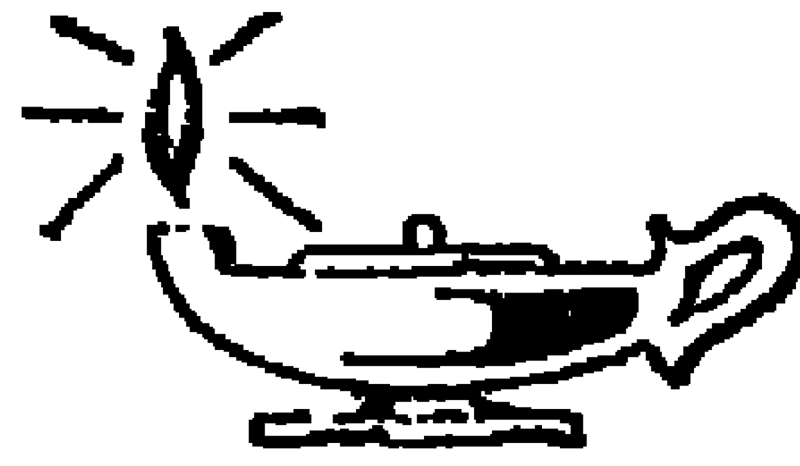


مكتبة
الرسائل والاعترافات
لأشهر المفكرين والعظماء


فتاة
الجيشا
وكتب أخرى

كتابى

مجلة شهرية للثقافة العالمية
صاحبها ورئيس تحريرها : حلمى مراد



أطلب مع هذا العدد
هدية منفصلة فى ٣٢ صفحة
مجلة الصغار
للأولاد والبنات

الكتاب رقم ١٠٣

التحرير : ٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) ، شقة ١١١ ، القاهرة ـ تليفون ٤٦٤٧٥
الناشر : دار الشعب ـ ٩٢ شارع قصر العينى ، القاهرة ـ تليفون ٣١٨١٠

ثمن النسخة : ١٥ قرشا

لوحة الغلاف والرسوم الداخلية

بريشة الفنان : ((**جمال قطب**))

سقوط فرنسا!

أحدث كتاب للصحفي العالمي المعاصر

وليم شيرر



THE FALL OF FRANCE (By: WILLIAM SHIRER)

تلخيص : حلمي مراد

الملحمة التاريخية الثانية ..

بعد ملحمة «نهوض وانهيار الرايخ الثالث»

● مؤلف هذا الكتاب «وليم شيرر» ، من أشهر كتاب التاريخ السياسى المعاصرين .. فعندما أصدر كتابه السابق عن سقوط المانيا الهتلرية » (فى نحو ألف وأربعمائة صفحة) ، أحدث الكتاب ضجة كبرى فى العالم بأسره ، لما احتواه من دراسة مدعمة بالأسانيد والمستندات ، لأدق تفصيلات الاثنى عشر عاما التى حكم فيها هتلر المانيا ، وأوشك أن يحكم العالم كله ! .. وقد استغرق منه تأليف ذلك الكتاب خمسة أعوام كاملة ، أطلع خلالها على جميع الوثائق الألمانية الرسمية التى وقعت فى يد القوات الامريكية لدى دخولها برلين فى عام ١٩٤٥ . وقد عمل « وليم شيرر » كمراسل للصحف الامريكية فى كل من باريس » ولندن ، وبرلين ، وفيينا ، وروما .. كما عمل مراسلا لاذاعة كولمبيا خلال الاعوام من ١٩٢٦ الى ١٩٤١ ، وكان من أواخر من غادروا برلين بعد أن أعلن هتلر الحرب على الولايات المتحدة الامريكية ، وأصدر عقب ذلك كتابه الأول المشهور « يوميات برلين » ..

وهو فى هذا الكتاب الجديد ــ الذى لا يقل أهمية عن سابقيه ــ يزيح الستار ، لأول مرة ، عن الاسرار الخفية التى قادت فرنسا الى كارثة الهزيمة الساحقة ، على يد جيوش هتلر ، فى يونية ١٩٤٠ :

قصة .. كالأساطير !

● لم يشهد القرن العشرون ــ برغم ما تناثر فى طريقه من حطام امبراطوريات جبارة ــ مثل ذلك الانهيار المباغت ، السريع ، الذى حاق بفرنسا فى مايو ويونيو ويوليو من عام ١٩٤٠ . ففى خلال أسابيع قلائل ، تردت فى درك الهزيمة الساحقة تلك الدولة التى تعد من أعرق الدول الديموقراطية البرلمانية، والتى كانت من أهم الدول الأوربية الكبرى وأكثرها

مدنية ، والتى عرف عنها أنها كانت تملك جيشا من أحسن جيوش العالم !

.. وعلى أيدى مارشـــال فى الرابعة والثمانين من عمره ــ كان من الأبطـــال الأسطوريين فى الحرب العالميـــة الأولى ــ يعاونه قادة انهزاميون ، وساسة متخاذلون ، تمت عملية ازالة أنقاض « الجمهورية الثالثـــة » فى فرنســـا ، واقامة نظـــام ديكتاتورى فاشى فى محلها .. وقد ذهل المنهزمون والمنتصرون ــ على السواء ــ أمام ما ألحقته ألمانيا الهتلرية بفرنســـا من انهيـــار سريـــع !

فما هى مواطن الضعف الشنيعـــة ، التى أدت بشـــعب موهوب ــ كالشعب الفرنسى ــ الى هذا التردى ، والى تلك الحال الداعية للرثاء ؟

لعل من العوامل التى ساعدت على تفسير الانتصار النازى ، تلك الفترة التى سبقت سقوط فرنسا بثلاثة أشهر .. ثلاثة أشهر من الزعامة المضطربة المرتبكة ، فى الدولة الفرنسية !

عشيقة رئيس الوزراء تحكم فرنسا ، أثناء مرضه !

● فى مســـــاء ٢٧ أبريل ١٩٤٠ ، أصيب رئيس الوزراء « بول رينو » بنزلة برد شديدة ، دعت الطبيب الى أن يأمره بملازمة الفراش أسبوعا ، فاذا مرضه يتيح للكونتة « هيلين دى بورت » ــ العشيقة التى كانت تسيطر على حياته ــ فرصة لتتولى الاشراف على شؤون الدولة مؤقتا !

ولقد حاول « بيير لازاريف » ــ رئيس تحرير صحيفـــة « بارى سوار » ــ أن يتصل تليفونيا برئيس الوزراء ، فى نهاية ذلك الأسبوع ، فردت عليه الكونتة دى بورت ، قائلة : « اننا جد مشغولين يا عزيزى ، ولكن ... تعال ، على أية حال » .

ويمضى « لازاريف » فى رواية ما حدث ، قائلا : **« عندما**

وصلت الى دار رئيس الوزراء ، وجدت ((هيلين دى بورت)) جالسة الى مكتب بول رينو ، يحيط بها القـــادة ، وكبار المســئولين والبرلمانيين والموظفين .. كانت ترأس اجتماعاً ، وكانت تتولى معظم الحديث ، وتتكلم بلهجة سريعة ، حاسمة ، مشيرة بآراء ، ومصدرة أوامر ! .. وكانت ــ بين حين وآخر ــ تفتح بابا ، فاسمعها تقول : ((كيف حالك يا بول ؟ .. الزم الراحة ، فانت بحاجــة الى الاستجمــام ، ونحن ماضون فى تصريف الأمور)) ! .. وعنــدما طلبت رؤية رئيس الوزراء ، رفضت قائلة انه مريض ، وانها تبذل قصارى وسعها لتملأ مــكانه)) !

ورأيت بنفسي عواقب نواحي ضعف الحكومة والجيش والشعب ، عندما دخلت باريس ــ وهى عاصمة مغلوبة ــ فى ١٧ يونيــو ١٩٤٠ ، فكتبت فى مفكرتى اذ ذاك : « يســاورنى شعور بأن ما نراه هنا ، هو تحطم المجتمع الفرنسى .. انهيار الجيش ، والحكومة ، والروح المعنوية لدى الشعب ! »

والتاريخ يحدثنا عن أمم انهــارت ــ فى بعض العصور ــ فلم يكن انهيارها نتيجة عيوب فيهــا ، وانما نتيجــة ما كان للمهاجمين من قوة هائلة . فهل ترى كان انهيار فرنســا من أمثــلة ذلك ؟.. لقــد ظللت أعواما ــ وأنا فى برلين ــ أراقب الارتفاع السريع ، الكبير ، فى القوة الحربية لألمانيــا النازية ، دون أن تبــذل الدول الديموقراطية الغربيــة جهــودا تذكر لمجاراتهــا . ولقد تتبعت كذلك ــ وعن طريق مبــاشر ــ ديبلوماسية هتلر المشئومة ، التى كانت قد اتسمت بنجــاح مذهل ، فاستطاعت أن تغرر بالغرب فى سهولة ، وأن تمهــد الطريق لغزوات وفتوح حربية سريعة التلاحق !.. وبرغم هذا كله ، ظل انهيار فرنسا غير واضح الأســباب تماما ، حتى أن القادة الألمان ــ الذين كنت أتحدث اليهم فى برلين ــ لم يكونوا يتوقعونه قبل حدوثه !

دولة فى حالة انهيار تام

● كنت قد وصلت الى باريس حوالى الظهر من ذلك اليوم — ١٧ يونيو ١٩٤٠ — فى أعقاب تقدم الجيش الألمانى السريع ، الذى كنت أرافقه كمراسل صحفى أمريكى محايد ، (اذ لم تكن الولايات المتحدة قد اقحمت فى الحرب بعد) . وكان اليوم من أيام يونيو الجميلة ، مشرق الشمس ، صافى السماء ، ومع ذلك فلم تكن العين تقع على مخلوق فى الطرقات ، اللهم الا جماعات من الجنود الألمان ، يخطرون — فى أوقات متفاوتة — فى أزيائهم الرمادية القاتمة ، وهم يحملقون مذهولين فى معالم المدينة العظيمة ، كما يفعل السائحون . أما المتاجر ، فكانت مغلقة ، وقد أحكمت الأستار الحديدية على نوافذها .

كان أغلب أهل باريس قد هربوا منها ، ولم يبق فيها فى ١٤ يونيو — وهو اليوم الذى دخل فيه الألمان المدينة — سوى ٧٠٠ ألف ، من خمسة ملايين (حسب تقديرات الشرطة) .. وعلى مئات الأميال — على الطرقات الممتدة جنوب باريس — كان يهيم أكثر من ثمانية ملايين من اللاجئين الذين استبد بهم الذعر . وكانت الجهود التى راح المدنيون يبذلونها ، ليمنعوا وحدات جيشهم — التى ظلت تحاول القتال — من المضى فى مقاومة قد تأتى على بيوتهم ومتاجرهم .. كانت جهود اولئك المدنيين أشد المثبطات التى فتت فى روح هذه الوحدات .. حتى ان اهالى احدى القرى ، القائمة على نهر (ايندر) ، اخمدوا فتائل المتفجرات التى اشعلها مهندسو جيشهم لعرقلة تقدم الألمان عن طريق نسف الجسر الموجود على النهر !

وكانت وسائل الاتصال قليلة جدا بين أعضاء الوزارة الفرنسية فى (تور) — حيث توقفت الحكومة لفترة ، فى طريقها الى (بوردو) — كما أن وسائل اتصالهم بالعالم الخارجى كانت

معدومة تماما . وعندما ذهب « بول بودوان » ــ وكيل وزارة الخارجية ــ لمقــابلة رئيس الجمهورية « البير لوبران » ، في (شاتو دى كانجيه) ، وجد رئيس الدولة « معزولا تمــاما ،

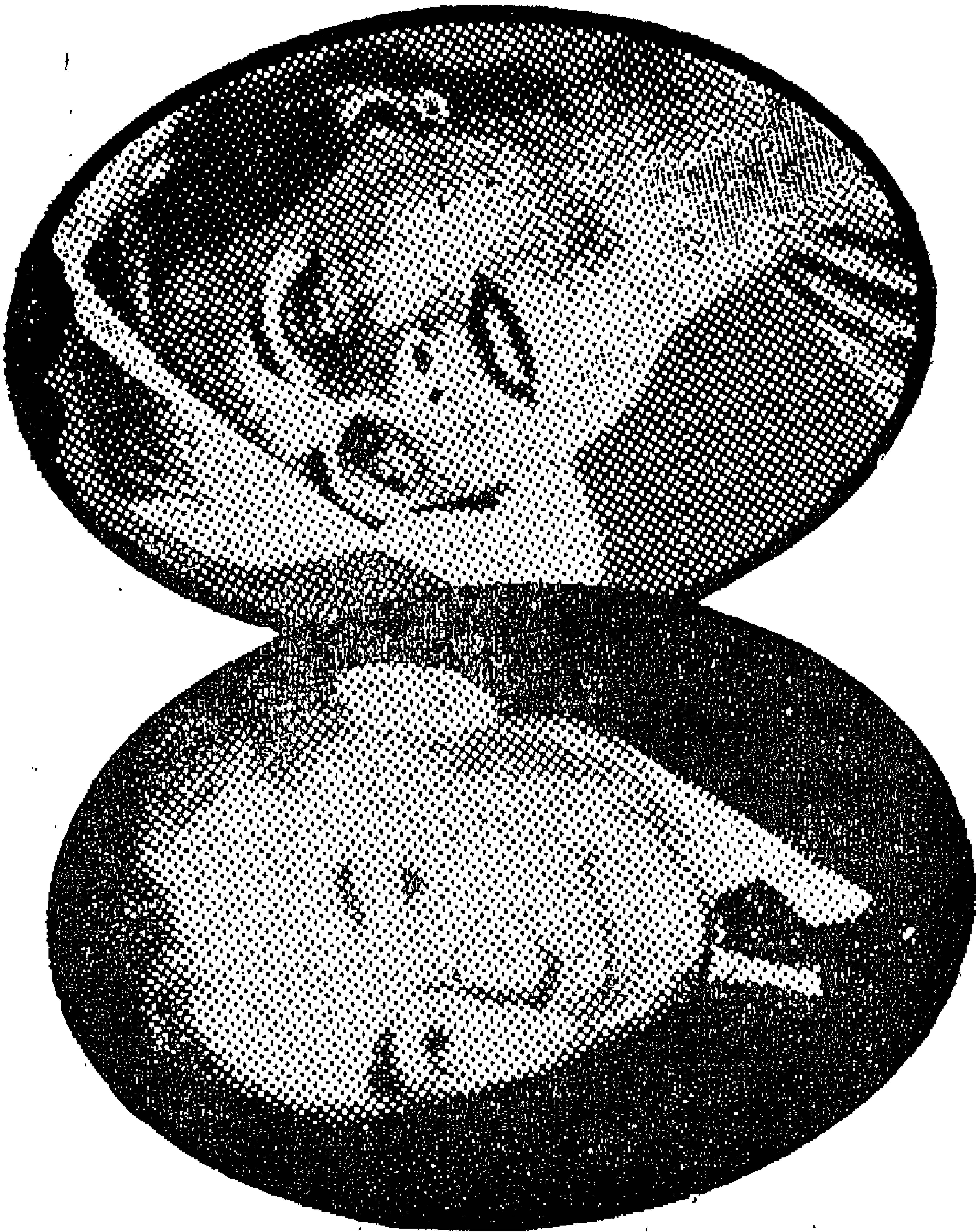


ادوار دالادييه رئيس وزارة فرنسا في بداية الحرب العالمية الثانية ، وعشيقته الحقيقية « جان دي كروسول »

دون أية أنباء من رئيس الوزراء ، ودون أية أنباء من الدوائر العليا .. فكان مهموما ، حائرا ، لا يعرف شيئا البتة »!!

فى طريق البحث عن مسئول !

● **من** الذى كان مسئولا عن هذا الانهيـار غير المنتظم ،



بول رينو رئيس وزارة فرنسا فى أثناء الهجوم الألمانى عليها عام ١٩٤٠ .. والى اليمين عشيقته الكونتة « هيلين دى بورت »

الذى أصاب الجيش والحكومة ؟ أهم القادة الذين أساءوا أعداد الجيش وقيادته ؟ . . أم هم الساسة الذين تقاعدوا عن أمداد الجيش بالأسلحة اللازمة ؟ . . أم كانت المسئولية الرئيسية واقعة على الشعب الفرنسي بالذات ، اذ لان وتراخى ب كما كان البعض قد بدأوا يقولون ــ تحت نظام جمهورى لا يعترف بزعيم ؟ . . ما مدى مسئولية اليمين المتطرف ، بما كان يبديه من كراهية للجمهورية وعطف على الديكتاتورية الفاشية ؟ . . وما مدى مسئولية اليسار المتطرف ، الذى كان الشيوعيون من عناصره ينساقون لما تمليه موسكو ، حتى حين كانت موسكو تعارض المصالح الحيوية لفرنسا ؟ . . **هل كان سقوط فرنسا مصداقا لما كان « بيير لافال » يقول ، من انه لا سبيل للديموقراطيات ــ فى عصرنا ــ للصمود أمام الديكتاتوريات ! . . أم ان ثمن النصر فى سنة ١٩١٨ ــ وقد بلغ حوالى مليون ونصف من القتلى الفرنسيين فى الميدان ــ كان فادحا ، فلم تتمكن فرنسا من أن تفيق الى درجة كافية لأن تقف فى وجه الألمان على قدم المساواة ، فى الفترة التى امتدت خلال الحربين ؟**

أثناء البحث عن اجابات لهذه الأسئلة ، وجدتنى استرجع ذكرى يوم آخر ــ من أيام الصيف ــ قبل ذلك بأحد عشر شهرا ، عندما كانت قوة فرنسا تبدو جلية ، حتى لأكثر الناس ارتيابا . ففى ١٤ يوليو ١٩٣٩ ، قام الجيش والطيران الفرنسيان باستعراضهما التقليدى ، فى « الشانزليزيه » . وكان القادة قد وضعوا الخطة بحيث يكون العرض فى أقصى درجات الروعة ، ليبثوا الثقة فى نفوس قسم من المواطنين كانوا فى شك من مقدرة فرنسا على الوقوف فى وجه المانيا النازية . وقد اشتركت فى العرض فصيلة بريطانية ، صفق لها الجمهور طويلا ، اذ لم يفته المعنى المقصود ، وهو أن قوة بريطانيا كانت منضمة الى قوة الامبراطورية الفرنسية . .

وشعرت الجموع التى احتشدت لمشاهدة العرض الجوى ــ الذى اشترك فيه سرب بريطانى كذلك ــ ان الحليفتين تمتلكان قوة كافية لمنافسة ألمانيا فى الجو أيضــــا . وأخذت أحــدث الدبابات الفرنسية الثقيلة ــ التى اشتهرت بأنهـــا أحسن ما كان فى العالم يومئذ من الدبابات ــ تزلزل الطرقات التى تمر بها ، وخلفها فصائل من المدفعية الرهيبة ، الطويلة المدى.

.. ومع ذلك ، ظل الكثيرون ضد المقاومة !

● **وهكذا** أوحى الجيش ــ على حد تعبير « جورج بونيه » ، وزير الخارجية ــ بأنه : « منظم ، منسق ، ذو قوة لا سبيل لمقاومتها ، فكيف كان لامرىء أن يخشى ألمانيـــا ؟ » .. وكان « بونيه » من فريق المرتابين ! .. ومع آخر دقات الطبول ، صاح « جول جانينى » ــ رئيس مجلس الشيوخ يومئذ ــ « كان بديعا أن تمكن السفير الألمانى وملحقه العسكرى من رؤية قوة جيشنا عن كثب . يجب أن تفهم ألمانيا انه لم يعد لها أن تأمل فى تنازلات من ناحيتنا ، فلن يؤيدها الرأى العــــام الفرنسى ولديه مثل هذا الجيش » !

واشرق بالثقة وجه « اندريه تارديو » ، رئيس الوزراء الأسبق ، الذى يئس من الجمهورية منذ سنة ١٩٣٤ ، وقال : « ان العدو ــ كما تبين تصرفاته فى السنوات الأربع الأخيرة ــ لا يريد حربا ، ولا يقوى على شــــنها . انه يفتقر الى المواد الأولية ، والاحتياطى الذهبى ، والخزانة ، والنقد السائل . انه يفتقر الى استقرار داخلى .. انه يهوش .. واذا صمدنا ، فان المحور سيتراجع ! »

ومع ذلك ، ظل هنــاك آخرون لم يؤتوا اية ثقة فى مقدرة فرنسا على مقاومة عدوها القديم ، وكان ثمة كثيرون لا يريدون المقاومة ، اما عن خوف ، واما عن تأييد للمعتقدات الفاشية .

ومن هؤلاء الكونت « الفونس دى شاتوبريان » ، الذى زار

المانيا فى سنة ١٩٣٧ ، فسرعان ما آمن بالنازية ، وكتب يقول : « ان هتلر بالغ الطيبة .. اذا حيا الجموع بيد ، فانه يبسط الأخرى الى الله مخلصـــا .. ان هتلر يحـــاول رفع صرح للمسيحية فى المانيـــا .. والاشتراكيون القوميون هم بداية العمل الآلهى ! »

ومن العجيب ان كتابا لشاتوبريان ـ يمجد فيـه هتلر ـ لقى رواجا واسعا فى الدوائر العسكرية الفرنسية اذ ذاك !

زعيمان تحركهما مطامع عشيقتين !

● فى تلك الفترة ـ التى كانت فرنسا تواجه فيها أعظم خطر من الخارج ـ كان « ادوار دالادييه » و « بول رينو» يتنافسان على الحكم .. وخلفهما امرأتان طموحتان ـ من ذوات الألقاب ـ ساهمتا فى ارتباك سياسة فرنسا ، وهما : الكونتة « هيلين دى بورت » عشيقة رينــو ، والمركيزة « جان دى كروسول » عشيقة دالادييه . وقد انحـــدرتا من أسرتين بورجوازيتين غنيتين ، وتزوجت كل منهما أحـــد الارستقراطيين ، واتخذتا من اللقب والمال سندا فى السعى الى النفــوذ السياسى ، عن طريق الارتباط بسياسى تجمع الاحتمالات على أنه فى طريقه الى القمة !

وكانت زوجة « دالادييه » قد توفيت ـ بعد عشر سنوات من زواجهما ـ والتقى بالمركيزة التى سرعان ما قادته الى عالم باهر الأضواء ، فبدأ يشق طريقه فى أرقى محـــافل باريس . وكانت المركيزة ـ فى نظــر الصحـــفى الفرنسى برتيناكس ـ « موهوبة ، يكسبها أنفها المقوس جاذبيــــة خاصة » .. أما الأديب الكبير « اندريه موروا » فكان يراها « جميلة ، ذات بهاء .. شقراء ، ينضح مظهرها بالشباب .. ذات ميل للنفوذ والسلطان ، وشغف غير موفــق بالنظريات الاقتصــــادية

« البقية صفحة ١٣٩ »

فتاة الجيشا

للروائى اليابانى الفائز بجائزة نوبل
ياسونارى كاواباتا



SNOW COUNTRY
(BY : YASUNARI KAWABATA)

تلخيص : مختار الجوهرى

مؤلف القصة

■ يعد « ياسونارى كاواباتا » ـ مؤلف هذه القصة ـ من أشهر كتاب القصة المعاصرين فى اليابان ، (بل فى العالم كله ، بعد أن حصل على جائزة نوبل فى الآداب منذ عامين) . وقد ولد فى مدينة (أوزاكا) ، فى يونية عام ١٨٩٩ .. وأثناء دراسته الجامعية أظهر موهبة فى الكتابة ، فاختير محررا فى هيئة تحرير مجلة الجامعة ، وكان أسم المجلة «شنشيشو» . وفى عام ١٩٢٣ انضم « كاواباتا » الى تحرير صحيفة « بانجى شونجو » ، ثم تخرج فى العام التالى فى الجامعة ، بعد حصوله على الليسانس فى الأدبين اليابانى والانجليزى . وفى عام ١٩٢٥ وطد اسمه كروائى ، بروايته الأولى « راقصات اقليم ايزو » .

.. ثم توالى انتاجه : فنشر فى عام ١٩٢٩ رواية « أزاكوزا » ، مسلسلة فى احدى الصحف ، واعقبتها مجموعة قصص قصيرة بعنوان « الطيور والحيوانات » .. و « عين العصر المنهار » ـ فى عام ١٩٣٣ ـ وفى عام ١٩٣٥ بدأ فى كتابة روايته الحالية « اقليم الثلوج » ـ التى نقدمها لك فى الصفحات التالية تحت عنوان (فتاة الجيشا) ـ وقد أتمها فى عام ١٩٣٧ ، فلما نشرت منح من اجلها جائزة « بونجى كونوا » ..

وفى عام ١٩٤٧ نشر «كاواباتا» رواية «سمبا سورو» ـ ومعناها « الف طائر كركى » ـ ثم صدرت له رواية « صوت الجبل » (١٩٤٩) ، و « الزواج مرة اخرى » (١٩٥٣) و « شعب طوكيو » ، و « البحيرة » (١٩٥٥) .. ثم « قصيدة غنائية » ، و « مرآة صباح فضى » ، ثم « النار المقدسة » ، و « استعراض فى الأقاليم » .

وكان « كاواباتا » قد انتخب فى عام ١٩٥٤ عضوا فى اكاديمية الفن اليابانى .. كما اختير رئيسا لنادى القلم اليابانى لعدة سنوات . وفى مايو ١٩٥٩ حصل على ميدالية « جوته » ، تقديرا لأدبه .

والآن تعال نقرأ معا أشهر قصصه الطويلة : « اقليم الثلوج » ، أو « فتاة الجيشا » !

هذه القصة ..

■ يعتبر الساحل الغربى لجزيرة « هسو » ــ كبرى الجزر اليابانية ــ من اغزر مناطق العالم ثلوجا ، برغم وقوعه على نفس خطوط العرض المحصورة بين (برشلونة) وجنوب المغرب .. وذلك لانه يتعرض ــ فى الشتاء ــ للرياح الجليدية التى تهب من سيبيريا نحو الجنوب .

ومن المفارقات الطبيعية العجيبة ، ان عيون المياه الساخنة تنبثق فى جميع ارجاء الاقليم . وللينابيع الساخنة مغزى خاص لدى الرجل اليابانى : فهو يسعى اليها وحيدا ، دون أن يصطحب اسرته ــ كما يفعل رواد مراكز المياه المعدنية ، فى بقية العالم ــ ليقضى فترة ممتعة ، فى صحبة بنات « الجيشا » .

ولبنات « الجيشا » فى مراكز الينابيع الساخنة وضع خاص ، يختلف عن زميلاتهن فى المدن . فبينما تتاح الفرص لهؤلاء لكى يصبحن موسيقيات أو راقصات شهيرات ، نجد ان بنات « الجيشا » فى تلك المراكز يوضعن فى مرتبة أدنى ، فهن مضطرات الى ان يرفهن عن رواد الجبال والينابيع الساخنة ــ فى العطلات الاسبوعية ــ بكافة الوان الترفيه ، حتى تلك المتعلقة بارضاء رغباتهم الجنسية .. ومن ثم ، فمن المألوف ان تسعى الفتاة منهن الى اغراء احد الرواد بالزواج منها ، أو حمله على أن ينشىء لها مطعما فى تلك المراكز السياحية ، حتى تتخلص من ربقة الوضع الذى القتها فيه المقادير .

وحول هذه الطبقة من فتيات « الجيشا » ، كتب « كاواباتا » هذه القصة ، التى رسم فيها الحياة فى مراكز الينابيع الحارة فى جبال اليابان ، كما عرض صورة دقيقة رائعة لهؤلاء الفتيات ، بأدق ما يختلج فى صدورهن من مشاعر وعواطف .. ومزج كل ذلك فى اطار مأساة انسانية رائعة ، حتى ليخال القارىء ان أحداث القصة تحمله ــ على اجنحة الخيال ــ الى جبال جزيرة « هسو » ، والجو العاطفى الشاعرى الذى يسيطر عليها ..

● غادر القطار النفق الطويل ، وانطلق يجرى على ارض مكسوة بالثلوج ، حتى انتهى الى محطة صغيرة فى الجبل .. وأسرعت فتاة ـ كانت تجلس فى الجانب الآخر من المركبة ـ فعبرت المركبة إلى الجانب الذى يجلس فيه المسافر الثرى « شيمامورا » ، ففتحت النافذة القائمة بجوار مقعده ، واذا الرياح الباردة تندفع منها .. ولكن الفتاة أطلت ، ونادت ناظر المحطة ، فوافاها متباطئا ، وهو يحمل « فانوسا » مضيئا ، وقد أحاط رأسه ووجهه بدثار ثقيل ، مما أوحى الى « شيمامورا » بقسوة البرد خارج القطار .. وصاحت الفتاة : « اننى يوكو .. كيف حالك ؟ » .. فأجاب ناظر المحطة : « بخير .. اذن فقد عدت من العاصمة ؟ »

ـ كتب لى أخى عن عنايتك به ، فشكرا .

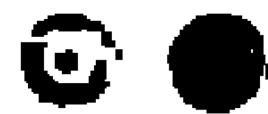
ـ ليس هذا المكان مناسبا لفتى مثله فى مقتبل العمر ، ولكنه يؤدى واجبه خير اداء .. والعمل كثير بسبب تراكم الثلوج .

ـ أرجو أن تنصحه بارتداء الثياب الثقيلة !

وتحول الرجل فأشار بمصباحه لسائق القطار كى يواصل سيره ، فصاحت الفتاة فى صوت عذب ، مس قلب « شيمامورا » ما سرى فيه من أسى : « قل له أن يحضر لزيارتى ! » .. ثم **اغلقت « يوكو » النافذة ، وعادت الى مكانها ، وعلى وجهها مسحة من الحزن .. وأخذ « شيمامورا » يتأملها فى اهتمام ، مرجحا أنها لم تتزوج بعد ، وان كانت بصحبة رجل شاحب الوجه ، بادى السقم ، راحت تحدب عليه وترعاه ، كما تفعل الزوجة لزوج معتل ..**

وكان « شيمامورا » قد قضى فى القطار ثلاث ساعات طوال ، فزين له السأم أن يشغل نفسه بمراقبة الفتاة ، محاولا أن يستعيد فى ذهنه صورة فتاة أخرى ـ كان يقوم بالرحلة من

أجل أن يراها ـ فلا تسعفه الذاكرة بصورة واضحة .. ومد أصبعه الى زجاج النافذة ، الذى تكاثف عليه ضباب الأنفاس ، فكاد يصيح دهشة ، اذ طالعته عينا الفتاة .. ثم فطن الى أن الظلام السائد فى الخارج ، والأنوار المضاءة داخل القطار ، احالت زجاج النافذة الى مرآة ، انعكست عليها صورة جارته .. ورأى فى عينيها فتنة وجمالا ، فمال على النافذة ـ وكأنه يحاول رؤية الثلوج ـ ومسح ما بقى من ضباب على الزجاج ، وراح يتابع مناظر الفتاة ، وهى تحنو على الرجل المريض ، وكأنه يشاهد شريطا سينمائيا يعرض رؤى عالم آخر ! .. ومر القطار بنار مشبوبة فوق الجبل ، فبهر « شيماموار » منظر وهجها الظاهر خلف النافذة ، وقد بدا فوقه طيف وجه الفتاة المنعكس على صفحة الزجاج .. وبدت عينا الفتاة لشيماموار ، كشعلتين وسط الثلوج التى كست الجبل !



ودهش « شيماموار » اذ غادرت الفتاة وصاحبها القطار ، فى نفس المحطة التى كان يقصدها ! .. وأسرع الى خارج المحطة ، فلفت نظره الثلج الذى كسا أسطح البيوت وقمم الأشجار ، فسأل سائق « التاكسى » الذى استقله الى فندق القرية : « هل يسقط الثلج هنا غزيرا فى الشتاء ؟ » .. كانت هذه أول مرة يزور فيها القرية فى الشتاء ، وواتاه جواب السائق : « انه يصل أحيانا الى أربعة أمتار أو خمسة . ولكنا لا نزال فى بداية الشتاء ، ولا يزيد سمك الثلج عن مترين أو ثلاثة » . وعاد يسأل السائق : « ألا تزال الفتاة التى تقيم مع معلمة الموسيقى موجودة بالقرية ؟ »

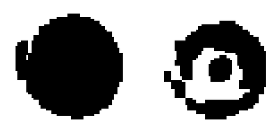
ـ لقد كانت بالمحطة ، ألم ترها ؟ كانت ترتدى معطفا أسود ..

ـ لم افطن اليها .. وماذا كانت تفعل بالمحطة ؟

ـ سمعت أنها جاءت لاستقبال ابن معلمة الموسيقى .

اذن فقد كان الرجل العليل هو ابن معلمة الموسيقي ، التي تقيم معها فتاة الجيشا ((كوماكو)) ، التي جاء من اجلها ! .. وداخله شعور غريب ازاء هذه المصادفة ، وساءل نفسه : أكانت هناك علاقة بين فتاة القطار ، وفتاة ((الجيشا)) التي جاء **لزيارتها ؟** .. واذ بلغ الفندق ، وجـده هادئا ، يكاد يخلو من النزلاء ، فى فترة الركود التى تسـبق موسـم التزحلق على الجليد .. وبينما كان عائدا الى حجرته ، بعـد أن اغتسل بالماء المعدنى الساخن ، مر بحجرة الاسـتقبال ، فرأى امرأة طويلة ، فى لباس « الجيشا » .. وخفق قلبه اذ تبين أنهـا فتاته « كوماكو » ، وقد صبغت وجهها بالطـلاء الابيض ، كتقاليد بنات « الجيشـا » .. اذن ، فقـد أصبحت منهن أخيرا ؟!

ولم تبد الفتاة لهفة أو انفعالا ، بل حيته برصانة ، وهى تتفرس فى وجهه .. ثم سارت الى جواره نحو غرفته ، دون أن ينبس أحدهمـا بكلمة ، وان كانت عيناها قد أغرورقتـا بالدموع .. وتذكر « شيمامورا »انه برغم ما كان بينهما من ود ، فى الماضى ، فانه لم يكتب اليها قط طوال مدة غيـابه ـ ولعلها حسبته قد نسيها ! ـ وفكر فى أن يعتذر لها ، ولكنه رأى فى دموعها ونظرتها المستسلمة ، أنها لم تكن تفكر فى لومه ، وانما كانت تشعر بالرضى لعودة ما كانا عليه ، فلم يشـأ أن يفسد اللقاء بأى اعتذار ..



● **واذ** دخلا غرفته ، جففت الفتاة دموعها ، وشاعت فى وجهها ابتسامة حزينة ، وأخذت تحملق فيه .. فوجد نفسه يسترجع ذكرى لقائهما الأول :

كان يعيش فى جدة وفزاغ فى (طوكيـو) ، فاذا ادركه الملل ، رحل الى بعض المناطق الجبلية طلبا للتغيير . وفى احدى المرات ، هبط الى هذه القرية الشهيرة بعيونها المعدنية ـ بعد جولة فى الجبال استغرقت اسبوعا ـ فلمـا

حل بهذا الفندق ، طلب من صاحبته استدعاء احدى فتيات « الجيشا » لتنادمه .. ولكن الفتيات الاثنتي عشرة ــ اللواتي كن في القرية ــ كن مشغولات في حفل كبير أقيم في تلك الليلة .. وعرضت عليه صاحبة الفندق ان تستدعي له فتاة تقيم مع معلمة الموسيقي ، ولم تكن قد انضمت تماما لطائفة « الجيشا » . وجاءت الفتاة بعد قليل ، بصحبة احدى خادمات الفندق ، حتى اذا همت الخادم بالانصراف ، استبقتها ، مما أوحى الى « شيماموراا » بانها كانت بعد طاهرة نقية .. على أن الخادم لم تلبث أن تسللت خلسة الى الخارج ، وهما يتحدثان عن الطبيعة ، والثلوج ..

هكذا كان أول لقاء له بكوماكو !

ولم يشعر « شيماموراا » ــ في ذلك اللقاء ــ برغبة في الشراب مع الفتاة ، فاخذ يتسلى بسؤالها عن حياتها ، وراحت تجيب ببساطة وايجاز : لقد ولدت باحدى قرى الاقليم ، حتى اذا أتمت دراستها الاعدادية ، اوفدها ابواها الى احد بيوت « الجيشا » في (طوكيو) لاعدادها لهذه المهنة .. ولكن الله قيض لها رجلا كريما سدد ديونها للبيت ، وعرض عليها أن تتدرب لتصبح معلمة للرقص .. ولكنه مات بعد عام ونصف العام !

وفي أسى راحت الفتاة تروي ما مر بها من شقاء وبؤس ، بعد وفاة ذلك المحسن .. ولكنها ــ برغم ذلك ، وبرغم بلوغها التاسعة عشرة ــ استطاعت أن تحتفظ بطهرها ونقائها ! .. ورفعها هذا في عيني « شيماموراا » ، فازداد عطفا عليها ، واحتراما لها .. ثم تضاعف تقديره حين وجدها على المام كبير بشؤون « الكابوكي » . (المسرح الكلاسيكي الياباني) ، والرقص ، و « الباليه » .. وتبين « شيماموراا » ، وهو يصغي الى حديثها باستمتاع ، انه كان بحاجة الى رفيقة تبادله الحديث ، أكثر منه الى امرأة تشبع غريزته .. ومن ثم تركها تنصرف ــ في ساعة متأخرة من الليل ــ دون أن يمسها بسوء !

ووافته بعد ظهر اليوم التالي ، فاذا به يبادرها طالبا أن تستدعي له احدى فتيات « الجيشا » المحترفات ! .. وذهلت ــ في بادىء الامر ــ ثم اتجهت الى النافذة ، وقد تضرج وجهها ، وراحت تتأمل الجبال مليا . وما لبثت ان قالت في غضب : « لم آت لتسألني هذا الطلب ! .. اذهب بنفسك فابحث عن واحدة منهن ! »

ــ بل أحب أن تستدعي لي بنفسك احداهن ، فانا اعتبرك صديقة ، ولهذا تصرفت معك بالامس تصرفا نبيلا .. انني رجل قضى في الجبال اسبوعا ، فانا بحاجة الى امرأة ، ولن أطيق أن أقضي ليلتين معك في أحاديث شتى ، دون اشباع رغبتي !

وغضت بصرها وهي صامتة ، فاحس بانه قد جاوز حدود الصراحة .. ولكنها ما لبثت ان هزت راسها باسى ، والخجل يكسو وجههـــا ، وقالت : « ساستدعي لك واحدة ، ولكني لن احضر الى هنا مرة اخرى ! »

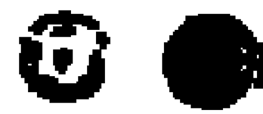
ـ لا تكوني حمقاء ! .. ألم اقل انني اريدك صديقة ؟ .. اذا تورطت في علاقتي بك ، فقد لا اتوق الى رؤيتك بعد ذلك .. وأنا أحب ان اراك واتحدث اليك .. ولو انني استدعيت امرأة لا تحبينها ، فقد تكرهين لقائي !

.. فاشاحت بوجهها وصاحت : « كفى ! » .. ولكنها ـ بعد قليل ـ عادت تقول بصوت خافت ، وكأنها ندمت على احتدادها : « الواقع .. اظنك على حق فيما تقول ! » .. وعادت فجلست قريبا منه ، على الحصير ، وفي عينيها شعور عميق ، جعله يشعر كأنه ارتكب ذنبا ! ولكنه لم يكن كاذبا فيما قاله لها . كان يراها بريئة ، ساذجة ، ليست من الصنف الذي يشبع الرجل معه شهوته .. بل كانت اصلح لان تصبح رفيقة لزوجته ـ عندما يحضرها الى الجبل ـ وربما لقنتها دروسا في الرقص والموسيقى .. وصارحها بافكاره ، فابتسمت ـ لأول مرة ـ قائلة : « يسرني هذا ، فالصداقة شيء جميل ! »

ـ اذن ، هل تستدعين لي احدى فتيات « الجيشا » ؟

فقالت وقد عاودهـــا الغضب : « الآن ؟ .. ماذا تفعل بهـــا في وضح النهار ؟ ».. وكأنما ندمت على غضبهــــا ، فتراجعت قائلة ان فتيـــات « الجيشا » في القرية قليلات ، والطلب عليهن كثير ، وبيوت « الجيشا » لا تتحمل تبعات اتصالاتهن بالعملاء .. فلما استوضحها ، قالت : « اقصد أن اللقاء قد ينتهي بطفل .. أو مرض خبيث ! »

ولم يجد حيلة سوى أن يكلف احدى خادمات الفندق باستدعاء فتـــاة له .. وارادت « كوماكو » الانصراف ، فابتدرها : « لا تذهبي الآن ! » .. لكنها اجابته في انفعال : « لا أستطيع البقاء .. ساعود فيما بعد ! »

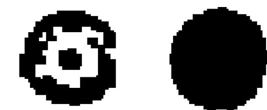


• لم يكد « شيمامورا » يرى الفتاة التي احضرتها الخادم ، حتى احس برغبته تتلاشى .. وراحت الفتاة تعابثه ، ولكنه وجد نفسه زاهدا ، حتى في الحديث ! .. وما لبث أن زعم أنه مضطر للذهاب الى مكتب البريد . واذ غادر الفنـــدق ، استهواه الجو ، ومنظر الجبل ، فانطلق يصـــعد الجبل بنشاط ، وهو يضحك .. حتى اذا شعر بالتعب ، انثنى عائدا ، واذا به يلتقي بكوماكو ، في ظل اشجار الارز .. وبادرته قائلة : « لاشك أنك سعيد ، كما تنم ضحكاتك ! » ، فعاد يضحك قائلا : « لقـــد استغنيت عن نســـاء الجيشا ! »

وجلس الى جوارها ، فغضت بصرها الى الارض ، في شيء من الجفاء ..

واذ طال الصمت ، سرح نظره خلال الاشجار ، ثم قال : « لقد أخطأت عندما رايتك في الفندق أول مرة ، فظننت ان كل بنات « الجيشا » على شاكلتك ! » .. وشعر بارتياح لطهارة الفتاة واحتشامها .. وسادهما سكون تخلله خرير الماء في مجرى جبلي .. واخذ الظلام يهبط رويدا .. وفطن « شيمامورا » ــ وهو يتذكر معاملته لفتاة « الجيشا » التي أحضرتها الخادم ــ الى أنه منذ البداية لم يكن راغبا في غير « كوماكو » ، وان استدعاءه الاخرى لم يكن سوى حيلة لكى تفهم ما بنفسه ، فأحس بخسة لاتباعه هذه الطريق الملتوية !

وبدا وجهها المستدير دقيق القسمات ، تعلوه مسحة من الحزن ووحشة الوحدة .. وشفتاها الرقيقتان لا تكفان عن الاختلاج ، حتى وهى صامتة .. واهدابها مسبلة ، كأنها لا تجرؤ على التطلع الى وجه جليسها .. وعنقها نحيلا ــ كعنق طفلة ، لا امرأة مكتملة النمو ــ وان كان صدرها ممتلئا ، على نقيض ما عرف من ضمور صدور فتيات « الجيشا » ، نتيجة الحزام المريض الذى يشد على صدورهن ! فصارى القول ، ان مظهرها كان يوحى بالبراءة اكثر مما ينم عن فتنة الجمال !



• وفي حوالى الساعة العاشرة من مســاء ذلك اليوم ، كان في حجرته عندما فوجىء بصوتها يناديه ، ثم رآها تندفع داخلة ، فتتعثر وتسقط على الحصير .. وكانت ــ منذ فارقها في الاصيل ــ قد ذهبت للقاء بعض الوافدين ، وأسرفت في الشراب على غير عادتها .. وما ان فطنت الى حالها حتى انصرفت وهي تترنح ، واذا قدماها تحملانها الى الفندق ، والى غرفتـــه .. وكانت صيحاتها الثملة ــ وهى تناديه ــ صيحات انبعثت من أعماق امرأة تنشـــد رجلها ، وقد أزال الشراب كل تحفظ تتظاهر به ! .. ومالت عليـــه ، وهو مستلق في فراشه ، وقالت : « لست ثملة ، ولكنى أخطأت اذ تناولت انواعا مختلفة من الشراب ، وهذا يثقل الرأس ! »

وكان المطر يتساقط بغزارة في الخارج ، والفتاة تزداد تشبثا بشيمامورا ، فاذا تراخت ذراعه حولها ، تهاوت الى الارض ، فيضمها بشدة من جديد .. واخذ يخاطبها ــ في حنو ــ مهدئا من روعها .. وتسللت يده ــ خلال فتحة (الكيمونو) ــ تعبث بصدرها ، فسكتت الفتاة لحظة ، ثم عقدت ذراعيها فوق صدرها لتصد يده ، وعضت ذراعها بقسوة ، سخطا على نفسها لانهـــا لم تمنعه من البداية !

وبهت « شيمامورا » .. وكأنما انتبهت الفتاة الى أنها آذت شعوره ، فرفعت ذراعيها عن صدرها .. ثم تناولت احدى يديه فوضعتها على صدرها ، وراحت تداعب اليد الأخرى .. واحس بصدرها يعلو ويهبط ، فتملكته

عاطفة جارفة ، وضمها اليه فى قوة ، وهو يهمس : « لا تخشى شيئا ! »
ولكن الصداع عاودها ، فتلوت من الألم ، وصاحت : « لم أعد أحتمل .. خير لى أن أعود الى منزلى ! »
ــ كيف تذهبين وأنت فى هذه الحال ؟ .. ثم انصتى الى المطر !
ــ سأعود حافية القدمين ، ولو اضطررت الى أن أزحف الى البيت !
وانتصبت جالســة ، وهى تتنفس بعمق ، ولكن الالم كان يتجلى على أساريرها .. وقاومت الرغبة فى افراغ ما فى جوفها ، وتأملت ساعتها فاذا بها تجاوزت الثانية ، فقالت لشيمامورا : « عد الى نومك .. وسأجلس هنا ، حتى اذا تحسنت حالى ، انصرفت الى بيتى ! »
وعاد الى فراشه .. ولكنهــا ما لبثت ان صاحت : « انهض ! .. دع الفراش ! » .. فصاح بهـا : « انك تحيريننى ! » .. ثم نهض ، فجذبهـا وارقدها الى جواره .. وحولت وجهها عنه فى البداية ، ولكنها لم تلبث ان اقبلت عليه ، تقبله فى عنف .. وظلت فترة تسلمه شفتيها ، ثم تنأى بهما ، وهى تكرر : « لا .. قلت انك تريد ان نكون صديقين فحسب ! »
وجعله قولها يؤثر الابتعاد عنها .. فعادت تقترب منه ، وهى تهمس : « لن أندم على شىء .. ولكن لا تظننى من أولئك النسوة .. فعلاقة الرجل بهن لا تدوم .. هكذا قلت انت ! »
وكانت لا تزال تحت تأثير الخمر ، فاستطردت : « ليس الذنب ذنبى .. بل ذنبك .. انت الذى خسرت المعركة .. انت الذى ضعفت ، لا انا ! » .. وسقطت فى شبه سبات ، وهى تعض كمها ، كأنما لتصد سعادتها عن الظهور !

وهدأت لفترة ، وقد نضبت كافة انفعالاتها ، ثم صاحت ، وكأنما داهمتها فكرة اشقتها : « انك تضحك منى .. ألست تضحك ؟ »
قال : « كلا .. لست أضحك ! »
ــ بل تضحك منى فى نفسك ، وحتى اذا لم تضحك الآن ، فستضحك فيما بعد !
وغلبها التأثر فبكت .. ثم عاودها الهدوء ، وابدت الندم على سوء ظنها به ، واقبلت تتلطف اليه ، دون ان تشير الى ما حدث بينهما منذ قليل ! .. وما لبثت ان فطنت الى أن الليل اوشك أن ينتهى ، فابتسمت فى خجل قائلة انها تؤثر أن تغادر الفندق قبل طلوع النهار ، حتى لا يراها احد !
ولكنها ــ مع ذلك ــ ظلت تتلكأ ، حتى بدت تباشــير الفجر ، ودبت الحركة فى الفندق ، فاصلحت من شعرها ، واسرعت خارجة ، وهى ترفض ان يودعها لدى الباب ، خشية عيون الخدم !
وفى ظهر ذلك اليوم ، غادر « شيمامورا » القرية ، عائدا الى (طوكيو) .

● **أفاق** « شيمامورا » من ذكريات ذلك اللقـاء الأول بينهما ، منذ عام ، فالتفت الى الفتاة قائلا : « أتذكرين ما قلت فى تلك الليلة ؟ .. لم تكونى على حق ، فأنا لم أضحك منك ، ولا فكرت فى ذلك يوما ! »

وبدت حمرة الخجل تحت الطلاء الأبيض ــ الذى كسا وجهها ــ وابتسمت فى استحياء .. ولعل كلماته ذكرتها بما كان بينهما ــ فى تلك الليلة ــ فغضت بصرها ، وبدأت تعد على أصابعها .. **فسألها : ((ماذا تعدين ؟)) .. فقالت : ((كان ذلك فى اليوم الثالث والعشرين من شهر مايو)) .**

ــ وكيف تذكرين تاريخ ذلك اليوم ؟

ــ لقد انقضت مائة وتسعة وتسعون يوما .. لقد دونت ذلك فى مذكراتى !

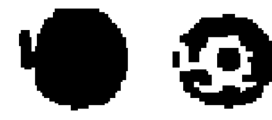
ــ اذن ، فأنت تحتفظين بمذكرات ؟ .. منذ متى ؟

ــ بدأتها قبيل رحيلى الى طوكيـو ، لأتدرب على فنون « الجيشا » .. كنت اذ ذاك فى السادسة عشرة ، فاعتدت قبل أن أنام ــ كل ليلة ــ أن أكتب فى مذكراتى أحداث اليوم .. على أننى لم أعد أكتب يومياتى بانتظـام ، فى السنوات الأخـيرة ..

ودهش « شيمامورا » اذ أخبرته أنها تسجل فى مذكراتها ــ الى جانب الأحداث ــ ملخصات لما تقرأ من كتب وروايات .. وحدس أنها بذلك تملأ بعض الفراغ الذى تعانيه فى حياتها فى تلك القرية الجبلية الموحشة .. وللمرة الثانية ، شعر بأنه لا يستطيع أن يعاملها معاملته لأية امرأة عادية من « الجيشا »! .. وكأنما حدست ما كان يدور بخلده ، فغلبها الاستحياء ، وسارت الى النافذة ففتحتها ، وجلست على حافتهـا .. وهبت الرياح باردة ، فسار اليها شيماموراً ، قائلا : « هل جننت ؟ »

وكان الليل يبدو ــ خارج النافذة ــ حالك الظلمـة ..

ومالت الفتاة لتحول بين « شيماموراً » واغلاق النــافذة ، فلمست يده عنقها ، وقال : « ستصابين بأذى من البرد .. الا ترين كيف أصبح عنقك بارداً ؟ » . وحاول أن يجذبها الى داخل الحجرة ، ولكنها تشبثت بحافة النافذة ، وهي تقول : « دعني هكذا بعض الوقت ! »



● وفي الفجر التــالي ، استيقظ « شيماموراً » على حركتها في الفراش .. واذ رآته يجلس في الفراش ، قالت : « أشعر بأنني حزينة ! » .. كانت ــ كعادتهــا ــ مضطربة الأعصاب ، قضت الليل تتقلب في الفراش ، فلم تنم الا لماما .. ونهضت ففتحت النافذة .. كانت خيوط الفجر الأولى قد بدأت تنساب من وراء الجبل ، فقالت : « سأنصرف الآن .. قبل أن يخرج الفلاحون لحقولهم ، وتستيقظ خادمات الفندق ! »

ولما أتمت ارتداء ثيابها ، هدأت فترة ، ثم راحت تتمشى في الحجرة ، وهي بادية القلق ، حتى خيل لشيماموراً كأنهــا وحش يخاف بزوغ النهار !

وفي ظهــر ذلك اليوم ، سار « شــيماموراً » في الطريق المنحدرة الى القرية ، وهو يتأمل قمم الجبال وقد تألقت تحت أشعة الشمس .. فلما بلغ القرية ، سار في الشارع الرئيسي .. وما لبث أن مر ببيت كبير ، رأى أمامــه بعض نســاء « الجيشا » .. وحدثه هاتف في أعماقه بأن « كوماكو » كانت بينهن .. وصدق حدسه ، اذ لم يلبث أن رآها .. وعبست ، وتضرج وجهها ، فود لو أنها تجاهلته ، واسرع الخطو ، ولكنه لم يلبث أن سمع وقع قدميهــا خلفــه ، وهي تلحق به .. **وبادرته قائلة : « ما كان ينبغي أن تفعل هذا .. انك تحرجني بالمرور في مثل هذه الساعة ! »**

ــ انا احرجك ؟! .. أنت التي سببت الحرج لنفسك ،

حين تضرج وجهك ، وجئت تجرين خلفى ! »

وتوقفت ، وأحاطت بذراعها احدى الأشجار ، وقالت : « انما تبعتك كى أسألك أن تزورنى فى منزلى ! »

ــ سأصحبك اذا سمحت لى بقراءة مذكراتك .. ولكن ، أليس فى البيت رجل مريض ؟

ــ وكيف عرفت بهذا ؟

ــ كنت أجلس بالقرب منه ، فى القطار .. وكانت معه فتاة ترعاه فى رقة وعطف . أترينها زوجته ، أو فتاة ذهبت من هنا لتأتى به ، أو أنها جاءت ترافقه من طوكيو ؟ .. انها كانت تحنو عليه كالأم الرؤوم !

ــ لم لم تقل هذا ليلة أمس ؟ .. حقا ، انك غريب الأطوار !

وخيل اليه أن فى صوتها حدة ضايقته .. ولعلها كانت منبعثة عن شىء فى قرارة نفسها .. وفطن الى أنه حين رأى « كوماكو » ــ فى الصباح ــ عند النافذة ، وخلفها الجبل المكسو بالثلوج ، تذكر صورة عينى الفتاة ، على صفحة زجاج القطار .. فلماذا لم يحدثها عنها ، اذ ذاك ؟ .. وقادته الى البيت .. كانت ثمة حديقة زهور صغيرة عند المدخل ، يتوسطها حوض تسبح فيه بعض الأسماك . وكان البيت قديما متداعيا ، فتبعها ــ على سلم خشبى ــ وهو لا يكاد يستبين ما حوله ، حتى بلغا حجرة ضيقة ، تحت سقف البيت المحدب .. فقالت : « كانت هذه الحجرة مخصصة لتربية ديدان القز ، قبل أن أسكنها .. أتستغرب لوجودى فى مكان حقير كهذا ؟ »

وهبطت الى الطابق الأسفل لتحضر فحما ، حتى تشعل النار فى المدفأة ، فأخذ « شيمامورا » يجيل بصره فى المكان : لم تكن هناك سوى نافذة واحدة صغيرة ، ولكن ورق الجدران كان جديدا ، يعكس أشعة الشمس فيملأ الحجرة نورا .. وفى

أحد الأركان ، رأى خزانة ثيــاب من خشب قديم ــ ولكنــه فاخر ــ حدس أنها من بقــايا أثاث « كوماكو » حين كانت فى طوكيو . وكان الفرق واضحــا بين الخزانة وطاولة الزينــة الرخيصة ، التى استقرت بجوارها ، تحمل أدوات التجميل التى تستعملها فتاة « الجيشا » . .

وعادت « كوماكو » بالفحم ، وهى تغنى مبتهجة ، وقالت : « جئت بالفحم من حجرة المريض . . لا تجزع ، فالنار تقضى على الجراثيم ! » . . وأخذت ترص الفحم فى المدفأة ، وشعرها الأسود متهدل ، وهى تروى قصة ابن معلمة الموسيقى . . كان مريضا بالسل ، فلما اشتدت به العلة ، جاء ليقضى نحبــه فى بيت أمه . وكانت الأم من فتيات « الجيشا » فى (كيوتو) ــ عاصمة اليابان القديمــة ــ ثم تحولت الى معلمـــة للرقص والموسيقى ، ولكنها أصيبت بالنقرس ــ حين بلغت الأربعين من عمرها ــ فجاءت تقيم فى القرية ، التماسا للعلاج بمياهها المعدنيــة . .

وكانت « كوماكو » تتكلم ببساطة ، ولكنها لم تذكر شيئا عن الفتـــاة التى رافقت المريض من طوكيو ، ولا عن سبب وجودها فى البيت . . ولكنه حين هبط الى الطابق الأسفل ، لمح فى حجرة الاستقبال آلة موسيقية تدعى « الساميسن » ، وفجأة سمع صوتا يقول : « أتسمحين لى بالدخول يا كوماكو ؟ »

وعرف فى الصوت الصافى صوت « يوكو » ، رفيقة القطار . . وما لبث أن رآها أمامه . والقت الفتاة عليه نظرة خاطفة ، ثم اختفت فى داخل البيت . . ورافقته صورة نظرتهــا طيلة الطريق الى الفندق . كانت نظرة باردة ، اشبه بضوء يلوح من بعيد فيثير الخيال ! . . والتقى عند الفندق بمدلكة عميــاء عجوز ، فدعاها الى تدليكه . ورافقتـــه المرأة الى حجرته ، وساد السكون المكان فترة ، والمرأة تزاول مهمتها . وما لبثت أن قالت : « ليس جسمك بدينا ، ولا هو نحيف . . يبدو أنك

لا تكثر من تعاطى الخمر ! » .. وترامت اليهما انغام من غرفة بعيدة ، تصدر عن آلة « الساميسن » ، فتساءل شيماموارا ، ليبدد الصمت : « ترى من التى تعزف ؟» .. فأجابت العمياء : « من الممكن معرفة فتاة الجيشا من عزفها ! »

ـ وهل بينهن عازفات ماهرات .. هنا ؟

ـ لعل « كوماكو » احذقهن ، فهى ـ برغم صغر سنها ـ بلغت مستوى عاليا . انك تعرفها بلا شك !

ـ لست أعرفها معرفة وثيقة ، ولكنى قدمت بالأمس فى القطار مع ابن معلمتها !

ـ لقد طال مرض المسكين فى طوكيو ، ويقال ان « كوماكو » اصبحت من فتيات الجيشـا ـ فى الصيف الماضى ـ لتوفير نفقات علاجه !

ـ وما شأن « كوماكو » ونفقات علاجه ؟

ـ الا تدرى انهما كانا خطيبين ؟

ودهش شيماموارا لسماع هذا النبأ من المدلكة العمياء ، ولم يستطع أن يصدق أن « كوماكو » قد باعت نفسها من أجل هذا الفتى العليل ، الذى كان بعيدا عنها فى طوكيو . وأراد أن يستدرج العمياء كى تمضى فى الحديث ، ولكنها لاذت بالصمت .. وبعد أن تركته ، وجد نفسه يفكر فى « كوماكو » ، ويقرر أن يسألهـا عن حقيقة علاقتها بهذا الفتى العليل : هل كانت خطيبته حقا ؟ .. وماذا كانت علاقته بالفتاة « يوكو » ؟ .. وأحس بالبرد يسرى فى أوصاله ، فلما انتبه الى نفسه ، وجد أن العمياء قد تركت نافذة غرفته مفتوحة .. وكان الليل قد اقبل ، والريح الباردة تهب من ناحية الجبل ..

وكان الفنـدق قد أعد فى تلك الليلة اجتماعا ، للتـأهب لفصل التزحلق على الجليد ، دعا اليه بعض فتيات « الجيشا » ومن بينهن « كوماكو » . فلما انتهى الاجتماع ، جاءت الفتاة الى حجرة « شيماموارا » فأشعلت المدفأة ، وربتت خده ،

وهي تقول : « مالى أراك شاحب اللون الليلة ؟ » . وكانت قد أسرفت في احتساء شراب « الساكى » (١) ، فبدت ثملة قليلا .. وجلست الى جانب « شيماموراً » في الفراش تعابثه ، فسألها : « متى بدأت حياتك كفتاة جيشا ؟ »

ــ منذ شهر يونية . وقد فكرت في أن أذهب الى ثغر (هاماماتسو) .

ــ كى تتزوجى ؟

وأحنت رأسها موافقة . وذكرت أن ثمة رجلا كان يلح عليها في الزواج ، ولكنها لم تستطع أن تحبه ، وقد وجدت عناء كبيرا في الوصول الى قرار بشأنه .. فســـــألها شيماموراً : « مادمت لم تحبيه ، فلماذا لم تقررى الابتعاد عنه في الحال ؟ »

ــ لم يكن الأمر بمثل هذه البساطة !

ــ يبدو أن فكرة الزواج من « أى » رجل ، كانت تروق لك !

ــ لا تكن قاسيا في حكمك ! بل كنت أود تدبير كل شيء حولى ، كى لا تواجهنى أية مشكلات أو تعقيدات .

وسكت شيماموراً لحظة ، ثم سألها : « هل كان بينك وبين ذلك الرجل من (هاماماتسو) عـلاقة ما ؟ » .. فأجابت في شيء من الحدة : « أتظننى كنت أتردد في الزواج منه ، لو كانت هناك علاقة بيننا ؟ الواقع انه هددنى باننى طالما بقيت هنا ، فلن يسمح بزواجى من أى رجل آخر ! »

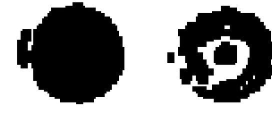
ــ ولكن ماذا كان يستطيع أن يفعل وهو في ذلك المـكان النائى ؟

وتمطت كوماكو وهي تشعر بالدفء في الغرفة ، ثم قالت وهي تضحك : « كنت أظن في ذلك الوقت انى حامل ! »

---

(١) « الساكى » هو الشراب التقليدى في اليابان ، وهو نوع من الخمر يصنع من الارز ، ويشرب دافئا بعد تسخينه .

وكورت جسمها كطفلة صغيرة ، ولاذت باحضـــانه وقد غلبها النعاس .



● **عندما** استيقظ « شيمامورا » فى الصباح ، وجـدها جالسة فى الفراش تكتب شيئا على ظهر مجلة قديمة . وحيته قائلة : « لا أستطيع الذهاب الى منزلى الآن . وقد تظاهرت بالنوم حين جاءت الخادم عند الفجر لتضـع الفحم فى المدفاة . ويبدو اننى كنت ثملة قليلا ليلة الأمس ، فنمت نوما عميقا » .. فنهض شيمامورا من فراشه وهو يقول : « هيا بنا الى الحمام » ، فقالت : « لا أستطيع .. فقد يرانا بعض الخدم فى الصالة » .

وذهب وحده .. فلمـــا عاد ، وجدها منهمكة فى تنظيف الحجرة ، وقد لفت منديلا حول رأسها ، حتى لا يصل الغبار الى شعرها ، فجلس الى جانب المدفاة يدخن .. وعندما سقط رماد السيجارة على الحصير ، جمعته « كوماكو » فى منديل ، واحضرت منفضة للرماد .. وضحك « شيمامورا » **وقال لها : « لو كان لك زوج ، لما كففت عن زجره طول الوقت ! »**

ـ كلا ، بل كنت أعنى به طول الوقت ، فلهذا خلقت !

وجلسا يتناولان الافطار ، واشعة الشمس تغمر الغرفة .. وتذكر « شيمامورا » ما قالته المدلكة العمياء عن مهـــارة « كوماكو » فى الموسيقى ، فاقترح عليها أن تعزف له فى حجرته .. وأطاعت ، فاتصلت بمنزلها تليفونيا ، طالبة ارسال آلة العزف ، وبعض الملابس . وسألها : « هل أنت مخطوبة حقا لابن معلمتك ؟ »

ـ متى سمعت هذا ؟

ـ سمعته بالأمس .

ـ انك رجل غريب الأطوار حقا .. لماذا لم تســـألنى بمجرد سماعه ؟

ـ انك تغيرين مجرى الحـــديث ، دون أن تجيبى عن سـؤالى !

ـ لست أغير مجرى الحـــديث .. ولكن هل صدقت ما سمعت ؟

ـ لم أصدق كل ما سمعت ، ولكنهم قالوا انك اصبحت من فتيات « الجيشـا » لتتمكنى من دفع أجر علاج ذلك الفتى العليل !

ـ هذا الحديث يبدو كقصة فى مجلة رخيصة ، ولكنــه غير صحيح . فلم أكن مخطوبة للفتى فى يوم من الأيام ـ ولو أن الناس يظنون ذلك ! ـ ثم اننى لم أصبح فتاة « جيشا » لأساعد أحدا . ولكن الواقع أننى أدين لأمه بالكثير ، فكان لزاما أن أؤدى لها بعض هذا الدين .

ـ أن حديثك أشبه بالألغاز !

ـ سوف أخبرك بكل شىء ، وفى صراحة : لقد راقت للأم ـ فى فترة ما ـ فكرة أن أتزوج من ابنها ، ولكن الأمر لم يتعد حدود التفكير ، فلم تفاتح أسرتى فى الأمر بكلمة واحدة ، وان كنا أدركنا ـ بطريقة ما ـ ما كان يجول بفكرها .. هذا كل ما فى الأمـر !

ـ اذن فقد كان هناك نوع من الارتباط بين الأسرتين ؟

ـ كان شيئا من هذا القبيل . ولكنا عشـنا معظم حياتنا متبـــاعدين . فلما ذهبت الى طوكيـــو لأتدرب على فنـــون « الجيشا » ، كان ذلك الفتى هو الوحيـــد الذى ودعنى فى المحطة ، وقد كتبت ذلك فى أول صفحة من أول مفكرة لى .

ـ لو أنكما عشتما معا ، لكان من المحتمل أن ينتهى الأمر بكما الى الزواج ؟

ـ أشك فى ذلك .. وعلى أية حال ، فلا حاجة بك لأن تفكر فى هذا ، والفتى مشرف على الموت !

ـ وهل من الصواب أن تقضى لياليك بعيدة عن البيت ، فى مثل هذه الظروف ؟

ـ ليس من حقك أن توجه الى هذا السؤال ! .. وكيف يحق لرجل مشرف على الموت أن يتحكم فى حياتى ؟

ولم يحر « شيمامورا » جوابا .. ولكنه تعجب من أنها لم تذكر كلمة واحدة عن الفتاة « يوكو » ! .. وبصدد هذه الفتاة يوكو ، التى كانت تعنى بالفتى المريض فى القطار كما لو كانت أمه ، أو زوجته : ماذا يكون شعورها حين تأتى بملابس لكوماكو فى غرفة رجل غريب بالفندق ، وهى ولا شك تدرك أنه كانت ثمة علاقة ـ من نوع ما ـ بين « كوماكو » والفتى العليل الذى جاءت برفقته من طوكيو ؟

ولم يوقظ شيمامورا من أفكاره غير صوت « يوكو » الصافى ، ينادى من خارج الحجرة : « كوماكو ، كوماكو ! » . واسرعت كوماكو خارجة ، وهى تقول : « شكرا جزيلا لك يا يوكو ، اذ جئت بحاجياتى بنفسك ، ولا شك أن حملها كان ثقيلا عليك ! » .. وبعد أن انصرفت « يوكو » ، تناولت كوماكو آلة « الساميسن » ، وبدأت تشد أوتارها فى مهارة ودقة ، ثم اخذت مجموعة من « النوتات » الموسيقية ، جعلت تقلب فيها لتختار ما يروق لها ، فقال شيماموراً فى استغراب : « هل تتمرنين على هذه النوتات بنفسك ؟ »

ـ انا مضطرة الى ذلك ، فلا يوجد هنا من يدربنى ..

ـ وماذا تفعل معلمة الموسيقى التى تعيشين معها ؟

ـ انها مصابة بالشلل ، ولا تملك مساعدتى .. ولا حتى بالارشادات الشفوية .. بل انها تتضايق اذا استمعت الى العزف على « الساميسن » دون أن تستطيع أن تبدى رأيا !

ـ وماذا عن الغناء ؟

ـ لست أحب الغناء .. لقد تعلمت بعض الأغانى القديمة بمصاحبة الرقص ، وهذه أستطيع ترديدها بسهولة . أما

الأغاني الحديثة فاني أحاول أن أتعلمها من الاذاعة ، ولكني لا أدرى الي اى حد أحسن أداءها ، سيما وانني أحس بالخجل في حضرة الغرباء .. أما اذا غنيت لشخص أعرفه جيـــدا ، فيخيل الى أنني اجيد الغناء ، وخصوصا اذا اشـــترك معي هذا الشخص !

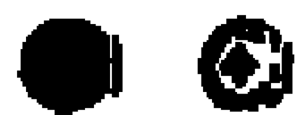
ونظرت الى « شيماموروا » نظرة ذات معنى ، وكأنها تقول له أنها على استعداد لأن تغنى له ، اذا صاحبها . لكنه أحس بالخجل ، لأنه لم يكن يحسن الغناء . فلما انتظرت الفتـــاة طويلا ، دون أن يقول شيئا ، عضت على شفتها السفلى ، ثم وضعت الآلة الموسيقية على ركبتيهـــــا ، واختارت احـــدى « النوتات » الموسيقية ، وهى تقول : « لقد تدربت طويلا على هذه القطعة » .. واذ بدأت العزف على « الساميسن » ، أحس شيماموروا برعشة تسرى فى أوصاله ، وتملكه شـــــعور من الاحترام والتقدير ، ولم يسعه الا أن يستسلم للأنغام ، تعزفها « كوماكو » فتتلاعب بمشاعره كيفما تشاء !

.. انها لم تكن غير فتاة ((جيشا)) في قرية جبلية نائية .. شـــابة لم تكد تبلغ العشرين .. ورغم أنها كانت تعزف وتغنى فى حجرة صغيرة ، فانها كانت تؤدى دورها باتقان ، كما لو كانت فوق مسرح كبير ، في مواجهة جمهور غفير .. واذ رفعت عقيرتها بالغناء ، أحس ((شيماموزا)) بالرهبة والزهو ، وكأنها تغنى له وحده !

وعندما انتهت من أغنيتها ، شـــعر بالراحة ، وحدثتـــه نفسه بأن المرأة مشغوفة به .. ثم تناولت « الساميسن » مرة أخرى ، وبدأت تعـــزف مقطوعة جديدة ، وتغنى بصوت عذب ، دون أن تحسب حسابا لمضى الوقت ، اذ لم تعد تفكر في العودة الى منزلها قبل مطلع النهار ، كما اعتادت أن تفعل من قبل .. وأخيرا نهضت من مكانها ، متأهبة للانصراف ، ولكنها عادت فجلست فى الشرفة ، فى تكاسل ، وهى تنظر الى

الجبال المغطاة بالثلوج ، وقالت : « لقد بدأت طلائع الشباب تأتى للتزحلق على الجليد » .. وأضافت كما لو كانت تحدث نفسها : « ان النزلاء يتعجبون دائما ، حين يقابلون بعض فتيات الجيشا فى الجبال ، وكأنهم لا يتصورون أنهن يستطعن ممارسة هذه الرياضة مثلهم ! » .. فقال شيمامورا : « أحب ان أراك فى ملابس التزحلق على الجليد ! » .. فقالت : « ان موسم التزحلق على الجليد مرهق لنا حقا ، فالفنادق تزدحم بالنزلاء ، الذين يحدثون صخبا وضجيجا لا ينقطعان طول المساء .. ثم يطلبون أن نلتقى بهم فى الجبال أثناء النهار !.. اننى أفكر جديا فى أن أمتنع عن التزحلق على الجليد هذا العام . »

وعندما انصرفت ، خرج « شيماموراً » الى الشرفة ليرقبها وهى تسير فى الطريق المنحدر ، المؤدى الى القرية . وكانت السماء ملبدة بالغيوم .. وما لبث المطر أن انهمر بغزارة .



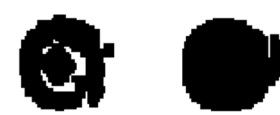
وفى اليوم التالى ، شعر « شيماموراً » بأن وقت عودته الى طوكيو قد حان ، قبل أن يزدحم الفندق بهواة التزحلق على الجليد ، فأرسل يستدعى « كوماكو » فى المساء ، ليودعها قبل رحيله .. **وكانت الليلة صافية ، مقمرة ، شديدة البرد ، ومع ذلك فقد جاءت « كوماكو » ـ حوالى الساعة الحادية عشرة ـ وأصرت على أن يخرجا للنزهة قليلا ، بين أشجار الأرز . فلما تردد هو ، بسبب البرد ، جذبته فى شىء من العنف !..** وكان الطريق المنحدر مغطى بطبقة سميكة من الجليد ، وبدت القرية الصغيرة هادئة تحت السماء الباردة .. فقالت كوماكو : « هيا بنا نذهب الى المحطة ! »

ـ هل أنت مجنونة ؟ ان المسافة تتجاوز كيلومترين ، فكيف نذهب ونعود فى هذا البرد القارس ؟

ــ انك سوف تعود الى طوكيو قريبا ، فدعنا نلق نظرة على المحطة !

واضطر الى أن ينزل عند رغبتها ، فلما عادا الى الفندق كان « شيمامورا » يحس بأوجاع فى جميع أجزاء جسمه .. وجلست « كوماكو » على الحصير الى جانب الموقد وقد بدا عليها الضيق ، فلما عرض عليها الذهاب معــه الى الحمام ، رفضت .. فذهب وحده .. وحين عاد وجدها قد أعدت له فراشه الى جانب المدفأة ، وجلست عابسة الوجه دون أن تنطق بكلمة ، فسألها عما بها .. وأجابت : « لا شيء .. اذهب أنت الى فراشــك ، ودعنى أجلس هنــا لحظة .. بل انى سأجلس هكذا حتى الصباح ! »

وساءل شيمامورا نفسه : أكانت الفتاة نادمة مثلا لأنهــا تورطت فى علاقتها مع واحد من نزلاء الفندق ؟.. أم أنها كانت تجاهد للتحكم فى عواطفها قبيــل افتراقهما ؟ .. واذ طال الصمت بينهما ، قالت : « أرجو أن تعود الى طوكيو ! » . لكنه لم يكد يصارحها بأنه اعتزم الرحيل فى الغــد ، حتى صاحت فى دهشة ولوعة ، وكأنها لم تكن تتوقع هذا الرد : « لماذا تبغى العودة بهــذه السرعة ؟ » ، وحدقت فى وجهه برهة ، ثم انتفضت فى انفعال ، وألقت بنفسها فى أحضانه ، قائلة : « حرام أن تقول هذا !.. انهض !.. قلت انهض ! » .. ومضت تردد مثل هذه الكلمات ــ فى هذيان محموم ــ وهى تضمه الى صدرها فى عنف ، وقد نسيت ما قالته له قبل لحظات ، عن توعك صحتها .. وعندما فتحت عينيها ، بعد برهة ، كانت الدموع تترقرق فيهما .. وقالت فى هدوء واستسلام : « من الخير أن ترحل الى طوكيو غدا ! »



بينما كان « شيمامورا » يعد حقيبته ليستقل قطار الســاعة الثالثة ــ من بعــد ظهر اليوم التالى ــ استدعت

صاحبة الفندق « كوماكو » .. وسمعهما تتحدثان فى قاعة الجلوس ، فأدرك أن صاحبة الفندق تحاسبها على الساعات التى قضتها معه . وبهت عندما تبين أن « كوماكو » أبت أن تحسب الأوقات التى كانت توافيه فيها دون أن يطلبها !.. فحرك عواطفه أنها كانت تغلب الصداقة على العمل !

ورافقته الفتاة الى المحطة .. وراحا يذرعان الرصيف ، فى انتظار القطار ، فقال يبدد وحشة الصمت المتوتر : « لم يزد الجليد كثيراً عما كان يوم قدمت ! » .. **ولكنها كانت تفكر فى امر آخر ، اذ بادرته قائلة : ((ما احسبك تهتم بالمال ، فان لديك منه الكثير !)) .. ثم تحولت تتفرس فى وجهه ، وسألته : ((لماذا لا تطلق شاربك ؟))**

وضحك لاضطراب أفكارها .. وفجأة ، قالت : ((اسمع ! .. الغربان تنعق !.. لكم يزعجنى نعيقها !)) ، وراح جسدها يرتعد بعنف !.. ولاح لهما – على حين غرة – شبح امرأة تقبل من القرية مهرعة ، حتى اذا اقتربت ، تبينا انها « يوكو » .. وأقبلت نحوهما ، وهى تصيح « كوماكو .. يوكيو ! » .. ثم تعلقت بكوماكو كطفل مذعور ، وهى تهتف بها : « ان حالة يوكيو قد ساءت .. تعالى حالا ! » .. فأغمضت « كوماكو » عينيها ، وقد شحب لونها ، وتجلى عليها الألم .. ولكنها – مع ذلك – هزت رأسها فى اصرار عجيب ، وقالت : « لا أستطيع الذهاب الآن ! »

ودهش شيمامورا ، وقال : « لا حاجة بك الى البقاء معى ! » .. فصاحت : « ليس من الصواب أن أذهب .. كيف لى أن أعرف أنك ستعود ثانية ؟ » .. وحاولت « يوكو » أن تستعطفها ، ولكنها دفعتها عنها ، قائلة فى غضب : « اتركينى الآن ! » .. فظلت الفتاة تحملق فيها بعينين جامدتين ، وكأنما هبط على وجهها قناع أخفى كل تعبير ، فلم يدر « شيمامورا » أكانت غاضبة ، أم مندهشة ، أم آسفة حزينة لتصرف

صاحبتها !.. واذ فطنت « يوكو » الى أنه كان ينظر اليها ، هتفت فى استعطاف ، وان ظل وجهها جامدا : « هلا سمحت لها بالانصراف ؟ »

قال : « من الواجب أن تذهب طبعا .. هيا ياكوماكو ! »

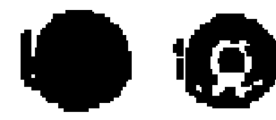
وبان الغضب على « كوماكو » ، فدفعت صاحبتها بعيدا عنـــه ، وتشبثت بذراعه بعنف ، تمنعه من أن يستـدعى « التاكسى » الذى كان يقف أمام المحطة .. فقال ليوكو : « سأرسلها فورا .. ولكن يحسن أن تنصرفى أنت الآن ، حتى لا يفطن الناس الى ما بينكما ! » .. فأحنت « يوكو » رأسها ، وأسرعت نحو القرية ، و « شيمامورا » يعجب من الحزن الذى طغى عليها .. وما أن ابتعدت ، حتى قالت كوماكو : « لن أعود الآن الى البيت ! » .. فداخله شىء من الاستهجان ، وقال : « ولكن الرجل مشرف على الموت ، وقد جاءت الفتاة تستدعيك ، لأنه يود رؤيتـك قبل أن يموت .. اذهبى ، والا فستندمين بقية عمرك ! »

ـ انك لا تفهم .. لست أريد أن أرى انسانا يموت !

ولم يدر اكانت هذه قسوة ، أم هى دليل حب أو شعور مرهف .. واخلدت الفتـــاة للصمت برهة ، بينما راحت الدموع تنحدر على خديها ، ثم قالت فى خفوت : « انك رجل طيب حقا !.. الا تضحك منى اذا أنا ارسلت اليك مذكراتى ؟ » .. وأحس شيمامورا بفيض من عاطفة لم يستطع تحـديد كنهها ، فصمت ولم يحـاول حملها على الانصراف .. حتى جاء القطار ، وظلت « كوماكو » تلوح له بيدها ، حتى غاب القطار داخل النفق الطويل فى الجبال .. وسبح الخيـال بشيمامورا ، فشعر كأنه فى مركبة سحرية تطير به فى الفضاء ، بعيدا عن كل زمان ومكان .. وأصبح صوت عجلات العربة الرتيب فى أذنيه كأصوات البشر ، يأتيه حينا كصوت « يوكو » العذب ، يتردد كالصدى بين الجبال .. وأحيـانا كأنفاس

« يوكيو » الأخيرة ، وهو يعالج سكرات الموت .. ثم كصوت « كوماكو » وهى تقول له : « أنت رجل طيب القلب ! .. أنت رجل طيب القلب ! »

واحس فجأة برغبة فى البكاء ، اذ ادرك انه قد ودع المرأة الوداع الأخير ، وأنه كان فى طريقه الى طوكيو ، ليحيا حياته الرتيبة .. بعيداً عنها !



● كان موسم نشاط خشرات العثة لوضع بيضهـا قد حان .. ولاحظ « شيمامورا » ـ حين استقر فى الفنـدق الصغير بالقرية الجبلية ، فى زيارته التالية لها ، بعد نحو عام ـ ان بعض الحشرات قد استقرت جامدة ، (بعد أن وضعت البيض) ، على مصابيح الزينة فى الشرفة ، وعلى الستائر التى أسدلت على النوافذ لتصد أشعة شمس الصيف .

ومر بحجرة الاستقبال ـ وهو عائد من الحمام ـ فرأى امرأة تبيع بعض السلع . كانت فى حـوالى الأربعين ، تتخلل وجهها التجاعيد ، وان بدت بشرتها ـ عنـد بداية عنقهـا وصدرها ـ ناصعة البياض .. وما أن انصرفت ، حتى عرف ـ من صاحبة الفندق ـ أنها من نساء « الجيشـا » ، وقد تقدم عمرها ، وترهل جسمها .. وقالت صاحبة الفنـدق ، وهى تسخن بعض كعكات مستطيلة ، على المدفأة : « الا تأخذ واحدة ؟ .. لقد جاءت بها المرأة ، احتفالا بانتهاء خدمتها فى الجيشا ! » .. وتناول « شيمامورا » كعكة ، أخذ يقضمهـا متلذذا ، وقد اعتزم أن يسأل « كوماكو » عن تلك المرأة ، اذا التقى بهـا ..

ووافته « كوماكو » فعلا ، فى مساء ذلك اليوم . وتأملته لحظات فى برود ، ثم سألته : « لماذا جئت ؟ » .. واذ أجابها : « جئت لأراك » ، قالت فى فتور : « إنك لا تعنى ما تقول .. وأنا أكره القادمين من طوكيو ، لأنهم يكذبون ! » .. **وما ان**

استقرت على الحصير أمامه ، حتى زايلها الفتور ، وقالت فى صوت حنون : « لن أودع أحدا ما حييت ، فلست قادرة على أن أصف لك شعورى بعد أن تركتنى فى المرة السابقة ! » .. ووجد نفســه يسألهــا : « ماذا جرى له ؟ » .. قالت وقد ادركت من المعنى بسؤاله : « لقد مات .. طبعا ! »

ــ مات وأنت تودعيننى ؟

ــ لم يكن هذا هو السبب فى اننى لم أخف اليه .. وما كنت أتصور اننى أكره وداع شخص قــدر ما كرهت وداعك يومذاك !

واحنى « شيماموارا » رأســـه ، بينما استطردت تقول : « أين كنت فى الرابع عشر من فبراير ؟ .. لكم انتظرتك فى ذلك اليوم ، ولكنى أدرك الآن انه ما كان يجب أن أصدق وعدك ! »

وكان قد وعدها حقـــا بأن يأتى فى ذلك اليوم ليشـــهد الثلوج ، وليشارك أطفال القرية ــ اذ كان اليوم عيــد صيد الطيور لدى الأطفال ــ وقالت أنها ظلت تنتظره فى ذلك اليوم ، حتى انها لم تلب برقية وصلتها من معلمـــة الموسيقى ، التى كانت تعانى التهابا رئويا ، فى مدينتهما الأصلية ، على الساحل .. وسألها : « وهل تحسنت صحتها ؟ » .. فقالت : « لقد ذهبت اليها فى المساء ، لأمكث بجوارها .. ولكنها ماتت ! »

وتحولت تمسح المائدة القصيرة السيقان ، وهى تروى له قصة « كيكويو » ــ امرأة « الجيشا » التى اعتزلت المهنة ــ وقالت : « لسوف أشعر بالوحدة بعد رحيلها ، فالأمــور قد ساءت ، ولم تعد نساء الجيشـــا متعاونات ، بل أصبحت كل واحدة تفكر فى نفسـها فقط ، نتيجة مجىء عدد من الفتيات من بلاد مختلفة .. كانت « كيكويو » طيبة ، مرحة ، بمثابة الروح فى كل مكان تحل به .. تزوجت ، ولكن زواجهـــا أخفق ، فعادت الى المهنـــة .. أتعرف المطعم الجـــديد ، فى منتصف الطريق الى الجبل ؟ .. لقد بناه لها أحد المعجبين ، ولكنهـــا

أعرضت عنه ، اذ صادفت رجلا آخر أحبته ، وداخلها الأمل فى أن يتزوجها ! » .. **وأمسكت لحظـة مترددة ، ثم قالت : « ولكنه تخلى عنها ورحل .. أهذا ما يحدث عادة ، عندما تقع امرأة فى غرام رجل ؟ .. انها لم تستطع العودة الى مهنتها ، ولا استطاعت أن تتولى ادارة المطعم بعد أن رفضته ، ولم يعد امامها الا أن ترحل ، لتبدأ حيـاة جديدة فى مكان آخر ! .. مسكينة ، كانت ضعيفة مع الرجال ! .. من الحماقة أن تفقد المرأة صوابها كلما أظهر لها رجل الحب ! »**

ونهضت فأغلقت النافذة ، وهى تقول : « ان كيكويو تعلم كل شيء عنك .. وهى التى أخبرتنى بوصولك ! .. اتدرى ما شعوري الآن ؟ » .. ثم عادت تفتح النافذة ، وجلست على حافتها .. ولم تمض فى الحديث ، فلما طال الصمت ، قال شيمامورا : « انك لم تتغيرى قط ! »

ـ هكذا يقول الجميع .. كنت فى السادسة عشرة حين جئت ، وها قد بلغت العشرين .. ولكن الحياة تمضى كمهدها ، دون تغيير .. أما علمت أننى بدلت مسكنى ؟ .. انتقلت الى بيت يبيع أصحابه الحلوى والسجاير فى مدخله ، وليس فيه من بنات « الجيشا » سواى .. لقد تعاقدت معهم على العمل، ولكنهم يحسنون معاملتى ..

ـ ما أحسبك تستطيعين استئجار بيت خاص بك ..

ـ هكذا يقول الجميع .. ان فى البيت أربعة أطفـال ، أحبهم ويحبوننى .. ولكنهم لا يدعون شيئا فى مكانه ، فأظل طيلة النهـار أرتب الأشياء ، ليعودوا فيبعثروها .. ولكنى أجد متعة فى هذا .. اتفهم شعورى ؟

وقال انه يفهمه ، فصاحت : « اذن صفه لى ! .. ها انتذا تعجز عن وصفه ، لأنك لا تفهمه ! .. انك رجل ذو مال ، ولكن لا شخصية لك ، ولست تفهم شيئا عنى .. اننى أعيش فى وحدة موحشة ، فلماذا تتدخل فى حياتى ؟ .. عد الى طوكيو ! »

.. وكانت لهجتها تفيض أسى وعتابا ، وأغمضت عينيهــا ـ كأنما خشيت أن تشيا بألمهـــا ـ حتى اذا استطاعت العودة للكلام ، قالت : « يكفي أن تأتي مرة واحـدة في السـنة .. أتعدني بأن تأتي مرة واحدة ، ما دمت هنا ؟ » .. واقتربت منه ، فضمها اليه ، وسـألها : « ألا تشعرين بالبرد ؟ » .. ودار بخلده انه حضر ثلاث مرات في أقل من عامين ، وكان ـ في كل مرة ـ يلمس تغييرا في حياة « كوماكو » ، وفي جسمهـا .. وكأنما أدركت ما بخاطره ، فقـالت : « لقد أخـذت في السمنة ، منذ كففت عن التـدخين ! » .. وكان قد لاحظ أن صدرها ازداد امتلاء .. وفطنت الى نظراته ، فضمت ثدييها بين يديها ، وقالت : « ان أحدهما أكبر من الآخر ! »

ـ لعل ذلك راجع الى أنه تعود العبث بواحد دون الثاني !

وتولاها الغضب ، وصاحت : « من ؟ .. ما كان لك أن تقول هذا ؟ » .. وما لبثت أن روت له كيف أن الطبيب سألها أن تعري صدرها ـ عندما فحصهـــا وهي تتأهب لحيـــاة « الجيشا » ـ حتى يتأكد من سلامتها من السل ، فبكت وهي تكشف صدرها مضطرة ، بينما ضحك الطبيب لسذاجتها ، وطمأنها الى سلامة صدرها .. وذكرت أنها تغتسل يوميا في الينابيع الساخنة ، الشهيرة بأملاحها المعدنيــة ، وتسير على قدميها ثلاثة كيلومترات ذهابا وعودة ، ولهذا ظلت سليمــة الصحــة ، قوية الجسم .. ولو أن لباس « الجيشـــا » ـ والأحزمة التي تشد حول الخصر ـ قد جعلت بطنها ضامرة .. واستطردت قائلة : « لهذا أتساءل عما اذا كان من الممكن أن أنجب أطفـــالا ! .. وهل في وسع المرأة ان ترتبط برجل واحد ، تصبح له أشبه بزوجة ؟ »

كانت هذه أول مرة سمع فيها « شيمامورا » مسـألة « الرجل الواحد » .. ولكنه شجعها على المضي في الحديث ، فذكرت أنها ـ منذ كانت في السادسة عشرة ـ عرفت رجلا ،

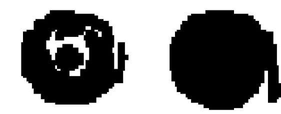
ولكنها لم تحبه ، ولا شعرت يوما بانه قريب الى قلبها .. وكان ذلك بعد وفاة الرجل الذى احسن اليها وسدد عنها ديونها الى بيت « الجيشا » ..

ـ معنى هذا أنك تعرفينه منذ خمس سنوات ، فلاشك ان شيئا من العاطفة قد تولد عندك نحوه !

ـ سنحت لي فرصتان لأقطع كل صلة به .. ولكنى لم أجد الجراة الكافية ، فأنا ضعيفة الارادة ..

كان الرجل يعيش في بلدتها الساحلية ، ولكنه لا يرتاح لوجودها هناك ، نظرا لوجود بيته وزوجته .. لهذا أرسلها مع معلمة الموسيقى ، حين انتقلت الى القرية الجبلية .. وكان كريما معها ، مما كان يجعلها تشعر بالحزن ، لأنها لا تملك أن تهبه كل حياتها .. وكان يكبرها بكثير .. **ومضت تقول : « اخال احيانا أن في وسعي التخلص منه ، اذا انا تخليت عن الاستقامة .. »** .. فقال شيمامورا : « لا ينبغى أن تفكرى فى هـذا ! »

ـ مهما افكر فلن أجد الجرأة ، لأن هذا ليس من طبعى .. فأنا أحترم الجسد الذى أعيش فيه ، ولا أحب له أن يمتهن .. واذا ذهبت الى حفل ولم أرتح الى من فيه ، تسللت هاربة .. ومع ذلك فأنا أكسب ما فيه الكفاية !



● وفى الصباح التالى استيقظت « كوماكو » مبكرة ، فأيقظت « شيمامورا » .. وفيما كانا يتحدثان ، تذكر « يوكو » ، فسألها عنها .. ورمته بنظرة سريعة ، ثم أشاحت قائلة : « انها تقضى معظم وقتها فى المقبرة ! » .. وبعد انصرافها ، وجد « شيمامورا » قدميه تحملانه الى مقابر القرية .. ورأى « يوكو » جاثية على حصير من القش ، بجوار قبر ابن معلمة الموسيقى ، وهى تعبث ببعض حبات الفاصوليا ، وتغنى

بصوتها الصافى الذى ازداد ما كان يزخر به من حزن شجى !
وفى ساعة الغروب ، وقف «شيمامورا » فى نافذة حجرته ، يرقب نهار الخريف وهو يحتضر .. وألفى ذهنه يتجه الى « يوكو » ، وأصداء غنائها الحزين تتردد فى سمعه . **وعجب من نفسه ، اذ تذكر هذه الفتاة ــ والحنين يراوده الى رفيقة ، مع هبوط الليل ــ ولم يتذكر « كوماكو » ! .. وخيل اليه ان ذلك كان راجعا الى قربها منه ، فهى فى متناوله ، بدليل أنه كثيرا ما فكر فيها وهو بعيد عنها !**
ودفعه السأم الى أن يأوى الى فراشه مبكرا .. واستغرق فى النوم ، حتى انه لم يفطن الى ان المطر ظل يهطل غزيرا طيلة الليل ، ولم ينبهه الى هذا سوى « كوماكو » ، عندما استيقظ فى الصباح .. فوجدها جالسة تقرأ .. وساءل نفســه اذ رآها ، أيحتمل أن تكون قد جاءت خلال الليل ، دون أن يشعر بها ؟ .. وتأمل ساعته ، فاذا بهــا تشير الى الســادسة والنصف ، فقال : « أراك قد جئت مبكرة ! »
ــ لقد جاءت الخادم بالفحم ، وأشعلت لك نار المدفأة ، فانهض !
واندست الى جواره فى الفراش ، فخطر له انهــا صورة مثالية لربة البيت .. وأخذ يربت يدها فى رفق ، وهو يقول : « ولكن الشمس لم تشرق بعد ! »
ــ لقد نعمت بنوم عميق وأنت وحــدك .. كان منظرك مضحكا وأنت نائم ، ووجهك ممتلىء ــ بلا شارب ــ وبشرتك بيضــاء ...
ــ اذن ، فقد كنت تتفرسين فى وجهى وأنا نائم ؟ !
وابتسمت ، ثم تحولت ابتسامتهـــا الى ضحك ، وهى تضغط يده ، وقالت : « لقد اختبأت فى خزانة الملابس ، فلم تشعر الخادم بوجودى ، حين أحضرت الفحم ! » .. وأزاح الغطاء ، ثم قال : « ما أبرد الجــو ! .. هل اســتيقظ أهل

الفندق ؟ » .. فأجابته : « لا أدرى ، فقد جئت من الباب الخلفي .. هناك طريق بين التلال ، أمنت فيه عيون الرقباء .. ولم يشعر أحد بدخولي الى هنا ! »

ــ لابد أنك استيقظت جد مبكرة !

ــ لم يواتني النوم ليلة أمس .. يحسن بي أن أنصرف الآن ، فعد الى نومك !

ولكنه وثب من الفراش ، وسار الى النافذة ، فأطل على الطريق التي سلكتها عبر التلال .. حتى اذا ارتد ، وجد « كوماكو » جالسة الى جوار المدفأة ، في دعة ورقة ــ بعد أن نظفت الحجرة ورتبتها بسرعة وخفة ــ وقالت : « سأنصرف الآن ، فلدى أعمال كثيرة .. واليوم السبت ، وفيه تقام الحفلات .. في الفندق حفلة الليلة ، ولكنهم لم يخبروني الا مساء أمس ، بعد أن ارتبطت بحفلات أخرى .. فلن أراك الليلة غالبا ! »

ومع ذلك ، فانها لم تتعجل الانصراف ، بل صحبت « شيمامورا » الى حديقة الفندق ، ودلفت به الى شجيرات الغاب التي شقت طريقها ، خلالها ، الى باب الفندق الخلفي .. وعجب ــ في نفسه ــ من بسلوكها طريقا شاقة كهذه .. وواصلا السير حتى بلغا النهر ، فقال : « أتحبين أن نعبر النهر ؟ .. ان قبر خطيبك على الضفة الأخرى ! » .. **فتوقفت « كوماكو » فجأة ، ونصبت قامتها ، وهي ترمقه غاضبة ، وقالت : « أتسخر مني ؟ .. ما الذي يدعو للذهاب الى المقابر ؟ .. ولماذا تسميه خطيبي ، وقد حدثتك عن حقيقة علاقتي به ، وقلت انه لم يكن خطيبي يوما ؟ »**

ولم يكن « شيمامورا » قد نسي هذا .. ولكنه لم ينس ــ كذلك ــ انها أصبحت من فتيات « الجيشا » كي تدبر نفقات علاجه ! .. وتطلعت اليه الفتاة ــ اذ طال صمته ــ فابتسم ليخفي عنها خواطره .. وكأنما اطمأنت الى ابتسامته ،

فتأبطت ذراعه ، قائلة : « انك رجل طيب القلب ، ولكن شيئا ما يبعث الحزن في نفسك ! .. ان أهل طوكيو معقـدون ، اذ يعيشــون في ضجـيج وصخب يمزقان أعصابهم ، ويفتتان مشاعرهم ! » .. فقال معقبا : « كل شيء في الحياة يتفتت ! »

ـ حتى الحياة ذاتها ، تتفتت في النهاية ! .. أتريد أن نذهب الى المقابر ؟ .. انني لم أذهب الى هناك قط ، ولهذا أشعر بالذنب ، لاسيما بعد أن دفنت معلمة الموسيقى هناك .. ولكن ذهابي ــ بعد هذا التقصير ــ يكون تظاهرا ، وليس نابعا عن شعور بالوفاء .

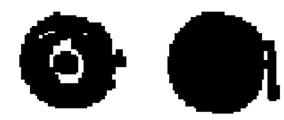
قال : « انك أكثر تعقيدا مني ! »

ـ لماذا ؟ .. لأنى أريد أن أكون صريحة معه بعد موته ، وقد كنت ــ طيلة حياته ــ أخشى مصارحته بالحقيقة ؟ !

وعبرا النهر ، ثم سارا محاذيين للسكة الحديدية ، حتى بلغا المقابر . كانت هناك نصب حجرية عبثت بها يد الزمن ، وتمثال للاله « جيزو » ، حارس الأطفال .. وما لبث أن برز من بين الاعشاب ــ النامية خلف التمثال ــ وجـه « يوكو » وكتفاها .. كان وجهها شاحبا ، واجما ، خاليا من أي تعبير .. وأحنت رأسها تحيي « شيماموراً » ، دون أن تنبس ببنت شفة .. وفجأة ، مر قطار بضـاعة ، فزلزل الأرض ، وأثار عاصفة من الدخان والغبار .. وبباب احدى عرباته ، وقف فتى يلوح بقبعتـه ، وهو يصيح : « يوكو ! .. يوكو ! » .. فصاحت الفتاة بدورها : « سايتشيرو ! » .. وبدا صوتهـا رخيما ، حنونا ، فتذكر « شيماموراً » أول مرة رآها ، وهي تحدث ناظر المحطة .. وكانت رنة الحزن والوحشة واضحة في ذلك الصوت ! .. وقالت يوكو ، بعد أن انجابت سحـابة الدخان : « هذا أخي ! » .. ثم نكست رأسها ، وركعت أمام القبر ، و « كوماكو » تلاحظهـــا بعدم اهتمـــام ، بينما كان « شيماموراً » يتأمل التمثال ذا الوجوه الثلاثة والأذرع الاربع!

وانسحب « شيمامورا » و « كوماكو » ، وسلكا طريقا بين حقول الأرز ، أفضى بهما الى القرية .. ومرا ببيت معلمة الموسيقي ، فتساءل الرجل : « هل تقيم يوكو فى هذا البيت وحدها ؟ » .. فأجابت فى حدة : « لا أظن .. ولكنك تسأل عما لا يعنيك .. وقد أفسدنا عليها زيارتها للمقبرة ! »

ـ لا داعى لخلق المشكلات . أتظنين لقاءنا بها فى المقبرة ازعاجا ؟



وانتظرها « شيمامورا » فى تلك الليلة ، فلم تحضر . وحوالى منتصف الليل ، أوى الى فراشه . ولكنه فوجىء بها ـ فى الساعة الثالثة صباحا ـ تقتحم الحجرة ، وترتمى عليه ، وهى تقول متلعثمة : « قلت اننى سأحضر .. وها قد حضرت .. حضرت كما وعدتك ! » .. وكان صدرها يعلو وينخفض ، وكأنها قامت بمجهود كبير ، فقال : « يبدو انك أسرفت فى الشراب .. كيف استطعت صعود التل ، وانت بهذه الحال ؟ »

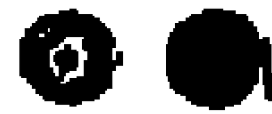
ـ لا أدرى ، ولكنى وعدتك بالحضور ، وها قد حضرت .. اننى أشعر بصداع !

وتزحزح ليفسح لها مكانا بجانبه . ولمست يده رأسها ، فاحس بان حرارتها مرتفعة .. وقالت : ((أتخشى أن أحرق الفراش ؟ .. حذار من أن تحترق أنت !)) .. وعادت تكرر : ((وعدت بان احضر ، وها قد حضرت !)) .. ثم زحفت من الفراش على ركبتيها ، حتى بلغت الثلاجة ، وأخذت تعب الماء عبا .. ونهض ((شيمامورا)) فاضاء الحجرة ، ولكنها صاحت : ((**اطفىء النور !**)) .. وما لبثت ـ بعد قليل ـ أن قالت : « أن معى مقصا .. هلا قطعتها لى ؟ »

ـ ما هذه التى تريدين أن أقطعها ؟

وأشارت الى الخيوط التى تثبت « باروكة » الجيشا الى رأسها ، وقالت : « هذه ! » .. وما ان قص الخيوط ، حتى

بدا على المرأة الهدوء ، وسألته عن الساعة . واذ علمت أنها تجاوزت الثالثة ، قالت : « حقا ! .. كنت قد وعدت بعض الناس بمرافقتهم الى الحمام ! » .. وأخذت تمشط شعرها ، وقد انساب غزيرا فاحما ، ثم تناولت « الباروكة » وهى تضحك قائلة : « لابد أن أذهب ، فلا يليق أن أتركهم ينتظرون ! » . وتعثرت وهى فى طريقها الى الباب ، ولكنها أصرت على الانصراف .. وعاد « شيمامورا » الى فراشه ، وهو يعجب من أنها جاءته فى السابعة صباحا ، ثم فى الثالثة بعد منتصف الليل .. مرتين فى أربع وعشرين ساعة ، وفى موعدين لا ترتقب فيهما فتاة « الجيشا » ، فما معنى هذا ؟
وغلبه النعاس ، دون أن يصل الى جواب !



● **انهمكت** الخادمات فى تزيين مدخل الفندق ، استعدادا لاستقبال النزلاء الذين تعودوا الحضور فى فصل الخريف .. واذ رأى رئيس الخدم أن « شيمامورا » وقف يرقب النشاط ، دفع اليه بثمرة من فاكهة تشبه الرمان ، قائلا إنها تدعى « آكيبى » ، وتستخدم فى الزينة لجمال منظرها . **وبينما كان « شيمامورا » يتحسسها ويشمها ، لمح « يوكو » تجلس بجوار المدفأة فى البهو ، بينما كانت صاحبة الفندق تدفىء بعض زجاجات شراب « الساكي » . وكانت « يوكو » ترتدى (كيمونو) داكن اللون ، من قماش رخيص .. فسأل شيمامورا رئيس الخدم ، متظاهرا بعدم الاكتراث : « أهى تعمل هنا ؟ »**

ــ نعم يا سيدى ، نظرا لكثرة النزلاء .. انها فتاة غريبة الأطوار ، ولا تحب مقابلة النزلاء ، ولذا عهدنا اليها بالعمل فى المطبخ !

واذ عرف « شيمامورا » أن « يوكو » انضمت الى الفندق ، داخله زهد فى استدعاء « كوماكو » ! .. كان يشعر بفراغ فى

حياته ، لم تستطع أن تملأه ، برغم ما لمسه من حبها له . كان عالم « كوماكو » جميلا ، ولكنه بلا أمل ، لأنها كانت تسعى الى أن تعيش لشيمامورا وحده ، وهو لا يملك أن يجاريها .. ولهذا كان يشفق عليها ، وعلى نفسه !

ومع ذلك ، فقد ظلت « كوماكو » تزوره — في غرفته — دون أن يستدعيها ، وتعرج عليه وهي في طريقها الى الحمام ، وتتسلل من الحفلات لتأتي الى الحجرة ، فتسوى زينتها في المرآة ، ثم تتأهب للانصراف ، قائلة : « والآن ، الى العمل ! .. انني مشغولة جدا .. جدا ! »

ولكنها كانت لا تفتأ تشكو من متاعب العمل ، ومضايقات العملاء ، مما جعل « شيمامورا » يشعر بأنها كانت تكره عملها ، وتتمنى الهروب منه ، والبعد عن حياة الصخب والمجون .. ومع ذلك ، فان ضيقها من هذه الحياة كان يزيد من الاقبال عليها في بيوت « الجيشا » ! .. **وذات مساء قالت له : « كلما جئت ، سألتني الخادمات عما اذا كنت قادمة لك ، وهن يتغامزن .. ما تصورت قط أن الأقاويل تضايق المرء الى هذا الحد . ان الجميع يعلمون بعلاقتنا ، ولكن عمل الواحدة منا يتأثر اذا حفت الأقاويل بسمعتها ، لا سيما في قرية صغيرة كهذه ! »**

وكان تماديها في الصراحة الى هذا الحد جديدا على « شيمامورا » ، الثرى الذى لم يشعر يوما بالحاجة الى العمل ، وبالمضايقات التي تعترض لقمة العيش .. واستطردت « كوماكو » تقول : « لا قيمة لهذا ، فمن الممكن الحصول على عمل في مكان آخر . ومع أن هذا الأمر قد يتكرر أينما أذهب ، فانه لا داعي للقلق .. ولست أشكو على أية حال ، فان الحب الحقيقي من نصيب النساء وحدهن ! »

وغضت بصرها ، وقد تضرج وجهها حياء ، فقال : « هكذا هي الدنيا ! » .. وتطلعت اليه ، وهي تضيف : « وكذلك

كانت على مر العصور ! » .. وفى أمسية اخرى كانت قـد قالت له أن فى الفندق حفلا كبيرا ، قد لا يتيح لها أن توافيه فى غرفته . ولكنه لم يلبث أن سمع صوت « يوكو » الصافى يســتأذنه فى الدخول .. ودفعت اليه بورقة ، وهى تركع باضطراب ، قائلة : « طلبت منى كوماكو أن آتيك بهذه ! »

وفض الورقة ، فاذا بها رسالة كتبت بيد مرتعشــة ، لفرط الشراب ، وقد جاء فيها : « انني أقضى وقتــا طيبا ، وسط الصخب والشراب » !.. ولم تنقض عشر دقائق ، حتى جاءت « كوماكو » بنفسها ، وهى تترنح .. وقالت : « زعمت انني ذاهبة لاحضار مزيد من الساكي ، وجئت .. لقد رآني رئيس الخدم ، ولكنى لم أعد أحفل بما يقولون ! »

ــ أن جسمك يضطرم حرارة ، لفرط ما شربت !

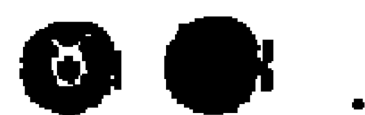
ــ ولكن العمل يستدعينى .. هل قالت لك شيئا ؟.. انها شديدة الغيرة .. وقد تقدم على القتل يوما !

وأدرك أنها تعنى « يوكو » ، وأنها ما جاءت الا لتطمئن الى أنه لم يحتجزها فى غرفتــه .. ولكنه تجـاهل ذلك ، وسألها : « أتعمل هذه الفتاة هنا ؟ »

ــ انها تأتينا بالشراب، ثم تقف بباب القاعة تحملق فينا ، بعينين براقتين .. أظنك تحب هذا النوع من العيون ؟

وتغابى عن سؤالها ، قائلا : « لعل مسلكك لا يرضيها ! » .. وأثارتها عبارته ، فقالت : « ماذا تعنى ؟.. احسبك تريد أن تنالها هى الأخرى !.. اترانى ثملة ؟ »

وتأملت نفسها فى المرآة ، ثم اندفعت خارجة !



● **انتهى** الحفل ، وســاد الهدوء الفنــدق ، فلم يعـد « شيمامورا » يســمع الا صوت الأطبــاق وهى تغسل فى

المطبخ . وأدرك حين لم تحضر اليه « كوماكو » ، أنها لا بد قد ذهبت مع بعض العمـلاء الى حفـل آخر .. وما لبثت « يوكو » أن حملت اليه رسالة أخرى ، جاء فيها : « قررت عدم الذهاب الى البيت . سأحضر حفلا آخر ، وربما حضرت لأراك قبـــل عودتى الى المنـزل » .. فابتسم شيمامورا ابتسامة باهتة ، وهو يشعر بالحرج أمام يوكو ، وقال لها : « شكرا لك .. سمعت أنك تساعدين فى الحفلات هنا ! » ، والقت اليـــه نظرة سريعة من عينيها الجميلتين ، فأحس بارتباكه يزداد . كانت الفتاة تترك فى نفسه أثرا عميقا فى كل مرة يراها . واذ جلست أمامه الآن فى رزانتها وهدوئهـا ، شعر بأن حادثا هاما كان يوشك أن يقع ، وتكون هى اهم الأطراف فيـه . فقال لها : « من الغريب أننى أراك كثيرا ولا أعرف عنك الا القليل : أول مرة رأيتك فيها ، عندما كنت ترافقين ذلك الرجل من طوكيو ، وقد تحدثت يومئذ مع ناظر المحطة عن أخيك . فهل تذكرين هذا ؟ »

واذ اجابت بأنها تذكره ، قال : « سمعت أنك تغنين فى الحمام ، قبل ذهابك الى الفراش ! »

ـ حقا ؟ هل يتهموننى بسوء السلوك الى هذا الحد ؟ ولكن من قال لك هذا ، أهى كوماكو ؟

ـ انها لا تقول شيئا عنك قط .. والظاهر أنها لا تحب الحديث عنك !

وحولت « يوكو » عنه وجهها وهى تقول : « ان كوماكو طيبـة ، ولكن الحظ خانها فى حيـاتها ، فأرجو أن تحسن معاملتها » .

ـ ولكنى لا أملك ما أستطيع عمله لها !

وخيل لشيمامورا أن كلماته اثرت فى الفتاة تأثيرا شديدا ، فبدأ جسمها يرتعش من شدة الانفعال . وأشاح بوجهه عنها ، وهو يقول : « لعل الأصوب لى أن أعود الى طوكيو » !..

فقالت الفتاة : « أنا الأخرى سأذهب الى طوكيو قريبا ! »

ــ هل أراك فى طوكيو عند عودتى اليها ؟

ــ أرجو أن تفعل ذلك .

ــ وهل توافق أسرتك على ذلك ؟

ــ ان أخى الذى يعمـــل فى السكك الحـديدية هو كل اسرتى ، وعلى هذا فاننى اقرر بنفسى ما أراه صالحا .

ــ هل تحدثت مع كوماكو فى هذا ؟

ــ مع كوماكو ! ؟.. أنا لا احب كوماكو ، ولهـــذا لم اتحدث اليها .

ونظرت اليـــه الفتاة بعينين نديتين ، فرأى لأول مرة علامات الاستسلام ، وكأنها تضع مصيرها بين يديه .. ومن الغريب أنه شــعر ــ فى تلك اللحظة ــ بعاطفـــة قوية نحو « كوماكو » !.. وعاد يسأل الفتـــاة : « الا يخيفك الذهاب وحدك مع رجل لا تكادين تعرفينه ؟ »

ــ ولماذا يخيفنى هذا ؟

ــ الا ترين انه من المجازفة أن تذهبى الى طوكيو دون أن تدبرى لك مأوى ، وعملا ؟

ــ اذا كانت المرأة بمفردها فانها تستطيع ان تدبر امرها .. أتوافق على أن أعمل خادمة عندك ؟

ــ تعملين كخادمة ؟.. ماذا كنت تعمــلين فى طوكيـــو من قبل ؟

ــ كنت ممرضة .. الحق اننى كنت افكر فى ان اصبح ممرضة ! .. ولكنى لم اعد راغبة !

وتذكر « شيمامورا » كيف كانت تعنى بابن معلمة الموسيقى فى القطار ، فقال : « يجب أن تقررى أمرا ، فإن هذا التردد لا يؤدى بك الى نتيجة » .

ـ التردد ؟ .. ان المسألة ليست مسألة تردد !

وأطلقت ضحكة عالية ، فبدا ضحكها ـ كصوتها ـ رائقا عذبا ، مس شغاف قلب « شيمامورا » للمرة الثانية . وقالت : « ليس هناك غير رجل واحد أستطيع أن أمرضه ، وقد مات هذا الرجل ! » .. ودهش « شيمامورا » لجوابها ، اذ لم يكن ينتظره ، فقال : « الآن فهمت .. وقد سمعت أنك تقضين معظم وقتك فى المقبرة .. فكيف تتركين القبر وتذهبين الى طوكيو ؟ »

ـ يؤسفنى هذا ، ولكنى أرجو ان تأخذنى معك !

ـ تقول كوماكو أنك شديدة الغيرة . الم يكن الرجل خطيبها ؟

ـ يوكيو ؟ .. هذا كذب !

ـ لماذا تكرهين كوماكو اذن ؟

ونظرت الى « شيمامورا » فى غضب ، ثم قالت : « كوماكو ؟ .. أرجو أن تحسن معاملتها ! .. انها تقول أن الأمر سينتهى بى الى الجنون ! » .. وتهدج صوتها ، واغرورقت عيناها .. ثم هرولت خارجة من الغرفة . وأحس « شيمامورا » برعشة من البرد تسرى فى أوصاله ، فقام يمشي فى الغرفة ، وفتح النافذة ، فوقع بصره ـ فى حجرة مقابلة ـ على « كوماكو » تلعب الشطرنج اليابانى مع بعض الضيوف .

وكانت الغيوم قد تكاثفت فى السماء .. وغادر « شيمامورا » حجرته الى الحمام ليغتسل ، واذا به يسمع صوت « يوكو » العذب ، الصافى ، يرتفع ـ من حمام النساء ـ

باغنية من اغانى الأطفال .. وأوحت اليه كلماتها التى لا تحمل أى معنى ــ شأن اغانى الأطفال عادة ــ بخاطر غريب : أتراه تمثل « يوكو » طفلة فى منامه ؟ .. ولكنه لم يكن نائماً ! .. وفى عودته الى حجرته ، التقى بكوماكو عند قاعة الجلوس ، فأطلقت ضحكة عاليـــة ، ولكن الألم لم يلبث أن طغى على قســمات وجهها ، فأغمضت عينيها ، وتركت طرف ثوبهـا يتدلى على الأرض .. ثم ارتمت على « شيماموراً » قائلة : « خذنى الى المنزل من فضلك ! .. لقد انصرفت الفتيات وتركننى هنا . ولن تقول احداهن شيئاً اذا لم ألحق بهن ، ولكنهن اذا مررن بمنزلى فى طريقهن الى الحمام ، ولم يجدننى فيه ، سيكثرن من الأقاويل ! »

وبرغم أنها كانت قد أسرفت فى الشراب ، فقد مضت الى جواره تهبط التل فى نشاط . وقال لها : « ان يوكو بكت كثيرا حين ذكرت انك قلت لها انها ستجن ! »

ــ أن لها تصرفات المجانين أحيانا .

ــ هذا لا يدعو الى أن تقولى لها انها ستنتهى الى الجنون .. لاسيما أنها أوصتنى بالترفق بك .

ــ وما شأنها بهذا ؟ ولماذا تقوله أنت لى ؟

ــ وما الضير فى أن أقول لك ذلك ؟ .. لماذا تغضبين كلما ذكرت هذه الفتاة ؟

ــ هل تريد أن تتخذها عشيقة لك ؟

ــ اسمعى ! .. ما الداعى لأن تبدى ملاحظة كهذه ؟

ــ انني جادة فيما اقول . فكلما نظرت اليها احسست كما لو كنت احمل عبئا ثقيلا لا استطيع الخلاص منه .. اذا كنت تحبها ، فلماذا لا تريح هذا العبء عن كاهلى ؟ !

ــ انك تتجاوزين فى حديثك كل الحدود .

ـ أنت تظننى ثملة أهذى . ولكنك مخطىء ، فأنا أعرف انك سوف تعنى بها ، بينما ابقى هنا اتابع حياة اللهو والمجون ، حتى ينتهى عمرى !

وتركته وانطلقت تعدو نحو باب البيت . وكان مغلقا . وتبعها « شيمامورا » حتى وقف الى جانبها أمام الباب ، وقال : « يظهر أنهم يئسوا من عودتك الليلة ! »

ـ ولكنى أستطيع فتحه !

وكان الباب قديما ، فرفعته قليلا ، ودفعته الى الخلف ، ثم قالت له : « تفضل بالدخول ! »

ـ فى هذه الساعة المتأخرة ؟

وتردد فى الدخول ، فقالت : « اذن ، سأصحبك الى الفندق ! »

ودخل البيت معها .. ومرا بالحجرة الرئيسية ، حيث شاهدا أفراد الأسرة ممددين على الفراش فوق الحصير ـ الأب والأم وخمسة أطفال أو ستة ـ وقد تغطت أجسادهم ببطانين ابلاها القدم . وكانت مظاهر الفاقة تبدو مختلطة بمعالم من الحيوية الدافقة .. وشعر « شيمامورا » بالحرج ، فتراجع ، ولكن « كوماكو » أخذت بيده نحو السلم وهى تقول : « انتظر هنا ، وسوف أضىء المصباح فى الطابق الأعلى ! »

ولكنه صعد خلفها فى الظلام .. فلما أضاءت المصباح رأى الحصير ـ فى الحجرات الأربع بالطابق الأعلى ـ قديما كالح اللون أيضا . وكانت الأبواب المنزلقة بين الحجرات قد أزيلت ، فبدا المكان كقاعة واحدة واسعة الأرجاء ، وفى ركن منها كان فراش « كوماكو » على الحصير .. صغيرا منعزلا ! .. وجلست « كوماكو » على الحصير ، وقدمت له الوسادة

الوحيدة فى المكان ليجلس عليها ، ثم تأملت وجهها فى المرآة ، وقالت : « ان وجهى أحمر حقـــا ، فهل أنا ثملة الى هـــذا الحد ؟ » .. وفتشت فى أحد أدراج طاولة الزينة ، وتناولت شيئا قدمتـــه لشيماموروا قائلة : « اليك مذكراتى ! » .. ثم أخذت صندوقا خشبيا جميل الصنع امتلأ الى حافته بأنواع شتى من السجائر ، وقالت : « عند ما يقدم لى أحد العمـــلاء سيجارة ، أضعها فى كم الكيمونو أو فى الحزام ، لأضعها الى ما فى هذا الصندوق .. ستجد فيه كل الأنواع ، فاختـــر ما يحلو لك ! »

ـ لا بأس ! .. وما أخبار الحياكة ؟

ـ أحاول أن أمارسها كلما وجدت شيئا من الفراغ ، ولو أن زوار الخريف من الكثرة بحيث لا يتركون لى فراغـــا فى هذه الأيام .

ولاحـــظ « شيماموروا » أن طاولة الزينـــة ، والمرآة ، وصندوق السجائر ، وصندوق أدوات الخيـــاطة .. كانت كلها من نوع فاخر يتناقض مع الحصير القديم ، والورق البالى الذى يغطى الجدران ! .. وسألها : « هل تنوين حقا أن تقيمى هنا أربع سنين ؟ »

ـ لقد انقضت سنة تقريبا ، وسوف تمر الثلاث الباقيات سريعـــا .

وكان « شيماموروا » يحس بالحرج .. ولم يعد ذهنـــه يسعفه بمادة للحديث ، فنهض من مكانه متأهبا للانصراف . وتبعته « كوماكو » الى خارج البيت ، فتطلعت الى السمـــاء قائلة : « سينهمر الثلج قريبا ، وينتهى بهذا فصل الخريف ! » .. وأردفت قائلة : « سأرافقك حتى الفندق .. ثم أتركك ! »

.. ولكنها حين بلغا الفندق لم تتركه .. بل تبعته الى

غرفته ، وقالت له : « اذهب أنت الى فراشك ! » .. وما لبثت أن أحضرت كأسين مليئتين بالساكى ، وقالت بعد أن أغلقت الباب : « اشرب ! .. لنتناول معا كأسا أخيرة الليلة ! » .. ودار رأسه ، اثر احتسائه الكأس ، فارتمى على الفراش . ووضعت « كوماكو » ذراعيها حوله فى حنان ، فأحس بالطمأنينة اذ سرت الحرارة من جسمها اليه .. ورأى على وجهها علامات الحزن والحنان ، كامرأة صغيرة تشتهى الأطفال ، فقال لها : « أنك فتاة طيبة ! »

ـ لماذا ؟ لماذا أنا طيبة ؟ . وماذا فعلت حتى تصفنى بالطيبة ؟ .. لست طيبة ، ووجودك يسبب لى متاعب كثيرة . فخير لك أن تعود الى بلدك . فى كل مرة آتى الى زيارتك ، أحرص على أن ارتدى كيمونو جديدا ، حتى لم يعد لدى ما ألبسه .. وهذا الذى أرتديه استعرته من بعض زميلاتى !

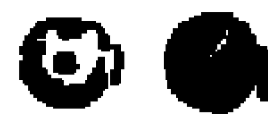
وسكت شيمامورا ولم يقل شيئا .. فاستطردت فى انفعال : « أى معالم للطيبة رأيتها فى ؟ .. فى أول يوم رأيتك ، شعرت بأننى لم أكره شخصا لأول وهلة ، قدر ما كرهتك ، لأنك قلت لى أشياء لا يقولها الناس عادة ! » .. وأحنى شيمامورا رأسه ، بينما واصلت المرأة حديثها : « أتفهم لماذا لم أقل لك هذا من قبل ؟ .. المرأة لا تصارح الرجل بمثل هذه الأشياء ، الا اذا كانت قد تجاوزت فى علاقتها به كل حد ! »

قال شيمامورا : « أنك امرأة طيبة ! »

وكانت تدفن وجهها فى جانب من الوسادة ، فرفعت رأسها على مرفقها فى غضب ، وهى تسأله : « امرأة طيبة ؟ ! .. ماذا تعنى بهذا ؟ » .. ولم يجب ، وانما مضى يحدق فى وجهها ، فقالت : « اعترف بالحقيقة . ان سبب مجيئك الى هنا هو اننى ساذجة لا طيبة .. كنت تضحك منى طول الوقت ، ولا تطلب أكثر من المتعة الرخيصة ! » .. وزاد

غضبها فجعل جسدها يهتز ، وسالت دموعها .. ثم تركت الفراش ، وجلست وظهرها اليه ، وهى تقول باكية : « انني أكرهك ! »

واحس شيماموريا بألم حين تبين الخطأ الذى وقع فيه .. وظل راقدا فى فراشـــه وقد أغمض عينيه .. بينما راحت تتمتم ، كما لو كانت تحدث نفسها : « لكم أنا حزينــة ! » .. ثم غادرت الحجرة ، دون أن تنظر اليــه أو تحييـــه ! .. ولم يستطع « شيماموريا » أن يناديها أو يخرج وراءها ، لأنه شعر بأنها كانت محقة فى غضبها .. ولم تنقض دقائق حتى عادت الى الغرفة فى ذلة ، ووقفت بالباب مطأطئة رأسها ، وقالت فى صوت منخفض : « الا تريد أن تغتسل ؟ .. انني آسفة ، لقد راجعت نفسى ، وجئت أعتذر اليك ! »



● استيقظ « شيماموريا » ــ ظهر اليوم التالى ــ على صوت يغني مقطوعة من احدى مسرحيــات الفجر ، فظل فى فراشه يصغى الى الغناء ، حتى جاءت « كوماكو » الى جانبه ، فابتسمت فى وجهه ، ثم فتحت النافذة ، فرأى السماء ملبدة بالغيوم ، والثلج يسقط كقطع من القطن المنفوش ، وبدا المنظر لشيماموريا كما لو كان فى عالم غريب ، ونظر الى « كوماكو » فاذا هى قد جلست أمــام المرآة . وكان « الكيمونو » الذى ارتدته مفتوحا عند الرقبة ، فبدا عنقها أبيض نظيفا .. وجال بخاطره أنه لم يكن يحسبها ممن يثرن عاصــفة شديدة لمجرد ملاحظة عابرة ، كما كشف حديثهـــا بالأمس .. وبدأ يدرك شـيئا عن طبيعــة هــذه المرأة وما تتميــز به من ارهاف وحساسية !

وطال بقاء « شيماموريا » فى القرية الجبلية هذه المرة حتى

أخذ الناس يعجبون مما اذا كان قد نسى زوجته وأولاده ، أو كان عاجزاً عن فراق « كوماكو » .. ولكن الواقع أن تعدد زياراته للقرية الجبلية ، جعله يفطن الى نقص فى حياته — فى بيته ومع أولاده — فى طوكيو .. وفى نفس الوقت ، لم يكن بقاؤه فى القرية مبعثاً لرضاه !! **ووقف « شيمامورا » فى نافذة غرفته ، يتطلع الى الجبال التى بدات الثلوج تكسوها ، ويفكر فيما كان يحس به من برود فى أعماق نفسه .. كان يدرك أن « كوماكو » قد أعطته كل شىء ، ولكنه لم يكن يستطيع أن يهبها شيئاً من حياته . وادرك انه لم يعد قادراً على أن يستمر فى هذا الخداع .. وان عليه أن يرحل !**

وخطر لشيمامورا أن يقوم برحلة فى الجبال ، عسى أن يساعده هذا على الخلاص من سحر هذه القرية الجبلية . ولم يكن يعرف المنطقة جيداً ، فاستقل القطار ، واختار لنزوله محطة صغيرة موحشة بين الجبال .. وسار فى الشارع الرئيسى للقرية ، فاذا بيوتها شبيهة ببيوت قرية « كيوكو » ، والثلوج تغطى أسطحها الخشبية الصغيرة . واذ أجهده السير ، أحس بالبرد والجوع ، فقصد مطعماً صغيراً ، تناول فيه طبقاً من الحساء وبعض المكرونة ، ثم عاد أدراجه الى المحطة ، فاستقل القطار عائداً من حيث أتى .. وبلغ محطة القرية بعد غروب الشمس .. وفى طريقه الى الفندق ، مر به « التاكسى » ببيت كبير يتلألأ بالأنوار .. وقرأ عليه اسم (مطعم كيكومورا) ، ورأى بعض فتيات « الجيشا » واقفات بالباب . **وقبل أن يفكر فى أن « كوماكو » بينهن ، كانت قد وثبت على حافة السيارة (الرفرف) ، وهى تمسك بمقبض الباب ! .. وانطلق السائق صاعدا الطريق الجبلى فى بطء شديد .. ومع أن « شيمامورا » لم يرتح لوقوفها خارج السيارة ، فقد احس بالدفء والأمان لوجودها بالقرب منه .**

وأدنت المرأة وجهها من النافذة وصاحت به : « أين كنت ؟ »

ـ لا تكوني حمقاء ! .. تعالى الى داخل السيارة والا أصبت بضرر .

وفتحت باب السيارة وهبطت الى جانبه .. وكانت السيارة قد توقفت لبلوغها بداية الطريق الجبلي . وسألته ثانية : « أين كنت ؟ » .. فقال في غير اكتراث : « كنت في أول مكان صادفني ! » .. وانتظر السائق في سكون . كان الموقف غريبا ، وهما جالسان في السيارة التي بلغت بهما أقصى ما كانت تستطيع الوصول اليه . وقالت كوماكو : « هيا بنا ! ما اشد برودة يديك ! .. لماذا لم تأخذني معك ؟ »

ـ اكان من الواجب أن آخذك ؟

وضحكت في سرور ، وهي تسرع صاعدة الدرجات الحجرية : « يا لك من شخص غريب ! لقد رأيتك ترحل حوالى الساعة الثانية .. قبيل الثالثة .. وجريت خلف السيارة ، ولكنك لم تنظر الى الوراء .. لماذا لم تنظر ؟ »

وعجب « شيمامورا » من سؤالها ، بينما استمرت تقول : « ألم تكن تعرف أنني أحب أن أودعك في المحطة ؟ » .. فقال : « كانت رحلة قصيرة ، على أية حال » . وضحكت في سعادة وهي تقترب بجسدها منه ، وقالت : « أرأيت ما أعنى ؟ لماذا لم تأخذني معك ؟ .. انك تتركني هنا ، ثم تعود وانت تشعر بالبرد ، وهذا ما لا أحبه ! » .. وفجأة دوى صوت انذار جرس الحريق ، واستمر يدق في اصرار يشير الى خطر جسيم . ونظرا الى الخلف ، فرأيا عمودا من اللهب يرتفع من القرية الى كبد السماء . وصاحت كوماكو : « حريق ! بقرب المحطة .. أظنه في بعض المحلات التجارية الكبرى ! » .. وبدأت النار تندلع واللهب يتطاول الى السماء .. وسيطر

الفزع على وجه المرأة .. وفجأة ، أخذت ترتعش ، ودموعها تجرى غزيرة فوق خديها ، فاحتواها « شيمامورا » بين ذراعيه ، متسائلا عما يفزعها ، فأجابته وهى تنتفض باكية : « أن هناك دارا للسينما ، تكون ممتلئة بالناس فى هذا الوقت عادة ، وسوف يصاب كثيرون بالأذى .. ومنهم من قد يموت محترقا ! » .. واخذت بيده ،وأسرعت تصعد الطريق نحو الفندق ، فوجدا النزلاء متجمعين فى الشرفات العليا .. وصاحت كوماكو تسألهم ، فعلمت أن الحريق كان قد بدأ فى دار السينما، وامتد الى متجر للحرير .. وأسرع بعض النزلاء يجرون فى الطريق المنحدر نحو القرية ، « وكوماكو » بينهم ، و « شيمامورا » وراءها . فلما اقتربوا من مكان الحريق ، رأوا السنة اللهب تعلو فوق أسطح المنازل ، وبلغت أسماعهم زمجرة النار ، وصياح الناس ، وأجراس المطافىء .. وقالت كوماكو لصاحبها : « يحسن بك أن تنتظر هنا ، وسأذهب لأرى ما اذا كان أحد قد أصيب ! » .. وبرغم ماانتاب « شيمامورا » من تعب ، فقد اندفع خلفها وهو يصيح : « انتظرى ! انتظرى ! » .. فتمهلت حتى لحق بها ، وأخذت بيده وهى تسأله : « أتريد أن تذهب معى الى مكان الحريق ؟ .. انك تبحث دائما عن أى شىء يثيرك . ولكن الناس لن يروقهم ذهابك ! »

وتوقف وهو يحنى رأسه موافقا ، فقالت له : « انتظرنى هنا ، وسوف أعود حالا ! » .. ولكنها عادت فهزت رأسها قائلة : « لا .. لا احب أن أتركك هنا ! » .. وألقت بنفسها عليه ، فترنح الى الخلف — حتى كاد يسقط فى حقل بصل على جانب من الطريق ! — وبدأت تتحدث اليه فى كلمات سريعة : « لم يعجبنى منك قولك اننى امرأة طيبة .. اننى افهم ماذا تعنى بهذا ، ولسوف ترحل من هنا قريبا ، فلماذا قلت لى مثل

هذا القول ؟.. لقد أبكاني هذا كثيرا .. أنني أخشى أن أفقدك ، ولكني لن أنسى أنك جعلتني أبكي كثيرا .. ولهذا أرجوك أن ترحل ! »

وأحس شيماموراً بكثير من المرارة ، لمجرد إن ملاحظـة بسيطة أبداها قد تركت هذا الأثر العميق فى نفسها . ولكنهما فى تلك اللحظة سمعا صياحا عاليا وضجة صادرين من ناحية الحريق ، وارتفعت ألسنة اللهب من جديد الى عنـــان السماء .. فنسيا مأساتهما ، وانطلقـــا يجريان .. وكانت كوماكو تجرى فى خفة ، ولكنها ما لبثت ان انتظرت حتى لحق بهـــا رفيقها ، فاستندت بجسدها عليه قائلة : « أن عينى تدمعان من شدة البرد ! » .. وكانت عيناه كذلك ، ووجهـــه يتوهج نتيجة المجهـــود الذى بذله . فوقف فى الطريق يستعيد أنفاسه ! .. وقالت كوماكو : « اذا رحلت فسوف أحيا حياة شريفة ! .. انتظر هنا حتى أعود ! » . ورفعت طرف ثوبهـا بيدها ، وانطلقت تعدو نحو الحريق ، و « شيماموراً » يتبعها بنظره . ورأى جمعـــا من الرجال يشدون مضخـــة حريق فى الطريق ، والناس يتدافعون خلفهم ، فوجد نفسه ينســـاق وراءهم .. كانت المضخة من طراز عتيق ، والناس يجذبونها بالحبال . وكانت « كوماكو » فى جانب من الطــريق ، فرأت « شيماموراً » ، وأسرعت اليه حيث وقف وسط الزحام .. فلما بلغت مكانه ، أخذت بذراعه وهى تقول : « أهكذا جئت ؟ .. انك تبحث دائما عما يثيرك ! »

وبلغا ــ أخيرا ــ جدارا من البشر ، يحيط بالمبنى المحترق .. وفرق الزحـام بين « شيماموراً » و « كوماكو » ، فوقف الزجل تائها بين أهل القرية ، وهم يتصايحون ، ويتنادون .. وبينما كان يراقب النيران ، مأخوذا بهـول منظرها ، اذا به يفطن الى « كوماكو » تقف بجانبه .. **وامسكت بيده ، فحول**

بصره – على الرغم منه – الى وجهها .. كان متضرجا ، وقد زاده وهج النار ضراما ، وتهدل شعرها حوله .. وداخله احساس غريب ، لم يدر ماتاه .. احساس بان وقت فراقه لكوماكو كان وشيكا !

وارتفعت ألسنة اللهب مرة أخرى ، عند مدخل المبنى المحترق ، فحول رجال الاطفاء خراطيم الماء نحوها ، بينما بدأت الأعمدة والجدران تتصدع وتتهاوى على الأرض .. وانبعثت من جمهور المشاهدين شهقة كلها جزع ، اذ سقط من بين الأنقاض المتهاوية ، جسد امرأة .. وبدا انها كانت بلا حراك .. وتراجع « شيمامورا » الى الوراء ، لا من الخوف ، وانما لأن جسم المرأة بدا له كشبح يبرز من عالم غريب ! .. وصرخت « كوماكو » ، ووضعت يديها على عينيها ، بينما كان « شيمامورا » يتفرس فى الجسد الساكن على الأرض .. ولم يدر كيف تبين أن صاحبته هى « يوكو » .. وخيل اليه أن صرخة « كوماكو » كانت طعنة نفذت الى قلبه .. وفى تلك اللحظة بالذات ، اختلجت ساق « يوكو » اختلاجة خفيفة ، وهى مسجاة على الأرض .. وشعر « شيمامورا » بقشعريرة تسرى فى كل جسده .. وأخذ قلبه يدق فى عنف ، وقد استبد به ألم لم يدر كنهه !

وتحركت ساق ((يوكو)) مرة أخرى ، حركة خفيفة لا تكاد تفطن اليها العين .. وبوازع لم يدر ((شيمامورا)) مبعثه ، احس بان الحياة لم تفارق الجسد الهامد .. وأخذ يتأمل وجهها الساكن ، والسنة اللهب تغمره بضياء متوهج .. وكانت عيناها مغمضتين ، فتذكر كيف كانتا تنفذان بنظراتهما الى القلوب ! .. وشعر – مرة أخرى – باحساس قوى يفيض فى صدره ، اذ ارتدت به الذكرى الى يوم رأى « يوكو » فى القطار

لأول مرة ، وشاهد النار فى الجبل تنعكس على صورة عينيها على زجاج النافذة . ومرت السنوات والشهور التى قضاها مع « كوماكو » أمام عينيه سريعا فى تلك اللحظة ، وأدرك عند ذلك سر الألم الذى كان يعصر قلبه .. ووضعت « كوماكو » يديها على عينيها وصرخت مرة اخرى ، ثم أسرعت تعدو نحو النار . فلما وصلت الى « يوكو » ، حملتهـــا على صدرها ، وعادت تترنح بين برك الماء وقطع الأخشـــاب المتنـــاثرة على الأرض . وكانت تبدو على وجهها علامات الجزع واليـأس ، بينما تدلى وجه « يوكو » فى فراغ .. كان وجها جامدا ، بلا روح ، و « كوماكو » تشق طريقها وسط الحطـــام ، كما لو كانت تحمل ضحيتها .. أو عقابها !

وأفاق جمهور المشاهدين من جمودهم ، فتدافعوا نحـو المرأتين يحيطون بهما . وسمع شيمامورا المرأة تصيح بالناس : « ابتعدوا عنا ! ابتعدوا عنا من فضلكم .. ان الفتاة قد جنت .. انها قد جنت ! »

وحاول أن يقترب من كوماكو ، ولكن الناس دفعوه بعيدا وهم يحيطون بالمرأة ، ليأخذوا عنها حملها .. فوقف فى جانب من الطريق ، وهو يحس بالعاصفة تثور فى أعماق نفسه !

فتيات ((الجيشا))

بين الحب ، والحرمان ، والوحشة !

عزيزى القارىء :

الآن وقد قرأت القصة ، تعـــال احدثك ببعض معلومات تلقى مزيدا من الاضواء عليها .. لقد أجمع النقـــاد على ان هذه الرواية هى خير ما نشر

الروائى اليابانى « ياسونارى كاواباتا » ، وانها تمثل فنه فى الكتابة احسن تمثيل ..

والقصة — كما رأيت — تصور غرام رجل اوتى مالا وفراغا ، ييمم كلما مل حياة العاصمة (طوكيو) وصخبها ، شطر الجبال .. وقد التقى ، فى احدى القرى الجبلية النائية ، بفتاة من « الجيشا » ، اجتذبه اليها — فى البداية — حبها للفنون والمامها بها .. ولقد أحبته الفتاة ، ولكنه أحب فيها مجرد الأنيسة ، النديمة .. وهنا كان التناقض السافر : فهو لا يفهم من الحب سوى الجنس ، وهى — التى تعيش فى جو يغرى بالجنس ، ويمهد الانزلاق اليه — تطمع فى الحب السامى ، الذى يمكنها من أن تخلص لرجل واحد ! .. وفى الوقت ذاته ، تستهوى الشاب فتاة أخرى ، جميلة ، عذبة الصوت ، ولكنها غريبة الأطوار .. وبين هذه وتلك ، يتبين أنه لا يستطيع ان يحب احداهما ، فلا يجد حلا سوى التفكير فى العودة الى عالمه الذى حاول الهروب منه : الى (طوكيو) بعجيجها وصخبها !

وخلال القصة ، يرسم المؤلف صورة رائعة لفتيات « الجيشا » .. فاذا الفتيات اللائى يدخلن البهجة والانس على قلوب الرجال ، يعشن — فى واقع حياتهن الخاصة — فى وحدة ووحشة اليمتين ! .. واذا بين الفتيات ، اللائى تضطرهن واجباتهن الى الشراب وارضاء الرجال ، من تحرص على عفتها وطهرها .. فهن لسن بغايا ، بل ان بينهن من أوتيت مشاعر انسانية نبيلة ، فامتهنت حياة « الجيشا » لتنفق على علاج شاب لا تحبه ، ولكنها تخشى أن تصارحه ، مثل « كوماكو » .. واذا بينهن من توقف جهودها على العناية بالشاب العليل ، فاذا مات لازمت قبره ، مثل « يوكو » ..

والمشهد الاخير فى الرواية يحمل الينا كثيرا من المعانى : فنحن ندرك حين نرى « كوماكو » تسير مترنحة من المبنى المحترق ، وهى تحمل « يوكو » بين ذراعيها ، أن الوقت قد حان لتفترق عن « شيماموراً » : فيعود هو الى العاصمة (طوكيو) ليتابع حياة الفراغ التى ألفها ، بينما تبقى الفتاة فى

القرية الجبلية لتحترق فى حياة المجون التى كتبت عليها !

والقارىء يدرك من هذا المشهد الاخير ـ كذلك ـ أن « يوكو » هى العبء الذى كتب على « كوماكو » أن تتحمله . ويزيد فى ثقل هذا الحمل أن المرأتين كانتا متنافستين فى الحب أكثر من مرة : ففى المرة الأولى تنافستا فى حب رجل مشرف على الموت ، هو « يوكو » ، كما يفهم من سياق القصة (وان لم يبين الكاتب ذلك صراحة) .. وفى المرة الثانية تنافستا فى حب « شيمامورا » . والكاتب لم يذكر لنا هذه الحقائق فى وضوح ، بل أنه لم يوضح لنا هل ظلت « يوكو » على قيد الحياة ام ماتت محترقة من النيران ، فى نهاية الرواية . واذا كان القارىء يجد شيئا من الغموض فى الصفحات الأخيرة من الرواية ، فانه ينبغى ان يذكر أن هذا هو اسلوب الكاتب فى رواياته : أن يترك المجال للقارىء لفهم ما يريد أن يذكره ، أو للتفكير فى القصة واختيار النهاية التى يراها اقرب الى ذوقه وفكره ومشاعره ..





تلخيص : ابراهيم سوريال

فاجعة تلهم المؤرخين والقصاصين منذ ٨٠ عاما

فى الساعة السابعة والنصف من يوم ٣٠ يناير سنة ١٨٨٩ ، دخل الكونت « هويوس » مع وصيف الأمير « رودلف دى هابسبورج » ـ ولى عهد النمسا يومئذ ـ الى مخدع الأمير ولى العهد ، فى استراحة للصيد ، فى ضاحية (مايرلينج) الجبلية ، على مسافة أربعين كيلومترا من العاصمة (فيينا) ، فوجدا الأمير ميتا .. والى جواره ، كانت البارونة الشابة « مارى فيتسيرا » ـ عشيقته ـ ترقد بلا حراك .. وقد قضت رصاصتان على حياة العشيقين !

.. وكانت نهاية مفجعة ، لأمير ذى مزاج رومانتيكى ، اثارت اساطير وقصصا لا نهاية لها .. (حتى لقد كتبت عنها مئات الكتب ، واخرجت ستة افلام سينمائية ، كان آخرها فيلم امريكى ظهر فى العام الماضى ، وعرض فى القاهرة منذ ثلاثة اشهر ، وقد اضطلع ببطولته الممثل المصرى « عمر الشريف » ، الذى أدى فيه دور الأمير رودلف ، ولى العهد .)

و « ماساة مايرلينج » ، كما كتبها ونشرها اخيرا الكاتب الفرنسى « لويس سوريل » ، هى أحدث عرض للقصة ولى عهد النمسا ، الذى اثار مصرعه ضجة فى كافة أرجاء العالم ، والذى لا تزال ماساته مادة دسمة للمؤرخين والمحققين والروائيين .. فتعال نقرأ القصة التاريخية الواقعية كما صورها « لويس سوريل » :

تربية على يدى مجنون !

● ولد « رودلف » فى ٢١ أغسطس سنة ١٨٥٨ « فى (فيينا) .. وكان الابن الأوحد لفرانسوا جوزيف ـ امبراطور النمسا وملك المجر ـ وزوجته الامبراطورة « اليزابيث » . وقد شاءت ارادة جدته «الارشيدوقة صوفى» ، أم الامبراطور



« فرانسوا جوزيف » ، العاهل المطلق لامبراطورية النمســا والمجر (أقوى امبراطوريات ما قبل الحرب العالمية الأولى) ، ووالد الأمير « رودلف » ، احـد « بطلى » ماساة مايرلينج الدامية !

ـ وكانت متسلطة أفظع تسلط على ابنها ـ أن تفصل الطفل ، منذ بلغ منتصف العام السابع من عمره ، عن أمه ، وتعهد به الى رعاية مرب اختارته له ، هو « الجنرال جوندركورت » .. الذى كان ذا عقلية تجعله أقرب الى « الوحش » منه الى الانسان .. ويكفى لبيان نفسيته ونمط تفكيره ، أن نورد ما كتبه فى مذكراته ، عندما عهدوا اليه بولى العهد الصغير : « لا بد أن هذا الطفل بالغ الخبث والشقاوة ، والا ما عهدوا به الى » !

ويقــدم لنا المؤرخ « أندريه كاستيلو » تفصيلات ذات مغزى مهم ، بصدد « التربية » التى تلقاها الأمير عن الجنرال : **((كان الجنرال يعــامل تلميــذه وكانه ((حيــوان متوحش صغير)) ، ويفرض عليه الاغتسال بالماء المثــلج ، كضرب من العقاب !.. وعندما تبين أن الأمير يخاف الكلاب ، ويرتعــد لمجرد رؤيتها ، حبسه فى حديقة الحيوان فى (لينز) ، وتركه وحيدا ، وهو يصــيح : ((خنزير برى !))** .. وحين عرفت الجدة « سيسى » ـ أم الامبراطور ـ بذلك ، طردت هــذا « الجلاد » ، فخلفه كولونيل يتولى رعاية الأمير الطفــل ، وطبيب يعنى به ، وخمسون معلما .. ومع أنهم جميعا كانوا اقل قسوة من الجنرال ، فقد راحوا يجبرون الصغير على أداء تمريناته الرياضــية فوق الثــلوج ، فى أقسى أيام الشــتاء برودة !.. ولكن الامبراطور شاهد هذا المنظر يوما ، فأوقف هذه الطرق التربوية « البروسية ! »

نحو التعطش الى .. العدم !

● وقدر للأمير ان يتخلص من التعــذيب الجنــونى ، ليتعرض لتعليم مرهق ـ فى تركيزه ـ الى درجة كان لا بد أن تنتهى بالأمير الصغير الى التبلد الذهنى .. كان عليه أن يتعلم ـ الى جوار لغتــه الأصلية ، الألمــانية ـ ست لغات أجنبية : التشيكية ، والهنجارية ، والكرواتية ، والصربية ، والبولندية ، والفرنسـية .. فضلا عن القانون ، والاقتصاد السياسى ، والفلسفة .. وكان كل هذا « الحشو » كفيلا بأن يرهق عقل الفتى ، الذى ولد بفطرته حاد الذكاء ، حتى لقد كتب عنــه الكونت « دى سانتولير » ـ السفير الفرنسى ـ وكأنه كان يتنبأ له بمستقبله :

((ان حب الاستطلاع عنده مشبوب الى درجة كفيلة بان تدفعــه للاستسلام لمباهج القراءات المتنــوعة ، بل القراءة

المحرمة . ولقد ورث عن أمه الخيال وارهاف الحس ، والذوق الفنى ، والرغبة القوية فى الكتابة ، فهو ابنها و ((تلميذها)) كذلك .. أن مراهقتــه تضطرم بكل أنواع القلق ـ انبلهــا وأكثرها شهوانية ، على السواء ـ فهو متعطش الى العدالة ، والحقيقة ، والاخاء ، تعطشه الى اللذة البدنية . وسيأتى يوم يتبين فيه انه لن يلتقى بالعدالة والحقيقة والاخاء فى هــذه الدنيا ، ولن يجدها فيما هو أرفع من هذه الدنيا ، ولن يعود يحظى باللذة الا نادرا ، لكثرة اغترافه منها .. واذ ذاك ، لن يتعطش الا .. الى العدم !))

وفعلا ، مر الأمير الشاب ـ بلهفة وسرعة ـ بمواطن المتعة لدى سيدات المجتمع الراقى ، ثم لدى محترفات المظاهر ، ثم انتقل الى غزوات سريعة .. ولكنه لم يكن مجرد باحث عن المتعة واللهو ، بل كان ـ فى الوقت ذاته ـ فريسة لرغبــات جديدة .. كان على نقيض أبيه الرجعى ، يخالط الصحفيين المنادين بالديموقراطية ، والفوضويين .. ويحلم بالعمل ـ فى المستقبل ـ ضد المانيا وروسيا ، حيث كانت السيادة للنظام « الأوتوقراطى » !

كان الموت يطارده طيلة حياته !

● وفى الثالثة والعشرين من عمره ـ فى سنة ١٨٨١ ، على التحديد ـ زوجوه من الأميرة « ستيفانى » ، ابنة « ليوبولد » الثانى ، ملك بلجيكا . وكانت شقراء ، باردة الأحاسيس ، عديمة الشخصية ، انجبت له ابنــة ـ أطلقــوا عليها اسم « اليزابيث » ـ ثم اصابها العقم ، واخذ جسدها يزداد بدانة بسرعة ، حتى لقد سميت : « فلاحة الفلاندر » .. وفقدت كل جاذبية فى نظر زوجها ، فلم يلبث أن أهملها نهائيا !

وسرعان ما تملكه الملل والقنوط ، ولم يعد يجد للحياة طعما ، فأقبل على الخمور و « المورفين » .. وفقد اتزانه

النفسي بدرجة كبيرة ، حتى لقد فكر في الانتحار !.. ويقول « موران » ، عضو الأكاديمية الفرنسية ، في هذا الصـدد :
« .. اخـذ الأمير يعامل الأرشيدوقة ستيفاني (زوجته) بقسوة جنونية ، ويهدد بأن يقتلها ثم ينتحر !.. كان هـذا الرجل ـ الذي شاخ قبـل الأوان ـ لا ينفك يردد كلمـة « الموت » ، كما كانت ترددها امه .. كان الموت يطارده طيلة حياته » !

ولقد اقترح يوما ـ في سنة ١٨٨٨ ـ على عشيقة له ، تدعى « ميتزى كاسبار » أن تنتحر معه . وكانت فتاة خلابة الجمال ، تتطلع الى الحياة ، وتنتشي بمباهجها ، فكان من الطبيعي ان ترفض اقتراحه .. بل انها هربت منه ، وأبلغت الأمر الى الشرطة !.. وكان من الخطأ ان الشرطة لم ينبئوا الامبراطور « فرانسوا جوزيف » بذلك !

من خريف ١٨٨٨ حتى ٢٠ يناير ١٨٨٩

● وفي نفس العام ، شغفت به « مارى فيتسيرا » .. وتروى الكونتـة « لاريش » ـ الابنـة غير الشرعية لدوق (بافاريا) ، خال الأمير رودلف ـ أن العلاقة بين « رودلف » و « مارى » ، بدأت في مايو ١٨٨٨ .. في حين يقول « أندريه كاستيلو » أن لقاءهما الأول انما كان في « خريف » ذلك العام .. وسواء أصح هذا القول ، أو ذاك ، فالمقطوع به أن علاقتهما بدأت في سنة ١٨٨٨ ..

وكانت مارى ـ التي ولدت في ١٩ مارس سنة ١٨٧١ ـ ابنة البارون « ألبان فيتسيرا » و « أيلين بالتاتزى » ، التي كان ابوها من أغنى أصحاب المصارف في الشرق الأدنى .. **وكانت ذات عينين داكنتي الزرقة ، وبشرة امتزج فيها لونا الذهب والعنبر ، وشعر طويل اسود .. وكانت نحيلة بالقدر الذي يكسب قوامها تناسقا وامتشاقا ، ذات ساقين بديعتي**



الامبراطورة ((اليزابيث)) والدة الأمير ((رودلف)) ، وقد ورث عنها الخيال والاحساس المرهف ، والذوق الفنى ، والميل الفطرى الى الكتابة ..

الالتفاف ، وقدمين دقيقتين ، ويدين بضتين .. وقد أضفى عليها انتماؤها للأصل اليونانى مسحة من فتنة الشرق ، فكان جمالها يسبى العقول !

ولقد كانت نشأة أبيها متواضعة ، كحفيد لصانع أحذية ، وابن لموظف صغير .. وكانت بداية حياته كنشأته ، اذ عمل كمترجم صغير فى احدى السفارات .. ولكنــه راح يرقى السلم بسرعة ، فاذا به — فى عام ١٨٦٥ — مستشار لاحدى الهيئات الديبلوماسية ، ثم قائم بالأعمــال لدى بلاط قيصر روســيا ، ثم سفير لدى دوق « هيس » وبارون .. ثم من أصحاب المصارف فى الشرق الأدنى !

وفى مطلع سنة ١٨٨٨ ، كان قد انقضى عامان على وفاته ، وقد أصبحت زوجته تمتلك فنــدقا بديعا فى قلب الحى الديبلوماسى فى (ڤيينا) ، ولم يعد لها من هم سوى أن تتألق فى المجتمع الراقى ، واستطاعت أن تكتسب معارف من ذوى المراكز الممتازة ، كانت بينهن الكونتة « مارى لاريش » ، ابنة خال ولى العهد — وقيل انها كانت احدى عشيقاته ! — وقد كانت امرأة جامحة التحرر ، كما انها أوتيت روح « الوسيطة » ، التى تجمع بين الرجال والنساء !

رسالة ، ثم لقاء .. بفضل الكونتة الوسيطة !

● **وككل** فتاة فى السابعة عشرة ، كانت « مارى » — فى سنه ١٨٨٨ — تعيش فى الأحلام ، وتصبو الى فارس مستهام .. وبروح الطموح — التى ورثتها عن أبيها وأمها معا — لم تجد فارسا لأحلامها يفوق ولى عهد النمسا .. **فعشقته فى الخيال ، حتى لقد كانت تتتبع كل اخباره ، وتقتطع صوره من الصحف ، وتأمر سائق مركبتها بالابطاء اذا صادفت مركبة « رودلف » فى طريق !**

وجاء شهر مايو .. وتقول الكونتة لاريش : « وبدافع من

سلطان شـــهر مايو الرومانتيكى ، نجحت مارى فيتسيرا ، بفضل وصيفتها « آنييس » ، فى حمل « لوشيك » ـ الذى كان موضع ثقة ابن عمتى (رودلف) ـ على أن يسلم الأمير رسالة منها » .. **ولكن لا يبدو أن رسالة « مارى » حظيت باهتمام خاص من الأمير ـ الذى كان يتلقى كثيرا من الرســـائل الغرامية ـ اذ لم تسفر عن نتيجة .. ومن المحتمل (وان كنا لا نجزم) ان الكونتة « لاريش » هى التى دبرت لقاءهما ..** على أية حال لم ينقض وقت طويل حتى بهت الأمير لفـرط ما لمسه لدى « مارى » من حب صادق ، فرغب فى أن يراها بمنأى عن الناس ، فى جناحه الخاص ، بالقصر الامبراطورى .. وهنا يبدأ الشق العملى فى دور الكونتــة « لاريش » ، كوسيطة غرام !

غراب « يبارك » اللقاء الأول للعاشقين !

● **وتورد** « سيليا برتان » ـ فى كتابها : « مايرلينج ، او مصير فيتلباخ المشئوم » ـ تفصيلات كثيرة عن هذا اللقاء ، فتقول : « جاءت الكونتــة لاريش تنشد « مارى » ، بحجة مرافقتها الى أحد المصورين ، والى جولة لشراء بعض أشياء .. واصطحبت الكونتة الفتاة الى مصور فعــلا ، ثم أقلهما الحوذى « فرانز ڤيبر » ـ الذى اعتاد خدمة الكونتة كلما حضرت الى (ڤيينا) ـ الى فندق « جراند هوتيل » ، حيث كانت تنزل .. وهناك ، كان فى انتظارهما « برأتفيش » ، حوذى مركبة الأرشيدوق رودلف .. ولم تكن المركبة أمام الفندق ، بل كانت خلف مبناه .

« وتسللت اليها متعوتا الأمير ، خلال شارع جانبى ، وقد اسدلتا حجابا على وجهيهما (كما كتبت مارى الى معلمتها القــديمة « ارمين » ، التى كانت على علم بقصتها مع ولى العهــد) .. وســـار كل شىء بنجاح ، فى تكتم .. واقلهما

((براتفيش)) بأقصى سرعة لخيـله ، الى قصر (جوزيفس بلاتز) ، حيث ترك باب حديدى صـغير مفتوحا ، فى ذلك اليوم .. وخلف ذلك الباب ، كان الوصيف ((لوشيك)) فى انتظارهما ، فمضى بهما عبر ردهات خالية ، ومجموعات من السلالم يلفها البرود ، مما بعث فى نفس مارى هلعا واضطرابا بالغين .. حتى انتهى بهما الى باب خشبى مرتفع ، بادر الى فتحه ..

« وفى اللحظـة التى نفذت فيها مارى داخل الجنـاح الخاص بولى العهد ، انطلق طائر أسود ، وأخذ يحلق حول رأسها فى دوائر متتابعة .. ذلك كان « پرويس » ، الغراب الذى استأنسه صاحب السمو الامبراطورى .. وزاد حفيف جناحى الغراب من ذعر الشابة الصغيرة ، التى لم تكن تتصور استقبالا كهذا ! »

.. وجمجمة ومسدس على مكتب الأمير !

● **وما لبث** « رودلف » أن أقبل ، فقاد الزائرتين الى حجرة مكتبه .. ثم دعا ابنة خاله ــ بعد لحظة ــ الى الانتقال معه الى حجرة مجاورة ، بحجة التحدث اليها على انفراد ، فى أمر خاص ..

ووجدت « مارى ڤيتسيرا » نفسها وحيدة فى الحجرة ، فأخذت تتأمل مكتب ولى العهد .. وشد بصرها ــ منذ أول وهلة ــ شيئان غريبان ، خليقان بأن يفصحا بجلاء عن العقد النفسية التى تسيطر على الأمير : **كانت ثمة جمجمة شخص ميت ، ومسدس .. ولم ترهبهما الفتاة اطلاقا ، بل انها لم تلبث أن أخذت تعبث بالجمجمة !.. وعندما عاد ((رودلف)) ، بهت لهـذا المنظر ، ولكنـه ــ فى الوقت ذاته ــ بهر به .. فها هى ذى فتاة لم تكن ترهب الموت !**

وتستأنف « سيليا برتان » حديثها قائلة : « وطلب الأمير

الى مارى لاريش ــ فى نهاية الزيارة ــ أن تحضر له الفتاة مرة أخرى ، بعد أيام ، وتقدم مدعوتيه بنفسه يودعهما ، حتى الباب الخشبى المرتفع ، المفضى الى جناحه الخاص .. وهناك وجدتا ، مرة أخرى ، « لوشيك » ــ وصيف رودلف الخاص ــ ليرافقهما فى انصرافهما ، كما رافقهما عند وصولهما ! .. وكان هذا الخادم « الشيخ ، ذو الشاربين الكثيفين ، والشعر الأشقر المشوب بالشيب » ، شديد الولاء لسيده ، والارتباط به .. وقد قدر له أن يلعب دورا كبيرا فى مأساة (مايرلينج) !

مارى تصبح خليلة رودولف (١٣ يناير ١٨٨٩)

● وفى ١٣ يناير ١٨٨٩ تغيرت فجأة طبيعة العلاقة الخفية بين مارى ورودلف . ويتضح هذا من خطاب أرسلته « مارى فيتسيرا » الى « هرمين » ، معلمتها القديمة ، وهو خطاب لا يترك مجالا لأى شك :

« عزيزتى هرمين : سأعترف لك اليوم بأمر سيغضبك كثيرا .. لقد كنت عنده ، منذ الساعة السابعة ، حتى الساعة التاسعة .. ولقد تخلى عنا العقل ، والآن يمتلك كل منا الآخر روحا وجسدا ! »

وكان ذلك اليوم عظيم الأهمية فى قصة غرام « رودلف » و « مارى » .. فبعد أن وهبته الفتاة نفسها ، جن الأمير بحبها ، وقرر أن يتزوجها !.. ولكى يحقق ذلك ، اعتزم أن يطلب من (الفاتيكان) فسخ زواجه من « ستيفانى » ، التى كانت ــ اذ ذاك ــ عديمة الأهمية تماما بالنسبة له . وتقول بعض المصادر ان « رودلف » قام بالخطوات الأولى فى هذا السبيل لدى البابا « ليون » الثالث عشر .

وعندما رجعت البارونة الشابة الى بيتها ــ فى ذلك اليوم ــ كتبت فى مذكراتها الخاصة : « **لقد عشت اليوم أجمل أيام حياتى ..** » !



الأمير « رودلف » ولى عهد النمسا !

الصعوبات والمصادمات الأولى (بين ١٤ و ١٦ يناير)

● كان الأمير « فيليب دى ســاكس كــوبورج » بين المقربين الى ولى العهــد .. وقد صارحه هذا بعــزمه على

الزواج من « مارى ڤيتسيرا » ، فأبدى هذا الصديق الوفى عدم ارتياحه لفـــوره ، وصارح « رودلف » بمخاوفه ، فى عبارات متحفظة .. ويقول « پول ريبو » — فى كتابه « لم يعد لمايرلينج سر » — أن « فيليب » قال لولى العهد ، فى نهاية حديثهما : **« ان تكن زوجا وتهجر الارشيدوقة ستيفانى ، وان تكن أبا وتهجر الأميرة اليزابيث — ابنتك — وهى بعد صغيرة جدا ، فهـذا كفيل بان يؤلب عليك الحكومة ، والبـلاط ، والكنيسة ، والامبراطورة ، والامبراطور ، والامبراطورية » !**

ولكن رودلف قابل مارى ، فى اليــــوم التالى ،واهداها خاتمـا من الحـديد ، مزدانا بماسات صغيرة تؤلف الحروف الأولى من عبـــارة « متحـــدان فى الحب حتى المـوت » ، باللغة الألمانية !.. وقد قدر لاتحادهما — حتى هذا المصير — أن يتحقق بعد خمسة عشر يوما !

ولم تكن البارونة « ايلين ڤيتسيرا » — والدة مارى — تجهل علاقة ابنتها بوريث العرش ، وفى هذا تقول الكونتـة لاريش انها .. « كانت قوية الدهاء ، دون ما ريب ، ولكنها — فى هذه المرة — ارتكبت خطأ جسيما » فمن المحتمل انها كانت تجهل طبيعة العلاقة بين مارى ورودلف بدقة ، وكان حريا بها أن تتدخل قبل أن تذهب الأمور مدى بعيدا . **وعلى اية حال ، فان البارونة العجوز أخطـات الحساب ، اذا كان الأمل قد راودها فى أن يستطيع رودلف ان يعقد زواجا عرفيا (وكانت ڤيينا بأسرها قد عرفت ان ولى العهد سعى لدى بلاط روما للتحلل من زواجه) ، او فى ان يدفع لابنتها مبلغا ضخما ، على الأقل » !**

كذلك اصطدم الأمير بمعارضة صلبة من أبيه الامبراطور « فرانسوا جوزيف » .. ومع أن الأب كان قد اتخذ لنفسـه عشيقة — منذ أمد طويل — هى الشقراء الجميلة « كيتى شرات » ، فانه لم يكن راغبا فى فضيحة علنية تحيق بالأسرة

.. ومن ثم فقد أنبأ « رودلف » بأن (الفاتيكان) رفض طلبه ، بناء على تدخله هو (أى الامبراطور) !

ولى العهد يتآمر لخلع أبيه !

● وفى عصر أحد أيام ينـاير ، ذهب « رودلف » ــ فى الخفاء ــ الى ابنة خاله الكونتة لاريش ، فى فندق (جراند هوتيل) .. وتقول الكونتة : « دخل جناحى من باب الخدم ، وكان مكفهر الوجه ، عابســا ، يوحى مظهره بالانفعــال .. وبادرنى قائلا ، وهو يطرق المنضدة بأصابعه : « اننى محاط بجواسيس يا مارى » !.. واذ أبديت دهشـــة من قوله ، استطرد : **« اننى اعرف ما اقـول .. أواه ، لـكم يبدو لى ــ احيانا ــ ان الحياة لا تستحق ان نحياها .. لكم أشـعر بان راسى يرتطم بعناد الاخرين ! »» ، وما من ريب فى ان ولى العهد كان يشير ، بهذا ، الى الامبراطور ! »**

وما لبث « رودلف » أن اتجــه الى الهــدف المبـاشر لزيارته : اذ عهد الى ابنة خاله بصندوق من الفولاذ ، وسألها الا تسلمه لأحد سواه شخصيا ، أو لمن يقول لها كلمة السر « ييڤو » ، اذا قدر له هو أن يموت !

وخيل للكونتة أنها حملت عبئا ثقيــلا ، بالرغم من أن الصندوق لم يكن ثقيلا .. وقد خيل اليها أنه ضم « وثائق خاصة بانقلاب ، لاقصاء الامبراطور عن العرش ! » .. وقد تسلمه منها ــ بعد وفاة ولى العهد بمدة ــ شخص ، هو الأرشيدوق « چان دى توسكان » .. وكان قد أعد ــ فعلا ــ مؤامرة مع « رودلف » ، قالت الكونتة فى سرد تفصيلاتها : **« كان جان دى توسكان يبذل كل جهوده ــ مع ولى العهد ، واثنين آخرين ، احـــدهما روسى والآخــر مجرى ــ لخلع الامبراطور عن عرشه !** ولم يكن رودلف يتطلع الى أن يتقلد

تاج امبراطور النمسا وملك المجر فحسب ، بل كان يصبو كذلك الى تاج ملك بوهيميا . وكان يأمل من وراء هذا أن يدعم الملك المزدوج ـ الذى كان مزعزعا باستمرار ـ والتمهيد لاتحاد سلافى .. وهو الحلم الذى راود خليفته « فرانسوا فرديناند » .. دون جدوى »

فضيحة فى حفل راقص بالسفارة الألمانية !

● وفى ٢٧ ينـاير ، أقام الأمير « هنرى دى رويس » ـ سفير المانيا فى (فيينا) ـ حفلا ساهرا ، بمناسبة عيد ميلاد « غليوم الثانى » . ويقول « ماريون جيلبير » فى وصف الحفل:

« كان هناك الأمير ولى العهد ـ فى زى فارس پروسى ـ وجميع الأمراء ورجال البلاط والسلك الدبلوماسى والجيش والنبلاء ، وكل من كانت (فيينا) تضمهم من عظماء وجميلات مشهورات » .

وتولت الأرشيدوقة « ستيفانى » تمثيـل الامبراطورة الغائبة .. وكانت « مارى فيتسيرا » وأمها بين الحاضرات .. وأخذت الأرشيدوقة تمر فى تؤدة أمام المدعوين ، فكان الرجال والنساء ينحنون فى احترام ، عندما تمر أمامهم ..

وهنا نترك الكلام لـ « أندريه كاستيلو » يكمل الوصف :

« .. وفجأة توقفت زوجة رودلف تماما ، اذ وجدت أمامها البارونة « فيتسيرا » الصغيرة ، وقد وقفت فى اعتـدال . **وبدا واضحا أن مارى ابت أن تنحنى لزوجة عشيقها ، اللهم الا اذا كانت قد استغرقت تماما فى أحلامها فعميت عن رؤية « ستيفانى » ، او اى شخص سوى « رودلف » ، الذى كان حاضرا ، ولكنه لم ير شيئا !** .. ولم يستمر هذا المنظر سوى ثوان ، اذ أمسكت مدام فيتسيرا بذراع ابنتها ، وارغمتها على الانحناء .. بينما تجاوزتهما الأرشيدوقة ، بعـد أن رمقت غريمتها بنظرة صاعقة » .

وذاع هذا المشهد السريع فى البلاط ، فأحدث فضيحة مدوية ..

مقابلة درامية بين الامبراطور وابنه !

● وفى صباح اليوم التالى ، ذهبت الأرشيدوقة « ستيفانى » مبكرة الى حميها ، تشكو « رودلف » بمرارة ، والدموع تملأ عينيها .. لقد تحملت هذه المرأة الشابة جميع أنواع الخيانات من زوجها ، طيلة ثمانية أعوام قضتها زوجة له . ولكنها – فى هذه المرة – عجزت عن أن تقبل هذه الاهانة العلنية !

واستدعى الامبراطور ابنه فورا ، وبدأ فى الحال حوار درامى بين الرجلين : فلقد طلب « فرانسوا جوزيف » من « رودلف » أن يقطع علاقته تماما بمارى فيتسيرا .. وانتهى الأمر بالأمير الى أن قال : « فليكن !.. سأتخلى عنها ، ولكنى أناشدك يا أبى ، أن تسمح لى بأن أقابلها مرة أخيرة ، لأودعها ! »

– ليكن لك هذا غدا .. ولكنك لن تراها قط ، بعد ذلك .. لا تنس أنك أعطيتنى وعد شرف !

ولا شك فى أن الصدام بين « فرانسوا جوزيف » وابنه كان عنيفا ، لأن الجنرال « مارجوتى » – أركان حرب الامبراطور – وجد العاهل المسن مغمى عليه ، عندما دخل الى مكتبه عقب المقابلة !

من ٢٨ الى ٣٠ يناير ١٨٨٩

● **ويبدو** أن « رودلف » عقد العزم على الانتحار ، بعد الحديث الدرامى الذى دار بينه وبين أبيه !.. اذ يقول « أندريه كاستيلو » أنه كتب – اذ ذاك – خطابات وداع عديدة لأقاربه .. ولكنى أرى أن هذه الخطابات كتبت فى (مايرلينج) ذاتها .. بدليل أنه بدأ رسالته الى أمه



الارشيدوقة « ستيفانى » زوجة الأمير « رودلف »

ـ الامبراطورة اليزابيث ـ بقوله : « **لم يعد لى الحق فى أن أحيا يا أماه ، لقد قتلت ..!** » .. **وما كان بوسع « رودلف » أن يكتب هذا ، قبل أن يرى « مارى » ويعرف ما اذا كانت تقبل أن تشاركه هذه التضحية السامية ، من أجل الحب !**

أما بعد الحديث الدرامى ، فقد استقبل « رودلف » صديقه « موريس شيبز » ، وكان صحفيا يهوديا يدير صحيفة

للمعارضة اسمها « نوى ڤيينر تاجبلات » . ويقول « جيلبير جيبيمينو » ـ فى كتابه « غوامض التـاريخ الـكبرى » ـ ان الصحفى اليهودى حاول تهدئة خواطر صديقه المتأججة . وكان « شيبز » يتلقى بنفسه المقالات التى كان الأمير يكتبها لصحيفته ، ولكن هذا التعاون كان يتم فى الخفاء .. فكان « بنهامر » ـ خادم رودلف ـ يذهب الى « شيبز » فى ساعة مبكرة من كل صباح ، فيسلمه مظروفا كبيرا ـ محكم الاغلاق بثلاثة أختام ! ـ وفى ذلك المظروف كان « شيبز » يجد المقال الذى كتبه الأمير فى الليلة السالفة !

فى الأصيل ، اتجهت مارى الى (مايرلينج)

● وفى ذلك الصباح ـ ٢٨ يناير ـ استقبل الأمير صديقه الصحفى اليهودى لفترة قصيرة .. ثم انصرف « شيبز » . وفى أصيل اليوم ذاته ، غادر « رودلف » القصر .. وحوالى الساعة ذاتها ، كانت « مارى ڤيتسيرا » على وشك الرحيل الى (مايرلينج) ، للالتقاء بحبيبها . وتقول « سيليا برتان » ، فى هذا الصدد : « ارتدت مارى « تايور » فى خضرة الزيتون ، موشى بتطريز أسود ، وله ياقة مقفلة ببروش من الذهب .. ووضعت على رأسها قبعـة خضراء ، مزدانة بريشة نعـام سوداء ، وأحاطت عنقها ب « ايشارب » أسود ، عقدته تحت ذقنها . ولم تحمل من الحلى سوى قرطين قصيرين ، وصليب من الذهب ، والخاتم الحديدى الذى كان رودلف قد أهداها اياه .. وارتدت فوق ذلك معطفا من الفراء ، كما دست يديها فى حلقة فرائية ..

« ولم تضطر الكونتة لاريش لانتظارها طويلا ، عنـدما وافتها فى تلك السـاعة .. وأمام متجر شهير للمـلابس النسوية ، هبطت الكونتة من المركبة ، وسارت تحت أقواس المتجر .. وما ان اختفت عن الأنظـار ، حتى هبطت مارى

ـ بذورها ـ واستقلت مركبة « براتفش » ، التى كانت تقف على الجانب الآخر للطريق » .

وفى المركبة ، التقى العاشقان .. ووفقـــا لما أسرت به الامبراطورة اليزابيث ـ الى الامبراطورة ((أوجينى)) ـ اطلع الأمير خليلته على الوعد الذى انتزعه منـــه الامبراطور !.. فبادرته البارونة الشابة قائلة : ((لدى ـ أنا الأخرى ـ خبرا افاجئك به .. اننى حامل !))

وكان رأى الامبراطورة ((أوجينى)) أن العاشقين اتخذا ـ فى تلك اللحظة ـ القرار بان يموتا معا !

ويؤيد هـــذا أن الكونتة « لاريش » ـ حين عادت الى مركبتها ، وفوجئت باختـــفاء البارونة الشابة ـ وجـــدت وريقة صغيرة جاء فيها : « لم أعد أستطيع الحياة . سأنطلق قبل حضورك ، وسأكون فى جوف الدانوب قبـــل أن تلحقى بى ـ مارى » !

محاولات عديمة الجدوى .. لعلاج الموقف

● **وبادرت** الكونتة لاريش ـ لفـــورها ـ بالذهاب الى البارون « كراوس » ، رئيس البوليس الامبراطورى ، واطلعته على الأمر .. ولكن « كراوس » شـــعر بحرج من التـــدخل والبحث عن « مارى » ، اذ كان على دراية واسعة بحياة ولى العهد العاطفية ..

غير أن الكونتة عادت اليه ـ مرة أخرى ـ فى الســـاعة السابعة مساء ، وكان بصحبتها « الكسندر بالتاتزى » ، (خال « مارى فيتسيرا ») . **ويقول أندريه كاستيلو : ((كانا فريستين لانفعال طاغ ، اذ أنهما اكتشفا ـ فى خزانة حديدية ببيت مارى ـ صورا لولى العهد ، ووصية كتبتها البارونة الشابة .. وهل تكتب فتاة وصية وهى فى السابعة عشرة من العمر ؟)) .**

أما « ايلين ڤيتسيرا » ـ والدة ماري ـ ففي غمرة القلق الطاغي ، عقدت عزمها على أن تسعى لمقـــابلة الامبراطور ، بمجرد أن يتـوفر لديها الدليـــل على أن ابنتها كانت مع « رودلف » في (مايرلينج) .. ولم يملك « كراوس » أكثر من أن يهـدىء هواجس زائريه بالكلام اللين ، تجنبا لاثارة فضيحة ، اذا هو اتخذ اى اجراء !

ولم يبق الا أن نتتبع حركات العاشقين ـ بعد ذلك ـ يوما بيوم ..

مايرلينج : ٢٨ يناير ـ بداية المساء

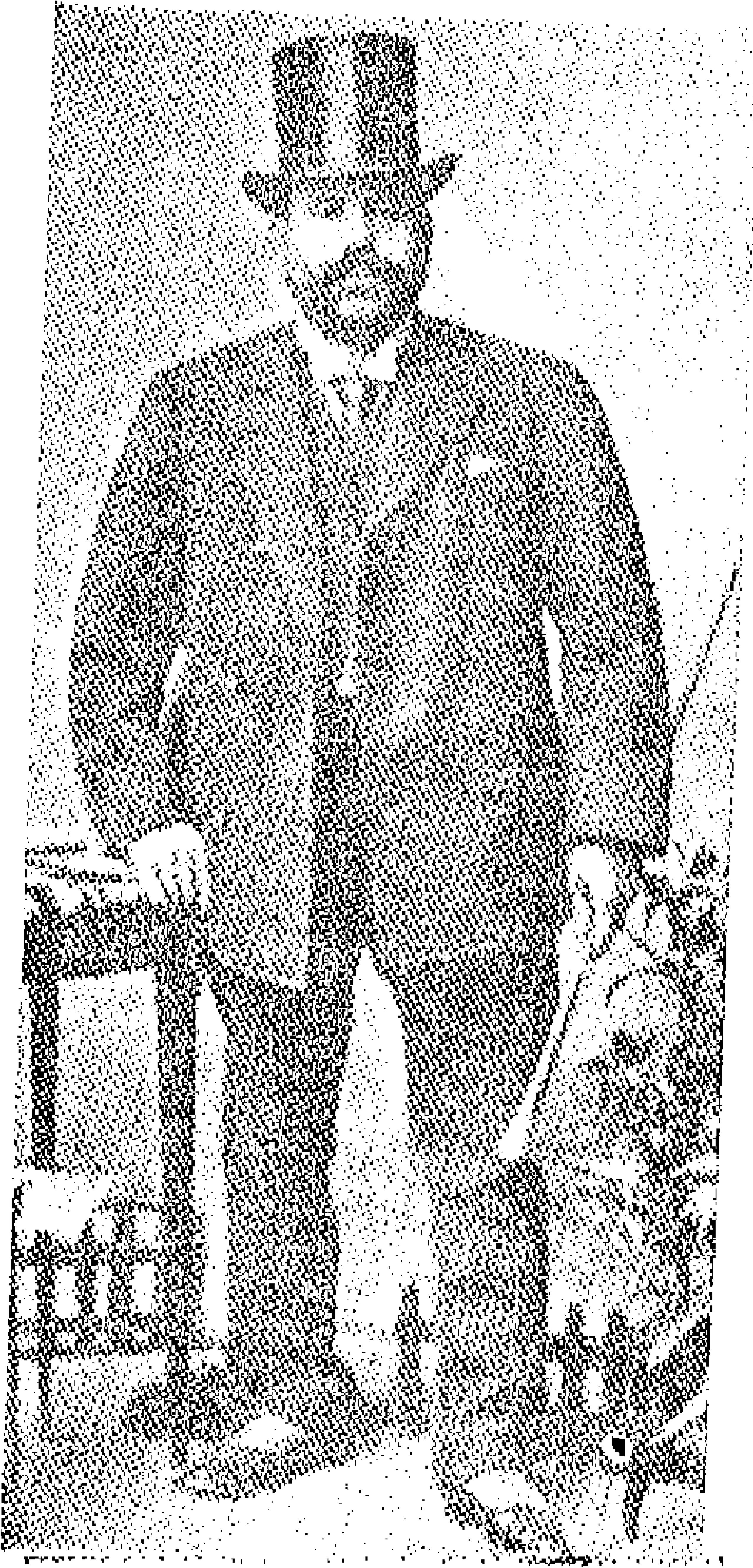
● **كانت** هنـــاك وسيلتان للذهاب من (ڤيينا) الى (مايرلينج) ، في ذلك العهد .. أولاهما : القطار من محطة الجنـوب حتى (بادن) ، ثم مركبـة تقطع المســافة الى (مايرلينج) في ساعة .. والأخرى : مركبة تجرها الخيل ، وتقطع المسافة من (ڤيينا) الى (مايرلينج) مباشرة ، في ثلاث ساعات أو أربع ..

وكان « رودلف » قد وجه الدعوة الى الكونت « هويوس » وفيليب دي كوبورج ، لمشاركته الصيد ، فكانا الأسبق الى الوصول للاستراحة .. وقد كان الأمير يفضل صحبتهما ، لما اتصفا به من ثبات ، ومرح ، ومحافظة على الأسرار ..

اما ((رودلف)) و ((ماري)) ، فقد وصلا الى الاستراحة في حوالي الساعة الخامسة .. وآوت ماري ـ مباشرة ـ الى حجـرة الأمير ، فلم يفطن الصـديقان الى وجودها ، ولم يخبرهما الأمير بوجودها ، بل تناولت عشاءها وحدها ، بينما شاطرهما هو العشاء ..

وفي حوالي الساعة التاسعة ، صـعد الأمير الى الطابق الأول ، حيث كان مخدعه ، وحيث كانت الفتـاة تنتظره ، نافدة الصبر !

مايرلينج : ٢٩ يناير – حتى منتصف الليل


حوذى الأمير المخلص ((براتفيش))

⊙ **انطلق** ((هويوس)) وزميله الى الصيد وحيدين – فى الصباح – اذ قيل ان ((رودلف)) أحس بوعكة .. والواقع أنه مكث فى مخدعه مع مارى . ويبدو أنه كتب الرسالة التالية – الى زوجته – فى ذلك الصباح :

((عزيزتى ستيفانى : ها انتذى تتخلصين – أخيرا – من عذاب وجودى ، فاسعدى كما يحلو لك ، وكونى بارة بالصغيرة المسكينة ، فهى الشىء الوحيد الباقى منى ..))

تحياتى الأخيرة الى جميع معارفنا .. اننى ذاهب الى الموت ، فهو وحده القادر على انقاذ اسمى . الودود : رودلف))

ولا يمكن الجزم بأن الرسالتين اللتين كتبهما الى أمه وأخته ((فاليرى)) كتبتا فى هذه السويعات القلائل ..

وتناول ((رودلف)) الغداء مع صديقيه ، ثم انطلق الصديقان – مرة أخرى – الى هوايتهما المفضلة ، ولم يعودا الى (مايرلينج) الا حوالى الساعة السادسة الا الربع .. ولم

يلبث « كوبورج » أن رحل الى « ڤيينا » ، حيث كان عليه أن يحضر العشاء على مائدة الامبراطور .. أما « رودلف » ، فأبرق الى زوجته راجيا أن تعتذر للامبراطور عن تخلفه عن « العشاء العائلى » ، لاصابته بزكام حاد ! .. وبعد أن تناول العشاء مع « هويوس » ، عاد الى خليلته .. ثم أرسل العاشقان يدعوان « براتفيش » المرح ، ليغنى لهما .. وبعد انصراف « براتفيش » — حوالى الحادية عشر مساء — جلست « مارى » تكتب خطابات الوداع .. فقالت لأمها :

((اننا الآن شديدا التلهف لمعرفة كنه العالم الآخر .. اغفرى لى ما فعلت ، فما استطعت أن اقاوم الحب !)) .. وكتبت الى الكونتة لاريش : ((أغفرى لى كل ما سببت لك من عناء .. واذا قدر للحياة أن تغدو صعبة بالنسبة لك — واخشى أن هذا ما سيكون ، بعد الذى فعلناه — فاتبعينا .. هذا خير ما يمكن أن تتخيليه !))

وكتب « رودلف » آخر تعليماته ، طالبا أن يدفن بجوار حبيبته « مارى » .. كما كتب خمسة خطابات ، كان أحدها لوصيفه « لوشيك » .

ليلة المأساة :

• فى أية ساعة قتل «رودلف» خليلته برصاصة من مسدسه ، اخترقت الجبهة وخرجت من فوق الأذن اليمنى ؟ ليس فى الامكان تحديد ذلك .. كل ما نستطيع أن نقوله — وفقا لشهادة الدكتور « ڤيدر هوفر » — **هو أن ((رودلف)) قتل ((مارى)) ، قبل أن ينتحر هو بساعات ! .. ويبدو أن القتل حدث بينما كانت الشابة نائمة .. ثم غطى ((رودلف)) جسدها بالزهور ، ووضع وسادة على وجهها !** وحوالى السادسة والنصف صباحا ، ذهب « رودلف » — فى ثياب النوم — الى « لوشيك » ، وقال له : « أشرف على اعداد



استراحة ((مايرلينج)) التى كان يلجأ اليها العاشقان !

المركبات للصيد ، وأحضر لى الافطار بعد ساعة ! » .

صباح ٣٠ يناير ، السابعة والنصف : اكتشاف الجثتين !

● وفى السابعة والنصف صباحا ، ذهب « لوشيك » الى جناح سيده ، وطرق الباب ، فلم يجبه أى صوت ! .. ودب القلق فى نفسه ، فأخذ يطرق الباب بقبضة يده .. ولا جواب سوى الصمت ! .. فأسرع وأخطر الكونت « هويوس » . وأخذ الاثنان يطرقان الباب ــ المغلق بالمزلاج ــ بعنف .. وازاء الصمت المستمر ، طلب « هويوس » من الخادم بلطة ، وكسرا الباب .

وفى الغرفة شبه المظلمة ، اكتشفا جثتى ((رودلف)) و ((مارى)) متجاورتين .. ولم يكن هناك أى أثر لمقاومة ..

وبالقرب من ولي العهد ، وجدا مسدسه تنقصه طلقتان .. وعلى المائدة الصغيرة المجاورة للسرير ، وجدا كأس « كونياك » مليئة حتى منتصفها !

وبالطبع ، وجدا على المكتب خطابات عديدة .. ووصية !

٣٠ يناير — حوالى الحادية عشرة :

● **انطلق** « هويوس » سرعة الى محطة « بادن » ليخطـر الامبراطور بالنبأ . وكان أول قطار يمر ، هو السريع القادم من « تريستا » ، ولم يكن يقف الا في « ڤيينا » ، وقد رفض ناظر المحطة ايقافه .. واذ ذاك ، قال له هويوس : « لقـد مات ولى العهد ! » .. فأوقف الناظر القطار ، وهكذا وصل « هويوس » الى القصر الامبراطورى بعد ساعة . قابل أولا « بومبيل » — كبير الياوران — ثم الكونت « پارر » . ولم يجرؤ أحـدهما على مكاشـفة الامبراطور بالنبـأ ، فاضطـر « هويوس » للذهاب الى الامبراطورة ، وأخطر بالنبأ وصيفتها « ايدا دى فيرينزى » .. ودخلت « ايدا » فـورا الى غرفة « سيسى » ، بينما كانت تتلقى درسا في اللغة اليونانية ..

ومع « ايدا » دخـل البـارون « نوپسا » ، الذى قال للامبراطورة : « هناك نبأ سيىء جدا لجلالتك .. »

وتمتمت الوصيفة : « الأرشيدوق رودلف ! » ، فهتفت الامبراطورة : « مات ؟ »

عندما علمت « اليزابيث » بملابسات الوفاة ، انفجرت فجأة في البكاء .. وكان لابد من ابلاغ الامبراطور بما جرى ، فتكفلت الامبراطورة — برغم الصدمة — بهذه المهمة القاسية .. وتحايلت على ابلاغ الامبراطور النبأ بترفق ، ومع ذلك فانه تأوه ، وتهالك ، وهو يقول : « لم يبق لى شيء ! »

شائعات وأقاصيص عن موت « رودلف »

● **أعلنت** صحيفة « فينرتزايتونج » موت الأرشيدوق



« مارى فيتسيرا »
الفتاة التى شغف
بهـــا الأمـــير
« رودلف » وأراد
أن يطلق زوجته
الارشـــيدوقة
« ستيفانى » كى
يتزوجهـــا ! ..
وعنـــدما طلب
الامبراطور من الأمير
أن يقطـع علاقتـه
بها ، قرر الاثنـان
الانتحار معا !

« رودلف » فى أصيل ذلك اليوم (٣٠ يناير) ، اذ كانت سكك حديد الجنوب ملك آل « روتشيلد » فأبرق لهم ناظر محطة (بادن) بالنبأ ، وتسرب منهم الى الصحافة .. أما البـلاغ الرسمى الذى أذيع فيما بعد ــ بأمر من الامبراطور ــ فذكر أن « رودلف » مات بانسداد فى الشرايين ! .. غير أن (ڤيينا) امتلأت ــ فى ٣٠ يناير والأيام التالية ــ بأغرب القصص عن وفاة « رودلف » :

قيل ان ((لوشيك)) استيقظ ــ فى منتصف الليل ــ على صوت طلق نارى ، ووجد الأمير مسجى على سريره ، وعلى أرض المخدع مسدس وشفرة حلاقة (موسى) .. وكان الأمير غارقا فى الدماء ، وفى بطنه جرح كبير .. بينما كانت ((مارى فيتسيرا)) فى أحد أركان المخدع مخنوقة .. وقيل ان ((مارى)) أصيبت بهياج هستيرى ، لقطيعة قامت بينها وبين الأمـير ، فاستغلت فرصة نومه لتشويه جسده .. وانه خنقها ، ثم سدد مسدسه الى حلقه ، وأطلق رصاصة !

ومن أكثر الروايات تطرفا ، ما قيل من أن أحد الحراس اغتال الأمير ، بايعاز من « غليوم الثانى » ــ امبراطور ألمانيا ــ وأن الجريمة سياسية !

وفى ٣١ يناير ، جرؤت احدى الصحف على تكذيب البلاغ الرسمى ، فصادرها البوليس فورا ..

((البابا)) يوافق على جنازة دينية للمنتحر !

● وفى ٢ فبراير ١٨٨٩ ، قامت لجنة من الأطباء بفحص جثة « رودلف » ، وكانت مؤلفة من « هوفمان » ــ أستاذ الطب الشرعى ــ و « هانز كوندرات » ، رئيس معهد التشريح الباثولوجى ، و « هرمان ڤيدر هوفر » ، الطبيب الخاص للأمير .. وجاء فى تقرير هذه اللجنة :

١ ــ مات صاحب السمو الامبراطورى ولى العهد ، نتيجة

كسر فى الجمجمة ، والأجزاء الأمامية من المخ ..

٢ ـ نشأ الكسر من رصاصة أطلقت ـ من مسافة قريبة جدا ـ على المنطقة الصدغية اليمنى ..

٣ ـ أطلقت الرصاصة من مسدس متوسط العيار ..

٤ ـ لم يتسن العثور على القذيفة لأنها خرجت من الثغرة الموجودة فوق الأذن اليسرى ..

٥ ـ لا شك فى أن صاحب السمو الامبراطورى هو الذى أطلق الرصاصة بنفسه ، وفى أن الموت كان فوريا ..

واختتم التقرير بعبارة : ((.. وجدير بنا أن نقرر ان هذا العمل تم فى حالة جنون)) .. وذلك حتى يمكن تشييع جنازة الأمير وفقا للطقوس الدينية ! .. ويقول ((جاك كورتريه)) ان الامبراطور أرسل الى البابا ((ليون)) الثالث عشر برقية من مائة وخمسين سطرا ، ليحمله على الموافقة على تشييع الجنازة دينيا .. ويقال ان هذه البرقية ـ التى كتبت بالشفرة ـ تنطوى على سر مأساة (مايرلينج) الغامضة ، ولكنها لم تذع اطلاقا !

وكان « ليون » الثالث عشر يمتاز بكثير من حسن الادراك السياسى ، فلم يتردد فى الموافقة على جنازة دينية للمنتحر ، وان لم يقر معظم الكرادلة رأيه .. بل ان الكاردينال « رامپولا » امتنع عن حضور صلاة الجنازة ـ التى أقيمت فى الكنيسة الألمانية بروما ـ فلم يغفر له « فرانسوا جوزيف » هذا الموقف ، واستخدم (بعد أربعة عشر عاما) حق « الڤيتو » ـ الذى كان آل هابسبورج يتمتعون به ـ ضد ترشيحه للكرسى البابوى فى سنة ١٩٠٣ .

الامبراطور يودع جثمان ولى عهده

● وصل جثمان « رودلف » الى (ڤيينا) فى ليلة ٣٠ ـ ٣١ يناير ، وان ذكرت بعض المصادر انه وصل فى ليلة

٢ ـ ٣ فبراير ، وعرض فى احدى قاعات القصر . وقد سأل الامبراطور ـ فى الصباح ـ عما اذا كان بوجهه أى تشويه ، فلما اطمأن الى خلوه من ذلك ، قال : « غطوه جيدا ، فان الامبراطورة تريد أن تراه ! »

وذهب الامبراطور لتوديع ابنه ، بملابس التشريفة الكبرى . وكانت القاعة قد أضيئت بالشموع فقط ، حتى توارى الظلال الثقب الذى أحدثته الرصاصة فى صدغ الأمير ، كما أحيطت الجمجمة بلفائف ـ نسقت على شكل قلنسوة النوم ـ لاخفاء الكسور .. ورفع الامبراطور قبعته أمام جثة ابنه .. وبهت الضباط ـ الذين كانوا يحيطون به ـ اذ اكتشفوا أن شعره قد ابيض تماما ، أثناء الليلة السابقة !

وبعد يومين ، سمح لأهالى (فيينا) بالمرور أمام التابوت



قبر الأمير « رودلف » بجوار قبر الامبراطور « فرانسوا جوزيف »

المفتوح ، الذى سجى بداخله الأمير ، فى بزة جنرال .. وفى ٥ فبراير ، نقل بعض الرهبان جثمان السليل الثالث عشر بعد المائة لآل هابسبورج ، الى مدفن دير الآباء الكبوشيين . وبعد الدفن بأربعة أيام ، استيقظت الامبراطورة « اليزابيث » من نومها — فى جوف الليل — وانطلقت فى مركبة الى الدير ، وسارت الى المدفن .. وأمام تابوت ابنها ، ركعت وهى تهتف : « رودلف .. رودلف : هل تسمعنى ؟ »

ثم انخرطت فى بكاء عنيف !

الجسد الجميل ينقل فى الظلام الى قبره !

● **ومارى فيتسيرا ؟ .. كيف كان دفنها ؟**

حوالى الساعة الرابعة من بعد ظهر ٣١ يناير ، ذهب خالاها الى استراحة الصيد .. وكان جسدها مسجى عاريا — تحت كومة من الملابس القديمة — على طاولة بأحد الأركان ، وعيناها مفتوحتان ، وخيط من الدم المتجمد ينحدر من فمها المنفرج الى صدرها .. كان منظرا بشعا !

ووقع خالاها تقريرا أعده « سلاتين » — ممثل البلاط — والدكتور « اوشنتهالر » ، جاء فيه : « يوجد فى جبهتها جرح طوله خمسة سنتيمترات ، وعرضه ثلاثة ، وقد احترق الشعر المحيط به .. وهذا مكان دخول الرصاصة التى اخترقت المخ ، ونفذت من فوق الأذن اليسرى .. »

والبس الرجلان ابنة اختهما ثيابها ، وثبتا عصا بحبل خلف ظهرها ، لتظل الجثة فى وضع مستقيم .. ثم حملا الجثة — فى الساعة الحادية عشرة مساء — الى مقبرة (هايليجنكروز) ، وهما يسندان الجثة — فى المركبة — بذراعيهما ، بينما كان المطر يهطل غزيرا ..

وبسبب هذا المطر ، لم يتسن اعداد القبر الا فى الصباح التالى ، ثم غيب فيه الجثمان داخل تابوت متواضع ، صنع

من أربعة ألواح من الخشب ..

وبعد سنوات ، سمح لأسرة ((فيتسيرا)) بأن ترفع صليبا فوق القبر !

وهكذا فرقت التقاليد الامبراطورية — بعد الموت — بين العاشقين اللذين لم يستطع الامبراطور أن يفرق بينهما وهما على قيد الحياة !



قبر ((مارى فيتسيرا)) بعد أن سمحت الحكومة برفع الصليب عليه ، وكتابة اسمها !

صراع الحب .. والواجب!



بقلم : ابراهيم المصرى

● تقع حوادث هذه القصة أثناء حرب الاستقلال الايطالية التى دارت رحاها فى سهول مقاطعة (لومبارديا) عام ١٨٢٠ ، بين الفدائيين المنتمين الى هيئات المقاومة السرية فى ايطاليا ، وبين رجال الجيش النمسوى . وقد اشار المؤرخ « هنرى لافورج » فى كتابه عن (الوحدة الايطالية) الى حادث خارق وقع فى لومبارديا أثناء مقاومة عنيفة نظمها زعيم فذ جرىء من زعماء حرب العصابات يدعى « أتيليو » . وقد خلد هذا الحادث فى رسالة رائعة كتبتها الفتاة « جوليانا » الى الزعيم « اتيليو » . فرأيت أن انقل الرسالة كما هى ، متخذا منها مادة هذه القصة :

من « جوليانا » الى الزعيم « اتيليو »

● انى لأرتعد خوفا من مجرد تصورى أنه يجب أن أبعث اليك بهذا الخطاب .. ولكننى لا أرتعـد أبدا مما فعلت ، ولا آسف على ما فعلت ، ولا ينتابنى من جرائه أيسر احسـاس بالندم ، أو الحسرة ، أو تبكيت الضمير !

أنا فتاة ، وأنا عاشقة .. ولكنى فى تلك اللحظات المروعة نسيت انوثتى ، بل خنقتها عامدة فى اطواء صدرى ، ونسيت غرامى ، بل أخمدت شعلته عامدة فى حنايا ضلوعى . وهكذا لم أشعر الا بأنى مواطنة صادقة ، على واجب مقدس ينبغى أن أؤديـه !

ولقد اديت واجبى على خير وجه واكمله . اديتــــه على انقاض حبى ، وعلى أشلاء نفسى ، وعلى مذبح الوطن العظيم ، الذى اعتقد اعتقادا راسخا انك أنت نفسك تحبـــه الف مرة اكثر مما تحبنى ، وتجود فى سبيله عند الاقتضاء بأعز الناس عليك ، وأوثقهم صلة بك ، وأقربهم الى روحك وقلبك ودمك !

ولو انى احسست لحظـــة واحـــدة انك أقل منى وفاء لوطنك ، وايمانا بواجبك ، وتعلقا بشرفك ، ما أقدمت أنا على ذلك العمل الفظيــع الذى سأكاشفك به ، والذى لا يستمد « فظاعته » من مسلكى ، بل من مسلك صاحبه المجرم النذل ، الغادر ، الشرير !

انت يا « أتيليو » زعيمنا ، وانت الذى حملت راية الجهاد فى وجـــه المستعمر النمسوى الذى اذل بلادنا ، وحرمهـــا وحدتها ، واغتصب منها أجمل مقاطعاتهـــا ، وراح يمرح فى سهول (لومبارديا) الجميلة ، ويعيث فيها فسادا ، ويضرب على الوطن كله رواقا كثيفا من العبودية ، والطغيان ، والظلم !

انت الذى انشأت هيئات المقاومة .. وأنت الذى نظمت حرب العصابات .. وانت الذى نفثت فى الصدور الخائرة ، والعزائم الواهنة ، روح الشجاعة ، والبطـولة ، والتضحية ، والفـــداء !

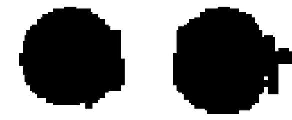
لهذا احببتك ! .. لهـــذا عشقتك .. لهـــذا اصبحت خطيبتك واقسمت امام الله والناس ان اكون لك وحـــدك . ولكنى لا استـــطيع ان اضع حبك فوق حبى لبـــلادى ، ولا استطيع ان اوثر حبك على حبى لبـــلادى ، ولا استطيع ان اغلب عاطفة حبك على عاطفة القيام بواجبى المقدس نحو وطنى،

هذا الواجب الذى تدعو اليـــه أنت بوصفك الزعيم ، والذى اعرف عنك انك لم تتسامح ولن تتسامح فى تأديتـــه ، ولو هلكت ! .. فباسم هذا الواجب ، الذى تعلمت قداسته منك ،

اقدمت على ارتكاب ذلك العمل المروع بقلب هادىء ، ونفس ساكنة ، وعزم ثابت مطمئن !

فاسمع الآن ما حدث أثنـــاء غيابك ! .. أرهف السمع جيدا وسامحني . سامحني لأني لم أفعل الا ما كان لابد أن تفعله أنت لو كنت مكاني . ولقد فعلته وأنا متأهبـــة لانكار نفسي ، والتضحية بحبي ، وتقبل الموت من أجلك ومن أجل وطني !

هذا ما وقع ، فانقشه في صفحة خيالك . وعسى أن يشفع لي فيه عندك حرصي على واجبي ، فيظل حبك لي عنيفا قويا ثابتا ، حتى بعد أن أكون قد فارقت هذه الدنيـــا ، وحرمت نعمة النظر اليك والاعجاب بك يا حبيبي !



منـــذ أن تعقبك البوليس النمســوي وأراد أن يلقي القبض عليك ، ومنذ أن رحلت عنا الى (ميـــلانو) ، وفررت الى كوخ ذلك الفلاح المجاهد الذي أخفاك عنده .. منذ ذلك الوقت ، أي منذ شهرين ، والبوليس يبحث عنك ، ولا يكف عن تفتيش جميع البيوت في (لومبـــارديا) ، ولكن من غير جدوى !

ولقد اقتحم بيتي مرة ، واقتحم بيتك أنت ثلاث مرات . ولما يئس من العثور عليك ، ألقى القبض على شقيقك ، على « الكسندرو » ، وشرع يعذبه ليعترف !

والحق أن « الكسندرو » كان في مبـــدأ الأمر عظيمـــا . احتمل التعذيب دون أن ينطق بكلمة . كان مثـــال الشجاعة والصبر والتضحية . كان جديرا بك وخليقا بالانتساب اليك . بيد أنه لم يكد يخرج من السجن حتى تبـــدل . أثرت فيه قسوة التعذيب ، وأشاعت في خلقـــه الثابت المتين ضربا من الرخاوة والبلادة ، تطورتا شيئا فشيئا واستحالتـــا على مر

الزمن الى انانية عميقة ، شابتهـــا عوامل الخوف والجبن ، والتواكل ، والاستهتار !

أجل ، انقلب ذلك الشاب المجاهد المغامر ، من « بطل » الى انسان مسلوب الارادة والكرامة ، لا يفكر الا فى نفســه ، ولا يحرص الا على سلامته ، ولا ينشد فى هذه الحياة سوى المتعة البدنية الوضيعة ، والعرض الدنيوى الزائل !

وكان الكسندرو يحب ((الفيرا)) كما تعلم . وكان قد انفصل عنها تحت تأثيرك أنت ، وكان فى صميم نفسه يحقــد عليك ، لأنك تكرهها وتتهمها بضعف الخلق ، ونقص الوطنية ، وفســاد السيرة ، وتأبى أن تزوجــه اياها . فلما خرج من سجنه ضعيفا مستخذيا ، تواقا الى متع الحياة ، وشبه نادم على تضحيته ، ثم تلفت حواليه فلم يبصرك أمامه ، التهب حبه القديم ، فعاد الى « الفيرا » ، أشوق ما يكون اليهــا ، وأطوع ما يكون لغرائزها ، تلك الغرائز الشائنــة الجامحــة العنيفة ، التى كنت تكرهها أنت فى تلك الفتاة ، والتى طالمــا حذرت شقيقك من عواقبها !

وانقاد الكسندرو لتأثير « الفيرا » انقيادا أعمى . ولم يعد يحفل الا بها ، ولم يعد يهتم الا بارضاء غرائزها ونزواتها !

ولقــد ختم حبــه على بصره الى حد أنه كان يستخف بالأوامر التى كان يصدرها اليه « الشيخ ريناتو » الذى عينته أنت نائبا عنك ورئيسا علنيا أثناء غيبتك : بل لقد كان يروغ من تلك الأوامر ، ويعصاها ، ويحاول بكل ما أوتى من دهــاء ومكر أن يسفهها ، ليتجنب الأخطار التى يمكن أن تصيبه فيما لو أقدم على تنفيذها !

وكان الحب قد أفقده صوابه ، فعلمته ((الفــيرا)) كيف يخاتل ، وكيف ينافق ، وكيف يتهرب ، وكيف يعاقر الخمر ،

ويلعب الميسر ، وينشد المتعة ، ويستهزىء بكل مبـدا رفيع وكل جهد نبيل فى هذه الدنيا !

تجاه هذا التدهور المنكر ، حاولت أنا أن أصلح ، أن انبه ، ان احذر ! .. ولكن « السكندرو » كان يزجرنى ، ويسخر منى ، ويحتقرنى ، ويصارحنى فى وقاحة — وفى غير ما استحياء ! — بأنى اذا كنت أريد أن أربح الأوهام واخسر الحقائق ، فهو لن يقتدى أبدا بحمقاء مثلى ، ولن يبيع الواقع الحى أبدا فى سبيل خيالات وأحلام !

وتحطم كفاحى على صخرة عناده ، بل تحطم قلبى على صخرة غلظته ووقاحته ، ذلك لأنى كنت أعلم أنك تحبه ، وانك تثق فيه ، وانك ربيته كولدك ، وانك تؤمن ايمانا راسخا متأصلا عميقا بأنه صورة حية منك . بيد أن ألكسندرو لم يفهم ولم يقدر ، وأمعن فى غيـه .. حتى وقع ما لم يكن فى الحسبان : اشتد يأس البوليس النمسوى من امكان العثور عليك ، فأعلن فى الصحف عن مكافأة مالية كبيرة لمن يرشده عنك !!

ولم يكد يظهر هذا الاعلان المشئوم — الذى لابد ان تكون قد قرأته ، أو سمعت به — حتى احسست انا ان روحا جديدا قد بدأ يحتل شخصية الكسندرو ! .. وان شيئا خفيا ، شيئا فظيعا قد بدأ يتحرك على مقربة منى ، ويدب دبيبا مروعا فى كل نظرة أو اشارة تصدر من أخيك ، أو من حبيبته « الفيرا »!

وانطوى ألكسندرو على نفسه ، وشاعت الجهامة فى خلقه ، وافترسته عوامل الحيرة ، والقلق ، والتخبط ، والهم ! .. أما الفيرا فقد كنت الاحظ أنها تحثه ، وتشجعه ، وتستنهض همته ، وتدفعه الى شىء يجذبه ويستهويه ، وان كان فى الوقت نفسه يخيفه ويذعره !

وساورتني الريب والشكوك ، ولم أشأ أن أصدق ، بل لم أشأ أن أتصور .. فراقبت العاشقين جهدى ، وتجسست عليهما ما وسعتني حيلتي !

وفي ذات ليلة .. في ذات ليلة ساكنة كالغدر ، مظلمة كالخيانة ، غاشمة كالقدر ، غافلت العاشقين وهما في بيتك ، ورأيتهما يدخلان مخدعك .. فاسرعت وصعدت الى صومعة الغلال ، ثم هبطت الي الحديقة بعد لحظات ، ثم انبطحت على الأرض في الظلام الدامس ، وطفقت أزحف حتى اقتربت من نافذة المخدع ، فأرهفت أذني .. وسمعت كل شيء !

سمعت « الفيرا » تحرض شقيقك على الوشاية بك ، وتمنيه بالمكافأة المالية العظيمة التي جعلها البوليس ثمنا لرأسك ، وتزين له الحياة الآمنة الرغدة في صحبتها خارج ايطاليا ! .. ثم رأيته هو .. الكسندرو .. يضمها الى صدره في عنف ، ويقبلها قبلة طويلة محمومة ، ثم يشيعها الى الباب وهو يطيب خاطرها ويقسم لها انه سيذهب الى ادارة البوليس الليلة ، فيرشدها عنك ، ويقبض المكافأة ، ويعد العدة لتنفيذ الخطة المرسومة والرحيل عن ايطاليا !

وانصرفت الفتاة ، وظل الكسندرو واقفا بعتبة الباب يتبعها النظر ويفكر ! .. وكنت أنا قد أسرعت بالصعود الى الصومعة ، فلما اختفت الفيرا ، وعاد الكسندرو فدخل البيت، هبطت ثانية وأنا أرتجف ، ثم خارت قواي بالرغم مني ، فتباطأت لحظة وانتظرت . لا أدري لماذا انتظرت ! كنت مبهوتة . كنت مذهولة . كنت كمن فوجىء بضربة هائلة على رأسه أعمته وصرعته . لم أستطع أن أتحرك . جمدت في مكاني ، وزايلتني — من فرط ذعري — كل قدرة على العمل أو التفكير !

وفجأة ابصرت الكسندرو يرتدى معطفه ، ويلبس قبعته ، ثم يدس خنجره فى ثنايا حزامه الجلدى ويغلق أبواب البيت الداخلية ويتهيأ للخروج ! .. وكانت حركاته حاسـمة ، وخطواته ثابتة ، وروح العزم تنبعث من كيانه ، وتجلل طيفه ، وتتدفق على كرائحة متعفنة كريهة تأخذ بمخنقى . فلما رأيته يدنو من الباب الخارجى ويهم بأن يوصده خلفه ، دبت الحياة فى أعضائى كوقد النار .. فهبطت السلم مسرعة واعترضت طريقه ، وصحت به وأنا أختلج :

ـ الى أين أنت ذاهب ؟

فحملق فى مذهولا وتمتم : أنت هنا ؟

فصرخت فيه وأنا ممسكة بذراعيه ، أدفعه الى داخل البيت :

ـ لقد رأيت وسمعت كل شيء يا الكسندرو ! لن تذهب ! لن ترتكب هذه الجريمة الفظيعة ! لن أدعك تخون وطنك وتغدر بأخيك من اجل امرأة ! انه أكثر من أخ لك . انه والدك . انه زعيمك . بل هو زعيم كل مواطن حر تظلله سماء (لومبارديا) .. ولو تركتك تشى به ، وترشد عنه ، فأنا ، أنا التى أعتبر نفسى مواطنة مجاهدة قبل أن أكون امرأة ، وقبل أن أكون عاشقة ، أنا أصبح شريكتك فى الجريمة ، شريكتك فى قتل زعيم بطل ، فى وقت أرى فيه بلادى أحوج ما تكون اليه فى صراعها المرير ضد المستعمر الغاصب . فثب الى رشدك يا الكسندرو واذكر ماضيك ! لقد كنت أنت أيضا مجاهدا فذا يشق طريق العذاب متجها صوب البطولة ! فانبذ تلك المرأة واستفق ! لا تلوث شرفك ومجد أخيك ! لا تقض على زعيمنا ، والا هدمت صرحا شاهقا من صروح جهادنا ، وأخرت تحرير بلادك ، وكنت حليف المستعمر الغاصب على وطنك التاعس المسكين !

وانحنيت على يديه ، وشرعت أقبلهما وأنا أتوسل اليه وأبكى . ولكنه كان جاحدا ، كان تائها ، كان كأنه يفكر فى كلامى ويفكر فى « الفيرا » . وبغتة قطب حاجبيه وضم شفتيه ، فخيل الى أنه يجاهد ليتغلب على نزعة الشر المتمكنة من نفسه . غير أنه أرسل غمغمة طويلة ، ثم مد ذراعيه المتشنجتين ، وقبل أن أتنبه ، انقض على ، وانشب أصابعه فى عنقى ، فارتعدت فرائصى ، ولمحت نية القتل فى عينيه .. **فاستجمعت قواى ودفعته عنى ، فثارت ثائرته ، وتشبث بى .. فعضضت على يده بأسنانى ، فطاش صوابه ولطمنى ، ثم عاد فقبض على عنقى .. فغافلته وأنا أكافح ، وانتزعت خنجره من بين ثنايا حزامه الجلدى ، ثم أغمدته فى صدره وأنا لا أعى !**

وانهار مضرجا بدمه أمام عينى .. فلم أكترث ، ولم ارتجف ، وألقيت الخنجر بجوار الجثة ، وانطلقت أعدو فى اتجاه بيتى !

وكانت القرية راقدة ساكنة . وكان الشارع الضيق ميتا هامدا ، لا يسمع فيه غير حفيف الشجر الجاثم فى غير مبالاة على حافة الجدول . فتلفت حولى ، فلم ابصر أحدا ، فأبرقت أساريرى على الرغم منى ، ودخلت بيتى ، وأنا ازفر وألهث !

ولم يفكر أحد فى أتهامى . لم تحم حولى أية شبهة . مثلت دورى على أكمل وجه ، فبكيت القتيل ، ولعنت المجرم ، وظهرت بمظهر الفتاة التى سحقها الألم والحزن ، فخدعت الجميع .. حتى « الفيرا » !

خدعتهم ولكنى لم أستطع ـ وا أسفاه ! ـ ان أخدع نفسى .. كما لم أستطع أن أفكر ان فى وسعى أن أخدعك أنت أيضا يا حبيبى : **لقد قتلت أخاك ! قتلت أقرب الناس اليك ، وأحبهم الى قلبك ، وأعزهم على نفسك .. أجل ، قتلته من أجل غرض عظيم . قتلته انقاذا لمبدئك ، وحرصا على جهادك ، وابقاء على**

عملك ، وذودا عن عبقريتك ، ودفاعا عن حركة التحرير المقدسة التي لا غنى لها عن زعامتك ! قتلت أخاك لا من أجلك ، بوصفك خطيبي وحبيبي ، بل من أجلك بوصفك زعيم لومبارديا . قتلته من أجل الزعيم ، ومع ذلك فالحقيقة لا تحجب الواقع المروع . فالواقع المروع هو أنى قتلت أخاك . طعنتك فى شغاف قلبك . مزقت لحمك ودمك ! فكيف ، كيف استطيع بعد الآن أن أحبك وانشد حبك ، وأصبح فى يوم من الأيام زوجتك ، وجثة شقيقك بيننا ، وطيفه يحلق علينا ، ودمه يصبغ ماضينا ، ويسمم فى المستقبل حبنا وحياتنا ؟ قد تقول فى نفسك : « انها كاذبة ومنافقة . لقد قتلت الخائن ، لا عن وطنية بل عن حب . قتلته لا لتنقذ حياة الزعيم بل لتنقذ حياة حبيبها ومعشوقها ! » . . وهكذا تطعنني فى صميم وطنيتى ، فيزداد حقدك على ، وكرهك لى !

هذه الأفكار جميعا طافت بذهنى ، واستبدت بخيالي ، فشعرت أن عقلى يوشك أن يفلت منى ، وأن الجنون يتربص بى ويقف لى بالمرصاد . .

فماذا فعلت لأنقذ نفسى وانقذك منى ، واثبت وطنيتى ، وأؤكد انى لم اقتل المجرم من أجل غرض شخصى ، بل من أجل غرض عظيم ؟ فكرت فى التضحية بنفسى . فكرت فى الانتحار !

ولكنى عدت فثبت الى رشدى ، وقلت أن الانتحار هزيمة فاضحة ، وانه لن يبرئنى ، ولن يكشف عن حقيقة نيتى ، ولن يعزز شعور الوطنية الذى كان يملأ ساعة القتل صدرى . واذن فلابد لى من عمل خارق يودى بحياتى ، وينقذنى ، ويؤكد فى الوقت نفسه صدق وطنيتى .

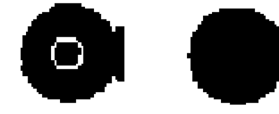
أجل . أردت أن أموت لأجنبك فظاعة قربى ، واجبرك على الايمان بخالص وطنيتى . فحزمت أمرى وقررت !

وكنت أعلم أن نائبك الشيخ ريناتو قد أصـدر أمره الى احد الفدائيين من اخواننا بأن ينطلق تحت جنح الظـلام الى معسكر الفرقة النمسوية ، وأن يلقى قنبلة يدوية على خيمـة قائد الفرقة ومساعديه . وكنت أعلم أن من اليسير على ذلك الفدائى البطل أن يتزيى بزى أعدائنا ويؤدى مهمتـه . ولكنى كنت أعلم أيضا أنه لابد أن يقتل أثنـاء العودة برصـاص « ديدبانات » الليل . فأسرعت من فورى ، وذهبت الى النائب الشيخ ، وقصصت عليه قصتى ، وطلبت اليه ــ وانا التمس واتوسل ــ أن يمنحنى شرف القيام بتلك المهمة ، وأن احل محل الفدائى البطل .

واضطرب الشيخ وبهت . ولكنه بعد أن فكر مليا ، أبى أن يجيبنى الى سؤالى ، وقال لى : « هذه المسألة من شـأن الزعيم « اتيليو » . انه خطيبك ، وهو وحده الذى فى وسعه أن يقرر مصيرك ، فاكتبى اليه واستأذنيه ، فان اذن لك أطعته انا وعاونتك على تنفيذ أمره ! »

وتركت الشيخ ثائرة مهتاجة وعدت الى دارى ، ثم شرعت اكتب اليك هذا الخطاب ، هذا الخطاب الذى لا مفر من أن يكون خطاب وداعى . فاسمع الآن يا حبيبى . لابد . . لابد أن تجيبنى انت الى سؤالى ، ولابد أن تعهد الى بتلك المهمـة العظيمة التى فيها خلاصك ومجدى ! **واعلم انك اذا رفضت ، رحمة بى وابقاء على حياتى ، فسأقضى انا بنفسى على نفسى ، وتكون انت قد دفعتنى الى موت حقير وضيع ، لا يبرئك امام ضميرك ، ولا يشرفنى ! فلا تدعنى أنتحر وأمت رخيصـة ، وانقذنى ! هب لى هذه السـعادة اذا كنت ما تزال تحبنى !** وثق انى سأموت مطمئنة القلب ، ناعمة البال ، متى أيقنت أن حكمك قد انقذك وانقذنى ، وأن حبك قد حفظ على كرامتى ، وآمن ايمانا مطلقا بصدق وطنيتى وجهادى .

أقبلك من صميم فؤادى . أقبلك وأنا لا أريد أن أضعف وأتمزق وأبكى . فاياك أن تضعف أنت وترحمنى .. فالرحمة الحقيقية هى أن تصدر على حكما بالبطولة لا حكما بالتراجع والجبن والشقاء . أنا فى انتظار كلمتك المنقذة . والوداع ! »



وصل أحد المجاهدين رسالة « جوليانا » الى الزعيم اتيليو . وبعد ثلاثة أيام عاد الى الفتاة بهذا الرد الموجز :

« أحبك يا جوليانا ولن أعرف بعدك امرأة ! أنت بالعقل والقلب والروح زوجتى الى الأبد يا جوليانا . انك لم تقتلى اخى بل قتلت مجرما . ومع ذلك فأنا أقول لك اذهبى وأدى مهمتك . واذا كنت أحطم اليوم قلبى وأضحى بك ، فأنا انما أضحى بك من فرط حبى لك ، واشفاقى عليك من حيـــاة تقضينها فى صحبتى ، بينما ضميرك يمزقك ويأبى عليك الا أن تعتبرى ذلك المجرم النذل اخى ! أنا نفسى وضعت رأسى على كفى ، وقد أموت اليوم أو غدا ، وألحق بك ! فلا مفر لى من أن أنزل على حكم ارادتك يا جوليانا ، وأنا أقبلك عن بعـــد وأتقطع . فالوداع يا حبيبتى .. أما « الفيرا » فقد أصدرت أمرى بشأنها ! » .

وبعد بضعة أيام ، وجد القرويون ((الفيرا)) مقتولة وملقاة فى أحد الحقول . أما جوليانا فقد تسللت تحت جنح الظلام ، وقامت بمهمتها على خير وجه ، فألقت القنبلة وأصابت قائد الفرقة ومساعديه .. ولكنها بعد ذلك لم تعد !



SEXUAL LIFE IN ANCIENT GREECE

BY : HANS LICHT

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

دراسة الجنس عند اهل اليونان القديمة

لكى تفهم حضارة قوم ما ، وتصل الى قيمتها ، لا بد لك من ان تلم بحياتهم الجنسية ، وبما للجنس من ٱثار فى الدين ، والادب .. فى الدولة وفى المجتمع .. فى كافة نواحى الحياة ..

وايمانا بهـذه النظرية ، درس البروفيسور « هانز ليشت » الحياة الجنسية لدى الاغريق ــ اهل اليونان القديمة ــ ليستطيع ان يفهم حضارتهم ، التى اخذ منها الغرب الحديث كثيرا من اصول حضارته ..

وقد قدمنا لك ــ فى العدد الماضى من « كتابى » ــ الحلقـة الاولى من الدراسة العلمية الرائعة ، التى اجراها البروفيســور « ليشت » .. وعلى الصفحات التالية ، نقدم لك حلقة ثانية ، آملين ان نتبعها بحلقات اخرى فى الاعداد التالية ..

اختبار العفة .. وعقاب الزانى والزانية !

● كان « الحريم » مملكة الزوجة عند الاغريق .. ولكن الرجال كانوا ينعمون بحرية واســعة النطاق ، فى حين أن المرأة كانت شبه حبيسة فى دارها ، وللزوج أن يطلقها اذا هى بارحت الدار دون أذن منه ..

ويصور الكاتب القصصى « اخيلس تاتيوس » ــ فى القرن الخامس بعد الميـلاد ــ ما يسمونه « اختبــار عفة الفتـــاة العذراء » .. فيقول انه كان فى (أفسس) كهف كرسه الاله « بان » للعذراء « أرتيمس » ، وعلق فيــه مزماره ، وحــرم دخوله الا على العــذارى الطاهرات . **فاذا حامت الشبهات**

حول فتاة ، حبست فى الكهف .. وكانت الأنغام تنبعث من المزمار عالية ، أذا كانت الفتــاة طاهرة الذيل ، وعندئذ تفتح ابواب الكهف تلقائيا لها لتخرج .. أما اذا كانت الفتــاة قد فقدت بكارتها ، فان المزمار يظل صامتا ، ولا يلبث أن ينبعث من الكهف انين ، ثم تفتح الأبواب .. فاذا الفتاة قد اختفت !

ويقول « بلوتارخ » ان المجتمع الاسبرطى لم يكن يضم زانيا أو زانية .. ولكنه ـ فى حديث آخر ـ يقول أن الزوج الاسبرطى ما كان ليحجم عن أن ينزل عن زوجتـــه لرجل آخر ، اذا وجده أصلح منه واقدر على انجاب النسل !

وفى أثينا ، لم يكن من الغريب على الزوج أن يقتل أى رجل يسطو على عرضه ، كما كان القانون يقضى بقتل الزانى . وكان الذى يغوى فتاة لا غبار على خلقها ، يلقى أقسى ألوان العقاب .. أما الفتاة التى تفرط فى عرضها دون زواج ، فكان أبوها يحبسها مع حصان ، فى بيت معين ـ بمعزل عن المدينة ـ كان يعرف باسم « بيت الحصان » .. **وتظل الفتاة والحصان حبيسين ، حتى تموت الفتاة جوعا ، أو ينقلب الحصان الى وحش ـ تحت وطأة الجوع ـ فينهشها !**

((راكبة البغل)) .. ((ومدبرو الفرص)) !

● **ويضيف** « آيخين » الى هــذا ، أن الزوجة الخائنة كانت تحرم من كل زينة ، وتمنــع من زيارة المعابد ، حتى لا تفسد غيرها من النساء .. فاذا وضعت أية زينة ، كان من حق أول رجل يصـــادفها ، أن يمزق عنها ثيابها ، وأن يستولى على حليها ، وأن يضربها بشرط الا يقتلها أو يصيبها بعاهة تقعدها . أما اذا وجه الاتهام علنا الى اثنين بارتكاب الزنا ، فيحاكمان ، واذا أدينا عوقبا حتى الموت .

ويروى « بلوتارخ » أن الزانية فى (سيمه) كانت تجر الى السوق ، وتعرض عارية للجميع ، ثم توضع على بغــل

يطوف بها المدينة ، وتوضع بعد ذلك على حجر معين ، نهبا للأبصار .. وتدمغ بلقب « راكبة البغل » !

وكان الطريق الى الخيانة الزوجية ، أو الزنا عامة ، يمهد بوساطة الخادمات والوصيفات ، طمعا فى المال .. وكن يحملن الرسائل والهدايا ، ويدبرن الاجتماع فى الخفاء .. وقد وصف « أوفيد » ، فى كتابه « فن الحب » ــ الذى قدمه اليك « كتابى » فى عدده (٢٨) ــ كيف أن وصيفة « فيدرا » ، استعملت كل الحيل والدهاء لاستمالة « هيبوليتاس » ــ ابن زوج فيدرا ــ عندما شغفت مولاتها حبا به !

على أن الخادمات والوصيفات لم يستأثرن بهذا المجال ، بل قامت طائفة خاصة ــ أطلق عليها اسم « مدبرى الفرص » ــ بتهيئة الحب ، لقاء أجر . ويصف لنا « هيرونداس » ــ فى القرن الثالث قبل الميلاد ــ صورة من نشاط هذه الطائفة ، عندما كانت زوجة تدعى « ميتريخ » تجلس مع وصيفتها ، عاكفة على التطريز ، وهى مشغولة البال لأن زوجها « مندريس » رحل الى مصر ــ قبل عشرة شهور ــ ولم يعد .. وفجأة ، تدوى طرقات على الباب ، فتقفز الزوجة فرحة ، اذ تظن أن زوجها عاد ، واذا بها أمام « قوادة » عجوز ، تدعى « جيليس » .. ويدور بينهما حوار ، نقتطف منه ما يلى :

ميتريخ : ما الذى أغراك بزيارتى ، وقد مضت خمسة أشهر منذ رآك أحد ببابى ؟

جيليس : ان الشيخوخة تقعدنى ، والموت يقترب منى . ولكن ، لا بد أن حياتك موحشة يا ابنتى ، وأنت تأوين الى مخدعك وحيدة .. **لا بد أن « مندريس » قد نسيك ، ونهل ــ من جديد ــ من كأس الحب . ففى مصر بيت أفروديت ، وفيها الثراء ، والنفوذ ، والسلام ، والمجد ، والربات ،**

والفلاسفة ، والمحظيات .. ما رأيك فى أن تدفئى مخدعك ؟.. انك ستذوين بعيداً عن الأعين ، وستفنى يد البلى جمالك الناضج . الا غيرى مسلكك يومين أو ثلاثة ، واسعدى مع صاحب آخر .. فلا أحد يدرى الى متى يدوم الشباب !

وتعرض عليها صحبة شاب ، تمضى فى تعداد أمجاده ، ووصف محاسنه ..

ميتريخ : ان الشيب يطفىء ذكاءك . ما كنت لأصغى لكلمات كهذه من امرأة غيرك ، بحق ما يداخلنى من أمل فى أن أرى « مندريس » يعود سالما ..

جيليس : ما جئت بنية اغرائك على الفساد ، انما جئت أحدثك عن حفلة .. فليرافقك الحظ . حافظى على نفسك !

« الجرسونييرات » ، وزواج التجربة ، عند الاغريق !

● **وفى** هذا المثال ، أخفقت « القوادة » ، اذ أن « ميتريخ » كانت واعية بطرقها فى التسلل خلال نقاط الضعف فى نفس المرأة الوحيدة .. ولكن ما أورده المؤلفون القدامى عن « أوكار الهوى » ، ينم عن أن السعى للجمع بين العشاق كان مهنة رائجة .. كذلك كان من المألوف أن يعير صديق صديقه داره ليأوى اليها فى لقاءات الحب الآثم .

ولم يكن نادراً أن يعلم زوج بغراميات زوجته ويتغاضى عنها ، وقد يتقبلها كمورد لكسب مادى . على انه كان الزوجة ـ التى تأبى أن يتكسب زوجها من بدنها ـ أن تطلب الطلاق منه !

وكانت هناك أسباب أخرى للطلاق : منها عدم التوافق فى الطباع ، ومنها العقم ، اذ كان الاغريق يرون أن الغاية الأولى للزواج هى انجاب النسل .. وروى عن « كريتس » انه قدم ابنته لتكون زوجة لمدة ثلاثين يوما ، « على سبيل التجربة » ، فان انجبت استمر الزواج ، وان لم تنجب فسخ!

النساء يضربن الرجال لحملهم على الزواج !

● على أن كل ما قيل عن الزواج عند الاغريق ـ حتى الآن ـ ليس سوى محاولة لتكوين صورة عامة ، من خلال فقرات متناثرة فيما كتبه مؤلفوهم ، تصلح أساسا لدراسة الزواج ، ومعرفة وضع الزوجة ، فى الحضارة الاغريقية . ومن أغنى المصادر فى هذا الصدد كتاب « مأدبة العلماء » ، الذى وضعه ـ فى ١٥ جزءا ـ الفيلسوف السكندرى المصرى « اثينايوس » ، فى عهد الامبراطور الرومانى « ماركوس أوريليوس » . وقد جمعت تلك المأدبة ٢٩ من خيرة المثقفين الرومان ـ فى كافة فروع العلم ـ وتناولت مناقشاتهم كافة نواحى الحياة . وفى بداية الجزء الثالث عشر ، ورد الحديث عن الزواج ، وجاء فى سياقه : **« كان من عادة الاسبرطيين أن يحبسوا الفتيات ـ اللاتى فى سن الزواج ـ فى حجرة مظلمة ، ومعهن الشبان غير المتزوجين . وكان كل شاب ينطلق بالفتاة التى يصل اليها فى الظلام ، ليتزوجها دون صداق أو دوطة » ! كذلك قيل ان النساء كن ـ فى عيد معين ـ يسقن الرجال غير المتزوجين الى مذابح المعابد ، وهن يضربنهم بقضبان ، حتى يقبلوا على الحب والزواج ، تفاديا للفضائح !**

وكان تعدد الزوجات معروفا فى (اثينا) ، فى بعض مراحل تاريخها ، ويقال أن « سقراط » كان متزوجا من اثنتين ، أحداهما « اكسانتيب » ـ التى اقترن اسمها بسيرته ـ والأخرى كانت تدعى « ميرتو » . . كما أن الرجل كان يقتنى ـ الى جانب زوجته ـ المحظيات . . وقد عاب « ثيرساتيس » على « أجا ممنون » ـ فى « الالياذة » ـ كثرة زوجاته وجواريه ، ووصف « ارسطوطاليس » هؤلاء الجوارى بأنهن لم يكن سوى « منحة شرف » للبطل . . وعرف عن « هرقليس » انه كان أكثر رجال عصره نساء ، ولكنه لم يكن

يعاشر أكثر من واحدة ، فى المرة الواحدة .. وذلك أثنــاء أسفاره وحملاته العديدة .

كذلك كان الشــاعر «يوريبيدس» من المولعين بكثرة النساء . ولقد قيل مرة لسوفوكليس أن « يوريبيدس » عدو المرأة ، فقــال : « انه كذلك فى تراجيــدياته فقط .. أما فى الفراش ، فهو مشغوف بالنساء » !

الزوجات فى أدب الفكاهة الاغريقى !

● **والأدب الاغريقى** حافل بالسخرية من الزوجات .. فيقول الكاتب المسرحى الهزلى « اليكسيس » ، فى احدى تمثيليــاته : « ما أشقانا ــ معشر الرجال ــ اذ بعنا حريتنــا فى العيش والرفاهية ، لنصبح عبيداً لزوجاتنا » !.. **ويحسد « اكسينارخوس » الجراد على اناثه ، لأنها خلقت بلا صوت ، ومن ثم فان ذكور الجراد فى راحة من ثرثرة زوجاتهم !.. أما « اريستوفون » فيقــول ان الرجل الذى يتزوج مرة معذور ، اما الذى يتزوج للمرة الثانية ، فلا عذر له فيما يلقى من عنــاء** !.. ويقول « أنتيفانيس » عن أحد الأشخاص : « أصحيح أنه تزوج ؟.. كيف وقد كان بالأمس يمشى على قدميه ؟ » !.. بينما يقول « يوريبيدس » ، ان دفن المرأة خير من الزواج منها !

ويروى عن « اريستوفانيس » قوله : « ليس ثمة وحش عات ، لا ســبيل للتغلب عليــه ، يفوق المرأة .. وما من نار أو نمر كاسر يضارع المرأة فى عدوانها ، دون تورع » !.. وقد ساق فى تمثيلياته على ألسن النساء كثيرا من آرائه التى تحط من قدر المرأة .. فهو يصفها بالفجور ، والخيانة ، والطغيان .. ويدعو الى حبسها خلف أبواب محكمة الاغلاق !

وفى قصيدة ساخرة ، نظمها « سيمونيدس » ــ فى القرن السابع قبل الميلاد ــ نجد الشاعر يقول ان تسع نساء من

كل عشر ، لسن أهلا لأى اعتبار ، وذلك راجع الى أصولهن .. فالنساء — عنده — ينتسبن الى أصول عشرة : المرأة القذرة ، ويرجع أصلها الى الخنزير ، والفائقة المكر — وينسبها الشاعر الى الثعلب — والفضولية وتنتسب الى الكلب ، والغبية التى لا تحسن سوى الأكل وتنتسب الى الأرض ، والمتقلبة الأهواء وتنتسب إلى البحر ، والخاملة وينسبها الشاعر الى الحمار ، والحقود وينسبها الى القط ، والتى لا هم لها سوى الثياب والزينة وينسبها الى الحصان ، والقبيحة الشكل وينسبها الى القرد !

أما المرأة العاشرة — الوحيدة الجديرة بالثناء — فتنتسب الى النحلة ، وهى أصلح النساء لأن تكون زوجة ، فهى ربة بيت نشيطة ، وأم يقظة شديدة العناية .. والمرأة من هذا الصنف تعيش مع زوجها ما امتدت حياتهما ، وتنجب له سلالة تمتاز بالجمال والتفوق .

فلسفة الملابس عند الاغريق

● اذا كان منشأ الثياب فى فجر التاريخ راجعا الى الرغبة فى اتقاء تقلبات البرد ، فان الملبس لم يلبث أن ارتبط بالرغبة فى ستر بعض أعضاء الجسم — حياء واحتشاما — وبالميل الى التزين وابراز بعض مفاتن الجسد .. وقد أصبح هذا الميل — فى عصرنا — هو أهم ما يهدف اليه الكساء ، أما الرغبة فى ستر بعض الأجزاء ، فهى متقلبة متغيرة ، تبعا لتقدم الثقافة ولتطور مفهوم الحياء والاحتشام !

ولم تكن ثياب الصبى — عند الاغريق — تهدف الى اظهار جمال الجسم ، اذ كان الزى الوحيد له حتى مرحلة البلوغ (فى السادسة عشرة من العمر عادة) ، عبارة عن مئزر يربط الى الكتف اليمنى ، أو يثبت على الصدر ، وينسدل حول الجسم . وكان هذا الزى يمتدح لأنه يكسب الولد خشونة

وقوة ، نتيجة لبساطته ، ولأنه يعوده مواجهة تقلبات الجو ..

وهنا قد يتردد سؤال : لماذا لم يعن الافريق بلباس الصبى ، وهم الذين كانوا يطرون جمال الصبيان ؟.. الواقع أن السبب قد يرجع الى أن الصبى كان يقضى ثلاثة أرباع يومه عاريا تماما ، فى الحمامات والملاعب ومدارس المصارعة وأماكن السباحة ..

أما زى الرجال ، فكان فى الغالب يتألف من قميص داخلى من الصوف أو الكتان ، ووشاح يتمثل فى قطعة مستطيلة من القماش ، تلقى على الكتف اليسرى ، ويوضع طرف منها تحت الابط ، بينما تشد من الطرف الآخر حول الظهر نحو الكتف اليمنى ، أو تحت الابط اليمنى ، ثم يرفع طرفها المشدود الى الكتف اليسرى ثانية ، عبر الصدر . وكانت طريقة الرجل فى ارتداء هذا الوشاح ، تعتبر مقياسا لثقافته العامة . وفى الجو المعتدل كان الكثيرون يكتفون بالقميص ، ويطرحون عنهم الوشاح ، كما كانت عادة الفيلسوف « سقراط » ، وملك اسبرطة « اجيسلاوس » ، وحاكم سيراكيوز « جيلون » وكان الساخرون يطلقون على نابذى الوشاح لقب « جينموس » ، أى العارى !

وكان قميص الرجال يصل الى الركبتين ، أو يتجاوزهما قليلا .. فاذا زاد طوله ، أعتبر مظهرا للبذخ والزهو ، كما كان عند « السيبيادبس » . أما اذا انتهى القميص فوق الركبتين ، فكان يعتبر مظهرا للوقاحة وعدم الحياء ، لا سيما أن القميص القصير ينحسر عند الجلوس ، فيكشف الفخذين ، مما كان يعتبر مجونا وسوء أدب !

المرأة .. بين « الديكولتيه » ، والقميص السابغ !

● ومن الحقائق الطريفة ، أن البذخ والاناقة لم يلازما ابتكار الأزياء النسوية لدى الافريق ، الا فى فترة « الحضارة

الايجية » ، السابقة على التاريخ الاغريقى المعروف .. وبفضل بعض تماثيل وآثار آلت الينا من قصر « كنوسس » الكريتى ، نتبين أن نساء الطبقة الراقية والبلاط الملكى كن — فى النصف الأول من الألف سنة الثانية قبل مولد المسيح — يرتدين من الخصر حتى القدمين « جونلة » تتألف من عدة طبقات بعضها فوق بعض ، بحيث تبدو كأنها عدة « جونلات » . أما النصف الأعلى من الجسم ، فكان يغطى بزى محكم الالتصاق حول الكتفين والبطن ، يشبه « الجاكيت » وله اثنان من الأكمام . ولكن الثديين كانا يبرزان من صدر هذه « الجاكيت » عاريين تماما ، كتفاحتين شهيتين تبتسمان للنظارة !!.. **وبوجه عام ، فان « فن » الكشف عن العنق والنحر والكتفين لم يكن مجهولا لدى المرأة الاغريقيــة ! وقد بدأته نســاء (كريت) .. على انه لم يلبث أن تضاءل وتلاشى مع تطور المدنية الاغريقية ، ومع توارى المرأة عن المجتمعات والحياة العامة ..**

على أن هذا لم يمنع من أن تشيع بين النساء — من آن الى آخر — بعض أشكال « الديكولتيه » التى تكشف عن جزء من العنق .. كما انتشرت بينهن — فى بعض الفترات — أزياء تغطى الجزء الأعلى من الجسم تماما ، ولكنها كانت تصنع من أقمشة شديدة الشفافية ، حتى لتكشف عما تحتهــا بشكل أكثر اغراء من العرى !

وبعد العهد « الايجى » ، اتخذ الزى النسوى الاغريقى شكلا موحدا نسبيا ، يتمثــل فى قميص يلبس على الجسد العارى ، ويصل الى الركبتين أو ما تحتهما . **ولم يشذ عن الاجماع على هذا الزى سوى اناث (اسبرطة) ، فكان القميص عندهن يعلو على الركبتين ، ويشق من الجانبين — من الركبة حتى قرب الخصر — ليسهل الحركة عند المشى .. وكان بقيــة أهل اليــونان يستهجنون هــذا القميص الاسبرطى ، ويسمون لابساته « عاريات الأفخاذ » !**

وكان القميص وحده يلبس فى داخل البيوت .. فاذا غادرت المرأة الاغريقية بيتها ، ارتدت فوقه وشاحا لم يكن يختلف كثيرا عن وشاح الرجل ، اللهم الا فى بعض لمسات انثوية ، تتباين بتباين الزمن والوسط .

لا جديد تحت الشمس .. فى اناقة المرأة !

● **وكان** للنطاق (الحزام) الذى يحيط بالردفين ، معنى جنسى ، فهو رمز العذرية . ولم تكن المرأة الاغريقية على علم بالمشدات أو « الكورسيه » ، ولكنها كانت تعرف حمالات الثديين ، التى تشبه « السوتيان » ، وكانت تستخدم لتحول دون ظهور الثديين مترهلين أو متهدلين ، ولتكويرهما واخفاء اى عيب فيهما ، فى الوقت ذاته .. وفيما عدا ذلك ، لم تكن ربة البيت ترتدى شيئا آخر . أما نساء المجتمع ـ الرفيقات او النديمات ـ فكن يستعملن بعض أشياء اضافية للتجميل : **مثل رباط يلف حول البطن ليخفى الترهل او ليخلص صاحبته من حمل حديث العهد .. ومثل طبقات من الفلين تلصقها المرأة القصيرة بنعليها .. ومثل بعض الحواشى التى تستعملها المرأة النحيلة لتبدو ذات ردفين مغريين !**

وكانت ثياب المرأة تصنع ـ فى الغالب ـ من التيل او الكتان . وكان ثمة نوع من الكتان الرفيع ينبت فى جزيرة (امورجوس) . وقد برع أهالى جزيرة (كوس) فى صنع نسيج من الحرير ينافس نسيج العنكبوت فى رقته وخفته ، وكانت الوانه فى نضارة ألوان المروج .. وقد انتقد الفيلسوف « سينيكا » الثياب المصنوعة من أمثال هذا النسيج ، قائلا : « أرى ثيابا حريرية ـ ان صح أن تسمى ثيابا ـ تكسى بها الأجسام او الأجزاء الواجب اخفاؤها منها ، ليجوز للمرأة التى ترتديها أن تقسم ـ وهى مرتاحة الضمير ـ بأنها ليست عارية .. وتستورد هذه الثياب بنفقات باهظة ، من بلاد بعيدة ،

لكى لا يبقى للنساء ما يكشفنه لعشاقهن فى المخادع ، فوق ما يراه هؤلاء العشاق فى العلانية » !

العرى لم يكن عيبا بالمعنى الجنسى !

● وبغض النظر عن الثياب التى لا تكاد تحجب شيئا من خفايا الجسم ، فان الرأى الذى تجمع عليه المراجع هو أن العرى كان شائعا عند الاغريق . ولكن شيوعه كان نسبيا ، ولم يكن مطلقا . . اذ كان الاغريق يكشفون أجسامهم عارية فى الملاعب الرياضية ، والألعاب القومية فى (أوليمبيا) ، وفى مباريات الجمال ، وفى معبد (سيريس) فى (أركاديا) ، وفى حلبات المصارعة بين الصبية والصبايا فى (اسبرطه) و (كرينت) وغيرهما ، وفى معبد فينوس بكورينثه ، وفى بعض الرقصات فى مآدب العظماء . .

ومما ورد فى كتابات الاغريق يشعر المرء بأن العرى لم يكن عيبا أو نقيصة عندهم ، فى أية ظروف . ولكن البحث الدقيق يبين أن من الخطأ أن نأخذ هذا الرأى على أنه حكم عام صحيح ، بل ان « افلاطون » و « هيرودوتس » نفيا تحبيذه بين الاغريق ، وحاول « هيرودوتس » أن ينسبه الى « غير الاغريق » ممن كانوا يقيمون فى بلاد اليونان ، مثل الفينيقيين . ولقد كانت العادة فى الألعاب الأوليمبية القومية ـ قديما ـ أن يظهر المرء عاريا الا من كساء حول ردفيه . ومع ذلك فلسنا نملك أن نعد هذا الكساء راجعا الى أسباب « خلقية » ، اذ أننا نجد فى آثار الكتاب ما يوحى بأنه تقليد نشأ عن تأثر برأى أخذه الاغريق عن الشرق ، فى العهود الأولى من تاريخهم ! . . ولقد آثر الاغريق أن يتحرروا من هذا الرأى ، وسمحوا للمتسابقين فى الجرى مثلا بأن ينطلقوا فى عرى كامل !

وقد نجم عن ذلك ، أن بدأ ذوو الأجسام السليمة يرون أن ترك الجسم عاريا ـ فيما عدا الأجزاء الجنسية منه ـ أمر غير طبيعى ، وأن ستر هذه الأجزاء يوحى بأن وظائفها أقل قيمة وأحط قدرا من سواها من أجزاء الجسم ، فى حين أن **الاغريق كانوا ينظرون الى أعضـــاء التناسل نظـرة اجلال وتقديس ، بوصفها أدوات التكاثر وحفظ العنصر الانسانى ، وبوصفها رمز للطبيعة ورسالة الاثمار والانتاج المستمرين .** ومن ثم فانهم كانوا يصفونها بأنها « الأعضـاء المكنونة » ، وليست الأعضاء الداعية للأستحياء أو العار !.. بل أن عضو التذكير اكتسب لديهم طابعا دينيا ، فكانوا يتعبدون اليه فى مختلف أشـكاله ، وأشهرها القرن الذى كان يصـنع ـ فى الغالب ـ من خشب شجر التين !

كانت الملاعب ملتقى الفلاسفة وعشاق الجمال

● **ومن** كل هذا نستطيع أن ندرك ما كان يدعوهم الى ممارسة الألعـاب الرياضـــية وهم عراة .. بل أن كلمة « جيمنازيون » Gymnasion اشتقت من Gumnos أى العرى . وعنها أخذت اللغة اللاتينية كلمة Gymnasium ، مع شىء من التحريف فى تحليل المعنى .. اذ أن الكلمة الأصلية كانت تعنى مكانا يتألف من فراغ طوله حوالى ٣٦ مترا ، يحاط من ثلاث جهات بأعمـدة . وبين صفين من الأعمدة فى الناحيـة الجنوبية منه ، توجد مساحة يمارس فيهـا الرياضة أولئك الذين بلغوا سن الرشد ، وحان أن يصبحوا مواطنين مستقلين .. وكانت سن الرشد فى (اثينا) حوالى الثامنة عشرة . وكانت تحيط بالملعب حمامات وقاعات وأبهاء ، يؤمها الفلاسفة والخطباء والشعراء وكافة أنصار « جمال الرجولة » ، تزدان بتحف فنيـــة ، لا سيما تماثيل « هرمز » و « هرقل » و « ايروس » .. وكذلك تماثيل الحوريات . وهكذا كانوا

يضيفون تأمل الجمال الفنى ، الى التمرينات التى تكسب الصبية والفتيان والرجال تناسق الأعضاء ، وجمال الجسم بوجه عام .. وكانت الملاعب ــ التى يجرون فيها هذه التدريبات ــ أماكن للقاء أهل الفكر والفن ، يقضون فيها الوقت فى حديث وراحة ، بين مشاهد أرقى آيات الجمال .

وتجمع كل المصادر على أن الاغريق كانوا يحرصون على أن تخلو هذه الأماكن من النساء ، فلم يكن مسموحا لأية أنثى أن تضع قدما فيها .. بل لم يكن مسموحا للاناث بمشاهدة الحفلات الشعبية للمباريات الرياضية . فاذا جرؤت امرأة على أن تتسلل بين النظارة ــ فى الألعاب الأوليمبية ــ واكتشف أمرها ، اقدم الرجال على القائها من فوق صخرة (تيبايوم) الشاهقة ، فى جبل (الأوليمب) . ولم تعف من هذا المصير سوى امرأة واحدة ، هى أم البطل « بيسيرودوس » اذ دفعتها عاطفة الأمومة الطاغية الى أن تسعى لمشاهدة تفوق ابنها ، فتنكرت فى زى « مدرب » رياضى .. ولكن أمرها انكشف وهى تقفز الحواجز ــ التى كانت تفصل المدربين عن المتبارين ــ لتهنىء ابنها بالفوز . ولم ينجها من العقاب سوى أن أسرتها كانت قد أنجبت عددا كبيرا من الأبطال الأوليمبيين .. ولكن عملها أدى الى اشتراط العرى التام للمدربين الذين يحضرون المباريات ، فيما بعد !

مشاهدة جمال الرجال .. وقف على العذارى !

● على أن اقصاء المرأة عن الملاعب لم يكن متبعا بهذا التشدد فى جميع ارجاء الامبراطورية الاغريقية .. ففى (سيرين) ، المستعمرة الاغريقية فى افريقيا ــ وتعرف الآن باسم (شحات) ، فى منطقة الجبل الأخضر ببرقة ، بالجمهورية الليبية ــ كان مباحا للنساء حضور المباريات الرياضية !.. بل أن المؤلف « باوسانياس » ذكر أن راهبة معبد « ديميتر »

كانت تستمتع بمقعد دائم لمشاهدة المباريات الأوليمبية . كما ذكر هذا المؤلف أن الفتيات غير المتزوجات كن يشهدن المباريات .. **أما السبب في تحريم المشاهدة على المتزوجات ، واباحتها للعذارى ، فقد حير الدارسين القدامى ، وان كان من الممكن أن نعزوه الى أن حب الاغريق للجمال ، كان يدعو الرجال أن يحيطوا أنفسهم بالعذارى ، وهم يشاهدون المباريات التى تتكشف فيها أسمى معالم جمال الرجال !**

كذلك لم تكن (اسبرطه) تعترف بالتفرقة بين الرجال والنساء فى هذا المجال ، فكان للنساء حق ممارسة الألعاب الرياضية عاريات ، مع الرجال العراة ، دون ما تفرقة جنسية .!. وكذلك كانت الحال فى جزيرة (خيوس) . ويستبعد بعض الباحثين أن يكون عرى المرأة كاملا فى مثل هذه المناسبات ، استنادا الى أن كلمة Gymnos كانت تعنى ـ الى جانب العرى ـ الاتشاح بغلالة من القماش الرقيق ، شبه الشفاف . غير أن معظم الكتاب الاغريق ـ والرومان كذلك ـ أوردوا ما يؤكد العرى التام .. فضلا عن أن « أفلاطون » طالبه بأن تحذو (أثينا) حذو (أسبرطه) فى اباحة اشتراك النساء مع الرجال فى التمرينات الرياضية وهن عاريات .. وأكد « بلوتارخ » أن ممارسة الشابات للرياضة عاريات ، على مرأى من الشباب ، كانت ناشئة عن سبب جنسى ، هو تشجيع الشبان على الزواج .

ولقد يكون من العسير أن نجزم بجواب ، اذا تساءل شخص : هل كان الاغريق يستمتعون بمشاهدة الأجسام العارية عن لذة ، أو عن ادراك فنى لما فى جمال الجسد العارى من ابداع ؟.. على أن النظرة العامة توحى بأن « اللذة » الناجمة عن مشاهدة الجسد العارى قد سمت وارتقت عن طريق الفن ، كما أن كثرة مشاهدة المرأة كانت ذات أثر كبير فى الابداع الفنى .

ماساة ملكة (ليديا) ، بين زوجها .. وصديقه !

● وقد أدى الاعجاب بالجمال الجسدى بالاغريق ، الى اقامة مباريات للجمال ، كان للفتيات فيها النصيب الأوفر . ولعلهم أخذوا هذا التقليد عن أساطيرهم الدينية التى كانت تقول أن الربات « هيرا » و « بالاس أثينا » و « أفروديت » ، اختلفن فيما بينهن حول من منهن الأكثر جمـــالا .. فلما احتكمن الى « زيوس » ، لم يشأ أن يبت فى الأمر ، ووكل الحكم الى الأمير الطروادى « باريس » !

وغنى عن الذكر أن مباريات الجمال لم تكن قاصرة على الاناث ، بل كان للذكور مباريات لجمال الأجسام كذلك . فان الاستمتاع بمشاهدة الجمال ـ عند الاغريق ـ كان أقوى من أن يتجمل للدواعى الخلقية التى نعرفها أى سلطان يحرمهم من ممارستها .. ويروى « هيرودوتس » فى هذا الصدد قصـة « كانداولس » ـ ملك ليبيا ـ الذى كان مشـــغوفا بحب زوجته ، مزهوا بجمال جسدها ، فكان يفخر به أمام الجميع . ولقد شاء أن يؤكد صدق زهوه ، فأصر على أن يتيح لصديقه « جايجس » ـ الذى كان مقربا اليه ، أثيرا بالحظوة لديه رؤية زوجتـه عارية .. فأخفـاه فى المخـدع ، بينما كانت الزوجة تتجرد من ثيابها !.. ويمضى المؤرخ فيقول ان الزوجة علمت بما دبره زوجهـا ، فلم تشـأ أن تقول شـيئا لفرط الاستحياء ، ولكنها ـ فيما بعد ـ وضعت « جايجس » أمام أحد أمرين : اما أن يقتل « كانداولس » ويظفر بها وبالمملكة ، واما أن يلقى مصرعه فورا .. وطبعا ، آثر أن يقتل صديقه وأن يخلفه فى الملك وفى الاستمتاع بالمرأة الفاتنة !

ولقد أبرز « هيبولوخوس » ـ فى وصفه لمآدب الزفاف ـ ان عازفى الناى من الذكور ، والراقصات من الاناث ، كانوا يظهرون فى هذه الحفلات عرايا ، أو فى غلالات شفافة ، لتأكيد

ما للعرى من مفعول جنسى . وكان الصبية والصبايا يستدرجون الى هذه المآدب عرايا ، ويسقون الخمر ، لبيان أثر الخمور فى ارضاء اله الحب !.. وكان « اناكسارخوس » ـ الأثير لدى الاسكندر الأكبر ـ لا يشرب الخمر الا اذا سكبته له فتاة عارية !.. والى جانب كل هذا ، لا يفوتنا أن نذكر ـ وان لم تكن ثمة حاجة الى اسهاب ـ ان العرى كان بين الطقوس التى تتضمنها عبادة الآلهة ، عند الاغريق .

العذارى يدلكن جسم الضيف اكراما له !

(*) ولقد اورد هوميروس فى « الاوديسه » أن تقاليد الضيافة عند الاغريق كانت تتضمن أن يساق الضيف الى حمام ساخن ، تقوم على خدمته فيه فتيات يسكبن له الماء الدافىء ، ويدلكن جسمه بالزيوت والعطور .. وقد رؤى ـ فيما بعد ـ أن الغلمان أفضل من الفتيات لهذه الاجراءات التكريمية .

وكانت العائلات الراقية ـ فى العهود الأولى ـ تمتلك حمامات خاصة . اما الآخرون من العامة فكانوا يرتادون حمامات الملاعب ، والحمامات العامة ؛ وهذا ما يرجح أن لفظ « حمام » كان يعنى عندهم ـ بوجه عام ـ الحمام الساخن .. لأنهم جميعا ، فيما عدا ذلك ، كانوا يمارسون السباحة والاغتسال ، فى البحر والأنهار .

وكان الناس يستحمون عرايا .. وليس هناك ما يجزم بأن الحمامات كانت مقسمة تبعا للجنس . واذا كان لفظ « حمامات النساء » قد تردد كثيرا ، فانه فى الواقع يحتمل تأويلين : اما حمامات تقتصر فيها خدمة الرواد على النساء ، واما حمامات يحرم دخولها على النساء .. **على أن أهل (اسبرطه) كانوا يفرقون بين « حمامات النساء » و « حمامات الرجال » على أساس آخر : هو أن الأولى كانت ساخنة ،**

وكانوا يعتبرون استخدام الرجال للمـــاء الساخن نوعاً من « التخنث » و « الطراوة » !

وفيما عدا (اسبرطه) من بلاد اليونان ، فان التفرقة بين « حمامات الرجال » و « حمامات النســـاء » كانت موجودة أحيـانا ، ولكن لسبب آخر غير التفرقة الجنســـية : هو ما عرفناه عن الاغريق من اقصاء للاناث عن الحياة العامة .

أعياد الاغريق ومهرجاناتهم

● **وبالرغم** من الحضـارة التى أورثهـا الاغريق للعالم ، فانهم لم يبلغوا درجة الكمال ، سيما فى المجال السياسى : اذ كانت بلادهم ممزقة الأرجاء ، لا تربطهــا وحــدة ، وكانت الحزبية والتنـافس الحزبى يستشريان فى بلادهم . ومن ثم فانهم كانوا يفتقرون الى مركز ســياسى ، أو بمعنى آخــر « قومى » .

غير أن عقد المبـاريات الرياضية فى (ايليس) ـ الجزء الشمالى الغربى من جزر (البلوبونيز) ـ أوجــد نوعا من الترابط القومى المؤقت .. **وعندما أصبحت دورة الألعـاب الأوليمبية تعقد مرة كل أربع سنوات ـ ابتداء من سنة ٧٧٦ قبل الميلاد ـ صارت فترة الترابط هـذه تجمع أهالى شتى أرجاء اليونان خمســة أيام فى كل أربعة أعــوام .. فكانت الخلافات والحزازات تنسى خلالهـا ، وكانت الأسلحـة تلقى جانبا ، وتصبح أرض (ايليس) منطقة ســلام ، تحت رعاية الآلهة ..** وكان الفائز يتلقى تاجا من أغصان الزيتون ـ رمز السلام ـ يقتطعها فتى مليح ، (يشترط أن يكون والداه على قيد الحياة) ، من شجرة مقدسة ، بسكين من ذهب ! .. كما كانت هناك تيجان من شجرة الغار المقدسة . وكانت التيجان

جميعا تعرض على طاولة من الذهب والعاج ، فى معبد الآله « زيوس » ، وامام تمثاله .

وكان الفائز فى المباريات الأوليمبية موضع تكريم وفخر عالنين ، يفوقان ما كان يحظى به القائد المظفر .. حتى ليقال أن « خيلو » ــ أحد حكماء (اسبرطه) السبعة ــ مات لفرط الفرح ، عندما بلغه فوز ابنه . ولقد ظفر « دياجوراس » ــ وهو من سلالة « هرقل » ــ بالفوز ببطولة الملاكمة فى دورتين من الدورات الأوليمبية ، كما فاز عدة مرات فى مباريات وألعاب أخرى . ثم قدر له ــ فى كهولته ــ أن يشهد ابنيه يظفران فى المباريات ، فصاح بأعلى صوته : « فلتمت يا دياجوراس ، فهذا ارفع ما يمكن أن يطمع فيه انسان ! » .. وعندما عانقه ابناه ، ووضعا تاجيهما فوق راسه ، سقط ميتا !

كان المتبارون يخوضون العابهم عراة !

● **ولن** نفيض هنا فى وصف الألعاب الأوليمبية ، فان مهمتنا هى دراسة الأخلاق عند الاغريق ، خلال حياتهم الجنسية .. **وعلى ضوء هذا الهدف ، نجد أن الثياب التى كان المتبارون يرتدونها تعد ذات أهمية لنا . ويحدثنا « ثيوسيدايدس » عن أن المتبارين ــ فى الأزمنة الغابرة ــ كانوا يتوسطون الحلبة عراة ، اللهم الا من ستر حول أردافهم . وقد سبق أن اشرنا الى أن هذا لم يكن راجعا الى سبب أخلاقى ..** وعلى اى حال فان المتبارين ــ فى الجرى ، على الأقل ــ طرحوا عنهم هذا الستر بعد الدورة الخامسة عشرة ، اي بعد سنة ٧٢٠ قبل الميلاد ، وصاروا يدخلون الميدان عراة تماما !

والى جانب الدورات الأوليمبية ، كانت هناك دورات لمباريات أخرى ، أهمها « البيثيا » التى كانت تعقد فى (دلفى) ، فى عيد « أبوللو البيثى » . وكانت تتألف من مباريات موسيقية وغنائية ، انتظمت فى البداية مرة كل تسع سنوات ،

ثم اصبحت ــ بعد سنة ٥٨٦ قبل الميلاد ــ تعقد كل خمس سنوات ، بحيث يقع موعدها فى العام الثالث من الفترة بين كل دورتين أوليمبيتين .. كما كانت هناك دورات أخرى اقليمية ، لانواع مختلفة من المباريات : مباريات رياضية ، وألعاب شعبية ، وأغان ورقص ، ثم ــ فيما تلا ذلك من عهود ــ مباريات تمثيلية .

كذلك كانت ثمة مهرجانات وأعياد خاصة ، بعضها كان يقتصر الاشتراك فيه على النساء ، مثل عيد « تيسموفوريا » لتكريم ربتى التشريع : « ديميتر » و « بيرسيفون » . وبرغم تضارب المعلومات عن هذا العيد فانها جميعا تشير الى انه كان احياء لذكرى الربة « ديميتر » مبتكرة الزراعة التى مكنت الحياة البشرية من الاستقرار فى جماعات ، وبالتالى أثرت على حياة النساء وعلى الزواج .. فكان شعار « البذر والحصاد » رمزا لشعار : « الزواج والتناسل » .

وكان الاحتفال بهذا العيد يقام فى كل مكان من اليونان ، حوالى شهر أكتوبر . وقد يختلف اسمه من مكان الى آخر ، ولكن أساسه واحد . وكان على كل امرأة تبتغى الاشتراك فيه ، أن تمتنع من الاتصال الجنسى تسعة أيام قبل موعده ! .. وقد برر الكهنة ذلك بتحقيق الطهر والتقوى ، ولكنهم فى الواقع كانوا يرمون الى أن يذكى طول الحرمان اقبال المرأة على الطقوس الشهوية ــ التى كانت تتخلل الاحتفال ــ باندفاع ، وفى غير حرج ! .. وكانت النساء يضعن فى الفراش ــ خلال أيام الحرمان ــ أعشابا تهدىء من الشبق !

الصبية العرايا عنصر مشترك فى الاحتفالات

● وفى (ميجارا) كان القوم يعقدون ــ فى بداية الربيع ــ مباريات يطلق عليها (ديوقليا) ، تكريما لذكرى البطل الوطنى « ديوقليس » . ولعل أطرف هذه المباريات ، مباراة فى

« التقبيل » كانت تقام حول قبره ، وتقتصر على الأطفال ! .. ويقال انها مأخوذة عن احتفال مشابه كان يقــام فى مدينــة (طيبة) المصرية ! .. واطرف من هذا ، ما كان يقام فى اليوم الثانى من أيام مهرجان (ديونيزيا) ، اذ كان الصبية يحجلون على قدم واحدة ــ وهم عرايا ــ فوق قربة مليئــة بالخمر ، وقد مسح ظاهرها بكثير من الزيت لتكون زلقــة .. ومن ثم فقد كان المتبارون يقعون ــ فى الغــالب ــ فى أوضــاع تثير الضحك !

وكان يعقب هذا المهرجــان فى (ديونيزيا) ــ فى الشــهر التالى ، الذى كان يقع حوالى أواخر مارس وأوائل ابريل ــ عيد « ديونيسوس » . وكان يستغرق سحابة النهار ، طيلة أيام ثلاثة متعاقبة ، يتوافد فيها الناس من كافة أرجــاء بلاد اليونان ، وتجرى فيها المباريات بين الصبية فى الغناء والرقص ، وتقدم فيها آيات التقدير للمبدعين منهم ولأساتذتهم .. فاذا غربت الشمس ، أسرف القوم فى الشراب ، واشــتركوا فى مختلف وســائل اللعب واللهــو .. وكانت التمثيليــات « التراجيدية » و « الكوميدية » تعرض فى كل مكان فسيح من المدينــة .

والى جانب هذا ، كانت تنظم مهرجانات للاله ديونيسوس ــ فى كثير من أرجــاء اليونان ــ مرة كل عامين ، ويقتــصر الاشتراك فيها على النساء والفتيــات .. فكن ــ اذا أقبل الليل ــ خرجن الى المرتفعات المجاورة لمعابد هذا الآله الاغريقى وهن فى زى « باخوس » آله الخمر ، أو فى ثيــاب من جلود الماعز ، وقد نثرن شــعورهن فى غير تنسيق ، وحملن آلات موسيقية .. وبين الرقص والغنــاء ، كن يقــدمن القرابين ، شكرا للرب على أن أتاح لهن شرب النبيذ ، الذى نادرا ما كان يسمح للاناث بتناوله !

رقص الأولاد العرايا فى اسبرطه

● وفى شــهر (هيكاتومبــايون) ــ أواخر يوليو وأوائل اغسطس ــ كان الاغريق يحتفلون بعيــد « هياسينثوس » ، (وكان هو الصبى الأثير لدى الآله « ابوللو » ، مما أثار غيرة الآله « زيفروس » ــ اله الريح ــ فانتهز فرصة انهماك ابوللو وفتاه فى اللعب بالقرص ، وطوح القرص الى رأس الصبى ، فقضى عليه !) . . وكان العيد ثلاثة أيام ، تقدم فى أولها القرابين وسط مظاهر الحزن . . بينما تنظم المواكب المرحة والمباريات فى اليومين الآخرين ، فيعزف الصبية على الآلات الموسيقيــة ويغنون ويرقصون . ثم تغنى مجموعات من الشباب ، بينما يتخلل الراقصون والعازفون صفوف المنشدين ، وتنطلق حول مكان الاجتماع مركبــات من الخيزران أو الخشب ، تحمل العذارى . .

وكانت (اسبرطه) تحتفل سنويا ــ منذ سنة ٦٧٠ قبل الميلاد ــ بذكرى شهدائها فى (ثيريا) قبل ذلك بحــوالى ١٢٥ سنة . وكان ذلك الاحتفال يسمى « جيمنوبيــديا » ــ أى رقصة الأولاد العرايا ــ اذ كانوا يختارون أجمل الأولاد ليؤدوا الرقصات وبعض الألعاب الرياضية ، وهم عرايا . . وكان أهل (اسبرطه) يحرصون على اقامة حفلات هذا العيــد ، لفترة تتراوح بين ستة ايام وعشرة ، مهما تكن الأحداث !

وكانت بلاد اليونان تشهد اغرب عيد من أعيادها فى شهر « بويدروميون » ــ أواخر سبتمبر وأوائل أكتوبر ــ وهو عيد يهدف الى الاحتفال بذبول الحبوب ثم عودتها الى الانبــات والازدهار ، رمزا الى الموت والبعث . وهذا يقابل ما ورد فى أساطيرهم عن « بيرسيفون » التى اختطفها « هاديس » وقضى عليها بأن تعيش ستة أشهر من كل عام تحت الأرض وفى الظلام ، وستة أشهر فوق الأرض وفى ضياء الشمس . . **وقد التصقت**

بهذا العيد أمور كثيرة من التحرر من الأخلاقيات ـ وان اتخذت طابعا دينيا غريبا ـ وقد تطورت هذه الأمور الى طقوس لمذهب دينى تحاط عباداته وتطبيقاته بغموض عجيب !

وفى الأيام الستة الأولى من هذا العيد ، الذى كان يستغرق تسعة أيام ، كان القوم يخرجون فى مواكب مرحة الى البحر ، وهم يقدمون القرابين وسط الضجيج والضوضاء .. ثم يغتسلون فى البحر ـ رمزا للتطهر ـ وينطلقون فى « الطريق المقدسة » بين أثينا واليوسيس ، وهى مسافة تعادل ١٤ كيلومترا .. فكان الآلاف يسيرون وقد أحاطوا رؤوسهم بتيجان من الغصون ، وحملوا المشاعل وأدوات الزراعة وسنابل القمح وأقماع الذرة ، يتقدمهم كاهن فى زى « اياخوس » ـ وهو الاسم الأثينى للمعبود « ديونيسوس » ـ حتى يبلغوا خليج (اليوسيس) ، حيث تظل الجبال تردد أصداء أغانيهم ، والأمواج تعكس وهج مشاعلهم بقية أيام العيد .

أغرب الأعياد ينظم احتفالا بجمع العنب

● ومن الأعياد الاغريقية الطريفة عيد « أوسخوفوريا » ، الذى كانت أثينا تحتفل به فى شهر « بيانيبسيون » ـ أى بين أواخر نوفمبر وأوائل ديسمبر من كل عام ـ ابتهاجا بالكروم .. وكان القوم يعدون لهذا العيد بانتخاب أجمل الأولاد من كل القبائل ، ثم ينتخبون أجمل ولدين من بينهم ، بشرط أن يكون أبواهما على قيد الحياة ، فيعهدون بهما الى كاهنات بارعات الجمال ، موفورات النشاط ، لتربيتهما .. **فاذا حان موعد العيد ، انطلق الولدان ، وهما فى ثياب الاناث ، فى سباق من معبد ديونيسوس الى معبد ((سكيراس)) الأثينى ، عند مرفا (فاليروم) ، وهما يحملان أغصانا من الكروم مثقلة بالعنب .. وكان الفائز يظفر بكاس من شراب ((العناصر**

الخمسة » ، الذى كان يتألف من المنتجات الرئيسية الخمسة على طول العام : النبيذ ، وعسل النحل ، والجبن ، والحبوب ، والزيت ..

ويرد « بلوتارخ » أصل هذا العيد الى « ثيسيوس » ، الذى زهد فى كل العذارى ، واختار غلامين ــ ليصحباه فى رحلته ــ ممن اجتمعت لهم الجرأة والشجاعة ، مع مظهر الاناث . وبالمداومة على الحمامات الساخنة ، وحمايتهما من الشمس والهواء ، وتضميخ شعورهما وتدليك جسميهما بالزيت ، اكتسبا مظهر الاناث . ثم أخذ « ثيسيوس » يدربهما على عادات الاناث ، وعلى تقليدهن فى الصوت والمشى والحركات ، حتى لم يعد من سبيل لتمييزهما عن العذارى . وعند عودته ، نظم موكبا تقدمه محوطا بالفتيين وهما فى ثياب النساء ، وقد حملا غصون الكروم ، تحية للالهين « باخوس » و « اريادن » ، اذ صادفت عودة « ثيسيوس » موسم جمع العنب ! .. وفى اليوم التالى لهذا العيد ، كان فتية أثينا ينظمون مهرجانا تتخلله الألعاب الرياضية ، ويشترك فيه الغلمان من كافة الأعمار ..

« كبش الفداء » يطرد من المدينة !

● **كذلك** كان الاغريق يحتفلون فى شهر « مينخيون » ــ ويقابل أواخر ابريل وأوائل مايو ــ بعيد « أدونيا » ، المستمد من أسطورة قديمة ، عن شاب بارع الجمال يدعى « أدونيس » كان أثيرا مقربا للربة « افروديت » ، فلما لقى مصرعه أثناء الصيد ، حزنت عليه الربة حزنا شديدا ، حتى أشفق عليها أبو الآلهة « زيوس » ، فوافق على أن يرده اليها من عالم الظلال لفترة قصيرة من كل عام .. لذلك كان هذا العيد يبدأ بيوم حزن ورثاء لأدونيس ، يعقبه ــ فى اليوم التالى ــ فرح وبهجة .. وكانت النساء بالذات هن أكثر الناس احتفالا بهذا العيد ،

الذى كانت تعرض فيه صور وتماثيل لأدونيس وأفروديت .

وفى عيد « ثارجيليا » ـ الذى كان يقـام تكريما للالهين « ارتيميس » و « ابوللو » ـ اعتادت مجموعات من المغنين ، رجـالا وأولادا ، أن تتنـافس على الغناء . ولكن مدينـة (كولوفون) امتازت بطقوس خاصة أدخلتها على هذا العيد ، عقب نكبة كانت قد حلت بهـا .. **فكان القوم يختـارون « فارماكوس » ـ أى شخصـا يعد بمثـابة « كبش فداء » ، يضحي تكفيرا عن ذنوب القوم كلهم ـ وقد اعتادوا لهذا الغرض أن يختاروا اقبح رجل شكلا ، أو ابغض رجل الى قلوبهم ، فكانوا يسوقونه خلال المدينة ، بين مظاهر السخط والتحقير ، حتى يخرجوا به وراء أسوارها ، فيدفعوا اليـه بخبز وجبن وتين ، ويطردوه بعيدا عنها !** ويضيف بعض الرواة أنهم كانوا يضربون خصيتيه بفروع التين والأشواك البحرية ، وسـط أنغام المزمار !

ولعل أغرب الأعياد جميعا ، هو عيد كان يقام فى (اماثوس) بجزيرة قبرص ، تكريمـا للربة « أدريان » ، التى تـروى الأساطير أنها هبطت هناك مع « ثيسيوس » ، وماتت وهى تلد ، دون أن تضع وليدا ما ! .. لذلك يأتى القوم فى كل عام بشاب جميل ، يضعونه فى فراش ، ليقلد المرأة فى آلام المخاض وأوجاعه !

الحضارة الاغريقية مزجت العبادة بالجنس

● **ومما** يثير الدهشـة ، كثرة ما كتبه الأقدمـون عن الرقصات الشهوية التى كانت تصاحب أعياد الاغريق ، وهى رقصات كانت تتجرد من كل حياء ، تصحبها أغان وحركات صامتة . والواقع أن الحياة الجنسية كانت تخالط الطقوس الدينية عندهم فى غير مواراة . **ومرة أخرى ، ننبه الى التعليل الواضح لذلك ، وهو ما قامت عليه حضارتهم من نظرة تقديس**

الى انجاب النسل والتكاثر ، ومن نظرة اجلال للجمال فى كافة صوره وأوضاعه .. ويحسن ـ فى هذه المناسبة ـ أن نوجه الانتباه الى أن النساء كن يحرمن من حضور بعض أعيادهم ومهرجاناتهم ، كما كان الرجال يمنعون من حضور الأعياد المقتصرة على النساء .. بل كان ذكور الحيوان ـ كالكلاب ـ تمنع من التسلل الى أماكن الاحتفال !

وهكذا نقف أمام تضارب غريب ، يؤكد ما ذكرناه من تعليل : فبينما تتسم بعض الطقوس بمظاهر جنسية ، نجد الحرص على التفرقة بين الجنسين فى الاحتفالات . ولا ينبغى أن نتسرع فى الحكم ، على هذا الضوء ، فما زلنا نكرر أن الجنس كان يلعب دورا رئيسيا ، وكبيرا ، فى حضارة الاغريق .. ولا يزال مجال بحثنا واسعا ، ولم يلم بعد بالحب ، والبغاء والشذوذ الجنسى ، وغير ذلك من تفصيلات ..

« الهيرمافروديتوس » : جنس ثالث ابتكره الاغريق !

● **وقبل** ان ننتقل الى هذه التفصيلات ، لا يفوتنا ان نذكر أن الاغريق أسفروا عن ميل عجيب الى « الازدواج الجنسى » ، اذا صح هذا التعبير بدلا من « التخنث » ، لوصف الطبيعة البشرية التى تجمع بين الجنسين . وقد قادهم هذا الى ابتكار جنس ثالث ، لا هو بالذكر فقط ، ولا هو بالأنثى فقط ، أطلقوا عليه « هيرمافروديتوس » .. **واللفظ كما نرى يجمع بين « هيرمز » ـ وهو احد أربابهم ـ و « افروديت » ، وهى الأخرى ربة .. وكانوا يمثلون « الهيرمافروديتوس » بشكل انسان ذى لحية ، وله جسم امرأة ، ويجمع بين أعضاء الجنسين التناسلية !**

وكذلك أوجدوا لهذا الجنس الثالث أصلا فى أساطيرهم : فزعموا أن « هيرمز » و « افروديت » أنجبا ولدا باهر الجمال ، شغفت به ـ حين بلغ الخامسة عشرة من عمره ـ

« سالماسيس » ، وكانت حورية فى نبع ماء ، فسلطت عليه سحرها ، حتى اجتذبته الى أعماق الماء ، وحملته على أن يعانقها ، ثم طلبت من الآلهة الا يسمحوا بانفصال حبيبها عنها ، فما كان من الآلهة الا أن ضموهما معا فى كيان واحد ، ذى جنسين ! .. وتمضي الأسطورة فتزعم أن « هيرمز » و « أفروديت » أضفيا على النبع صفة خفية ، تحول اى رجل يغتسل فيه الى انسان مخنث ، نصف رجل ونصف امرأة !

وعن هذه الأسطورة تولدت عادات معينة عند الاغريق ، ففى (اسبرطه) كانت العروس ترتدى ــ عند الزواج ــ ثياب الذكور .. وفى جزيرة (قوس) كان العريس ، وكهنة معبد هرقل ، يرتدون ثياب الاناث ، عند عقد الزواج .. وفى (ارجوس) ، كان الناس يحتفلون سنويا بعيد يسمى « هايبرستيكا » ، وفيه ترتدى الاناث ثياب الذكور ، ويرتدى هؤلاء ثياب الاناث ! .. ويقال انه كان يقام لتكريم النساء ، اذ حملن السلاح وحاربن ملك كريت « كليومينس » ، عندما انهزم رجالهن !

ولقد روى « تيوفراستوس » أن التقاليد كانت توجب الاحتفاظ بصورة أو أكثر من صور « الهيرمافروديتوس » فى كل بيت ، فتتوج بالزهور فى اليومين الخامس والسابع من كل شهر .. كما كان اليوم الرابع من كل شهر « مقدسا » ، يكرس لتكريم المعبودين « هيرمز » و « افروديت » ، وكان الاغريق يؤمنون بأنه يوم مناسب للمتع الجنسية !

المخلوقات ذات الجنس المزدوج ألهمت الفنانين !

● **ويزخر** الفن الاغريقى بكثير من التحف التى تمثل « الهيرمافروديتوس » ، أو المشتقة من فكرة المخلوق المزدوج الجنس ، سواء بالرسم أو النحت أو التشكيل .. ولقد كانت البيوت والحمامات والملاعب تزين ــ بعد القرن الرابع قبل

الميلاد — بتمائيل وصور « الهيرمافروديتوس » ، ويتخــذ معظمها شكل شاب بازع الجمال ، له قوام امرأة ممشوقة ، بديعة الردفين ، وأعضاء الذكر التناســلية . وكانت ترسم الصور وتنحت التماثيل فى كافة الأوضاع ، لا سيما الوضع النائم الذى كان يبرز مفاتن الأنوثة والرجــولة معا . وهذا الطراز يمكن أن يشاهد الى اليوم فى مبنى متحفى (اوفيتزى) بفلورنسا ، و (فيلا بورجيزى) فى روما ، ومتحف (اللوفر) بباريس ، وغيرها .. على أن أكثر هــذه التحف اتصــافا بالجنسية الفاضحة — كما نراها فى أيامنـــا — هى تلك التى تمثل « الهيرمافروديتوس » فى جمــاع مع الآله « بان » أو « ساتيرس » !

وهناك شخصية أخرى ، جمعت بين الجنسين ، وكانت لها قداســة لدى الاغريق ، وهى « ليوسيبوس » ، التى كان يقام لتكريمها مهرجان « ابوديسيا » ، أو « مهرجان التعرى » فى (كريت) .. وكانت « ليوسيبوس » انثى بحكم المولد ، ولكن أمها أخذت تضرع الى الآلهة ، حتى أشفق عليها الآلــه « ليتو » وحولها الى ذكر ، بأن أضاف الى جسم الانثى أعضاء التــذكير ! .. وكان من عادة أهل (فيستوس) — بجزيرة كريت — أن ترقد العروس ، فى الليلة السابقة لزفافها ، بجوار تمثــال خشبى لـ « ليوسيبوس » ، كما كان أهل البــلدة يعرضون تمثال « ليوسيبوس » — فى عيده — وهو فى ثياب انثى ، ثم يأخذون فى خلع الثياب عنه ، حتى تبدو أعضــاء التذكير .. ومن هنا سمى العيد « مهرجان التعرى » !

عادات وتقاليد تمزج بين الجنسين

● **ويبدو** ان نظرية « الازدواج الجنسى » قد ظهرت فى أقدم العصور . ولم يقتصر أثرها على الهام الفنانين ، بل لقد ترتبت عليهــا عادات وتقاليــد شتى .. من ذلك ما رواه

« بلوتارخ » ، من أن حاجة اليونان الى زيادة السكان دعت الى السماح للنساء المتمتعـــات بكامل الحقوق المدنيـــة ، بالزواج من رجال من طائفة « البريوسي » ، وهي طائفة كان أفرادها أحرارا ، ولكنهم لا يتمتعون بالحقوق السياســية ، **ولما كانوا يعتبرون أقل مكانة من المواطنين الأحـرار المتمتعين بهذه الحقوق ، فان المرأة التي كانت تتزوج من أحد رجالهم ، كانت تلبس لحية زائفة اذا ما نامت معه ! .. هذا ، بينمـا كان شبان جزيرة (قوس) يستقبلون عرائســهم ــ ليـــلة الزفاف ــ وقد ارتدوا ثياب النساء ! .. وعكس ذلك ما كان يحدث في (اسبرطه) ، اذ كانت العروس تستقبل عريسهـا وقد ارتدت ثياب الرجال ، وقصت شعرها !**

ومن الخطأ أن نحاول تفسير هذه العادات والتقاليـــد ، بأكثر من أن الاغريق كانوا ــ في أعمـــاق العقل اللاواعي ــ يؤمنون بأن كل انسان يجمع في تركيبه عناصر الذكورة والأنوثة بنسب متفاوتة ، فاذا زادت الأولى على الثانية كان ذكرا ، واذا زادت الثانية على الأولى كان انثى .. وهذا عين ما يؤكده العلم الحديث .

أعياد « هيرمز » كانت تمجيدا لطهر الرجولة !

● **على** أن أكثر أعياد الاغريق اتساما بطابع الجنس ، كانت اعياد « الأفروديسيا » ، أي أعيـــاد « أفروديت » التي كان الشعب يقيمها في كل أرجاء بلاد اليونان ، وان لم تعتبر أعيادا رسمية . وكان لخدام « افروديت » ــ من بغايا الجنسين ــ دور كبير فيما كان يســود بعضــها من اسراف في المجون والخــلاعة ، ومن افراط جنسي . ومن هنـــا ــ كما يقول « بلوتارخ » ــ استعيرت كلمة « افروديسيا » ، لليـــالي الحمراء التي ينغمس فيها رجال البحر ، حين يرسون على البر ، بعد طول حرمان من صحبة النساء !

وفى (ثيسالى) ، كان القوم يحتفلون بعيد « افروديت انوسيا » ، فكانوا يقصرونه على النســـاء وحدهن ، ويقصون الرجال عنه ، (مما يوحي ــ لبعض الكتاب ــ بأن له صـــلة بالشذوذ الجنسي !) .. **وبقدر تعدد أعياد ((افروديت)) ، كانت أعياد ((هيرمز)) قليـــلة ، ولكنها لم تكن بدورها تفتقر الى الطابع الجنسي ، وليس ((الاباحى)) .. على أن ((هيرمز)) ــ بوجه عام ــ كان يمثـــل ازدهار جمـــال الرجال ، وكانوا يصفونه بالطهر السامى الذى يتصف به الصبى عندما يقف على أعتاب مرحلة التحول الى الرجولة ..** ولهذا فلا عجب اذا وجدنا أن أجمل فتية (تانجارا) كان ــ فى احتفال هذه المدينة بعيد هيرمز ــ يحمل على كتفيه كبشـــا ، ويطوف به حول سور المدينة . ويقال ان الكبش كان ــ بعد الطواف ــ يذبح ، أو يطلق سراحه خارج المدينة ، رمزا الى أنه قد حمل خطايا أهلها ، فأعفاهم بذلك من آثامهم !

وكان لعيـــد « هيرمز » ــ فى (كريت) ــ طابع خاص ، اذ كان العبد يأخذ وضع السيد ، ويقوم السيد بنفسه على خدمته ! .

ونكتفى ــ فى بحثنا ــ بهـــذا القدر عن أعيـــاد الاغريق ومهرجاناتهم . واذا كنا لم نستعرض جميع هذه الأعيـــاد ــ وما كان أكثر عددها ! ــ فاننـــا قد حرصـــنا على اختيار ابرزها ، وعلى ايضاح أهم مميزاتها ومظاهرها ، كعنصر لا غنى عنه فى دراستنا لأثر الجنس فى الحضارة الاغريقية .

والى حلقة اخرى ، نقدم فيها لك مزيدا من هذه الدراسة الممتعة .

...

سقوط فرنسا

« بقية المنشور صفحة ١٤ »

والسياسية » ــ التى كان من الجلى أنها لم تلم بهـــا الماماً يذكر ! ــ ويجمـــع الـكاتبان على أنهـا كانت ، على نقيض الكونتة دى بورت ، تقنع بممارسة نفوذها فى الخفاء .

أما الكونتة دى بورت ، فكانت قد تزوجت من صاحب لقب ، سرعان ما وجد منصبا فى مؤسسات أبيها ــ الذى كان من كبار المقاولين وصانعى السفن ــ فى مرسيليا . **ولقد آلت على نفسها أن تغزو باريس ، حيث تعرفت برينو ، الذى كان فى ضعف عمرها .. وبطموحها تقربت الى زوجة « رينو » ، ولكنها سرعان ما تبينت أن نجم الرجل فى صعود ، فاصبحت عشيقة له ! .. ويقول برتيناكس ان الزوجة والعشيقة أخذتا تتصارعان فى عنف حول الفريسة (رينو) ، « وكانت كل منهما تتجسس على الأخرى وتتعقبها ، من الصباح حتى المساء ، حتى أصبح صراعهما علنيا »** ! .. وفى سـنة ١٩٣٨ ، هجـر « رينو » بيته ، واستقر ــ دون زوجته ــ فى مسكن بميـدان « باليه بوربون » ، حيث ظل حتى نهـــاية عمره . وهنــاك استحوذت عليه الكونتة تماما ، ولم يقدر لأحد أن يميط اللثام عن سر قبضتها القوية على رجل فى مثل ذكائه وقوة ارادته ، رغم أنها كانت « سمراء ، ذات شعر أجعد ، وفم واســـع ، ينبعث منه صوت خال من العذوبة » ! ــ كما وصفها الجنرال « سير ادوارد سبيرز » ، الذى كان ضابط الاتصال البريطانى مع « رينو » ــ وأضاف « موروا » أنها كانت « مجنونة بغض الشىء ، مثيرة للأعصاب ، متداخلة فيما ليس لها ــ كما قدر للأحـداث أن تبين ــ بل و « خطرة » ، صفتها الغالبـة هى الطموح ، فلم تكتف بأن يكون « رينو » وزيرا للمالية ، بل عقدت العزم على جعله رئيسـا للوزراء ، مهما كان الثمن .. فمـلأت

المجتمعات الباريسية بروايات عن افتقار « دالاديه » للنشاط ، وأوحت الى كل امرىء بأن الضرورة الملحة تدعو الى أن يخلفه « رينو » .. ومن الطبيعي أن هـذه الأقاويل كانت تبلغ « دالاديه » في نفس المساء الذي كانت تقال فيه ، فازدادت حدة كراهية هذا لرينو ! »

ويروي « موروا » انطباعه عقب التقائه برينو « بعد شهرين من تولي الرجل رئاسة الوزارة ، فيقول انه « كان مضطرب الأعصاب ، مهموما . وكانت على مكتبه ثلاثة أجهزة تليفونية ، أحدها متصل بأقسام الوزارة (داخلي) ، والآخر بخط خارجي ، والثالث بحجرة مدام دي بورت . **وكان جرس التليفون الأخير لا يكف عن الرنين ، فيرفع « رينو » السماع ، ويصغي لحظة ، ثم يصيح في ضيق : « نعم .. نعم .. هذا مفهوم .. ولكن أتوسل اليك أن تدعيني أؤدي عملي » .. ثم لم يلبث أن كف عن اجابة الرنين » !**

ولقد رحلت مدام دي بورت الى الخارج مرتين ـ لعلاج أعصابها ـ فالتقت في (فيينا) بعدد من النمسويين والألمان النازيين .. ولاحظ أحد المراقبين أنها كانت تزداد اتجاها الى اليمين ، كلما ازداد « رينو » اتجاها الى اليسار !

أما قبل تولي « رينو » رئاسة الوزارة ، فقد كان في صراع مع « دالاديه » .. وعشيقتاهما مشتبكتين في معركة أخرى ، في جمهورية تمزقها الخلافات .. وكان « دالاديه » يرأس الوزارة ، ولكن « رينو » وعشيقته كانا يتربصان له ، في صبر !

مجاملات بين بطل أسطوري وسياسي طامع !

● في تلك الفترة الحرجة ، استأنف المارشال « هنري فيليب بيتان » و « بيير لافال » الصداقة التي كانت تربطهما قبل سنوات . كان « بيتان » ـ الذي عين سفيراً لدى أسبانيا ، في ربيع ذلك العام ـ قد سأل « لافال » في الخفاء عن تقديراته

للموقف السياسى فى باريس .. وكان اهتمامه منصبا على الوضع السياسى ، وليس على الجيش !

وكان ((لافال)) ـ الناقم على الأحوال بسبب اقصائه عن الحكم منذ ١٩٣٦ ـ قد حرص ، لسنوات عدة ، على أن يوحى للقائد الشيخ بانه كفيل بأن يرفعه يوما الى رئاسة الوزارة أو رئاسة الجمهورية .. وذلك ليكسب من ورائه نفوذا يمكنه من توجيه شئون فرنسا . بل انه كان منذ سنة ١٩٣٢ يدعو فى ابهاء البرلمان الى انتخاب ((بيتان)) رئيسا للجمهورية ، حتى سأله المارشال نفسه أن يكف عن ذلك !

ولقد رد « بيتان » لصديقه الجميل ، يوم تشييع جنازة « لوى برتو » ـ وزير الخارجية الذى اغتيل فى سنة ١٩٣٤ ـ اذ نصح رئيس الوزراء « جاستون دوميرج » بأن يعين « لافال » وزيرا للخارجية ، فانصاع « دوميرج » للنصيحة .. وبعد عام ، التقى « بيتان » و « لافال » ـ الذى كان قد أصبح رئيسا للوزارة ـ فى جنازة أخرى !.. وتذاكر الاثنان الأمور والأحوال ، فنصح الأول الثانى بأن يتخطى المعارضة البرلمانية ويفعل ما يراه ضروريا « للمصلحة القومية » . فرد « لافال » بأن هذا كان من أصعب الأمور ، وأن « بيتان » ـ بما له من مكانة ووضع ـ هو الوحيد القادر على انتهاج هذا المنهج !

وكان « بيتان » و « لافال » حريصين على الا يكثرا من التلاقى علانيــة . ولكنهما وجدا فى الكونت « رينيه دى شامبرون » ـ الذى تزوج ابنة لافال الوحيدة ، فى سنة ١٩٣٥ ـ وسيطا بينهما . **وما لبث بيتان أن شرع يعد قوائم بتشكيلات وزارية ، بناء على مقترحات من ((لافال)) وبعض اليمينيين الذين اخذوا يلتفون حوله ، مما غذى غروره واقتناعه بأن بوسعه أن يكون ((مخلص فرنسا)) من الجمهورية التى استشرى فيها الفساد .**

ولقد اعترف « دالاديه » ـ فيما بعد ـ بأنه لم يفطن

الى مؤامرات « بيتان » و « لافال » ، ولم يكن يدرى سوى أن وزارته وبلاده منشقتان على نفسيهما .. وحوالى نهاية أغسطس ١٩٣٩ ، أيقن « دالادييه » من أن هتلر يتأهب لغزو (بولندا) بعد أيام ، وأن على حكومته أن تفى بوعدها بمناصرة بولندا ، برغم الفرقة الشائعة فى وزارته ، والضعف الذى كانت عليه فرنسا !

فرنسا .. على اعتاب الحرب الفعلية

● **وفعلا** ، أصدر هتلر أمره بغزو بولندا ، فى الساعة الثانية عشرة والنصف من مساء ٣١ أغسطس .. وفى الساعة العاشرة والنصف من صباح أول سبتمبر عقدت الوزارة الفرنسية اجتماعا موجزا لتدارس الموقف ، وتقرر اصدار الأمر بالتعبئة العامة ، ودعوة البرلمان للاجتماع ـ فى اليوم التالى ـ لاستصدار موافقته على تخويل الحكومة حق شن الحرب عند اللزوم . ذلك لأن « دالادييه » أحجم عن طلب الموافقة على « اعلان الحرب » قبل أن تتم التعبئة العامة بأكملها ، خشية تعريض فرنسا لهجوم جوى مفاجىء !

وفى الساعة الثالثة من بعد ظهر يوم ٢ سبتمبر ، اجتمع مجلسا البرلمان ـ وكانا فى أجازة برغم تصاعد الأزمة فى الأيام السابقة ـ وقرأ رئيس الوزراء « دالادييه » على أعضائهما رسالة من رئيس الجمهورية بتأييد بولندا ـ وان أبدى الرغبة فى علاج الموقف سلميا ! ـ وقابل البرلمان خطاب رئيس الوزراء بتحمس ، وان لم يعن هذا أن الأعضاء جميعا كانوا يحبذون الحرب .. **وعندما طلب « دالادييه » الى اللجنة المالية ـ بعد ذلك ـ ٧٠ بليونا من الفرنكات من أجل الحرب ، تساءل بعض الأعضاء عما اذا كان هذا « تخويلا » للحكومة باعلان الحرب ، فأجاب « دالادييه » بأنه « سيرجع الى البرلمان » اذا دعت الضرورة للحرب .. ولهذا وجه « لافال » و « بيير فلاندان »**

وغيرهما من معارضي الحرب ، الاتهام الى « دالادييه » ـ فيما بعد ـ بأنه نكث بوعده ، ولم يرجع للبرلمان عند الاعلان الفعلي للحرب .

واتفقت الحكومتان الفرنسية والبريطانية على توجيه انذارين لألمانيا بايقاف العمليات الحربية .. فوجهت بريطانيا انذارها في الساعة الثامنة من صباح الأحد ٣ سبتمبر ، ووجهت فرنسا انذارها بعد الظهر .

السفير الفرنسي يرتاب في صوت وزيره !

● **وكان** « بونيه » ـ وزير الخارجية الفرنسية اذ ذاك ـ قد ذهب في الساعة الثامنة من ذلك الصباح الى وزارة الحربية ، ليجتمع بدالادييه الذي كان يتولى هذه الوزارة الى جانب الرئاسة . وحدد « دالادييه » بدء القتال بالساعة الخامسة من صباح يوم الاثنين ، بناء على مشورة هيئة أركان الحرب . وعلى هذا الأساس ، وضع « بونيه » صيغة الانذار الفرنسي ، وأبلغ سفيره لدى برلين « روبير كولوندر » بأن يقدمه بنفسه ـ عند الظهر تماما ـ وأن يطلب رد ألمانيا على مذكرة فرنسية سابقة بتاريخ أول سبتمبر .. « فاذا كان الرد بالنفي ، أبلغ وزير الخارجية الألمانية ، أو من يمثله ، بأن فرنسا ستضطر ـ ابتداء من الساعة الخامسة من صباح الاثنين ٤ سبتمبر ـ الى أن تفي بالتزاماتها لبولندا ، وهي التزامات معروفة للحكومة الألمانية » .

وفي الساعة الحادية عشرة والنصف اتصل « دالادييه » ببونيه مرة أخرى ، وأخبره بأنه انتزع من رئيس هيئة أركان الحرب ـ الجنرال « لوي كولسون » ـ تعهدا بتقديم موعد بدء القتال اثنتى عشرة ساعة ، فأصبح « الساعة الخامسة من مساء الأحد ٣ سبتمبر » . فأبلغ « بونيه » هذا التعديل بسرعة إلى سفيره ، الذي صححه في الانذار ، بخط اليد .

وفجـأة ، استولت على السفير ((كولوندر)) الوساوس : احقا كان يتكلم باسم وزير الخارجية الفرنسي ؟.. فطلب من الوزير تأكيدا من شخصية أخرى ـ من شخصيات الوزارة ـ يكون صوتها مألوفا لدى السفير . وكان أن كلف ((بونيه)) اثنين من المسئولين بأن يؤكدا التعليمات للسفير تليفونيا . واذ ذاك فقط ، اتجه السفير الى وزارة الخارجية الالمانية .

وقبل الساعة الخامسة بنصف الساعة ، أصدر الجنرال « جاميلان » تعليمات سرية الى الجيش والأسطول والطيران ، بتأخير بدء القتال اثنتي عشرة ساعة عن الموعد المحدد بالانذار « تنسيقا للعمل مع السلاح الجوى البريطاني » .. وهكذا بدأ تردد القائد العام الفرنسي منذ الساعة الأولى للحرب !

وبدا أن فرنسا اهتدت الى نوع من الوحدة الداخليــة ، فى ساعات الأزمة ، فسارت عمليات التعبئة بسرعة ويسر ، وحفلت الصحف ـ التى فرضت عليها رقابة شـــديدة ـ بتحبيذ وفاء الحكومة بوعدها لبولندا . ومع أنه لم يكن ثمة تحمس للحرب ، فقد كان هناك الكثير من الاقتناع بأن هتلر جعل الحرب أمرا لا مناص منه .

تردد القائد العام ، أضاع فرصة النصر !

● **ولكن** هذا كله كان فى الظاهر . أما وراء السطح ، فكانت لدى الفرنسيين شكوك تؤرقهم ازاء حكمـة الحكومة ، بل كانت هناك معارضة للاتجاه الذى اتخذته . اذ لم تكن فرنسا قد استكملت البرء التام من استنزاف الحرب العالمية الأولى لطاقاتها ومقدراتها ، وخالج الجمهور ـ و « دالاديـه » نفسه ! ـ الخوف من أن لا تقوى الدولة على الخروج سالمة من حرب جديدة ، ولو كان النصر حليفها !.. ولكن الشكوك والخوف ظلت بلا علاج . ولدهشة الفرنسيين ـ وعميق ارتياحهم ـ بدأت فى الغـرب ، اذ ذاك ، فترة من أعجب

الفترات فى تاريخ الحروب : فترة « الحرب الزائفة » ، التي امتدت ثمانية أشهر لم تقع فيها اشتباكات خطيرة ، ولم ترق فيها دماء .. وكانت هذه الفترة خليقة بأن تثير كثيرا من الأوهام .. ولكنها لم تكن سوى تمهيد لتحطيم كل أوهام الجمهورية الثالثة فى فرنسا !

كانت فرنسا متفوقة تفوقا تاما فى الرجال والمدافع والدبابات . وفى مقابل ٨٥ فرقة مسلحة لديها ، لم يكن لدى الألمان سوى ٣٤ فرقة ، ٢٣ منها من الاحتياطي المفتقر الى التدريب والأسلحة المناسبة والذخائر ووسائل النقل . وكانت فرق « البانزر » ، والفرق الآلية ، موجهة جميعا الى (بولندا) . ومع ذلك ، فقد شاء الحظ لألمانيا الا تتعرض لهجوم جدى خطر .. لفرط حرص القائد العام الفرنسى !

كان كل « الهجوم » الذى وقع ، على حد تعبير الكولونيل شارل ديجول — قائد الدبابات فى الجيش الخامس ، فى (السار) ، اذ ذاك — مجرد مناوشات واستعراضات قليلة ! وادت الهزيمة السريعة لبولندا الى تخفيف الضغط على « جاميلان » من جانب أنصار فكرة المبادأة بالهجوم من منطقة (السار) ، اذ أثارت مشكلة احتمال استعادة الألمان قواتهم الرئيسية ، ليلقوا بها ضد فرنسا . ويقول جاميلان أنه قرر — فى ٣٠ سبتمبر — أن « ساعة الانسحاب من السار قد حانت » . فذهب بصحبة الجنرال « الفونس جورج » الى « دالاديه » ليقنعاه بدواعي ذلك الانسحاب ، وهما يدركان ما فى ذلك من صدمة للحكومة التى أسرفت فى دعايتها عن « الغزو الفرنسى لألمانيا » !.

وفعلا أبدى رئيس الوزراء تخوفه من رد الفعل ، « لا فى فرنسا وحدها ، بل فى العالم كله » .. ولكنه ، بدافع من « الوطنية العميقة » وافق على اقتراح « جاميلان » .



رأى « لافال » فى الماريشال العجوز «بيتان »
مجرد « مخلب قط » يمكنه من حكم فرنسا المهزومة !

ولتفادى تسرب الخطــة للألمان ، تقــرر عدم اطلاع مجلس الوزراء عليها ، فلم يعلم بها سوى رئيس الجمهورية .

مساومات سياسية فى وسط الأزمة !

● **وكان** لزاما أن يتم الانسحاب الفرنسى سرا .. فهل كان ذلك لان بعض القادة بدأوا يعتقدون أنه لا حكمة فى مواصلة الحرب ، بعد « زوال » بولندا ؟ .. لقد عرض هتلر ــ فى ٦ أكتوبر ــ الصلح ، ورأى « بونيه » أن عرضه « يستحق الاهتمام » من الحكومة ، ولكن « دالادييه » أقصى « بونيه » عندئذ عن وزارة الخارجية ، وعرضها على « ادوار هيريو » ــ رئيس مجلس النواب ، وأحد أقطاب الحزب الراديكالى ــ فقبلها بشرط أن يدخل « بيتان » عضوا فى الحكومة .

وطلب « بيتان » مهلة ، ريثما يستشير أصدقاءه ، وكان معظمهم ــ وبينهم « لافال » ــ يلحون عليه فى أن يتولى بنفسه رئاسة الوزارة . والتقى المارشال بالجنرال « جاميلان » فأسر اليــــه بأنه ما كان لينضم الى وزارة بين أعضــائها « هيريو » ، ثم رحل « بيتان » الى أسبانيا دون أن يقــابل « دالادييه » ثانية ، وأرسل اليه ــ من هناك ــ رفضه لمــا عرض عليه .

وهكذا بدأ ((البطل العظيم)) ــ بيتان ــ يخوض ميــاه السياسة الغدارة ، برغم كبر سنه . فدعا ((هنرى ليمبرى)) ــ عضــو الشيوخ الذى كان يعتبر من غلاة الرجعيين ــ الى مباحثتــه فى (سان سباستيان) ، فاوجس ((ليمبرى)) من هذا اللقاء ، خشية أن ترتاب الحكومة فى أنه كان يشــترك فى مؤامرة لاسقاطها . ولكنــه ما لبث ان خف الى الملتقى ــ فى سرية تامة ــ فى ١٠ أكتوبر ، وقال لبيتــان ان الأمــور كانت تســوء فى الجيش ((وعليك أن تعد نفسك لتشكيل حــكومة تتولى الحرب ، كما فعل كليمانسو)) . وقال المرشـــال أنه

ـجل حرب ، وليست مهنته ادارة شؤون الحكم ، ولكن عضو لشيوخ طمأنه ، ورشح له أسماء للوزارة ، كان بينها « لافال » لداخلية . ومع أن « بيتان » ظل يعرب عن عزوفه عن تولى لحكم ، فان متملقيه لم يعتبروا هذا ردا نهائيا .

ولم يكن « لافال » ـ فى تلك الاثناء ـ خاملا ، بل كان شيطا فى ابهاء البرلمان ، وفى المطاعم التى كان يغشاها رجال لسياسة ، يروج لفكرة « حكومة بيتان » . وعندما اعترض ايلى بوا » ـ رئيس تحرير « بيتى باريزيان » التى كانت وسع صحف فرنسا اليومية رواجا ـ على كبر سن « بيتان » ، ، حديث نشر فى ٢٧ أكتوبر ، قال لافال : « هذا لا يهم ، فما لذى سنتطلبه منه ؟ . . أن يكون مجرد تمثال على قاعدة . . ـسمه ، ومكانته ، ولا شىء أكثر من هذا ! »

وما لبثت ألمانيا أن شعرت بما يجرى ، وكانت ترى ن « بيتان » من دعاة سياسة السلام فى فرنسا ، ومن المؤمنين أن بلاده لن تجنى من الحرب شيئا ، حتى لو انتصرت !

انشقاقات فى الحكومة والقيادة الفرنسيتين

● **واشرفت** سنة ١٩٣٩ على نهايتها ، و « دالاديـيه » ترنح بوزارة معظم أعضائها من المسنين ، المكدودين . كما كانت لقيادة العليا فى أيدى شيوخ نضبت حيويتهم وذكاؤهم . وكان نعدام الثقة بين اثنين من زعماء الحكومة ـ هما دالادييه ورينو يقابله انعدام الثقة بين اثنين من كبار قادة الجيش ، هما جاميلان » ـ القائد العام ـ ونائبه « جورج » الذى كان تولى قيادة الجبهة الفرنسية الألمانية . **فقد كان الصراع بين لذين القائدين مريرا ، لا سيما أن « جورج » كان يعتقد بأن جاميلان » دساس ، يستغل « دالادييه » ليحتفظ بسلطانه دون مراعاة للكفاءة والمقـدرة ـ ويتشبث بأن يكون هو مخطط للحرب ، بينما يقتصر دور « جورج » على التنفيذ .**

ومن ناحية اخرى ، كان ثمة تذمر من بعض الضباط الكبار ــ وعلى رأسهم ((ديجــول)) ــ اذ كانوا يلحون فى ضرورة اجراء تدريبات واسعة ، لاعداد القوات لتكتيكات الحرب الخاطفة ، التى استخدمها هتلر فى (بولندا) بنجاح .. ولكن ((جاميلان)) كان يابى أن يصغى اليهم !

وفى اليــوم الأخــير من نوفمبر ، قامت روســيا بغــزو (فنلندا) ، فثار الغرب اســـتنكارا ، واشــتد الضغط على فرنسا ــ التى لم تبذل جهدا لمساعدة بولنــــدا ــ كى تخف لنجدة (فنلندا) ، ولكنها لم تكن تملك أية مساعدة فعالة . وعندما اضطرت فنلندا الى توقيع الصلح مع روسيا ــ مجبرة ــ فى ١٤ مارس ١٩٤٠ ، بدأ الهجوم البرلمانى ضد « دالاديه » : اذ عقد مجلس الشيوخ ــ فى ١٦ مارس ــ جلسة سرية تجلى فيها الاجماع على لوم « دالاديه » ، لا لتقصيره فى العمل ضد المانيا ، وانما لتقصيره فى العمل ضد روسيا .. ولقد أفاض « دالاديه » فى الدفاع عن سياسته فى البرلمان ، ولكنه بدا ــ فى بعض مراحل النقاش ــ خائرا ، مثبط العزيمة ..

اخيرا سقط ((دالادييه)) .. فخلفه ((رينو)) !

● **وكان** « دالاديه » قد سقط عن ظهر جواد ، فكسرت قدمه ــ اثناء قضائه نهاية الأسبوع مع عشيقته فى الريف ، فى شهر يناير ــ واضطر لملازمة الفراش عدة أسابيع ، عجز خلالها عن عرقلة المؤامرات التى كانت تحاك ضده .. ومن هنا كان شعوره بالخور وثبوط العزيمة ، فلم يلبث أن دعا البرلمان الى طرح الثقة بسياسته فى الحرب ..

وطرحت الثقــة ، فأولاه مجلس الشيوخ ٢٣٦ صوتا ، ضد لا شىء ، مع امتناع ٦٠ عضوا عن التصويت .. أما مجلس النواب ، فبلغ عدد الأصوات المؤيدة للحكومة فيه ٢٣٠ صوتا ،

ضد صوت واحد ، ولكن ٣٠٠ نائب امتنعوا عن التصويت . ومع أن هذه النتيجة مكنته من البقاء فى الحكم ، فانه فقد تأييد الأغلبية ، ومن ثم استقال عقب الجلسة مباشرة !

وخلفه « رينو » ، الذى كان فى الحادية والستين من العمر ، ولكنه عرف بالنشاط المفرط ، والبت فى الأمور ، والدعوة الى التجديد فى الحكم ، والى ادخال النظم والأسلحة الحديثة فى الجيش .. وكان — منذ سنة ١٩٣٥ — ينادى ، دون جدوى ، بانشاء فرق مدرعة كالتى أنشأتها ألمانيا ؛ كما أنه عارض سياسة التراجع أمام هتلر — فى (ميونيخ) — وأصر على أن تدخل فرنسا الحرب عند هجوم ألمانيا على بولندا .. **فضلا عن أنه لم يكتم — خلال الأشهر الستة الأولى من الحرب — ايمانه بأن فى وسعه أن يكون أشد من ((دالادييه)) فى ادارة سياسة الحرب . وكان على اتصال مستمر بصديقه ((شارل ديجول)) ، ومتفقا معه على وجوب أحداث هزة توقظ الجيش ، وتخلصه من العناصر المتخشبة — فى القيادة العليا — مع تنظيم فرق مدرعة ، وتجهيزها بالدبابات الممتازة التى كانت متوفرة لدى الجيش فعلا .**

على أن « رينو » كان ، منذ انتخابه نائبا لأول مرة — فى سنة ١٩١٩ — غير مستند الى قاعدة حزبية واسعة ، مما كبده الكثير عندما شرع فى تأليف حكومته . إذ حاول دالادييه وحزبه « الاشتراكى الراديكالى » — الذى كانت له الأغلبية الثانية فى مجلس النواب — تخريب مساعيه ، ورفض دالادييه أن يشترك فى الحكومة الجديدة ، عندما قال « رينو » انه يعتزم الاحتفاظ لنفسه بوزارة الدفاع ، التى كان دالادييه يتولاها . ولم يلبث « رينو » ان اضطر لترك وزارة الدفاع لغريمه ، عندما تبين انه لا سبيل لتأليف الحكومة بدون التعاون مع الحزب الاشتراكى الراديكالى .

الصراع التقليدى بين رينو ودالادييه .. يستمر !

● **وجاءت** حكومتـــه غير متناســـقة ، ضمت ٦ من الاشتراكيين ، و ١١ من الاشتراكيين الراديكاليين ، والباقون من الجناح الأيسر لأحزاب الوسط المعتـــدلة . وقد خلت الوزارة من عضو شـــبه دائم ، هو « جورج بونيـــه » ، الذى اشترك فى ١٥ وزارة طيلة السنوات الخمس عشرة الاخيرة ، والذى لم يعد « رينو » يطيقه منذ مؤتمر (ميونيخ) ، لا سيما انه كان يراه ميالا للصلح مع ألمانيا . **وأوغر هذا الاقصاء صدر « بونيه » ، الذى كان قد استخدم نفوذه لاقرار قانون يختصر المدة القانونية بين الطلاق والزواج التالى ، لتمكين « رينو » من التعجيل بالزواج من عشيقته بعد طلاقها من زوجها .. فهل نسى « رينو » هذا الصنيع ؟**

وفازت حـكومة « رينو » فى مجلس النواب بأغلبيـــة صوت واحد فقط ، فتكشف الانشقاق فى الوحدة التى بدت ظاهريا فى فترة الحرب . وازدادت الفرقة ، فاذا نصف مجلس النواب يعارض الحكومة ، واشتد التصادم بين رئيس الوزراء ووزير الدفاع فى حكومته (أى دالادييـــه) ، وطغت الأطمـــاع السياسية على مصلحة الأمة المهددة .

وفى ١٥ مايو ، أبلغ « جاميلان » الكولونيل « ديجول » باختياره لقيادة الفرقة الرابعة المدرعة ، التى انشئت حديثا . وكان « رينو » يحاول اســـتبقاء الكولونيل فى باريس ليكون مستشاره العســـكرى ، وعرض عليـــه منصب السكرتير فى « وزارة الحرب » . **ولكن « دالادييه » كان قد عانى الكثير من انتقادات ديجول اللاذعة ، فى السنين السابقة ، فعارض بشدة رغبة « رينو » ، وهدد بالاستقالة** . ولم يجد رئيس الوزراء بدأ من أن يعين « بول بودوان » ــ المدير العام لبنك الهنـــد الصينية ــ فى المنصب الذى أعده لديجول ، كما عينه وكيـلا

للخارجية فى الوقت ذاته .. فاذا « بودوان » يؤيد كل ما كان يعارضه « رينو » : كان معجبا بموسوليني وايطاليا الفاشية وكان — قبل الحرب — قد دعا فرنسا الى توثيق علاقاتها بألمانيا النازية « التى استحقت مكانها تحت الشمس بجدارة » على حد تعبيره !

عشيقة « رينو » واصدقاؤه يعملون ضده !

● **وكان** « بودوان » يؤمن بأن الوقت قد حان لتقييد الديموقراطية البرلمانية التى كانت فرنسا تمارسها ، والحد من البرلمان ، وانشاء سلطة تنفيذية قوية « من صفوة النخبة فى الدولة » . ولقد وثق علاقاته بالكونتة دى بورت — عشيقة رينو — حتى لقد كان يتحدث اليها مرة أو اثنتين فى اليوم ، ويشدد الضغط — عن طريقها — لا على رئيس الوزراء وحده ، بل على كافة الوزراء !

ولقد ظل مسلك الكونتسة دى بورت محيرا للمؤرخين : فبرغم حبها لرينو ، ونضالها سنوات طويلة لتدفعه الى القمة ، فانها عملت دائبة على تحطيم أصراره — حين رأس الحكومة — على خوض الحرب وانقاذ الجمهورية . ولكن أصبع « بودوان » تبدد تلك الحيرة ، فقد كانت وراء ذلك التحطيم !

وبينما كان الربيع يقترب ، كانت ثمة كتلة تتكون ضد رئيس الوزراء ، من أقرب المقربين اليه ، ومنهم عشيقته ! وقدر لهذه الكتلة أن تجتذب شخصيات قوية النفوذ ، كأعظم بطلين باقيين منذ الحرب العالمية الاولى (وهما « بيتان » و « جاميلان ») وكالرجعيين ، ومعارضى الحرب — وفى مقدمتهم « لافال » — وأغرب ما فى الأمر ، أن « رينو » ، وهو السياسى الداهية ، لم يفطن لما كان يجرى !

وقرر « رينو » — فى ٤ مايو — أن يتخلص من القائد العام « جاميلان » ، فوافاه مستشاره العسكرى واثنان من

سكرتيريه بمبررات كافية لذلك : منها اخفاق « جاميلان » فى القيام بعمل فعال عندما غزا الألمان (النرويج) فى شهر أبريل . ومن ثم اتجه « رينو » الى « ليبران » رئيس الجمهورية ، فى صباح ٩ مايو ، ليطلعه على ما اعتزم . بيد أن « ليبران » خشى من اثارة أزمة وزارية ، (فما كان « دالادييه » ليقبل اقصاء « جاميلان ») .. بيد أن « رينو » ظل على عزمه ، ولو أدى الأمر الى أن يستقيل اذا خذله مجلس الوزراء !

فرنسا بلا حكومة ولا قائد .. أمام الخطر !

● **وفعلا** ، انعقد المجلس فى الساعة العاشرة والنصف ــ من الصباح ذاته ــ وقد خيم عليه صمت شامل ، وبدا الرئيس شاحب الوجه ، أجش الصوت ، (اذ كان فريسة « الانفلونزا » طيلة الأسبوع السابق) ، بينما كان « بودوان » يقرأ القرار ومبرراته .. وقال « رينو » ، أخيرا ، ان فرنسا خليقة بأن تخسر الحرب اذا بقى « جاميلان » قائدا عاما .. ودعا مجلس الوزراء الى الموافقة على تعيين قائد آخر .. لكنه لم يظفر بغير الصمت !

ثم التفت الجميع صوب « دالادييه » ــ وزير الدفاع ، وحامى جاميلان ــ فألقى اللوم فيما أصاب (النرويج) على بريطانيا ، ودافع عن القائد العام ، قائلا ان هدوء الجبهة الفرنسية الألمانية كان متعمدا ومقصودا ، ريثما تستكمل فرنسا اعادة تسلحها . **وأبدى دالادييه أسفه لأن « جاميلان » لم يمنح فرصة للدفاع عن نفسه ، وعاب على رئيس الوزراء مثل هذا الانتقاد الخطير لقائد يعترف الجميع بذكائه وحزمه ، وان كان هذا الانتقاد لم يثر الا داخل جدران قاعة مجلس الوزراء !**

وازاء موقف دالادييه ، اعلن « رينو » انه يعتبر الوزارة مستقيلة ، ورجا كتمان الأمر ريثما يتسنى تاليف

حكومة جديدة . وما ان علم ((جاميلان)) بالأمر ، حتى قدم استقالته ، لأنه لم يشأ أن يكون سببا فى أزمة جديدة !

بيد أنه لم يلبث أن أوقظ - فى السـاعة الواحدة من الصباح التالى - لوصول نبـأ من جاسوس فرنسى ، خلف الخطوط الألمانية ، جاء فيه ان الألمان يزحفون نحو الغرب !

وبينما تجمـع أكبر جيش ألمـانى لمهاجمة فرنسـا -



من حضيض الهزيمة الساحقة ، ارتفع صوت واحد ينادى بالمقاومة : صوت ((ديجول)) !

(١٣٦ فرقة ، منها ١٠ فرق مدرعة ، يؤازرها أسطول جوى جبار) ـ وتأهب ليهوى بضربته عند الفجر ، كانت الجمهورية الفرنسية بدون حكومة ، وبدون قائد عام !

قيادة عليا .. بدون جهاز لاسلكى !

● **قسمت** القيادة الفرنسية العليا نفسها الى ثلاث قيادات : جاميلان ـ الذى حذا حذو « رينو » وسحب استقالته ، فى ساعة الخطر ـ وقد بقى فى (فانسين) على الحافة الشرقية لباريس .. والجنرال « جورج » الذى تولى العمليات على طول الجبهة وعرضها ، واتخذ مقره فى الشمال الشرقى ، عند (لافيرتيه سوجوار) .. وبين (فانسين) و (لافيرتيه) ، كان مقر القيادة العليا فى (مونترى) برأسه الجنرال « اندريه دومين » ، تحت اشراف « جاميلان » . وكانت وسائل الاتصال بين القيادات الثلاث ، فى حالة يرثى لها ! **لم يكن فى مقر القائد العام جهاز واحد للاسلكى ، فوجد « جاميلان » نفسه ـ فى أول أيام المعركة ـ فى عزلة عن الأحداث !.. وبرغم وجود تليفون ، فانه كان يضطر الى أن يستقل السيارة ليبقى على اتصال بالجنرال « جورج » .. وكانت الرحلة تستغرق ساعة ، على طرق مزدحمة .. وهكذا كان القائد العام الفرنسى يضيع وقته هباء ، فى معركة من أهم المعارك التاريخية .. وكانت أوامره تستغرق ٤٨ ساعة ، ريثما تجتاز درجات القيادة ، وتصل الى مسرح العمليات ، ويبدأ تنفيذها !**

وفى الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ١٣ مايو ، بدأ الألمان عبورهم لنهر (الموز)وحول (سيدان) . وكان بوسع المدفعية الفرنسية ـ فى الظروف العادية ـ اغراق القوارب وتشتيت الزاحفين ، ولكنها ظلت عاجزة : اما لأن المدفعية

الألمانية أصلت مراكزها نارا حامية ، أو لأن رجالها ظلوا منبطحين على الأرض ، من فرط قسوة الغارات الجوية . ومن ثم ، لم يأت الليل حتى كان الألمان قد احتلوا المرتفعات التي كانت تمكن المراقبين الفرنسيين من استطلاع ميدان القتال بأكمله !

الذعر يذهب بعقول الضباط والجنود !

● **والى** الساعة الخامسة والنصف مساء ، كان الموقف « خطيرا » فحسب .. وكان رأس الحربة الألماني صغيرا ، وقد عجز الألمان من نقل أية مدفعية عبر النهر .. كما كانت المدافع والدبابات متوفرة لدى الفرنسيين .. ولكن التطور جاء سريعا ، فيما بين الساعتين السادسة والسابعة .. اذ ان الذعر استولى فجأة على جنود الفرقة (٥٥) الفرنسية ! . **ولم تبدأ هذه الظاهرة فى المقدمة ـ حيث المشاة ـ وانما بدأت فى المؤخرة ، حيث المدفعية التى كان من المفروض أن تطلق حممها .. فما أن تراجع مشاة الفرقة عن غابات (مارفيه) حتى انطلقت صيحات عامة بأن دبابات الألمان وصلت الى (بولسون) .. واذا الذعر يذهب برشد اثنين من قادة المدفعية الثقيلة للفرقة ـ برتبة (كولونيل) ـ فلم ينقض نصف الساعة حتى كانت الطرق تغص بالجنود الهاربين !**

ولقد حاول الجنرال « لافونتين » ـ قائد الفرقة (٥٥) ـ سد الطرق فى وجه الهاربين ، ولكن هؤلاء واصلوا اندفاعهم الجنونى طيلة الليل ، ومنهم من لم يتوقف حتى بلغ (ريمس) ، على بعد حوالى ٧٠ كيلومترا !.. وفى خلال ثلاث ساعات أو أربع ، كانت الفرقة (٥٥) مشاة ، بكافة جنودها ومدفعيتها ، قد تلاشت !.. **مع أن الألمان لم يكونوا قد نقلوا دبابة واحدة عبر نهر ((الموز)) !**

.. وسرى الذعر الى القيادة : ففى منتصف الليل

طلب الجنرال « جورج » من الجنرال « دومين » أن يوافيه .. فلما وصل هذا ، وجد « جورج » وأركان حربه مجتمعين فى غرفة الخرائط ، وكأنهم أسرة تلتف حـول عزيز يحتضر .. وقال جورج : « لقد تحطمت جبهتنا عند (سيدان) .. كانت هناك حالات هرب من الميدان » .. ثم انهار فى مقعد ، وانخرط فى البـكاء !

وحاول « دومين » ــ المشـهور بروحه العاليـة ــ أن يرفع من معنويات « جورج » وضباطه ، وأن يدعوهم لانقـاذ الموقف .. ورسم خطة هجوم مضاد قوى ، لتقوم به قيـادة الجبهة الشمالية الشرقية .. ووافق « بوفر » ــ قائد تلك الجبهة ــ وأصدر أوامره بالفعل .. ولكن أعصاب « جورج » كانت قد تحطمت . وبرغم أن الجيشين الثانى والتاسع كانا باقيين ، لم يمسا بأى أذى ، فان « القيادة العليا » كانت قد فقدت معنوياتها !

تشيرشل يابى ان يصدق انهيار فرنسا !

● وعقد « رينو » أول اجتماع للجنة الحرب ، بعد ظهر يوم ١٤ مايو .. وأخطر تشيرشل ــ تليفونيا ــ أن الموقف غاية فى السوء ، وان الألمـان اخترقوا خطوط التحصينات جنوبى (سيدان) .. وكان البريطانيون قد أرسلوا أربعة أسراب من طائرات القتـــال ، فطالب بعشرة أخرى .. ولم يصـــدق البريطانيون انهيار الموقف بهذه السرعة ، ولكن « رينو » ايقظ تشيرشل فى الصباح التالى ، ليقول له تليفونيا : « لقد هزمنا ! .. خسرنا المعركة ! » .. ولم يشأ تشيرشل أن يصدق ، بل قال : « سينتهى الهجـوم بعد قليل ، على ضوء التجـارب المعروفة .. سيضطرون للتوقف ــ بعد خمسة أيام أو ستة ــ فى انتظار الامدادات ، واذ ذاك تحين الفرصة لهجوم مضاد ! »

لكن « رينـو » رد قائلا ان تجـارب الحرب السابقة قد

تغيرت ، وان الألمان يدفعون بسيل من الدبابات .. واعترف تشيرشل ــ فيما بعد ــ بأنه لم يستطع أن يعقل الانقلاب الذى اصاب أساليب الحرب ، باستخدام مصفحات سريعة الحركة !

وفى نهاية ١٥ مايو ، تلقى تشيرشل رسالة من « رينو » بأن طريق الألمان الى باريس مفتوح ! وفى منتصف ليل ذلك اليوم ، اتصل « جاميلان » بوزير الدفاع « دالاديه » ، فاذا به قد أوى الى مخدعه ، وأمر بعدم ازعاجه ! ..واكتفى جاميلان بأن أبلغ من تلقى المكالمة ، بأن على الحكومة أن تتأهب لمغادرة باريس ! .. وسرعان ما اتصل « رينو » ــ اذ نقلت اليه الرسالة ــ بجاميلان ، فقال له هذا : « انما طلبت أن يستعد الوزراء للرحيل ، حتى لا يضطروا الى مغادرة العاصمة بارتباك ، اذا زحف عليها الألمان » .

ودعى مجلس الوزراء الى اجتماع عاجل فى الساعة الثالثة صباحا .. وبدا « دالاديه » منهارا .. وفى ظهر ١٦ مايو ، اجتمع فى مكتب « رينو » ــ بوزارة الخارجية ــ عدد من الوزراء ، ورئيسا مجلسى البرلمان ، والجنرال « بير هيرنج » ــ الحاكم العسكرى لباريس ــ وكان رئيس الوزراء منهمكا فى اعداد بيان لأهل باريس يدعوهم الى مبارحتها .. وقال وزير المواصلات انه لم يكن يملك أن يضع قطارا واحدا فى خدمة النازحين ، وان ما لديه من سيارات النقل عدد قليل !

درس فى الاستراتيجية يلقيه القائد المهزوم !

● **اذ ذاك** ، أصبح لزاما أن يتحكم العقل فى علاج الموقف . وتبين المجتمعون أن قرار الحكومة سيثير الذعر بين الأهالى والجنود .. وفيما كان النقاش دائرا ، ارتفعت ضجة فى الخارج ، فأطل « اناتول دى مونزى » ــ وزير المواصلات ــ من احدى النوافذ ، واذا طرود من وثائق وزارة الخارجية تهوى من أحد الطوابق العليا الى فناء الوزارة ، ثم توقد فيها

النار .. وسرعان ما أحاط الدخان قصر الـ « كي دورسيه » الفخم ، بغلالة قائمة .. **وصاحت الكونتة دي بورت : « أي غبي أمر بهذا ؟ » .. واذ قيل لها ان رئيس الوزراء أمر بذلك ، اتصلت به ، فتنصل من المسئولية .. ولكن الكونتة لم تلبث ان وجدت نفسها ــ بعد قليل ــ منهمكة في حزم امتعتها وامتعة عشيقها .. رئيس الوزراء !**

والى « مركز أعصاب » فرنسا المرتبكة ، الذي احاط به الدخان ، وصل تشيرشل في الساعة الخامسة والثلث مساء .. وكان قد تبين ــ منذ بلغ المطار ــ أن الموقف أسوأ من كل ما كان يتصور .. ووقف « جاميلان » أمام خريطة ، يبين المواقع التي اخترقها الألمان ، و « يشرح التطورات في وضوح وهدوء ، وكأنه يلقي درسا في الاستراتيجية الحربية » ــ على حد تعبير « بودوان » ! ــ وما ان انتهى من « الدرس » ، حتى خيم على المكان صمت طويل ، قطعه تشيرشل متسائلا :

ــ وأين الاحتياطي الاستراتيجي ؟

ويقول تشيرشل في مذكراته : « والتفت الجنرال جاميلان نحوي ، وهز رأسه وكتفيه قائلا : « لا يوجد احتياطي » ! .. وذهلت » !

« بيتان » يظهر على مسرح الأحداث !

● **ومع ذلك** ، فقد ظل تشيرشل لا يصدق أن اندفاع المصفحات الألمانية خطر كبير ، « فان الدبابات تمثل قوة محدودة ، ما لم تكن مدعمة بمشاة . فهي لا تستطيع ممارسة اعمال الصيانة لنفسها ، وهي تحتاج الى وقود وأمدادات متوالية » .. وأجمع جاميلان ، ورينو ، ودالادييه ، على مطالبة بريطانيا بمزيد من الطائرات المقاتلة .. ولكن تشيرشل أصر على أن المدفعية وحدها هي التي تستطيع ايقاف الدبابات ! .. **وكان غريبا الا ترى القيادة العليا الفرنسية هذا**

الرأى ، وقد كانت تمتلك أعظم مدفعية فى أوربا !.. وكان مذهلا أنها لم تستغل تفوقها فى المدفعية لايقاف الدبابات المعادية !

ووافق تشيرشل — أخيرا — على ارسال عشرة أسراب من المقاتلات البريطانية ، فلم يبق لحماية انجلترا سوى ٢٥ سربا ! .. وازاء النكبة الهائلة ، عمد « رينو » الى تغيير القائد العام ، والى تعديل الوزارة ، فتولى بنفسه وزارة الدفاع ، ونقل « دالاديه » الى الخارجية ، (اذ أن الأخير ظل يتولى الوزارة الأولى منذ سنة ١٩٣٦ ، ومن ثم فقد كان أكثر مسئولية من أى سياسى آخر عن حالة الجيش !) .. ويقول الذين شاهدوه اذ ذاك انه كان محطما — كما كان قادة فرنسا الكبار — لانهيار الجيش فى تسعة أيام !

وعندما أعلن التعديل الوزارى — فى ١٨ مايو — كان ((بيتان)) قد عين وزيرا للدولة ونائبا لرئيس الوزراء ، كما عين الجنرال ((فيجان)) قائدا عاما .. وما كان ((رينو)) — اذ ذاك — يدرك ما فى ذهن ((بطل فردان)) ، ولا سمع بأن ((بيتان)) قال لفرانكو ، قبيل مبارحته اسبانيا : ((لقد هزمت بلادى ، وهم يدعوننى لأعقد الصلح وأوقع الهدنة .. ها هى ذى نتيجة ٣٠ عاما من الماركسية)) !

على أن رينو وزملاءه لم يلبثوا أن فطنوا الى أن « بيتان » كان يسعى لرئاسة الحكومة ، ليتخلص من السياسيين الذين كان يلعنهم منذ وصوله الى باريس !

ظهور ((ديجول)) .. وبدء بزوغ نجمه !

● **أشار** الجنرال « فيجان » على وزير المستعمرات « لوى رولان » — بعد أسبوع من توليه منصبه — بأن تبقى الحكومة فى باريس ، ولو دخلها الألمان ، كما فعل شيوخ (روما) عندما غزتها القبائل البربرية منذ قرون ، (فعندما

حل الغزاة روما ، وجدوا أعضاء مجلس الشيوخ جالسين فى
اعدهم صامتين .. « ولقد ذبحوهم عن آخرهم ، ولكن
لم يخل من أبهة وعظمة » !) .. ووجد الوزير أن
جبه يدفعه الى ابلاغ رئيس الجمهورية « لوبران » بهـذا
ى ، فما كان من الأخـير الا أن طوح ذراعيه فى الهـواء ،
ئحا : « لابد أنه مجنون ! .. أيريد أن القى مصير شوشينج
مستشار النمسا الذى اعتقله النازيون سنة ١٩٣٨) ؟
ف تتصرف حكومة سجينة فى تسيير دفة الحرب بحرية ؟
الى اين تراه يقودنا ؟.» .

**واخـذت الشكوك تسمم عقول الفرنسيين ضد الانجليز ،
تلك الفترة ، اذ راودتهم الهواجس بان انجلترا قد تقبـل
قيع صلح منفرد مع هتلر ، الأمر الذى عكر العلاقات بين
حليفتين ـ سيما وأن نفس الهواجس راودت الانجليز نحو
رنسا ! ـ والواقع أن « رينو » تلقى ، فى ٢٠ مايو ، ايحاء من
ان بأن يتقدم اليهم بشروط صلح ، اذا شاء أن تلقى بلاده
باهلا من المنتصرين .. ولكن « رينو » رفض مجرد الفكرة .**

ولقد شهد يوم ٥ يونيو عام ١٩٤٠ حدثا بالغ الأهمية
له أثر فى مستقبل فرنسا : اذ أصدر « رينو » أمرا بتعيين
شارل ديجول » ـ قائد فرقة المدرعات الرابعـة ـ وكيلا
ارة الدفاع .. فأثار ذلك كلا من « بيتان » ، و « فيجان »
لذى وصف ديجول بأنه طفل ، مع أن عمره كان اذ ذاك ٤٩
ة !) وقال : « انه صحفى أكثر منه ضابطا ، ورأيه فى نفسه
يه ! » .. أما « بيتان » فوصف « ديجول » بأنه مغرور ،
ول ، « يظن أنه يعرف كل شىء عن ميكانيكيات الحرب .
زهوه يزين له أن يظن أن فن الحرب لا يخفى عليه .. وهو
يوت فى الجيش سوى أصدقاء قلائل ، ولا عجب ، لأنه
متعاليا على الجميع » !

ومن العجيب ان تكون هـذه الفكرة لدى « بيتان » ــ وفى غمرة هزيمة فرنسا وتفككها ــ راجعة الى أن « ديجول » نشر ، قبل ذلك باثنى عشر عاما ، كتابا عن الجيش ، سمح له « بيتان » (كرئيس لأركان الحرب) بنشره ، على أن تكـون كلمة الاهداء ــ فى مقدمة الكتاب ــ لبيتان .. ولكن ديجول اهمل توجيه الاهداء الى القائد « الأسطورى » !

« فيجان » يتوقع دخول الالمان باريس فى ٢٤ ساعة !

● **وقرر** مجلس الوزراء ــ فى ٩ يونيو ١٩٤٠ ــ مغـادرة العاصمة فى اليوم التالى ، والانتقال الى (تور) . كان الألمان قد عبروا نهر (السين) فى موقعين ، وأخذت القوات الفرنسية تتراجع أمامهم فى غرب باريس وشمالها ، وتوقع « فيجان » ان يصلوا الى العاصمة فى ظرف ٢٤ ساعة ، اذا علموا بمدى ضعف فرنسا .. وصاح القائد : « اننا ندفع ثمن عشرين عاما من الأكاذيب والنظريات السياسية ! » .

وكتب **« بودوان » ــ فى مذكـراته ــ أن « فيجـــان » كان يرى ألا داعى لاراقة الدماء ، ما دامت فرنسا قد هزمت .. وانه قال له فى هذا الصدد : « لماذا نسوق فرنسا الى الفتن ؟ .. وفى أى حالة من الانهيار الاجتماعى نسوقها ؟ »** .

واصطدم « فيجان » مع « ديجول » ، فى الاجتماع الذى عقـده مجلس الوزراء فى ذلك اليـوم (٩ يونيو) : اذ طلب « رينو » الى القائد العام اعداد منطقة للصمود فى شبه جزيرة (بريتانى) ، فقال « فيجان » ان هذا مضيعة للوقت .. وسفه تأييد ديجول للفكرة ، ولكن ديجول ذكر ــ فيما بعد ــ انه أيدها لأنها تيسر للحكومة ، حين تزداد الأحوال سـوءا ، أن تعبر البحر الى شمال افريقيـا ، ايمانا منه بأن فرنسـا ما كانت تستطيع الصمود الا فى مراكش أو الجزائر !

عشيقة رينو تدعو الى الاستسلام !

● وقضى الوزراء والقادة ليلة ١٠ ـ ١١ يونيو فى سياراتهم ، وهى تقلهم ببطء بالغ ، وسط جحافل المهاجرين من باريس ، صوب الجنوب .. وفى النهار التالى ، تبعثروا فى المساكن القائمة جنوب نهر (اللوار) ، من (بريار) شرقا حتى (تور) غربا .. وكانت المواصلات التليفونية قليلة ، وفى أسوأ حال .. واضطرت وزارة الخارجية الى أن تعتمد على « راديو » متنقل ـ كان مع السفير البريطانى سير « رونالد كامبل » ـ لمعرفة الأنباء الخارجية .. **وكان الضجيج والفوضى يسودان المنزل الذى استقر فيه « رينو » مع عشيقته ومساعديه .. حتى لقد قال الجنرال « سبيرز » ان رأسه كان يدور لمجرد التفكير فى أن هذا البيت كان « قلب فرنسا ومركز العقل فيها .. المكان الذى تتخذ فيه القرارات »** !.. وذكر أن السفير أخبره بأن « مدام دى بورت » أطلت عليه وعلى رئيس الوزراء ـ أثناء اجتماعهما هناك ـ ثلاث مرات أو أربع .. ثم أردف : « ولقد علمنا جميعا أنها كانت تندفع الى حجرة رئيس الوزراء ، بمجرد أن يغادرها واحد منا ، فتنهال عليه بالأسئلة عما دار فى الاجتماع ، وباللوم ، قائلة : ما جدوى الاستمرار فى الصمود ؟ » !

خلافات .. على أنقاض فرنسا المنهارة !

● بعد فجر ١٤ يونيو بقليل ، دخلت قوات هتلر (باريس) .. وفى اليوم ذاته ، فرت حكومة فرنسا إلى (بوردو) .. وشعر رئيس الوزراء بأن « المؤامرات أخذت تنمو وتستفحل » .. وتبين ، خلال اليومين الأولين ، أن العسكريين كانوا يتجسسون على اتصالاته التليفونية .. وكان ـ وهو مرهق مكدود ـ يعتقد بأن الأسطول الفرنسى

قادر على مواصلة الحرب من شمال افريقيا ، (اذ كانت مراكش والجزائر وتونس لا تزال أجزاء من الامبراطورية الفرنسية) .

وفى الساعة الثانية والنصف من بعد ظهر ١٥ يونيو ، وصل « فيجان » الى بوردو ، وكان المارشال « بيتان » قد طلب الى « رينو » — فى الصباح — عقد هدنة ، وعارض انتقال الحكومة الى شمال افريقيا .. وبتعليمات منه ، زاره « فيجان » قبل أن يقابل « رينو » ..

وكان الخلاف بين رئيس الوزراء والرجلين على اشده ، برغم الموقف .. وكانت الحكومة منقسمة على نفسها ، والهوة بينها وبين القيادة العليا فى اتساع .. وقال « رينو » للقائد العام ان عليه أن يطلب ايقاف اطلاق النار ، بشرط ان يختار موعدا كافيا لأن ينتقل اقصى عدد ممكن من القوات — مع الحكومة — الى شمال افريقيا ..

واجاب فيجان فى غضب : « لن تبرح الحكومة فرنسا ! » .. اما عن طلب الهدنة ، فقال مهتاجا : « لن أجلب مثل هذا العار على الجيش الفرنسى ما حييت ! » .. وبدا واضحا أنه كان يهدف الى ان تتحمل الحكومة — لا الجيش — عار الاستسلام ! .. وكان هو و « بيتان » يؤمنان بأن الحلفاء — وليست فرنسا وحدها — قد خسروا الحرب ، وأن على فرنسا أن تخرج من الحرب فورا .

واقترح « كامى شوتان » — وكان نائبا لرئيس الوزراء مثل « بيتان » ، وقد قضى عدة أسابيع فى التقرب الى العسكرى العجوز ، وراء ظهر رينو — الا تطلب فرنسا الهدنة ، بل أن تسأل المانيا عن الشروط التى تطلبها للهدنة .. وشعر « رينو » بأن أغلبية الوزراء يحبذون هذا الاقتراح ، فأخطر رئيس الجمهورية — الذى حضر اجتماع مجلس الوزراء — بأنه مستقيل .. وهتف « لوبران » فى فورة عاطفية : « اذا

استقلت ، فانني سأستقيل كذلك ! » .. وحاول « رينـو » أن يثنيه ، ولكنه ــ في قرارة نفسـه ــ كان قد أيقن بفشـل صراعه مع العسكريين !

مشروع الدولة البريطانية الفرنسية المتحدة !

● وفي ١٦ يونيو ، اتصل الجنرال ديجول ــ وكان قد ذهب الى لندن ــ برئيس الوزراء « رينو » ، ليبلغه عرضا خطيرا وعاجلا من الحكومة البريطانية .. وكان العرض يتمثل في اذاعة بيان بقيام « اتحاد » بين بريطانيا وفرنسا ، هذا نصه :

« في هـذه اللحظة التي تمثل أحرج لحظات تاريخ العالم الحديث ، تعلن حكومتا المملكة المتحدة والجمهورية الفرنسية اتحادا لا تنفصم عراه ، وتصميما لا يلين ، على المضي في دفاعهما المشترك عن العدالة والحرية .. وتعلن الحكومتان أن فرنسا وبريطانيا العظمى لن تعـودا دولتين ، وانما تصبحان دولة واحدة ، هي الاتحـاد الفرنسي البريطاني .. وسيتمتع كل مواطن فرنسي فورا بالتبعية البريطانية ، وسيصبح كل متمتع بالرعوية البريطانية مواطنا فرنسيا » .

وكان معنى ذلك أن تصبح هناك « وزارة حرب » واحدة ، تدير الحرب ، وتمارس الحكم من أي مكان يتيسر لها !..

وصاح رينو : « انني أبذل حياتي دفاعا عن هذه المقترحات » . فأسـلم ديجول مسماع التليفون الى تشرشل ، ليتفقا على اللقاء في (بريتاني) ــ في اليوم التالي ــ ليعلنا قيام الاتحاد . وطار ديجول لفوره الى (بوردو) حاملا نسخة من البيان .

ولم يكن المشروع من ابتكار تشرشل ، بل كان قد سمعه في اليوم السابق أثناء نقاش بين « لورد هاليفاكس » ــ وزير الخارجية البريطاني ــ وزميله الفرنسي « جان مونيه » ، وبعض ديبلوماسيين من الطرفين . وقد تلقـاه « ديجول » موجسا من استحالة اعلان الاتحاد في وقت مناسب .. ومع

ذلك ، فقد اعتبر اعلان التضامن — فى حد ذاته — « عملا ذا قيمة كبرى » .

وفى (بوردو) ، تحول مكتب « رينو » الى مسرح انفعال شديد .. وحمل الجنرال « سبيرز » ترجمة أعدها للبيان ، الى حجرة السكرتارية لنسخها ، **واذا به يجد مدام « دى بورت » ، التى وقفت خلفه تقرأ كل كلمة يوقعها السكرتير على الآلة الكاتبة .. وكان من العسير التكهن بما اذا كانت ، وقتئذ ، واقعة تحت تأثير الدهشة ، أو الغضب ، ولكن التعبيرين تجليا معا فى مسلكها !**

وعندما اجتمع مجلس الوزراء الفرنسى — فى الخامسة من بعد ظهر ذلك اليوم — ليقرر : هل تطلب الحكومة شروط الهدنة ، أو تنتقل الى شمال افريقيا لتواصل الحرب ، قرأ « رينو » البيان ببطء ، ضاغطا على أهم الكلمات ، وأردفه بنبأ اللقاء المتفق عليه فى (بريتانى) .

فى ساعة يأس ، أسلم رينو فرنسا الى بيتان !

● **ويروى** « رينو » أنه بهت ، عندما قوبل البيان بصمت تام .. ثم تكلم أحد الوزراء ليرفض — فى اباء — فكرة الاتحاد .. وأعقبه آخر باتهام بريطانيا بالرغبة فى جعل فرنسا « من ممتلكات التاج » !.. وكانت تعليقات الوزراء أكبر صدمة تلقاها « رينو » فى حياته . وفى تلك الأثناء ، وردت رسالة من الجنرال « جورج » بأن الجنود كانوا يتراجعون فى فوضى وارتباك ، وقد طوق العدو فريقا منهم ، فتحول الوزراء عن مناقشة مشروع الاتحاد ، ليدرسوا موضوع الهدنة !

ومن التصريحات التى أدلى بها الوزراء — فيما بعد — لا يخالجنا الشك فى أن الأغلبية كانت ضد الهدنة ، ولكن « رينو » لم يفطن قط الى أن يطلب احصاء الأصوات !.. وقد زعم — بعد الحرب — أن أنصار رفض الهدنة كانوا أقلية

حوله ، ثم حاول أن يلتمس عذرا لاغفاله أخذ الأصوات ، قائلا ان الوزارة كانت منقسمة على نفسها ، وان هذا الانقسام كان يشل أى تصرف فى موقف حيوى كهذا !.. وقال « لوبران » - فى محاكمة « بيتان » ، بعد الحرب - أن « رينو » أنبأه ، بعد الاجتماع ، بأن انصاره أصبحوا أقلية ، ولكنه (أى لوبران) طلب اليه الاستمرار فى الحكم .. غير أن **« رينو » كان منهوك القوى ، فقال لرئيس الجمهورية : « اذا شئت تنفيذ هذه السياسة (الهدنة) ، فاذهب وكلف المارشال بيتان بها » !.. وما فطن الى أن هذه الكلمات كان مقدرا لها أن تشوه كل مستقبله ، اذ أعطت خصومه الحجة فى أن يقولوا ان « رينو » هو الذى نصح رئيس الجمهورية بأن يعهد بالحكم الى « بيتان » ، برغم ادراكه أن « بيتان » سيبادر الى طلب الهدنة !**

وقد كتب « رينو » - فى ١٢ مايو ١٩٤١ - رسالة الى « بيتان » ، من السجن الذى ألقاه فيه المارشال ، جاء فيها : « منذ عام ، تحملت مسئولية الاشارة على رئيس الجمهورية بتعيينك خلفا لى .. ولست أنكر المسئولية .. ولكنى أسأل فرنسا أن تغفر لى » !

فى ساعة واحدة .. تألفت حكومة « بيتان » !

● **اجتمع** الوزراء خارج مكتب « لوبران » ، فى الساعة العاشرة مساء ، ليتخذوا القرار الأخير - فى موضوع الهدنة - وهم موقنون بأن الأغلبية تناصر رأى « رينو » .. ولكن « رينو » فاجأهم بأن « بيتان » منهمك فى تشكيل وزارة جديدة ، ثم انصرف .. وثار أنصاره لكرامتهم ، اذ رأوا فى رفعه استقالة الحكومة كلها - دون استشارة أعضائها - تصرفا خطيرا ، فى موقف تاريخى شديد الحرج .

ولكم كانت دهشة رئيس الجمهورية ، عندما كلف

بيتان بتشكيل الوزارة ـ فى الساعة العاشرة مساء ـ فاذا به يوافيه بأسماء وزرائه فى الحادية عشرة .. وهو الذى لم يكن على معرفة بعدد كبير من السياسيين ، مما أوحى بأن « التشكيل كان جاهزاً فى جيبه منذ فترة » .. أو ـ فى رأى عدد آخر من السياسيين ـ كان هناك من راح يدفع المارشال للحكم ، وقد أعد له قائمة الوزراء !

ولقد ذهب الجنرال سبيرز ـ بعد هذه التطورات ـ الى منزل « رينو » فلم يجده ، ولكنه صادف الجنرال ديجول ، مستندا الى أحد أعمدة بهو المنزل .. وكان « ديجول » قد اتخذ قراره ـ منذ الصباح ـ فى حالة ما اذا طلبت حكومته الهدنة ، فهمس لسبيرز برغبته فى العودة الى انجلترا ، وبخشيته أن يمنعه « فيجان » ويعتقله .. وعلى هذا ، اتفقا على اللقاء فى مقر الديبلوماسيين البريطانيين ، فى ساعة متأخرة من الليل . وهناك ، أكد « ديجول » تصميمه على الرحيل ، لينظم حركة مقاومة ضد حكومة « بيتان » ..

« لافال » يسعى لتقاضى ثمن تأييده للمارشال !

● **واتصل** سبيرز بتشرشل ، فوافق على احضار « ديجول » ، اذ أنه كان كل من يستطيع البريطانيون أن يعولوا عليه من الفرنسيين ، بالرغم من أنه لم يكن مشهورا لدى الرأى العام الفرنسى .. واتفق على أن يذهب الى السفارة البريطانية ـ فى السابعة من صباح اليوم التالى ـ فتقله سيارة السفارة الى المطار ، وتسلمه الى طائرة بريطانية ..

وعندما ذهب « ديجول » مع « سبيرز » ـ فى الصباح التالى (الاثنين) ـ الى المطار ، كان عليه أن يتظاهر بأنه جاء لوداع صديقه البريطانى ، فيصعد معه الى الطائرة .. وفى اللحظة الأخيرة ، قال الطيار ان أمتعة ديجول تضمنت قطعا صغيرة كثيرة ، لا بد من تثبيتها بالحبال فى أماكنها .. **وبينما**

كان البحث يجري عن جبـال ، وصل اثنان من « ياوران » رئاسة الوزراء ، يسالان عن وجهة « ديجول » ، فقيل لهما انه كان موفدا الى انجلترا فى مهمة .. وما ان اقتنع الرجلان وانصرفا ، حتى بادرت الطائرة الى الاقلاع .. وقال تشرشل ـ فيما بعد ـ « ان ديجول كان يحمل معه فى هـذه الطائرة الصغيرة ، شرف فرنسا » !

وبينما كان « ديجـول » فى الجـو ، كان « بيير لافال » قد بدأ يحقد على « بيتان » . فلقد ظن أن المارشال سيذكر ـ عند تأليفه حكومته ـ أنه مدين بالكثير للجهود التى ظل « لافال » يبذلها طويلا ، لتحقيق هذه الغاية .. ولكنه حين ذهب لمقابلته ـ فى الساعة العاشرة والنصف من مساء يوم الأحد ـ وجد أن « بيتان » عينه وزيرا للعدل ، وكان يطمع فى وزارة الخارجية .. وكان « بيتان » قد عين « بودوان » للخارجية ، فلما حاول ارضاء « لافال » ، نبهه « فيجان » الى أن هذا قد يعتبر اثارة منه لبريطانيا ضـد حكمه .. ولم يشترك « لافال » فى الحكومة ، لتمسكه بمطلبه !

الكولونيل « المخال الى الاستيداع » يبدأ الجهاد

● وفى السـاعة السادسة من مسـاء يوم ١٨ يونيو « جلس الجنرال ديجول فى « استوديو » بالاذاعة البريطانية ـ لا يصحبه سوى مذيع بريطانى ـ ليوجه أول أحاديثه الى مواطنيه : « ان القادة الذين كانوا على رأس الجيوش الفرنسية سنوات عديدة ، قد ألفوا حكومة . وهذه الحكومة قد اتصلت بالعدو ـ تسليما منها بهزيمة جيوشنا ـ لتنهى القتال .. ولكن ، هل انتهى الأمر ؟ هل تبدد الأمل ؟ هل الهزيمة نهائية ؟ كلا !.. لأن فرنسـا ليست وحيدة ... »

وكان ـ كما ذكر فيما بعـد ـ يشـعر بأنه ، وهو فى التاسعة والأربعين من عمره ، قد أنهى الحياة التى عاشها فى

اطار « فرنسا متينة صلبة ، وجيش لا يتفكك » .. ليغوص فى مغامرة تقطعت به فيها كل روابط كانت تربطه بالماضى ، وأخذت رياح القدر تتدافعه !.. وبدا أن كلماته – فى غمرة الهزيمة – تنبعث فى فراغ .. ولعل هذا كان شعور الاذاعة البريطانية – لفرط العجب ! – فلم تتخذ التدابير للاحتفاظ بتسجيل لها !.. ولم تولها صحيفة « التايمز » اللندنية سوى سطور قلائل ، ولا تقدمت أية شخصية سياسية أو عسكرية للوقوف بجانبه فى هذا التحدى .. بل ان الذين سمعوها من الفرنسيين ، كانوا قلة ضئيلة ، لا سيما أن الكهرباء كانت مقطوعة فى كثير من المدن ، فكانت أجهزة « الراديو » معطلة .. وشعر « ديجول » أنه وحيد ، ولكن رسالته كانت تبدو له بجلاء !..

اما حكومة (بوردو) ، فقد أصدرت بيانا بأن « ديجول » لا يملك ما يؤهله لأن يوجه تصريحات الى الرأى العام « لأنه لم يعد عضوا فى الحكومة » !.. ودعته الحكومة العودة ، فكتب – بعد يومين – الى « فيجان » يؤكد استعداده للعودة اذا عدلت الحكومة عن توقيع الهدنة ، ويتوسل اليه أن يتجنب النكبة ، وأن ينتقل والحكومة الى أجزاء فرنسا – وراء البحار – لمواصلة النضال . ولكن الرسالة أعيدت الى ديجول – فيما بعد – وعليها هذه الكلمات : « اذا أراد الكولونيل المحال للاستيداع « ديجول » أن يتصل بالجنرال فيجان ، فعليه أن يفعل ذلك بالطرق النظامية » !

فى اللحظة الأخيرة .. أرجأ « لوبران » سفره !

● وفى نفس اليوم – ١٨ يونيو – اتصل « بيتان » بالسفير الأسبانى ، ليتحرى عن موقف الألمان ، بينما كان بعض السياسيين – وفى مقدمتهم رئيسا مجلسى النواب والشيوخ – يضغطون على الحكومة لترحل الى افريقيا ..

ولكن العسكرى العجوز ظل يردد فى اصرار : « لن أبرح فرنسا » !.. وعرض رئيسا البرلمان أن يبقى « بيتان » و « فيجان » واثنان أو ثلاثة من الوزراء ، وينتقل الباقون الى شمال افريقيا .. وبعد لأى ، قبل « بيتان » ، ووافق مجلس الوزراء - فى الصباح التالى - على ذلك . وتقرر أن يسافر « لوبران » ورئيسا البرلمان - هريو وجانينى - والوزراء من ميناء (بورت فاندر) ، بينما يبحر أعضاء البرلمان من (بوردو) مباشرة .

ولكن « لوبران » وزملاءه غفلوا عن تآمر « لافال » ، ومقدرة المارشال العجوز على الصمود ، ودسائس السياسيين المذعورين الذين كانوا يعارضون اتخاذ (الجزائر) مقرا للحكومة ، لأن هذا كان معناه استمرار الحرب !

ومن ثم ، فبينما كانت العدة تتخذ للرحيل ، فوجىء رئيس الجمهورية وزملاؤه بحديث يذاع للمارشال بيتان - فى ظهر يوم ٢٠ يونيو - مبررا طلبه للهدنة ، مؤكدا انه كرئيس للحكومة ، باق فى فرنسا .. وبينما كانت سيارة « لوبران » تتجه الى الباب الخارجى لمقره - فى الساعة الثانية بعد الظهر - فوجىء بنبأ تليفونى بأن « بيتان » دعا الى اجتماع خاص لمجلس الوزراء ، فقرر الرئيس البقاء ..

سكرتير مجلس الوزراء يكذب مرتين !

● **وكان** النبأ خدعة قام بها « رافائيل اليبير » ، سكرتير مجلس الوزراء - وكان رجلا ملتويا ومن أشد المتحمسين للملكية - لنسف مشروع الرحيل .. فقد أبلغ « بيتان » معلومات كاذبة ، مؤداها ان القوات الفرنسية استطاعت أن توقف الألمان عن عبور نهر (اللوار) ، ومن ثم فلا داعى لسفر رئيس الجمهورية والوزراء ، ووافق « بيتان » .. أما « ليبران » فأكد أنه برغم ذلك يعتزم الرحيل مع الآخرين !

ولقد اعترف ((البيير)) ـ بعد عامين ـ بأن هـذه كانت ((الاكذوبة الأولى)) .. وكانت ((الاكذوبة الثانية)) أن أملي أمرا ـ باسم رئيس الوزراء ، ودون علمه ـ الى كل وزير بأن يلزم بيته حتى الساعة الثامنة من الصباح التـالى ، وختم الأوامر بخاتم رئيس الوزراء ، وزور عليها توقيعه .. وجازت الخدعة ، حتى على الجنرال ((فيجان)) !

وهكذا انتهى آخـر أمل لرئيس الجمهورية والآخـرين فى نقل الحكومة الى شمال أفريقيا !

ادوار هريو يفتح باب الاستسلام !

● **ولكم** بهت « ادوار هيريو » ـ رئيس مجلس الشيوخ ـ عندما أبلغ فى منتصف ليل ١٧ ـ ١٨ يونيو ، ان الألمان كانوا يزحفون على مدينته (ليون) ، وان قوة فرنسية قوامها ٣٠٠٠ رجل ـ معظمهم من الزنوج ـ كانت معتزمة الدفاع عن المدينة ونسف الجسور .. وان المدينة كلها قد تدمر خلال القتال !

وأسرع « هيريو » الى ايقـاظ « بيتان » ، مطالبـا اياه بانقاذ مدينته من الخراب .. ومع دهشـة المارشـال ـ الذى كان لا يزال تحت تأثير النوم ! ـ من هذا الطلب الصـادر من اشد المعارضين للهدنة ، فقد بادر باصدار أوامره باعلان ليون « مدينة مفتوحة » .. وما أن علم رؤساء المدن الأخرى بذلك ، حتى انهالت الطلبـات باعلان مدنهم مفتوحـة هى الأخرى ، وبالتالى .. باصدار الأوامر للقوات الفرنسية بعدم اثارة أى عمل من أعمال الدفاع .. فوافقت الحكومة ، عن طيب خاطر !

وأعقب ذلك ، صـدور أمـر من الجـنرال كولسون ، وزير الدفاع الجديد ، بتحريم انسحاب السـلطات المدنيـة والعسكرية من المدن ، فى حالة وصول العدو اليها ! .. وكان معنى هذا : ((التسليم)) للألمان ((بمجرد وصولهم)) !

وأطيعت هذه الأوامـر بسرعة وارتينـاح فى كثير من

الأماكن .. حتى ان قائد احدى الفصائل استسلم لوحدة من الألمان ـ قبل وصولها الى موقعه ـ بمجرد أمر تليفونى ! .

« لافال » ينشط لهدم الجمهورية .. وتحقيق أطماعه !

● **ابتلع** « لافال » كبرياءه وغضبه ، وسعى الى الحكومة ـ يوم ٢٣ يونيو ـ طالبا أى منصب وزارى ، فعينه « بيتان » وزير دولة ، ثم حذر وزير الخارجية من أن يسمح له بالتدخل فى الشؤون الخارجية ! .. ولقد بهت « بودوان » لهذا التعيين ، ولكن المارشال قال ان وجود « لافال » فى الحكومة ، خير من تركه خارجها يحيك المؤامرات الخطرة !

وفى ٣٠ يونيو ، عقد المارشال اجتماعا حضره « لافال » و « اليبير » و « بودوان » .. وكان من رأى الأخير أن يأمر رئيس الحكومة بتأجيل البرلمان ستة أشهر ، **ولكن « لافال » و « اليبير » عارضا هذا الإجراء ، بحجة أن فرنسا المهزومة كانت فى حاجة الى جهاز دولة يستطيع التفاوض مع الألمان ، وان الضرورة تدعو الى عقد البرلمان بمجلسيه فورا ، وحمله على أن يفوض رئيس الوزراء ويمنحه السلطة الكاملة لوضع دستور جديد لنظام حكم جديد !**

واعتبر « بودوان » أن مثل هذا الاجراء سيعتبر ـ فى رأى أغلبية البرلمانيين ـ أمرا بالانتحار .. ولكن المارشال كان ضعيفا فى السياسة ، لا يستقر على رأى . وقد حاول الافلات من الحاح « لافال » ، فتعلل بأن الأمر من اختصاص رئيس الجمهورية .. ولكن « لافال » لم ينثن ، بل قال : « سأحصل فورا على موافقة ليبران التامة » ! .. **وانطلق لفوره ، ثم عاد بعد ساعة ، يفخر بانه فوض كل معارضة لرئيس الجمهورية ، وحصل على موافقته على تعديل الدستور !**

ثم شرع لافال فى هدم « الجمهورية الثالثة » .. وكم

كانت دهشته ، حين أيده الاشتراكيون ، الذين كانوا آخر من يقر الديكتاتورية الفاشية ! .. بل ان كثيرا من أقطابهم ، دعوا الى الالتفاف حول « بيتان » ، وحل الأحزاب السياسية .. وان راحوا يتساءلون فى أنفسهم : اذا أصبح المارشال ديكتاتورا ، فمن يخلفه اذا أصابه حادث ؟ .. وكان جواب « لافال » بسيطا : « إن المارشال سيعين اسم خليفته بنفسه » !

والواقع ان « لافال » كان يسعى لأن يعينه « بيتان » خليفة له .. كانت خطته ترمى الى التخلص من الجمهورية البرلمانية واقامة « بيتان » ديكتاتورا .. ثم السعى الى اقناع المارشال بأن يختاره خليفة له . وراح يعمل جاهدا لاقناع أعضاء البرلمان بأن يقرروا بأنفسهم نهاية الجمهورية !

.. وماتت الجمهورية الفرنسية الثالثة !

● وبينما كان « رينو » وعشيقته الكونتة « دى بورت » فى سيارتهما — يوم ٢٨ يونيو — تعرضت السيارة لحادث ، ولقيت الكونتة مصرعها .. وفى ٢٩ يوليو ، رحل « رينو » — برغم أوامر الأطباء الذين كانوا يعالجونه — الى (فيشى) ، لا لينقذ الجمهورية من تدابير « لافال » ، كما ظن الكثيرون ، **وانما ليدافع عن اثنين من « ياورانه » ، اعتقلا فى مدريد ومعهما مبالغ ضخمة من أموال « المصاريف السرية » — التى كانت تحت تصرفه وهو رئيس للوزراء — وحلى ومجوهرات عشيقته .. وكانا يحاولان تهريب كل هذه الثروة ، بتعليمات منه !**

وما ان أتم مهمته هذه بنجاح ، حتى تذكر أوامر الأطباء ، فلم يشأ حضور اجتماعات البرلمان ، وغادر (فيشى) ، لا يحمل ضغينة ما لبيتان !

ولقد اجتمع مجلسا البرلمان — بعد ظهر يوم ١٠ يوليو — فى هيئة جمعية عامة ، وبدأ الأعضاء يشعرون بخطورة المهمة ،

ولكن انصار لافال راحوا يصيحون : « صوتوا ! » .. وحاول « جانينى » توجيههم الى مراعاة الاجراءات البرلمانية ، وسماع آراء الذين طلبوا الكلام قبل التصويت ، حتى يتيح فرصة للمعارضة .. ولكن الصيحات ظلت تنادى : « التصويت ! »

وضاعت كل الأساليب ، والمناورات ، والتكتيكات البرلمانية . وبدأ التصويت ، وقد أصبح كل امرىء على دراية بأن المطلوب هو النطق بحكم الاعدام على الجمهورية .. ومع ذلك ، فان عدد المعارضين لم يتجاوز ٨٠ ، والذين امتنعوا عن التصويت ١٧ ، بينما كان المؤيدون ٥٦٩ !

وماتت الجمهورية الفرنسية الثالثة .. او ــ على الأصح ــ انتحرت !

وكما أعلن مولدها بعد هزيمة ــ اذ أعلنت فى ٤ سبتمبر ١٨٧٠ ، عقب هزيمة منكرة أوقعها الألمان (البروسيون) بالفرنسيين ــ فانها لفظت آخر أنفاسها عقب هزيمة منكرة أخرى ، أوقعها بفرنسا أبناء البروسيين وأحفادهم ، بعد ٧٠ عاماً !

ماتت الجمهورية الثالثة ، وبقى أن توارى التراب .. ودفنت فى عجلة بالغة ، وكأنما كان أقزام (فيشى) يخشون أن ترتد اليها الحياة !

وبدأ « فيليب بيتان » ــ بتحريض من « لافال » و « فيجان » وأنصارهما ــ يستخدم الأسلوب الملكى القديم :

« نحن فيليب بيتان ، مارشال فرنسا ، اذ أتولى وظائف الدولة الفرنسية ، آمر بما هو آت ... »

وهكذا أصدر مرسوم انتهاء الدستور الجمهورى ، وتولى السلطة المطلقة « لسن القوانين وضمان تنفيذها » ..

وبعد أن أصدر مرسوما بتعيين « لافال » خليفة له (١) ، لم يبق سوى أضعف — ولكن أعند — النقاط فى مخطط « لافال » : التخلص من رئيس الجمهورية « ليبران » !

وفى ١٣ يوليو ، ذهب اليه « بيتان » (٢) ، ليقول له .

« لقد حانت اللحظة الأليمة يا سيدى الرئيس . لقد احسنت خدمة الدولة ، ولكن الجمعية القومية قررت موقفا جديدا . ولن اكون خليفتك ، لأن نظاما جديدا للحكم يبدأ اليوم » ..

وكان جواب ليبران : « لا تتعب نفسك . لقد ظللت طيلة حياتى الخادم الأمين للقانون ، حتى ولو لم يحظ بتأييدى الأدبى . ولن يزعجنى أن أطيعه مرة أخرى . لقد تكلمت الجمعية القومية ، وعلى جميع الفرنسيين أن يطيعوا » .

ونزل « ليبران » .. وراحت الجمهورية الثالثة أدراج التاريخ .

---

(١) وقد تولى لافال رئاسة الوزارة بالفعل فى ابريل ١٩٤٢ فتعاون مع الألمان الى الحد الذى انتهى بالحلفاء الى محاكمته عقب تحرير فرنسا ، وتنفيذ الحكم باعدامه فى عام ١٩٤٥ (عن ٦٢ عاما) . وقد بدأ لافال حياته كمحام ، ثم دخل الحياة السياسية حتى انتخب عضوا بمجلس النواب (١٩١٤) ، وفى عام ١٩٣١ صار رئيسا للوزارة ووزيرا للخارجية .. ثم وزيرا للعمل (١٩٣٢) ، فوزيرا للمستعمرات (١٩٣٤) ، فوزيرا للخارجية (١٩٣٤ — ١٩٣٥) ، فرئيسا للوزارة ووزيرا للخارجية (١٩٣٥ — ١٩٣٦) ، فنائب رئيس فى حكومة فيشى (من يوليو الى ديسمبر ١٩٤٠) ، واخيرا رئيسا للوزارة حتى حوكم واعدم .

(٢) استمر بيتان رئيسا للدولة حتى ١٩٤٤ فلما حرر الحلفاء فرنسا هرب الى سويسرا ، لكنه عاد فسلم نفسه فى ابريل ١٩٤٥ حين طلب للمحاكمة . وفى اغسطس ١٩٤٥ ادين بالتعاون مع الألمان وحكم عليه بالاعدام ، لكن ديجول خفف الحكم الى السجن المؤبد ، فقضى بيتان فى السجن ٦ اعوام حتى مات عام ١٩٥١ عن ٩٥ عاما .

شركة الخطوط الجوية العالمية TWA
تعلن عن أسهل طريق
للوصول إلى أمريكا

يدفع المهاجر
١٠٪ مقدما
والباقي يقسط
على ٢٤ شهرا
رحلتان أسبوعيا
تليفون:
القاهرة ٥٩٧٦٠
الاسكندرية ٢٦٣٢٨





TRANS WORLD AIRLINES

محتويات الكتاب

الموضوع **صفحة**

مجلة الصغار

شخصيات خالدة : ابن سـينا ـ صدق أو لا تصدق ـ حمام أمير اسيوى يكلف نصف مليون دولار ! ـ عصر الحديد بدأ فى مصر ! ـ أعلى صوت على سطح الأرض ـ جاليليو ـ الأفعى التى تبصق سما ! ـ هل سألت نفسك ؟ (اختبار لمعلوماتك) ـ يقود ثورة ضد نفسه ـ أبشع جزار فى التاريخ ـ ابنتا الشمس (قصة للصغار) .. الخ .

كتابى

تصدر عن **الشعب** مؤسسة صحفية عربية

أخصائيون فى المطبوعات العاجلة



الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة . ت ٣١٨١٠ • مكتبة دار الشعب ـ ت ٢٩٩٩١

التوزيع : مكتبة دار الشعب

المطابع : ... ت ٣١٨١٠ ـ ٣١٨١٨ ـ ٣١٨١٩
... ٨٤٤٨١٠

رئيس مجلس الإدارة
السيد ابراهيم


قصة للأديبة العالمية "هان سوين"
وكتب أخرى

كتابى

مجلة شهرية للثقافة العالمية

صاحبها ورئيس تحريرها : حلمى مراد



اطلب مع هذا العدد

هدية منفصلة فى ٣٢ صفحة

مجلة الصغار

للاولاد والبنات

الكتاب رقم ١٠٤

التحرير : ٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) ، شقة ١١١ ، القاهرة ــ تليفون ٤٦٤٧٥

الناشر : دار الشعب ــ ٩٢ شارع قصر العينى، القاهرة ــ تليفون ٣١٨١٠

حب وصراع.. في كمبوديا

قصة طويلة للروائية العالمية "هان سويين"
تنبأت فيها بالأحداث الحالية في المنطقة..!



THE FOUR FACES, BY : HAN SUYIN

تلخيص : محمد بدر الدين خليل

كاتبة شرقية تقدم مثالا للرواية الحديثة

● الحب ، الجنس ، الجريمة ، الجاسوسية ، السياسة .. اهم العناصر التى يحلو للروائيين والقصصيين أن ينسجوا حولها أروع انتاجهم .. وعادة ، يكفى عنصر واحد او عنصران من هذه ، للكاتب القدير ، كى ينتج قصة او رواية ناجحة . ولكن الرواية التى نلخصها لك على الصفحات التالية ، ضمت العناصر الخمسة جميعا ، وقد امتزج بعضها ببعض امتزاجا رائعا ، يشهد بالبراعة والمقدرة للمؤلفة « هان سوين » .. التى احاطت هذا المزيج باطارات من الاثارة ، ولفته بغلالات من الغموض المشوق ، ثم عرضت هذه الخلاصة من الابداع القصصى على مسرح من الاحداث الواقعية ، وفى منطقة من اكثر مناطق العالم حساسية فى ايامنا هذه .. فى جنوب شرقى آسيا .. وفى (كمبوديا) بالذات ..

ومن اقوى ما يبهرنا - فى كل هذا - أن المؤلفة استطاعت منذ سبع سنوات ان تتنبأ بالأحداث التى جرت اخيرا فى (كمبوديا) .. مما ينم عن فهم واع دقيق للمؤامرات السياسية التى تعبث بسلام وكيان (كمبوديا) ، وجنوب شرقى آسيا ، بل والعالم بأسره .. وهكذا استطاعت كاتبة شرقية أن تنتزع ميزة الابداع - فى هذا اللون من الروايات - من كتاب الغرب ، وان تتفوق عليهم تفوقا مذهلا . بل ان « هان سوين » امتازت على أولئك الكتاب بانها لم تتعرض لموضوعها من ناحية خيالية فحسب - فما يجعل الرواية مجرد اداة للتسلية - وانما هى تناولته على أضواء دراسات دقيقة وعميقة ، نفذت خلالها الى الاسلحة السرية فى الصراع الذى يشنه الاستعمار والرأسمالية على الدول الافريقية والاسيوية .. فكشفت دور الشبكة الدقيقة - التى تشمل العالم بأسره - لتهريب المخدرات ، لتمويل حركات هدامة تتعاون مع الامبريالية بالوانها ، كالحركة السرية الفرنسية ، التى تحقد على « ديجول » لتسليمه باستقلال الجزائر ، والتى تحقد على أمريكا - فى الوقت ذاته - لسعيها الذى لا ينقطع لكى تخلف فرنسا فى السيطرة على الهند الصينية .. وحركات بعض المبشرين الغربيين ، الذين يعملون لاهداف استعمارية فى الشرق ، تحت ستار الدين .. وحركات بعض الغربيين المتوغلين فى بعض الدول الاسيوية ، بزعم انهم اشتراكيون او شيوعيون ، ينظمون حركات لمقاومة الاغراض الامبريالية ، وهم - فى الواقع - يخدمون غايات خاصة وامبريالية ..

.. عاشت احداث الصين والشرق الأقصى

● بقى أن تعرف أن « هان سوين » ولدت فى بكين ، من اب صينى عريق الاصل ، وأم هولندية . وقد نشأت فى وطن ابيها ، ولم تتعلم الانجليزية الا بعد أن تجاوزت العاشرة من عمرها . وبعد اتمام دراستها الثانوية ، التحقت « هان » بجامعة صينية ، حتى اذا تخرجت ، قامت بجولة فى اوربا لمدة سنتين مع زوجها ، ثم عاد الزوجان الى الصين — فى سنة ١٩٣٨ — ولم يفارقاها عندما قامت الحرب الصينية اليابانية ، بل عاشا احداث هـذه الحرب .. وكتبت « هان » — فى تلك الأثناء — سـيرة حياتها ، بعنوان « شونكينج هى المقصد » !

ولقى زوج « هان » مصرعه فى الحرب الأهلية — فى الصين — فتفرغت الكاتبة للدراسة الطبية فى جامعة لندن ، ثم عادت الى الصين ، حيث كتبت الرواية التى صنعت مجدها : « شىء متعدد الرواء » — التى اخرجت فى فيلم سينمائى عالمى باسم « روعة الحب » ، مثلته « جنيفر جونز و « وليم هولدن » . وتدور أحداثه أثناء حرب كوريا — وقد اختارتها « جمعيـة الكتـاب » الانجليزية كاعظم رواية حب ، وككتاب تسجيلى فذ .. ثم اتبعتها برواية « .. والمطر شرابى » ، التى كانت بين مختارات « جمعية الكتاب » كذلك ، والتى دارت حول استقلال الملايو .. وفى سنة ١٩٥٦ ، اودعت « هان » مشاهداتها وانفعالاتها — فى حفـلة تتويج ملك نيبال — رواية اسمتها « الجبل فى غضارة الشباب » .. وتوالى انتاجهـا ، وآخره الرواية التى نقدمها على الصفحات التالية : « اربعة وجوه » !

يوم الأحد :

● كانت اجهزة تكييف الهـواء — فى قاعة المائدة بمطار (دوسوانج) ببانجكوك — مغلقة فى الصباح الباكر ، فأخذ هدير طائرات القتال النفاثة الأمريكية ينفذ الى داخلها .. وشعر « چيون » أن صراخ الطائرات — وهى تمرق فى الجو — يخرق أذنيه ، ويثير أعصابه ، ويفرض جوا بغيضا .. جو العنف الضرورى للحرب .

كان ثمة اربعون امريكيا — من رجال السلاح الجوى — يجلسون الى مائدة طويلة ، يمضغون الأكل ، بوجوه صخرية ، وعيون جامدة .. والى جانب « چيون » كان ضابط طيران سيامى — فى بزة عسكرية أمريكية — يقول لسائح المانى : « ان تايلاند قلعة ضد الشيوعية » !

ووضعت « شيبلا مانلى » يديها على أذنيها ، فتطلع اليها والدها « تشارلز مانلى » قلقا ، فقالت : « هذه الضجة تدير رأسى يا أبى ! » .. ونهضت مبتعدة ، فلاحقها أبوها بنظراته ، وقد اثقل قلبه تجاهلها اياه .. وسرعان ما أقبلت عليه زوجته « اليزا كراوفورد » ، فتمالك نفسه ، واسترد هدوءه المعهود ، كشخصية علمية ، ونهض فسحب مقعداً لها .. فقالت فى صوت عذب ، يوحى للرجال بأنها ما زالت تحتفظ بشبابها : « اين شيبلا ؟ .. أين الطفلة ؟ »

وكان « شوندرا داس » فى ساحة المطار ، يراقب جماعة من الرهبان البوذيين ، فى أرديتهم الصفراء ، وقد انصرفوا الى مشاهدة الطائرات وهى تمرق فى الهواء .. وما لبث أن انبعث صوت خلال المذياع : « المسافرون الى سييمرياب وبنوم بنه ! » ، فاتجه « شوندرا » نحو قاعة الطعام ، حيث نهض المسافرون ، وأخذوا يجمعون أمتعتهم ، ويتجهون الى خارج القاعة .. فتبعهم !



● **نهض** الكابتن « ليدريه » عن مقعده — وقد بلل العرق قميصه — وسار الى الطائرة ، وهو يشعر بالتعب ولما تبدأ الرحلة .. وكان يدرك أنهم لا يجدون طيارا مثله ، وان بدأ القلق يداخله ، اذ كان الاسيويون يتقدمون بسرعة ليحلوا محل الطيارين الأجانب . فماذا يفعل اذا سرحته الشركة يوما ما ؟ .. **وقال لنفسه : « هناك الكونغو ، أو لاوس ، أو الجزائر ..**

ليتها لا تهدأ ، وان كنت أكره القسوة !.. ما احببتها أبدا ! »
.. وهناك حركة تهريب الأسلحة والمخدرات فى (لاوس) .. انهـا لن تنقطع لفترة ، طالما ان ذلك « الجنرال » ـ الذى تناصره « الديموقراطية » ـ يسيطر على مقاليد الحكم !

وتفقد « ليدريه » محركات ومؤشرات الطائرة ، ثم انطلق بها حتى آخر المدرج ، وأوقفها لحظة ريثما تستجمع المحركات قواها ، لترتفع فى الهـواء .. هذه اللحظة كانت ترده دائما ستة اعوام الى الخلف ، عندما هم بأن يقلع بطائرة ، فاذا بها تهـوى محطمة على أرض مطار (هانوى) ، فى تلك الحرب « القذرة » التى انتهت فى (ديان بيان فو) !.. لقد تحدث ـ ليـلة أمس ـ عن هواجس هـذه اللحظة ، الى الحسناء الشقراء التى جاءت طواعية الى سريره ، ولم تحاول ان تخفى رغبتها .. لا بد أنها بين ركاب الطائرة !.. ورجا مساعده أن يبحث عنها بين المسافرين ، فيدعوها الى قمرة القيادة .. وهو شرف لا يتاح الا لكبار الشخصيات !

وأقبلت « شيلا » ، فأشار الى المقعد الخالى بجواره .. وشملها بنظرة متفحصة سريعة .. كانت شقرتها حقيقية ، وكان شعرها حريريا ، وتحته وجه كأنما نحتت قسماته يد مهندس معمارى دقيق .. وعنـدما برزت من بين الغابات معابد (انجكور) ، أخذ يحدث الشقراء عن هذا الموقع الأثرى ، وقد غمره حب مفاجىء .. حب الفرنسي الذى انتزع هـذه الآثار من الغابات ليجعل منها اعجوبة العالم الثامنة ، التى يفد السياح من كافة أرجاء العالم لمشاهدتها !



● **كان** « چيون » قد راقب الشقراء ـ وهى تتجه الى قمرة القيادة ـ بنظرات تجاوزت ثيابها لتتغلغل فى أعماقها .. كانت دعوة « المؤتمـر الحيـادى للكتاب » الى الاجتماع فى

(كمبوديا) حجة لعودته الى (انجكور) ، التى ظل يحن اليها مذ زارها اول مرة - قبل عامين . وقد يكون المؤتمر - كغيره من اجتماعات الكتاب - عملا غير مثمر ، اذ أن مثل هذه الاجتماعات كثيرا ما تتحول الى استعراضات خطابية ، ومصادمات سياسية ، ومناسبات يلفها الضباب .. وتذكر « چيون » مؤتمرا عقد فى أوربا - منذ سنوات - تحول الى حملة سياسية ، بمهارة « موني مولتاني » ، وهو كاتب هندى لامع ، وطموح ، كان يجلس فى مقعد بأحد الصفوف امامه ، فى الطائرة .. كان « مولتاني » يريد من كل دولة أسيوية أن تلقى بنفسها فى أحضان الغرب ، وأن ترتبط معه باتفاقيات وبرامج عسكرية : ولم يكن يكف عن الأسفار ، ليلقى محاضرات ويكتب مقالات عن « الخطر الشيوعى » .. ولا بد أن لوجوده فى « المؤتمر الحيادى » - فى كمبوديا المحايدة - معنى واهمية ..

ولكن ، ما غاية المؤتمر ؟.. ان الدعوة لم تتضمن كلمة « السلام » ، التى يستخدمها اليساريون ، ولا كلمة « الحرية » التى يتشبث بها اليمينيون .. وعلى نقيض مؤتمرات « الحرية » ، كان المدعو لهذا المؤتمر يتكفل بكافة نفقات سفره واقامته .. وكان هذا مما يؤكد انه « حيادى » !

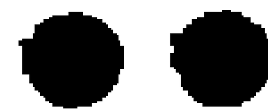
وفى مقعد أمام « چيون » مباشرة ، جلس « شوندرا داس » .. كان من « الكتاب التقدميين » الهنود ، الذين لقيت كتبهم رواجا لما فيها من صدق « بروليتارى » ، وبراعة سياسية .. وبرغم شعره الأبيض ، كان وجهه يشرق بنضارة مبعثها ايمانه ب « المجتمع الصالح » ، وتفاؤله الذى لا يتزعزع .. وعندما التقى « داس » و « مولتاني » - فى المطار - أشاح كل منهما عن الآخر ، وهو يبتسم فى رثاء وازدراء !.. وساءل « چيون » نفسه : كيف يجتمع الاثنان فى مؤتمر واحد ؟.. لم يكن « داس » يملك نفقات السفر والاقامة ، بينما كان

المعروف أن مؤسسات غربية تنفق على « مولتانى » .. أما « چيون » نفسه ، فكان له ميراث يجعله فوق الشبهات !

وما من سبيل لمعرفة أصحاب الفكر بين الكتاب ، فان « الحرب البـــاردة » اتاحت لقب « الكاتب » للصحفى ، والروائى ، والشاعر .. بل وللطابع على الآلة الكاتبة . وفى مهب الرياح الباردة والساخنة ، أصبح صناع الكلمة فرائس للكلمـة ، وراحوا ـ فى ضراوة ـ يمزقون أنفسهم بحثا عن أنفسهم !.. فاذا بهم يضيعون فى متاهات « اللاشىء » ، واذا « التعبير عن النفس » يصبح مصطلحا أجوف غير ذى معنى !

وقال « چيون » لنفسه : اننا جميعا نتعثر فى سعينا الى عالم أفضل . ولكن بعض الكتاب التفتوا الى الماضى بحنين ، وبعضهم جمع ثروات باستغلال بلاغته لتبديد الملل ، أو اثارة النوازع الجنسية المكبوتة ، أو تعرية جراح الروح الانسانية والمبالغة فى تصويرها .. ولقد أراد « چيـون » ـ ككاتب اسيوى ـ أن ينجو من هذه المتناقضات ، فأوحى لنفسه بأن يحرص على أن يتبع هوى عقله ، دون أن ينحاز لأى الفرقاء .. ولكن هذا المسلك منه ، كان فى حقيقته هروبا .. وكان يرجو أحيانا ، ان يخرج من المناقشات والمجادلات ببصيص يهديه وأمثاله ـ ممن وقفوا حيارى بين صراع النظامين الاقتصاديين : الغربى والشرقى ـ الى طريق سوى مأمون . ولكنه لم يلبث ان كف عن البحث عن مثل هذا الطريق ، وآثر الا يختار جانبا ينحاز اليه ، وان أدرك أن هذا الوضع غير مرض ولا مثمر !

وانتزعته من أفكاره عودة الشقراء من قمرة القيادة ، فأخذ يتأملهـا ، وهو يقول لنفسـه : « الواقع أننى لا أحب الشقراوات ! » .. كان فى هذه الفترة من حياته يجتاز مرحلة زهد ، وانصراف عن المتع الحسية .. وضع مجرد ، مبهم ، كذلك الذى اختاره لنفسه فى ميدان الكلمة !



● شعرت « ميبل ديسبير » بالألم يسرى فى ساقيها .. كانت تأبى أن تنصت لمن يعزو هذا الى ثقل حذاءيها ، فقد عودتها امها الانجليزية أن تبتاع أحذيتها من انجلترا .. وكانت « ميبل » حريصة على الا تبـدو « أوراسية » ، فقد كانت ملامحها اوربيـة ، وما كان أحد يعرف أن اباها صينى من (بورما) ، وان كانت هذه الحقيقة قد وضعت العراقيل فى طريقها .. فان الشركات الأوربية ـ فى آسيا ـ كانت تريد سكرتيرات على المام بلغـات آسيوية الى جانب الانجليزية ، وهذا ما لم يتيسر لها ، اذ كانت أمها تحرص على الا ترتبط بآسـيا .. وكان الاسيويون ينظرون الى امثـالها على أنهم موالون للاســتعمار .. الى ان قابلتـها « مارى فاوست » وفهمتها ، فعهدت اليهـا بعمل ينقذها من هذا الضياع .. أو اللا انتماء !.. واتخذتها سكرتيرة لها فى جهودها الثورية !

وما كانت « ميبل » قد قرأت لماركس قط ، ولكنها ـ ككل أهل آسيا ـ كانت تشعر بأنها جزء من حركة تغيير لا تنقطع .. **وسرعان ما أحبت ((مارى فاوست)) ، وأعجبت بها ، ومضت فى اعجابها الى درجة عبادتهـا كبطلة من الأبطـال . ولم تكن ((مارى)) اســيوية ، ولكنها كانت امريكية ((فهمت)) الاسيويين ، وعرفت آسيا كما لم يعرفها الكثيرون من أبنائها ، وآلت على نفسها أن تعـد ((ثورة آسيا)) .. هكذا قالت لميبل ، وقد صدقتها ((ميبل)) ، فتولت نسخ كل ما كانت تكتب ، وتفانت فى تنفيــذ تعليماتها !..** وكان « توماس ديسبير » ـ وهو من أم صينية وأب اسكتلندى ـ يعيب على زوجته هذا التفانى ، ويسخر من « ثورة مارى فاوست » . ولكنه لم يملك أن يعترض سفر زوجته الى المؤتمر .

وراحت « ميبل » تحلم بمقابلة كبار الكتاب فى المؤتمر ، وقد يكتشف أحدهم فيها ما يلهمه عملا يخلدها .. ومضت ـ فى أحلامها ـ تتصور لنفسها دورا فى « الثورة » .. لولا

« ماري » لما انفسح امامها هذا المستقبل ، فأي شيء تضن به من اجل « ماري » والثورة ؟ . . لقد قالت لها ماري : « يجب أن تكوني مستعدة لأي شيء من أجل الثورة . . ولو لمضاجعة شخص راسمالي ! »

وكان « شوندرا داس » — في هذه الأثنـــــاء — يفكر في مدى خوفه من « ماري فاوست » . . ان « ماري » اعتادت ان تخلف وراءها اعصابا محترقة ، وعواطف مهشمة ، وارواحا مذعورة . . وكان مجرد وجود « ميبل » في الطائرة ، كفيلا بأن يثير قلق « داس » ، لا سيما انه رأى « ماري » تودعها في المطار ، وتلاحقها بتعليمات لا تنقطع . . ومع انها لم تصعد الى الطائرة ، فان وجودها كان متمثلا في سكرتيرتها . .

وســاءل « داس » نفســه : لماذا يرتبـك دائما امام « ماري » ؟ . . لقد قضى شهورا حتى تبين انها زائفة . . انها — بالتعبير السياسي الابسيوي — مجرد « انتهازية » . . ومع ذلك ، فقد كان أمامها يشعر برهبة ، وخوف . . لقد كانت على النقيض من « موني مولتاني » ، فهذا الأخير « رجعي » دون مواراة ، وقد عرف « داس » كيف يعامله ، وسينازله في المؤتمـر !

وكان « موني مولتاني » يفكر فيه ، هو الآخر . . كان — في بزته الغالية ، السوداء ، التي لا يقر زملاؤه الهنود ارتداء مثلها — يجلس في مقعده مستسلما لأحلام اليقظة . . كانت رؤية « داس » في المطار ، قد هزته ، فراح يقول لنفسه ان من الحرى به — وهو الذي حصل على شهادة اتمام الثانوية من (كمبريدج) قبل ثلاثين سنة ، وتشبع بالثقافة الانجليزية — ان يمسك أعصابه ، والا يدع حملات « داس » تثيره !

● ●

● وقف مسيو « بوليه » ــ مدير فندق (نوبريم) فى أنجكور ــ يشرف بنفسه على فرش البساط الأحمر الجديد ، اذ كان صاحب السمو الأمير سيهانوك ــ عاهل كمبوديا ــ يقيم مأدبة عشاء فى الفندق ، لوفد تجارى صينى .. كما كان يعتزم اقامة مأدبة ــ فى الليلة التالية ــ لوفد أمريكى . فقد كان الحاكم الذكى حريصا على حفظ التوازن بين الكتلتين المتعاديتين ، صونا لحياد كمبوديا .. **كانت بلاده ترحب بكل من يرغب فى مساعدتها من الفريقين ، ولكن .. دون شروط أو التزامات أو انحياز . وكانت هذه السياسة تغضب أولئك الذين يعجزون عن أن يبتاعوا ــ بما يسمونه ((المعونة)) ــ قواعد عسكرية أو تحالفا ، ولكن الأمير سيهانوك اعتاد ان يقول : ((اننى افعل ما فيه خير بلادى وشعبى ، فهما عندى قبل كل اعتبار !))**

وقال الكابتن ليدريه ، وهو يتأمل ركاب طائرته الذين احتشدوا فى بهو الفندق : « جمهور عجيب من السياح ! » .. ثم لمح « شيلا » جالسة بين رجل نحيف ، وقور ، بادى الذكاء .. وامرأة طويلة ، أنيقة ، فى ثوب قصير عارى الصدر والذراعين .. وشعر « ليدريه » بتوتر ، لمقابلة والد الفتاة التى ضاجعها ، ولكن الفتاة أشارت اليه ، وقالت تعرفه بالرجل والمرأة : « والدى تشارلز مانلى .. وليزا كراوفورد ، مسز مانلى ! »

وشعر « ليدريه » بكراهية لوالد الفتاة ولزوجة أبيها لأول وهلة .. بينما أخذا هما يرمقانه ــ فى أدب ــ بنظرات متفحصة .. وحاول الطيار أن يحدثهما عن المعالم السياحية ، فأطلقت المرأة ضحكة خفيفة كالنغم ، وقالت : « ان زوجى خبير فى شؤون الدول المتخلفة » .. وقال الرجل : « ان انعقاد مؤتمر حيادى للكتاب أثار استغرابى ، فأردت حضوره ، عسى أن يساعدنى فى فهم السياسة الكمبودية ، وان لم يكن

هذا فى دائرة اختصاصى ، لا سيما أننى أمثل منظمة دولية » !

قال ليدريه : « لكل شيء هنا علاقة بالسياسة ، لا سيما الأدب .. »

ونهضت « شييلا » الى مكتب استعلامات الفندق ، فلحق بها ليدريه ، وقال : « هل سأراك بعد الغداء ؟ .. سأكون فى حجرتى ، وسأطير الى (بنوم بنه) فى الرابعة مســاء » .. كانت نفسه تحدثه بأن يضاجع الفتاة مرة أخرى .. وزوجة ابيها أيضا ، ليلقن الخبير « البورجوازى » درسا !

وأجابت الفتاة : « سأوافيك .. اذا كنت تريدنى حقا ! » .. وأذهله تواضعها ، فشعر باستحياء ، وكأنها صفعته !



● رأى « چيون » باب حجرته يفتح ، وتبدو خلاله الفتاة الشقراء .. وهتفت : « آسفة . أخطأت الحجرة ! » .. وكان يفرغ محتويات حقيبته ، فتوقف مرتقبا أن تنسحب ، وهو يدرك انها كاذبة .. ولكن شعورا بالوحشة ، أغراه بأن يبادلها بعض الحديث ، فدعاها الى الجلوس بجوار الشرفة ..

وقالت الفتاة : « لا يبدو عليك أنك كاتب ، فأنت موفور الملاحة والأناقة .. ترى من أين انت ؟ » .. واجابها متكلفا لهجة مسرحية : « انني من زمرة الرحالة ، ركاب الطائرات ، الذين يطوفون بالعالم ، ويكسبون عيشهم من الكتابة عنه !.. وانت ؟ » .. وطوحت قدمها الى الأمام قائلة : **« انني .. لا شيء ، ولا انتمي الى شيء .. اود ان ارتبط بمكان ما ، فلا افلح .. تعلمت فى سويسرا ، وتزوجت فى نيــويورك ، وطلقت فى (رينو) ، وانا الآن اسافر مع ابى وزوجته .. ابى يدرس الدول المتخلفة مقابل مرتب ضخم .. وارافقه لأننى اصبت بانهيار عصبى . تشارلز يصطحبنى ، واليزا كراوفورد تصطحبه ! »**

ولذ له أسلوبها ولهجتها ، فسألها عن « اليزا » وهو يسوى ثيابه على مشاجب أحضرها معه .. كان منظما فى كل شيء ، حتى فى تفكيره . وكان هذا يروق له ، اذ انه يمكنه من مساعدة سواه .. واخذ يراقب نفسه ، ويراقب الفتاة فى فضول ، وكأنها حيوان حبيس فى قفص حياتها ذاتها .. مجرد مشاهدة ، دون ما تدخل ، اللهم الا اذا سألته الفتاة مونا .. وابتسم ، فقالت الفتاة : « لماذا تبتسم ؟.. الآن اليزا زوجة ابى ؟.. كانت امى شقيقتها ، وكانت اليزا تكرهها ، وانا اكره اليزا !.. انها محررة الأزياء المشهورة ، بمجلة « ماسكارا » ، وقد ابتكرت لمسة شرقية أضفتها على أزياء الغرب .. ان ابى أكاديمى جاء للبحث والدراسة ، أما هى فجاءت تقتنص روح (انجكور) .. وهناك مصور سيلحق بها ، يدعى بيتر !.. أما أنا ، فأضيع وقتى ، وأدمر حياتى ـ كما يقولون لى ـ واكره اليزا .. ! »

وراق لها اصغاؤه لحديثها ، فقالت : « انني ارتاح للكلام معك .. انني عادة لا احب محادثة الرجال .. لا احب سوى النوم معهم » !.. ولم يبد دهشة ، فقد توقع أن تقول هذا ، وان لم يدر مبررا لتوقعه .. كانت وحيدة ، تمضها الوحدة ، وتسحقها الوحشة .. وقال : « انك تعانين الوحدة فحسب .. ولكن ، لماذا تمارسين الجنس ؟ »

ـ وماذا فى الحياة سواه ؟ ان احسن الكتاب لا يجدون فى الحياة ما يكتبون عنه اليوم ، سوى الملل والضيق !

ونسى ما حوله ، وهو يفكر .. فى كل كتاب ، كان يخال انه توصل الى سر الحياة ، ثم لا يلبث أن يتبين أنه لم يصل الى شيء .. كان الحظ قد حباه بالمال ، والمال يمنح المرء الحرية ، والحرية لا تجعل المرء مسئولا عن شيء .. ولكن المال والحرية جعلاه ـ هو بالذات ـ حريصا .. فقد كان كثير الأسئلة ، وما لم يلتزم الحذر فقد يدمغ بأنه

« سياسي » ـ مثل « شوندرا داس » ـ فيفقد جمهوره !..
والمال والحرية مكناه ـ كذلك ـ من أن لا يستقر فى مكان واحد ، ولا بين صنف واحد من الناس .. ولقد عرفت كافة وجوه الحقيقة عن التبت ، والسويس ، والكونغو ، ولكنه آثر ألا ينحاز الى اى جانب ، والا يستند ـ فى الجهر برأى ما ـ الا الى معرفته ، ومن ثم نجا من التيار الذى جرف كتابا غيره !

وعادت الشقراء تقول : « ان المرء لم يعد يؤمن بشيء ، فماذا بقى له ؟.. الجنس ، كما هو الحال معى .. أو السأم والخيبة ، أو السعى الى نهاية تقضى على كل شيء ؟ »

ـ لا اعتقد أن بوسعك أن تعزلى الجنس عن الأمور الأخرى ، كالملل .. ولا عن الشخصية ، والوسط ، والبيئة . ان بعض الناس يلوذون بالجنس ، لانه اقوى الروابط بين انسان وآخر ...

ـ بل هو خير طريقة لكى لا تضطر الى معرفة الناس .. فلست مضطرا الى الكلام وانت تمارسه ، ولا الى التظاهر بالحب .. وبمجرد أن ينتهى ، يشمئز كل من الطرفين من الآخر ، ويسهل عليه أن ينصرف !.. ان الفراش يحتضن المشكلات ، ولكنه لا يحلها ، بل يحجبها فتبدو وكأنها حلت !

وعجب « چيوان » اذ استدرجته الفتاة الى مناقشة دقيقة كهذه ، وهو لا يعرفها .. بل لا يعرف اسمها . وقال : « اننا فى آسيا لا نشتغل بالجنس مثلكم ، لأن لدينا مشكلات اهم : البقاء ، الجوع ، المرض ، الأمية ، التطور الاجتماعى .. اننا نبحث عما يكفل لنا الوجبة التالية ، لا المتعة التالية .. اننا لا نشعر بأنفسنا احياء خلال ممارسة الجنس ، لأن احشاءنا تتلوى من الجوع . ولهذا فان الثورة فى الهواء الذى نستنشقه ، فلا مجال للجنس كى نقتل الوقت ! »

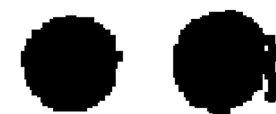
ـ أما نحن ، فى البلاد التى جئت منها ، فنذعر كل الذعر من الثورة ، ونعانى القلق من أن الاسيويين والافريقيين

يطالبون بما ننعم به ، ومن ثم نسمى مطالبتهم « شيوعية » ونصف حركاتهم بالعنف ، لا لشىء الا لنؤخر اليوم الذى يتساوون فيه معنا .. **وتدفع المال لانقاذ طفل جائع ، فى كوريا أو فيتنام أو اى مكان ، لا لشىء إلا لنستبقى الجوع بعيدا عنا ، فلا نفكر فى عواقبه بالنسبة لغيرنا .. لم يعد لنا حب ولا عاطفة ، لاننسا نقرأ عنهما ، ونراهما فى ((التليفزيون)) ، ونعرفهما بالكلمات قبل أن نشعر بهما .. لم يعد لنا الا الملل !**

وقال « جيون » لنفسه : « هذه مأساة الشباب فى كل مكان ، فى عصرنا هذا .. ولكنها لم تصل الينا بعد ــ فى آسيا ــ لأننا لا نعرف سوى أن علينا أن نسعى لتأمين قوت الغد قبل كل شىء » !.. وأخذ يتأمل الفتاة : كانت ممشوقة القوام ، ذات عينين زرقاوين كعيون القطط السيامية .. وفى لب شبابها ذاته فوضى لا ترتبط بزمن ما ، وتدفع الذهن الى تشتت يماثلها .. أما هو ، فكان رجلا عادي الشكل ، فى اوسط العمر ، لم يتلوث بالشعور بأهمية ذاته !

وعرض عليها أن يستقلا سيارة الى معبد (انجكور) ، ويشاهدا نقوشه ، ثم يعودا فيتناولا الغداء معا .. وأثارها تجاهله رغبتها ، فقالت لتهز وعيه : **((لن استطيع تناول الغداء معك ، فانا على موعد مع الكابتن ليدريه .. لأنام معه مرة اخرى ، بعد الظهر !))**

ولم يجب « جيون » ، بل أمسك بيدها ، وقادها الى السلم ، وهبطا معا .. من الآن يجب أن يمسك بيدها ، وأن يتولى بنفسه ارشادها الى حاجتها الحقيقية .. ولم يكن يبغى أن يتورط فى علاقة معها ، ولكنه آثر أن يرعاها ، ولينتظر ما تتطور اليه الأحداث !



● عبثا حاول « مونى مولتـاني » أن يتصـل تليفونيا بـ « بد كيلتون » ، الذى قيل له فى بانجكوك أن عليه أن يقابله بأسرع ما يتسنى له . . كان قد التقى به مرة من قبل ، وكان هذا خليقا بأن ييسر التظاهر بأن مقابلتهما الجديدة وليـدة المصادفة ، فقد كان يؤثر المصادفة فى كل أعماله . .

وهبط من حجرته ، الى مكتب استعلامات الفنـدق ، حيث اسـتقبله مسـتر « لى سوفان » ، الموكل بالمكتب . . وما أن شكا له « مولتاني » تعذر الاتصال تليفونيا بكيلتون ، حتى عنى بنفسـه بالأمر ، وسرعان ما جاء الرد من « معهد الصيانة » . . وبأدب بالغ ، قال « لى سوفان » : « أن معهد الصيانة هو مكان اصـلاح التحف الأثرية . . انه بالمتحف » .

وسرعان ما كان « بد كيلتون » على الطـرف الآخر من الخط التليفـونى . ومع أنه لم يتعـرف على شخصية « مولتانى » ــ الذى كان يكلمه فى حذر بالغ ــ فقد وعد بأن يوافيه فى الفندق . .

وتحول « مولتانى » الى البهو ، فلمح « شوندرا داس » يتامل المعروضات فى نافذة زجاجيـة . . وتمتم محنقا : « جاسوس ! » ثم جلس الى احدى الموائد ، وهو مضطرب الأعصاب . . وخيل اليه أن شخصا غير مرئى يسأله ضاحكا : « ماذا جئت تفعل هنا ؟ » . . انه جاء ليصون السلام ، ولكن هذا السلام وهم وسراب . . فان حياد كمبوديا خطر !

وبعد فترة قصيرة ، أقبل « كيلتون » . . كان ضخم القامة ، عريض الوجه ، ضخم الفكين ، دائم المرح والكلام . . ولوح له مولتانى ، فأقبل كيلتون هاتفا : « أهلا بصديقنا القديم . . ماذا جاء بك ؟ » . . وتلفت حوله ، فلمح « شـوندرا داس » يتحدث الى « لى سوفان » ، فهمس بصوت خفيض : « غدا مساء ، ستلتقطك سيارة أجرة من هنا . اتفهمنى ؟ » . . ثم أشار للخادم كى يأتيهما بشراب ، وراح ــ بصوت عال ــ

يتحدث عن الثقافة .. ولكنه خلال كلامه ، كان يقول بصوت منخفض : « **انهم يراقبون حركات كل شخص هنا .. ليس الخميريون (الكمبوديون) وحدهم ، بل الفرنسيون ايضـا ، فهم يكرهوننا .. كل رجال الأعمال الفرنسيين الذين غادروا فيتنام الجنوبية ، جاءوا الى هنا .. المفروض انهم حلفاؤنا ، ولكنهم يحاولون هدم امريكا .. والبلاد هنا محايدة كما تعلم ، فهى مفتوحة للجميع . لهذا يجب أن نهزها ، لتميل الى النظم الديموقراطية .. أن الحياد معناه زوالنا جميعا من جنـوب شرقى آسيا » !**

وما لبث أن قال : « بالمناسبة ، أحب أن أعهد اليك بشىء خاص سأسلمه لك غداً ، لتحفظه لى .. أستبقه معـك ، ولا تتركه بعيدا عنك ، الى أن أدبر أمورى ! »



● كانت التمرينات الرياضـيـة ، ومعالجة التغضنات وتيبس البشرة ، تشـغل أكبر شـطر من أوقات « اليزا كراوفورد » اليومية . فقد كانت حريصة على ألا تدع يد الزمن تغير من شكلها ، وأن تظل محتفظة بنضارتها ورشاقتها ، برغم تجاوزها الاربعين .. اذ أن النضارة والرشاقة ــ والمصور « بيتر آنستى » ــ كانت عناصر شـهرتها كمحررة تطوف بأرجاء العالم ، لجمع المواد السياحية ، ولتقتبس من معـالم كل بلد أزياء مبتكرة تروق للنساء فى رحلاتهن السياحية .. وهكذا كان تعاونها مع « بيتر » مصدر دخل متدفق ــ على كل منهما ــ من منظمات السياحة ، وصحافة الأزياء !.. لهذا جاءت مع زوجهـا .. ولقد كان « تشـارلز » مهموما منفعلا ــ طيلة الأشهر الأخيرة ــ من أجل ابنته التعسة ، ولكن « اليزا » حرصت دائما على أن تظل بمنأى عن هذه القرابة ، لأن الهموم تسبب التجاعيد وتذهب بنضـارة الوجه !..

هكذا كانت « جاكلين » ــ أخت « أليزا » وزوجة « تشارلز » السابقة ــ تفعل !

.. لكم كانت « اليــزا » تعجب بجاكلين ، ولكم كانت تكرهها !.. وعندما شعرت « جاكلين » بانها لم تعد قادرة على الاحتفاظ بشباب ساقيها ، تزوجت من « تشـارلز » ، وانجبت « شييلا » ، وبدات تسرف في الشراب ، وتتورط مع رجال آخرين .. ثم كان الطــلاق ، والأقراص المنومة ، والانتحار !.. ثم تزوج « تشـــارلز » من « اليزا » ، التى تعلمت مما اصاب اختها درسا جعلها تنأى عن الحب والخمر ، فتالقت في دنيـا الازياء .. وكان زواجا موفقـا ، فكل من الزوجين وفير الكسب ، وان كانت « شييلا » تستنزف أموال ابيها ، اذ انه لم يكن يكف عن عرضـها على كبار الأطبـــاء النفسيين .. وكان « تشارلز » غبيا في حبه لابنته ، ولهذا اصر على ان يصطحبها الى (كمبوديا) ، وهو يوقن من عجزه عن أن يكبحها عن أن تسعى دائبة الى مضاجعة الرجال !..

ودوت طرقات على البـاب ، فصـاحت : « أدخـل ! »

ولكن القادم لم يكن « تشارلز » .. واجفلت « اليزا » لرؤيته ، وهتفت : « أهذا انت ؟ .. اخرج ! »

ــ اتحبين ان اخبر تشارلز بما اعرف .. عن جاكلين ؟

وبرغم ما اعتادته من مقاومة للانفعالات ، فقد بدأ وجهها يتغير .. وقال القادم : « ليس الأمر عسيرا .. انها خدمة صغيرة اريدها منك .. اكراما للماضى ! »



● **عاد** « تشارلز مانلى » الى حجرته محنقا .. لم تكن « شييلا » في حجرتها ، ولا كانت بين من حملهم « الأوتوبيس » لزيارة المعالم الاثرية .. لقد شاهد نظرة « فرانسوا ليدريه » اليها ، وراى نظرتها الجوفاء الشاردة اليه .. وكان يدرك

ما وراء ذلك ، فود أن يسير على غير هدى ، تحت الشمس ، فرارا من واقعه .. ان « شيبيلا » لا تدرى كم تسبب له من آلام ، منذ كانت فى الرابعة عشرة من عمرها ، وغابت عن البيت ثلاثة ايام ، ثم وجدها فى فراش زميل له فى الخامسة والأربعين من عمره .. وراح عدد الرجال ينمو ، وهى تنمو .. ثم الزواج ، والطلاق ، والانهيار العصبى ، والأطباء النفسيون .. وفى عجز كان يراقبها فى جولتـه هـذه .. ما اصطحبها الا ليراقبها .. فى القاهرة ، والهند ، وبانجكوك ، يدرس العلاقة بين الانتاج والدخل والمعونة الخارجية للأمم النامية .. ويراقب الرجال الذين كانت تتقلب « شيبيلا » على أسرتهم .. حتى خدم الفنادق !.. ولقد اضطر مرة ـ منذ سنتين ـ الى أن يضربها .. ولكنه عدل عن هذه السياسة ، لأن الفتاة مريضة ، وقد يضطرها العنف الى أن تبعد عنه نهائيا ، وتكف عن أن تعود اليه والارهاق يعلو أساريرها ، ونظرة الانسحاق فى عينيها ، فتحيط عنقه بذراعيها ، وتهتف كطفلة صغيرة : « ضمنى اليك يا أبى ! » ..

وفى تلك الاثناء ، اجتازت « اليزا » ردهة الفندق الى حجرة « شيبيلا » المقابلة لحجرتها .. لم تكن الفتاة هناك ، ولكن ثيابها كانت متناثرة فى كل مكان ، فى فوضى واهمال .. وكانت فى الحقيبة علبة « شيكولاتة » ، أخذتها « اليزا » ومضت .. وبعد لحظات ، عادت بعلبة أخرى ، تشبه التى أخذتها تماما ، فوضعتها مكانها !



● نفس الحلم الغريب الغامض ، كان يلاحق « چيون » باستمرار .. كان يتمثل نفسه نحيلا ، أسمر ، عاريا الا من مئزر حول ردفيه ، فى سهل احترقت خضرته .. وأدرك أن هذا نذير الموت ، ولكنه لم يجفل منه ، بل كان سعيدا به !

ولقد عاوده الحلم ، وهو يتأمل آثار معبد (انجكور) الكبير ، مع « شييلا » .. وتمنى أن يحدثها عن حلمه ، ولكن عدم اكتراثها بشيء صده عن المحاولة ، فانهمك يشرح لها النقوش .. **وضايقه انصرافها عن الاصغاء ، لا سيما حين قالت : « ان الفن الهندى مختلف عن هذا .. انه أكثر تعبيرا عن الجنس » !.. الجنس مرة أخرى ؟ !.. وقال لنفسه : يجب الا أغضب .. انها أوربية ، والأوربيون لا يفقهون المسحة الدينية للفن الاسيوى ، بل يرون الناحية الجنسية فيه !**

وهذا غضبه ، وعاوده التأثير الحزين لحلمه .. الموت ينتظره فى حقل محترق !.. وسار بالفتاة الى القاعة الكبرى ، حيث كانت النقوش تمثل اثنتين وثلاثين جنة ، وسبعا وثلاثين جحيما !.. لقد فتن هذا المنظر « جيون » منذ عامين ، وذكره بأن هذا المعنى للذنب والعقاب كان يسود الغرب والشرق فى القرون الوسطى .. وقال للفتاة : « ان الجحيم ليس أبديا .. ففي البوذية ، تتاح للمرء فرصا كثيرة ليعود الى الحياة ، ويبدأ من جديد ! » .. ولكنها هزت شعرها الذهبى ، كطفلة ملول ، وعادت تقول : **« لا شيء هنا يمت للجنس ! »**

وفى السيارة التى عادت بهما الى الفندق ، بدأت الدموع تنساب على خدى « شييلا » .. وجلس « جيون » صامتا ، اذ خشي أن يسألها عما بها ، فيفسد بسؤاله هذه العلاقة الجديدة ، الغريبة !



● **على مائدة** قريبة من مائدة « جيون » — فى قاعة الطعام بالفندق — جلست اليزا وتشارلز ومولتانى و « برنار ريجيه » الامين الفرنسى للاثار .. ولم تكن « شييلا » بينهم . وراح ريجيه يقول : **« ليس حياد كمبوديا خدعة شيوعية ،**

بل ان الحياد رغبة طبيعية لدىمعظم الدول الاسيوية .. فالمبادىء الديموقراطية الغربية مبادىء مبهمة لا تكاد توجد .. حتى فى كثير من أرجاء أوربا .. والأمير هنا لا يستمرىء النذر والتهديدات الديموقراطية)) .

وصاح مولتانى : « ما من شىء يسمى « لا شيوعية » ، فالدولة أما موالية للشيوعية ، وأما ضدها ! »

وادرات « اليزا » دفة الحديث ـ بلباقة ـ الى التاريخ والآثار ، فقال ريجيه : « اذهبى لزيارة « البايون » ، حيث الأبراج المتعددة الوجوه .. انه تحفة معمارية تجمع بين الخبل والسمو .. انه فكرة صيغت فى حجر .. فكرة ابن ملك الآلهة سخط على الدنيا ، فتحولت الدنيا الى حجر .. الى صرح فخم ، أصم ، يمثـل ـ فى الوقت ذاته ـ زهرة « لوتس » هائلة .. وهى الزهرة التى ترمز الى المحبة البوذية !.. فكرى يا سيدتى فى الجهد البشرى .. آلاف العمال اقتطعوا الأحجار الضخمة ونقلوها حوالى ستين ميلا .. والمهندسون والفنانون والبناءون الذين ظلوا نكرة مجهولين ، وماتوا ، وبقى عملهم ! »

قال تشارلز : ((كان عنـدهم ايمان .. فلم يشـيدوا لانفسهم ، وانما شـيدوا من أجل الخلود !)) .. وعقب مولتانى : ((كانوا يخلقون ثقافة ، وعلينا الآن أن نصونها من الشيوعية)) .. فقال ريجيه ساخرا : ((قد لا تبقى الانسانية لتنعم بهذه الحضارة ، بعد ظهور القنبلة الذرية)) !

وغادر « جيون » قاعة الطعام ، واذا به يلتقى فى الردهة بامرأة صغيرة الجسم ، لامعـة العينين ، فى رداء كمبودى ، فهتف « سوميبون ! »

كانت امرأة نصف سـيامية ، وربع كمبـودية ، وربع فرنسية ، تجيد خمس لغات ، وذات ذكاء ونشاط عارمين ، أحبها « چيـون » أيام مراهقتهما ، ولكن أمها كانت تعارض زواج ابنتها من آسيوى .. ثم هربت الفتـاة مع « جورج

رولان » ــ وكان فرنسيا معـــدما ــ ومالت الى تأليف الروايات ، فلقيت اقبالا من الناشرين ، واصبحت من أشهر الكاتبات .. ومنذ قيام الحرب الباردة ، أخذ « جورج » يحوم حول المؤامرات والثورات ، حتى عهد اليه بمنصب الضابط الثقافى لهيئة « ميسو » ، وهى منظمة اقتصادية عسكرية ، تزعم أنها تحارب الشيوعية وتنشر الديموقراطية فى جنوب شرقى آسيا .. **وكان عمله يتمثل فى جمع الأغانى الشعبية الاسيوية !.. ولقد كانت ((سوميبون)) تكره هذه الهيئـة ، بالرغم من أن اميرا من أقاربها كان عضوا فيها ، اذ كانت ترى أنها ذات أغراض معينة ، ولا يليق بالأمراء أن ينحازوا تماما لأى جانب .. ((بل يجب أن يسبحوا مع تيار التاريخ)) !**

والى جانب تأليف الروايات ، كان لسوميبون خمســة اطفال ، وعدد من العلاقات الغرامية ، ولكن شيئا من هذا لم يعكر هناءها الزوجى ..

وقالت سوميبون باسمة : « ليتك رأيتنا محشودين فى الطائرة الهليكوبتر ، التى حملتنا فى الصـــباح : استارتى واوريون ــ ابنتانا الكبريان ــ وطفلنــا الجـــديد ، **ومارى فاوست التى تكره جورج ، والتى اصطحبت امتعـة كثيرة وغادرتنا ــ عند الوصول للفنـــدق ــ لتبحث عن كاتب من معارفها . لكم أتمنى أن يحـــدث شىء مثير ، فان مؤتمرات الكتاب تكون كئيبة عادة !.. ان جورج مكلف بأن يكتب تقارير عمن يحضرون المؤتمر ، لسجلات منظمة ((ميسو)) .. كأنما يصـــلح جورج لدور الجاسوس ، وهو لا يميـــز بين كاتب وآخر ! »**

وعلى الباب الزجاجى للمدخل ، وجد « چيون » اعلانا يدعو الراغبـــين فى حضور المؤتمر ، الى تسجيل أسمائهم فى حجرة مدير الفندق .. وكان التوقيع : « يولونج سيراب ، سكرتير المؤتمر الحيادى للعاملين فى الثقافة ، ومؤلف وشاعر

وصحفى ومدير صحف عالميــــة الصيت » !.. والتفت « چيون » الى « سوميبون » يسألها عن الرجل ، فقالت : « انه من ابناء عمومتى .. رجل لطيف ، كان قائدا وسياسيا ، ثم أصبح راهبا بوذيا ، يتأمل ويخبر الناس بماضيهم .. ستسر استارتى وأوريون بمعرفة هـذا القريب ، لأنهما مشغوفتان بجمع الأسرار ، وتريدان أن تنشئا وكالة للتحريات السرية ! »

وافترقا ، على أن يلتقيا فى الساعة الرابعة .. وشعر « چيون » بابتهاج للقائه مع « سوميبون » ، ثم انصرف الى كتابة نقاط فى مفكرته . وعندما تذكر « شييلا » ، كتب :

« حالة انفصام فى الشخصية (شيزوفرانيا) . خلل كبير ومعوق فى العـلاقات العاطفية بالناس . مسلك شـاذ نحو الناس كأفراد . تحب استـغلالهم أو اسـتغلال جزء من اجسامهم دون اعتبار لشخصياتهم . مجنونة فى دنيا المجانين . منطوية على نفسها ، ومغلقة دون الشمس والضوء » !

وخطر له أن « شييلا » كانت ــ فى تلك اللحظات ــ فى حجرة « ليدريه » فقال لنفسه بصوت عال : « غبية !.. لن أرتبط بها بأى رباط ! »



● فى الساعة الواحدة والنصف ، غادر « تشارلز مانلى » الفندق مع « برنار ريجيــه » ، وهما يتحدثان عن « ذلك الهندى الذى لا يطاق » .. وقال تشارلز : « آه ، مولتانى ؟.. لست أعرفه معرفة وثيقة . انه كاتب سياسى جاء للمؤتمر » .

ــ المؤتمر ؟ !.. انه سيضم اغرب مجموعة ، ولكنه سيكون ملهاة ترضى الجميع ، فان غبطة « يولونج سيراب » حاذق .

وتحول يتحدث عن علاقة الفرنســيين بكمبوديا . فان رجال الأعمال منهم لا يزالون يتحسرون على أيام الاستعمار ، وغيرهم قانعون بما يحققون من أرباح فى الوضع الحالى ..

والبلاد مضيافة ، ترحب بكل أجنبي .. « وهنـــاك أجانب متعبون .. هناك مثلا « كيلتون » .. رجل من طراز المبشرين الأمريكيين ، وهو صديق لمستر مولتاني ! »

واذ بلغا المتحف ، اصطحب خبير الآثار ضيفه الى مكتبه ، ليريه بعض الآثار التي اكتشفت أخيرا .. ولكن « تشارلز » شغل عنه ، اذ لمح — خلال النافذة — « شيبلا » تهبط من سيارة أجرة استأنفت سيرها ، وبداخلها شخص لم يتبينه !

لم تكن الأمور قد سارت مع « شيبلا » وفق ما اشتهت ، فعندما عاد « ليدريه » الى غرفته ، فوجيء بشخص يقتحمها عليها من الشرفة .. وسرعان ما تبين أنه « شوندرا داس » ، الذي اعتذر بأنه كان هاربا من حجرته ، تجنبا للقـاء امرأة كانت تثقل على أعصابه . وسأله ليدريه : « أجميلة هي ؟ »

— جميلة ؟.. انها شيطانة عبقرية ، كالأفعي .. تجمع بين « عفة » البيوريتان الأمريكيين ، وبين الخبرة بكل فنون اثارة الرجال .. وتفعل كل شيء باسم السياسة ، وفي أنانية بالغة وهي تزعم أنه للصالح العام .. والناس يصدقونها ، ويثقون فيها ، حتى اذا انسحبوا ، راحوا يلعقون جراحهم !..
لم أكن — ولا كانت سكرتيرتها مسز ديسبير — نتوقعها قبـل المساء ، ولكنها هبطت فجأة ، ولم تؤد شيئا مما طلبته منا .. ولسوف تثور ، وما أقسى ثورتها !

وقبل أن يتمالك نفســه ، دوت على الباب طرقات .. وبدلا من « شيبلا » ، رأى « ليدريه » امرأة طويلة ، برونزية الشعر ، جميلة الوجه ، تتجلى عليها معالم قوة الارادة .. ودون أن تحفل بالطيار أو تستأذنه ، أشارت الى « شوندرا » ، فتبعها وكأنه مسلوب الارادة .. واغلقت « ماري فاوست » الباب خلفها بعنف ، فقال ليـــدريه لنفسه : « يا لها من ماهرة ! » .. **ومع ذلك ، فقـد ظلت نفســه تحـدثه بأن**

« شوندرا » لم يكن ينشد الفرار منها ، بقدر ما كان يبغى التجسس عليه !

وأعد « ليدريه » حقيبته ، وسار الى السلم ، فأبصر « شييلا » مقبلة .. وقال فى غضب : « لقد كنت فى انتظارك ! » .. وحدقت فى عينيه باصرار أشعره بأنها اختلفت عما كانت ليلة الأمس ، وصباح اليوم ، فقال وقد رأى ان يتجنب التقاء جسديهما مرة أخرى : « اننى سأطير الى (بنوم بنه) فى الساعة الرابعة .. هل تشاطرينني الشراب فى مشرب الفندق ؟ » .. وهبطا الى المشرب ونفسه تحدثه بأنه قد يزداد فهما لها اذا جلسا يشربان . لكم كان يود أن يعرف حقيقتها ، ولكن كيف يعرف الانسان انسانا آخر ؟.. ان جلوسه الى « شييلا » الآن ـ وهى فى كامل ثيابها ـ يثير ارتباكه أكثر مما أثاره نومها معه عارية !

ـ انك لا تحبنى ، ولست أحفل بهذا .. انك ضاجعتنى ، ولكنك لن تستطيع أن تتذكر ما جرى .. وهذا أفضل !

وبدت له كقطة تخدش ، بينما استرسلت تقول : « أظننى قد وقعت فى حب رجل .. رجل لم أضاجعه ، ولن أضاجعه .. رجل يريد ان يبصرنى بالحقيقة ! »

وشعر ليدريه بغيرة ، وبألم .. ونهض مستأذنا ليذهب الى المطار ، قائلا : « أتمنى لك كل سعادة ! » .. فقالت : « أتمنى أن تتحطم طائرتك ، ولا أراك ثانية » !



● قال « چيون » لسوميبون ، حين وافاها فى جناح الأسرة بالفندق ، فى الساعة الرابعة : « احترسى من مارى فاوست ! » .. فصاحت : « الأنها سألتك بعض النقود يوما ؟.. اننى أوثر أن أتعرض للغش تسع مرات ، على أن أغش شخصا آخر مرة واحدة ، وأمنع تطور قدر هذا الشخص

بهواجسي !.. ان العيش بقلب حذر ليس من الحيـــاة فى شيء ! »

وحيت « أوريون » و « أســتارتى » الزائر بانحناءات رشيقة .. كانتا تتعاليان ـ فى أدب ـ على الكبار ، اعتزازا بنفسيهما وعقليتهما .. وسرعان ما انطلقت السيارة بالأسرة وضيفها خلال منطقة مليئة بالأشجار التي راح الهواء يداعب أغصانها .. وبلغوا البروج ذات الوجوه الأربعة ، القائمة على السياج الخارجي لأطلال (انجكور ثوم) ، على مسيرة ميــل من (انجكور ڤات) .. تلك كانت مدينة الآثار التى يتوسطها صرح (البايون) العريق ..

وقالت اســتارتى : ((سيحدث انقــلاب يا أماه !)) .. فصاحت سوميبون : ((هل تستمعين الى مارى فاوست ؟)) .. ولكن ((استارتى)) و ((أوريون)) أكدتا أن النبا على كل لسان .. وقالت سوميبون لچيون : ((انهما اكثر الماما بحقائق الأمور من منظمة (ميسو) !)) ..

وتجلى لهم (البايون) : تسعة وخمسون برجا ضخما ، تقف سامقة كزهور اللوتس ، كل منها يمثل أربعة وجوه ، ارتفاع كل وجه سبعة أمتـــار .. ثمان عيون تتطلع الى كافة نقاط الأفق ، تحتوى الدنيــــا ببصرها ، لأن البصر ـ لدى البوذيين ـ هو الســـيطرة ، والتملك ، والظفر بالخلود عن طريق اليقظة والوعى .. وهتفت « أوريون » ، وهم يتأملون الردهات المتوارية ، والأركان المظلمة : « مكان رائع لجريمة قتل ! » .. وشعر « چيون » بوخزة ألم قاسية ، وقد ذكرته لهجتها بعدم اكتراث « شييلا » .. وهتف قلبه : « ماذا فعلت بى يا شييلا ؟ »

وراحوا يتأملون نقــوش المعبــد الهــائل .. ثم قالت سوميبون ساخرة : « لماذا أقاموه يا چيون ؟ » .. كانت محاولة لملء الفراغ بنصب هائل من الأحجار ، أراد به الملك الرب أن

يؤكد وجوده ، فلم يفلح الا فى انتاج عمل جنونى ينذر بالموت . اذ يقال ان « الخميريين » شغلوا باقامة هذا النصب عن رعاية قنوات الرى ، فسطا الجفاف على جزء من حقولهم ، وعدا الفيضـــان على جزء آخر ، واستشرت الكوليرا والطاعون فى السهل ، فكان فى ذلك خراب (انجكور) !.. ومع ذلك ، أصبح اهل كمبوديا اليـــوم يتطلعون الى الصرح بوصــفه من عمل الآلهة ، وليس من نتاج أجدادهم !.. ترى هل يحملق فيـــه بشر ـ بعد حرب نووية ـ ويعزونه بدورهم الى قوى خالدة!

وقالت سوميبون : ((درس رهيب !.. كل الأنواع تنقرض نتيجة الافراط .. افرط ((الديناصور)) فى تحصين جسمه فتضاءل مخه وعقله !.. وهكذا نحن ، كلما افرطنا فى ابتكار القنابل ، تضاءلت ثقـــة بعضنا ببعض !)) .. فقال چيون : ((قد لا ينتهى بنا هذا الى الحرب .. قد يحدث تجـديد شامل .. بعث !))

وشـــعر « چيـــون » بأن حيـــاته تتجـــدد ، وهو بجوار « سوميبون » .. وتأمل ـ بعين الخيال ـ جسد « شييلا » المباح ، ثم قال لنفسه : لن أمسه ، والا حطمت كل شيء !.. وكانت « سوميبون » ماضية فى حديثها : « يجب أن تعقد كل المؤتمرات فى صروح عتيقة مثل هذه .. لست أدرى ، ما الذى اعده العم « يولونج سيرابه » ؟.. أهذا المؤتمر من وحى الهام بوذى ، أو أن العم يخفى وراء انعقاده أمرا ؟ » .. وهنا صاح جورج : « لقد أصبحت ترتابين فى كل شيء ، وكل أمر ، على غرار مارى فاوسنت ! » .. فقالت سوميبون : « ليتك تأخذ بيد مارى فاوست يا چيون ، فما أقسى أن تكون فتاة جميلة مثلها ، فريســـة للخيبة والكبت ! » .. ولكن جورج قال : « انها مختلة العقل ، تنهشها نيران شهوة للتقدم والطموح .. لشخصيتها ! »

قالت ســـوميبون : ((انك تظلمها ، فــكل امرأة تحب

نفســها ، وان تباينت درجات الحب .. ولكن مارى متوقدة الذكاء ، تريد أن تستغل فائض طاقتها الجنسية فى غير هذه النواحى .. ولقد رأيت فتاة من قبيلها .. شيبيلا ماتلى ! »
.. واجفل « چيون » ، بينما واصلت سوميبون الحديث : « قابلتها فى بانجكوك .. وكان لقاء وجيزا . ولكنى أحبها . كانت لها مغــامرة مع امير سيامى . لن ادهش اذا اصبحت راهبة يوما ما . اما « مارى » ، فهى مشغولة باصلاح عيوب الدنيا ! »

وقال جورج : « انها تريد الدنيا وفق هواها .. الواقع ان الحرية الحقيقية فى دنيانا تقوم على رصيدك فى المصرف .. وساترك (ميسو) بمجرد أن استكمل المكتبة الجنسية ! »

وما لبثت « سوميبون » ان عادت تنصح « چيون » بأن يأخذ بيد مارى : « انها جميلة ، تحب — عن خطأ — نفسها فى صورة زعيمة سياسية . ولا بد أن فى حياتها أشـياء كثيرة حاولت ان لا تعرفها ، لأن فى تجاهلها دفاعا عن نفسها !.. ولو أنك وقعت فى هواها ، لعدت الى حب الحياة ، ولسعدت ! »

● ●

● **فى اصيل** اليوم ذاته ، وصلت طائرة من (بنوم بنه) ..
وكانت « ليــدى آدا تيمبرليك » عليها ، فما ان بلغت الفندق ، حتى سألت مســتر « لى سوفان » عن صــديقتها « تشــاندرا داس » .. وسرعان ما وافاها « داس » .

ووصل على الطائرة مستر ومسز « فوميكارو » — من اليابان — كذلك . وقال مستر فوميكارو لمستر « لى سوفان » ، وهو يحجز غرفة له ولزوجتــه : « ان زوجتى عالمة فى الرياضيات وروائية .. اما انا ، فرجل اعمال وشاعر . وقد جئنــا لحضور المؤتمر » . واقبــل على مكتب الاستعلامات — اذ ذاك — رجل أوربى مليح ، يصحبه شاب صينى أنيق ،

فقـال الأول : « أسمي بيتر آنستى . لا بد أن مسز مانلى حجزت لي حجرة » !.. ورحب به « لى سوفان » ، وقدم له سجل الفنـدق ، فكتب اسمه ، والى جواره : « الجنسية استرالى ــ المهنـة مصور » . وتقـدم الشاب المرافق له ، فكتب « تيوكون تيك ــ من الملايو ــ المهنة .. » ، والتفت الى بيتر ، فقال له هذا : « اكتب أنك شاعر يا صغيرى ! » ..

وخصص لهما مستر « لى » حجرة ذات سريرين ، فقد شغل الطابقين الثانى والثالث ــ من الفنـدق ــ وفد من السيدات البوذيات يطوف بالعالم ، ووفد من الروم الكاثوليك يزور جنوب شرقى آسيا .. وهتف « تيو » اذ سمع بذلك : « السيدات البوذيات ؟.. ستكون عمتى بينهن ، وستشى لأبى بأننى أحضر مؤتمر الكتاب ، وتركت دراسة المحاسبة .. »

● ●

● **بينما** كان الأمير سيهانوك يكرم الوفد الصينى ، فى قاعة الفندق الكبرى ــ فى ذلك المساء ــ التقى « جيـون » بشيلا وأبيها وزوجته ، فى مكتب مدير الفندق ، حيث كان الراغبون فى حضور المؤتمر يسجلون أسماءهم ..

وقالت شيلا : « من أدراكم بأنه لا يوجد بين القادمين كتاب زائفون ؟ » .. فقال أحد الكمبوديين : « اننا نؤثر أن نولى الجميع ثقتنا » .. وقال « داس » لجيون ، وقد حضر لتسجيل اسمه : **« لقد شهدت كثيراً من المؤتمرات ، ودائما كنت أجد الكتاب قلة ، والأغلبية من الصحفيين ، والافاقين ، والعملاء السياسيين ، والجواسيس ، والحسان اللائى يحمن حول الكتاب .. ترى من الذين سيحضرون هذا المؤتمر ؟ ولماذا ؟.. ان السياسة تدخل فى نطاق الكتابة .. انها الحرب الباردة ! »**

واستطاع « جيون » أن يغـرى « شيلا » بأن تتسلل معه ، ليتناولا العشاء فى مطعم محلى بسوق البلدة !

وفى تلك الأثنـــاء ، كان الكاتب الانجليزى « آشـــلى بازيلدون » يجلس مع سكـرتيرته « جوان واربيرتون » فى مشرب الفندق .. كان الرجل من القلائل الذين أثروا من الكتابة . وكان وجهه أشبه بقناع يصور الألم ، وان لم يدر احد حقيقة ما تحت هذا القناع . اما سكرتيرته ، فكان كل ما فيها يمثل الزهو الوقح الذى يتملك خليلة رجل مشهور .

يوم الاثنين :

● فى الساعة التاسعة صباحا ، كانت كبرى قاعات الفندق معدة للمؤتمر .. وكان « مولتانى » و « داس » من أوائل الحاضرين .. واقبلت « شييلا » مع أبيها ، فلم يهتز « چيون » لرؤيتها ، ثم بدأ ينبثق فى أعماقه تيار من الاغتباط ، أخـذ يزداد تدفقـــا ببطء !.. ودخلت « مارى فاوست » مع سكرتيرتها والفتى الصينى الجميل « تيو » ، الذى اصرت على أن يجلس بجوارها ..

ودخل القاعة رجلان وامرأة يمثلون كتاب رومانيا .. ثم تبعهم ثلاثة من الأمريكيين فى أقمصة قطنية ، ونعال (شباشب) هندية .. وما لبثت أن أقبلت سوميبون ، فجلست الى جوار « شييلا » ، بينما جلس زوجهـا بجوار كاتب باكستانى ، بادره قائلا : « اسمى أحمد فؤاد .. من لاهور » .

وصعد الى المنصة راهب بوذى ، فى مسوح اصفر ، وقد بدا راسه حليقا تماما ، فقال : ((مرحبا بكم سادتى وسيداتى ، فى المؤتمر الحيادى للكتاب)) .. ذلك كان ((بولونج سيراب)) ، المليونير ، النباتى ، البوذى التقى ، قريب الأميرة سوميبون .. وعاد رئيس المؤتمر يقول : ((مرحبـــا بكم فى بلادنا المحبة للسلام ، الايجابية الحياد .. فانتم تعرفون أن كمبوديا ــ تحت القيادة الحكيمة لأميرنا المبجل سيهانوك ــ تتبع طريقا مستقلا ،

يتسم بعدم الانحياز ، ويتفق مع قوميتها وكرامتها ... »

وتلفت « جيـون » حوله .. كان عدد الحضـور من الغربيين كبيرا ، ولا عجب فمعظم الكتاب الاسيويين لا تقوى مواردهم على نفقات الحضـور .. ومع ذلك فقـد كان « مولتاني » و « داس » يمثلان اليمينيين واليساريين من الكتاب الهنود ، وكان هناك كاتب باكستانى ، وسوميبون ، والزوجان اليابانيـان .. كل هؤلاء كانوا أسـيويين . وهمس داس : « وهناك تشارلز مانلى ، وآشلى بازيلدون ، وصديقتى ليدى آدا ، يمثلون « الكومنولث » .. كأن البريطانيين محايدون ! »

وقال رئيس المؤتمر : « امامى برقية من جمهورية الصين الشعبية ، جاء فيها : عسى أن تقـوى أواصر التضامن بين الشعوب المحبة للسلام ، وأن يستطيع المؤتمر بآرائه السليمة بصدد التعايش أن ينسف أكاذيب الامبرياليين .. »

وصاح مولتانى : « أحتج ! » .. فصاح داس : « اسكت ! »

.. وقال الرئيس : « رسـالة أخرى ، من لجنـة الحرية الثقافية : نأسف لعدم اشتراكنا ، اذ لم تقدم ضمانات لجدية وفاء الكتاب لمسئولياتهم ، فلم يستهجنوا الفظائع التى جرت فى المجر والتبت .. »

وصفق مولتانى ، فصاحت مارى فاوست : « وماذا عن انجولا ؟ » .. وهتف الرومانيون : « ولومومبا ؟ » .. وصاح داس : « والجـزائر ! » .. وعلا صوت الباكسـتانى على الجميع : « والسويس ؟ » .. **ونهض تشارلز مانلى بوقار ، فتساءل عما اذا كانت هذه الاستعراضات تتمشى مع أهداف الاجتماع ، فشكره « يولونج سيراب » وأكد انها معرقلة لتقدم العمل فى المؤتمر .. ثم استانف قراءة الرسائل القادمة من أرجاء العالم ، ثم قال :**

« البقية صفحة ١٢٥ »

"بومبي"..

مدينة الترف والملذات المتحجرة!

للمؤرخ والمحقق الصحفي
"إيفار ليسنر"



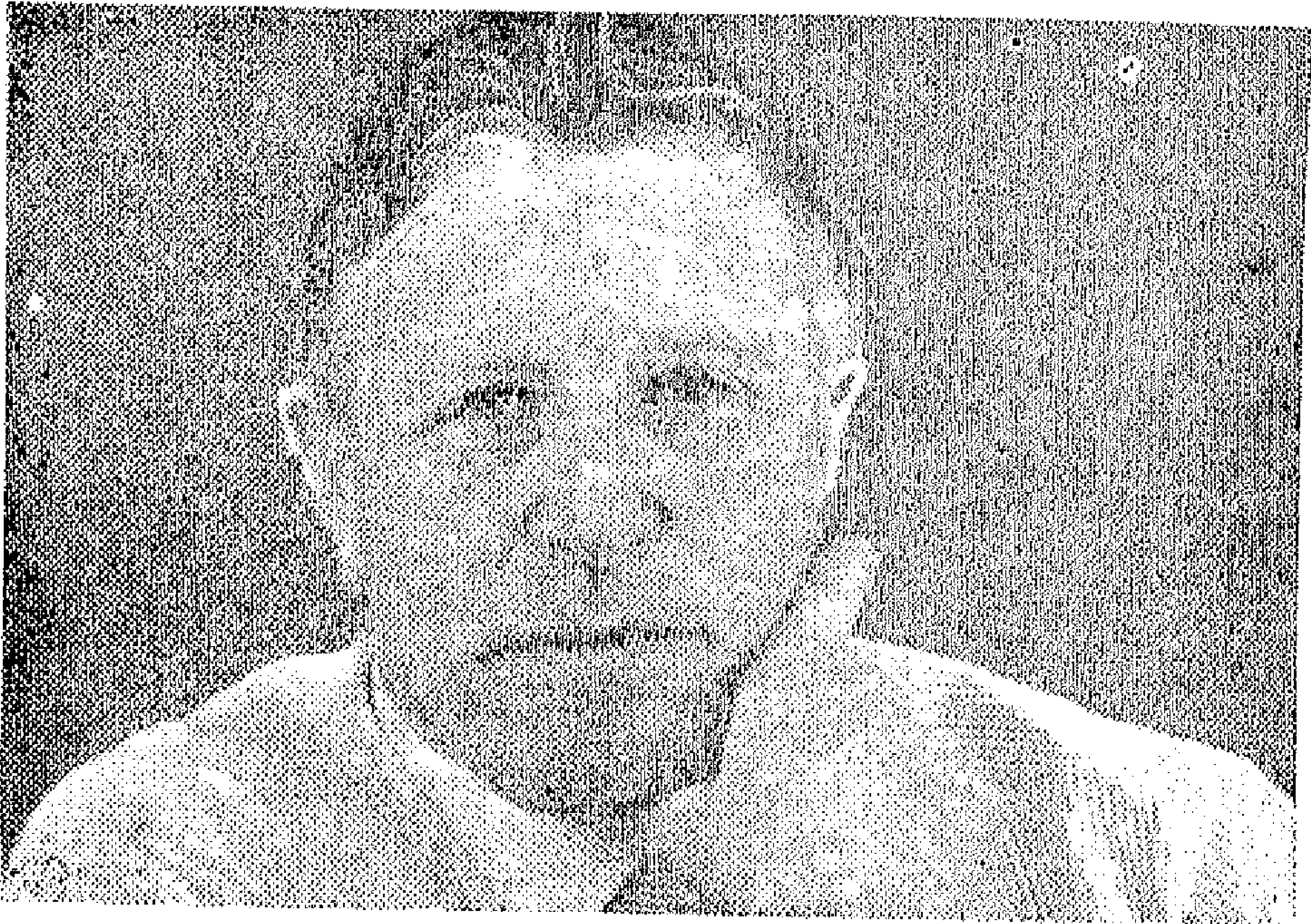
بين (بومبيى) و (هيروشيما)

فى الرابع والعشرين من اغسطس ، سنة ٧٩ ميلادية · توقف نبض مدينة (بومبيى) الرومانية ـ المجاورة لمدينة (نابولى) الايطالية الحالية ـ فماتت فجاة كل مظاهر الحيـاة فيها ، كما تموت حركة الساعة حين يفرغ زمبركها ..

فى صباح ذلك اليوم ـ منـذ حوالى تسعة عشر قرنا ـ فقـد بركان (فيزوف) صوابه ، وانفجر فى أعنف ثوران عرفه التـاريخ القديم ، وجعل ذلك اليوم المشئوم من معالم التاريخ ، وانزله منزلة لا تقل اهمية عما اكتسبه ـ فى عصرنا الحديث ـ ذلك اليوم الذى القيت فيه قنبلة (هيروشيما) .. وان كان هنـــاك فارق هام بين الماساتين : فالماساة التى صنعها الانسان ـ فى هيروشيما ـ محت كل شىء فى الوجود .. اما الماساة التى صنعتها الطبيعة ـ فى بومبيى ـ فقد ابقت كل شىء جامدا ، تحت طبقة من الحمم البركانية سمكهـا خمسة وعشرين مترا .. ابقت كل شىء ، ولكن بلا حياة ! .. أو ـ بمعنى آخر ـ ابقت كل معالم الحياة ، ولكن .. متحجرة !

وهكذا احتفظت لنا الطبيعـة ـ برغم قسـوتها ـ بمرجع رائع يتيح لنا الوقوف على اسلوب الحياة الرومانية ، خلال القرن الأول من ميلاد المسيح ، بكل دقائقها اليومية ..

واصدق واجدث سجل لماساة (بومبيى) ، ولما ترويه معالمهـــا المتحجرة عن حياة الرومان فى ذلك العصر ، هو هذا التحقيق الصحفى المصور الذى قام به صحفى درس علم الآثار وتخصص فيه ـ وهـو «ايفار ليسنر» ـ فاستطاع أن يترجم حديث المدينة المتحجرة ! .. على اننا سنقدم له بوصف عام ، تناهى الينا ـ عبر القرون ـ من شاب شهد الماساة وعاشها .. وببعض المعلومات العامة التى تيسر لنا ادراك قيمـة ما كتب المحقق الصحفى والمؤرخ : ايفـار ليســنر Ivar Lissner .. و « ليســنر » من الشخصيات الفريدة فى عالم الصحافة .. فبعد أن درس القانون والتاريخ وعلم الاجناس فى أكبر الجامعات الالمانية ـ أخذ يطوف بمعظم بلدان العالم ، من كندا المسيسيبى ، الى افريقيا وآسـيا .. وخـلال رحلة استكشافية فى



ايفار ليسنر .. مات قبل ان يكتمل نشر تحقيقه !

منشوريا وآسيا الشمالية ، عثر على عدد من القبـــائل المجهولة ، فتوفر على دراستها بشغف وأمانة .. وقـد اصـدر عدة كتب عن رحلاته ، اهمها : « هكذا كان اجدادنا يحيون » ، و « القياصرة » ـ الذى بلغ ما طبع منه مليونين ونصف المليون من النسخ ! ـ كما تولى رئاسة تحرير مجلة « كريستال » الاسبوعية ..

لكن « ليسنر » بلغ القمة ـ فى تحقيقاته الاثرية والتاريخية ـ يوم قدم تحقيقا مفصلا رائعا ، عن حياة الرومان فى مدينة (بومبيى) .. وقدر لليسنر ان يكون هذا التحقيق هو آخر اعماله ، وان يوافيه الموت بغتة كما وافى بومبيى .. اذ داهمته نوبة قلبية فى ٤ سبتمبر ١٩٦٧ ، بعد يومين من نشر القسم الاول من التحقيق ، وقبل خمسة ايام من نشر القسم الثانى والاخير .. فمات فجاة وهو جالس الى مكتبه فى سويسرا ، وبين يديه مخطوط بعنوان .. « الجنة ! »

الموت ينطلق فجاة من البركان

● اشرق فجر اليوم الرابع والعشرين من اغسطس سنة ٧٩ ميلادية ، على مدينة (پومپيى) ، حاملا كل بوادر البهجة والبهاء اللذين يقترنان بأويقات الصباح فى صيف الجنوب الايطالى ..

لم يكن يخالج اهل المدينة ـ وعددهم ٢٠ ألف نسمة ـ اى شعور سوى البشر والتفاؤل ، وهم يسرحون أبصارهم فى البساتين والمروج التى كانت تحيط بمدينتهم ، وتحف بجبل (ڤيزوڤ) ، القائم على حوالى سبعة أميال من المدينة ..

واذ اخذت الشمس ترتفع فى السماء ، بدأ أصحاب الحوانيت يغلقون المصاريع الخشبية ، تأهبا لفترة الغداء .. وهى فترة راحة طويلة فى ايطاليا . وكفت الفتيات المتخلفات حول النافورة عن الثرثرة ، وحملن جرارهن الطويلة النحيلة ، عائدات الى البيوت .. ودفع أحد الخبازين واحدا وثمانين رغيفا داخل الفرن .. ووضع أحد رواد الحانة ثمن شرابه على المائدة ..

ولم يقدر للخباز ان يستخرج الأرغفة ـ وهى ترقد الى اليوم متفحمة ، فى متحف مدينة (نابولى) ! ـ ولا قدر لساقية الحانة الحسناء ان ترفع النقود عن المائدة !

.. ذلك لأن (پومپيى) ارتعشت فجاة ، ثم نفض بركان (ڤيزوڤ) عنه الخمول ، واطلق ـ فجاة ـ زئيرا صاخبا ، ولهبا متاججا ، ودخانا كثيفا حمل الموت الى كل حى .. حتى الطيور التى كانت تحلق فى السماء ، هوت الى الأرض ميتة !

واندفع آلاف من القوم الهاربين من المدينة ، مواصلين السفر بقية ذلك اليوم وطيلة ليله ، قبل أن يطمئنوا الى أنهم أصبحوا خارج دائرة الموت ، التى زاح (ڤيزوڤ) يرسمها حول نفسه !.. بينما بقى آلاف آخرون من سكان المدينة ،

لم يبرحوها ، لأسباب شرحتها أجسادهم للأجيال التالية : فهناك طائفة من المحزونين ، وجدت أجسامهم متحجرة حول مائدة جنائزية ! . . ووجد رجل ملقى فى الطريق ، وقد تحجرت قبضته على حفنة من الذهب ! . . وهناك أناس تلكأوا ليدفنوا ثرواتهم فى جوف الأرض ، ريثما يعودون بعد هدوء البركان ، فداهمهم الموت على حواف الحفر التى أحدثوها ! . . ولاذ آخرون ببيوتهم ، يحكمون أبوابها ضد ركامات الحمم والرماد البركانى ، فاذا الحمم والرماد تسد عليهم الأبواب والمنافذ ، فلا يملكون بعد ذلك فرارا !

الأمواج تمنع الأسطول من نجدة المدينة

● ولقد تناهى الينا الكثير ـ مما جرى فى الساعات الأخيرة لپومپيى ـ مما كتبه فتى فى الثامنة عشرة من عمره ، يدعى « جايوس پلينيوس » أو پلينى الصغير ـ وكان يعيش مع أمه فى (ميزينيوم) ، على الضفة الأخرى من خليج (ناپولى) ، ويعمل سكرتيرا لعمه « پلينى الكبير » ، الذى كان عالما فى الطبيعيات ، و « أميرالا » فى الأسطول الرومانى . .

ويروى الشاب كيف أن عمه رأى عمودا ضخما من الدخان ينطلق من (ڤيزوڤ) ، فأسرع بسفنه الى الضفة المقابلة ، ليساهم فى الانقاذ ، غير حافل بالأحجار والرماد التى كانت تهطل مدرارة . . وبلغ « پلينى الكبير » مرفأ (ستابييه) ، القريب من (پومپيى) ، ثم اشتد عنف الهزات الأرضية ، فتضاعف هياج أمواج البحر ، الى درجة لم تستطع السفن معها أن تواصل تقدمها . .

وظلت النيران والرماد والأحجار والدخان تنطلق من جوف البركان طيلة الليل . . واذ انتهت ليلة الأهوال ، اندفع أهل (ميزينيوم) ينشدون الفرار ، هم الآخرون . . وكان النهار قد طلع ، ولكن الظلام كان يزداد تكاثفا باطراد . . ونال

الاعياء من ام « بليني الصغير » كل منال ، فراحت تهيب بابنها ان ينجو بنفسه ويتركها لمصيرها .. ولكن الشاب ظل متشبثا بها ، تحت الرماد الذى كان يطبق على كل شيء ..

وفى (بومبيى) ، كانت حشود المذعورين تتدافع فى الطرق على غير هدى ، بينما كانت العربات ـ التى حملها الحمقى بأمتعتهم ، بدلا من أن ينجوا بحياتهم ـ تسد المسالك عليهم .. وما لبثت الريح أن تحولت ، فاذا بها تحمل من البركان عاصفة من غاز ساخن خانق ، لعله دخان الكبريت .. ونفذ الدخان الى رئتى « بلينى الكبير » ـ وقد أرسى سفنه عند (ستابييه) ـ فاذا به يسقط على الشاطىء ميتا .. وكان هذا فى (ستابييه) ، التى تبعد عن (بومبيى) قليلا ، فما بالك بالحال فى (بومبيى) ذاتها ؟

الطبيعة تسدل ستارا يصون المدينة قرونا

● **وكانما** هز السماء ما كان يحدث على الأرض ، فاطلقت دموعها مطرا غزيرا ، اذا به يختلط بالرماد البركانى ، فينتجان عجينة كست كل شيء سقطت عليه بغشاء سرعان ما تيبس وتحجر ، وصان كل المخلوقات وكل الأمتعة والأثاثات والمبانى على مر القرون ..

وعندما هدأ البركان ـ بعد ثمان وعشرين ساعة ـ كانت (بومبيى) قد دفنت تحت أنقاض ومخلفات بركانية سميكة .. واجتاح مدينة (هيركولانيوم) القريبة ، سيل من الوحل الذى سرعان ما تجمد فوقها ، فغطاها بطبقة سمكها ستون قدما ..

هذه الأغطية التى بسطتها مخلفات البركان والطبيعة ، هى التى صانت لنا حقائق ما حدث .. فاذا (بومبيى) لم تمت موتا بطيئا ، وانما اغتيلت بسرعة خاطفة ، فى أوج جمالها وثرائها ..

ولقد نسي العالم (پومپيي) ومصيرها ردحا من الزمن ، فظلت أطلالها دفينة تحت اكوام من الرماد ، على شاطيء نهر (سارنو) ، في موقع أطلق عليه الناس اسم (لاشيفيتا) ـ أي المدينة ـ وان لم يدروا أية مدينة هي !

وفي سنة ١٥٩٤ ، دعت الحاجة الى حفر نفق تحت كل الرماد ، لنقل مياه النهر الى الداخل ، واذا العمال يكشفون ـ اثناء الحفر ـ لوحتين حجريتين ، تحملان نقوشا كتابية .. ولما كانت أرض ايطاليا تطوى كثيرا من الآثار .. فان أحدا لم يحفل بهما .. الى أن قدر للمهندس الخاص لملك (ناپولي) أن يتفقد النفق ـ بعد قرن ونصف القرن ـ ففطن الى أهمية الموقع ، واستعان بأربعة وعشرين عاملا على الحفر ، في سنة ١٧٤٨ ، وشاء الحظ ان تكون الحفرة الأولى مؤدية الى اكثر أحياء (پومپيي) القديمة ازدحاما . **فلم تمض أيام ، حتى اكتشف ((الكوبيبرى)) ـ وهو اسم المهندس ـ جدارا يحمل رسما بألوان زاهية .. كما عثر على اول جثة ، وكانت جثة الرجل الذي تحجرت قبضته على حفنة من الذهب !**

وازداد الاهتمام بالحفر . ولكن اهتمام ((الكوبيبرى)) لم يكن موجها الى الناحية الأثرية ، بقدر ما كان موجها الى اظهار مدى الاستعانة بالبارود ، في أعمال الحفر .

الحفر العلمي يتعثر قرنا كاملا

● **وفي سنة ١٧٦٣** ، وفد على (پومپيي) ألماني في أوسط العمر ، يدعى ((ج. وينكلمان)) ، من هواة الآثار . ولكن المسيطرين على (پومپيي) ـ اذ ذاك ـ كانوا حريصين على الا يطلعوا غريبا عليها . بيد انه استطاع بالرشوة أن يتسلل الى متحف (ناپولي) ، فيدرس ما فيه من أشياء **استخرجت من** الموقع . ثم تمكن ـ بنفس الوسيلة ـ من أن يتسلل الى الحفائر ..

وكان ما رآه ، بداية البحث الأثرى الحقيقى فى الموقع .. فلم تنقض سنوات أربع ، حتى كان « وينكلمان » قد ترجم الأشياء — التى شاهدها — الى تقرير مكتوب ، يسجل ستة قرون من الحياة فى المدينة التى اختفت قبل ذلك بثمانية عشر قرنا !

وقد أدى عمله الى ايضاح الطريق الى الحفريات المهمة ، التى أجريت — بعد ذلك — فى طرواده ، وكريت ، ونينوه ، وبابل ، ومصر .

بيد أن أحدا لم يحفل به ، فى ذلك الوقت .. وبالتالى ، لم يأبه أحد لقيمة موقع (بومبيى) ، وان استمرت هناك عمليات حفر مرتجلة ، لا تتبع أى أسلوب علمى ، ولا ما أشار به ((وينكمان)) فى تقريره ..

وبعد قرون من الزمن ، كانت هذه العمليات قد كشفت عن قاعة الاجتماعات الكبرى — التى كانت تتوسط المدينة — وعن الأسواق والمحاكم ، والمعابد .. ثم كشف الحفر عن مسرح المدينة ، وقاعة الموسيقى ، والملعب الرياضى — الذى كان يتسع لحوالى ٢٠,٠٠٠ متفرج — وحديقة الحيوان والحمامات العامة ..

جهود لإعادة المدينة الى أوضاعها الأصلية

● على أن عمليات الحفر — برغم ما كشفت عنه — لم تكن تهدف الى التنقيب عن نواحى الحياة التى تلاشت ، بل كان كل ما تهدف اليه هو البحث عن تحف فنيــة تزيد من ثروة متحف (نابولى) ! .. الى أن ساق الله الى الموقع عالما آخر — وكان أول عالم يهتم به بعــد « وينكلمان » — وهو الايطــالى « جوسيبى فيوريللى » ، فاذا به يفطن الى ما للتحف التى استخرجت جزافا ، من قيمة أثرية وحضارية ، فطلب ايقاف



اغراه الطمع بأن يجمع ذهبه ومجوهراته ، ويحاول الفرار ، فانقضت عليه الحمم البركانية ، وتحجر .. وتحجرت قبضته على حفنة من الذهب !.. وكانت جثته اول جثة اكتشفها « الكوبيرى » ، سنة ١٧٤٨ .

عمليات الحفر المرتجلة فورا .. ثم تولى تنظيم الجهود ، بحيث يسير الحفر من شارع الى شارع ، ومن مبنى الى مبنى ، بعناية ودقة علميتين .

ولم تعد التحف والآثار تحمل الى متحف (ناپولى) ، بل اصبح كل ما يتسنى العثور عليه ، يوضع فى مكانه الطبيعى الذى كان يشغله قبل الكارثة .. فأعيد تركيب قطع الرخام و « الموزاييك » التى كانت تكسو أرض البيوت ، وأعيد لحام بعض التماثيل والتحف التي تهشمت .. **وكانت عملية اعادة كل شيء الى ما كان عليه ، اشق وأصعب من عمليات الحفر والتنقيب .. ولكن حوالى مائة شخص - من امهر العمال الفنيين - توفروا عليها ، واورثوا ابناءهم بعدهم اساليبها .. ولا يزال الى اليوم من احفادهم من يسيرون على نهجهم ..**

وتوفر الحكومة الايطالية ثلاثة أرباع النفقات التى يتطلبها الكشف عن كافة دقائق مدينة (پومپيى) ، واصلاح المخلفات ، بحيث تبدو المدينة المتحجرة فى الوضع الذى كانت عليه عند وقوع النكبة .. أما الربع الباقى - من النفقات - فيستمد من السياح الذين أخذوا يتدفقون على الموقع من كل مكان .. فان أعمال الصيانة التى تبذل ، جعلت خيال زائر المدينة المتحجرة ينشط - وهو يجوس خلالها - فيتصور أن الحياة دبت فى حوانيتها وحاناتها ، وان الأصوات تنبعث من متاجرها وبيوتها ..

.. والآن وقد الممنا الماما عاجلا بماساة « پومپيى » - كما رواها احد شهودها - وبما كان من مصيرها ، وبتاريخها ، وبتطور الجهود التى كشفت عنها ، تعالوا نقرأ التحقيق الذى كتبه « ايفار ليسنر » :

الحياة تسير .. برغم اخطار البركان !

● **لا يزال** (ڤيزوڤ) قابعا فى مكانه ، مطلا على خليج (نابولى) فى شموخ وسكون ، يغلفه ضباب اشبه بغلالة شفافة .. لكم يتناقض جماله الوادع هذا ، مع تاريخه المأسوى !.. وبالرغم من أن المصير الذى أوقعه (ڤيزوڤ) بمدينة (پومپيى) لا يزال ماثلا فى معالمها المتحجرة ، فإن الايطاليين لم يكفوا عن التعمير والبناء فى الهضاب المحيطة به .. ذلك لأنهم عرفوا طباع البركان والفوا أخطاره .. انه قد يقضى قرونا فى خمول ودعة ، ثم يتوالى ثورانه سنوات طويلة ، كما حدث بين سنتى ١٨٧٥ و ١٩٠٦ .. **وتتعاقب فترات الثورات وفترات الهدوء دون معدل او قاعدة ، ولكن الناس لا يستغنون عن الأراضى المحيطة به ، فهى من أجود اراضى ايطاليا واخصبها ، اذ تتقبل الزراعة ثلاث دورات فى العام ، وتدر من المحصولات اوفرها واجودها .. فضلا عما تزخر به مياه الخليج الأزرق من خيرات لا تنضب !**

وفى احدى فترات غضب البركان ، لقيت (پومپيى) نهايتها الأليمة ..

بدأت الفترة فى اوائل سنة ٦٣ ميلادية . ففى ظهيرة الخامس من فبراير ، حدث زلزال رهيب ، تداعت له الأرض .. وكان سكان (پومپيى) و (هيركولانوم) – القابعتين عند سفح البركان – يجلسون الى موائد الغداء مطمئنين ، فاذا الأرض تنشق فجأة فتبتلع الموائد والأثاث والجدران ، ومعبدى « چوپيتر » و « ابوللو » ، ومسرحى (پومپيى) ، وقصور الأغنياء وبيوت الفقراء .. والناس والماشية !.. وامتد الدمار حتى هضاب مدينة (نابولى) ..

وكانت روما آنذاك تحت حكم « نيرون » .. ولما كانت زوجته الحسناء « پوپيه سابينا » من (پومپيى) ، فقد أمر

القيصر باعادة بناء المدينة ــ وجاراتها التى تهدمت ــ فى أسرع وقت .. وما لبث القوم أن نسوا الزلزال الفظيع الخاطف ، ولم يفطنوا الى أن الغازات والأبخرة كانت قد تراكمت فى جوف (ڤيزوڤ) ــ القـــابع بجلال خلف الكروم وأشجار الزيتون ــ وان الهزات الأرضية كانت نذيرا بأن ضغط الأبخرة والغازات يشتد ، بحثا عن منفذ ..

.. وتحجرت الحياة فجاة بكل مظاهرها !

● وفى عام ٧٩ تولى ڤسپازيان ــ المشهور بدمامتـه وبخله ــ الحكم خلفا لنيرون .. وفى العشرين من أغسطس ــ من ذلك العـــام المشئوم ــ بدأ ســـكان (پومپيى) و (هيركولانوم) و (ستابييه) يسمعون ضوضاء مكتومة تصدر عن (ڤيزوڤ) ، مصحوبة بهزات أرضـيـة متتالية ، استمرت يومين .. ولم يســاور أحد الريب ، اذ كان (ڤيزوڤ) قد ظل هادئا حوالى ١٥ عاما ..

وهدات الهزات الأرضية طيلة اليومين التاليين .. ثم ــ وفى ٢٤ اغسطس ــ دوى انفجار عنيف لا عهد لأحد به ، فاذا الضجيج يصم الآذان ، والأرض تتشقق ، واعمدة اللهب تنطلق من جوف البركان لتطاول السماء ، والدخان يخيم على المنطقة كثيفا متتابعا دون ما نهاية ، والأحجار والصخور تملأ الجو ثم تعـود متساقطة كوابل من المطر ، مصحوبة برماد ــ أشـد سوادا من دياجير الليـل ــ وبحمم تتلظى بحرارة تتجاوز آلاف الدرجات ..

وتدافعت الغازات الخانقة ــ من جوف البركان ــ تخمد كل شىء ..

وتحجرت الحياة .. تحولت الى تماثيـل حجرية !..

وكانت ثمة ظاهرة غريبة ، تلك هى أن الحياة ــ بكافة مظاهرها اليـومية ــ قد توقفت فجاة ، وليس تدريجـا .. وكشفت



وجه شاب رياضى من الأشخاص الذين وجدوا متحجرين فى (بومبيى) وقد ظلت عيناه تحتفظان بنظرة الذعر الذى انتابه حين داهمت النكبة المدينة !

الحفريات عن مآس طريفة : لقد استطاع بعض السكان الهرب من المصير الفظيع ، بينما ضاقت السبل بآخرين فلاذوا بأقبية البيوت ، أو بالمقابر .. ومنهم من راحوا يصلون ، ومن وجدوا متشبثين بأموالهم ، محتضنين نفائسهم !

صور من أحداث اليوم المروع

● **وتصور** أحداث ذلك اليوم الرهيب ــ بالقدر الذى توفر لدينا من الكشوف الأثرية ، ومن دراسة الأنقاض

المتحجرة ــ مدى الذعر الذى انتاب الناس ، ومدى الأهوال التى تعرضوا لها ..

من هــذه الصور : ان ذلك اليوم بدأ صحوا جميــلا فى صباحه ، فلجأ أحد مواطنى المدينة ــ وكان اسمه « لوشيوس هيرينيوس فلوروس » ــ الى قبو بيته ، وأخذ يتسلى بالعزف على قيثارته ، بينما كانت زوجته تروح وتغدو فى البيت ، تراقب العبيد وهم يقومون ببعض ترميمات فى المبنى ، والخدم وهم يعدون الطعام .. حتى اذا انتصف النهار ، بدأت تعد المائدة ، واذا الظلام يسود الكون دفعة واحدة ، وانهالت على سقوف البيوت ملايين من الأحجار ، بين صغيرة دقيقة ، وكبيرة يصل وزنها الى ٢٠ كيلو جراما .. وامتلأ الجو برماد خانق . **وهرع « لوشيوس » الى زوجته ، بينما اندفع العبيد ــ من كافة أرجاء البيت ــ الى الباب الخارجى يبتغون الفرار .. ولكن الظلام والرماد والحرارة الفظيعة ردتهم الى داخل البيت ثانيــة .. حيث وافاهم الموت ــ مع سـيد البيت وزوجته ــ اختناقا !**

وفى بيت مؤلف للمسرحيات الشعرية ، كشفت الحفريات عن أن الشاعر كان يقتنى كلبا للحراسة ، اذ ثبت الى جانب المدخل لوحة للتحذير منه .. وكانت هناك حانتان للخمور ملحقتين بالبيت ، تنــاثرت فيهما موائد ازدانت بالموزاييك الجميل .. ويبدو أن الشاعر ورواد حانتيه ، كانوا ــ فى ذلك اليوم ــ أسرع من غازات (فيزوف) الخانقة .. **فلم يبق فى البيت احد ، سوى ابنتى الشاعر اللتين قبعتا فى انتظاره حتى داهمهما الموت فاستسلمتا فى دعة !**

ولقد بقيت كثير من البيوت كمعالم اثرية تتحدث عن حياة الرومان .. فعلى عتبة أحد البيوت ، لا تزال كلمة « مرحبا » منقوشة ، لتشهد بكرم أصحاب البيت .. ويبدو انهم كانوا مفرطى الثراء ، اذ توحى الحفريات بأن ثراءهم هو الذى عاق

ربة البيت عن الفرار ، حين وقعت النكبة .. **والظاهر انها استغرقت وقتا في جمع حليها ومجوهراتها ، ولم تكد تبلغ قاعة المائدة ، حتى انهار عليها السقف ، فماتت ومعها كنز من المجوهرات والأساور المصنوعة على شكل ثعابين ، والاقراط ، والخواتم المرصعة بأثمن الأحجار الكريمة ، والمرايا الفضية ، والعملات الذهبية !**

وهناك كنز آخر جمعه أصحابه ، ولكنهم تركوه – في حلة نحاسية كبيرة – لينجوا بأنفسهم في آخر اللحظات .. واستطاعت الأسرة أن تهرب ، ولكن أربعا من النساء – يبدو انهن كن يستأجرن غرفا في البيت – داهمهن الموت اختناقا ، بين مجوهراتهن ..

تموت الحسناء .. والمرآة في يدها !

● **هذا** الحرص على الذهب والفضة والمجوهرات ، من اطرف الظواهر في مأساة (پومپيي) .. ترى هل يمكن تبريره بمجرد غريزة تملك فطرية ساذجة ، دفعت النسوة والفتيات الى الانهماك في جمع الحلي ، في الوقت الذي كانت فيه مدينة بأسرها ، تبحث عن شمس أغسطس التي انطفأت فجأة ، في منتصف النهار ؟

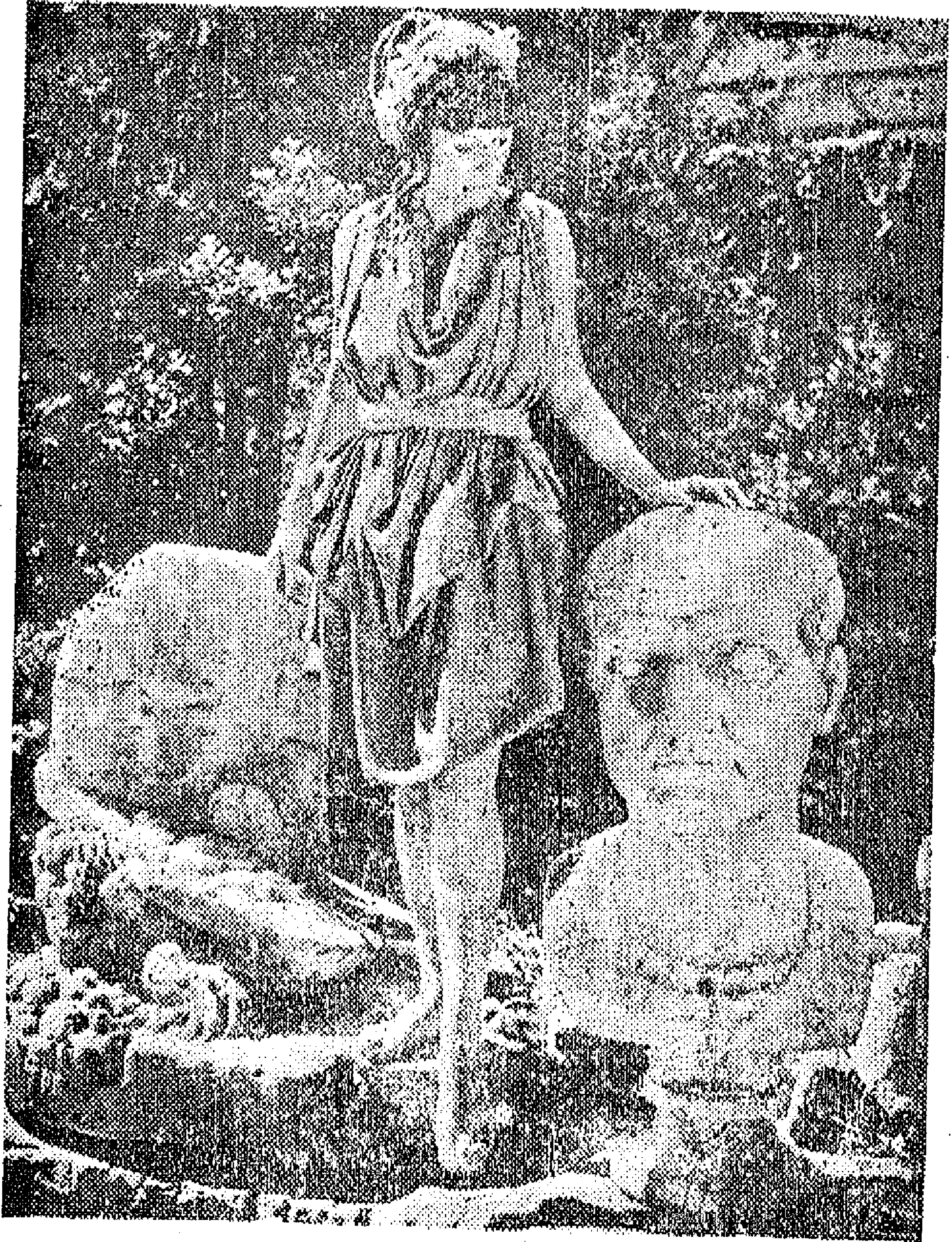
واذا صح هذا التبرير ، فبماذا نبرر ظاهرة تلك الفتاة التي وجدت ممسكة بمرآتها في (ڤيلا الغوامض) ؟.. وهي (ڤيلا) في احد أطراف (پومپيي) ، اكتسبت اسمها من الزخارف الغامضة ، المحفورة والبارزة في كافة أرجائها .. **ترى أكانت الفتاة المسكينة تطمئن الى اكتمال زينتها ، عندما احاطت بها غازات (ڤيزوڤ) فاختنقت ؟**

وفي مبنى آخر ، وجد شاب مجهول – لم تكشف الحفريات عن معلومات عنه – وقد انزوى في أحد أركان حجرة حبس فيها ، وتجمدت نظرته الأخيرة على خاتم حديدي في أصبعه ، ازدان بصورة محفورة لوجه امرأة ..

واكثر غرابة من كل هذا ، أن فريقا من سكان (پومپيى) لاذوا بالمقابر فرارا من الموت والدمار !.. بل منهم من اختاروا ان يرقدوا فى قبور ، فلم يبرحوها ازاء تراكم الرماد البركانى والأتربة والأحجار .. وفى **احد هذه القبور ، عثروا على امرأة تحجرت وهى تجلس القرفصاء ، وقد رفعت طفلها الرضيع الى اقصى ما تصل اليه ذراعاها .. رغبة فى انقاذه !**

وفى (ڤيلا ديوميد) ــ فى الطرف الأقصى من حى المقابر ــ قصة اخرى .. فبعد الحمام والافطار ، فى صباح ذلك اليوم ــ وكان الصباح صحوا ــ ضم البيت اربعة وثلاثين شخصا ، انتشروا فى البيت والحديقة .. وكان صاحب البيت يمارس صناعة النبيذ ، وقد أعد تحت البيت كهفا لتخمير انتاجه .. **فلما انقضت الكارثة ، رأى أن يأوى واهل داره وضيوفه الى الكهف الذى كان مغلقا من كل جانب ــ عدا ثغرات للتهوية فى السقف ــ ليعصمهم من الأحجار والغبار .. ثم خطر له ان يحكم اغلاق الباب الخارجى للدار ، فاسرع الى الحديقة مصطحبا احد خدمه .. وداهمه الموت عند المدخل ، وفى احدى يديه مفتاح الدار ، وفى الأخرى كيس به ست قطع من العملة الذهبية ، وثمانون قطعة فضية !..** أما افراد أسرته وخدمه وضيوفه ، فهلكوا فى الكهف بعد ذلك .. ووجدت زوجته محتضنة طفلها الصغير .. بينما وجدت ابنته الكبرى محتضنة مجوهرات خطبتها (الشبكة) !

وفى (ڤيــلا مناندارى) ــ التى كان يمتلكها شخص امتزجت فى عروقه الدماء الافريقيــة والرومانية ــ كشفت الحفريات عن أفظع مناظر الفوضى والاضطراب .. كان العبيد يعملون فى الطابق الأول . والظاهر أن صاحب الدار ــ ويدعى « پوپايس ايروس » ــ كان قد أوصد عليهم الأبواب .. فلما بدأت الكارثة ، حاول العبيد الخروج ، ولم يجدوا سوى أن يحطموا الأبواب ، ثم اندفعوا وراء رئيسهم ، الذى حمل



حسناء ايطالية في ملابس راقصات العهد الذى وقعت فيه كارثة (بومبيى)
وهي تقف على بعض اطلال المدينة بجوار تمثال من التحف التى وجدت فيها

مصباحا ليبدد الظلام .. وقد وجدت جثثهم العشر بين انقاض سلم الدار ، الذى انهار بهم .. **ووجد صاحب الدار فى ركن من فراشه ، وقد وضع الوسائد فوق راسه ، وكانه كان يحاول صد الغازات الخانقة .. وكان فى يده كيس ضم قطعتين ذهبيتين ، وتسعين قطعة فضية ، وثلاث عشرة قطعة برونزية !**

وقد كشفت الحفريات — فى هذه « الڤيلا » — عن نقوش سليمة ، بعضها محفور والبعض بارز ، لحصان طروادة يحوطه عدد من الناس — وقد ظلت الألوان البنية والصفراء والخضراء لهذه اللوحة زاهية — ورسوم لعدد من قصص الملاحم الاغريقية .. كما عثر فى كهف « الڤيلا » على أكبر كنز من التحف الأثرية الفضية .. مائة وخمس عشرة قطعة ، استخرجت من الانقاض — فى سنة ١٩٣٠ — ونقلت الى متحف (نابولى) ..

وفى مدرسة الألعاب الرياضية فى (پومپیی) ، وجدت جثة متحجرة لطبيب .. ماذا كان يفعل هناك ؟.. هل جاء ليقدم الاسعافات ؟ أو انه كان يمارس واجب الرعاية الطبية للرياضيين ، عندما انقضت الكارثة ؟.. لقد وجدت احدى الادوات بين أصابعه ، بينما وجدت — فى اليد الأخرى — زجاجة زيت ..

مذكرات ربات البيوت والفتيات العاشقات

● **وفى المساء** ، وفى الصباح المبكر ، يحلو لنا أن نتصور شوارع (پومپیی) ، وقد خلت من السائحين والضجيج ، وارتدت الى ما كانت عليه فى عهد الرومانيين .. كانت الطرق الواسعة ، مثل شارع (ستابييه) ، ذات قناتين ، ولا تزال الثغرات — التى أحدثتها عجلات المركبات — ظاهرة فى الأحجار التى رصفت بها .. اما الطرق الضيقة ، فكانت ذات اتجاه

واحد . ولا بد ان المركبات كانت تقوم على ارتفاع فوق عجلاتها ، اذ تعترض الشارع أحجار بارزة تحدد الأماكن المخصصة لعبور المشاة .. ولم يبق أثر للأشجار التى كانت تحف بأسوار الحدائق ، وتجعل الليمون الحلو والبرتقال وعناقيد العنب فى متناول المارة على الأرصفة .. وان بقيت آثار للكتابة التى كانت على جدران البيوت ، تتضمن دعايات انتخابية للمرشحين لهيئات رئاسة المجالس البلدية ، التى عقدت قبيل الكارثة بقليل !

ومن أطرف الكتابات الأخرى ، مذكرات كتبتها ربات البيوت .. فكتبت احداهن : ((**٣٠ ابريل : رقدت الدجاجة على بيضها**)) !.. وكتبت أخرى انها بدأت العمل فى نسج سجادة ، فى ٢٦ ديسمبر .. وذكرت ثالثة تاريخ ايلاجها الخيوط الذهبية فى نسيج ثوب كانت تعده لنفسها .. وكتبت فتاة بخط دقيق : ((**لو كنت تعرف سطوة الحب ، ولو انك كنت انسانا ، لأشفقت على ، ولما صددتنى ...**))

وتشهد الكلمات الأخيرة بما عرف عن (پومپيى) و (هيركولانوم) من أنهما كانتا من أرقى مراتع الحب !

ولم تؤت مدن أخرى فى العالم ما اوتيت هاتان المدينتان — حتى فى موتهما — من سحر على الأحياء .. فالذى يجوس خلال طرقاتهما ، يشعر بانه كالسائر فى نومه ، ولكنه يمشى على الزمن .. ويروى عن ((جوته)) — عندما زار نابولى وپومپيى — انه قال : ((اننا ننام جميعا على براكين)) !

ولا يشعر المرء بتأثير سحر الظواهر البركانية على الخيال البشرى ، بقدر ما يشعر به وهو يتسلق بركان (ڤيزوڤ) .

ويستطيع المرء أن يصل بالسيارة الى منتصف السفح ، اما بقية المسافة ، فيمكن اجتيازها ب « التليساج » .. أى المركبات التى تجرى على أسلاك .

المدينة القديمة اجمل تنسيقا من الجديدة !

● وتدل الآثار التى خلفها ثوران سنة ٧٩ ، على طاقة لا تضارعها طاقة أية قنبلة هيدروجينية حديثة .. أما ثوران ابريل سنة ١٩٠٦ ، فقد بلغ فيه ارتفاع أعمدة الدخان ١٣ الف متر .. ومع ذلك ، فان الأعشاب الخضراء تحف بفوهة البركان على الدوام ، ويعبق الجو شذى الزهور ، وان تخللت الخضرة قناتان كبيرتان ، أحدثتهما الحمم المنصهرة التى نفثها البركان فى سنة ١٩٤٤ . وما من حذاء يقوى على حماية القدم من المواد البركانية المتجمدة .. ومع ذلك ، فان المرء يرى هناك أشجار الفاكهة والكروم !

ولقد حلقنا بالهليكوبتر فوق فوهة البركان ، فلم نر مكانا أكثر وحشة ورهبة منها .. وما من سبيل الى وصف لونها الذى تتخلله خيوط رفيعة من الدخان . ويروح السياح ويغدون على السفح ، وهم يتلكأون وكأنهم يرتقبون أمرا ما .. وفوق مواقع الماضى ، تقوم مدن من بيوت متواضعة ، يعمرها الفقراء والمتعطلون .. ومن الجو ، بدت لنا مدينة (هيركولانوم) وكأنها مدينة حديثة : شوارع واسعة شقت باستقامة ، ولا تزال ظاهرة وهى تنحدر نحو البحر ، ويتقاطع بعضها مع بعض بزوايا قائمة .. يناقض هذا ما تجلى فى مدينة (ريسينا) الحديثة من اهمال شنيع ، وكأن أهلها لا يدركون أن تحت مساكنهم انقاض احق بالظهور من مدينتهم غير المنسقة !

ولا يملك المرء - اذ يستجلى معالم (بومبيى) من الطائرة « الهليكوبتر » - سوى أن يرثى لما كانت عليه هذه المدينة فى الماضى من ازدهار ، ومن نشاط فى الأعمال ، ومن حركة دائبة للتعمير - اذ كان البناءون من العبيد لا يكفون عن البناء يوما - ومن ضجيج الأسواق .. فقد كانت فيها سوق



الصورتان ــ العليا والسفلى ــ تبينان جثث مدرس وتلاميذه ، وقد داهمهم الموت فجأة ، ثم هبطت عليهم الحمم والرماد البركانى ، فتجمدت جثثهم فى الوضع الذى ماتوا عليه !



للسجق ، لأن الحمامات الساخنة توقظ الشهية للأكل .. وسوق للسجاد الذى كان الشرق يصدره الى كافة أرجاء ايطاليا ..

مغامرات العشاق وحياة الليل فى (پومپيى)

● **ولقد** كانت (پومپيى) ـ على صغر مساحتها القديمة ـ ميناء تجاريا حافلا بالحركة ، وكانت تتألق ببنايات رائعة ، تحيط بها الحدائق ، وتزينها التماثيل واللوحات الفنية المحفورة والبارزة والمصنوعة من الفسيفساء الرائعة الألوان .. وكانت الثروات المتداولة بين أيدى سكانها تفوق الخيال . أما الحياة اليومية ، فلم تكن تقل فى مجالاتها عن الحياة الحديثة .. كان بها صناع الأحذية ، وتجار الأقمشة ، والمطاعم ، وصالونات الحلاقة ، وصناع الأسلحة ، والقصابون .. وتجار النبيذ ، بوجه خاص .. وقد نقشت على جدار احدى الحانات ، هذه العبارات :

« ما دمت قد ارتويت ، فهيا بنا الى الطريق ، وامسك اعنة الخيل ، ولكن لا تستخدم السوط .. واتجه بى سريعا الى قلب المدينة ، حيث تنتظرنى حبيبتى » !

وكانت فتيات (پومپيى) يقظات الوعى ، كما تشهد عبارات الشكوى التى كان يسجلها الشبان على الجدران ، وفى كل مكان .. وكم من قصص عن اقتحام البيوت ، واختطاف الحبيبات !

وكان الليل فى المدينة ، صورة للأوضاع الاجتماعية فيها .. اذ كان الأغنياء وذوو الميسرة يؤوبون الى بيوتهم الفخمة ، بينما كان الفقراء يلوذون بالظلام ، على حواف الطرق التى لم يكن ينيرها سوى مشاعل العبيد ، عندما يتقدمون مركبات الغوانى ، وهى تقلهن فى جولاتهن الليلية ..

وكانت الآلهة موضع تكريم واجلال فى (پومپيى) ، فى

وقت كانت الديانات الرومانية تلقى جحودا ونسيانا مطردين .. على أن الخرافات والسحر والشعوذة كانت تلقى رواجا ، الى جانب ذلك ..

العبيد يكدحون والسادة يبحثون عن الملذات

● وكان سكان (پومپيى) يمتازون بصفة مشتركة عن بقية المدن الأخرى : تلك هى أنهم كانوا يحبون الحياة بنهم .. نهم دفعهم الى تسمية مدينتهم بلقب : ((**لذة الحياة**)) !.. وكانت رغباتهم تتلخص فى جمع المال ، وتزيين الديار ، والاستمتاع بكل انواع الملذات .. والى اقصى حد ممكن !

ومما كان يتيح لهم امكانية هذا الاستمتاع ، أن أعباء الاعمال كانت تقع على عاتق العبيد .. وقد كان بالمدينة عشرة آلاف منهم ، أى نصف عدد سكانها : يزرعون ، ويحصدون ، ويصنعون ، ويشيدون ويكافحون من أجل حياتهم التافهة فى نظر سادتهم المرفهين ، الذين كرسوا حياتهم للبحث عن لذة الحب .. وتقول عبارة محفورة على أحد المنازل ، وما أكثر هذه العبارات على منازل (پومپيى) : « الحياة لمن يحب ، والفناء لمن لا يعرف الحب » !

ولم يكن شغفهم بالجمال عامة يقل عن بحثهم الدائم عن الحب والملذات . لذلك كانت ديارهم وحدائقهم وميادينهم العامة تزخر بالتماثيل الرائعة ، واغلبها كان يصنع من الرخام ويترك على لونه الطبيعى ، أو يطلى بالالوان .. ومن أجمل التماثيل التى تم العثور عليها حديثا ، تمثال لأفروديت ــ ربة الجمال ــ من الرخام الأبيض ، تعلوه نقوش ذهبية فى مكان الحلى الحقيقية . ويعتبر هذا التمثال فريدا فى نوعه ، لأن منطقة البطن تزدان بنقوش زخرفية دقيقة ، تدل على ما كانت تتزين به المرأة آنذاك من وشم فى هذا الجزء من جسمها !

المساواة بين الرجل والمرأة فى الأعمال

● **وكانت** المرأة ـ فى مدينـــة الملذات المتحجرة ـ اكثر حريه من زميلاتها فى (روما) أو (أثينا) ، اذ كانت تتمتع



لوحة وجدت بين أطلال بيت الخباز « ترينتيوس نيو » ، تمثله وزوجته . وكان الخباز يسخر حوالى اثنى عشر عبدا لادارة الرحى لطحن القمح .



شاب رياضى من (بومبيى) تحجر جثمانه وهو فى هذا الوضع ـ على سفح فيزوف ـ يحاول أن يتخلص من الحمم التى أحاطت به ، لينجو بحياته

بنفس الحقوق والامتيازات التى للرجل ، ما عدا حق الانتخاب . ولم تكن تكتفى بالسيطرة على قلب زوجها ، وانما كانت تدير شؤون المنزل ، وتدير تجارة الأسرة ، وتتولى تربية الأطفال .. وكانت الأرملة الثرية تقوم باستثمار الأموال ، وبتمويل أعمال تشييد المعابد والمبانى العامة ..

وقد وصل ثراء بعض النساء الى حد يثير الدهشة ! فقد كانت ((كوليا پاولينا)) ـ زوجة الامبراطور كاليجولا الفاتنة ـ

ترتدى مجوهرات تقدر قيمتها باربعين مليون ((سسترس)) ، اى ما يعادل الآن ٢٠٠ الف جنيه .. فى عهد كان فيه مبلغ خمسة وعشرين الف ((سسترس)) ـ اى ما يعادل الآن ١٢٥ جنيها ـ يمثل دخلا سنويا يكفى حاجات عائلة باكملها !

أما الفتيـات ، فكن فى نفس أناقة الباريسـيات ، وان صبغتهن الشمس اللافحة بسمرة تزيدهن فتنة . وكان على الفتاة أن تدرس اللغات المختلفة ، وعلم النفس ، والفنـون الجميلة ، كما كانت تذهب الى حمـام السـباحة والمعبـد والمسرح . ويقول أحد الشعراء محدثا فتيات عصره : « الى المسرح اذهبى ، فالعشاق تقابلينهم هناك » !.. وكان للفتاة أن تحتفظ بالزى الرومانى القصـير حتى الزواج ، فاذا ما تزوجت ، ارتدت الثياب الطويلة !

وكان الشبان عموما ، يتسمون بالعاطفة الجامحة ، واعتاد البعض منهم تكوين فرق متمردة على القانون .. وما زالت بعض المنازل تحمل عبارات غريبة تشهد بمغامراتهم مثل : « استولينا على ما فى هذا المنزل وأشعلنا به النار » ، أو « اختطفنا تلك الجميلة التى كانت لها حكايات وحكايات » !

لكل انسان سعر ولأبطال الرياضة ((كل شىء)) !

● **وكانت** القيمة النقدية أو العينية للانســان تختلف باختلاف تركيبه الجسدى وأعماله . فكان القزم يساوى عشرة جياد ، أما المصارع فكان يساوى « كل شىء » أو « لا شىء » .. كل شىء طالما ظل منتصرا على خصومه وعلى منافسيه ، و « كل شىء » هنـا تشمل أساسا عالم المرأة .. وما زالت جدران المنازل فى (بومبيى) تحمل عبارات مثل « تراس سيلادوس هو موضع فخر البنات » !.. ولم يكن المصارع « نازيكا » أقل من « تيراس » هذا شأنا ، فقد كان خير نجوم مدرسة المصارعة ، وانتصر فى ثمانى عشرة حلقة مصارعة على التوالى ..

ومن اطرف واغرب ما كشفت عنه الحفريات ـ في احدى غرف ثكنات المصارعين ـ قصة ذلك المصارع الذي استغل انهماك الجميع في حلبة المصارعة ، ليختلي بحبيبته الحسناء ، فداهمتهما كارثة البركان ، وتحجرا وهما متضاجعان ، وليس على الفتاة سوى عقد هائل من الحلي والمجوهرات !

واذا كان سكان (نابولي) والمنطقة المجاورة ـ حاليا ـ متطرفين في ايمانهم بالتفاؤل والتشاؤم ، وبالغيبيات وبالخرافات ، فان هذا امتداد لما كان عليه أسلافهم القدماء . فقد كان سكان (بومبيي) يرددون التعاويذ التي تحميهم من الامراض ، ومن الأرواح الأرضية الشريرة ، ومن الثأر والافلاس .. وكانت نذر التشاؤم وسوء الطالع تملأ جداول بأكملها ، ومنها على سبيل المثال : « اذا تعثر انسان في سيره ، فلابد له من أن يتوقف فورا ، ليعود من طريق آخر ، والا .. »

ومثلما ترتجف ارض البركان ـ حتى يومنا هذا ـ يرتجف البعض خوفا من المجهول ، وخوفا من ثوران قادم يجتاح كل شيء من جديد .. فما زال بركان (فيزوف) يهدد بالخطر ، وان بدا ساكنا . لكن الشمس لا تزال بنورها تسطع على نابولي ، وسورنتو ، وكابري ، واسكيا ، لتضفي عليها مزيدا من الضوء ، والسعادة ، والأمل .. وتجتذب كل يوم مزيدا من السائحين ، من كافة انحاء العالم !

بقيت بعض معلومات طريفة عن مجتمع (بومبيي) نوجزها فيما يلي :

● **كانت** (بومبيي) ذات موقع تجاري مهم ، اذ انها كانت مدخل سهل واسع ، خصيب . وكانت تضم ٢٠ الف نسمة . وقد اشتهرت بالتجارة مع الشرق .

● **كان** الأغنياء من أهل المدينة يقضون سهراتهم في قاعة المائدة ، التي تتوسطها مائدة من الرخام ، تحيط بها أسرة

وثيرة من ثلاث جهات ، بحيث يعاقرون الشراب ، ويتسلون بالفواكه ، وقد اضطجعوا فى الأوضاع التى تريحهم .

● كان أهل المدينة يتخذون شعارهم قول الشاعر هوراس : « انعم بيومك فهو لن يلبث أن ينقضى » .. وقد جعلوا من « فينوس » الربة الراعية لمجتمعهم !

● فى المنطقة الرابعة ، يقوم « بيت المسرات » ، حيث كان الشباب يذهبون لطلب المتعة الرخيصة ولا تزال تزين جدرانه ــ الى اليوم ــ رسوم بالألوان لأوضاع مكشوفة . وهناك مدخلان للبيت ، أحدهما يفضى الى الطابق الأسفل ، حيث كانت الفتيات يجلسن فى انتظار الزائرين .. والآخر يفضى الى الطابق الأعلى مباشرة ، وكان يسلكه الرواد المعروفون ، والذين ينشدون جلسات مرحة قبل أن ينالوا غايتهم . ويلاحظ أن أهل (بومبيى) كانوا يسمون هذا البيت « بيت المسرات » ، فى حين كان الرومان يطلقون على أمثاله ــ فى المدن الأخرى ــ لقب « البيوت ذات الرائحة الخبيثة » !

اقرأ مزيدا من الحقائق عن مأساة (بومبيى) ، فى مقال لمدير الحفائر الأثرية فيها ، يقدمه لك « كتابى » على صفحة ١٧٣ من هذا العدد .

أعلام الأدب العالمي

چون آبدايك

أنبغ من صوّر انحلال
المجتمع الأمريكي المعاصر



اعداد وعرض : محمد مصطفى غنيم

أزواج وزوجات !

لم تحدث رواية من الضجة فى أمريكا ـ فى السنوات الاخيرة ـ ما احدثته رواية «ازواج وزوجات» التى عمد فيها مؤلفها ـ الروائى والشاعر الامريكى المعاصر «جون آبدايك» ـ الى تعرية المجتمع الامريكى ، ليكشف ما تحت مظاهر المدنية والحضارة من انحلال فاق الانحلال الذى اودى بالامبراطورية الرومانية فى الماضى !

و «جون آبدايك» من الشخصيات الادبية الامريكية التى تواصل الصعود والتألق ، لا يقعدها نجاح عن مواصلة السعى الى نجاح اكبر .. وقد ظفر بعدة جوائز ادبية كبرى فى امريكا ، كما فاز بالجائزة الفرنسية لـ «احسن كتاب اجنبى» فى سنة ١٩٦٦ .

وقد زار «آبدايك» الجمهورية العربية المتحدة ، فى سنة ١٩٦٨ ، ونزل ضيفا على «جامعة فلسطين» ـ الجامعة الامريكية بالقاهرة ـ حيث القى عددا من المحاضرات على طلبتها ، كما عقد عددا من الندوات ، وقرأ بعضا من اشعاره وانتاجه الادبى فى القاعة الشرقية بتلك الجامعة ، واتصل بعدد من الشخصيات الادبية العربية ..

وعن «آبدايك» وروايته «الازواج والزوجات» ، يقدم لك «كتابى» العرض الشوق التالى ..

البلدة التي تعكس صورة المجتمع الأمريكي

● بلدة يسودها الهدوء ، وتتردد فى جوها أصوات الطيور الجميلة وهى تغرد ، وترتفع فى أرجائها الأشجار وقد تشابكت أغصانها ، بينما برزت ـ على حافة البحر ـ تلك البيوت الخشبية ذات الأعمدة البيضاء التى بقيت من مخلفات

الثورة الامريكية ولم تمحها بعد تماما سمات القرن العشرين الغريبة .. وأبراج الكنائس تشير للجميع لكى يتجهوا نحو حياة الفضيلة ، بينما تتلاشى قضبان السكك الحديدية فى الأفق الشمالى البعيد ، فى اتجاه مدينة (بوسطن) ، التى تقع على مسيرة حوالى ساعة ..

هذه هى (تاربوكس) .. المدينة الصغيرة التى تقع فى ولاية (ماساتشوستس) ، مسرح أحدث رواية للكاتب الأمريكى اللامع « جون آبدايك » JOHN UPDIKE . رواية « ازواج وزوجات » COUPLES ، **حيث تتكشف بدائية الديموقراطية الأمريكية بصورة عجيبة شاذة ، تتمثل فى علاقات ازواج وزوجات البلدة .. وفى شوارع الحى التجارى التى اطلق عليها اسماء « الأمل » و « الاحسان » و « القداسة » ، فى حين ان مجتمع البلدة لا يؤمن الا بالمال والجنس !**

وفى (تاربوكس) ـ كما فى غيرها من المجتمعات المماثلة ، فى امريكا ـ يتقبل القوم نعم الصحة والثروة والحكمة على أنها نعم طبيعية من حقهم ، بوصفهم أعضاء فى الطبقة الوسطى الامريكية .. وكذلك نجد أن « تاربوكس » بلدة يسودها المرح والبهجة ، ففى أيام الأحد غالبا ما تجد جماعات من الأشخاص يتقاذفون الكرة أمام منازل الغير ، بينما تثرثر النسوة وهن يرقبن الأطفال فى لعبهم ولهوهم .. وفى قصر زوجين ـ من علية القوم ـ قد تجد مباراة للتنس ، تعقبها أقداح « الفودكا » فى قصر زوجين آخرين .. وللنساء نشاط فى ادارة دار الحضانة وروضة الأطفال ، كما أن لهن جمعيات ، منها جمعية الناخبات ..

الجنس يفرض سلطانه على المجتمع

● بلدة بديعة حقا ، أو هي تبدو كذلك !.. فتحت هذا المظهر الوادع البهيج ، كشف « آبدايك » عن واقع آخر .. **ازواج وزوجات البلدة قد انغمسوا فى كتلة سوداء من الجنس المستباح ، والآلهة الطاهرة ــ البيوريتانية ــ قد لاذت بكنائس نصف مهجورة ، يعمرها رجال دين رضوا بالفشل والهزيمة ، وتنافسوا فى عقد القداسات لرجال الأعمال ، وفى الحديث عن مسيح لا يحتمل قيامه « يهبنا الأمن والسلامة الحاضرين ، بفائدة مركبة قدرها ٤٫٥ فى المائة ، تضاف كل ثلاثة اشهر » !**
.. أجل ، ان اية امراة اتهمت بالزنا فى التوراة ، تستطيع ان تعيش فى أمان ، فى (تاربوكس) ، حيث لا رجم بالأحجار ، وان سلقتها نسوة البلدة بنظرات حاسدة ! !

واذ فقد البروتستانتى الأمريكى حرارة اليقين ، فان أزواج (تاربوكس) وزوجاتهـا تحولوا ينشـدون حرارة أخرى .. حرارة الجنس والحب المحرم !

ويكشف « آبدايك » ــ فى غير مواربة ــ عن غايته .. عن صورة غريبة للمجتمع الأمريكى الذى أصابه الانحلال بدرجة لم يسبقها مثيـل فى التـاريخ ، فغرق فى أوحال الجنس ، لا تردعه أخلاق ، ولا مثاليات ، ولا ضمير .. ويبرر « آبدايك » تعريته لهذا الواقع بقوله : « **لقد كثر الحديث القاسى عن ان الحب والجنس أصبحا القاعدة الجديدة لمبادئنا الأخلاقية ، فأردت ان أوضح هـذه القـاعدة ، لأتسـاءل : هل هى شيء مرغوب فيه بالفعل ؟** »

وسلط « آبدايك » الأضواء على « القاعدة » ، فاذا كل زوج على علاقة آثمة بزوجة رجل آخر من أهل البلدة : فهذا « هارولد سميث » يضاجع « جانيت أبلباى » ، و « مارسيا سميث » تشاطر « فرانك أبلباى » فراشه .. و « أدى

كونستنتين » ينام مع « ايرين سالتز » ، بينما تنام زوجته مع « بن سالتز » .. زوج « ايرين » !

تبادل بين الأزواج والزوجات !.. اما المدعو « بييت هانيما » فلم تحبذ زوجته التبادل . وعوض « بييت » هذا بأن انطلق يرتوى من كل بيت بجرعة .. فضاجع « جورجين ثورن » ، و « بيا جويرين » ، و « كارول كونستنتين » ، و « فوكسى ويتمان » (التى كانت له معها قصة !)

ماض طيب تبخر .. ولكن تعويضه ممكن !

● وتتسم المشاهد الجنسية ، ولغة الأحاديث التى تصحبها ، بوضوح عجيب جرىء .. حتى بالنسبة لهذا العصر الجديد ، عصر الحرية المطلقة فى التعبير .. وقد اعتبر بعض النقاد رواية « ازواج وزوجات » بمثابة « پيتون پليس » اخرى .. وهى الرواية التى تعرضها « تليفزيونات » معظم دول العالم على حلقات .. ولكن « أزواج وزوجات » لا تشبهها – فى الواقع – اللهم الا فى انها حظيت باستقبال مثير ، فلم تنقض اسابيع ثلاثة على صدورها ، حتى أثارت ضجة ، وأصبحت من أكثر الكتب رواجا فى أمريكا ، ودفعت احدى شركات (هوليوود) نصف مليون دولار لشراء حق انتاجها فى فيلم سينمائى !

وبرغم الضجة التى أثيرت ، فان « جون آبدايك » لم يفعل – فى روايته « أزواج وزوجات » – أكثر من انه عاد الى المجال الذى اتخذه لنفسه منذ خمسة عشر عاما ، عندما ظهر – لأول مرة – فى مجلة « ذى نيويوركر » ككاتب قصة قصيرة .. **فهو يؤمن بأن ماضى امريكا كان يتسم بالجوهر الطيب والصلاح الشامل ، ثم قدر لهذا الماضى ان يتبخر الآن ، وذهبت معه الفضائل .. ولكن « آبدايك » لا يرى ان هذا الضياع الكامل نكبة ماحقة ، وانما يراه مرحلة من التجربة**

الأمريكية ودافعا يجب أن يؤدى الى الكمال .. وقد كان الكاتب الشاعر يتوق الى أن يعبر عن ايمانه هذا ، ولعله - وقد بلغ السادسة والثلاثين - وجد فى أزواج وزوجات (تاربوكس) ، المغرقين فى عبادة اللذة ، ذلك التعبير المتفجر الذى كان يفتقر اليه ..

رسالة الروائي : انذار لقومه قبل الانهيار !

● **ولقـــد** قوبلت روايات « آبدايك » الأربع الأولى - « السوق الخيرية فى ملجأ الفقراء » ، و « اهرب أيها الأرنب ! » ، و « سـنتاور » أو « حيـــوان القنطور » (١) ، و « المزرعة » - باجماع من النقاد على امتداحها ، والتنبؤ بأنها خطوات نحو قصة أعظم شأنا .. لولا أن « آبدايك » كان شاعرا أكثر منه روائيا ، وكان يستمد قصصه من ذكريات صباه وأسرته ، دون أن يجرؤ على موضوعات أكبر .. وكأنما شاء « آبدايك » - بروايته « أزواج وزوجات » - أن يثبت جرأته ، فتناول موضوعا من واقع الحياة الأمريكية ، ومن أهم موضوعات الساعة .. **موضوع الضلال الذى ساد الحضارة الأمريكية ، حتى أصبح المجتمع الأمريكي اليوم شبيها بالمجتمع الروماني عند انهيار الامبراطورية .. ((مع فارق واحد ، هو أن الرومان كانوا يحاولون الخـروج من جحيم الجنس واللذة ، فى حين أننا نحاول الانغماس فيه)) !..**

وفيما عدا ذلك ، فان أبطال القصـــة اتخذوا الجنس وممارسته ، عن طريق تبادل الأزواج والزوجات - كما فعل الرومان من قبل - ملهاتهم ، ومتعتهم ، وداءهم ، وعلاجهم ، وأملهم ، وخيبتهم ، وثأرهم ، ومخدرهم ، وسبيلهم الأوحد للفرار من الملل ، ووسيلتهم الوحيدة للتقارب والتعاطف ،

(١) كائن خرافي ورد ذكره فى الإساطير ، نصفه على شكل رجل ونصفه على شكل فرس !

ودرعهم الأوحد ضد الشعور بأن الموت قادم !.. وهكذا جعلوا الفسق وسيلة منشودة لينفذوا الى أعماق الجنس والمتعة، أملا فى أن ينعموا بحياة غير ذات معنى .. غير أن السعى وراء اللذة، لا يعنى - بالضرورة - الظفر بها ..

« نحن وحدنا .. لم يعد الله يحبنا » !

● **وفى ابداع** ودقة، رسم « آبدايك » صورة امريكا، على لسان « بييت هانيما » - أحد أبطال الرواية - اذ يقول : **« ان امريكا أشبه بطفل غير محبوب، ملطخ بالحلوى .. فالله لم يعد يحبنا .. انه يحب روسيا .. يحب أوغندا .. أما نحن، فأشبه بأطفال تثقلهم البدانة، وتملأهم البثور والدمامل، لا يكفون عن البكاء طلبا لمزيد من الحلوى » ! !**

ويعيش الأزواج والزوجات - فى (تاربوكس) - فى زمان ومكان يبدوان مكرسين خصيصا للمطلب الأوحد، مطلب اللذة .. فالفراغ، والسيارات الفخمة، والجليسات اللاتى يرعين الأطفال فى غياب أهلهم .. كل هذه تتيح لهم القدرة على الحركة والانطلاق وراء أية متعة .. وليس من قيود تربط اى زوجين بما يسمى « مسئوليات الكبار »، اللهم الا الأطفال .. وحتى الأطفال كانوا ينتقلون - أحيانا - من فراش الى آخر، ليفسحوا المكان للكبار كى ينغمسوا فى طقوس عبادتهم الشيطانية !

وليست العواطف، والأحاسيس الشاعرية، هى العامل الرئيسى المؤدى الى هذه الطقوس القبلية المزرية، التى قدر لها ان تلتهم بنيرانها حياة الأزواج والزوجات فى (تاربوكس) .. فقد كانوا - فى بداية القصة - مجرد جماعة من الأصدقاء يكثرون من اللقاءات والتزاور، كما يحدث فى كثير من المدن الصغيرة .. فهم يجتمعون فى حفلات للشراب لا تنتهى، ويقضون عطلاتهم فى لعب الورق والخوض فى سير الناس !

.. وبدأوا ينفذون الى مخادع بعضهم بعضا !

● **وكانت** أغلب ثرثرتهم وشائعاتهم تدور حول « بييت هانيما » .. رجل أحمر الشعر ، ممتلىء الجسم ، فى الخامسة والثلاثين من عمره ، مقاول تخصص فى بناء المنازل واصلاحها .. وبالرغم من أنه أب لابنتين ، فانه كان مغرقا فى الفسق .. على أن مغامراته الجنسية تكاد أن تكون من النتائج الفرعية لاضطرابه الروحى والنفسى ، ولعدم اكتراث زوجته بحقوقه الجنسية ، لعقد نفسية لديها ، ولاستعداد النساء المحيطات به للاستجابة لرغباته !

وما لبث الأزواج الآخرون أن حذوا حذو « هانيما » ، وبدأوا ينفذون الى مخادع بعضهم بعضـا .. فريق بدافع الملل ، وفريق بدافع الانتقام .. وآخرون لأنهم لا يجدون شيئا محرما عليهم .. وغيرهم لأنهم ـ فى الماضى ـ عانوا من الحرمان!

ويبسط « جناحيـه » فوق الجميع شخص آخر من شخصيات القصة هو « فريدى ثورن » .. الشيطان ، عابد الموت !.. انه طبيب أسنان ، لا ايمان له ولا مبدأ .. أشبه بضبع يلغ فى « الحقائق القـذرة » .. وقد جعـله المؤلف « كاهن » هذه العشيرة التى بدت كقطيع من الحيوانات يتجمع ويتلاصق فى العاصـفة !.. فكانوا يتقـاربون ولا يكادون يفترقون ، يدفعهم الى ذلك شعور نصفه الرغبـة ونصفه خوف يكتمه كل منهم بين ضلوعه ولا يبوح به !.. واندمجوا فى عالمهم وحياتهم هذه ، حتى أن أحداث العالم الخارجى لم تعد تثيرهم .. فعندما تناهى اليهم مصرع « جون كنيدى » ، كان « فريدى » يعتزم اقامة سهرة ، ففكر فى الغائها ، ثم تراجع قائلا : « ولكنى اشتريت الخمور ! » ..

وأقيمت الحفـلة ، وأسرفوا فى الشراب كعادتهم ، وفى الحديث والخوض فى سير الناس !

يقدم زوجته للشيطان .. ليخلصه من مازق !

● **وتصل** « فوكسى ويتمان » الى (تاربوكس) ، مع زوجها « كين » ، أخصـائى الكيمياء الحيوية .. وبدا أن « فوكسى » هى الوحيـدة ـ بين النسـاء ـ التى لا تخاف ما كان يسـميه فريدى « رائحة إلحب وأذاه » .. كانت السنوات السبع التى قضتها مع « كين » ـ المغرق فى عمله ـ دون انجاب ، قد أضعفت مناعتها .. ومع أنها حملت أخيرا ـ قبل وصولها ـ فقد ترددت مع « بييت هانيما » فى الهوى !

وكان السعي الى مخادع الغير لدى ((هانيما)) ـ وحده ـ اشبه بضرورة محزنة .. لم يكن مدفوعا بالشهوة ، والفضول والملل فحسب ، كالآخرين .. بل كان يدفعه ، الى جانب هذه العوامل ، شعور مفزع بأن الوقت يجرى .. العمر يجرى ! فقد راى ـ فى صباه ـ مصرع أبويه فى حادث سيارة ، فلم يعد الموت مجرد ((لحظة مقبلة عندما يحين زمنها)) ، بل اصبح الموت هو ((الزمن)) ذاته . ومن ثم كان ((بييت)) يصارع الموت بأن يحـاول جاهدا أن ((يثنى)) الزمن ويرده الى الماضى ..

وكانت زوجته « انجيلا » امراة مستعصية المنال ، بالرغم من شعورها بحاجته وحنينه اليها .. اذ كان يرى الماضى فى اشراقة وجهها ، وهو ينشد الماضى فرارا من جريان الزمن .

وتمضى « فوكسى » مع « هانيما » الى آخر الشوط ، وتحمل منه بعد أن تضع أبنا من زوجها « كين ويتمان » ، فيتحول الآثمان فى ذعر الى « فريدى » ليساعدهما على التخلص من الجنين الجديد . **ويوافق الشيطان بشرط أن يتاح له قضاء ليلة مع ((انجيلا)) ، زوجة ((هانيما)) .. المراة الوحيدة فى الجماعة التى لم تقض قط ليلة مع غير زوجها !..** ولكنها تقبل فى هذه المرة ، ويلتقى فريدى وزوجته بهانيما وزوجته

فى كوخ ، تأوى فيه « جورجن » ـ زوجة فريدى ـ الى حجرة فى الطابق الأرضى ، مغلوبة على أمرها .. بينما تصعد « انجيلا » مع فريدى الى الطابق الأعلى .. بعد أن يكونوا جميعا قد أفرطوا فى الشراب !

« صفعة » من المؤلف يعتبرها « نهاية سعيدة » !

● **وتتوالى** بقية الطقوس الشيطانية شبه آلية .. فيتم اجهاض « فوكسى » .. ويطلق كل من « ويتمان » و « هانيما » زوجته .. ويتزوج الأخير من « فوكسى » ، ويبادران بالنزوح عن البلدة .. بينما يمضى بقية الأزواج والزوجات فى لعب « البريدج » !.. **ففى هدوء ، أخذ يحتل مكانهم ـ فى البلدة ـ جيل أصغر سنا ، يقرأ التمثيليات المسرحية ، ويستبقى الجنس فى مكانه ، ويتعاطى عقار « الهلوسة » ..**

وفى نهاية القصة ، يوجه (آبدايك) لطمة قوية لهذا المجتمع ، فى رمزية واضحة .. اذ تحترق كنيسة (تاربوكس) ، فتأتى النيران على كل ما فيها ، ولا يبقى منها سليما سوى الديك العتيق المصنوع من الصفيح ، الذى يعلو « دوار الريح » .. وقد قبع عاليا فوق بيت الله المنهار !

ويقول المؤلف : **« انها نهاية سعيدة .. فكل امرىء يظفر بما يريد » !..**

وتبقى الحقيقة الكامنة وراء الواقع ، وهى أن « الظفر » ينطوى على خيبة وفشل لا يقلان عما ينطوى عليه « عدم الظفر » !!

يستلهم ذكريات صباه مادة لقصصه

● **والواقع أن « جون آبدايك » متعدد المواهب . ولعل** أبرز ما يميزه عن كتاب الجيل الجديد ، هو أن أعماله تثير قدرا كبيرا من التعليقات والنقد ، فى الأوساط الأدبية . **على**

انه لا يكاد يوجد ــ بين النقــاد ــ من لم يمتــدح اسلوب « آبدايك » البلورى ، وسيطرته على عبارته .

وقد استطاع « آبدايك » ان يفوز ــ فى فترة قصــيرة نسبيا ــ بجوائز أدبية عديدة . فنال زمالة « جاجنهايم » فى الشعر لعــام ١٩٥٩ ، وظفــر بجائزة « ريتشارد وهيــلدا روزنتال » ــ لعام ١٩٦٠ ــ عن قصته : « السوق الخيرية فى ملجأ الفقراء » ، وبجائزة « الكتاب القومى » الأمريكية ــ لسنة ١٩٦٢ ــ فى القصة ، عن روايته « حيوان القنطور » .. كما حصل على الجائزة الفرنسية لأحسن كتاب أجنبى ــ لعام ١٩٦٦ ــ عن نفس الرواية ..

وتكاد كل قصصه ــ التى سبقت « أزواج وزوجات » ــ ان تكون مستلهمة من ذكريات صباه . وقد وصفت هــذه القصص بأنها هدية منه الى الأصدقاء والأسرة فى مسقط راســه (شلنجتون) .. البــلدة الريفية الصــغيرة بولاية (بنسيلفانيا) ، التى ينتمى أكثر أهلها ــ وعددهم ٥٦٠٠ ــ الى أصل بولندى .

امه حطمت حبه .. واقتدت به فى الكتابة !

● **وتتصف** امه « ليندا جريس هوير آبدايك » بأنها على درجة طيبة من العلم .. **وهى الأخرى كاتبة قصصية ، فقد نشرت أربع قصص فى مجلة « ذى نيويوركر » ، منذ أن فتح ابنها باب الاجتهاد فى القصة !..** وقد اعتادت أن تكره بلدة (شلنجتون) وكل ما يمت اليها ، حتى أنها لتعترف الآن ، بأن هذه الكراهيــة دفعتهــا الى أن تحطم علاقة غراميــة لابنها ــ عندما كان فى المدرسة الثانوية ــ لأن فتــاته كانت من (شلنجتون) !.. على أن تعدد نواحى النشاط التى شغل بها « جون » فى المدرســة الثانوية ، ســاعده على مغالبة هذه الصــدمة .

وقد كان فقر الأسرة سببا من اسباب كراهية الأم لهذه البـلدة ، اذ كان الفقر يعزلها عن المجتمع ، فكانت تعـانى الوحشة .. وعندما كان « جون » فى الثالثة عشرة من عمره ، اضطر الفقر الأسرة الى الانتقال الى مزرعة جد « جون » ، على مسافة عشرة اميال من (شلنجتون) . وهناك ، أخذ والد « جون » ـ الذى يبلغ الآن الثامنة والستين من عمره ـ يعول الأسرة المؤلفة من خمسة افراد ، على مرتب لم يكن يتجاوز ١٧٤٠ دولارا فى العام ، كان يتقاضاه مقابل تدريس الرياضيات فى المدارس الثـانوية .. وهو دخل لم يمكن الأسرة من أن تنشىء حماما فى داخل المنزل ، فكان « جون » وأبوه يغتسلان فى المدرسـة !.. ولم تدخل أنابيب الماء الى المنزل الريفى ـ الذى يضم غرفتين للنوم ـ الا بعد اثنى عشر عاما ! .. أى بعد تخرج « جون » فى الجامعة .

ويقول « ويسلى آبدايك » ، والد جون : « اننى لا اكاد أصدق الواقع ، كلما اغتسلت اليوم فى حمام البيت » !

رسام فى الخامسة .. وكاتب فى الثامنة !

● **واذا** كانت الأم تقتـدى اليـوم بابنها فى التاليف القصصى ، فان « جون آبدايك » بدأ حياته ككاتب بلكزة من أمه ، عندما جلس ذات يوم ـ وهو فى الثامنة من عمره ـ أمام آلتها الكاتبة ، ودق بأصابعه اول قصة له .. وقد جاء فيها : « كانت قبيلة (بوم بوم) تبدو رزينة جدا ، وهى تجلس حول النار فى كهفها ... » !

وبرغم هذه البداية المبكرة ، فان حياته الأدبية كانت قد تباطأت ثلاث سنوات ، وراء شغفه بالكاريكاتور والرسم .. وقد نشرت له احدى المدارس بعض رسـومه ـ فى مجـلة للاطفال ـ وهو فى الخامسة من عمره !

وكان من جراء الفقر الذى أناخ على « آل آبدايك » ، والعزلة التى فرضها عليهم ، أن نشأ « جون » وهو يشعر بأنه كان دائما مقصيا عن الطبقة الوسطى .. وفى احدى القصص الاثنتى عشرة التى استوحاها من صباه ، يتبلور جو البيت الذى نشأ فيه ، وتظهر معالم صورة واقعية للأسرة : أسنانهم المهملة ، وغذاؤهم المتواضع ، وأرضية الحجرات المستهلكة ، والقاعات المظلمة التى تسكنها الأرواح والأشباح !

تحدى الفقر فبرز على زملائه والتحق بالجامعة

● **على أن** « جون » كان مصمما على أن يقهر الفقر ، ويحطم العزلة .. فانصرف فى سنوات المراهقة ، الى المساهمة فى كافة نواحى النشاط المدرسى ــ بمدرسة (شلنجتون) الثانوية ــ بكل طاقاته .. أخذ يكتب كالشيطان ، ويرسم كالدرويش ، ويتقرب الى رفاقه فى الدراسة بطريقة ما زال يتبعها الى اليوم .. **فانتخب رئيسا للفصل ، ورئيسا لتحرير مجلة المدرسة ((ذى شاتربوكس)) ، التى أسهم فيها بعدد لا يحصى من الرسوم والمقالات والشعر الخفيف ..**

واتاح له تفوقه ــ بدرجات جيدة ــ الالتحاق بجامعة (هارفارد) ، اذ فاز بمنحة دراسية كاملة ، فى خريف ١٩٥٠ .

ووصل الى (هارفارد) وهو يحتضن ثلاث كراسات سميكة ، مليئة بقصائد شعرية ومقالات أجمعت على رفضها المجلات الأدبية .. على أنه مضى موفقا فى دراسته ــ طيلة السنوات الأربع التى قضاها فى الجامعة ــ فلم يعكر صفوه سوى فشله ثلاث مرات فى الظفر بعضوية ندوة « أرشيبالد ماكليش » الشعرية . غير أنه سكب طاقاته فى مجلة « ذى لامبون » الفكاهية ، التى كان الطلبة يصدرونها ، فساهم فيها بقلمه وريشته معا .

يتزوج أثناء الدراسة من فتاة تكبره

● وقدر لجون – في نهـاية عامه الثاني بالجامعة – أن يلتقي بطالبة كانت تدرس الفنون الجميلة بكلية (رادكليف) ، وتدعى « ماري بنيتجتون » .. وكانت ابنـة قسيس من (شيكاغو) . ومع أنها كانت تكبره بعامين ، فانهما لم يلبثا ان تزوجا .. ثم تخرج « جون » في قسم اللغة الانجليزية بالجامعة .

ولقد أحس « آبدايك » بأن (هارفارد) سلبته – بصورة ما – بعض حيويته العجيبة التي لا سبيل الى تعويضها . وهو يقول بهذا الصدد : « **انني اشعر بخجل غامض ازاء سنواتي في هارفارد .. كانت هـذه السنوات خيـانة لسنوات دراستي الثانوية . اذ ان هارفارد جعلتني انسانا متحضرا حقـا ، في مقابل قدر كبير من العمل .. وهذا يؤلمني بصورة ما !** »

وما ان تخرج ، حتى قضي وزوجتـه سنة في كليـة (رسكين) للرسم والفنون الجميلة ، بجامعة (اكسفورد) – في انجلترا – لمجرد المتعة !.. ثم التحق بالعمل في مجلة « ذي نيويوركر » . وتقول زوجته : « **كان يظن أن عليه ان يكون كاتبا فكاهيا فقط .. فلم يكن يعتقد أنه كاتب جاد** » !

بيد أنه راح يترجم كل ما كانت تقع عليه عيناه ، فيحوله الى كلمات فياضة . كما حول موهبته كرسام الى ميـدان الكتابة ، فراح يرسم بقلمه وأسلوبه صورا دقيقة لما يراه أو يتخيله !

حنينه الى بلدته يلهمه انتاجا غزيرا

● وجاء انتاجه غزيرا فياضا ، فقد كتب حتى الآن ١٨٥ قصة قصيرة ، و ٢٣ مقالا ، و ٢٤ تحقيقا ، و ٢٣ قصيدة ،

نشر اكثرها فى مجلة « ذي نيويوركر » .. وتكشف تحقيقاته الصحفية الناقدة الرشيقة عن تمكن وفهم عميق وذكاء لماح..

وبعد أن انتقل «آبدايك» وزوجته مارى الى (ابسويتش) ـ فى عام ١٩٥٧ ـ وجد نفسه منساقا وراء خياله الذي اخذ يتجه الى مسقط راسه باكثر مما اعتاد فى اى وقت مضى .. **فكم من قصصه القصيـــرة تدفقت من مستودع حنينه الى (شلنجتون) !.. وقد جمـع احدى عشرة منها فى كتـاب أسماه ((قصص أولينجر)) .. و (أولينجر) هو الرمز الذى اتخذه لشلنجتون . ورغم أن قصص ((آبدايك)) تتميز عن بعضها البعض ، فان لكل منها جذورا من الماضي .. فى كل منها لمحات من ماضيه وذكريات صباه وحياته الأولى ..**

ولقــد بدات (ابسويتش) ـ خلال السنوات القــلائل الماضية ـ تحتل مكانة (شلنجتون) فى خيال « جون آبدايك » ، فخلت قصصه القصيرة من موضوعات صباه ، وبدات ـ فى سنوات نضجه ـ تنطوى على دراسة وعمق .

الايمان بالله ينقذه من الهواجس والأزمات

● **ولكن** « آبدايك » يعــانى من هواجســه الخاصة.. وبرغم انه نشأ فى بيئة متدينة فانه يقول : « لا اريد أن أبدو فى صورة مفــكر دينى ، فاننى مجــرد نموذج شاحب ، يشق طريقه من كتاب الى كتاب ، ويحاول أن يستيقظ فى الصباح دون أن يشعر بالم فى اسنانه ! » .. وبينما كان يكتب روايته : « اهرب ايها الأرنب ! » غشيه شعور بأن الموت يرتقبه .. وعاش بضعة اشهر فى ازمة لم ينقذه منها سوى عودته للايمان بوجود الله !

وقد مرت أوقات عصيبة بجون ومارى آبدايك .. ولكن « مارى » كانت قديرة على علاج الأمور ، اذ انها امرأة قوية

متحفظة . ويرى كثيرون من أصدقائهما أن « جون » لم يكن ليستطيع البقاء بدونها ..

ولكن .. هل توحي قصص « جون آبدايك » العديدة — عن التوتر في الحياة الزوجية — بتجارب مر بها شخصيا ؟

انه يقول ردا على هذا : « لقد مر زواجي بفترات من البعث والموت ، مثل كثير من الزيجات الأخرى » !.. وفي هذا الرد الكافي !

ومارى هي اقسى نقـــاد زوجها .. ويقـــول آبدايك : « لا املك ان اذكر قصة واحدة من قصصي احبتها مارى حقا .. وعندما قرأت روايتي « السوق الخيرية في ملجأ الفقراء » ، قالت لي : لماذا تريد أن تكتب عن كل هؤلاء العجائز ؟.. »

ويكرس جون ثلاث ساعات من وقتـــه — كل يوم — للكتابة . وهو يشغل غرفة يسودها الاضطراب ، فوق أحد المطاعم ، على مقربة من متنزه بلدة « إبسويتش » .. أما في بيتـــه ، فانه يرتدي بنطلونا فضفاضا ، و « بلوفر » طويل العنق ، ويعيش مع زوجته وأطفاله الأربعة « اليزابيث » ، و « مايكل » ، و « ديفيد » و « ميراندا » .. وفي الصباح من أيام الشتاء ، قد يخرج من بيته الأبيض اللون — ذي الثلاث عشرة غرفة — ليغترف بيده حفنة من الجليد ، فيقذف بها لافتة للمرور — عند منحنى الطريق — كتب عليها « قف ! » .. مجرد لوحة من لوحات المرور !.. أما في الصيف ، فانه يخرج أحيانا في الصباح الى الحديقة الصغيرة ، حيث يزرع بعض الخضر بيـــديه .. وقد يخرج بســـيارته لينطلق الى شاطىء « كرين » ، فيسير هنـــاك وحده ، أو يدفع كرات الجولف على طول الشاطىء ، اذا كان المد منخفضا !..



للكاتب والمحقق الأمريكي: الكسندر دوروزنسكي

LANDAU : L'HOMME QU'ON N'A PAS LAISSÉ MOURIR

PAR : ALEXANDER DOROZINSKI

صراع بين العلم والموت !

لم يتخذ الصراع بين العــلم الحــديث والظواهر الطبيعية من التحدى المحتدم ، الدرجة التى اتخذها فى قصة « ليو لانداو » .. ففى هذه القصة ، استطاع العلم ان ينتزع « لانداو » من بين براثن الموت ــ التى نشبت فى كيانه فعلا ــ اربع مرات فى شهر واحد .. ولكن الموت عاد للمرة الخامسة ، بعد ست سنوات .. وفى هذه المرة ، كانت له الغلبة !

أنها ليست قصة خيالية ، بل هى قصة عالم ذائع الصيت ، كان يعيش فى (موسكو) ، حتى دهمته سيارة فى ٧ يناير سنة ١٩٦٢ ، وكان فى الستين من عمره . فبدأت ــ منذ تلك اللحظة ــ حرب شنها اصدقاؤه ، فى سبيل استعادته من ظلمات الموت الى أضواء الحياة .. وسجل الطب الحديث ــ خلال هذه الحرب العجيبة ــ انتصــارات كالمعجزات .. ولكن اصدقاءه سـجلوا معجزة اروع .. تلك هى ان الوفاء لا يزال عنصرا قويا فعالا فى الحيــاة البشرية ، فى .. العصر الذى لا يعترف الا بالمادة !

ولقد حاول الصحفى الامريكى « الكســندر دوروزنسكى » ان يصور احداث القصة ساعة بساعة ، مستعينا بمن ساهم فيها من اطباء وعلماء وأصدقاء ، وبلانداو نفسه ، بعد أن استرد صحته .. وسجل الصحفى ما حصل عليه فى كتاب اطلق عليــه : « لانداو .. الرجل الذى لم يتركوه يموت » !.. رابطا بين سيرة « لانداو » منذ الصغر ، والتطورات السياسية والعلمية فى الاتحــاد السوفييتى ، وكل ما له علاقة بالحادث الذى أصاب « لانداو » ، وبالصراع الذى دار من أجل انقاذه ، وهو العالم الفذ ، الفائز بجائزة نوبل للفيزياء .

حادث فى الطريق

● استيقظت (موسكو) فى الســـابع من يناير ١٩٦٢ ، لتجد أن امطار الليلة السالفة قد استحالت الى طبقة هشــة من الثلج ، تعلوها غلالة خفيفة من البرد ، مما جعل حــركة

المرور غاية فى البطء ، اذ راحت السيارات تسير بحذر ، ريثما تنشط فرق كسح الثلوج الى تنظيف الطرق .

لذلك رفض عامل « جراج » أكاديميــة العــلوم ، أن يستجيب للبروفيسور « لانداو » ، عندما طلب سيارة تقله فورا الى (دوبنا) ، مدينة الذرة السوفيتية ، الواقعة فى شمال العــاصمة .. رفض العــامل برغم معرفتــه مكانة « ليــو دافيدوفيتش لانداو » . ولم يغضب العــالم الكبير ــ اذ كان يقدر حرص كل امرىء على مسئوليته ــ بل اتصل بزميلــه « فلاديمير سوداكوف » ، عالم الطبيعيات ، فسرعان ما وافاه بسيارته « الفولجا » الرمادية .

وانطلقت الســيارة بلانداو نحو (دوبنــا) ، يقودها « سوداكوف » بنفســه ــ فى حرص وحــذر ــ وقد جلست زوجته « ڤيرا » مع « لانداو » فى المقعد الخلفى ، وبينهما سلة مليئة بالبيض ..

وفجأة ، مرقت أمام السيارة فتاة تعبر الطريق ، لتلحق بحافلة (أوتوبيس) فى الجانب الآخر ، فحاول « سوداكوف » أن يتفاداها ، ولكن عجلة القيادة افلتت منه ، فجنحت السيارة الى يسار الطريق ، بينما كانت سيارة نقل مقبلة من الاتجاه العكسى . ولم يكن « اللورى » مسرعا ، ولكن الطريق كان زلقا من جراء الثلوج !

واستجاب « اللورى » أخيرا لمهارة سائقه وترقف ، ولكن .. بعد أن ارتطم ــ ارتطاما خفيفا ــ بالجانب الأيمن لسيارة « سوداكوف » ، حيث كان « لانداو » يجلس ..

ومع أن الصدمة كانت خفيفة ، فانها أخذت « لانداو » على

غرة ، فاذا بها تقذف بجسمه النحيل ارضا ، فانحشر بين باب السيارة وساقى « ڤيرا » .. فى حين أن المرأة وزوجها وسلة البيض لم يتزحزحوا من أماكنهم !

احدى عشرة اصابة فى جسد نحيل !

● **وقفز** « سوداكوف » وسائق « اللورى » لنجدة المصاب . وما أن فتحا باب السيارة ، حتى سقط « لانداو » على أرض الطريق بلا حراك ، وخيوط من الدم تسيل من اذنيه وجبينه .. وان هى الا دقائق ، حتى كانت سيارة للاسعاف قد حملته وصديقيه ـ سوداكوف وزوجته ـ الى اقرب مستشفى ..

واسرع طبيب الاستقبال يفحص الجثة التى صار اليها « لانداو » .. وما لبث أن هتف فى دهشة : « لا يزال قلبه ينبض ! » .. وما ان علم بشخصية المصاب ، حتى استدعى الدكتورة « نينا يجوروڤا » ، نائبة مدير المستشفى ، الذى كان متغيبا فى عطلته الأسبوعية ..

وانكبت « نينا » تفحص المصاب ، واذا التفاؤل ـ الذى أوحى به اليها زميلها ـ يتلاشى ، اذ كانت سنه وجسمه لا يقويان على مقاومة واحدة من اصاباته ، فما بالك وهى احدى عشرة :

● كسر تسعة ضلوع .
● ثقب بالقفص الصدرى .
● تسرب هوائى وانكماش كامل فى حجم الرئة اليسرى .
● نزيف وانكماش جزئى فى حجم الرئة اليمنى .
● تمزق فى أنسجة العانة وكسر فى عظامها .
● ثقوب فى الأحشاء المعوية أحدثتها عظام المنطقة العانية .
● كسر بعظمة الفخذ اليسرى .

- غيبوبة تامة وتنفس سطحى وبطىء وغير منتظم ، نتيجة ما أصاب الرئتين .
- نبض واهن وغير منتظم .
- كسر بالجمجمة .
- خلل بالمراكز العصبية للمخ .

ورات الطبيبة ــ وهى آسفة ــ ان العالم الكبير لن يعيش .. « ما لم تحدث معجزة » !

استاذ .. وعمره ٢١ سنة !

● **ولكن** حياة « لانداو » كانت مليئة بالمعجزات .. ولد فى مدينة (باكو) ــ عاصمة اذربيجان ــ فى ٢٢ يناير ١٩٠٨ . وقد أبدى ذكاء عبقريا منذ حداثته ،حتى انه اتم منهج الرياضة الخاص بالمرحلة الثانوية من الدراسة ، وهو فى السابعة من عمره ! .. واتم الدراسة الثانوية بأكملها فى الثالثة عشرة ! .. ونال « ليسانس العلوم » ــ من جامعة باكو ــ فى السادسة عشرة !.. و « دبلوم الرياضيات » من جامعة لنينجراد ، فى التاسعة عشرة ! .. وعين استاذا للطبيعيات النووية بهذه الجامعة ، وهو فى العام الواحد والعشرين من عمره !

ازاء هذه المعجزات ، أوفدته بلاده فى بعثات علمية الى المانيا وانجلترا والنمسا .. وكانت أبحاثه فى الميكانيكا النووية وتفتيت الاشعاعات الذرية وغيرها قد سبقته ، وأعدت له مكانا رفيعا بين أقطاب علماء أوربا ، فاشترك معهم فى البحوث والمناقشات والدراسات .. **ثم عاد الى الاتحاد السوفييتى سنة ١٩٣١ ــ اى وهو فى الثالثة والعشرين من عمره ــ ليتولى ادارة ((معهد علوم الطبيعة)) .. المركز الذى اعتمد عليه السوفييت فى خلق القوة الذرية لبلادهم ، وتطويرها ..**

ولم تكن عبقرية « لانداو » العلمية ، لتفوق طبيعته

البشرية .. كان انسانا رقيقا، مرهف الحس، شديد التواضع .. اذا صادق أخلص ، واذا أحب كان مثال الوفاء .. وكانت المداعبة والنكتة اللاذعة هما صمام الأمان اذا احتدم النقاش بينه وبين زميل أو تلميذ .. كما انه لم يسمح لأى عوامل دينية أو سياسية أو اجتماعية بأن تقوم حائلا دون الارتباط بعلاقات انسانية صادقة .. ومن هنا كان تحمس أصدقائه لانتزاعه من الموت ، عندما أصيب فى الحادث !

فتاة واحد صهرت خجله .. فتزوجها !

● **وكان** « لانداو » ــ كأستاذ ــ شديد الدقة فى اختيار تلاميذه ، فلم يكن يقبل فى معهده سوى الممتازين ، وبعد اختبارات قاسية ..

وكان ــ فى حجرات الدرس ــ يهجر المنصة ، ليجلس بين التلاميذ ، يشعرهم بالزمالة ، وان لم يترفق بمن يخطىء منهم ! .. وكان يحرص على مصادقتهم ، والاستماع الى شؤونهم الخاصة ، وارشادهم .. وكثيرا ما كان يقول لهم :

« لا تحدثوا فتياتكم عن علوم الطبيعة ، فحديث كهذا يحطم أعصاب أية فتاة . ولو انها فهمته لكان هذا أسوأ ، لأنه سيحطم الصورة الرومانسية التى فى خيالها ، ويضيع كل الفرص للوصول معها الى نهاية عاطفية .. »

ومن أغرب الأمور ، انه لم يقبل فى معهده أية فتاة ، برغم ايمانه بعبقرية بعض الاناث .. كذلك كانت حياته خلوا من المغامرات العاطفية ، اذ كان يخجل من دعوة أية فتاة الى نزهة أو مسرح .. وكانت الفتاة الوحيدة التى حرص على علاقته بها ، فتاة أوكرانية شقراء صارمة الملامح ، زاملته أثناء دراسته الجامعية ، وانتهت صداقتهما بالزواج سنة ١٩٤٢ .. تلك هى « كونكورديا ترنيتيفا » . التى اعتاد أن يدللها باسم « كورا » .. وقد أنجبا ابنا وحيدا سمياه « ايجور » .

اكتشاف علمى اكسبه مكانة عالمية

● **وابحاث** « لانداو » من أهم الابحاث فى العلوم الحديثة . وتعتبر بحوثه التى أجراها على غاز « الهليوم » ـ بالذات ـ فتوحات .. وقد وفق خلالها الى استخلاص ما أطلق عليه « المادة الرابعة » . فمن المعلوم أن المواد ثلاث : صلبة ، وسائلة ، وغازية .. **ولكنه استخلص من غاز « الهليوم » مادة ليست لها خواص هذه الحالات الثلاث !**

ذلك ان غاز الهليوم ينتشر فى الغلاف الجوى للكرة الأرضية بنسبة واحد الى مائتى ألف تقريبا .. وهو خفيف ، وراكد . كما أنه الغاز الوحيد الذى يتحول الى سائل عند تبريده . وقد كشف « لانداو » أنه يتحول الى سائل فائق السيولة ـ أى حالة ما فوق السيولة ـ عند برودة تقرب من الصفر المطلق .. أى أقصى درجة برودة يمكن قياسها ، وتعادل ١٦ر٢٧٣ مئوية تحت الصفر .

وكان العلماء ـ فى الماضى ـ يظنون ان اى نشاط نووى ، لابد أن يتوقف عند درجة الصفر المطلق او قريبا منها .. ولكن تجارب « لانداو » على غاز الهليوم ، اثبتت أن هذا الغاز لا يتجمد عند الصفر المطلق ، بل يتحول الى سائل خال من الجزيئات ، وبالتالى الى مادة ذات خاصية رابعة ، اصبحت معروفة علميا باسم « هليوم ٢ » .. وهو يمتاز بسيولة غير طبيعية ، ويخترق اى جسم دون أن يترك أثرا ، وله مقدرة على الحركة المزدوجة ، اذ انه يحتوى على موجتين من الذبذبات ، تصدر عنهما موجة صوتية اذا ما اتحدتا فى الاتجاه ، ثم تتولد موجة ثانية ـ سرعتها ٢٥ مترا فى الثانية ـ عند تحول الغاز الى حالة فوق السيولة عند درجة الصفر المطلق ..

المهم فى الأمر ، ان « هليوم ٢ » أصبح من الأساسيات فى

الأبحاث العلمية ، فهو يستخدم كوسيط مبرد فى « المنظمات المولدة للبرودة » ، بحيث ينظم عمليات توليد البرودة بسرعة تفوق سرعة العقول الاليكترونية .. كما ان الموصل الكهربائى المغناطيسى الذى يزن ٥٠٠ جراما ٪ يتيح ـ اذا دخل الهليوم فى تكوينه ـ حقولا مغناطيسية أقوى بكثير من التى يتيحها موصل عادى يزن ٢٠ طنا ..

٣٠ طبيبا اخصائيا حول سريره !

● **نعود** الى حادث السيارة ، واعتبار « لانداو » فى حالة احتضار ، أو على أبواب موت لا شك فيه ..

كان « سوداكوف » فى حالة نفسية وعاطفية سيئة ـ عقب الحادث ـ حتى خشى عليه زملاؤه أن ينتحر اذا توفى « لانداو » .. وقد هرع الى « معهد علوم الطبيعة » يحمل الخبر ، فلم يكد زملاء « لانداو » وتلاميذه يعلمون ، حتى أجمعوا على الا يدخروا جهدا فى سبيل انقاذه من الموت .. وسرعان ما امتلأت غرفة المصاب ـ فى المستشفى ـ بأكثر من ثلاثين طبيبا اخصائيا ، وقفوا حوله فى حيرة ازاء الاصابات البليغة والعديدة التى كانت تنذرهم بخطورة أية محاولة .. فمجرد محاولة اجراء الاسعافات الأولية لكسور العظام ـ مثلا ـ كانت كفيلة بأن تؤدى الى صدمة عصبية تودى بالمصاب نهائيا .

وبعد اجتماع طويل ـ برئاسة جراشنشكوف ، امهر طبيب اعصاب سوفييتى ـ قرروا انيتحدوا الموت .. واتفقوا على أن يبدأوا بعلاج كسور الجمجمة ، لتفادى تعرض المخ للتلف .. ذلك لان تنفس الانسان لا يتم الا باشارات من المخ ، بعكس نبض القلب الذى يتم تلقائيا . لان القلب كالمضخة .

وبينما كان الأطباء منصرفين للاستعداد للصراع معالموت ، قسم زملاء « لانداو » وتلاميذه أنفسهم الى جماعات تتناوب

العمل ليل نهار ، لتادية كل ما يتطلبــــه الموقف .. وأعدوا سيارات على اهبة الانطلاق فى اية لحظة !

الموت الأول .. ينهزم بعد دقيقتين !

● كان سكون الليل ساجيا عميقا ، عنـدما قام ثلاثة من امهر جراحى المخ والأعصاب ، بعملية جراحية استكشافيــة لرأس « لانداو » .. حتى اذا اطمأنوا الى عدم وجود تجلـط دموى ولا نزيف فى المخ ، اخذ الأمل يقوى فى نفوسهم ويطـرد التوجس ..

لو أنه اجتاز مرحلة ما بعد الجراحة بسلام ، فان فرص الأمل تزداد أضعافا .

وأعيد « لانداو » الى حجرته .. وفجأة ـ وفى حـوالى الساعة الثالثة صباحا ـ شقت السكون الشامل صيحة يأس انبعثت من واحد من الساهرين على المصـــاب : « لم يعـد يتنفس ! .. القصبة الهوائية .. مات ! »

وفى لحظات بدأت أعراض الاختناق تتجلى ، وأخذ الدم الأسود ـ الخـــالى من الأوكسيجين ـ يتجمع ليصبغ وجه « لانداو » بزرقة داكنة .. وبدا أن النبض توقف ..

وبادر الجراح العـــالمي « فيودورف » الى فتح حنجرة « لانداو » ـ بحركة خاطفة ، ودون مخدر ـ واخرج القصبة الهوائية ، فاولج فيها انبوبة من « البلاستيك » ، أوصلهـــا بمضخة للتنفس الصناعي اخذ يضغط عليها دون توقف ..

واذا بصدر « لانداو » يرتفع ، وتصدر عنه شهقة عالية ، ثم يعود لون وجه المريض الى حالته الطبيعية رويدا ، اذ راح قلبه يمتص الدم المتجدد بنهم ..

ولم تستغرق العملية سوى دقيقتين ، انتصر خلالهمـــا العلم على الموت .. بعد الجولة الأولى !

عواصم العالم ترسل له الأدوية

● فى **اليوم التالى** حضر أكثر من مائة طبيب أخصائى وعالم – بينهم من لم يكونوا على تعارف شخصى مع « لانداو » – وكلهم رغبة فى التعاون لانقاذ حياة الرجل الذى كان – فى تلك الأثناء – يتنفس صناعيا ، ويتغذى عن طريق الحقن ، ويتلقى عقاقير للوقاية من الالتهابات والمضاعفات .. فكان بجسمه ست أنابيب : واحدة للتنفس ، وأخرى لامداده بالدم السليم ، وثالثة لاخراج الدم الفاسد ، وانبوبة بالمعدة ، واثنتان لامتصاص افرازات الجسم الخارجية ..

وفى ٩ يناير – بعد الحادث بيومين – واجه الاخصائيون أصعب مشكلة .. كان ازدياد نزيف السائل النخاعى يسبب ضغطاً يهدد باتلاف الأوعية المخية .. وبعد مشاورات ، رأى الأطباء ضرورة حقن الجسم بعقار يجفف السائل دون أن يجمده ، ويعرف باسم « الأوريه » .. ولكنهم اكتشفوا عدم وجود شىء منه فى موسكو !

واتصل مدير معهد الأبحاث العلمية بزميل له فى لندن ، فلم يجده .. واتصل بزميل آخر ، بادر بارسال شحنة منه – فى اليوم ذاته – مكتوب عليها « لانداو – موسكو » .. ولم تكن هناك طائرة متجهة الى موسكو مباشرة ، فحملت الطائرة المتجهة الى (وارسو) الطرد الثمين ، لتتلقاه منها طائرة خاصة أوفدتها الحكومة السوفيتية ، فوافت به الأطباء الملهوفين ..

وفى تلك الأثناء ، كان الأطباء قد استخدموا كمية أخرى من العقار – عثروا عليها فى معهد الأبحاث بلنينجراد – وتوقف النزيف ..

وظهرت مشكلة جديدة : لاحظ الأطباء أن عقاقير المضادات الحيوية ، لم تأت بنتيجة فعالة ، لأن « لانداو » كان يكثر من استعمالها قبل الحادث .. ومرة أخرى ، وجه أصدقاء

« لانداو » نداءات الى مختلف الدول ، فسرعان ما اخذت أنواع أخرى من المضادات الحيوية تتدفق على مطار (موسكو) باسم « لانداو » ..

الموت الثانى .. يتراجع امام الطب !

● وامكن التغلب على التسمم الذى كاد يفتك بحياة « لانداو » ، ولكن الرجل ظل فى غيبوبة وضعف واعياء ..

وفى المساء — مساء ٩ يناير ذاته — استرعى انتباه الطبيب الذى كان منوطا بملاحظة « لانداو » ، أن نبضه الخافت ، غير المنتظم ، قد ازداد سرعة ثم .. توقف تماما ، كما توقف التنفس !

وسلم الأطباء لأول وهلة بان ((لانداو)) قد مات للمرة الثانية !

ولكنهم كانوا مصرين على مصارعة الموت ، فأسرعوا بتوصيل جهاز تنفس صناعى — كانوا قد استحضروه خصيصا من السويد — بالفتحة التى شقوها ، فى اليوم السابق ، فى حنجرة « لانداو » .. وكان الجهاز السويدى يمتاز بأنه يمتص السوائل التى قد تسد القصبة الهوائية ، بجانب اداء مهمته الرئيسية ..

وبعد دقائق حافلة بالتوتر .. عاد ((لانداو)) الى الحياة !

غير أن عملية تحويل « الأوكسيجين » فى الدم ، لم تعد تتم بطريقة طبيعية ، ثم توقفت تماما .. وكان تنظيمها — بامداد الرئة مباشرة بكميات من الأوكسيجين — من أشق الأمور ، نظرا لتمزق عدد من الأوعية الدموية داخل القفص الصدرى . **وزاد المشكلة تعقدا ، ان حرارة ((لانداو)) ارتفعت الى ٩ر٤١ مئوية ، نتيجة التهابات جراحه المعوية . وفطن الأطباء الى توقف المعدة والأمعاء تماما عن العمل ، فصار لزاما**

تغـذية « لانداو » بحقن البروتينـــات والسكريات فى الدم مباشرة !

لكن بطن المصاب أخذ ينتفخ تدريجيا ، وأصيب الجسم بتسمم .. فقد كان بحاجة الى مواد معدنية وأملاح . وأخذ الأطباء يحللون الدم كل ساعتين ، ويغيرونه بدم جديد باستمرار .. دم تطوع به عشرات من زملاء المريض وتلاميذه !

الموت الثالث .. ينهزم وينسحب !

● **وفى اليوم الرابع** ــ ١١ يناير ــ توقفت الكليتـــان عن العمل ، وأحدق الموت بالمصـاب من كل جانب .. والأطبـاء لا يكفون عن الاجتمـاع ، والتشاور ، والاتفـاق على ما يمكن عمله ..

وبعد ظهر ذلك اليوم ، خرج الدكتور « جراشنشكوف » من حجرة « لانداو » منهارا ، فأسند جبينه الى أول جـدار صـادفه . وخفت اليـه « نينا يجوروفا » ــ نائبـة مدير المستشفى ــ تسـأله ، فقال : « توقف النبض .. وانخفض الضغط الى الصفر .. وازرق الوجه ، وجمدت العينان .. انتهى ! »

وهكذا ، مات « لانداو » ــ فى اليوم الرابع للحادث ــ موتا لا خلاف فيه ، من حيث الأعراض الطبية !

ولكن العلم ــ منذ بداية الأربعينات من هذا القرن ــ لم يعد يأخذ أعراض الموت قضية مسلما بها ، لا سيما فى الاتحاد السوفيتى ، حيث أجريت بحوث عظيمة لاعادة الحياة عن طريق « تدليك القلب » .. وهى عملية يجب أن تتم خلال سبع دقائق على الأكثر ، من توقف القلب .. فهذه أقصى مدة تقاوم فيها خلايا المخ التلف المترتب على حرمانها من الدم الذى يمدها به القلب ..

لهذا أسرع الأطباء يشقون صدر « لانداو » ، وينهمكون فى تدليك قلبه ، بينما كانت عمليتا امداده بالدم السليم واخراج الدم الفاسد تسيران متواصلتين .. وقام طبيب بحقن الجسم بأقوى مادة منشطة لعضلات القلب ..

واخيرا .. اخيرا جدا ، بدأ القلب ينبض من جديد ..

وعاد « لانداو » الى الحياة .. مرة ثالثة !

عاد ، وفقا للأعراض العلمية فقط .. ولكنه ظل على فراشه حطاما منهارا ، فاقد الوعى ..

الموت الرابع .. لقى هزيمة المرات السابقة !

● **من (براغ)** ، أقبل الدكتور « زدينيك كونتز » التشيكى خصيصا .. ولكنه ـ بعد أن استعرض ما جرى ، وفحص المصاب ، واطلع على كافة التقارير ـ هز كتفيه ، وقال :

ـ من المستحيل ان يعيش !.. بل اننى لا أفهم كيف عاش الى الآن !

وعاد الى (براغ) .. ولكن اطباء « لانداو » واصدقاءه ابوا أن يستسلموا لليأس .. حتى عندما انسدت فتحة المرىء تماما ، فى ١٤ ينـاير .. كما انسدت بعض مسالك اخرى وقنوات فى الجسم ، قبل ذلك !

ولكن اليأس راح يهاجمهم بقوة ، عندما ظل جسم « لانداو » ينتفخ ويمتلىء بالمياه المحتجزة فى داخله .. وسرعان ما التهبت الرئة ، وانسد فرعا القصبة الهوائية ، كما انسد المرىء من قبل ..

وفى هذه المرة ، مات « لانداو » موتا كاملا وفقا لكل الأعراض التى يعينها الطب للموت .. مات للمرة الرابعة !

ومع ذلك ، عاد الموت يتراجع من جديد ، أمام اصرار الاطباء وجهودهم التى لم يتطرق اليها وهن ..

وواصل الأطباء محاولاتهم ـ بعد أن غلبوا الموت ـ لعلاج الجسم المسجى فى غيبوبة مستمرة ..

جسم يعيش بالاجهزة والوسائل الصناعية

● **واقبل** يوم ٢٢ يناير .. عيد ميلاد « لانداو » الرابع والخمسون .. ولكن ، لم يكن هناك من يحتفل به ، أو يقيم له ضجيجا ..

كانت « كورا » ـ زوجة « لانداو » ـ فى مصح للأمراض العقلية ، بعد أن أصابتها نوبة هيستيرية ، حين رأت زوجها يعانى سكرات الموت الأول .. اذ كانت قد خفت الى المستشفى ، عقب وصول نبأ الحادث اليها ..

وكان ((لانداو)) نفسه لا يزال على قيد الحياة ولكنه فاقد الوعي تماما ، يعيش على جسم يتغذى صناعيا ، ويكاد كل عضو فيه يؤدى وظيفته باجهزة ووسائل صناعية !

ومع ذلك ، لم يشأ اليوم أن يمر بدون ضجيج .. فاذا مخ ((لانداو)) يعود للانتفاخ ، واذا اعراض ((البولينا)) تنذر بتسمم كلى للجسم ..

وراح الأطباء والاخصائيون يضاعفون الجهود ، ويعتصرون عقولهم وخلاصات العلم والتجارب ..

وعندما نجحوا أخيرا ـ وبعد عناء شديد ـ كانوا يلهثون فعلا !

ولكن ، ما أن تراجعت أعراض « البولينا » ، حتى أصيب « لانداو » ـ أو جسمه ، بمعنى أصح ـ بحمى الصفراء .. ومن جديد ، انبرى لها الأطباء ، حتى أخمدوها !

هكذا كان الموت يبحث عن كل موطن ضعف لينفذ منه .. ولكن الأطباء كانوا له بالمرصاد ..

غذاء من كافة ارجاء العالم

● وكان من الصعب علاج كل ما أصاب « لانداو » من كسور ، لذلك التحمت ساقه بطريقة غير سليمة ، فأصبحت أقصر من الأخرى بخمسة سنتيمترات .. ولكن الأطباء عالجوها فيما بعد !

وشيئا فشيئا ، بدأت أمعاء « لانداو » ومعدته تعود الى الحالة الطبيعية ، ولم يعد الأطباء يغذونه عن طريق الشرايين ، بل استخدموا أنابيب تصل للمعدة مباشرة .. **وكان اخصائيو التغذية يعدون المواد اللازمة للجسم بدقة ، ويطحنونها ، ويحولونها الى سائل سهل الهضم .. ومن اجل « لانداو » استقدمت أفضل أنواع الخضر والفواكه من كافة ارجاء العالم ..**

على أن شبح الخطر لم يبتعد الا فى منتصف شهر فبراير تقريبا ، حين تم التحام معظم الكسور ، والتئام الجروح ، وعودة أعضاء الجسم الى وظائفها الطبيعية ، فيما عدا المخ .. فقد ظل « لانداو » فاقد الوعي ، يحملق فى الفضاء بعينين جامدتين ، زجاجيتين ، لا حياة فيهما ..

مصير عقل « لانداو » يثير خلافا !

● وكانت هذه أول حالة من نوعها بالنسبة لأخصائيي المخ والأعصاب .. واحتاروا فى تبريرها : أهناك جلطة فى جزء ما من المخ ؟ .. وهل — اذا وجدت — يمكن استئصالها دون ايذاء الخلايا المجاورة ؟ .. أو أن هناك نزيفا بسيطا فى عدة أماكن من المخ ؟ .. هل الخمول المسيطر على عقل « لانداو » مؤقت ، ومن الممكن أن يعود العقل لنشاطه ؟

ولم يكن عقل « لانداو » بالمسئولية الهينة .. كان من أهم وأذكى العقول فى الاتحاد السوفيتى ، لذلك رأى الاخصائيون

ان يشركوا معهم كبار جراحي المخ والأعصاب العالميين .. وفعلا دعى عدد منهم للحضور . وبعد أن فحصوا كافة البيانات ، واستمعوا إلى مالدى زملائهم السوفييت ، بدأوا يتدارسون الحالة ..

وفي ٢٧ فبراير ، عقدوا اجتماعا طويلا ، انقسمت فيه آراؤهم حول العلاج .. كان « وايلدر بنفيلد » ـ الاخصائي الكندى ـ يحبذ اجراء جراحة ، في حين كان الاخصائيون السوفييت يخشون اية مغامرة قد تتلف خلايا عقل عرف بنبوغه الجبار ..

وقدر لكورا ـ زوجة « لانداو » ـ أن تسمع نقاشهم ، وهى تخف الى جوار زوجها ، بعد أن قضت في مستشفى الأمراض العقلية شهرا .. وهالها ما سمعت عن مصير عقل زوجها ، فهرعت الى حجرته ، واحتضنت وجهه بين كفيها ، ومالت عليه باشفاق ، وهى تفكر مضطربة .. كانت في فزع من أن يصاب عقله بتلف لو مسوه بمباضعهم !

معجزة تتحقق على يدى « كورا »

● وأوحى اليها شعور خفى ، أن زوجها قد عرفها بعد هذا الفراق الطويل ، وبعد كل المحن التى مرت به .. وارتجفت ، وهى تردد في نفسها : « انه بكامل وعيه .. الا يعرفون ؟ »

وشرعت تحدثه بصوت خافت .. وخيل اليها أن عينيه بدأتا تعودان من التيه الذى كانتا تهيمان فيه ، بين الموت والحياة .. وعادت « كورا » تحتضن الوجه الحبيب بين كفيها ، وتناجيه .. وخيل اليها أن عينيه تبصرانها بادراك ..

ولم يبتسم ، ولا اختلجت اى من ملامحه ، ولكنها شعرت بكل يقينها انه يفهم ما كانت تقول ..

وقالت له : « أعرف أنك لا تستطيع الكلام ، لكنك عرفتنى .. اليس كذلك ؟.. اذا كنت تسمعنى وتتعرف على ، فاغمض عينيك ! »

وببطء شديد ، اغمض « لانداو » عينيه لأول مرة .. وخيل لكورا انها توشك ان تفقد الوعى .. وكررت التجربة وحدها ، ثم على مرأى من الممرضات ، وعلى مشهد من بعض المحيطين بحجرته من أصدقائه .. ولكن ، هل يصدقها الاخصائيون ، وهى التى غادرت مستشفى الأمراض العقلية منذ ساعات قلائل ؟

واسرعت اليهم ، فاذا بهم قد فضوا اجتماعهم . ولكنها لاحقت الدكتور « بنفيلد » الكندى ، حتى تمكنت من استدراجه الى سرير المريض .. وشهد التجربة . وتكلم بالانجليزية الى « لانداو » ــ الذى كان يجيدها ــ فبدر منه ما ينم عن الفهم .. وكذلك كانت الحال ، حين كلمه بالفرنسية ثم الألمانية !

وسرى الخبر فى (موسكو) بسرعة البرق : **« لانداو يرى ويفهم ! »**

ولم يتردد الدكتور « بنفيلد » فى أن يتحول عن رأيه الاول ، وأن يؤيد وجهة نظر الأطباء السوفييت .

واخيرا .. استعاد قدرته على النطق

● **واستمرت** الجهود العلاجية متواصلة ، وصحة « لانداو » فى تقدم ، وعلامات الفهم والادراك تتجلى عليه باطراد . ولكنه ظل عاجزا عن النطق ــ برغم كل المحاولات ــ حتى ٨ ابريل ١٩٦٢ ، اذ نطق بأول كلمة منذ وقوع الحادث

.. كلمة واحدة ، ولكنها كانت « خبر اليوم » فى موسكو ..

فقد كانت الممرضة تسقيه بعض الماء ، ثم سألته ان كان يريد مزيدا ، فهز رأسه ايجابا .. وقدمت له جرعة أخرى ، ثم قالت : « والآن ، حاول أن تقول شكرا ! » .. **وأخذت تكرر كلمة ((سباسيبا)) ــ أى شكرا بالروسية ــ أمامه .. وكانت مفاجأة أذهلتها ، حين سمعته يقول بصوت خافت : ((سبا .. سي .. با)) !**

وتقول « كورا » ان الكلمات الأولى التى أخذ ينطق بها ــ بعد ذلك ــ كانت تبدو وكأنها تنبعث من بعيـــد ، بصوت غريب عليها .. كأنه قادم من عالم الموتى !

يتسلم ((جائزة نوبل)) فى المستشفى

● **وما لبث** « لانداو » ان استطاع أن يتناول غداءه بدون أنابيب . وبدأت ذاكرته تعود تدريجيا ، والأطباء النفسيون يساعدونه على اجتياز المرحلة .. وشرع زملاؤه يحدثونه عن علوم الطبيعة ، ويعرضون عليه بعض المسائل .. **وكم كانت دهشتهم عندما تبينوا أنه استخدم أسلوبا جديدا فى حلها !**

على أنه مل كل شيء ــ حتى العلوم ــ عندما طالت اقامته فى المستشفى .. بيد أن تقدم ابنه لامتحان القبول فى « معهد علوم الطبيعة » ، أثار اهتمامه بالعـــلوم من جديد ، فأخذ يساعد ابنــه على الاســتعداد للامتحان .. وما ان نجح « ايجور » ــ بتفوق ــ حتى عاد « لانداو » الى الملل وعدم **الاكتراث !**

ومرة أخرى ، تأججت جذوة النشاط لديه ، عندما تلقى فى اول نوفمبر ١٩٦٢ ، برقية من السويد بمنحه ((جائزة نوبل للطبيعة)) تقديرا لنظرياته السابقة ، ولاكتشافاته المتعلقة بغاز ((الهليوم)) .. ولكن ساقه كانت تحول دون سفره لتسلم

الجائزة .. ولأول مرة فى تاريخ جوائز « نوبل » ، أرسلت الجائزة الى حيث يوجد الفائز .. وقدمها اليه السفير السويدى ـ فى نفس اليوم المحدد لتسليم الجوائز ـ فى قاعة المحاضرات بمستشفى أكاديمية العلوم بموسكو ، حيث كان قد نقل قبل فترة ..

ومع أن الحضور كانوا يحبسون دموعهم اشفاقا عليه ، وهو يحاول الوقوف ، فانه لم يغفل بعض الفكاهات ـ وهو يلقى كلمته ـ وقد عاودته روح الفكاهة التى اشتهر بها !

.. وفى المرة الخامسة ، انتصر الموت !

● **ولم يقدر** للانداو أن يغادر المستشفى الا فى يناير ١٩٦٤ ، أى بعد عامين كاملين من الحادث الذى أماته أربع مرات !

وفى ٢٢ يناير ١٩٦٨ ، احتفل « لانداو » ببلوغه الستين ، واحتفل معه أصدقاؤه وتلاميذه وكافة الأوساط العلمية فى الاتحاد السوفييتى .

وكأنما رأى القدر أن الظروف مناسبة لاسدال الستار الختامى : أربع انتصارات على الموت ((الأكلينيكى)) ـ أى كما تحدده الأعراض الطبية ـ وجائزة نوبل ، واهتمام واسع النطاق ببلوغه الستين ..

وفى أول ابريل ١٩٦٨ ، نقلت وكالات الأنباء نعى « لانداو .. عالم الطبيعة السوفييتى ، الذى تخصص فى الطبيعة النووية والأشعة الكونية ، وواحد من أعظم العلماء المعاصرين فى العالم » !

لقد عاود الموت محاولته للمرة الخامسة .. وانتصر فى هذه المرة !



SEXUAL LIFE IN ANCIENT GREECE

By HANS LICHT

الجنس والمسرح والدين لدى الاغريق

النوازع الجنسية للانسان ، تضفى أضواء على معظم نواحى سلوكه وتصرفاته ، وعلى ما ينشىء من حضارات وثقافات ..

واستنادا الى هذه النظرية ، اتجه الباحث الاجتماعى « هانس ليشت » الى دراسة الجنس فى الحضارة الاغريقية القديمة ، باعتبار هذه الحضارة أم واصل الحضارات الغربية .. وقد قدم اليك « كتابى » ـ فى العددين السابقين ـ فصولا من هذا البحث القيم ، الذى يجمع بين الفائدة الثقافية والتسلية ..

وعلى الصفحات التالية ، نقدم اليك تلخيصا وافيا للفصلين الاخيرين ، من القسم الاول من هذه الدراسة . وقد تناول فيهما « ليشت » : الجنس والمسرح ، والجنس والدين عند الاغريق القدامى ..

الجنس والمسرح والأدب

● **بعد** أن أفضنا فى الحديث عن الجنس فى الحياة الاجتماعية لدى قدماء الاغريق ، وعن المكان الذى كان يحتله فى أعيادهم وحفلاتهم ، يصبح من الطبيعى والمنطقى أن ننتقل الى المسرح الاغريقى ، لنتبين أثر الجنس فيه ، ولندرس معالم الحياة فى المسرحيات بأنواعها ـ من فكاهية (كوميدية) وتراجيدية ـ وفى التمثيل والشخصيات التى كانت تضطلع بالادوار ..

مبتكر عشق الغلمان .. تلاحقه اللعنة !

● **لعل** أول مسرحية تجتذب الاهتمام فى بحثنا هذا ، هى مسرحية « لايوس » ، التى نال بها الشاعر الاغريقى « ايسخلوس » الجائزة الأولى ، فى « الأولمبياد » الثامن والسبعين ، سنة ٤٦٧ قبل الميلاد .

وتقوم هذه المسرحية على أساس من واقع افتتان الملك « لايوس » ـ الأب الحقيقي للشخصية الخالدة « أوديب » ـ بصبي جميل يدعى « خريسيبوس » .. وبلغ من هيامه انه خصى الصبي ـ بتر اعضاء ذكورته ـ لكي لا تذكره بحقيقة جنسه !

وهناك كثير من الباحثين والدارسين ، الذين يؤكدون بأن عشق « لايوس » للصبي « خريسيبوس » الجميل ـ ابن بيلوبس ـ كان العامل الحقيقي المتواري ، الذي أدى بالملك التعس الى مصيره المأسوى .. **والواقع ان كثيرين من الاغريق كانوا ينظرون الى ((لايوس)) على أنه مبتكر عشق الغلمان . وقد استنزل ((بيلوبس)) لعنة بشعة ماحقة على الرجل الذى سلبه ابنه ، وعلى سلالته من بعده .. فظلت هذه اللعنة تلاحق ((لايوس)) حتى انتهت بوفاة ((أوديب)) ، الذى عاش حياة مليئة بالهموم والأحزان ، الى ان اعفته الآلهة من وزر الخطيئة !**

وهنا يجب الا ننزلق الى غلطة انساق اليها كثيرون ، فان لعنة « بيلوبس » لم تكن صادرة عن انكار لحب « لايوس » لابنه ـ أي حب ذكر لذكر ـ وانما كان مبعثها حنق الأب لأن « لايوس » سلبه ابنه وبتر ذكورته برغم ارادته .. **ومن ناحية اخرى ، لم يكن الشذوذ الجنسي والخصى هما السبب الأول للنقمة ، بقدر ما كان العنف الذى تم به الأمران .** فنحن نعرف أن الاغتصاب هو البداية للجماع منذ أقدم العصور البدائية ، ولكن العنف هو الذى أعتاد أن يثير غضب الرأى العام .. وكذلك نعرف أن بتر أعضاء الخصوبة ـ لدى الاناث والذكور على السواء ـ كان بين طقوس دينية تناقلتها الأزمان الى عهود غير بعيدة .. ولكن العنف في ذلك هو مصدر النقمة !

اغتصب ابن سواه فدفع القدر ابنه للانتقام !

● وهكذا نستطيع أن نقول ان مأســاة « أيسخلوس » وجدت غاية خاصـــة ، خلاف غايتها الظاهرة ، وهى أن « لايوس » حمل اللعنة نتيجة خروجه على ما كان متعــارفا عليه فى مجتمعه ، أى : استخدامه العنف فيما كان يمكن أن يحققه بدون عنف . كمــا أن اللعنـــة انطوت على مفــارقة ســاخرة : **تلك هى انه كان محروما ممن كان يعتبره ــ فى شبابه ــ اغلى بهجة فى الحياة ، أى ابنه .. واذا ابن سواه ــ أى ((خريسيبوس)) ــ يصبح السبب فى أحداث ومصائب جعلته العوبة فى يد القدر .. ثم اذا يد الابن الذى كان محروما منه ــ يد ((أوديب)) ــ تصبح يد القتل التى ساقهــا القــدر الغاضب للانتقام منه .. أى من ((لايوس)) جزاء استباحته ابنا لسواه ، ولد حرا لأب حر !**

وتبين مسرحية « المورميدون » لايسخلوس ، أن رابطــة الحب القوى بين « آخيل » و « باتروكليدس » لم تكن سوى علاقة جنسية .. وان هذا اللون من العــلاقات يرجع الى أجمل عصور ازدهار الحضارة اليونانية !

عشق الغلمان يوحى بمسرحيات عديدة

● وفى القصاصات التى تناهت الينـــا من مؤلفــات « سوفوكليس » ، نجد أن حب الغلمان والفتيات كثيرا ما كان مصدر الهام للشاعر . ولا يجب أن نعجب لهذا ، فقد كان هذا الشاعر والمؤلف المسرحى العظيم آية فى الجمال والحسن فى صغره ، وكثيرا ما ظفر بتــاج التفوق فى الرقص والموسيقى والألعاب الرياضـــية . وقد رأس الغلمان الراقصـين ، فى احتفال الاغريق بالقتال المجيد فى (سلاميس) ، وكان يرقص

عاريا ، وهى يحمل قيثارة بين يديه .

وفى مقطوعة « عشاق آخيل » نرى بطل « الإلياذة » ـ اى آخيل ـ يظهر كصبى جميل ، حتى ليصفه سوفوكليس بأنه **« يلقى من عينيه نظرات تجـرح كالحراب » !..** ثم نجـد « سوفوكليس » يصور « آخيل » عندما كبر ـ فى مسرحية اخرى ـ كعاشق للصبى الرقيق الناعم « ابن بريام » ، ولكنه يقتله خطأ ـ أثناء ممارسته الرياضة ـ فيحزن عليه حزن الاله « ابولو » على « هياسـنيثوس » ، الصبى الـذى كان كلفا به !

ولقـد اتخذ « يوريبيدس » ـ هو الأخر ـ قصـة « خريسيبوس » ، عشـيق « لايوس » الصبى ، موضوعا لاحدى مسرحياته .. وهى مسرحية تحمل اسم ذلك المشوق الجميل . **ومن الطريف أن « يوريبيدس » استمد الهامه من تجربة شخصية ، اذ انه هام بالفتى « أجاثون » بن « تيسا مينوس » ، الذى كان اشد فتيان (أثينا) فتنة واثارة ، حتى لقد تيم به كثير من الشعراء والفلاسفة ، وخلد ذكره أفلاطون وارسطو طاليس ، وكان مثار غيرة بين سقراط والسبياديس !**

ومن اجل التقـرب الى « اجاثون » ، كتب يوريبيدس مسرحية « خريسيبوس » ، متمثلا نفسه فى « لايوس » ، وفاتنه ـ اجاثون ـ فى مكان « خريسيبوس » !

« الكوميديات » مليئة بالتعبيرات والمشاهد المكشوفة

● **واذا** تحولنا نحو المسرحيات الهزلية التى لم تصـل الينا كاملة ، فاننا نحب أن نبين أولا ، أن المسرحيات الهزلية الاغريقية كانت نتيجة الرغبة فى ارضاء الآلهة ومن فى عدادهم ، تحت تأثير نشوة الخمر .. أو بمعنى أدق ، **كانت نابعـة من العرفان بفضل الرب « ديونيسوس » ، ماحى الهموم وجالب**

الفرح !.. ومن ثم فهي تزخر بالمواقف الجنسية والتعبيرات المكشوفة الفاضحة ، مما يجعلها مرآة تعكس صورة « كاريكاتورية » لواقع الحياة !.. ونجد كثيرا منها يبنى على المفارقات الناشئة عن تعادل حب الزوجة وحب الغلمان فى حياة الرجل الاغريقى !

ولعل أطرف مثال لما تتضمنه المسرحيات الهزلية من وقاحة ، ما ورد فى تمثيلية لفيريكراتيس ـ لم يصل الى عهدنا سوى شذرات منها ـ اذ يقول : « **لقد أصبح السيباديس ، الذى لم يكن رجلا ، فيما مضى ـ على ما يبدو ـ زوجا لكل امرأة** » !

ولقد كان « يوپوليس » الاثينى ، من أحذق مؤلفى الكوميديا ، وبرز ـ بوجه خاص ـ أثناء حرب (الپلوپونيز) . وقد فازت سبع ـ من حوالى أربع عشرة « كوميديا » وضعها ـ بالجوائز الأولى ، وأروعها « أوتوليكوس » التى قدمت فى العام الرابع من « الاولمبياد » التاسع والثمانين ، أى فى سنة ٤٢١ قبل الميلاد .. وكانت المسرحية تدور حول « أوتوليكوس » الذى قال « أكسينوفون » فى وصفه : « **ان جمال أوتوليكوس الصافى يحول الأنظار جميعا نحوه ، كما يجتذب العيون ضوء يمرق فى بهيم الليل . وما من أحد رآه ونجا من جرح أصاب فؤاده** » !!

وكان « أوتوليكوس » أثيرا بالحظوة لدى بطل رياضى مظفر ، اشتهر بماله وبذخه هو « كالياس » .. وقد أظهر « يوپوليس » ـ فى مسرحيته ـ غزام كالياس بالفتى فى صورة فاضحة !

كذلك عرضت ليوپوليس ـ فى سنة ٤٢٣ قبل الميلاد ـ مسرحية باسم « المتملقون » ، دارت حول الفتى الأثينى الجميل « ديموس » ، الذى كان يعرض نفسه للبيع ، وكان

يشكو ــ كما ورد فى المسرحية ــ من ان « الباب لا يستقر فى مكانه ابدا » . . اشارة الى كثرة من كانوا يترددون عليه ، لينعموا بجماله !

صراع بين عجوز وشابة من الغانيات

● **ولقد** تبوأ « أريستوفينس » مكانة سامية فى تاريخ الشعر الاغريقى . ومن الطريف أن ننقل ــ فيما يلى ــ جزءا من حوار احدى مسرحياته ، لنتبين مدى الاغراق فى التعبيرات النابية . . ففى مشهد بين امرأتين من بائعات الهوى :

المرأة العجوز : لم لا يأتى الرجال ؟ . . لقد طال انتظارى ، وانا أقف خاملة ، وقد تضمخت بالدهون ، واتشحت بثوب فى صفرة الكركم ، ورحت أترنم بلحن غرامى ، وآتى بحركات رياضية ، عسى أن اجتذب نظر واحد منهم ، أثناء مروره !

الفتاة الشابة : لقد سبقتنى أيتها العجوز ، ظنا منك أنك بغنائك تجتذبين حبيبى ! . . امضى فى غنائك ، وسأباريك فيه . . .

العجوز (تغنى) : ان شاء احد أن ينعم باللذة ، فلينعم معى ، لأن المعرفة لا تتيسر للشابات ، ولكنها تتوفر للناضجات ! وهل تكون الشابة فى وفائى وصدق حبى ؟ . . ابدا ، بل انها تتنقل من واحد لآخر ، وتظل تطير ، وتطير ، وتطير ، وتطير . . ثم تطير ، من واحد لآخر !

الشابة : لا تحسدى الشابات ، فالمتعة فى أطرافهن اللينة ، وفى الثمار الناضجة على صدورهن . .

العجوز : غنى ما شئت أن تغنى ، فهم سيأتون لى أولا ؟

الشابة : اتقصدين انهم سيأتون . . لجنازتك ؟ أهذه نكتة جديدة ؟ . . وكيف يكون ثمة جديد لدى عجوز حيزبون ؟ !

وبعد حوار طويل على هذا النسق ، تتوارى المرأتان . .

فيقبل شاب متوج الرأس بالزهور ، وفى يده مشعل :

الشاب : ليتنى أنام مع الشابة ، ولا أنكب أولا بالعجوز !

وتثور العجوز ـ اذ كانت تسترق السمع والنظر ، من وراء النافذة ـ فتنذره بانه جاء فى غير الأوقات التى يباح فيها الحضور ، وتهدده بدعوة العسس .. وتتظاهر بتنفيذ وعيدها فتدخل .. واذ ذاك تطل الفتاة من نافذتها ـ دون أن تكون قد فطنت لما جرى ـ وتغنى :

الشابة : من هنا تعال يا حبيبى !.. تعال الى احضانى يا غرامى ، وكن شريك ليلتى !

الشاب : ها أنذا يا حبى ، فاهبطى سريعا ، وافتحى الباب .. وسأرتمى على الأرض ، وأعفر جبينى أمامك ! تعالى ، وسأنشد الراحة على صدرك !.. لقد وصفت لوعتى بما فيه الكفاية ، فاهبطى يا حبيبتى !.. افتحى الباب يا جميلة المحيا ، وعانقينى !

العجوز : لماذا تطرق بابى . هل تسعى الى ؟

الشاب : ليأخذنى الموت ان كنت قد طرقت بابك أو سعيت اليك !

وتفتح العجوز بابها ، وتشده من ذراعه قائلة : ((وحق افروديت لآخذنك ، شئت أو لم تشأ)) !

الشاب (يحاورها ، وهو يقاوم) : ولكنى أخاف حبيبك .

العجوز : من الذى تعنى ؟

الشاب : أمهر رسام .. **يزين الأوانى التى تدفن مع الموتى !**

العجوز : اننى أعرف ما تعنى . وأقسم بافروديت أننى لن أدعك تنصرف !.. سأجرك الى الفراش جرا !..

الشاب : ولكنى لا أحب مضاجعة عجوز فانية مثلك ، ولن أفعل ..

ويستمر الحوار مليئا بالكنايات والتوريات والتعبيرات المكشوفة .. ثم تظهر الفتاة على بابها ..

الشابة : الى أين تجرينه ؟

العجوز : انني أجذب زوجي الى داره .

الشابة : ما هذا بالقول الحكيم ، فهو ليس فى سن ملائمة لمضاجعتك .. انك أجدر بأن تكوني أمه ، لا زوجته !

ولا نرى أن نمضي طويلا ، بل نكتفي بهذا القدر لبيان ما كانت تحفل به المسرحيات الهزلية الاغريقية من « أدب » مكشوف !

التراجيديا بين البطولة والاثارة الجنسية

● **وكان** مؤلفو « التراجيديا » من الاغريق القدامى ، يجدون فى « البطولة » المحور المفضل لمسرحياتهم . ونادرا ما كان الحب والاثارة الجنسية من المحاور الرئيسية فى « التراجيديا اليونانية القديمة » ، اذ أن القصص الغرامية ـ ذات النهايات المحزنة ـ لم تكن فى رأيهم جديرة بالسمو بمشاعر الناس .

ونستثني من ذلك مسرحية « **أجا ممنون** » لايسخلوس ، التى تصور كيف دفعت الغيرة الجامحة زوجة « **أجا ممنون** » الخاطئة الى قتله . كما أن « سوفوكليس » استخدم الحب المتأجج بالرغبة فى مسرحيات عديدة ، ولكن كمحفز ثانوى . كما حدث فى حب « ميديا » لجاسون فى مسرحية « نساء كولشيس » . **ولم يظهر هذا الحب كحافز رئيسى ، الا فى مسرحية واحدة ، هى « فيدرا » التى كان محور احداثها اشتهاء « فيدرا » لابن زوجها !** ولقد ولى « يوريبيدس » وجهه شطر الاثارة الجنسية ، فتحول بالتراجيديا عن الموضوعات البطولية الى نوع من المسرحيات البورجوازية ،

ذات النهاية غير السعيدة ، برغم احتفاظه بأسماء وشخصيات العهد البطولي !

وبفضل « يوريبيدس » ــ وكتاب التراجيديا الذين اعقبوه ــ طغت موضوعات الاثارة الجنسية على المسرح الاغريقي .. كما كان « يوريبيدس » أول من ادخل موضوعات الحب المحرم : كحب « كاناسي » لأخيها « مكاريوس » .. وحب « ميرها » لأبيها « سينيراس » !

الرجال يؤدون ادوار النساء على المسرح !

● ومن الجدير أن نلاحظ أن المسرح الاغريقي القديم ، كان يعتمد على الرجال وحدهم ، حتى أنهم كانوا يقومون بادوار النساء .. وفي بعض « الكوميديات » ــ التي كانت تتطلب ظهور نساء عاريات ــ **كان الممثل يرتدي زيا يلتصق بجسمه ، وقد صنع على شكل جسم المرأة ، مع الاستعانة بثديين وبطن مستعارة ، تظهر فيها الحلمتان والسرة ! !** على أن هذا التقليد لم يلبث أن توارى رويدا ، مع تطور الحضارة الاغريقية ومرور الزمن .

بقي أن نذكر ــ في هذا السياق ــ أنه لم يكن محرما على النساء والأطفال مشاهدة « الكوميديات » المثيرة ، المتضمنة لعبارات وحركات نابية .. وان كانت الزوجات المحترمات قد انصرفن عن هذا النوع من المسرحيات .

كذلك نذكر ان الاغريق القدامى ، كانوا يتناولون الجنس على انه امر واقع ، لا حاجة الى اسدال ستار من الغموض والتكتم عليه . بل انهم كانوا يخلعون عليه صفة دينية ، باعتباره ضرورة اولية للوجود !

والى جانب هذه الأنواع من المسرحيات ، أزدهر لدى الاغريق فن « الباليه » المستمد من الأساطير الدينية ..

وكانت الآلهة تظهر شبه عارية ، وفى أجمل آيات حسنها . وقد تبدو الاناث منها عارية تماما ، اذا هبت الريح ورفعت وشاحها !.. كما أن الريح قد تدفع الوشاح الى الالتصاق بالجسم فيكشف كل مفاتنه تحت غلالة تزيده اغراء . **وتحت ستار الأساطير الدينية ، كانت مشاهد الحب مع الحيوان تمثل على المسرح !..** وبينها مشاهد الزواج بين آدمى وحيوان ، كان يكون الحيوان انسانا ـ فى الأصل ـ ثم انقلب حيوانا بفعل السحر أو غضب الآلهة !

كان الرقص عرضا لجمال الجسم ومفاتنه

● **وكان** الرقص ـ فى الأزمان الغابرة ـ يعتبر من المشاهد المسرحية .. لا الرقص الغربى المعهود ـ الذى يشترك فيه ذكر وانثى ـ وانما رقص كالذى نعرفه فى الشرق ، أو الرقص الجماعى الذى يشبه ـ فى أجزاء منه ـ التمثيل الصامت .. وهو التمثيل الذى يعتمد على الايحاء والحركة والاشارة ، مع الايقاع الموسيقى .. وكان الاغريق يستمتعون به كمصدر لرى ظمأهم الدائم الى الجمال ..

كذلك كانت الرقصات ـ التى تؤديها فتيات فاتنات الحسن ـ من اللوازم فى مآدب علية القوم ، وقد بلغت هذه الرقصات أبهى درجات الروعة ، فيما خلفه أهل (كريت) من آثار .

وكان الرقص ـ طيلة عهد الحضارة القديمة ـ عرضا لجمال الجسم ، ورشاقة الحركة . على اننا نقصر الحديث هنا ، على انواع الرقص التى تعتمد على الاثارة الجنسية .. ولقد طالب « أفلاطون » بأن تضم حفلات الرقص الجنسين ، ليزداد كل منهما تعرفا الى الآخر .. على أن من المبالغة أن يزعم أحد أنه كان يدعو الى رقص شبيه بالرقص الغربى .

وانما الأصح أنه كان يدعو الى أن تشاهد الفتيات رقصات الشبان ، وأن يشاهد هؤلاء رقصاتهن ، برغم ما كانت تتطلبه بعض هذه الرقصات وتلك من عرى كامل .. أو أن يشترك الشبان والفتيات فى حلقة واحدة .. كما يبين الوصف الذى ورد فى « الالياذة » عن درع « آخيل » .. وفى مثل هذه الحالات ، كان وجود الجنسين يعتبر ارضاء لربى الحب : « ديونيسوس » و « افروديت » ..

ولم يكن رقص الصبية الصغار عرايا ، بالأمر النادر فى اليونان القديمة .. وقد أشرنا الى هذا من قبل ، وذكرنا أنه كان نوعا من الاستمتاع بمشاهدة الجمال .

يفقد ابنة الملك .. لخلاعة رقصه !

● **ولعل** أقدم وصف للرقص الذى يعرض مفاتن الجسد ، هو ذاك الذى أورده « هيرودوت » . فقد كانت للملك « كليستينس » ــ عاهل (سيسيون) العظيم ــ ابنة باهرة الجمال ، تدعى (أجارستى) ، تنافس عليها الشبان من كافة ارجاء بلاد اليونان وايطاليا . فدعاهم الملك جميعا للاقامة فى بلاطه عاما ، ليختبرهم ويتبين أيهم أجدر بابنته .. واستطاع « هيبوكليدس » الأثينى أن يبرز عليهم جميعا بماله وجماله . ولكن الملك شاء أن يتيح الفرصة العادلة للجميع ، قبل البت فى الأمر ، فأقام مأدبة هائلة ، دعا بعدها المتنافسون الى أن يتباروا فى ابداء مواهبهم الموسيقية والاجتماعية . واذ شعشعت الخمر فى رأس « هيبوكليدس » ، قام بالرقص فى حركات أبدت أقصى مفاتن الخلاعة والاثارة ، مما أغضب الملك فأقصاه عن المتنافسين !

وكانت للاغريق رقصات فاضحة ، تؤدى فى بعض المناسبات القومية ، كعيد « ارتيميس » . **ولعل أفضح**

الرقصات جميعا ، كانت رقصة تسمى (« كورداكس ») ، تتالف من حركات مترنحة الى الأمام والى الخلف (كهزات الزار) ، مع سلسلة من ايماءات وتثنيات واختلاجات متعمدة ، لكشف مفاتن الجسم التى تتسم بالاثارة الجنسية .. فهى تعتبر تجسيدا لما يسميه علم النفس الحديث بالميول الاستعراضية ، مع فارق واحد : هو أن الاغريق كانوا يسمحون بعرضها فى مناسبات محدودة فحسب .. وكانوا يضفون عليها من « الرضاء الرسمى » ما يرتفع بها عن التبذل والغواية !.. أى أنها كانت تعرض ــ بموافقة السلطات المدنية والدينية ــ لابراز معالم الجمال ، وليس للاثارة الجنسية الرخيصة !

الغلمان فى مجالس الخمر !

● على أن هذا لا ينفى أن بعض الاغريق كانوا يبدون نوازع جنسية ، اذا ما عبث الشراب بعقولهم ، وذهب بتقديرهم للجمال ، من حيث هو جمال فحسب ..

وكانت هذه النوازع تظهر عارية ــ الى حد ما ــ فى مجالس الشراب .. فقد كانت العادة فى هذه المجالس ، أن يكلف صاحب الدار نخبة من أجمل العبيد الغلمان ، بتقديم الشراب الى الضيوف . ويروى لنا « لوسيان » ــ المؤرخ القديم ــ قصة غاية فى الطرافة ، عن مأدبة شراب ، فى بيت « اريستينيتوس » ، فيقول :

« ولا بد هنا أن أذكر ــ فى ايجاز عابر ــ حادثا بسيطا ، ساهم فى زيادة استمتاعى بالحفل . فقد شهدت غلاما جميلا من العبيد ، اتخذ مكانا خلف الفيلسوف « كليوديموس » كحامل للكأس .. واذ رحت أحدق فيه ، لاحظت أنه حين تقدم ليأخذ الكأس الفارغة من كليوديموس ، داعب هذا اصابع الغلام خلسة ، ثم دفع الى يده قطعتين من النقود

ـ دسهما مع الكاس ـ على ما لاح لي . وابتسم الغلام لمداعبة أصابعه ، ولكني احسبه لم يفطن الى قطعتي النقود ، فاذا بهما تسقطان وتتدحرجان على الأرض .. وتضرج وجه الغلام ووجه الفيلسوف . وتساءل الحضور عمن يكون صاحب القطعتين ، ولكن الغلام أنكر أنهما وقعتا من يده ، كما تشاغل كليوديموس ، وكأنما لم تكن له بالأمر علاقة !.. وما لبث القوم أن انصرفوا عن الموضوع ، ليواصلوا الشراب ، وان كان هنـــاك عدد ضئيل قد لاحظ ما حدث . واعتقــد أن « اريستينيتوس » كان من هؤلاء القلة ، اذ انتهز فرصة ما ـ بعد قليل ـ ليقصي الغلام عن القاعة ، ودعا الى مكانه فتى تجاوز السن الخطرة ..! ومن ثم مر الحادث ـ بفضل لباقة صاحب الدار ـ ولو أنه افتضـــح لأدى الى خزي كبير لكليوديموس .. اذ كان خليقا به ـ كفيلسوف ـ أن يقــدر على ضبط شهواته ! »

حمل الكؤوس شرف يناله ابن النبلاء !

● ويزعم بعض المؤرخين أن الفتيات كن يقدمن الشراب ويحملن الكؤوس في هذه الحفلات أحيانا . ولكن الذي يتعمق نفسية الاغريق ، جدير بأن ينبذ هذا الزعم . وكان الذي يحدث ـ في أحيـان نادرة جدا ، يكون فيها المضيف عظيم الاحتفاء بضيوفه ـ **أن تدعى جارية الى القاعة عارية ، لتطوف على الحضور فتمـلأ كؤوسهم ، بينما تعزف ثلاث فتيـات أخريات شيئا من الموسيقى .. ولكن هـذه كانت من أندر الحالات !**

يضاف الى هذا أن حمل الكؤوس وتقديم الشراب كانا من الأعمال التي يجلها الاغريق ويؤثرون الفتيان بها ، حتى أن بعض أبناء النبلاء ـ في العهود الاغريقية الأولى ـ كانوا

يقومون بهذه المهمة بانفسهم .. وقد ذكر « هوميروس » أن ابن الملك « منيلاوس » كان منهم .. وكذلك كان الشاعر « يوريبيدس » فى صباه .

وكان الاغريق يهتمون بمجالس الشراب اهتماما خاصا .. فالى جانب الرقص ، كانت تقدم الألعاب البهلوانية ، والأغانى ، من كل من الجنسين .. وكانت هذه المجالس تعقد فى البيوت فقط !

الجنس والدين لدى الاغريق

● ترى الديانات السماوية ان المثـــل الخلقى الأعلى للانسان ، هو انكار الجسد وكبح رغباته ، حتى أن التعاليم اليهودية والمسيحية توحى بأن هـــذا هو سبيل الســـعادة الأبدية فى العالم الآخر ، حيث تدعو الملائكة ــ التى تصورها هذه التعاليم كمخلوقات بلا جنس ــ أبناء البشر الى الجزاء الأوفى . **ومن ثم يتعذر على المرء أن يتصور وجود علاقة بين الجنس والدين ، فى حين أن هذه العلاقة موجودة ، ولكن فى الأعماق اللاواعيـــة .. وفى آيات ((التوراة)) أمثلة واضحة لذلك .**

والواقع أن الأفكار الجنســـية توجد فى اطـــواء قصص الخليقة وبداية الدنيا ، منذ أقدم الحضارات .. فكان الاغريق يســـمون السماء « أورانوس » ، وهو اسم يوحى بقـــدرة السماء الاخصابية ، التى تخترق الأرض بالحرارة والرطوبة ، فتنبت الأرض كل شيء حى .. حتى ليقول ايسخلوس : « ان السماء الطـــاهرة ترغب فى أن تتغلغـــل فى الأرض ، والحب يستولى على الأرض فتتوق الى أن تتحد مع السماء .. » !
وينجم عن عنـــــاق السماء والأرض ــ أورانوس وجايا ــ

« التيتان » ، وهي أنواع عديدة من الظـــواهر السماوية والأرضية والبحرية .

هكذا ولدت الكراهية والعنف وسفك الدماء

● وتتحدث الأساطير الاغريقيـــة عن « السايكلوبات » ــ التى تمثل قدرات الطبيعة الجبارة ــ و « الهيكاتونشيرات » وهي عمالقة لكل منها مائة ذراع .. فتقول أن هذين النوعين من أبناء السماء ، ازدادا قوة وطغيانا ، فلم تجد السماء بدا ــ للتخلص منهما ــ من أن تلقي بهما الى الأرض .. ولكن الأرض غضبت لكرامة أمومتها فدعت أبناءها ليثأروا لها من أبيهم (السماء) .. **وهكذا تولدت الكراهية والنقمة من الحب الطاغي** .. غير أن الأبناء لم يجسروا على أن يرفعوا أيديهم بالأذى لأبيهم ، فيما عدا واحد ــ هو « كرونوس » ــ الذى تربص لأورانيوس ، **حتى اذا هبط ليعانق ((جايا)) كعادته كل ليلة ــ وهي ظاهرة هبوط الظل على الأرض ــ انقض عليه واجتث عضو التوالد لديه .. ومن قطرات الدم التى سقطت ، حملت الأرض لتضع ((ايرينيس)) و ((جانت)) و ((ميلياث)) .. اى الثأر ، والعنف ، وسفك الدماء !**

ولا تقوم طبيعة آلهة الاغريق على فكرة خلقية ، وانما على فكرة جمالية . وكانت السعادة لديهم ، هي امكانية الاستمتاع بأكمل وأصفى وأنقى آيات الحسن والجمال والبهجة والسرور ــ حتى الثمـــالة ــ دون أن يعـــكر ذلك شيء من المرض أو الشيخوخة أو الموت . ولا بد من استيعاب هذه النظرية عن طبيعة آلهـــة الاغريق ، لنستعرض مغامراتهم ذات الطابع الجنسي دون ما تحيز .. كذلك يجب الا ننسى أن بلاد الاغريق كانت مقسمة الى مدن أو أقاليم صغيرة عديدة ، لكل منها قصصها المحلية ، التى قد تصادفنا ونحن نستمد مادة بحثنا .

« أبو الآلهة » : كانت له غراميات لا تحصى !

● ولنبدأ بأبي الآلهـة والبشر « زيوس » ، الاله الأعلى للنور . ففي أعماق الأساطير العديدة عن زيجاته وغرامياته ، تكمن فكرة « الطل » أو رطوبة السماء التي تتغلغل في الأرض ، فتنبت كل حي .. وهي الفكرة التي أوردناها من قبل عن بدء الخليقة . والى جانبه هـذا ، فان عدداً من العـائلات الاغريقيـة ذات الجاه والعـراقة ، كانت تذهب ــ في تتبع أنسابها ــ الى اسناد أصلها اليـه !.. **وتبدى الأساطير أن « زيوس » اتخذ عددا لا يحصى من اناث الآلهة والبشر زوجات وخليلات ، مما أوحى الى كثير من الشعراء والفنانين بفيض من الالهامات الحسية ، ومما اتخذ كأساس للغيرة المستمرة التجدد لدى زوجته واخته « هيرا » .. لا سيما حين رفع « زيوس » اليـه الفتى الطروادي الجميل « جانيميد » ، مما أضفى تبريرا دينيا على حب الغلمان والصبية !**

واذا نظرنا الى مغامرات « زيوس » ــ على ضوء المبادىء الخلقية ــ فاننا نجد مبررات كثيرة لغيرة « هيرا » .. التي وصف الشعراء الأسطـوريون زواجه منها بأنه كان مناسبة أفاضت الخير على الأرض ، وأنمت شجرة الحياة عليها .. ففي هذه المناسبة ، زينت « هيرا » جسدها بكل مفاتن الصبا والجمال ، ثم اقتربت من زوجها ، وهو يراقب القتـال بين اليونانيين والطرواديين ــ من أعلى جبـل أوليمب ــ فاذا بفتنتها تطغى عليـه ، فينصرف عن كل شيء ، ليضمها في أحضانه !.. وعلى سرير من الزهور المجدولة ، تم الزواج بكل مظاهر الزواج البشرى !

وكان ان غفل « زيوس » في أحضان « هيرا » عن سير المعركة .. فلم تمض كما كان ينبغي !

((زيوس)) يعاقب عروسه ليقهر عنادها !

● **ولكن** هذا الزواج الربانى لم يتم دون عواصف وزوابع .. وهى النتائج المنطقية لمعنى زواج الالهين ، بوصفهما القوتين المسيطرتين على الطبيعة .. ووفقا للظواهر الجوية ، فان الأمطار والعواصف تحدث عادة بعنف وفجائيــة .. وهكذا اتسم الصراع بين الزوجين الالهين بالعنف والمباغتة ، حتى انهى ((زيوس)) الصراع ــ كما ورد فى ((الالياذة)) ــ بقوله : ((اجلسى ساكنة وأطيعى أوامرى ، والا فلن يقــوى كافة الخــالدين فى الأوليمب على حمــايتك ، اذا اقتربت وألقيت يدى الباطشتين عليك)) !

واذ اصرت ((هيرا)) على العناد ، فان زوجها ((زيوس)) علقها فى الفضاء ، وقد ربط بكل قدم من قدميها سندان .. وقد فسر ((بروبس)) هــذا المنظر بان الســندانين يرمزان للأرض والبحر ، وان المشهد كله يرمز الى قدرة الاله الأعلى على استبقاء الهــواء وكل الوجود فى حالة معلقة ! ولما كانت ((هيرا)) وفية لزوجها ــ برغم كل هذا ــ فانها ترتقب من كافة الرجال المتزوجين الوفاء لزوجاتهم ، فى مقابل ذلك .. ومن ثم فقد أصبحت الربة الراعية للزواج .

شبكة لاصطياد الزوجة الخائنة وعشيقها

● **ونظرا لأن** النار قد هبطت الى الأرض ــ لأول مرة ــ من السماء ، فقد أعتبر الاغريق أن ((هيفيستوس)) ــ اله النار ــ ابن لزيوس وهيرا . ورأوا فى العرج الذى يتجلى فى مشيته رمز ارتعاش اللهب وتراقصه . ويفسر ((هوميروس)) هذا بأن ((هيفيستوس)) انحاز لجانب أمه ــ أثنــاء شجار بينها وبين زوجها ــ **فأمسك ((زيوس)) بقدم ابنه ، وطوح به**

من فوق (الأوليمب) .. واذ أصبحت ساقاه ضعيفتين ، فانه دعمهما بفتاتين صنعهما من الذهب ((على صورة عذراوين فى نضارة الشباب)) ، فاعتبرتا رمزا للحيوية والتوثب اللذين تمتاز بهما النار !

وتروى بعض الأساطير أن «هيفيستوس » تزوج من « أفروديت » . ولم يلبث اله الشمس « هليوس » أن أطلعه على أن زوجته افتتنت ــ فى غيابه ــ بالاله « آريس » النزق . فما كان من « هيفيستوس » الا أن صنع شبكة دقيقة لا ترى خيوطها عيون البشر ولا عيون الآلهة ، وثبتها ــ خلسة ــ الى فراش الزوجية ، ثم أعلن أنه مسافر . فلما تضاجع العاشقان ، أطبقت عليهما الشبكة وهما فى نشوة الهوى ، ولم يستطيعا حراكا حتى فاجأهما الزوج المغدور ، فدعا الآلهة جميعا ليشهدوا الخيانة الوضيعة ..

عذراء مسلحة تولد فى مخ ((زيوس)) !

● **ولقد** وقع « هيفيستوس » ــ بعد ذلك ــ فى حب الربة « أثينا » ، التى تقول الأساطير انها خرجت من رأس « زيوس » ، حين شقه « هيفيستوس » ببلطة .. ويصور « لوسيان » هذا الحادث ، فى « حوار الآلهة » ، تصويرا مشوقا ، نقتبس منه :

هـ . : لقد جئت مأمورا ، أحمل أرهف بلطة أمتلك ..

ز . : شق رأسى الى شطرين بضربة واحدة .. اقطع على الفور والا أغضبتنى ، وكم من مرة أغضبتنى !

هـ . : سأفعل ، ولكن على غير رغبة منى ، فمن يقوى على المقاومة حين تأمر ! (يهوى بالبلطة) **ما هذا ؟ عذراء فى درع كامل ! كان فى رأسك شر عظيم يا زيوس ، فلا عجب ان كنت متوعك المزاج وأنت تنجب عذراء قوية كهذه ، تحت**

مخك ، وهي في درع كامل !.. انهـا تثب وترقص ، وتهـز درعها ، وتشحذ حربتها ، وتجمح في هياجها .. وأعجب من كل هذا أنها جميلة جدا ، وقد بلغت النضج في لحظات .. اتوسل اليك يا زيوس أن تزوجني منها !

ز . : انك تطلب المستحيل ، لأنها سترغب دائما في البقاء عذراء ..

ويصر « هيفيستوس » على رجائه ، فيجيبه « زيوس » .. ومنـذ ذلك الحين ، يطارد « هيفيستوس » أثينا ذات الدروع ، وهي تهرب منه .. وعندما تشتد رغبته ، يلفظ لقاحه على قدمها ، فتنفض « أثينا » اللقـاح مشمئزة ، وتمسحه بقطعة من الصوف ترمي بها الى الأرض ، لتصبح « اريكتونيوس » ، الذى تربيه « أثينا » في غفلة من الآلهة ، املا في أن تجعله من الخالدين !

الحب والجمال صنوان لا ينفصلان

● **والاساطير** الاغريقية التي من هذا القبيل كثيرة ، ولكنا نكتفي بالأمثلة التي أوردناها ، لبيان مدى علاقة الجنس بالدين عند الاغريق القدامى ..

كذلك حفلت الأساطير التي تناقلتهـا الأجيـال عن الاله « أبولو » ـ اله النـور والشمس ـ بقصص غرامه بالغلمان والفتيان ، مما يبين أن طبيعة عشق الجنس الواحد متغلغلة في الحضارة الاغريقية ..

ونخلص من جميع هذه الأساطير بأن الحب والجمال كانا لدى الاغريق صنوين لا ينفصلان .. وهكذا نراهم قد اتخذوا « افروديت » ربة الحب وربة الربيع المشرق بأزهاره النضرة ووروده ورياحينه .. **وخلالهـا يستيقظ الحب ـ في مطلع الربيع ـ فتسمى خلال الغابات ، مزدانة بالزهور ، الى الحبيب**

.. ويبهر جمالها العارى حيوانات الغـــاب والجبل فتسير خلفها ، وتتزاوج فى نشوة الحب .. النشوة التى اعتبروهــا « احلى منحة من أفروديت الذهبية » !

وأشهر ما عرفت به « أفروديت » انها ربة الجمال الانثوى والحب . ومن ثم كان هم الشعراء والفنانين ، ان يؤثروها بكل حسن وفتنة .. ولم يقتصر بعض النحاتين ـ فيما نحتوا لها من تماثيل ـ على جمال الوجه والصدر والفخذين ، بل عنوا بجمال الظهر .. **وما عرف أن قوما غير الاغريق أقاموا معابد ، ورفعوا فيها تماثيل لربة من الربات ، ليمجدوا جزءا من جسم الانسان لم يحفل بتمجيده سواهم ، الا وهو : الردفين ! .. فكانت بلاد اليونان ـ باكملها ـ تعبـــد تمثـــال « أفروديت كاليبيجوس ـ ذات الردفين الجميلين » ! !**

وفى المتحف القومى بنابولى ، يتوسط حجرة صغيرة ـ فى الجناح الشرقى ، من الطابق الأرضى ـ تمثـــال للربة وهى فى ابهى صور العرى ، وقد التفتت برأسها الى الخلف ، تتأمل مفاتن ردفيها ، فى اغتباط وزهو !

وهكذا أبدع الفنانون الاغريق فى تصوير العرى المثير ، دون أن يتبذلوا فيصدموا الأعين المتأملة لتحفهم .. بل انهم فى ابداعهم يذهبون الى الدرجة التى تجعل الحب متعة يهفو اليها البشر والآلهة ـ فى معتقداتهم ـ بكل شوق وشغف !

« أفروديت » تشعل قلوب الرجال وتغوى النساء !

● **وتظهر** فى مخلفات الاغريق الحضــــارية ، شخصية **« باريس »** .. الشاب ذو الجمال البـــاهر ، الذى أوثر بكل مفاتن الجمال والشباب ، فلم يكن رجل حرب ، وانما كان رجلا ناعما ، طريا ، منحته « أفروديت » سلطانا على كل النساء . ومن ثم فعندما نزل على « مينيلاوس » ـ ملك اسبارطه ـ

ضيفا ، فتن « هيلين » زوجة الملك ، فتبعته الى (طروادة) ، مما ادى الى حروب اليمة .. **واستخلص الاغريق من هـذه القصة ، ان المرأة اذا افتتنت ، لا تحفل بما قد تجره من ويلات وأحزان على أقوام بأسرها ، فى سبيل الظفر بفاتنها وارضاء غرورهـا !**

وتجمع الأساطير على أن « أفروديت » ــ عنـدما تفرض سيادتها على قلوب الرجال ــ توقد فيهم لهيب الحب المتأجج الى درجة لا يملكون معها من أمور أنفسهم شيئا .. واذ ذاك ، تتحول الربة الى شيطانة ، فتغوى النساء بحيث يعجزن عن مقاومة الانسياق للشهوات ، برغم ادراكهن ما فى ذلك من شر وخطيئة . وهذا ما فعلته بهيلين حين هامت وراء « باريس » .

والمهم فى الأمر ، أن « أفروديت » لا تذكى رغبات الحب فحسب ، بل تعمل على اشباعها !.. ولم يكن الاغريق يخجلون من « نعم أفروديت العـذبة » ، كما وصف الشـعراء المتع الحسية للحب . ومن السهل أن نفهم هذا ، اذا ما عرفنا أن الانغمـاس فى ارضاء الجنس ، بلغ عنـدهم مبلغ الطقوس الدينية ، حتى لقد قام عندهم نوع من « البغاء الدينى » !

التفاح والريحان رسولا الغرام منذ القدم !

● **ولقد كان** الريحان والتفاح من مقدسات « أفروديت » ، يحملهما العشاق الى حبيباتهم ، أو يقذفونهن بهما للاعراب عن عواطفهم .. ولقد ترك الرسـام الاغريقى « كاتالس » لوحـة فاتنة لفتاة أرسل اليها حبيبها تفاحة ، فلم تر ــ وهى موزعة بين الفرح والاضطراب ــ سوى أن تضعها بين نهديهـا ، واذ تفاجئها أمها ــ فى خلوتها بنفسها ــ تقفز الفتاة واقفة ، واذا التفاحة تسقط من مكمنها وتشى بسرها .. وقد أبدع الفنان فى رسم حمرة الخجل على وجنتى العذراء !

ومن ثم نرى أن التفاحة من الرموز الجنسية عند الاغريق ، وذلك قبل أن يرد ذكرها فى « التوراة » كسبب لخروج آدم وحواء من الجنة ! .. ويرجع ذلك لديهم الى قصة « أكونتيوس » ، الذى أحب « سيديبى » دون أن تبادله الحب ، فكتب على تفاحة : « قسما بأرتيميس لأتزوجن أكونتيوس » ! .. وألقى اليها بالتفاحة ، فى معبد الربة « أرتيميس » ، فقرأت القسم بصوت عال . **واذ أدركت الخدعة الماكرة ـ اذ أن ماكتبه « أكونتيوس » بدا ، حين قراته بصوت مرتفع ، كأنه قسم منها هى ـ ألقت بالتفاحة مغضبة . بيد أنها لم تلبث أن مرضت ، وقالت لها العرافة ـ فى المعبد ـ ان مرضها نشأ عن غضب الربة ، لأنها أهانتها بمسلكها . ولم تجد « سيديبى » بدا من أن تقبل « أكونتيوس » زوجا !**

وهناك رواية أخرى ، ملخصها أن « اتلانتا » ـ الحسناء الحكيمة ـ أقسمت الا تتزوج الا ممن يستطيع أن يتفوق عليها فى السباق . ولما كان « ميلانيون » يهيم بها ، وقد توسل الى الربة « أفروديت » أن تساعده ، فان الربة أهدت اليه بتفاحات من الذهب ، نثرها فى طريق السباق ، فكانت « اتلانتا » تلتقطها ، وبذلك استطاع أن يسبقها .. وفاز بها !

حيوانات ذات طبيعة حسية لدى الاغريق !

● **وفى دنيا الحيوان :** نجد أن العنز والكبش والأرنب الجبلى والحمامة والعصفور ـ المعروف باسم « أبى فصادة » ـ كانت ذات علاقة بأفروديت . ففى (ايليس) أبدعت يدا الفنان « سكوپاس » تمثالا لأفروديت تمتطى عنزا . وكان من العادة الاحتفاظ بالحمام فى كثير من معابد « أفروديت » ، لاسيما فى قبرص وصقلية .. وكان الحمام يعتبر من رموز التفاؤل للأزواج .

وبوجـه عام ، كانت هذه الحيوانات ـ العـنز والكبش والأرنب والحمام والعصفور ـ تعتبر ذات طبيعة حسية .. أى شهوية ! وكان الاغريق يربطونها بالجنس دائما !

كذلك تأثر شكل الأله « هرمز » ـ كما صوره الاغريق ـ بأفكار جنسية ، وكثيرا ما توجد صورته مع « أفروديت » .. ولم يكن الفنانون يكفون عن تقديم صور تمثله فى أكمل نضج ، واقوى فتـوة .. على أن أبدع صـوره اطـلاقا ، هى تلك الموجودة فى (ڤيلا فارنيسينا) بروما ، اذ يبدو والحنان والرقة يفيضان من اساريره ، وقد مال نحو حورية عارية الا من غلالة رقيقة ، وقد أخذت احدى يديه تنضو الغلالة ، بينما راحت اليد الأخرى تداعب ثدى الحورية !

ربة القمر ترعى الحياة الجنسية للاناث !

● ومن ربات العشق ـ عنـد الاغريق ـ « ايوس » أو « اوروا » ، ربة الفجر ، التى تقول الأساطير ان يدها تمتـد فى الافق لتزيح الليل وتدفع الشمس .. ومن ثم فان الشفق الوردى ـ الذى يسبق الشروق ـ يبـدأ كأصابع رقيقة ، ثم ينتشر كراحة اليد !

كذلك تقول الأساطير ان ((ايوس)) جاءت نتيجة جمـاع بين ((أفروديت)) والاله ((اريس)) ، فورثت طبيعتها العاشقة عن امها .. فكانت تحب كل جميل ، لا سيما الشبان .. وكانت تستولى عنوة على من يثير مشاعرها من الشبان ، وقد اتخـذ هذا رمزا لاقتناص مباهج الحياة !

وللربة « سيلينى » أو « لونا » ـ ربة القمر ـ طبيعـة عاشقة هى الأخرى .. وقد نامت مرة فى أحضان « زيوس » ، فأنجبت منه « بانديا » الفاتنة ، التى هام بها الاله « بان » ، وظفر بحبها حين أهدى اليها قطيعا من الخراف البيضـاء

الصغيرة ! . . على أن أشهر غرامياتها ــ فى الأســاطير ــ هى مغامرتها مع الشاب الجميل « انديميون » ، الذى فاجأته الربة وهو نائم فى غابات التلال ــ فى (لاتموس) ــ وآثرته بعد ذلك بحبها ، فى كل ليلة .. وتفسر هذه الأسطورة بأنها رمز للنوم .. الموت المؤقت الذى يظل نور الحب الرقيق يتغلغل فى ظلمته !

ووفقا لأفكار الاغريق القدامى ، ترتبط الحياة الجنسية للاناث بالقمر « ارتباطا وثيقا » . ومن ثم فان كل الربات ذوات العلاقة بالقمر ــ مثل « هيرا » و « أرتيميس » و « أفروديت » و « أثينا » ــ تعتبر حاميات وراعيات للنســاء فى حياتهن الجنسية ، وفى الوضع والمخاض بالذات . وكانت للوضع ربة خاصة هى « ايليثيا » ــ ابنة « هيرا » ــ التى يعبر اسمها عن آلام المخاض .

« پان » : الاله الذى لا يرتوى من الحب !

● **وعلى ذكر** « پـان » ، نضيف انه كان « روح الــود والصداقة » فى الجبال ، وراعى القطعان وحاميهــا ، ورمز الطبيعة الوادعة المسالمة .. وكان الاغريق يصورونه بأقــدام كأقدام العنز ، وراس ذى قرنين كبيرين ولحية طويلة .. ومن ثم فهو أكثر اشتهارا بأنه « رب الماعز » .. يقفز ويتواثب فى التــلال المكسوة بالغابات ، تحف به الحوريات وهن يرقصن ويغنين ويعزفن الألحان .. فى الأوقات التى لا يرتشفن خلالها رحيق الحب فى أحضانه !

وتصور الأساطير « پان » على أنه لا يشبع ولا يرتوى من الحب .. وهناك أسطورة تقول انه هام حبا بالحورية « ايكو » ولكنها فضلت عليــه « نارسيسس » الفــاتن ، **حتى اذا لم تستطع أن تشبع رغبتها فيه ، أخذ جسمهــا يذوى رويدا ،**

حتى لم يعد يظهر منها سوى الصوت فقط .. ومن هنا اطلق اسمها على صدى الصوت ! اما « نارسيسس » فلم تستهوه سوى صورته على صفحة ماء جدول ، فظل يتأملها دون أن يملك لمسها أو اشباع غرامه بها ، فذوى جسمه هو الآخر ورق وشف ، حتى اتخذ شكل زهرة تنبت على ضفاف الجداول .. ومن هنا اطلق اسمه على زهرة « النرجس » !



هذه جولة سريعة لبيان العلاقة بين الجنس والدين ، فى الأساطير الاغريقية القديمة ــ وهى موجزة الى حد كبير ، لأن تناول هذا الموضوع بالاسهاب والتفصيل ، يتطلب كتبا عديدة المجلدات ..

على ان القدر الذى قدمناه ــ على ايجازه ــ كفيل بأن يبين للقراء مدى تشبع الدين والأساطير الدينية ــ لدى الاغريق القدامى ــ بالجنس .

وبهذا نختتم القسم الأول من البحث ، لنعنى فى القسم الثانى ــ بشىء من التفصيل ــ بعادات وطباع الاغريق الجنسية .. فنتناول حب الرجل للمرأة ، والعادة السرية ، والبغاء ، وعشق الذكر للذكر ، والشذوذ والانحرافات الجنسية ..



حب وصراع .. فى كمبوديا !

« بقية المنشور صفحة ٣٤ »

« لقد دعوتكم سيداتى وسادتى ، لأن العالم بحاجة الى ما اهتدت اليه كمبوديا ، الا وهو : الحياد الايجابى »

وانطلق يتحدث عما فى تعاليم بوذا من تعزيز للحياد الايجابى ، بين مقاطعات من الأمريكيين والانجليز و «مولتانى» ، ومحاولات من « مارى فاوست » و « داس » للتصدى لهم .. ففض « يولونج » الاجتماع حتى الساعة الرابعة والنصف.



● **قالت** سوميبون : « لعلنا جلبنا الحرب الباردة معنا ! » .. فقال چيون : « لعل هذا ما يعنيه يولونج سيراب . فهل بوسع الكتاب أن يكونوا ـ فى عالم اليوم ـ غير منحازين ، وأن يحكموا على الموضوعات بمزاياها ، فيتحملوا مسئولية أدبية ؟ .. هذا معناه التزام شامل ، فكأن الحياد يعنى عكسه ، لوجود المسئولية الأدبية ! » .. وكان المجلس يضم « داس » و « آدا تيمبرليك » و « أحمد فؤاد » و « جورج » ..

وقال « چيون » لسوميبون ، وقد لمح « مارى فاوست » ترمقه بنظرة ثاقبة : « انها ديكتاتورة بفطرتها ! » .. فردت قائلة : « ان ثقتها البالغة بنفسها ، تفعل فى الناس فعل التنويم المغناطيسى ، فكثيرون منا لا يثقون بأنفسهم ، ويتطلعون الى قيادة » !.. ثم أردفت : « هل يستطيع أحدكم أن ينبئنى : لماذا يتحاشى معظم الكتاب ـ فى الشرق والغرب ـ المشكلات الحقيقية الكبرى ؟.. مثل غضبة الشباب فى فرنسا وسواها ؟ » !. فأجاب داس : « **اننا ـ معشر الكتاب فى**

آسيا – ندرك ضرورة الواقعية فى الكتابة ، لأننا نخوض غمار ثورة . وحيث تحدث الانتفاضات والانقلابات ، فان الكاتب المتعمق يعانى الكثير ، اذ ان كل القيم تنقلب ، وتتحول الكتابة الى « ريبورتاجات » وتحقيقات صحفية ! » .. وعقب احمد فؤاد الباكستانى قائلا : « ان الكتاب – فى الغرب – لا يجرأون على مواجهة حتمية وجود ثورة مقبلة . اما فى الشرق ، فنحن فى خضم الثورة فعلا ، فلا نستطيع أن نرى وجهها الاجمالى ، بل نرى نواحى وقطاعات منها ! »

وعاد داس الى الحديث قائلا : « ان الزام الكاتب لا بد أن يخفق ، فلسنا نملك أن نلزمه بأن يكتب بوعى اجتماعى ومسئولية وواقعية ، اذا فرضنا عليه الأمر « يجبه » .. **ان معظم كتاب الثورات فى الصين وروسيا ، كانوا فى فترات بورجوازية ، وكانوا ثائرين على النظم السائدة فى مجتمعاتهم . أما فى فترات الثورات ذاتها .. فالثورة سيل جارف من الأحداث ، سيل سريع عارم ، لا يستطيع وعى الفرد أن يستوعبه فى مجموعه ، بل لا بد من أن تمر سنوات ، قبل أن تثمر العملية نتائج** .. ان الكتاب فى الثورات يتحولون الى صحفيين ، ولا بد أن ينتجوا لأن هناك طلبا على انتاجهم .. هناك جوع ذهنى ملح ، يستلزم منهم أن يرهقوا أنفسهم بحثا عن غذاء للأذهان .. ولكنهم – فى الوقت ذاته – لا يظفرون من الاحداث الا بناحية جزئية ، لأنها لم تستكمل النضج ، ولأن تغير الصرح الاجمالى لحياتنا – خلال الثورة – يتطلب فرض نظام ورقابة على الكتاب ، من أناس يرتابون فى كل « نقد » ويسمونه « رجعية » .. وتردد الكتاب بين ما يتاح لهم وما هو مطلوب منهم ، قد يخلق منهم « كتبة » لا « كتابا » ، ويخلق تناقضات بين العملية غير المحسوسة التى تدور فى أعماق كيان كل كاتب ، وبين التوتر الناشىء عن

دفعه لأن يصف أو يشعر بما لم يعرفه بعد ، ولم يشعر به فى قرارة عظامه وعضلاته واعصابه .. التوتر الناشىء عن اضطراره لأن يطرى ما لم يتبين بعد صحته وصدقه .. **تلك فترات محنة الكاتب . ثم تبدأ خطى الثورة فى التباطؤ ، وهى تسير نحو استكمال انتصارها ، فتعود الحكمة والتوازن والاستقرار ، ويباح النقد والسخرية ، ويتبخر المتطرفون والمتهوسون ، وتتسنى مناقشة الماضى .. وبعد الكفاح ، والدم ، والأخطاء ، يكون الانسان قد خطا خطوة الى الأمام ، فتتاح للأدب حياة جديدة .. غنية ! »**

وصاحت مارى فاوست فى ضيق وغضب : « هروبية !.. ان الموضوع الرئيسى أمامنا هو « مؤتمر الكتاب » ، ووجوب توجيهه الى الطريق الصحيحة ! »

وقال « جيون » لنفسه وهو يتأملها : جميلة ، ولكنها ضحلة التفكير .. أكثر ضحالة من « شيبيلا » التى يقابل ابتذال أذواقها أنها جريئة فى الغوص فى أعماق نفسها فتكشفها دون ما خوف !.. والتفتت اليه « شيبيلا » ــ فى اللحظة ذاتها ــ وقالت : « ما كنت أعرف أن مهمة الكاتب معقدة بهذا الشكل ! » .. فقال : « انها ليست معقدة ، ولكننا نعقدها بالشرح والنقاش .. هيا بنا نسبح ! »

وصعد الدرجات معها ، ثم وقف أمام باب حجرتها ــ ريثما تتخذ عدتها ــ وهو يخشى أن يفقدها .. وأقبل تشارلز مانلى ــ فى تلك الأثناء ــ فخيل اليه أن نظراته تنفذ الى أعماقه .. وقال له فى نفسه : « لن أضاجع ابنتك ، فاطمئن ! » .. ثم خاطبه قائلا : « سأذهب ومس مانلى للسباحة ! » .. **وخطر له ان بوسعه ان يتزوج ((شيبيلا)) ، فاستهوته الفكرة .. الى أن أخرجته ((شيبيلا)) من أحلامه ، اذ أطلت من وراء الباب قائلة : ((لن أستطيع مرافقتك ، فقد**

نسيت أمرا لابد من أدائه .. ولا أستطيع أن أحدثك به الآن ! » .. واغلقت الباب ، فظل برهة يحملق فيه ، وكانما كان تصرفها رفضا منها لفكرة الزواج التى لم يصارحها بها !.. وتحول الى حجرته ، فارتمى على السرير !

ولا بد انه نام ، اذ تراءى له « البايون » ، والوجوه الاربعة التى تحملق فى الاتجاهات الأربعة .. وأخذت الوجوه تدور ، فاذا بها وجوه : مارى فاوست ، وسوميبون ، واليزا .. أما الوجه الرابع ، فلم يكن قد نحت بعد !

ووصل « چيون » الى قاعة المؤتمر متأخرا ، بعد الظهر ، فاستقبله تشارلز مانلى بنظراته الثاقبة ، بينما صاحت مارى فاوست : « لقد تأخرت !.. أين شييلا ؟ »

وشعر بوجهه يتضرج ببطء ، وهو يقول : « لست أدرى ، فلم أرها بعد الغداء » .. وساد القاعة نقاش غير منظم ولا مثمر ، فنهض « داس » مع « چيون » و « آدا » يجوسون القاعة ، ومعهم شاب مفرط النحول ، شاحب الوجه ، ذو عينين عربيتين .. وتطلعت « مارى فاوست » للشاب ، وقالت فى مزيج من المهاجمة والاغراء : « من أنت ؟ » .. فتأملها الشاب فى استغراق ، وكانها شىء غريب . وقال داس : **« انها تجعلنى أشعر دائما كاننى لم أؤد ما ينبغى على ! » فقال العربى : « لعل مرجع هذا الى انك لم تتغلب بعد على عادة الانصياع للمستعمر ! » .. وهتفت « آدا » مقلدة صوت مارى : « انه الجنس ، ولا شىء غير الجنس يا بنى ! »** .

وقفزت « شيبلا » اذ ذاك الى ذهن « چيون » ، فساءل نفسه : لماذا أشعر نحوها بما أشعر ؟... انه ليس الجنس ، ولا كونها أوربية ؟.. اذن ، فلماذا ؟.. بينما كان العربى يقول لداس : **« انك تترجم الاحداث بتعبيرات الماضى ، اما انا فلا ماضى لى ، واجد الحاضر اصعب من ان اصوغه فى كلمات !.. لقد خضت حرب التحرير طيلة السنوات الثلاث**

الأخيرة ، ورأيت ما يجعل الكلمات جوفاء فارغة ، تقصر عن التعبير ! » .. وسأله « داس » عمن يكون ، فأجاب **« انني جزائري .. واسمي ابراهيم مالك ! »** .. فأشرقت أسارير داس ، وقال « كان صراعكم مجيداً .. »

وفي المساء ، أعلن مسيو « بوليه » — مدير الفندق — أن سمو الأمير سيهانوك وجه الدعوة الى أعضاء المؤتمر ، ليشتركوا في « العمل اليدوي » لتمهيد طريق جديد للسكك الحديدية ، في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي .

وصعد « چيون » السلم ، فلما بلغ باب « شييلا » ، هم بأن يطرقه ، واذا به يسمع صوتا — خلف الباب — يقول : « ليس هذا الرجل بالذات يا شييلا .. انني لم أعد أحتمل ، وسأضطر الى اجراء حاسم .. أي شخص سوى هذا المفكر الذي استهلكه التفكير ! » .. وارتفع صوت شييلا : **« ولكنني احبه يا أبي .. ما أحببت أحدا سواه »** !

وسأل « چيون » نفسه : من الذي أحبته شييلا ؟ .. أهو ليدريه ؟ .. كلا ، لقد قال أبوها انه مفكر .. اذن فلهذا اعتذرت الفتاة عن السباحة ؟ واذن فهذه نهاية حنانه ، والرغبة التي ساورته للزواج منها ؟ .. كانت تحب غيره !

● ●

● **وقفت** « اليزا » طويلا — بعد ظهر ذلك اليوم — بين أعمدة (انجكور) ، ليلتقط لها « بيتر » صوراً في مختلف الأوضاع .. وكان بينهما جو من التوتر ، فان علاقة « بيتر » بالفتى « تينو » تجاوزت كل ما يمكن أن تحتمله ..

وما ان أوصدت باب حجرتها — بعد عودتها الى الفندق — حتى برز لها من الشرفة شخص ، فصاحت فيه : « ماذا تريد هذه المرة ؟ .. ألم تأخذ علبة الشيكولاتة ؟ .. الا تدعني في سلام ؟ .. سأرحل غدا ! »

— لقد تركتك في سلام بسنوات .. لن ترحلي قبل

أسبوع ، فقد أحتاج اليك !.. من الخير إلا تفهمى ، فان الفهم خطر عليك !

وكان الليل قد هبط .. وفى مطعم صينى بسوق البلدة ، جلست شـيلا وچيـون وسوميبون وجورج واسـتارتى واوريون ، بين فواح الأطعمـة الشرقية .. وفجـأة قالت اوريون : « أؤكد لك يا أماه أنه كان من المقرر حدوث انقلاب هنا بعد غد ! » .. وحاولت « سوميبون » أن تسـفه كلام ابنتها ، بينما كانت « شيلا » تحتسى البيرة فى أستعذاب .

وما لبثوا أن لمحوا « اليزا » تجوس خلال السوق ، تتأمل المعروضات ، فى صحبة « تشارلز » و « ريجيه » .. وهتفت شيلا : « تأملوها ! انها تحمل حقيبة اليد الكبيرة ، التى كانت معها فى المؤتمر صباح اليوم ! » .. فقالت أستارتى : « ان تشبثها بالحقيبة يكاد يوحى بأنها تحمل فيها وليداً ميتا ! » .. فصاحت فيها سوميبون مؤنبة .. وفى اللحظة عينها ، وصـل « داس » و « آدا تيمبرليك » والشـاب الجزائرى « ابراهيم مالك » وظهر « كيلتون » فصاح بمرحه المعهود : « ها هو ذا مجتمع العقول .. أأنضم اليكم ؟ » ثم تحول يدعو لجمعيته .. « جمعية الصداقة والثقة » ، التى تعمل لتوطيد الصداقة والسلام بين الشرق والغرب .. وكان يتكلم بلهجـة المبشرين الأمريكيين ، غير مبـال ببعض التعليقات الساخرة . وما لبث « ريجيه » أن وافاهم مع « اليزا » . و « تشارلز » .. وعاد كيلتون يقول : « هل أنتظركم جميعا فى جمعيتى ، فى الساعة الثامنة والنصف ؟ » .. ولكن الجميع كانوا يعتزمون حضوز حفـلة فرقة « الباليـه » بين أطلال (انجكور) .. فقال كيلتون : « تعالوا ، وسننطلق جميعا من هناك الى الحفلة ! »

وقالت اوريون لاليزا : « عفوا يا سيدتى .. لماذا تحملين حقيبتك وكان فيها وليدا ميتا ؟! » .. وصرخت « سوميبون »

في ابنتها ، بينما نهضت « اليزا » وانصرفت بسرعة ، دون أن تنظر خلفها .. وحاول زوجها أن يعتذر بتعب أعصابها . وما لبث « ريجيه » أن استأذن للانصراف لعمل مهم . وضحكت « شيلا » فتطلع « تشارلز » اليها ، ثم الى « چيون » .. وعاد يشيح عنهما !

● ●

● **كان الأمير** « سيهانوك » — في تلك الأثناء — يتناول العشاء مع وفد اقتصادي أمريكي ، في فندق (سوبريم) . وراح « مولتاني » يحوم حول المكان ، وهو يتحسس صدر سترته وظهرها — من وقت لآخر — ويستشير ساعته في انتظار الثامنة والنصف .. فلما حانت ، غادر الفندق ، ووقف متسكعا للحظات ، واذا سيارة أجرة — لا تختلف عن مثيلاتها — تقف أمامه . فصعد اليها ، وقال بصوت مرتفع : « الى انجكور .. حفلة الباليه » !.. هكذا كانت تعليمات « كيلتون » !.. وانطلقت السيارة ، وحلقت به الأحلام عاليا !

وفجأة ، انحرفت السيارة عن الطريق ، وأقبلت على « فيلا » متوارية بين أشجار حديقة تناثرت في أرجائها أحواض الزهور .. وهبط « مولتاني » ، فاقتيد الى بهو حجبت ستائر حريرية أضواءه عن الخارج .. وما لبث أن وجد نفسه يساق الى حضرة الجنرال « قام بارونج » ، حاكم اقليم (سييمرياب) ، الذي حف به حرس مدججون بالأسلحة ..

ورحب به الجنرال ، فقال مولتاني : « بلغني أن سعادتكم متوعك المزاج ! »

— بل انني مريض .. فقد ارتفعت نسبة السكر في البول ، وطار طبيبي الخاص من (فيينا) ليفحص حالي ..

وبينما كان الجنرال يتحدث عن أهميته وأمجاده ، أخذ المحيطون به يتسللون منصرفين . ثم أقبل خادم ، فركع على ركبتيه يقدم الشمبانيا .. وبدأ « مولتاني » يتحسس صدر

سترته ، وغينا الجنرال لا تتحولان عنه . ومالبث هذا أن قال : « ان الجو حـــار ، فهات سترتك ! » .. وتقـــدم خادمان ليأخذاها . ولكن الجنرال نهض بنفسه ، وتناولها من ضيفه ، ثم غاب بها فى حجرة جانبية .. وعندما عاد ، قال له :

ـ قل لأصدقائك أن ثقتهم فى محلهـــا .. واننى أتوقع مزيدا من هذه الزيارات .. أتفهمنى ؟

وغادر مولتـــانى « الفيـــلا » ، فاستقل السيارة ، التى انحرفت به يمينا ، نحو أطلال (انجكور) .. وفجأة ، رأى ـ على أضواء مقدمة السيارة ـ امرأة أشارت الى السائق ، وسألته أن يرشدها الى « فيلا » الجنرال « فام بارونج » .. وأطل « مولتانى » ، فاذا بها « ميبل ديسبير » ..

وكانت « ميبل » ـ قبل أن تبرح الفندق ـ قد تسللت الى حجرة الطيـــار « ليـــدريه » ، الذى كان قد عـــاد من (بنوم بنه) ، تسأله ان يحمل منها رسالة الى زوجها ، عنـــد سفره الى (بانجكوك) فى اليوم التالى .

وما ان انصرفت ((ميبـــل)) ، حتى اقبـــل شخص كان يختبىء فى الحمام ، وقال للطيار : ((إعطنى هذا الخطاب !)) .. وتناوله ففضه وقرأه ، ثم أعاده الى المظروف .. وقال ليدريه : ((أى ضير فى رسالة من امرأة مسكينة الى زوجها ؟))

ـ لا نستطيع المجازفة ، ونحن مضطرون لمراقبـــة هذه المرأة وزوجها ، فقد نستغلهما فى شبكتنا دون أن يفطنا ..



● قال مسيو ديروليد : « لقد وصلت بطـــائرة الساعة السابعة صباحا من بنوم بنه ، وأفرد لى « بوليه » حجرة .. كيف حال صديقى ريجيه ؟ » .. فقال لى ســـوفان : « انه اصطحب مستر ومدام مانلى ليتناولوا الطعام فى السوق » .

وراقب الرجل « جان ديروليد » ، وهو يسير الى قاعـــة

الطعام .. كان مزارعا ، ومن اغنى أثرياء كمبوديا .. وكان قد أنقذ حياة « لى سوفان » مرة ، أثناء الاحتلال الياباني ..

وفى تلك الأثناء ، كان مطعم السوق قد خلا الا من « آدا تيمبرليك » ، و « ابراهيم مالك » و « داس » .. اذ ذهب الآخرون الى حفلة الرقص . فقالت السيدة :

ـ لنستعرض الموقف اجمالا .. اثناء جولة فى الشرق الأوسط ـ منذ عامين ـ اكتشفت مصادفة حركة تهريب المخدرات ، من المنطقة الحرام ـ بين بورما وتايلاند ولاوس ـ الى بانجكوك ، وهونج كونج ، وسنغافورة ، والشرق الأوسط .. ثم الى اوربا وأمريكا . انها حركة لها طرق معينة ، ومصارف ، ومديرون ، وخط طيران « ايرافيون » .. انها اكبر احتكار على أحدث النظم ، فى جنوب شرقى آسيا ، يعمل بأقل رأس مال ، وأقل نفقات ، وأضخم أرباح .. **والعصابة ـ اقصد مديرى الحركة ـ من الشخصيات الراقية المثقفة ، ويعيشون فى برمودا ، والريفييرا ، ونيويورك ، ويعمل معهم بعض السياسيين الاسيويين الذين تساندهم الدول الغربية.. والدخل يستغل لتمويل اى شىء .. انه عصب الحروب المحلية ، كحرب لاوس .. انها حرب افيون يستغلها رجال ذوو نفوذ ؛ وجنرالات ـ فى العصابة ـ لتمويل مطامعهم !**

« وهناك محطات تجميع ، وقرى تحت نفوذهم يتم فيها تصنيع الأفيون ونقله تحت ستار مشروعات « المعونة » الامريكية .. وهناك طائرات و « هليكوبترات » تهبط فى أماكن من الوديان لتنقل الأفيون ، ويتقاضى طياروها مرتبات ضخمة ، ومكافآت سخية .. وهم من رجال سلاح الطيران الفرنسى السابقين ، الذين يعرفون كل شبر فى المنطقة » .

وقاطعها ابراهيم مالك قائلا : « تماما كجماعة المقاومة الذين عارضوا استقلال الجزائر ، وحاولوا ارهاب ديجول ! »

ـ تماما . وان كانت هذه الجماعة الفرنسية لم تنشط

فى حـركة التهـريب الا مؤخرا ، مع أن معظم الطيـارين من انصـارها . ولعل ذلك كان راجعـا الى منافسـة المخابرات الامريكية لها .. والى عهد قريب جدا ، كان الموكل بمكافحة المخدرات فى دولة أسيوية موالية للغرب ، عضوا بمجلس ادارة العصابة ، وعلى علاقة ودية بالمخابرات الأمريكية .. كما كان قريبا لمحافظ هذه المقاطعة ، الجنرال قام بارونج .

وعقب ابراهيم مالك قائلا : « هذا الكبير الذى تعنينـه مات أخيرا . كما أن كبار رجال المخابرات الامريكية هنا اقصوا عن مناصبهم ؛ فاختلت أعمـال العصـابة مؤقتا ، مما اتاح للمنظمـة الفرنسية دخول الميدان .. ولها أنصـار بين كبار رجال الأعمال الفرنسيين فيما كان يعرف بالهند الصينية . فان هؤلاء نزحـوا الى كمبوديا ـ بعد (ديان بيـان فو) ـ ومعظمهم من ڤيتنام ، لأنهم لم يقووا على مزاحمة الأمريكيين ، ولان حرب العصـابات قامت . **والصراع حاد بين فرنسا وأمريكا من أجل المصالح . وكما حدث فى الجزائر انضم كثير من فرنسيى المستعمرات السابقة وضباط الجيش الفرنسى الى الشبكة الدولية التابعة لمنظمة المقاومة ضـد الديجولية .** وقد استولت الشبكة على حركة تهريب المخدرات فى آسيا . وفى كمبوديا شخص يدير العملية فى الخفاء . وتستخدم الشبكة أناس أبرياء ، يحملون المخدرات دون أن يدروا » !

وقالت آدا : « مثل شييلا ! » .. فقال داس : « أجل . أعطاها شخص من بانجكوك ـ حين استقلت الطائرة الى هنا ـ علبة شيكولاتة » .. فقال الجزائرى : « **وكانت كل قطعـة تضم قرصا من الهيروين ، مما يجعل قيمـة العلبة ٢٥٠٠٠ جنيه استرلينى . ولم تصل العلبة الى الشخص المقصود ، الذى كان من عملاء الجنرال قام بارونج ، بل ان العلبة التى سلمتهـا « شـييلا » احتوت على شيكولاتة حقيقية .. فهل اكتشفت شييلا الهيروين ، أم ان شخصا من عملاء الشبكة**

الفرنسية بدل العلبة دون أن تدرى ؟.. أعتقد أن الافتراض الأخير هو الأصح ! »

قالت آدا : « أن شيلا فى خطر ، من العصابة ومن المنظمة .. من حسن الحظ انك اتصلت بنا فى وقت مناسب » .



● **استلقت** « اليزا » على فراشها مضطربة ، ثم طلبت « بيتر آمنستى » تليفونيا ، فقيل لها أنه فى حفلة الرقص ، وأن مسيو « ريجيه » ينتظرها فى بهو الفندق .. وغشيها خوف غريب ، ثم تمالكت نفسها وهبطت اليه .

وكان « ديروليد » قد لمح « ريجيه » فاقترب منه يحييه ويجاذبه الحديث حتى وصلت « اليزا » ، فقدمه اليها « ريجيه » . وما لبث « ديروليد » أن استأذن ، على موعد مع « ريجيه » فى الصباح التالى ، فى المتحف .

وقال ريجيه بعد انصرافه : « لقد أسرعت بالحضور حين رايت مدى استيائك » فقالت اليزا : « **الواقع أن كلمات الطفلة أثارت حزنى ، فانى فقدت طفلا وليدا !.. أرجو أن تنسى ما حدث . الواقع اننى احمل كل مجوهراتى فى هذه الحقيبة ، لأننى شديدة الخوف من السرقة ! »**

وكان الأصدقاء الآخرون قد انصاعوا لالحاح « كيلتون » فذهبوا الى حفلته .. كانت ثمة فتاة هزيلة القوام ، ذات نظارة ، تعزف على « البيانو » بيدين كيدى الرجل . وراحت « شيلا » تغنى وتصفق وتضحك كطفلة ، ففاض حنان « چيون » .. وكان ثمة عدد من الصينيين اليافعين ، وثلاثة من الكمبوديين مع زوجاتهم .. واحضرت « ميزى » – عازفة البيانو – علبة شيكولاتة ، قدمتها الى الحضور ، فهتفت شيلا : « أراك تحصل على الشيكولاتة من بانجكوك يا مستر كيلتون » .. فقال : « الواقع أن البريد حملها الينا اليوم ،

هدية من شخص مجهول ! » .. كانت العلبة تشبه تلك التى حملتها شييلا من (بانجكوك) !!

يوم الثلاثاء :

● **دبت** الحركة فى فندق (سوبريم) منذ ساعة مبكرة ، وقد تأهب النزلاء لتلبية دعوة الأمير « سيهانوك » للمشاركة فى تمهيد الأرض لمد السكك الحديدية ، فارتدوا أقدم ثيابهم .

واقبلت سوميبون وزوجها وابنتاها ، تصحبهم « شييلا » التى حملت الطفل الصغير — ابن سوميبون — فى ابتهاج الصبية بدمية جميلة .. واتجه اليها « چيون » وقد نسى كل من كانوا حولهما ، فقالت : « ان الصغير متوعك اليوم ، وسأبقى به قليلا ، ثم الحق بكم ! »

وفى منطقة المشروع ، احتشد أكثر من خمسة آلاف ، من رجال ونساء وأطفال ، ومن مواطنين وضيوف إجانب .. حتى راقصات فرقة « الباليه » الملكية ، وحتى الراهبات البوذيات .. وكان المرح يسود الجميع . وما لبث أن أقبل الأمير « سيهانوك » بنفسه ، فى طائرة « هليكوبتر » ، فلما هبط ، تدافع الكبار والصغار من أبناء شعبه حوله ، فأخذ يحييهم ويداعبهم ..

واقبل الجميع — رجالا ونساء ، وزراء وقادة ومغمورين — يخوضون حفاة فى حقول الأرز الموحلة ، يمهدون عرض الطريق الذى ستمد عليه القضبان الحديدية .. واخذ الأمير يعمل معهم ، مما اذكى روح « چيون » وتشارلز وجورج ، وألهب حميتهم .. وارتفعت الموسيقى والأغانى فى الجو ، تتخللها الصيحات والضحكات .. وما لبثت « سوميبون » أن تعبت ، فجلست على حافة الطريق ، ولحق بها « چيون » ..

واقترب اذا ذاك قس من « الجيزويت » يسأل عن جورج ، فأرشدته سوميبون اليه ، ثم قالت بعد انصرافه : « انه الاب أودوديه .. ترى لماذا يريد جورج ؟ » .. وسرعان ما عاد القس برفقة جورج ، الذى ذكر لزوجته انه ذاهب لاحضار « شييلا » والطفل ، مصاحبا القس .



● سار « چيون » الى حيث كان « يولونج سيراب » ، فبادره هذا قائلا : « ان الماضى – فى يقينى – يعود فى أوقات .. ولقد التقيت واياك فى الماضى ! » .. والبوذيون يؤمنون بتناسخ الأرواح ، وقد أحس « چيون » فجأة بأنه شهد مثل هذا المنظر من قبل .. فقد رأى فى أحلامه انه كان بين العمال الذين شيدوا (انجكور) .. وجعله غناء الفلاحين – الذين كانوا يساهمون فى تمهيد الطريق – يتمثل مرأى العمل فى (انجكور) ، فشعر كأنه يحيا فى أفقين مختلفين فى آن واحد .. وكان صوت « يولونج سيراب » ينبعث عذبا ، مغريا : **« كنت راهبا فى انجكور ، قبل اكتمال بنيان (البايون) .. أسبح على أجنحة الزمن الى الماضى .. كنا متعارفين منذ سبعمائة سنة ، واعتقد اننا التقينا الآن لغرض ، فهناك شر يدبر .. ان « شييلا » فى خطر ، وعليك حمايتها .. لا لانك تحبها ، وانما لتكفر عن الماضى .. فهى قد ماتت منذ قرون بسببى وبسببى ، فعلينا حمايتها الآن ، لنصلح الماضى ! »**

وكان « چيون » يصغى مشدوها ، ثم تساءل عن الخطر الذى يهدد شييلا .. وجاءه الجواب : « لست أعرفه بعد . تذكر أن الحافز الصائب والنية السليمة ، هما أهم الأمور . لا تنس هذا ! » .. ولمح « چيون » الفتاة تهبط من سيارة مع جورج . ولمحته هى فلوحت له . وسبقه قلبه اليها .. ظل « **چيون** » ممسكا بيد « شييلا » طيلة طريق

العودة .. ووجدا « اليزا » تجلس فى ــ بهو الفنــدق ــ مع « ليدريه » ، ورجل مليح ، عريض الكتفين ، نحيل الخصر ، لم يكن « چيون » قد رآه من قبل ، فقدمته « اليزا » اليه .. ذلك كان مسيو « ديروليد » . واتجه « چيون » والفتاة نحو السلم ، ليصعدا الى حجرتيهما فيغتسلا ويستبدلا ثيابهما..

وقالت شيبيلا : « هل لاحظت أن اليزا مكفهرة المحيا ؟! »

وراح الجميع يرقصون ــ فى ذلك المساء ــ فى الفندق ، الا « چيون » ، فقــد أخــذ يرقب « شــيبيلا » وهى تراقص « ديروليد » ــ معظم الوقت ــ فشعر بأنه يكرهها ، ويكره نفسه ، ويكره « ديروليد » .. وأسرف فى تناول الويسكى ، كأسا بعد كأس ، وهو يدرك أن سنه لم تعد تسمح له بالافراط فى الخمر .. **ولكنه كان يشعر بانه قد ضــاع ، اذ ثقل عليه الاحســاس بالعمــر ، وادرك انه لم يعد يستطيع أن يتقــدم فينتزع « شيبيلا » من ذراعى « ديروليد » ويدور بها المكان رقصا دون كلل !**

وأقبلت مارى فاوست تقول : « لا أثر لسكرتيرتى . لقد تركت حقيبتها ، ولكن جــواز ســفرها وحقيبــة يدها غير موجودين ، فلابد أنها رحلت .. لقد أوفدتها مساء أمس للقاء شخصية كبيرة ، فاما أنها سافرت دون اذن منى ، واما أن حادثا أصابها ! » .. وسألها داس : « الى من أوفدتها ؟ » .

ــ الى الجنرال ڤام بارونج ، محافظ الاقليم . ولقــد اتصلت بقصره تليفونيا ، فقيل انه لا يقابل أحدا لأنه مريض .. وقال ياوره انه لم يســمع قط بسكرتيرتى .. لابد أنها عادت لزوجها .. بالسيارة ان لم تكن بالطائرة !

وانسحب « چيون » الى حجرته ، وهو يشــعر بسخط على « شيبيلا » ، فاطفــأ النــور ، وارتمى على فراشــه .. ونام !

● قال ريجيـــه لكيلتون : « لا بد من ان اجد الشيء المفقود ! » .. فالتفت الرجل الى ليدى آدا ، قائلا : « انه يعتقد أنني سرقت احدى تحفه الأثرية .. انهم دائما يلقون اللوم على الامريكيين ! » .. وهز « ريجيه » كتفيه ، ونهض مبتعدا . وفى اللحظة عينها ، اقبل « مولتانى » على كيلتون ، وصاح : « اسمع ، لقد ضاع ! » .. والتفت « ريجيه » ، فراى كيلتون ينقض على مولتانى . وبسرعة دس اصبعين فى فمه ، وارسل صفيرا حـادا .. وانقض رجال من الكمبوديين ، من كافة ارجـاء القاعة .. وسرعان ما كانت الأغلال حول معصمى كيلتون ، ومعصمى مولتانى !

وقالت مارى فاوست : « ماذا فى الامر ؟ » .. فقال ليدريه : « اظن ان ريجيه يرتاب فى ان كيلتون سرق تحفة أثرية .. ولعل لمولتانى يدا ! »

ودعاها « ديروليد » للرقص ، ولكنها اعرضت فى خشونة .. وكانت « شييلا » تقول : « سرقها كيلتون واعطاها لمولتانى ، الذى اخفاها فى حقيبة آلة التصوير .. وها هى ذى سرقت منه ! » .. فقال ديروليد : « انك بارعة فى الأبحاث الجنائية » !.. فصاحت : « بل لى عينان تلاحظان .. كما حدث لعلب الشيكولاتة ! »

وتحول « ديروليد » الى مارى فاوست مرة اخرى .. وفى هذه المرة ، نهضت تراقصه فى شمم وتعال !



● استيقظ « جيون » فاذا ضوء القمر يغمر الحجرة ، و « شييلا » تقف بجـــوار سريره . ورفع الكلة (الناموسية) ، وقال : « ما كان ينبغى ... »

كانت الساعة الثانية صباحا ، والموسيقى لا تزال تنبعث فى الفندق .. وجلست امامه نضرة ، متالقة ، وفى يدها الكاس التى قدمها لها .. وقالت : « جئت آخبرك أن آليزا متورطة فى امر ، ولا بد ان أعرفه !.. هل تتذكر قول أوريون انها تتشبث بحقيبتها وكان فيها وليدا ميتا !.. هناك أمور كثيرة تجرى هنا فى الخفاء . ولست غبية كما يظنني الكثيرون !.. كان عبير اليزا فى حجرتى .. »

لكم لام « جيون » نفسه ـ فيما بعد ـ لانه لم يصغ الى حديثها .. فقد تولاه شبق غريب ، لا عهد له به !.. انها ضاجعت ليدريه ، وربمـا ديروليـد ، وكثيرين غيرهما ، فلم لا يكون له نصيب ؟.. وكانت ماضية فى حديثها : « لقد نسفت اليزا شبابى .. كانت امى اختها .. لو اننى اهتديت لخيط واحد ، لتجلى كل شيء .. اننى اتمنى احيانا ان اغدو

راهبة ، ولكنى ـ فى كل مرة ـ اذهب الى فراش رجل .. غير اننى اعرف كل ما يجرى .. كموضـــوع علبة الشـيكولاتة ! .. ولكنك تضيق بى ، ولا تصغى الى ... » !

وانخرطت فجأة فى البكاء .. وحاول أن يواسيها ، فصاحت : « انك عديم الانسانية .. كل ما تهتم به هو عفتك واستقامتك ! »

وكان يدرك ان قولها صحيح ، فزاده هذا هياجا .. ودفعهـــا الى السرير ، وفى اعماقه صوت يهتف داعيا الله الا يدعه يحقق ما كان يبغى .. وكانت « شييلا » تئن ، وهى موزعة بين محاولة صده عنها ، وبين اشتهاء ما كان يعتزم .. وخيل اليه انه استرد فحولته ، ولكن صوتا كان يهمس فى أذنيه بالرثاء .. وكانما فى اعماقه نفس أخرى أدركت ان شرا يرتكب !

يوم الأربعاء :

● استيقظ « چيون » والشعور بالاثم يثقل ضميره ، وعبير « شييلا » على يديه .. وكانت الشمس قد اشرقت ، والساعة تجاوزت الثامنة . وشعر للقهوة بمرارة فى حلقه .. كل شىء اصبح يتعبه ، حتى عضلاته كانت متيبسة ، فقد نسى حكم السن على الجسم .. واخذ طيف « شـــييلا » يتراءى له كفهد اسود يريد ان يمزقه !.. ما اقسى نهوضها فى صمت بارد ، بعد تصرفه ، وخروجها دون أن تنظر اليه !

وكانت امتعة الراحلين تملأ بهو الفندق .. وسار چيون وتشارلز الى خارج المبنى ، فاذا الأب يلقى نظرة قلقة نحو النـــوافذ .. كانت نافذة « شييلا » هى الثالثة الى اليسار ، وكانت لا تزال مغلقة !.. وسارا الى حديقة المتحف ـ الذى كان يقع فى مواجهة الفندق ـ فلمحهما « ريجيه » من نافذة مسكنه الملحق بالمتحف ، ودعاهما الى تناول القهوة معه .. وقال : « لعلكما سمعتما بالفضيحة . لقد افرجوا عن كيلتون ومولتانى فى الحال .. سأسافر الى (بنوم بنه) لاثير المسألة !.. ان محرك الطائرة ـ الذاهبـة الى هناك ـ اصيب بعطب ، وقد تبقى يوما ريثما تصل قطعة غيـــار من بانجكوك . لذلك سأسافر بالســـيارة .. انها تستغرق خمس ساعات او ستا ! »

وسأله تشارلز عن جلية الأمر ، فقال : « لقد عثرنا فى حفائرنا اخيرا على حزام نادر من الذهب الرقيق ، المنقوش بالحفر ، طوله حوالى خمس وثلاثين بوصة .. وهو يحمل أجمل النقوش المنحوتة فى الذهب ، ويرجع

عهده الى القرن التاسع ، وتساوى قيمته رقما خياليا !.. وانى لواثق من ان كيلتون سرقه . فعندنا شاب وقع فى هوى احدى فتيات جمعية كيلتون .. وكيلتون اغرى الشباب بسرقة الحزام الثمين ، وحمله اليه .. ولقد تزوج الفتى والفتاة ــ بعد ذلك ــ وافضيا لى بالقصة .. وانتهزت الفرصة ليلة امس ، ولكن لكيلتون أصدقاء فى مراكز رفيعة .. ولكن لى اصدقائى أنا الآخر ، وساصطحب العروسين الى (بنوم بنه) لكى لا يصابا بسوء اذا شهدا بما جرى ! »

وود « چيون » ــ فى طريق العودة ــ أن يقول لتشارلز : « اننى احب ابنتك واريد ان أتزوجها ! » .. ولكنه ظل صامتا . حتى اذا بلغا الفندق ، انتظر حتى غاب تشارلز فى حجرته ، ثم اخذ يطرق باب « شيلا » .. ولكنه لم يتلق ردا .



● قال ليدريه لريجيه : « أتذهب الى بنوم بنه لتبلغ عن السرقة ؟.. اسمع ، كلانا فرنسيان ووطنيان ، وقد راينا اسم فرنسا ومجدها يمرغان فى الوحل .. »

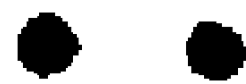
وكان ريجيه يصغى فى تكلف وحذر ، فقال : « لقد كنا اغبياء .. اهذا حوار سياسى ؟ » .. فأجاب ليدريه : « كلا . انما اريد أن اعرف آراءك وما تؤمن به » .. وكان جواب ريجيه : « لست اؤمن بالمجد ، انما اؤمن بالبشر .. وبالمساواة والاخوة والحرية للغير ولنفسى .. ان الحرية لم تكن من الاشياء التى اعطيناها للاسيويين ! »

ــ وفرنسا ؟.. فرنسا الغد ؟.. اننا لسنا وحدنا ، وقد آن أن نضع حدا لهوانها فى كل مكان ..

فأجاب ريجيه : « اننى مع العدالة . فلنكف عن أن ننظر الى الخلف ! » .. وفى بطء ، راح ليدريه يقول : « اننا اقوياء .. وهنا فى كمبوديا نحن اقوياء ، ولن نسمح بان تمرغ فرنسا فى الوحل ثانية !.. واذا لم تفكر كما نفكر ، فاحرص على أن تفعل ما نسالك فعله ! »

ــ اننى ارفض .. ماذا غيرك فجاة يا ليدريه ؟.. ما عهدتك هكذا ! هل تسلط عليك شخص ما ، ووعدك بوعود ؟.. انها لعبة خطرة !

ــ اننى وجدت نفسى ، وقدرى .. قدر فرنسا !.. هل ترفض ان تساعدنا ؟.. ان لنا أسلوبا مع الخائنين !



● كان « چيون » يجلس شارد البال ، يتامل الوجوه حوله ، بينما كان « يولونج سيراب » يلقى خطابه فى مؤتمر الكتاب ، عن البوذية

والحياد . وما لبث « چيون » أن تسلل الى حجرة « شييلا » .

كانت الحجرة مظلمــة حـارة ، و « شـييلا » فى كامل ثيابهـا .. وهتف : « لا احتمل أن تكون العلاقة بيننا هكذا يا شييلا .. ارجوك ، اننى أريد أن اتبين الحقيقة » .. فصاحت بصوت مرتفع : « لماذا ؟.. انت تحبنى ؟ » .. وقلبت شفتها اشمئزازا عند ذكر الحب ، ثم ضحكت قائلة : « ارجوك أن تنصرف ، ولا تزعجنى ! »

وكان الاجتماع قد انفض ، فانطلقت : « آدا » و « داس » يبحثان عن « چيون » .. ووجداه يغادر حجرة « شييلا » ، فاصطحباه الى قاعة الجلوس .. وبينما كانوا فى انتظار اقداح الشاى ، قال داس : « حان الوقت للحديث اليك .. بصدد شييلا ! » . فقال فى أسى : « انها تابى ان تكون بيننا اية علاقة ! »

وقالت آدا : « اهذا بسبب ليلة امس ؟ » .. فتطلع بقنوط ، وقال : « كل امرىء فى هذا الفندق يعرف كل ما يجرى ! »

قال داس : « اصغ الى .. هناك مؤامرة سياسة ، ولا بد انك تعرف ان حياد كمبوديا يثير اعصاب فريق من الناس .. هناك عملاء يتكسبون عيشهم من اثارة القلاقل .. انظر الى لاوس ! هناك حرب حقيقية ، ولكن الذى يهمنا ـ ويهم صديقنا الجزائرى بالذات ـ هى الناحيــة المتعلقة بالمخدرات . وقد كان على « شييلا » أن تنقل صندوق شيكولاتة .. به ما قيمته خمسة وعشرون الف جنيه استرلينى من الهيروين ، من بانجكوك الى هنا . ولكن الصندوق اختفى . ونعتقد ان منظمة الفرنسيين السرية استولت عليه . فحيث يوجد فرنسيون ، يوجد أنصار لها !.. ورأينا ان ننبه شييلا .. ونحميها ! » .

وبدأت الكلمات تنتظم صورة فى ذهن « چيون » .. أجل ، تحدثت « شييلا » عن صندوق شيكولاتة .. وفى جمعية كيلتون . ولقد انذره « يولونج » بأنها مهــددة . وحاولت هى أن تكلمه ـ ليلة أمس ـ فلم يصغ لقولها !

وقالت آدا : « انها فتاة جميلة ، بريئة .. لم يعتن أحد بها ، فضلت الطريق .. ولكن تورطها الآن جريمة ، قد تودى بحياتها ! »

وقال چيون لنفسه : « أنا الآخر قتلتها ! » .. واندفع الى حجرتها ، وراح يناديها .. ولكن الباب كان مفتوحا ، ولم تكن بداخل الحجرة ..



● كانت القرية صغيرة ، تقوم فى نهاية طريق متعرج .. وفى طرفهـا الأقصى معبد صغير ، على منصة حجرية ، بجوار أطلال معبد قديم ..

وعلى مقربة ، قام بيت ((يولونج ميراب)) المشيد من الخشب . وامام المعبد ، جلس تشـــارلز مانلى مع الأمير الكاهن ، الذى كان يقول له : ((ستاتى ابنتك الى هنا .. لا بد أن نشفيها . كلاكما مريضان ، ينخركما الحقد والألم !.. هناك خطر ، وچيون يحب الفتاة !)) .. فقال تشارلز : ((انه آذاها ، كما فعل سواه .. بل ان ايذاءه اشد ، لأنها تحبه .. وهو فى الاربعين ، وهى فى الحادية والعشرين !))

ــ وا اسفاه ، اذ يكرر الماضى نفسه !.. لقد خلط چيون حركة الجسم بشعور الحب . ان ابنتك ستاتى ، فلننتظرها !

فى تلك الأثناء ، كان ((ديروليد)) يلج حديقة المتحف .. ووجد ريجيه يجلس الى عجلة قيادة سيارته ، فصاح : ((يبدو أننى لحقت بك فى اللحظة المناسبة يا صديقى .. ما من طائرة اليوم الى (بنوم بنه) ، كما أن الخط التليفونى مختل ، فهل تحمل رسالة منى الى زوجتى ؟))

وكانت ((سوميبون)) ــ فى تلك اللحظة ــ تبدى لزوجها دهشتها من التآلف الذى دب بين ((مارى فاوست)) و ((ديروليد)) .. وقال جورج : ((هناك أمر واحد لم نشغل به .. ميبل ديسيبر . ماذا جرى لها ؟))

وكان ((يولونج)) يحدث ((تشارلز)) عن عودة الماضى .. ثم قال : ((لا يقوى على انقاذ شييلا سوى چيون ، فكف عن كراهيتك اياه !.. اننى وچيون قتلنا ((شييلا)) فى الماضى ، عندما لم تكن ((شييلا)) .. چيون قتلها غيرة ، وانا قتلتها عن حب .. كنت اخا غير شقيق لها ــ اذ ذاك ــ وقد احببتها اكثر من حب الأخوة ، ولكن كتمت شعورى ، حتى عن نفسى .. وكانت متزوجة من رجل يفوق اباها سنا ، واتخذت من ((چيون)) عشيقا .. وقد قتلناها باسم الفضيلة !))

واقبل ــ فى تلك اللحظة ــ ((چيون)) ، فقال الكمبودى : ((لا شك فى ان شييلا قادمة !)) .. وصاح چيون : ((شييلا رحلت .. مع ريجيه !))

والتفت ((چيون)) الى تشارلز ، فاذا وجهه مكفهر ، ويده على صدره . فقال له : ((هل كنت تعلم بأن ابنتك فى خطر ؟.. وانها متورطة فى تهريب المخـدرات ؟))

ولم يجب تشارلز .. بل ترنح وانكفأ على وجهه !

وكان ((چيون)) قد ذهب للمتحف يسال عن ((ريجيه)) ، فقيل له انه مسافر الى (بنوم بنه) بالسيارة . وقاده خادم الى المكتب الخاص لأمين الآثار ، ليطلعه على عناوين الأماكن التى يستطيع العثور على ((ريجيه)) فيها ، حين يكون فى العاصمة . ولاحظ ((چيون)) مظروفا على الأرض ، فالتقطه ــ بحركة تلقائية ــ ووضعه على صفحة النشاف ، على المكتب ..

وانصرف الى الفندق ، وهو ساخط علي « شيبيلا » ، اذ اوحى اليها الجنون أن ترحل مع « ريجيه » .. اذن ، فهو الرجل الذى كانت تحبه ؟.. وما ان بلغ الفندق ، حتى سال « لى سوفان » ان يستدعى سيارة اجرة لنقله الى (بنوم بنه) !

وكانت « اليزا » ـ فى تلك الأثنـــاء ـ تستحث « بيتر آنستى » ان يتعجل التقاط صور لها عند (البايون) ، وتحت الوجوه الأربعة ، فى مختلف الأوضاع والأزياء ..



● اخلد نزلاء الفندق الى القيلولة ـ بعد الغداء ـ اللهم الا « مارى فاوست » التى وقفت فى مخدعها ، تتامل صورتها فى المرآة ، وتبدل ثيابها ، وهى تشم عبير سيجار الرجل ـ الذى كان ينتظرها فى حجرة الجلوس الملحقة بالمخدع ـ ممتزجا بالعطر الذى سكبته بين ثدييها .. ذلك لان الانفعال الجنسى ـ الذى كان ينتحل مظهر الجاذبية الثقافية والفكرية ـ اوحى اليها باستعدادات غريزية !.. وما كان « جان ديروليـــد » ـ الجالس فى انتظارها ـ يتصور ان له جاذبية استجابت لها « مارى » .. وكان جهله هذا بمفاتنه ، يزيدها انبهارا ، ويذكى من رغبتها فى أن تسيطر عليه ، وتجعله شخصا آخر . فقد كانت غايتهما واحدة ، وان تعارض طريقاهما .. كانت غايتهما السلطان ، والنفوذ الشخصى !

وسارت فى خطوات تكشف عن رشاقتها الى الشرفة ، فنهض وأمســك برسغها ، وقال : « لسوف أنالك ! » .. قالت : « لا تكن سخيفا ! »

ودفعها الى الاريكة ، وانقض عليها . وصرخت ، ولكنه لم يكن صراخا عاليا . وحاولت أن تعضه ، فجذب شعرها .. لم يكن من سبيل لصـد الرجل الذى اثارته فى هذه المرة . لقد اعتادت ان تنتصر وتسيطر على الرجل وتتركه يتحرق شهوة ، متظاهرة بالعفة والفضيلة .. ولكنها ـ فى هذه المرة ـ كانت مضطرة الى الانصياع ، وهى تتظاهر بالمقاومة ، فاذا حركات العنف تزيدها غواية .. وصفعها الرجل مرة ، ثم اخرى .. وشرعت تبكى ـ بكاء حقيقيا ـ وهى كسيرة الجناح مهينة .. ومع الألم سرت اللذة ، واخذت تقوى حتى اضطرتها للصراخ .. ولكنه كان صراخا من نوع آخر !



● قالت آدا : « اننا فى حال أشبه بالتوتر الناعس ! » .. وكانت تجلس فى حجرة « داس » مع ابراهيم مالك .. وقال داس : « من المفضى الا يجرؤ المرء على عمل شيء ، خشية ان يسبق عملا آخر فيفسده ! » ..

وقال ابراهيم : « صديقنا داس يهيم بماري فاوست ، واحسبه حاول ان يضاجعها فصدته ، وثبت في نفسه الشعور بالذنب !.. ما اقوى مفعول الجنس في السياسة ! »

وما لبث أن قال : « اننا ذاهبون الى الفلكي الآن .. هكذا تسير الامور هنا .. لا عمل بدون استشارة النجوم ، فما بالك اذا كان العمل حربا ! »

في ذلك الأصيل ـ وفي الساعة الرابعة والنصف ـ تم اصلاح الطائرة الذاهبة الى (بنوم بنه) ، وتقرر اقلاعها بقيادة مساعد الطيار ، اذ آثر « ليدربه » البقاء في فندق (سوبريم) لانحراف صحته .. واعتذر « يولونج سيراب » عن تخلفه عن جلسة مؤتمر الكتاب ، لأنه كان الى جوار سرير صديقه « تشارلز مانلى » في المستشفى ، فانفض اجتماع المؤتمر .. وفيما كانت « ماري فاوست » منصرفة ، استوقفها شاب اسمر ، يحمل حقيبة وسترة جلدية ، فهتفت : « توماس ! ؟ » .. وبادرها الرجل قائلا : « اين ميبل ؟ اين زوجتي ؟.. لو اصابها سوء فسأقتلك .. يقينا ! »

وسار « داس » و « آدا تيمبرليك » مع توماس ديسمر الى مكتب استعلامات الفندق ، وقالا لمستر لي سوفان : « أليس من الممكن أن نقابل المحافظ ، فان زوجة هذا الرجل اختفت ، وهي في طريقها الى قصره ؟ .. اتصل به ، وقل أن وفدا من الكتاب يبغي مقابلته ! »

وغاب « لي سوفان » برهة ، ثم عاد يقول : « ان السيد الجنرال مريض ، ولكنه سيستقبل الوفد لعشر دقائق ، استجابة لالحاحكما ، ولأن النجوم موائية ! »

وعندما وصل وفد الكتاب الى قصر المحافظ ، اقتيدوا الى الداخل ما عدا مسز فوميكارو ، التي قررت أن تبقى بالخارج لتصور جوانب القصر .. وفحصت المكان ، ثم عبرت الى جانب الطريق المواجه للقصر ، لتختار زاوية لالتقاط صورة شاملة ، واذا غلامان صغيران ، في أسمال بالية ، يتابعانها .. وقال احدهما بلهجة غامضة : « هناك امرأة تبكي .. امرأة من الفندق ! »

وانزعجت مسز فوميكارو ، وتساءلت عن مكانها ، فقال غلام : « في قبو تحت القصر ! » .. وجمدت اليابانية برهة ، ثم سارت الى السيارة التي اقلت الوفد ، ووقفت ترمق القصر مهمومة ، ترتقب عودة زوجها ، الذي كان ـ في تلك الأثناء ـ قد ولج مخدع المحافظ مع زملائه .. وكان الجنرال يرقد في سرير هائل ، موشى بنقوش ذهبية ، في حجرة بادية البذخ !

وبينما كانت « ماري فاوست » تروي قصة سكرتيرتها ، اقبل الخدم باقداح الشمبانيا .. وقال المحافظ : « ان واجبي ومسئوليتي أن أرد

السيدة اليك والى زوجها . لم تقع عندنا جريمة قتل واحدة منذ ثلاث سنوات ! » .. ثم ضغط زرا بجوار الفــراش ، وقال : « حان موعد الدواء .. لقد انهكت نفسي فى خدمة بلادى ! »



● قال سائق سيارة الاجرة لچيون ، وهو ينطلق به : « لمــاذا تريد الذهاب الى بنوم بنه .. الأجل الشقراء التى كانت معك فى اول يوم ، وكانت تبكى وأنتما عائدان من معبد انجكور ؟ » .. وأردف ردا على دهشة چيون : « كل سائقى السيارات يتبادلون الاحاديث ، فنحن اخوة !.. ونحن الخميريين نحب مســاعدة الناس فى الضائقات .. هل هربت الحسناء مع احد ؟ »

ـ انها ذهبت الى (بنوم بنه) مع مسيو ريجيه .. لم تهرب معه !

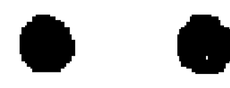
ـ هناك نقطة مراقبة على الطريق ، تسجل ارقام السيارات واسماء ركابها ، لحصر عمليات تهريب الأفيون .. فلنسأل هناك !

وفى نقطة المراقبة ، كانت فى انتظارهما مفاجأة .. فقد آكد الشرطى أن مسيو « برنار ريجيه » لم يمر فى الطريق اطلاقا ..

وقال « بوك » ، ســائق « التــاكسى » الذى اولى « چيون » صداقته واعتبره اخا : « لعله اخذ السيدة عن طريق اطلال بانتياى سراى .. انها طريق وعرة . ارى يا اخى چيون أن نعود منها ، ونحشد جهود القوم .. اقصد اخوتى سائقى السيارات ، ليعاونونا فى البحث ! »

وسرعان ما كان كل سائق قد جعل من نفسه رقيبا ، يبحث عن « برنار ريجيه » و « شييلا مانلى » ..

وعاد « چيون » الى الفندق ، فرأى « ديروليد » يجلس فى المشرب .. وجلس هو الآخر ، وطلب كأسا وشطيرة .. واقترب منه « لى سوفان » ، وقال : « ان مسيو ديروليد صديق حميم لمسيو برنار ، فلعله يساعدك » .. ونظر اليــه « ديروليــد » فى ود ، وقال : « لقــد كان ذاهبــا الى (بنوم بنه) فى الصباح .. وقد اعطيته رسالة لزوجتى ! »



● كان « ابراهيم مالك » يعرف أن الفلكى ـ ككل زمــلائه فى الشرق الأقصى ـ بتجسس أنباء الناس ، وببيع معلوماته ، فاصغى للرجل :

ـ ان فلكى الجنرال تنبأ باليوم المناسب .. انه الغد ، ولن يحول دون الجنرال وتنفيذ ما يعتزم ، سوى كارثة .. ولهذا ، فقد زايل المرض الجنرال !

وأجزل ابراهيم العطاء للرجل ، ثم غادره متبعا أساليب رجال المقاومة وحرب العصابات .. اذ تعمد أن يراه الناس في عدة أماكن . وما لبث أن لمح « اليزا » تسير وحيدة ، وكأنما أثقلتها أعوام العمر فجأة .. فلما تأكد من أن أحدا لا يتعقبها ، انطلق في أثرها ..

وكانت السهرة في الفندق غير موفقة ، في ذلك المساء ، اذ كان معظم النزلاء قد رحلوا .. فانفضت في الحادية عشرة ..

واخذت مسز فوكيمارو تروى لزوجها همسا ـ في مخدعهما ـ ما سمعته عن السيد التي تبكى ، في قبو قصر المحافظ .. وحاول الرجل في البداية تجاهل الامر ، ثم غلبته العاطفة .. واخذا يستعرضان أسماء الاشخاص الذين يمكن اللجوء اليهم ، فاجمعا على الوثوق بالاميرة « سوميبون » ، ونهضا للفورحما يسعيان اليها .. فاذا هي وأسرتها قد اختفوا !

وكان « ديروليد » ـ في تلك الاونة ـ شبه عار ، في حجرة « مارى فاوست » . وكانت تقول له : « انت وانا خلقنا لنحكم الآخرين ! .. ليس اقتناعا بافضلية عنصرية ، وانما ايمانا بافضلية فردية ! »



● فتح « داس » باب حجرته ، على أثر طرقات أيقظته ، فاذا « جوان واربرتون » ـ سكرتيرة اشلى بازيلدون ـ تقع بين ذراعيه عارية .. وحملها الى احد سريرى حجرته ، وهى تبكى وتشهق بانفعال ، فغطى جسدها العارى .. ومن بين تهنهتها ، فهم أن « بازيلدون » اصطحب فتاة كمبودية الى مخدعه ، وقابل احتجاج سكرتيرته ـ وخليلته ـ بأن مزق ثيابها ، وطردها !

وكان الليل قد انتصف .. وكان « چيون » قد عثر على « شيلا » .. فبمعونة « بوك » ـ وزملائه سائقى سيارات الأجرة ـ عثر « چيون » على « ريجيه » ميتا في سيارته التى اصطدمت بشجرة ، في طريق شبه مهجور .. وكان أعظم ما حير « چيون » و « بوك » ، أن « شيلا » لم تكن في السيارة ، وان آثار العجلات في الطريق لم تكن متتابعة في خطين متوازيين ، بل كانت ثلاثة خطوط ، تتعارض احيانا ، وتتفرق احيانا ..

واقترح « بوك » أن يتتبعا آثار العجلات ، فاذا بها تقودهما الى (البايون) .. وكانت تبدأ من وراء المعبد .. وفى الطريق ، سلط « بوك » الاضواء الأمامية على العلامات ، ثم قال : « انها لسيارة نقل مقفولة ، وسيارة عادية صغيرة .. اثنتان ! »

وواصلا البحث .. وقبيل المعبد بقليل ، صاح بوك : « يا للغباء !.. كيف

فاتنا هذا من قبل ؟ .. من هنا اقبلت سيارة النقل ، ولعلها من سيارات عمال المتحف ، فهم يشتغلون هنا ، وراء شرفة الفيلة .. وهم يحتفظون بسيارات هنا ، لنقل ما يعثرون عليه الى المتحف ! »

وعند المعبد ، سار « بوك » الى شرفة الفيلة .. وسار « چيون » الى شرفة « ملك الجذام » .. وحول عنق تمثال الملك ، راى وشاحا « ايشارب » معقودا . وفك الوشاح ، وحاول ان يسوى اطرافه ــ وهو شارد الذهن ــ فاذا به ملفوف كالحبل .. وبحركة لا شعورية ، دسه فى جيبه ، ومشى شبه مذهول ــ حتى بلغ « ردهة النساء » ، فاطل على نفق متعرج ، قامت على طول جدرانه تماثيل لنساء جميلات .. والفى قدميه تحملانه نحو النفق ، وقد قام بنفسه يقين بان « شيبيلا » هناك ..

وكانت هناك فعلا ! .. وادرك انه كان يشعر طيلة الوقت ــ بطريقة ما ، وبدون وعى منه ــ بانها هناك .. وبانها ميتة !

وحملها بين ذراعيه .. وعندما بلغ شرفة « ملك الجذام » ، اخرج الوشاح من جيبه ، وستر عينيها المفتوحتين ، الجامدتين ، ولسانها البارز ، وعنقها المغطى بالسحجات !

يوم الخميس :

● فى الساعة الخامسة صباحا ، فوجىء نزلاء فندق (سوبريم) بأنباء انقلاب قام به المحافظ الجنرال ثام بارونج « وطائفة من السياسيين صادقى الوطنية ، لتحرير الشعب الكمبودى من الطغيان ، ومن خطر الشيوعية » .. واعتبر جميع النزلاء أسرى ، فسيقوا من حجراتهم الى سيارة نقل ..

وفوجىء النزلاء بأن « چيون » كان يقبع جامدا فى ركن من السيارة ، وعلى ركبتيه جسد مغطى الوجه .. جسد « شيبيلا » !

وحملتهم السيارة الى مبنى مدرسة ابتدائية ، فى مشارف (سييمرياب) .. ولم يكن غائبا عنهم سوى « سوميبون » وأسرتها ، وتشارلز الراقد فى المستشفى .. وقال ديروليد :

« هنـــاك غائب آخــر ! » .. فصاح صـــوت : « أتقصـــد شيلا ؟ .. انها ميتة ! »

وما لبثوا أن فوجئوا بيولونج سيراب بمسوحه البوذى ، يدخل فيسير الى « چيون » مباشرة ، وهو يقول : « وا أسفاه ! .. انا المسئول مرة أخرى عن وفاتها ! » .. وتســاءل « ليدريه » - اذ ذاك - عن القاتل ، قائلا : « ان بيننا قاتل ، فاسألوا چيون مباشرة ، والا ... »

فقال ديروليد ليولونج سيراب : « هناك رغبة اجماعيــة يا صاحب النيافة ، فى اجراء تحقيق » .. وأجاب الراهب البوذى : « **لماذا ونحن نعرف سبب موتها ؟.. انه الماضى ! » ثم تنهد واردف : « ولكنى مضطر الى تحقيق رغبتكم ، على ان نبدا بحرق الجثة ، لتتحرر روحها ! »**

وبينما كانت الجثة تحرق فى خارج المبنى ، فتح الباب وزج خـــلاله كيلتون ومولتانى ، فصـــاح آشلى بازيلدون : « كنت اظنكما زميلين للجنرال ڤام بارونج ! »

وقال يولونج سيراب ، وهو يتصـــدر الجميع : « ان بيننا افرادا كان بوسعهم أن ينقذوها ، ولكنهم أخفقوا .. كما اخفقوا منذ قرون ، وأنا منهم !.. وبيننا أيضا روح قاتلها وجسده .. روح تحوم فى ضباب الشر والخوف .. فلنستمع الى اقوال كل واحد منكم ! » .. والتفت الى « چيون » ليتكلم .

وروى « چيون » لقاءاته معها ، حتى يوم العمل اليدوى ، والسهرة الراقصة فى الفندق .. وأخذ العرق يتصبب منه ، وهو يقول : « وانسحبت فى تلك الليلة ، وآويت الى فراشى .. الى فراشى .. » وصمت لحظـــة ، وهو يقـــاوم انفعالا جامحا ، ثم استرسل يقول : « حاولت أن أكلمها فى صباح الأربعاء ، فرفضت أن تكلمنى .. ثم سمعت من شخص ما انها كانت فى خطر .. بسبب صندوق شيكولاتة !.. وقالت

شييلا ان كيلتون قـدم لها قطعـة شيكولاتة من صنـدوق مشابه له ، وصل من (بانجكوك) ، ولا يدرى مرسله ! »
وتساءل « ديروليد » عما كان فى الشيكولاتة ، فقال : « چيون » انها كانت محشوة بالهيروين .. وذكر كيف بحث عن شـييلا يوم الأربعـاء ، فعلم أنها رافقت « ريجيه » الى (بنوم بنه) . ووصف كيف تبين أن « ريجيه » لم يغادر منطقة (سييمرياب) ، فشرع يبحث عن « شييلا » بمعونة سائقى سيارات الأجرة ..

وصاح ليدريه : ((لقد زنى بهـا ريجيه ، ثم قتلها !)) .. فعارضـه ديروليد فى حزم ، وقال : ((لعل ريجيه وشييلا قتلا فى كمين اعده قام بارونج !)) .. وتكلمت اليزا فجاة : ((ريجيه هو القاتل . فقد رايته فى صباح الأربعاء يحوم حول شرفة الفيلة ، وكنت عند (البايون) وبيتريلتقط صورى)) ..
فأخرج « چيون » الوشاح من جيبه ، واذا بيتر يقول : « هذا وشاحى ! » .. وهتفت اليزا : « لا تكن غبيا يا بيتر ! » .. والحت فى معارضته ، فدعاه « يولونج سيراب » للكلام ، فقال : **((هذا الوشاح هدية قدمتها لى اليزا فى عيد ميلادى . و ستعاره منى ((تيو)) . وعندما رحل مع عمته الى سنغافورة ، قال انه وضعه مع الأقمشة التى رافق اليزا لشرائها من السوق ..)) واعترضته اليزا قائلة : ((لم أر الوشاح قط !))**

وحان دور « ليدريه » ، فذكـر ما كان بينـه وبين « شييلا » ، حتى تناولا كأسا فى مشرب الفندق ، قبل رحيله الى (بنوم بنـه) ، يوم الأحـد ..
وتكلم كيلتون عما اتهمه به « ريجيه » من سرقة تحفـة ثمينـة ، وصـاح : « انى لم أسرق . الزب استأمننى على تحفة ، فاحتفظت بها ! » .. وأخذ يهرف كمتهوس دينى ، فصـاح داس : « ألزم الموضـوع .. انك سرقت التحفة ،

ودفعت بها الى مولتاني ، المتآمر معك ، فما شأن هذا بالمخدرات وبشييلا ؟ »

وقال كيلتون : « كنت احاول رد التحفة لصاحبها الشرعي ، محافظ سبيمرپاب ، فقد سرقها ريجيه الفرنسي ، الموالي للشيوعية .. ولكن اعداء الرب كثيرون ، فاذا الذى ظننته صديقا .. » واشار نحو مولتاني ، واستطرد : « اذا به يغشني .. واختفت التحفة ! » .. وصاح مولتاني يكذبه، ولكن كيلتون اشار الى ديروليد ، ثم الى ليدريه قائلا : « اختفت على يدى هذين . انكما فرنسيان تكرهاننا معشر الامريكيين ، وتواليان الشيوعية .. ليدريه سرق التحفة من مولتاني ، وديروليد سرق الشيكولاتة المحشوة بالهيروين من شييلا ، واراد توريطي فارسل لي بالبريد صندوقا مشابها » .



● وبهدوء اشعل ديروليد سيجارة ، ثم ضحك وقال : « لست أعرف السيدين كيلتون ومولتاني . وقد وصلت من (بنوم بنه) مساء الاثنين ، وعقدت محادثات تجارية مع مستر فوميكارو ، استأنفناها بعد عودته من « العمل اليدوى » فى اليوم التالي .. فلم يكن بوسعى تبديل صندوقى الشيكولاتة ، وارسال صندوق لكيلتون يصل اليه بالبريد فى صباح الاثنين ، وانا لم اصل الا فى مساء هذا اليوم ! »

وقال يولونج لآشلى بازيلدون : « عندما دخل السيدان كيلتون ومولتاني قلت انهما صديقان للجنرال قام بارونج ، فكيف عرفت ؟ » .. ورفض الانجليزى ــ فى بادىء الأمر ــ ان يتكلم ، ثم قال : « لا باس .. لم اكن اعرف عنهما شيئا حتى مساء الأربعاء ، اذ عدت للفندق مع فتاة كمبودية لطيفة، وقابلت هذين الرجلين ، فدعوتهما الى سهرة مشتركة فى غرفتى ، ولكن جوان ــ سكرتيرتى ــ رفضت ... »

وصاح بوليه ، مدير الفندق : « هذه اساءة لا تغتفر لفندقي ! » .. فهتف ليدريه ساخرا : « وهذا أحد جنودك القدامى يا ديروليد ! » .. فقال ديروليد : « ليس هذا الكلام فى صالحك ! » .. وتابع آشلى حديثه : « بعد خروج جوان ، شربنا ، وتحدثنا عن التحفة المسروقة ، فأقسم مولتانى بأنه احتفظ بها فى حقيبة آلة التصوير التى لم يتركها الا لعشر دقائق ، راقص خلالها احدى السيدات .. لقد ثمل الاثنان ، وكررا القصة لشيلا حين وافتنا . ثم هرب كيلتون بفتاتى الكمبودية ، وبقى مولتانى مع شيلا .. ولم أرها بعد ذلك » !



● وفى الساعة الرابعة ، أحضر الجنود للأسرى بعض الطعام ، فأقبل هؤلاء عليه ، وهم يتبادلون أحاديث تنم عن توتر أعصابهم . وقال داس : « ما زلنا لم نحصل على تفسير لوجود صديقين للجنرال ڤام بارونج معنا ! » فقال ليدريه : **« ومازلت لم تفسر لى اقتحامك غرفتى من الشرفة ، بعد ظهر يوم الأحد .. لست أصدق القصة التى قلتها . انك شيوعي وقد دسست « ميكروفون » فى حجرتى .. ولحسن الحظ ، وجدته مثبتا فى قاع المقعد الذى جلست عليه ! »**

واشتدت الريح ، ثم هطل المطر غزيرا فى الخارج .. ولكن انصباب الماء لم يحل دون أن يسمع الأسرى قعقعة سلاح ، وطلقات مدفع رشاش ، ثم اقتحم الحجرة جنديان طلبا اليهم الخروج .. وتبعهما جنود آخرون ، وضابط صاح فى الأسرى : « سننقلكم الى مكان آمن ، فسيروا والا أطلقنا عليكم الرصاص ! » .. وحاولوا أن يستبقوا يولونج سراب ، ولكنه أصر على أن يسير مع الأسرى .. وبلغوا الطريق العام ، وقد اغرق المطر ثيابهم .. ومرت بهم سيارات نقل

عديدة ، ولكنها كانت مليئة بالجنود ، ولم تشأ أن تقف .. واقترب « ديروليد » من ماري فاوست ـ اثناء السير ـ وقال : ((**بادري الي الجري ، حين اصدر الاشارة .. اختبئي في أول خندق . الا ترين أن الانقلاب فشل ، وانهم يسوقوننا كرهائن ؟))** .. ثم اقترب من داس ، وهمس : « عند أول منحنى في الطريق ، بادر بالفرار .. ستجد مساكن الى اليمين ، واشجارا الي اليسار » .. ونقل داس الكلمات الى « چيون » .. حتى صادفوا سيارة تعطل محركها ، فاعترضت الطريق وسدته . وكانت فرصة .. واذ صدرت الاشارة ، انطلق « داس » يجرى .. وانطلقت رصاصة ، فلم تصبه .. وهرعت آدا في أثره . ولاحقتها طلقات ، واذا بطلقات مضادة تنبعث من بين المساكن .. واقبل جنود امسكوا بالمرأة ، وهم يرددون : « أصدقاء ! » .. فبكت لفرط غبطتها !

وانطلق « توماس » ـ مع فوميكارو ـ نحو قصر الجنرال، ليبحث عن زوجته .. فاذا جنود الأمير سيهانوك سبقوهما .

وفي مخدع قائم بارونج ـ الذى فقد كثيرا من روائه ـ كانت « ميبل » بين فتاتين من « المليشيا » تعنيان بها !



● وقال داس لجيون ، في مشرب الفندق : « هكذا المؤامرات السياسية في الشرق الاقصى ، تبدو أشبه بمسرحيات قصيرة الأجل ! » .. وكانت « ميبل » تهمس لزوجها سعيدة، ثم أقبلت نحوهما ماري . فأشارت ميبل نحو مولتاني قائلة : « هذا الرجل كان يعرف مكاني .. فقد صادفته خارجا من القصر في تلك الليلة ! »

وحاول مولتاني ان يكذبها ، فانقض عليه توماس ، وكاد يفتك به ، لولا أن حال بعض الحضور بينهما .. وصاح كيلتون : ((ان مولتاني هو الذى احضر الأموال من بانجكوك

للانقلاب .. وهو الذى قتل شـيبيلا ، لأنها عرفت أكثر ممـا ينبغي ! »

وقال آشـلى بازيلدون لسكرتيرته : « سـتتزوج يا حبيبتي .. وسأعكف على كتابة مسرحية .. ستكون عن شيبيلا ، التي منحت نفسها لجيون ، وهي تحسب أنها تحبه ، فاذا به ينام ويتركها في خيبة ويأس اضطراها الى البحث عن رجل آخر ، فجاءت لحجرتي ، ووقعت في أيدى كيلتـون ومولتاني !.. وطلب منها مولتاني عملا بشعا فوافقت محرجة .. انه يحب أن يحيط عنقه بطوق له سلسلة ، فتجره المرأة في الحجرة ، ويتبعها وهو ينبح كالكلب .. وبقيت وحيدا ، فخرجت أجول على غير هدى ، واذا بي أصادف شيبيلا .. كانت قد غاصت الى أعماق الاحداث ، وأدركت دورها ، كما ادركت مدىترديها : فلم تعد تؤمن بأن شيئا يطهرها سوى الموت .. حتى أنها سألتني ان أخنقها .. وفعلت ! »



● **قالت** ماري فاوست لديروليد : « وماذا يجرى لى بعد أن تفارقني يا حبيبي ؟ » .. فقال : « كفى عن محاولة تدبير المستقبل ، فهذه عادة مدمرة » .. فقالت تحـاوره : « هذا ما كانت شيبيلا تقول ! »

ـ دعينا من سيرتها .. لست أدرى من خنقها .. قد يكون ريجيه ، أو جيون .. وربما أنا .. !

وضحكت ماري قائلة : ((لا تهزأ بي .. أعتقد انه الشاعر الجزائري)) ! .. فصاح ديروليد : ((الشاعر الجزائري ؟ .. لقد أرهقت ذهني ونحن اسرى ، اذ كنت أشعر بأن شخصا منا غائب .. ولكني نسيته !))

وكان «مولتاني » ـ في تلك الأثناء ـ يغلي كالمرجل ويلعن كيلتون ، واصدقاءه في (بانجكوك) لعدم دقتهم في تخطيط

الانقلاب ، حتى أصبحوا أضحوكة العالم .. ما كان ينبغي أن يضعوا ثقتهم في « ڤام بارونج » .. ولابد أنه هرب بالأموال ، وترك المتآمرين معه معرضين للخطر ، وسيظل يبتز الأموال من مدبري المؤامرة الرئيسيين ، مهددا بنشر مذكراته !

ولم يكن « بولونج سيراب » في الفندق ، فقد نقله العسكريون – في احترام وتكريم – الى قريته ، حيث كانت سوميبون واسرتها ..

واستعصى النوم على « ليدربه » في تلك الليلة .. كان يفكر في « شييلا » وشرع يقول في نفسه : « اغفري لي يا شييلا . لقد اثمت في حقك ، ولكني احبك ! » ..

واثارت الكلمات غضبه ، فصاح : « لا لم آثم .. انني لم أفعل شيئا لم تكن هي تبغيه ! .. كل ما أملكه هو انني سأثأر لها ! .. سأعثر على القاتل ! »



● **كان** تشارلز جامدا على فراشه – في المستشفى – يعاني آلام قلبه .. وراح يتمثل « شييلا » ويستعرض أفعالها .. وتذكر أمها ، وكيف فاجأها في الفراش مع رجل آخر .. لكم كان ذلك مؤلما !.. وتذكر أول ليلة نام فيها مع « اليزا » ، لقد اغمض عينيه واوحى الى نفسه بأنها امرأة اخرى .. امراة نسي اسمها !

وانتبه الى أن الطبيب كان يقف الى جوار فراشه ، ومعه الشاب الجزائري .. لابد انه ممن ضاجعوا شييلا ! .. وسمعه يسأل الطبيب برفق : « أهو يعلم ؟ » .. يعلم ماذا ؟ انه يحتضر ؟.. وحاول أن يتكلم ، ولكن الدكتور قال له : « لا تزعج نفسك ! » .. وحقنه بمادة مخدرة .. وقبل أن يغيب عن الوعي ، تذكر اسم المرأة .. « **جاكلين** » ، **اخت « اليزا » التي احبها ، ولكنها كانت تمنح نفسها للرجال ..**

ولم يجد من يتشبث به سوى ((شيبيلا)) ، ولكنها كانت .. كامها !

وكان « چيون » فى حجرته بالفندق ــ فى ذلك الوقت ــ وقد راح يجوس فى أرجائهــا على غير هدى ، ويفتح الأدراج ويحملق فيها .. ووجد فى احداها أوراقا تحمل اسم (فندق سوبريم) .. واذ ذاك شعر بالدوامة تهدأ ، وبالأفكار المتطايرة تستقر وتتناسق فى صورة مجسدة ، قائمــة كما يقــوم (البايون) بوجوهه الأربعة .. ولكن الوجوه كانت تتبــدل بوجوه أولئك المحيطين به .. وبينها وجه القاتل .. لقــد عرفه ! عرفه دون أى تعقل أو منطق أو حجة .. عرف وجه القاتل !

يوم الجمعة :

● كانت الساعة الواحدة صباحا ، عندما هبط « چيون » الى « لى سوڤان » ــ فى بهو الفندق ــ وأعلنه بأنه اهتــدى الى ما يكشف سر الجريمة ، وأن هذا يتطلب أن يذهب الى مكتب « برنار ريجيه » .. وقال لى سوڤان :

ــ أحسبك تعلم عن .. المخدرات ، والمنظمة الفرنسية ! فيمن ترتاب ؟

وهمس « چيون » فى أذنه ..

وكانت « آدا » تنام مع « داس » ، فلما سمعا وقــع قدمى « چيون » فى الردهة ، فتح « داس » باب الحجرة قليلا ، وأطل .. ولكن الظلام كان دامسا . فعاد الى « آدا » ، التى قالت : « لقد سمعت وقع قدمى شخص يغادر الفندق ! » .. فقال لها عاجزا : « لننم ، وسيكشف الغد ما يجرى ! » .

ورافق أحد الجنود « چيون » . فاجتــاز الطريق الى المتحف . وصعد « چيون » السلم الى مكتب « ريجيه » ،

فاشعل شمعة كان « لى سو ڤان » قد نصحه بأخذها .. ولم يبد ان يدا ما عبثت بشىء فى المكتب .. ووضع « جيـون » الشمعة على المكتب ، ثم رفع صفحة النشاف التى تعلوه ، واذ ذاك سمع صوتا يقول : « اهذا الذى تبحث عنـه ؟ » .. والتفت ، فاذا « ابراهيم مالك » يشهر مسدسه بيمناه ، ويمسك بيسراه مظروفا يحمل اسم « فندق سوبريم » .. المظروف الذى كان على ارض الحجرة والتقطه ووضعه على المكتب ، حين جاء يسأل عن عنوان « ريجيه » فى « بنـوم بنه » !.. وأعاد الجزائرى سؤاله ، فرد « چيون » بالايجاب .

عندئذ دس « ابراهيم » مسدسه فى حزامه ، وجلس على مقعد « ريجيه » ، واشار لجيون كى يجلس أمامه .. وشرع الجزائرى يقول : « ياله من سيرك ! .. أبشع عيـوب الحرب والجريمة والعنف ، هو عدم الكفاية بدرجة تثير الاشمئزاز ! .. غبـاء ، واهمال ، ونقص كفاءة .. دائما يخطئون من ينبغى قتله فيقتلون سواه .. دائما يخطئون ، كما حدث فى الانقلاب الذى اوقن أنه كلف ملايين الدولارات ، واشترك فيه عناصر عالية من راسمى الخطط فى الخارج .. ما بالك تلوذ بالصمت ؟ »

فقال چيون: « قل لى كل ما لا أعرف ! » .. فهـز الجزائرى رأسه قائلا : « لنقر العدالة أولا .. انت وانا ، فلو اننا تركنا الأمر للكمبوديين لغلبهم لطفهم ومقتهم للدماء ، واحالوا الأمر ليتعثر فى اروقة القضاء ! .. وسيكون هنـاك محامون ومستشارون ، ولكن .. لا عدالة حقيقية .. فعلينا الحكم والتنفيذ ! »

ورمقه چيون طويلا ، وهو يقول لنفسه : انه على صواب . وعاد ابراهيم يقول : « انما صنع التاريخ أولئك الذين لم ينتظروا أجهزة العدالة ، وتولوا القصاص بأيديهم .. وكذلك

الأمر فى الثورات ! .. وتذكر انك واياى نعمل طواعية ، معتمدين على نفسينا .. ولن يعرقلنا الكمبوديون ، ولكنهم لن يساعدونا كذلك ! » .. واطفأ الشمعة وهو ينهض قائلا : « قد نظفر ببضعة متطوعين ، ولكن .. يجب أن يبقوا نكرات مجهولين ! »

وعندما بلغا الفندق ، تطلع « چيـون » نحو واجهة الحجرة التى كانت تشغلها « شييلا » .. **كان ثمة شبح صغير الجسم نحيله ، لم يستطع الظلام أن يحجبه .. وفطن « ابراهيم مالك » لوجوده ، فرفع مصباحا جيبيا كاشفا .. ثم قال : « انه ليدريه !.. سنتولى امره فيما بعد ! »**

وفى البهو ، كان « لى سو ڤان » ينتظرهما وقد أعد لهما شابين من الكمبوديين ، فقال ابراهيم : « هذان متطوعان لمساعدتنا ! » .. وصعد الأربعة السلم ، وساروا مباشرة الى باب ، القى عليه الكمبوديان بثقلهما فتداعى .. وصرخت « مارى فاوست » من الداخل : « من هذا ؟ .. جان ! جان ! » .. وعلى ضوء مصباح ابراهيم ، بدا الفراش خاليا بجوار مارى ، فقال ابراهيم : « لقد هرب !.. قفز من الشرفة ! »

والتفت الى مارى ــ التى كانت تحتج ــ وسألها : « متى هرب جان ديروليد ؟ »

ــ لقد كنت نائمة . ماذا هناك ؟ لماذا ..؟

ولم يجبها أحد ، اذ هبط الرجال الاربعة الى « لى سو ڤان » ، الذى قال : « لا يمكن له أن يذهب للمطار . وهو سيفضل ان يتغلغل فى الريف بطريق البر .. انه يعرف كل شبر فى البلاد » .. **وانتفضت ذاكرة چيـون ، فقال : « هناك مركبات نقل مغلقة الجوانب ، فى حفائر (انجكور) ، يستخدمها المنقبون عن الآثار ! »** .. فهتف مالك : « حقا !.. لنذهب الى هناك !.. لقد انطلق على قدميه ، ولابد

انه يستتر بالغابة التى على حافة الطريق ، ولو ذهبنا بسيارة فسيفطن الينا . لنذهب بالدراجة ! » ..

وعلى دراجتين ، انطلق ابراهيم وچيون .. وقد دفع « لى سوڤان » الى الأخير بمسدس !



● وعند شرفة الفيـلة ، وضـعا دراجتيهما . وانضم اليهما أربعة من الكمبوديين ، عراة الصدور .. واقتدى بهما ابراهيم وچيـون ، فخلعا قميصيهما .. وكانت الظلمـة دامسة ، والسماء مكفهرة .. واذ بلغوا « ردهة النساء » ، همس ابراهيم لچيون : « اهبط هنـا ، وسنحاول أن نسد عليه الطرق ليأتى اليك .. فليكن مسدسك مشهرا ! »

وحوالى الفجر ، سمع « چيون » جسما يقفز من الطرف الاقصى للردهة الى داخلهـا .. والتصق بالجـدار مشهرا مسدسـه .. **وفجأة ، رأى « ديروليد » أمامه ، بجسـمه وقد تعرى الى الصدر ، بينما كان قميصه فى يده ، ملتفا حول شىء ما .. وسد « چيون » الطريق عليه ، فارتسمت على وجه « ديروليد » ابتسامة حلوة ، لا خوف فيهـا ، ورفع القميص عاليا ، وهو يقول : « ستصاب بضرر بالغ ! »** .. وحاول « چيون » أن يضغط زناد مسدسـه ، ولكن أصبعه لم تطعه .. وعندما انطلقت الرصاصة ، طاشت فى الهواء ، اذ كان « ديروليد » قد انهال بقبضته على وجه « چيون » ، فهوى هذا على الأرض .. وقفز « ديروليد » نحو السلم ، ولكن « چيون » أحاط ساقه بذراعيه ، وراح يشده بكل ما انبثق فى صدره من غيظ وحقد .. وهوت قبضة ديروليد على أذنه ، فصرخ ألما ، ثم انشب أسنانه فى كعب قدم غريمه .. وانهالت قبضة ديروليد مرات ، ثم .. رأى « چيون » قدمين اخريين ، وسمع صوتا ، ثم صرخة ، ثم انهمر على وجهـه

سائل ساخن ، فأغمض عينيه .. **وعندما مسح السائل عنهما وفتحهما ثانية ، كان جسـد ديروليـد ملقى على الأرض ، وابراهيم مالك واقفا وفى يده خنجر يقطر منه الدم .. وشعر « چيون » بغثيان ، وأغمض عينيه وقد أدرك ما حدث ، فأثار العنف نفسه المطبوعة على حب السلام .**

واقبل المتطوعون فحملوا جثة « ديروليد » الى الخارج ليحرقوها .

يوم السبت :

● **قال** داس : « ان الحقيقـــة رواغة ، ولكنى بذلت قصارى جهدى لجمع الحقائق من مصادر مختلفة عديدة » .

وكانوا يجلسـون فى بيت « يولونج سيراب » : سوميبون ، وجورج ، وآدا ، ويولونج نفسـه .. وقالت آدا : « تكلم يا داس ، ولا تنتظر حضور الباقين .. »

قال : « ان قصتنا تبدأ فى بانجكوك .. بل فى أكثر من مكان ، فللقصة أكثر من عقدة : **هنـاك أولا انقلاب سـياسى ، فان الجنرال قام بارونج رجل طموح ، مفسود ، من النوع الذى تستغله الدول الاستعمارية باسم الديمقراطية ، دون ان تقتنع بعدم نفعه ، رغم خيبة سينجمان رى ، وشيانج كاى شيك .. دائما تنتهى العملية بفشل ، ودماء ، واموال مبددة** .. ولقـد تسلم قام بارونج أموالا ومسـاعدة لقلب حكومة كمبوديا . ولم تكن له شعبية ولا أنصار ، سوى جيش صغير من المرتزقة ، ولكن الغرب كان يظنه قويا ، واسع النفوذ ، فاعتمد عليه .. وفى كل شهر ، كان يرسل له نقودا مع أحد السائحين الذين يفدون لمشاهدة (انجكور) .. وكان آخر هؤلاء صاحبنا مونى مولتانى ، الذى جاء لحضـور مؤتمر

الكتاب ، والذى كان طموحه اكبر من ان يهرب بالمبلغ ، كما فعل الرسول السابق مباشرة ..

« وقام بارونج متعدد النشاط .. فكان يهرب الأفيون كذلك . وبرغم شغفه بالمظاهر الحديثة ، فانه كان يعتمد اعتمادا مطلقا على الفلكى الذى يستشير له النجوم ، فلا يتحرك الا باذنه .. وفى آسيا لا توجد اسرار ، **فكانت الحكومة على دراية بمطامع قام بارونج ، وبانه يتلقى اموالا للقيام بما يسمى « انقلاب مضاد للشيوعية » .. ولكنها لم تشأ ان ينقلب الأمر الى حرب كالتى يصلاها شعب (لاوس) دون ان يكون له فيها شىء .. لذلك آثرت الحكومة الانتظار الى الوقت المناسب ، وتركته يبدأ انقلابه لتخفيف تأثيره ، وللاحاطة بجنوده المرتزقة** .. وما كان بوسع الانقلاب أن ينجح ، لأن الفلكى كان ينقل المعلومات ـ عن طريق صديق له ـ الى الحكومة .. ولم يكن بوسع هذا الصديق الاتصال بالفلكى مباشرة ، خشية جواسيس الجنرال ، فاستغل صديقنا الجزائرى هذا الموقف ، وذهب بنفسه الى الفلكى .. وهو ماهر مدرب على فنون الحرب السياسية .. »

قال يولونج سيراب : « ولماذا تعمل أنت وليدى آدا فى مقاومة المخدرات ؟ » .. فأجابت آدا : « لأننى أكره الشر ! » .. وقال داس : « لأننى اريد أن أكتسب نقودا نظيفة ، فلست أملك أن أعيش على التاليف ! » .. ثم استطرد يقول :

ـ وصلت من (بانجكوك) فى اثر حركة المخدرات ، بينما وصلت « آدا » من (هونج كونج) ، والتقينا هنا فى مؤتمر الكتاب ، اذ قيل لنا ان مركزا جديدا للتهريب انشىء هنا ، وان « قام بارونج » عضو فى العصابة الدولية ... ووجدنا ان « شيبلا » كانت حاملة للمخدرات بريئة .. اسلمها راهب ـ موفد من أمير سيامى ـ صندوق « شيكولاتة » فى المطار ،

لتسلمه لقريب له فى (انجكور) .. ولقد شـهدت العملية مصادفة ، ولكن نصف مهمتنا يعتمد على المصادفة .. فلما وصلت الى حجرتها فى فندق (سوبريم) ، تركت حقيبتها ، وذهبت الى حجرة « چيون » بدافع خفى .. كانت قد فطنت الى نظراته اليها فى الطائرة .. ولكن « چيون » لم يغازلها ، بل اصطحبها الى الآثار .. واعتقد أنها أحبته ، اذ رأته مختلفا عن سواه . وفى غيابها معه ، دخل حجرتها شخص ما ، وبدل صندوق الشيكولاتة بصندوق به شيكولاتة حقيقية .. ولقد سلمت « شيلا » هذا الصندوق لشخص ما ، فى موعد الغداء من يوم الأحد ..

قال جورج : « انتهت العقدة الثانية .. الينا بالثالثة ! »

ـ كانت هناك منظمة اخرى تمـارس تهريب المخدرات منذ فترة ، وتتألف من الفرنسيين الاسـتعماريين المحاربين للديجولية ، والذين لم ينسوا بعـد مرارة « ديان بيان فو » والجزائر .. وقد وجدوا فى « جان ديروليد » ـ الغنى ، ذى الشعبية والنفوذ ـ رئيسا لمنظمتهم هنا .. فشرع يفكر فى تهريب المخدرات ، ولكنه كان شديد الحذر والتكتم .. وأخذ أعوانه يتسللون الى العصابة الأصلية ببطء وحيطة .. وكان يستغل الفرنسيين الصادقى الوطنية ، دون أن يشعروا .. وكان مسيو « بوليه » ـ مدير الفندق ـ من حلفائه .

« ولم يصل ديروليد يوم الاثنين كما عرفنا ، بل وصل مساء السبت قبلنا ، [illegible] فى سيارة النقل المغلقة التى يستخدمها فى رحلاته [illegible] . ولا تزال هذه السيارة مخبأة بين الاطلال ، خلف شرفة الفيلة ، فى (انجكور) ، حيث توجد سـيارات مشابهـة أعدت للعاملين فى الحفـريات .. وكان « ريجيه » هو الوحيد الذى أدرك أنها ليست من سياراتهم ، ولكنه غفل عنها وسط مشاغله .. المهم هو أن « ديروليد »

اتصل ببوليه ، وأفهمه أنه فى مهمة من أجل مجد فرنسا ، فخف اليه « بوليه » فى سيارة صغيرة ، وأحضره الى الفندق بالليل ، خلال الباب الخلفى ، وانزله فى جناحه الخاص بالطابق الأعلى .. وهناك ، مكث فى انتظار « اليزا » — وشيبلا كذلك — صباح الأحد .. فان عميله فى (بانجكوك) كان قد اخبره بأنه سيعهد بصندوق الشيكولاتة الى شيبلا كما احضر له صندوقا مشابها تماما ، **ولكن « ديروليد » ما كان ينتظر شيبلا فى الفندق ، او لم يكن قد عرف « اليزا » منذ كانت عارضة ازياء ، وكان هو ضابطا فى جيش فرنسا الحرة فى لندن .. وكانت اختها « جاكلين » على علاقة بضابط فرنسى من اصدقاء « ديروليد » .. وكانت « اليزا » هى التى دبرت كشف هذه العلاقة لتشارلز .. ثم كان الطلاق ، وزواج تشارلز من « اليزا » ، وانتحار جاكلين ..**

« وعندما علم ديروليد — من الصحف — بأن « اليزا » قادمة من (بانجكوك) ، مع زوجها العالم الاقتصادى ، قرر ان يهددها ليضمها الى منظمته ، فمن أقدر منها — بشهرتها ومهنتها — على نقل المخدرات ؟ !.. وساعده الحظ عن طريق علاقة « اليزا » بشيبلا .. ومن ثم رأى « اليزا » فى الصباح ، واوعز اليها بالتسلل الى حجرة « شيبلا » وتبديل صندوق الشيكولاتة ، **واعطى الصندوق المحتوى على الهيروين — الى « بوليه » ، لينقله الى « ليدريه » ، الذى كان راحلا الى (بنوم بنه) بعد الظهر .. ولم يكن ليدريه يعرف حقيقة الصندوق ، ولا ان « بوليه » كان يعمل بأوامر من ديروليد .. لم يعرف هذا الا بعد الانقلاب !**

« وكان على « ليدريه » أن يرحل الى (بنوم بنه) ثم سايجون ، بعد ظهر الأحد ، ويعود الى سييمرياب يوم الاثنين ، ثم يطير الى بانجكوك يوم الثلاثاء ، والى سايجون

يوم الأربعاء .. فاختار « ديروليد » يوم الاثنين موعدا يدعى أنه وصل فيه .. وكان قد أتم مهمته الخاصة بالهيروين . ولكنه آثر البقاء لأنه علم بالانقـلاب المهيـأ ، وأراد أن يتبين حقيقة أمر كيلتون ومولتانى » !



● بقيت « العقدة الرابعـة » فى القصة .. فقـد سرق « كيلتون » الحزام الذهبى الأثرى من المتحف ، فاشتبه فيه « ريجيه » ، ومن ثم اسلمه لمولتانى .. وفى مساء الاثنين ، ذهب مولتانى ليسلم النقود للجنرال ، فحاولت اليزا التسلل الى حجرته (بمفتاح أخذه ديروليد من بوليه) ، ولكنها جبنت .. **وخشيت ان يعاقبها ديروليـد بسرقة مجوهراتهـا ، فجمعتها كلها فى حقيبـة يدها . ولكن ملاحظـة من ابنـة سوميبون اثارت جزعها ، فعادت الى الفنـدق ، وجاء فى أثرها ((ريجيه)) ، اشفاقا عليها** .. ولم يستطع ديروليـد الحصـول على الحزام ، لأن مولتانى وضـعه فى حقيبة آلة التصوير التى كان يحملها معه دائما . وأدرك « ديروليد » هذا السر . فأخذ يتحين الفرص ..

وتساءل داس : « أتحدسون من الذى تسلم صـندوق الشـيكولاتة من شيبلا ، بعد ظهر يوم الأحـد ؟ .. انهـا « ميزى » عازفة البيانو العجفاء فى جمعية كيلتون .. ولا أدرى كيف عملت فى نقل المخدرات ، ولعل أحدا أوحى اليها بأن هذا عمل مقدس ضد الشيوعية !.. **المهم أن الجنرال قام بارونج رد اليها الشيكولاتة ــ فى مساء الأحد ــ لأنها حقيقية ، وأنذرها بوجوب الحصول على الشيكولاتة المحشوة بالهيروين .. ولكى تبرر وجود الصنـدوق ، زعمت أنه وصل بالبريد لكيلتون** .. ولكن الفزع دفعها الى أن تذهب الى « شيبلا » ــ بعد ظهر الاثنين ــ فاعتذرت هذه لچيون عن عدم مرافقتها

اياه للسباحة . واستقبلت « ميزى » التى صارحتها بأن الصندوق الأصلي كان محشوا بالهيروين وقد استبدل به غيره فى حجرتها .. ولكنها لم تذكر لها شيئا عن الخطر الذى كان يتهددها لاختفاء هذا الصندوق ..

« وبدات شيبلا تفكر .. كانت قد شمت عطر « اليزا » فى حجرتها ، عندما عادت اليها فى مساء الأحد .. وعندما رات « اليزا » تحمل حقيبة يدها المنتفخة ، وسمعت ملاحظة الصبية — فى مساء الاثنين — ورات « اليزا » تبادر بالانصراف ، ازداد ريبها فيها .. وعندما ادلت بملاحظتها عن الشيكولاتة — فى حفلة كيلتون — اشتد فزع « ميزى » ، فازدادت شيبلا يقينا من استنتاجاتها ..

« ولعلكم تذكرون أن « شيبلا » تأخرت فى الفندق ، حين ذهبنا للعمل اليدوى ، فى صباح الثلاثاء .. **وقد انتهزت الفرصة فواجهت « اليزا » بشكوكها .. وبدات تعاود ذاكرتها امور لم تستلفت انتباهها — من قبل — متعلقة بليستريه ، وديروليد .. ولقد راتهما — فى مساء الثلاثاء — مع « اليزا » ، بعد العودة من العمل اليدوى .. »**

قالت سوميبون : « هنا كان غباء چيون !.. فقد ظن ان شيبلا افتتنت بديروليد ، وصعد الى حجرته مغضبا ، مثقلا بالشراب ! »

فقال داس : « لو انه تحدث اليها بدلا من ان يغار .. ولو انه اصغى لحديثها — عندما ايقظته من نومه بعد ذلك — بدلا من أن يستسلم لنزوته الجنسية !.. ولكنه كان غافلا عن كل هذه الأمور .. كانت تحبه ، وقد أرادت أن تحدثه بشكوكها وتلوذ بحمايته . فلما فعل فعلته ، كانت الصدمة قاسية ، فذهبت الى حجرة مولتانى .. **وكان « ريجيه » قد تهور فى اتهامه مولتانى وكيلتون ، قبل ان تتوفر له الأدلة ،**

فلما تم القبض عليهما ، أمر الجنرال باطلاق سراحهما .. وادرك « ريجيه » العلاقة بين الاثنين والجنرال ، فتوقع خطرا يهدده ، وعزم على الذهاب الى (بنوم بنه) ، ومعه الفتى والفتاة الكمبوديان كشاهدين ..

« وكانت شييلا ــ أثناء مرافقتها لديروليد ــ قد ذكرت له شيئا عن الشيكولاتة ، أقنعه بأنها على علم بأموره ، فقرر ازالتها من الطريق بسرعة .. وراح يفكر فى خطة وهو يراقص « مارى فاوست » ، كما راح يفكر ــ كذلك ــ فى أن يتخذ « مارى » حاملة للمخدرات دون أن تدرى ، وأن يستغلها فى أغراض أخرى .. وخطر له أن يحاول ضم « ريجيه » الى المنظمة ، والا فليكن تدبير مقتل شييلا ، بحيث يعزى الى « ريجيه » .. فلو اجتمعت شييلا وريجيه لكانا مصدر خطر كبير ! ..

« وعلى هذا ، اوفد ليدريه فى صباح الأربعاء الى « ريجيه » ، بعد أن أزال الطيار جزءا من محرك الطائرة ليبرر عدم سفره .. وكان « ريجيه » صريحا فى رفضه التعاون مع ذوى العقلية الاستعمارية من الفرنسيين ، فقرر ديروليد القضاء عليه .. وذهب اليه زاعما أن لديه رسالة رجاه أن يحملها لزوجته .. وبعد انصرافه ، تسلل عائدا ، واختبأ فى شرفة مسكن « ريجيه » .. وكان « ريجيه » قد ازداد شكا فيه ، ففض الرسالة .. وفى تلك الأثناء ، كان ديروليد قد راقبه من الشرفة ، فتحرك فى هدوء وحذر ، حتى عاد الى مكتب الرجل ، وضربه على مؤخرة رأسه ضربة قضت عليه .. وعندما ذهب « چيون » الى المكتب ، لم يجد أحدا ، ووجد مظروفا على الأرض ــ هو مظروف رسالة ديروليد ــ وصفحة نشاف مكرمشة على المكتب ..

« ولمح ديروليد ــ من نافذة ريجيه ــ شيبيلا تغـادر الفنـدق ، فخطرت له خطة مكتملة .. ارتدى القلنسـوة والسترة والنظـارة الداكنـة ــ التي اعتار ريجيه ارتداءها في رحلاته بالسـيارة ــ ووضـع الجثة في الحقيبة الخلفيـة لسيارة ريجيه الصغيرة ، وانطلق بها فلحق بالفتاة .. ولعله دعاها الى نزهة فقالت انها تبحث عن « ريجيه » ، فتطوع لاصطحابها اليـه .. المهم ان الذين رأوهمـا ، ظنـوا أنه « ريجيه » نفسه .. »



● وهنا قال جورج : « ولكنها كانت ترتاب فيه ؟ »
فقالت آدا : « ولكنها لم تتوقع أن يقدم على القتل .. وكانت معتدة بذكائها ، مصممة على كشف جلية الأمر ، فأرادت أن تستدرجه » .

واضاف داس : « وكان چيون قد صدمها في حبها ، كما صدمها مولتاني في انسانيته ، اذ سالها أن تجره في حجرته كالكلب ، فتولتها خيبة ، وشقاء ، ويأس .. ولم تعد تحفل بشيء !.. **فصارى القول ان ديروليـد أقلها الى الأطلال ، وخنقها بوشاح بيتر المصور ، ليقحم « اليزا » في الجريمة . وكان « تيو » قد ترك الوشاح بين الأقمشة التي اشترتها هذه ، فسرقه ديروليـد منها . ولقد أدركت « اليزا » أنه القاتل ، ولكنها كانت في ذعر منه ، فزعمت أنها رأت « ريجيه » بين الأطلال ، لتبين لديروليد أنها تساندة !**

« وبعد ان قتل شيبيلا ، دفنها في (بهو النساء) ، ثم ربط الوشاح حول عنق تمثال « ملك الجذام » ، لفرط غروره واعتداده ... وانطلق بسيارة « ريجيه » الى سيارته الكبيرة ــ التي كان يخفيها بين الخرائب ــ فوضع سيارة « ريجيه » الصغيرة الحجم بداخل سيارته ، وسار على الآثار التي كانت

الأولى قد تركتها فى الطريق خلف الأطلال .. ولذلك بدت ثلاثة خطوط من آثار العجلات حتى بلغ الطريق المهجور .. اذن ان محور عجلات سيارته أعرض من محور عجلات السيارة الصغيرة ؛ فلما سار بعجلات أحد جانبى سيارته على خط من الأثر ، لم تنطبق عجلات الجانب الآخر على الخط الثانى ، بل أحدثت خطا جديدا موازيا له .. ولعله تعمد هذا للتضليل .. **وبعد نصف ميل ، انزل سيارة « ريجيه » ، ووضع الجثة أمام عجلة القيادة ، ودفع السيارة بسيارته حتى اصطدمت بالشجرة ، ثم عاد فى سيارته حتى بلغ الطريق الرئيسى ، وانطلق الى المطار** . وكان النهار قد انتصف ، والمطار شبه خال . فترك سيارته هناك ، واتصل ببوليه الذى وافاه واقله الى الفندق ..

« **وحدث الانقلاب فى صباح الخميس .. وهنا تدخلت العناية الالهية ، والقدر ، والعدالة ، لتثبت وجودها .. ممثلة فى الشاعر الجزائرى !!** .. أتذكرون كيف أن « ديروليد » ارتاب فى غياب واحد من النزلاء ، عندما احصانا فى المدرسة التى حبسونا فيها ؟ .. لقد غاب عن الجميع أن يذكروا ابراهيم مالك ، ولم تتكلم آدا ولا أنا .. »



● **وصمت** « داس » وقد تجلى الألم على وجهه ، ثم عاود الحديث بمشقة : « هكذا كان صديقنا الجزائرى مشغولا ، بينما كان ديروليد فى مخدع مارى فارست ، فى مساء يوم الخميس .. كان ابراهيم موضع ثقة لدى الكمبوديين ، وقد علم من « يولونج » برحيل شيلا مع ريجيه ، وبأن چيون انطلق وراءهما .. ثم ذهب الى الفلكى فأخبره بأن ثام بارونج اعتزم القيام بالانقلاب فى اليوم التالى .. **وفيما كان يغادر دار الفلكى ، لمح « اليزا »**

فتعقبها ، وحاصرها .. وكانت أعصابها على شفا الانهيار ، فتظاهر بانه يعرف كل شيء ، وطمأنها الى سلامتها ، فتكلمت عن علاقتها بديروليد ، وعن صندوق الشيكولاته !

« .. ولقد عثر ابراهيم على جثة ريجيه ، وعاد الى مكتب الرجل ، فوجد مظروف رسالة ديروليد .. والتقى بچيون » .

واقبل ــ عند هــذه النقطة ــ ابراهيم مالك ، والأب « أودوديه » .

وتساءل داس : « ماذا جرى ؟.. اقصد لولتانى وكيلتون وليدريه وبوليه ! » .. فقال الجزائرى : « سيرحلون الى خارج البلاد غدا » ..

وتاملت سوميبون الشاعر الجزائرى .. كان بالغ القوة، وبالغ الرشاقة ، وبالغ الاتزان والرزانة . وقد قتل ديروليد بمهارة واحكام .

وسألته : « هل ستحطم عصــــابة الاستعماريين من الفرنسيين ؟ » .. فأجابهـــا وهو ينفث دخان سيجارته : « أود أن انسفها ، ولكن .. بعد أن أعرف أين يختزنون الافيون .. »



● **وجلست** « اليزا » الى جوار سرير « تشارلز » فى المستشفى .. وفتح الرجل عينيه ، ثم هتف بصوت ضعيف : « شيبيلا ! » .. فتطلعت المرأة الى يولونج سيرب ، الذى كان يقف فى الجانب الآخر ، فقال هذا : « أن ابنتك ستولد من جديد .. »

واغمض « تشارلز » عينيه ، وغاب عن الوجود .. اسلم الروح !

وفى تلك الأثنـاء ، كان « چيـون » يزور سـوميبون ، وأسرتها .. وقالت رفيقة صباه مواسية : « لكم أنا آسفة ! » .. فابتسم فى اسى وقال : **« ان اسوأ غلطتين ارتكبتهما ، هو اننى لم اسـألها عن سبب بكائها ، ونحن عائدان من (انجكور) فى اليوم الأول .. واننى اغتصبتها بدون حب ، فى نوبة شبق ! »**

وتردد فى أذنيه صدى صوت شيلا ، وهى تتشاجر مع ابيها وتقول : « ولكنى أحبه ! » .. وقال لسوميبون : « لا تأسفى !.. ما كان بوسعى أن اغير القدر ، بل اننى عاجز عن تغيير اى شىء .. انما جئت أودعك قبل الرحيل .. وداعا ! »

يوم الاحـد :

● **كان** كيلتون ومولتانى وليدريه وبوليه تحت الحراسة ـ فى المطار ـ ليساقوا الى الطائرة التى أزمع « چيون » ومارى فاوست الرحيل عليها . وكانت سوميبون وابراهيم مالك وداس وآدا فى وداع چيون ..

وقالت آدا : « ما زلت أتساءل : لماذا سجنوا مولتانى وكيلتون معنا ، وهما صديقان للجنرال ڤام باروننج ؟ » .. فأجاب داس : **« لأن شيلا قد اغتيلت .. والجريمة ـ فى اليوم الذى يحدده الفلكيون كيوم سعد ـ تفرض النحس والفشل . ولقد علم ڤام باروننج بأن چيون وجد وهو يحمل جثة الفتاة ، فتولاه الغضب واعتقد ان لمولتانى وكيلتون يدا فى اغتيالها ، بسبب صندوق الشيكولاتة ! »**

وكان كيلتون ومولتانى وبوليه متجهمين ، يلوذون بالصمت .. لم يكن . يتكلم ويضحك سوى « ليدريه » . واقترب منه مساعد الطيـار . فقال له مازحا : « لا تحزن على فرانسوا

ليدريه .. فمثل هذه الأمور البسيطة لا تقضى عليه ! » ..
وضحك مساعد الطيار .. كان يدرك أنه لن يتاح لليدريه عمل في جنوب شرقى آسيا .. اللهم الا فى « اير افيون » ، خط نقل المخدرات ، ومن ثم أدرك المصير الذى رسمه « ليدريه » لنفسه .

وعندما هبطت الطائرة فى (بانجكوك) أغار على ركابها حشد من الصحفيين والمصورين .. ودفع أحدهم الى « چيون » صحيفة حملت عناوين كبيرة : « الشيوعيون يستولون على كمبوديا » .. « الجنود الكمبوديون يذبحون السائحين » .. « الجنرال ثام بارونج ــ نصير الديموقراطية وصديق الغرب ــ ينجو بحياته من الشيوعيين » !.. وصاحت « مارى فاوست » فى الصحفيين : « ان الجنرال ثام بارونج هو الذى قام بالانقلاب ، ولا شأن للشيوعيين .. وثام بارونج هو الذى سجن السائحين .. » ! وأعرض عنها الصحفيون ، واحاطوا بكيلتون .. وفجاة ، لمح « چيون » أحدهم يقترب من كيلتون ، وعرف فيه أحد الامريكيين الذين حضروا المؤتمر .. وسمعه يقول له : « لا تنبس بكلمة ، وتعال معنا لتشرح موقفك » !.. وصاح أحمد فؤاد الباكستانى : « أهو من عملائكم ؟ » .. فرد الأمريكى : « انه يعمل مستقلا ، ولكن تصرفاته عرقلت سياستنا ! »



● وكانت « مارى فاوست » على الطائرة التى حملت « چيون » من بانجكوك الى سنغافورة ، وان لم يجلسا متجاورين .. واخذ « چيون » يطلع على الصحف ، فاذا بها تصور « ثام بارونج » بصورة الزعيم الشعبى ، ونصير الديموقراطية ، الذى تعرض لمؤامرة شيوعية ، فهرب من بلاده ليطوف بالعالم الحر ويشرح قضية كمبوديا !..

وكان هنـــاك نبأ عن أن وزارة الخارجية الأمريكية أنكرت كل علاقة لها بالانقلاب .. ونبأ عن دعوة « قام بارونج » رسميا الى الولايات المتحدة !

واغمض « چيون » عينيه ، فتمثل « شييلا » .. لقد احب الفتاة ، ولهذا فهو يشعر بالأسى والضياع !.. وتمثل وجه « ابراهيم مالك » الذى أباح لنفسه أن يتولى العدالة والقصاص بنفسه ، ثم تمثل الحقول التى يزرع فيها الافيون .. السم الذى ينفق على الحرب . لن يستبعد ان يسعى ابراهيم الى حرق حقول الخشخاش يوما !.. وشعر بأنه لم يعد بوسعه أن يقف بمعزل ..

وكان « تيو » فى انتظار « مارى فاوست » فى المطار .. فاقترب « چيون » منها ، وقال : « تعالى فى رعايتى برهة ، فانى أعتقد أن كلا منا سيحتاج الى الآخر ! » .. وحدجته بنظراتها المتعجرفة . وقالت : « ماذا تقصد ؟ .. اذا كنت تعنى .. » فصرخ فيها : « اخرسى !.. لست أريد منـك شيئا ، ولكنى سأستضيفك فى فندق .. وسنتكلم فيما بعد فى أشياء كثيرة ، وهذا كل ما أنشد منك ! » .. وارتجفت شفتاها ، وانسابت الدموع من عينيها ، وهى تتبعه فى صمت !

ودوى فى أذنى چيون صدى صوت سومبيون : « تول رعاية مارى ! »

اللحظات الأخيرة لأهل (بومبيى)

لعالم الآثار الايطالى ((اميديو مايورى))

استكمالا لتصوير مأساة (بومپيى) ، ننقل – فى الصفحات التالية – قصة مؤثرة جاءت فى تقرير وضعه ((اميديو مايورى)) ، مدير الآثار بمنطقة (كامبانيا) – فى ايطاليا – منذ سنوات قلائل ، عن أعمال الحفر التى يشرف عليها فى (پومپيى) ..

● **ليست** قصة موت (پومپيى) المفجعة ، بالأمر الجديد . وقد يتساءل الكثيرون عما يدعونى الى اعادة روايتها . وجوابى عن هذا ، هو **أن سبعا وثلاثين سنة من الخدمة – كرئيس لأعمال الحفر فى الأطلال – علمتنى أن قصة (پومپيى) لا تزال أبعد من أن تكون قد اكتملت ، فهناك فصول جديدة تنكشف فى كل وقت !..** ذلك لأن (پومپيى) – على غير المألوف فى كثير من ضحايا الثورانات البركانية – لم تمت ((**محترقة**)) ، وانما ماتت ((**مختنقة**)) !.. فقد قدر لركامات الصخر والرماد – التى سلبت المدينة حياتها – أن تكون هى بالذات التى صانت آثارها بأبدع مما كان فى وسع أمهر امناء المتاحف ان يفعلوا .. **وهذا هو السر فى أننا نتعرف** – فى كل يوم – على مزيد من المعلومات . اذ أننا لا ننقب فى اطلال ، بل نكتشف عن متحف رائع لم يمس !

لنأخذ – مثلا – حالة ثلاثة عشر شخصا من أبناء (پومپيى) ، عثرنا عليهم من عهد قريب .. انهم يمثلون صورة مؤثرة للذعر والمجالدة !

ولقد استطعنا أن ندرك أنهم كانوا ثلاث عائلات : أثنتين منهما من المزارعين ، والثالثة أسرة تاجر . وقد كانوا يقيمون فى الطرف الجنوبى للمدينة ، وهو أبعد أطرافها عن البركان . .

ومن الطبيعى أنهم تجمعوا معا ، عند أولى نذر الخطر ، وتداولوا الأمر بسرعة ، ثم بدا أنهم قرروا أن يعتصموا بأشد بيوتهم الثلاثة متانة ، الى أن ينقطع انهمار الأحجار والحمم . على أن هذا السبيل لم يكد يخف ، حتى فوجئوا بخطر أشد رهبة ، وما من سبيل الى صده . **اذ خيمت على المدينة سحابة سوداء كثيفة ، يخالطها بخار الماء ، وأخذت تشيع فى الهواء ، فتملأ العيون والأنوف والحلوق ، وتتسرب الى الصدور فتترسب وتخنق الأنفاس !**

ولم يجد أفراد العائلات الثلاث بدا من أن ينشدوا الفرار من البيت ، وقد تماسكت أيدى أفرادها فى تعاطف لم يبدده خطر الموت . . وراحوا يهيمون مذعورين ، والأرض قد استحالت الى مزالق ، والظلام يسد المسالك ، والرماد الممتزج بالبخار يهطل مدرارا عليهم ، فلا يلبثون أن يختنقوا ، واحدا بعد آخر . . ويستمر الرماد اللزج فى الهبوط ، ليلفهم !

ولم يكونوا قد ابتعدوا عن البيت ــ الذى اعتصموا فيه أول الأمر ــ بأكثر من ثلاثين ياردة ، عندما عثرنا عليهم ، بعد حوالى ألف وتسعمائة عام !. . ولعل أغرب ما فى الأمر ، أننا لم نعثر على عظام متفحمة ، ولا آثار لحروق . . فكأنهم ثلاثة عشر قالبا مصبوبا ، تصور أصدق تصوير ما كان عليه أصحابها : أساليب تصفيف الشعر ، وأطرزة الثياب ، ومعالم الرعب ، وكل اختلاجات الموت !

ثلاثة عشر وضعا صانتها قوالب الرماد

● **ونحن** نعثر — فى الحفائر — على نوعين من الضحايا : الاغنيـاء الذين اعتصموا ببيوتهم ، فتحولت الى سجون قاسية ، ثم الى قبور ارتموا فى ارجائها ، وكل مقتنياتهم معهم لم تمس .. وهؤلاء نجـدهم هياكل عظيمـة سليمة ، لان الركامات البركانية غطت البيوت ، فكفلت جفافا أبقى على العظام .. **أما النوع الآخر ، فهم أولئك الذين حاولوا الهرب من الأهوال . ونعثر عليهم فى الطبقات العليا من الركامات ، وقد لفهم الرماد اللزج برفق ، ثم تجمد عليهم ، فكأنه قوالب من الجص صـانت كل معـالم الأجسـام .. حتى توترات العضلات ، وطيات الثياب . ولقد تحللت لحومهم — على مر الزمن — ولكن القوالب سجلت كل التفصيلات .**

ومع ان هذه القـوالب كانت من أول ما تسنى العثور عليه ، فاننا لم نعثر قط على اكمل من اشكال هؤلاء الثلاثة عشر ، ولا على أسلم من قوالبهم . وهذا ما جعلهم مادة مثيرة للدراسة ، فاستطعنا أن نتوصل الى تفصيل دقيق للحظات الأخيرة الرهيبة فى حياتهم .. فعندما قرروا الهرب ، انطلقت احدى أسرتى المزارعين فى المقدمة : فى الطليعة خادم يحمل على منكبيه كيسا مليء — فى عجل — بالمؤن .. وقد سقط بجوار سور بستان للخضر ، ووجدناه فى وضـع الزاحف ، بشكل ينم على ان الكيس لم يكن يثقله ، ولكن الظـلام كان يعوقه ، وهو يقاوم الحمم المتساقطة والرياح اللاهية !.. ووراء الخادم صبيان أمسك كل منهما بيد أخيه .. ولعلهما — وسط هذا الجحيم المظلم — راحا يصرخان فى فزع ، ثم استلقيا على ظهريهما ، وكأنهما يستسلمان للنوم بعـد بكاء طويل !.. **وخلفهما رب الأسرة وزوجته ، وقد انكفأ كل منهما على وجهه ، وماتا والرجل يعاون زوجته المرتعشة الأوصال !**

وخلف هـذه الأسرة ، أسرة المزارع الثـانى : زوجان شابان ، وابنة صغيرة .. وقد رفع الرجل الى رأسه عباءة ـ أو لعلها وسادة ـ اتقاء للحمم .. وعلى مقربة منه ، جثت زوجته على ركبتيها ، وماتت وهى تسد فمها بطرف ثوبها ، فى مجهود يائس لصـد الرماد عن التسرب الى حلقها .. أما الابنة ، فقد أخفق القالب فى أن يبين أكثر من أنها كانت عجفاء ، هزيلة !

وأخيرا أسرة التاجر : فتيان دون العشرين ، وقد التفت اطرافهما ، مما يدل على أنهما كانا متماسكين وسقطا معا .. ثم الأم ، وكانت ضعيفة ، تحاول أن تجر نفسها ، وتنشغل ـ فى الوقت ذاته ـ بابنة صغيرة لها .. والتاجر فى المؤخرة .. وقد وجدناه جالسا ، يرتكز بيمناه على أحجار ، وقد احنى ظهره ، وكأنه يحاول النهوض ليناضل الاختناق ويساعد اسرته ..

هذه الأشكال الثلاثة عشر شهود صامتة للواعج الألم والعذاب التى عاناها أهل (پومپيى) .. ولا تزال القصـة بعيدة عن الاكتمال !

مطبوعات كتابي

قدمت اليك « مطبوعات كتابي » حتى الآن ٧٦ كتابا من أروع نماذج الادب العالمي ، في مختلف العهود ، بينها عدد من الشوامخ الخالدة ، نذكر منهـــا :

حياة امراة (جزءان) ... ... جي دي موباسان
مدام بوفاري (جزءان) ... ... جوستاف فلوبير
قلوب ضالة ... ... رابندرانات طاغور
الظمأ للحب (قصة فنلندية) ... ... ميكا والتـــاري
جين اير (٣ أجزاء) ... ... شارلوت برونتي
فرنسا الجريحة على ضفاف النيل ... ... ادوين جون ديفز
الابن الضال (أسرة روكفيلر) ... ... هنـــرى بوردو
بيلا دونا (سائحة في الاقصر) ٣ اجزاء ... ... روبرت هتشـــنز
اعترافات جان جاك روسو (٥ أجزاء) ... ...
الالياذة (٣ أجزاء) ... ... هــــــوميروس
قصص من روما ... ... آلبرتو مورافيـــا
أرواح هائمة ... ... ســـومرست موم
هل تحبين « برامس » ... ... فرانسواز ساجان
مرتفعات ويذرنج (٣ أجزاء) ... ... اميـــلي برونتي
ضحكة في الظلام ... ... فلاديمير نابوكوف
ماريا ايفانوفنا ... ... الكســندر بوشكين
كلهم أبنائي ، ومن فوق الجسر ... ... آرثـــر ميـــللر
نيتوتشكا (جزءان) ... ... دســـتويفسكي
الالهة عطشي (جزءان) ... ... اناتول فـــرانس
انا كارنينـــا ... ... تولســـــتوي

● ومن الآداب القومية للشعوب :

ديكاميرون (الف ليلة وليلة الايطالية) ... ... بوكاشـــــيو
قصص من الصين ... ... لطائفة من المؤلفين
ليالي بلزاك (الف ليلة وليلة الفرنسية) ... ... اونوريه دي بلزاك
الف ليلة وليلة الهندية ... ... لطائفة من المؤلفين

محتويات الكتاب

مجلة الصـــغار

كتاب تصدر عن الشعب مؤسسة صحفية عربية
اخصائيون فى المطبوعات العاجلة
عضو اتحاد الصناعات
الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة ـ ت ٣١٨١٠ ● مكتبة دار الشعب ـ ت ٢٩٩٩١
التوزيع : مكتبة دار الشعب
المطابع : ... ت ٣١٨١٠ ـ ٣١٨١٨ ـ ٣١٨١٩ ... ٨٤٤٨١
رئيس مجلس الإدارة السيد ابراهيم


كتابي
عدد خاص
روائع
القصص
العالمي
"مجلة الصّغار"
هدية منفصلة

كتابك

مجلة شهرية للثقافة العالمية



اطلب مع هذا العدد
هدية منفصلة فى ٣٢ صفحة

مجلة الصغار
للأولاد والبنات

رقم : ١٠٥

التحرير : ٢٣ شارع عرابى (توفيق سابقا) ، شقة ١١١ ، القاهرة ـ تليفون ٤٦٤٧٥
الناشر : دار الشعب ـ ٩٢ شارع قصر العينى
القاهرة ـ تليفون ٣١٨١٠

ثمن النسخة : ١٥ قرشا

اللوحات الداخلية

بريشة الرسام : ((سمير ثابت))



بقلم : ابراهيم المصرى

من مآثر حرب من حروب الاستقلال

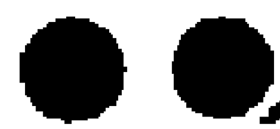
« كانت حرب الاستقلال الايطالية دائرة الرحى فى سهول مقاطعة (لومبارديا) ، عام ١٨٢٠ ، وكان المجاهدون الايطاليون يقاتلون جيش الاستعمار النمسوى قتالا عنيفا ، تحت زعامة بطل من ابطالهم يدعى « اتيليو » وفى خلال هذه الحرب المجيدة وقعت حوادث هذه القصة التى تعتبر مأثرة من مآثر الجهاد الوطنى فى ايطاليا والعالم » .

● كانت الجدة العجوز « ماريا » قابعة فى ركن من أركان البهو الصغير ، تحدق فى الشعلة المستطيلة من شمعة كبيرة مثبتة فى اناء ، وقائمة بجوارها فوق منضدة . وكانت هذه العجوز — التى أشرفت على السبعين — قد غافلت أسرتها منذ بضعة أشهر ، واندست فى صفوف جيش التحرير ، وقاتلت معه ، وتمكنت من قتل أربعة ضباط نمسويين . **فلما ألقى القبض عليها ومثلت أمام الحاكم العسكرى النمسوى ، اصابتها نوبة مروعة من التشنج ، وطفقت تضحك ، وتصرخ ، وتهذى !.. فاعتبرها الحاكم عجوزا مجنونة وخرقاء ، فأمر بجلدها لتكون عبرة لسواها ، وألقى بها فى السجن شهرا ثم أطلق سراحها** . وها هى ذى ماريا فى بيت زوج ابنتها ، منكمشة فى مقعدها العميق ، تضحك فى بلاهة كعادتها ، وتتأمل الشمعة المضاءة ، وتخالس بيدها المرتعشة وهج النار ، وعينها الثاقبة تحوم حول ابنتها « روزين » .

وكانت « روزين » تنظر الى أمها فى حسرة ، وتستغرب كيف أصبحت هذه المرأة ـ التي اشتهرت برجاحة العقل وقوة الأعصاب ـ مجنونة ومعتوهة !.. ومع ذلك فان روزين كانت تشكر ربها ؛ وتقول فى نفسها ان أمها لو ظلت متنبهة وعاقلة ، لكان الموت مصيرها المحتوم ولابد ، على يد الحاكم النمسوى !

على أن روزين لم تكن تفكر فى أمهـا فقط ، ولا كانت تتحسر عليها وحدها ، بل كانت تفكر أيضا فى ابنها هى .. ابنها الوحيد « كارلو » الذى غادر البيت منذ ثلاثة أيام ولم يعد ، والذى انطلق والده يجوب سهول (لومبارديا) بحثا عنه على غير جدوى !..

والحق أن « كارلو » كان قد تحول فجأة وتغير . لم يعد ذلك الشاب الذى كانت تفخر به أمه ، لاستقامته ورصانته وخلقه الأبى المتين . كان داعيــة من دعاة الحرية كوالده ، وعلما من أعلام البطولة فى قريته . وكان قد أحب وخطب الفتاة الطاهرة البريئة المجاهدة « جلوريا » . ولكنه لم يلبث ان خان عهدها ، ونبذها ، وأصبح ـ بين عشية وضحاها ـ ماجنا مستهترا خليعا ، يسخر من أبيه الكهل الوطنى الغيور ، ويهزأ بأمه التى تنافس فى صدق الوطنية زوجها ، ويتعمد تحقــير جدته المجنونة العجــوز ، التى كانت تحتمله فى جلد وصبر ، وهى لا تفتــأ تحدق فيه تحديقا ثابتا غريبا ، بينمـا تتحسس أصابعها المرتعشة الشمعة المضاءة ، وتخالس ـ فى حذر ـ وهج النار ..



● ورفعت روزين رأسها ، وتأملت صورة ابنها المثبتة الى الحائط ، وسرعان ما ذكرت علاقته بالأرملة الجميلة الثرية « ايفونا » ، فغلى الدم فى عروقها !.. هــذه المرأة هى التى

أفسدت خلق ابنهـا .. هذه المرأة هى التى سلبته خطيبته جلوريا ، وجعلت منه فتى مدللا مخنثا وضيعا ، لا ينشد فى الحياة غير أسباب الترف والوان اللذة ، ومفاتن العز والسؤدد والجاه العريض !

وتقبضت تقاطيع وجه الأم ، وشاع فى عينيها الغائرتين ضباب الهم والأسى . فهتفت فى سريرتها ، من أعماق نفسها وهى تتلوى : « **كيف أنقذه من براثن تلك الفاجرة ؟.. كيف أسترد ولدى ، ولدى الذى لم أرزق بسواه .. ولدى الذى كان غاية لحياتى ، وأملا لوطنى ، وفخرا ومجدا لنا أنا وزوجى المجاهد المكافح المسكين ! ؟** »

وتلفتت الى أمها ، عسى أن ترى فيها انسانا حيا يمكن أن يستجيب لها، ولكنها أبصرت الجدة العجوز زائغة العينين ، متقدة الوجنتين ، تتفرس فى اللهب الأحمر كعادتها ، وتضحك وتهذى كالأطفال . فاعتصر الألم قلب روزين ، ولم تستطع الا أن تحنى رأسها خائرة ومنهوكة ، وتطلق لدموعها العنان ..

وفجأة سمع طرق متواصل على باب البيت ، فأسرعت روزين ملهوفة وفتحته ، ولكنها بدل أن تبصر ابنها أو زوجها ، ألفت نفسها تجاه الفلاح الشيخ السكير « أنطونيو » ، ينظر اليها بعينيه الحادتين نظرة قاسية حاقدة ، ويدفعها بيده ويدخل !.. وارتمى الفلاح على مقعـد وهو يسعل ويترنح . لم يلتفت الى الجدة المعتوهة ، بل تطرح واسترخى ، وتحول صوب « روزين » ، وقال فى خشونة وانفعال :

ـ تعلمين انى فقدت ابنى الوحيد فى المعركة القائمة بيننا وبين أعداء بلادنا ، وانى ادمن الآن شرب الخمـر ، لا لأتعزى ، بل لأستنهض البقية الباقيـة من قواى وأستطيع أن أصيب النمسويين فى مقتل ، وأنتقم لولدى !.. فهل انت أفضل منى ، وهل تقيمين وزنا لحيـاة ولدك أكثر مما كنت أنا أقيم وزنا

لحياة ولدي ؟ . . ان حياة اولادنا ملك لبلادنا يا روزين . وكل ام تؤثر حياة ابنها على مستقبل بلادها هي ام خائنة لوطنها الذى هو ابنها الحقيقى الخالد السرمدى !

فذهلت المراة وارتعشت ، وغمغمت :

ــ لا افهمك . . صرح بما فى ضميرك يا أبت ولا تعذبنى !

فدنا الشيخ منها وهو يتعثر ، وأمسك بيدها ، وقال فى صوت غائر أجش :

ــ ان ابنك كارلو لم يعد منا . لقد التحق بمكتب المباحث التابع للنمسويين ، وهو الآن جاسوسهم علينا !

ففغرت روزين فاها كبلهاء ، وجمدت كأنما قد ضربتها صاعقة . اما العجوز المجنونة فقد تاهت عيناها ، وتوزعت نظراتها ، وارتجفت يدها الضــــامرة ارتجافا متعاقبا وهى تداعب النار . ثم هزت كتفيها ، وابتسمت ومضت تدمدم وتضحك وتهذى . فرمقها الشيخ بنظرة مستنكرة وأردف :

ــ يجب أن تصارحى زوجك يا روزين . انه رجل وطنى مجاهد لا شبهة عليه . . وهو ساعد زعيمنا وسنده ، بل هو انبغ واقدر كاتب لتلك النداءات الحماسية التى نوزعها كل يوم على جنودنا ، والتى تضرم فى صدورهم جــذوة الوطنية وروح الأمل والايمان والكفاح . فعار على الولد الا يكون صورة من أبيه ، وعار على الأسرة كلها ان لم ترده عن غيــه وتلزمه محجة الصواب !. . هذا انذار لكم يا روزين فاحــذروا !. . لسوف تنكشف الحقيقة للزعيم فيورد ابنك الوحيــد ــ ان عاجلا أو آجلا ــ مورد التهلكة !

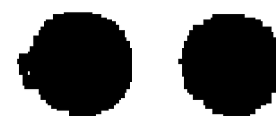
فارتعدت المرأة ، وافاقت بغتة من غشيتها ، وأدركت . ولم تكد تدرك وتفهم وتتــأمل ، حتى هالتها فظاعة الاتهــام الشائن ولم تصدق . لم تستطع أن تتصور أو تسمع أو

تصدق . فاندفعت نحو الشيخ كوحش كاسر ، وصرخت فيه وهى تختلج وتهدر :

ـ انت كاذب !.. اخرج .. اقول لك اخرج !.. ان هذا البيت اطهر واشرف من ان يلوثه مثلك ايها السكير المخرف النمام !

فتحامل الرجل على نفسه وخرج . ولكنه قبل أن يصل الى عتبة الباب ، التفت الى المرأة وقال :

ـ لقد أبرأت ذمتى . واذا كانت أمك العجوز مجنونة ، فلا تكونى أنت وزوجك من العميان !



● وانصرف وهو يتطوح . فاتبعتــه روزين النظر وقد استولى عليها ضرب من القلق يشبه الخبال . فاندفعت تذرع الحجرة وتردد : « امكن هذا ؟.. اى الاحتمال تصور شىء كهذا ؟.. ابنى العزيز المعبود الذى قاتل فى صفوف المجاهدين سنة بطولها ، ينقلب من فدائى الى جاسوس ، ويجلب العــار على نفســه وعلى والده وأسرته كلها ؟.. لا .. هذا افك وزور ! .. هذه وشـــاية مختلقة ، بلغت من الخسة والدناءة حدا يستوجب قطع لسان كل من يروج لهـــا !.. ومع ذلك فانا ارتعش .. انا اوجس خيفة بالرغم منى وارتاب .. ان الهوى يختم على البصر والبصيرة ، والانثى الحقيرة الفاجرة قد تخنق فى الرجل كل شرف وكل عــزة وكل ضمير !.. ولكن لا .. لا يمكن أن تكون « ايفونا » قد تغلبت على ما أودعتـــه أنا فى نفس ولدى من مبادىء وفضائل وقوى . لا يمكن أن تكون قد قهرتنى . أن ابنى هو قطعة منى ، وبضعة من أحشائى ودمى . فهو اذن شبيهى . ومن المحال أن يتنكر للبطن الذى حمــله والدم الذى صاغه وأوجده ! »

واطلقت صيحة فرح مدوية ، وقالت وهي تنظر خلال النافذة : « ها هو كارلو ! »

ودخل الشاب يختـال فى ثوب أبيض أنيـق ويبتسم . فارتمت أمه عليه ، فعانقها وقبلها ، بينما كانت الجدة المعتوهة تشرئب اليه بعنقها تنتظر منه أن يحييها ويقبلها هى ايضا . ولكنه لوح لهـا بيده عن بعـد واهملها ، وشرع ينضو عنـه ملابسه . وكانت أمه تتفرس فى جبهته العريضة الناصعة ، وفى عينيه الزرقاوين وخديه الناضرين ، وشعره السـاحر المموج الذهبى ، وتتذكر جلوريا المسكينة ، وايفونا الفاجرة التى سلب لبها هـذا الجمال .. وتتذكر فى الوقت نفسـه الشيخ انطونيو فترتعش ... !

وجاشت عواطفها ، وضاق صدرها بما يحمل . فصاحت بابنها وهى تفتأ تحدق فيه :

ـ أين كنت طوال هذه الأيام الثلاثة ؟.. لقد تقطع قلبى وقلب والدك لهفة عليك . انه لا يزال يبحث عنك . ذهب الى ايفونا فلم يجدها فى بيتها ولم يجدك . فأين ، أين كنت ؟

فتطلع اليها الشاب لحظة ، وانعم النظر فيها ، ثم قال فى صوت هادىء ثابت عميق :

ـ كنت معها .. فى منزلها القروى الصغير... وسأتزوجها .. سأتزوجها يا أماه بعد أسبوع !

فاستشاط غضب الأم وقالت :

ـ **وخطيبتك ؟.. خطيبتك المنكودة ؟.. امن اجل تلك الأرملة الفـاجرة يطاوعك ضميرك على التخلى عن خطيبتك العذراء الطاهرة جلوريا ، الفتـاة الوطنية المجاهدة التى طالما اسعفت جرحانا ، وحملت المئونة والسـلاح الى جنـودنا ، واستهدفت للموت تحت وابل من الرصاص ؟ !**

فتمتم الشاب :

ـ انى أحب ايفونا ، ولا بد ان اتزوجها !

فجحظت عينا المرأة وتشبثت بابنها وهتفت :
ــ محال ! لن تقتلنى وتقتل والدك !.. لن تبيع بالمال جمالك وشبابك وكرامتك !.. ابن تلك الأرملة الثرية ذات ماض يندى له الجبين . لقد اتخذت لها عشاقا بعدد ما فى طبعها المستهتر المتلون من نزوات . ثم هى صديقة أعدائنا ، صديقة النمسويين ، تغشى محافلهم ، وتتعاون معهم ، وتخدمهم على حساب وطنها دون ما وازع من خلق أو ضمير !



● تملص الشاب من أمه فى عنف ، وانفجر بغتة ، وصرخ فى تواقح قاس صريح :
ــ وأنا أيضا سأعاونهم .. لن احتمل الحياة بعد الآن !.. ماذا جنيت من خدمة وطنى ؟.. الفقر والبؤس والتشرد والرعب والاستهداف لموت عاجل يحرمنى متعة الحب والشباب ، وأنا بعد لم أعرف الدنيا !.. أتظنون أنكم أقوى من عدوكم ؟.. سيتغلب هذا العدو فى الغد عليكم ، ويصبح أقواكم وأقدركم صديقا له !.. فلماذا لا أصادق أنا العدو القوى منذ الآن ؟.. لماذا أخدع نفسى وأغامر بشبابى وأنزل مختارا عن حقى المشروع فى الحياة ؟.. لا .. سأتزوج ايفونا ، وأعاون النمسا القوية ، وأكون أول أيطالى عرف أين هو العقل والحكمة والمصلحة والصواب !
فغلى الدم فى عروق روزين وأمسكت بابنها فى ذعر وصاحت :
ــ اذن فحق ما قيل لى من انك انكرت ايمانك ومعتقدك والتحقت بمكتب مباحث العدو ؟.. تكلم .. اجبنى !
فحنى الشاب رأسه فى سكون ، وقال :
ــ نعم !
فانخلع قلب الأب وصرخت :

ـ تريد أن تعيش أنت وتقتل وطنك ؟.. تريد أن تعيش أنت وتقتل أباك وامك ؟

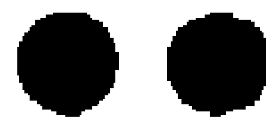
فقال كارلو :

ـ ما على الحمقى الا ان يحتملوا المصير الذى اختاروه . ومع ذلك فانا ساصـــارح والدى . ساحاول أن أقنعه . ساحاول ان أرده الى صوابه وأنقـــذه وانقذكم قبـــل فوات الوقت !

فهتفت روزين :

ـ اياك .. اياك ان تفعل !.. اذهب .. اخرج أنت أيضا ! واذا كان ضميرك قد مات ولا بد لك من ارتكاب جريمة ، فاقترفها وانت صامت . اقترفها وانت بعيد عنى ، ودعنى انقذ على الأقل البقية الباقية من بيتى وشرفى وحياتى .. اذهب .. عجل بارتداء ملابسك واذهب !

فتحركت العجوز المجنونة ، ومدت راسها ، وجعلت تنظر الى الشاب فى بلاهة ، وهى تضحك ضحكا متقطعا متعاقبا ، وترمق من طرف خفى لهب الشمعة وتراقص النار ..



● **واثار** ضحكهـــا أعصاب روزين ، فرددت ملتمســـة متوسـلة :

ـ اذهب .. اذهب ولا تعد أبدا .. اذهب قبـــل أن ياتى والدك !

فهزت العجوز اصـــبعها ، وتمتمت فى صوت يشـــبه النحيب :

ـ لا .. لا .. ولماذا يجب أن يذهب !.. انى أحبه .. انه عشيقى أنا !.. انه جميل !

فضحك كارلو مقهقها . وعاد فارتدى ثيابه متباطئا ، وأمه تستعجله وتحثه خشـــية أن يلتقى بوالده فيصطدم

الرجلان وتهب العاصفة . بيد أن القدر ، القدر الساهر ، القدر الساخر ، القدر الذى يجهل الانسان سره ويحار فى فهم تصاريفه ، كان أسبق من روزين .. فقد دخل الوالد فى تلك اللحظة نفسها . دخل الوالد ولم تهب العاصفة . لم تهب العاصفة بسبب أية كلمة نطق بها كارلو ، لأن الشاب لم يستطع أن يندفع ويتكلم عندما أبصر والده مقبلا ، ساجى الطرف ، شارد اللب ، متجهما متقبضا متصلبا !

ولم يلتفت الوالد الى ولده ، ولم يسأله عن سر تغيبه الطويل عن البيت ، بل التقط أنفاسه ، واستجمع قواه ، وقال فى صوت واضح المخارج ، باتر النبرات :

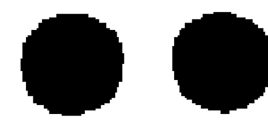
ـ العدو يتعقبنى .. لقد عرف الحاكم النمسوى أنى أنا الذى اكتب تلك النداءات الوطنية الحماسية المثيرة ، فاصدر امره بالقبض على !

فوجم الشاب ، وجمدت روزين ، وظلت العجوز مثبتة عينيها فى الأشخاص الثلاثة ، كأنها تستغرب دهشتهم ووجومهم وتريد أن تفهم !.. ولم تعد يدها المرتعشة تخالس النار . أما الوالد الكهل فلم يحفل باضطرابهم جميعا ، بل استطرد متجها نحو زوجته وابنه :

ـ واجبك أنت يا روزين أن تسهرى على بيتك ، وتعتنى كل العناية بأمك ، وتنفقى فى حكمة واقتصاد من المبلغ الذى ادخرته أنا لك . واذا نفد المبلغ واحتجت الى مال ، فالجئى الى الزعيم فهو لابد أن يساعدك .. **أما أنت يا كارلو فاحرص على عملك فى المصنع ما استطعت . واذا انتدبك الزعيم فى مهمة وطنية فاطعه دون اعتراض . وغاية ما أطلب منك هو أن ترتد الى مسلكك السابق القويم ، وأن تعود الى جلوريا ، وأن تكون أنت رب الأسرة مكانى ، وأن تنهض بهذا العبء**

كرجل شريف ، فتقطع كل صلة لك برفاق السوء ، وكل علاقة لك بالفاجرة ايفونا ، ولا تترك بيتك واسرتك فى الليل ابدا ..
لا اريد ان احاسبك الآن على الأيام الثلاثة التى أمضيتها خارج البيت . ولكنى سأحاسبك حسابا عسيرا لو أننى عدت حيا الى هنا . أما اذا قدر لى أن أموت ، فأنت عندئذ وضميرك . ولا اظن أن ضميرك سيطاوعك ـ ولو لحظة ـ على التهاون فى رعاية أمك التعسة المسكينة وجدتك المنكوبة العجوز .. ان أملى كله معقود عليك يا ولدى .. فتعال .. تعال الى صدرى وقبلنى !

فأجهشت روزين بالبكاء . وفتح الوالد الكهل ذراعيه ، وضم ولده الى صدره وقبله . ولكن الشاب كان مطرقا . كان مقطبا . كان كأنه يأبى الا أن يكبح عواطفه ويقاوم ، فترك والده يقبله ولم يتحرك !.. فاستغرب الرجل جموده ، وعزاه الى تأثره واضطرابه . فقبله مرة ثانية فى حرارة وحنان ، وهم بأن يعانق « روزين » أيضا ويقبلها . وفى تلك اللحظة ، ماج البيت ، وسمع فى الخارج وقع حوافر جياد ، متبوع بصهيل وضجيج . فتصلب الوالد ، وارتعدت الأم ، وأجفل الشاب . وهبت العجوز المتوهة واقفة ، وجعلت تحدق فى النـــار ، وتضحك ضحكتها الخفيفة الخاوية المزعجة البلهاء ..



● وفتــح الباب فى عنف ، ودخل منه ضــابط نمسوى مصحوب بأربعة جنــود . وقال وهو يتجه من فوره نحو الوالد الكهل :

ـ **ألست انت المزارع وتاجر الحبوب « انريكو » ؟**

فتقدم الرجل وأجاب :

ـ نعم .

فقال الضــابط :

ـ لدى أمر بالقبض عليك انت وزوجتك !

فتطلع اليه انريكو مبهوتا وغمغم :

ـ زوجتى ؟ !

فأردف الضابط :

ـ نعم . الأمر واضح ، وهو يقضى بالقبض عليك انت وزوجتك وارسالكما الى المنفى ، الى معسكر الاعتقال فى النمسا ، حيث تشتغلان بقطع الأحجار وتعبيد الطرق مدى الحياة ..

فذهلت روزين ، وارتجف انريكو وتطوح . بيد أنه تمالك نفسه وقال للضابط فى دهشة :

ـ وهذه العجوز ؟.. وولدى ؟.. ولدى كارلو ؟.. ألم ينص الأمر على أن يعتقلا معنا ويرحلا فى صحبتنا هما أيضا ؟

فابتسم الضابط وأجاب :

ـ العجوز سنرسلها الى أحد المستشفيات . أما ولدك ، ولدك كارلو ، فقد أصبح منا . انه يجاهد الآن معنا . انه اليوم عضو عامل فى مكتب المباحث النمسوى !

فتداعت الام وانسحقت . أما الوالد الكهل فقد شهق وتراجع كأنما قد نفذت الى صدره طعنة سكين . غاض دمه ، واصفر لونه ، واتسعت حدقتاه اتساعا مروعا ، وبدا عليه أنه يتأرجح على حافة هوة سحيقة ، يشهد فيها مصرع آماله كلها وهو حى . غير أنه تمالك نفسه ، واستنهض جاهدا ميت قواه ، وانقض على ولده وصاح :

ـ أنت ؟ !.. أنت أصبحت مارقا غادرا وخائنا ؟ !.. أنت أصبحت نصير المستعمر فى بلادنا ، وصنيعته فى قريتنا ، وجاسوسه الحقير المأجور علينا ؟ !.. تكلم .. اجب !

فأشاح الفتى بوجهه وصمت . ثم اندفع فى جراة منكرة وقال :

ـ ما زال في وسعي أن أنقذك وأنقذ أمي لو افتديتما بي !

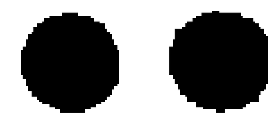
فصرخ الوالد الكهل :

ـ اخسأ .. فما أنت الا وغد !.. ابتعد .. انطلق من هنا !.. عليك اللعنـة .. عليك اللعنـة من صميم حسرتي وعذابي . عليك اللعنة من خالص حقدي وعجزي ومذلتي !

واخفى وجهه بين راحتيه ثم انتفض وأهاب بزوجته :

ـ اعدي متاعنا يا امرأة ولنذهب !.. الوداع يا ماريا !.

واندفع نحو العجوز وقبلها . ثم اتجه صوب النـافذة المفتوحة . وظل يسرح بصره في الفضاء فترة ، ويستنشق ملء رئتيه هواء قريته العزيزة ، كأنه يودعها هي الأخرى !.. ولما أتمت روزين جمع متاعها ، وهمت بأن تميل بالرغم منها على ابنها الوحيـد لتقبله ، عاجلها الكهل بلفتة وحشـية مستنكرة ، ثم جذبها في عنف ، وتقدم الجند ـ متبوعا بها ـ وخرج منصوب القامة ، مرفوع الرأس ، دون أن يلقي على ولده نظرة !



● وبعد أن أوصد الباب ، وسـاد في الحجرة الملتمعـة بضوء الشمعة الكبيرة سكون شامل زافر ، **تحركت العجوز المعتوهة ، وتغير بغتة وجهها الداكن المصفر ، وزايله ـ في مثل لمح الطرف ـ كل اثر للبلاهة والذهول والشرود . فهبت من مقعدها ، ودنت من الشاب ، وصاحت به وهي تهزه هزا متعاقبا ، وتردد :**

ـ خـذني .. خذني معـك !.. لن اذهب أبدا الى المستشفى .. أريد أن أعيش معك .. أن أعيش بجوارك .. أتعتقد ان امرأة مثلي كانت بالأمس القريب مثال العقل والقوة ، يمكن أن تصبح بين عشية وضحاها مجذوبة ومجنونة ؟..

انهم المجانين !.. اما انا فقد تبت وندمت . عرفت أن الوطن خدعة ، والجهاد لوثة ، والاستقلال ضرب من المحال .. عرفت قيمة الحياة وانا على حافة القبر .. ما كدت أقتل الضباط النمسويين الاربعة حتى ثبت الى رشدى ، ولمست حماقة فعلتى ، فاصطنعت الجنون كي أنجو من الموت واعيش .. فدعنى اعيش معك يا كارلو وخذنى !.. أنت الحياة بأسرها اليوم فى نظرى .. سأحب زوجتك كما أحبك .. سأخدمها كما أخدمك . فلا تحرمنى من هذه النعمة يا كارلو، وخذنى !.. خذنى اليها .. الى ايفونا .. انها تنتظرك ! لماذا تتردد ؟.. أتريد أن تجهز على .. أنت ؟.. ولدى ؟.. حبيبى ؟.. كل ما بقى لى ؟.. لا ، بل ضع ملابسك هنا .. ضعها فى هذه الحقيبة ولتمض .. نعم . هكذا .. آه .. اشكرك .. اشكرك واقبلك ، اقبلك من صميم فؤادى !

وما ان انحنى الشاب على الحقيبة وطفق يدس فيها ملابسه ، حتى برقت عينا العجوز وتوترت عضلات وجهها ، وغافلت كارلو وهو مطمئن وانقضت عليه .. وقبل ان يتنبه او يتحرك أو يحاول النهوض ، اسرعت فاختطفت غدارته من صداره ، وصوبتها الى وجهه ، وصاحت به وعيناها الجاحظتان تلمعان :

ـ أكنت حقا تظن أني قد تبت مثلك عن الجهاد يا كارلو ؟ .. لن اتوب ابدا عن تأدية واجبى وفى صدرى نفس يتردد !.. انظر الى هذه الشمعة المتقدة .. لقد كنت أضيئها كل ليلة ، وأبقيها هنا ، بجوارى ، لأذكر فى وهج اللهب المقدس المندلع منهـا أن على ـ أنا العجوز الفانية ـ أن أجاهد أيضـا ما استطعت ، فى سبيل بلادى ! أجل ، أنا ما اصطنعت الجنون

(البقية صفحة ٤٩)

قصة من الهند

القربان!

للكاتبة الهندية: نرجس دلال



ترجمة : ح • ١

شخصيات من مخلفات الاستعمار فى الهند

من ذوى النفوس الضعيفة ، من يظن أن الانتساب للأجنبى مدعاة للفخر والزهو ، حتى على بنى وطنه وعنصره .. وقد عانت البلاد التى تعرضت للاستعمار وقاحة كثيرين من هذا الصنف من الادعياء .. وكانت الهند أكثر معاناة من سواها ، اذ كان الانتساب للجنسية « البريطانية » مبعث عجرفة وصلف أن حرموا من الاعتزاز بلونهم ومن الاعتداد بقوميتهم ..

وفى هذه القصة ، تصور لنا الكاتبة الهندية « دلال نرجس » احدى هذه الشخصيات ، فى أحداث جمعت بين الواقعية والخرافة !

● **انطلقت** السيارة ناشرة ضوضاءها فوق طريق وعر يغطيه الحصى ، وقد علت طبقة من التراب الأسمر أجنحتها وغطاءها وسائر أجزائها ، التى كانت تتلألأ قبل قليل .

وامتدت الحقول القاحلة الجرداء فى كل الجهات ، فى أخاديد متكلسة ، حتى سفوح الجبال التى لفتها غلالة من وهج الحر .. غلالة خفيفة كالدخان ، مائلة الى الزرقة .

ولم يكن السيد « تريانا » يكف عن التطلع — وهو فى جلسته المريحة — الى ما حوله من مناظر تلك المنطقة . لقد قام برحلته هذه كى يرى بلاد الهند ، وقد عقد العزم على أن يشاهد منها بقدر ما أنفق على الرحلة .. فرأى المراعى الغنية والروابى الخضراء فى الشمال ، وشاهد مزارع الشاى فوق المنحدرات ، وزار بعض المعاهد والأطلال ، ورأى السدود التى أقيمت حديثا . وها هوذا يرغب فى زيارة المنطقة التى تجتاحها المجاعة .. **وكان حريصا على التقاط بعض الصور**

لبعض النسوة الهزيلات ، باثدائهن المدلاة كالقرب ، ولبعض الأطفال الذين ضمرت أعضاؤهم هزالا ، وانتفخت بطونهم فى بشاعة تستحق التسجيل .. فسوف ينشر هذه الصور فى صحيفته لدى عودته مباشرة .. ولسوف يكون لهذا دوى صحفى مثير ، ومن ثم فقد حرص على أن تكون الصور بالغة الدقة والوضوح .

أما ركاب السيارة الآخرين ، فلم يبدو عليهم أنهم يشاركونه قدراً يذكر من حماسه . على أن هذا لم يكن ليعكر مزاج السيد « تريانا » على الاطلاق ، فما من شىء يستطيع أن يصرفه عن غرضه . وكانت الحرارة تنقض عليهم ـ بلا هوادة ـ من خلال النوافذ الزجاجية المغلقة .. حرارة لا تكاد تطاق !.. وكانت الأتربة تنفذ من بعض الشقوق الخفية ـ فى السيارة ـ فتنتشر على جلد المقاعد الفاخر !

وراحت صغرى السيدتين تجفف العرق عن جبينها ، وهى مستلقية فى استرخاء على مقعدها الوثير . كانت ذات وجه نضير أملس ، على الرغم مما تركه الارهاق على ملامحها من علامات .. سوداء الشعر ، يتراقص فى عينيها فيض من الأشعة الذهبية .. ولعلها كانت فى الثلاثين من عمرها ..

أما السيدة الأخرى ـ وهى شقيقة السيد « تريانا » ـ فكانت أكبر سنا ، وقد تهالكت فى أحد أركان العربة ، فاغرة الفم ، متجهمة ، تغفو فى نعاس مضطرب ، وقد علتها طبقة رقيقة من الأتربة غطت شعرها ووجهها وعينيها ، وتراكمت فوق حاجبيها وأهدابها .. وكأنها أحد مقاعد العربة !.. ولم يكن يلوح عليها أنها تدرك شيئا مما حولها !

أما السائق فكان شابا هندوكيا ، ذا رسغين نحيلين مرنين ، وقد أمسكت يداه الرقيقتان بعجلة قيادة السيارة الضخمة بيسر ، واخذتا توجهانها دون جهد واضح . وكان

هو الشخص الوحيد الذى لم يعانى وطأة حرارة الجو .. ولقد كان يعمل ضابطا من قبل ، وقد أعير للسيد « تريانا » طوال فترة الرحلة ، على أن يقوم — فى نفس الوقت — بدور المرشد والمساعد . ولم يكن يفتح فمه على الاطلاق ، اللهم الا ليشير فى عبارات موجزة الى ما هو مثير فى تلك المنطقة من مواقع !

● ●

● ومال نحوه السيد « تريانا » ، قائلا :

— اسمع يا « بريتام » ، ابحث لنا عن ركن نستطيع أن نتوقف فيه ، لتناول الغداء !.. يطيب لى أن أصيب شيئا من الطعام !

وأومأ « بريتام » بحركة من رأسه توحى بأنه قد سمع ، وان لم يحول عينيه عن الطريق ..

وأحنق ذلك السيد « تريانا » ، الذى لم يكن يحب الهندوكيين ، لا سيما الصموتين منهم .. كان ميالا الى الثرثرة ، قصير القامة ، ضخم الجسم ، ذا عضلات قوية ثقيلة ، نحاسى البشرة . وكان شديد الزهو باعلان جنسيته الانجليزية ، لا يكف عن أن يلوح بجواز سفر بريطانى ليؤيد دعواه .. وربما كان هناك خطأ ما ، فان جواز السفر البريطانى — الذى كان السيد « تريانا » يحمله — لم يحل دون أن تكون بشرة الرجل داكنة كبشرة « بريتام » ، أو أن تكون عيناه صفيرتين سوداوين براقتين ، أو أن يكون ذا شعر طويل أسود ، يلمع بفضل ما كان يعلوه من « بريانتين » .. كان حريصا دائما على العودة الى طرق هذا الموضوع ما أمكنه ، شأن من يريدون أن يؤكدوا انتماءهم الى أصل مشكوك فيه !.. وما أشد ما كان ينتابه من « حنين » حين يتحدث عن « وطنه » — بريطانيا ! — وتفوق هذا الوطن على

غيره من الأوطان . كانت الشعوب الملونة جميعا ـ شعوب ذوى البشرة الصفراء والنحاسية والآبنوسية ـ لا تعدو فى رأيه أن تكون سلالات زنجية اعتاد أن يختصها بمشاعر الازدراء . وكان دائم السخرية بكل ما يراه ، ينتقده بلسان حاد .. وكم امتلأت بالغبطة الخبيثة نفسه لكل ما كان يمر به من قرى يسودها الخراب والجدب ، حتى أنه كان يفرك يديه اعلانا عن سعادته !.. ولعله كان يتصور ، وهو يحشر نفسه فى زمرة الانجليز ، أن باستطاعته أن يغير من لون بشرته وشكل عينيه !!

لكم تساءل « بريتام » ـ الضابط السابق بسلاح المدفعية ـ ساخرا عما عسى أن يكون مسقط رأس هذا السيد « تريانا » .. لعله ولد تحت سماء فى مثل زرقة هذه السماء ، وفى مناخ أشد حرارة من هذا المناخ .. بيد أن « بريتام » كان حريصا على أن يقف موقفا سلبيا ، وكان ما يتمتع به من دماثة خلق يحمله على ألا يدع أية فرصة لاظهار ما كان يجد من تسلية وفكاهة حيال تعاظم السيد « تريانا » وادعائه !

وانحرفت السيارة الضخمة عن الطريق لتصل الى تل كان يبدو ـ عن بعد ـ كأنه كومة قبيحة من الأحجار . وهنالك ، اكتشفوا حصنا مهجورا ، يستطيع المرء أن يجد بداخله ملاذا من وطأة الشمس ، وأن يعثر فيه على مكان رطب تستروح فيه النفس من شر هذا الهجير !

وخرج الجميع من السيارة يتمطون فى اغتباط لأول مناسبة سنحت لهم للحركة .. وتثاءبت الفتاة ، ورفعت ذراعيها الى ما فوق رأسها ، كقطة صغيرة كسول . وأخذ السيد « تريانا » ـ الذى لم يكن يحول عنها عينيه ـ يمر بطرف لسانه فوق شفتيه الغليظتين ، ويدنو منها ليمسك

بذراعهـا العارية بين أصـابعه الضخمة .. ثم قال لها فى تلطف : « أسرعى الى الظل يا هيلين ! »

وقرص ذراعها ، وهو مستمر فى مزاحه : « كيف يكون حالنا ، اذا انت أصبت بضربة شمس .. هه ؟ »

وابتعدت عنه الفتاة فى فتور ، ودخلت الى الحصن وراء السـيدة الأخرى .. الواقـع أنهـا لم تكن تحب السـيد ((تريانا)) ، ولكن وضعها ــ كمرافقة للسيدة ((جوردان)) شقيقته ــ كان يحتم عليها أن تحتمل الكثير مما لا يروقهـا منه .. وكان وقت النـدم على قبولها هذا الوضع قد انقضى !

وتوقفت خلفهم عربة نقل صـغيرة ، كانت تتبعهم على مسافة كافية ، فنزل خادمان وأخرجا منها سلالا ، وبسطا بعض المفارش ، وأعدا المائدة فى حرص ومهارة ينمان عن حذق لمهنتهما .

● ●

● **وما لبثت** السيدة « جوردان » ــ التى ظلت أثنـاء هذه الاستعدادات صامتة ، وان راحت تتأمل الغـذاء بعين نهمة ــ فقد انقضت على كومة الشطار بيد متلهفة ، وراحت تلتهم منها بنشوة وشره .. بينما كانت « هيلين » ترقبها بشعور مزيج من الشفقة والاشمئزاز . وانتحى « بريتـام » جانبا ، وقد بدا على سجيته ، فى قميصه الأزرق ذى الياقة المفتـوحة .. وتجلى على وجهـه ذلك التعبير الذى ظل يلازمه ، والذى كان ينم عن البرود والتباعد ، وكأنه كان يرجو بذلك أن يقيم حاجزا بينه وبين الباقين .

لم يكن السيد ((تريانا)) يكف عن اثارته طوال فترة الرحلة . وقد ظل يضـايقه بالملاحظات المحرجة عن عادات الشعب الهندوكى ومعتقداته ، ولكن ((بريتام)) ظل ــ من

ناحيته ـ ثابت الجنان لا يتأثر . وكان موقفه هذا مما أثار حيرة ((هيلين)) ، فقد كان عدم اكترائه يحنقها تارة ، ويحدوها على الاعجاب به ـ تارة أخرى ـ لما كان ينم عنه من سيطرة على النفس .. سيطرة تفوق كل تصور ! وقد دفع هدوء « بريتام » السيد « تريانا » الى ذروة السخط ، فى النهاية ، فصاح يعلن بازدراء :

ـ بلد رائع !.. يمكن أن يقال إنكم قد بلغتم درجة من النضج تؤهلكم للتمتع بالاستقلال .. أو بتعبير آخر ، يمكن أن يقال أنها تبيح لكم الحق فى أن تموتوا جوعا فى سلام .. دون أن يؤذن لأحد بالتدخل فى شئونكم !!.

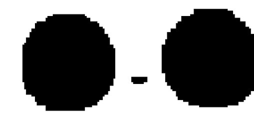
ولكن « بريتام » ظل على صمته .. وهنا انتابت السيد « تريانا » نوبة حنق بارد ، وكأنما عقد العزم على أن يفعل أى شيء من شأنه أن يحدث استجابة لاثاراته .. كان يريد أن يرى الغضب يزيح ذلك القناع ـ الذى لم يكن يملك أن ينفذ خلاله الى ما فى نفس الرجل ـ ويصبغ هذه البشرة السمراء بحمرته ، ويشعل الشرر فى هاتين العينين اللتين كان هدوء نظراتهما أسوأ أثرا من الاهانة . لذلك طوح بذراعه فى اتجاه القرية القاحلة ، وفى اتجاه الأرض التى كانت تتشقق جدبا تحت الشمس ، قائلا :

ـ فيضانات ، مجاعات ، فساد ، رشوة ، زيادة فى السكان ، نتيجة رائعة !.. هه ؟ ان أحدا لم يستطع ـ منذ غادرنا هذه البلاد ـ أن يفرض أى قدر من النظام .. ليس لديكم من معنى كلمة الحكومة سوى الثرثرة الفارغة ، ينساق اليها بعض الساسة الذين أسكرتهم نشوة السلطان !.. كيف تجرؤون على المساهمة فى جلسات مجلس الأمن ؟ .. كيف تتأتى لكم القحة لتقدموا للعالم ارشادات من عندكم وتوجيهات ... أنتم يا من تتخبطون فى أبشع ألوان الفوضى ؟.. يالهـا

من وقاحة لا تطاق ، ان يندفع أناس في ابداء النصح والدعوة للنظام ، وهم لا يعرفون كيف يوجهون دفة زورقهم !

وفي لمحة خاطفة كأنها وميض البرق ، لاح أن « بريتام » يوشك أن يهم بالانقضاض على السيد « تريانا » ، فيقبض بأصابعه الطويلة على عنقه ، ويضغط بكل قواه . ولكن يديه المتوترتين ارتدتا بسرعة ، وقال بلهجته الانجليزية التي لا تشوبها شائبة :

ــ أظن أن وقت الرحيل قد حان ، اذا أردنا أن نصل الى « الشاليه » قبل حلول الليل !



● وكانت السيدة « جوردان » تنقل بصرها بين الرجلين ، والقلق يرسم على وجهها تعبيرا يزيد من معالم البلاهة التي تعلو أساريرها .. وما لبثت أن قالت بلهجة تنم عن التوفيق والمصالحة :

ــ سيد « بريتام » ، أليس عندك من معلومات مثيرة تود اطلاعنا عليها ، بشأن هذا الحصن ؟

وتطلع اليها « بريتام » ، ثم ابتسم قائلا :

ــ انه ليس سوى حصن قديم بلا تاريخ .. على أنه من المعلومات الطريفة ، ان لدى القرى المجاورة عادة جديرة بالذكر ، تتمثل في أن يقدم السكان الى اله المطر قرابين بشرية .. **وبرغم أن القانون ــ في أيامنا هذه ــ يحرم بالطبع مثل هذه العادات ، فان كثيرا من الفلاحين ــ من سكان المنطقة ــ يعتقدون اعتقادا راسخا ، أنهم ما كانوا ليواجهون هذه المجاعة لو أنهم قدموا الى الاله قربانا !**

فأطلقت السيدة « جوردان » صيحة خفيفة ، تنم عن الانفعال والرعب ، وهتفت :

ـ أتعنى انهم كانوا يتقربون الى الآله بمخلوقات بشرية حقـا ؟

وأردفت هيلين : « يا الله !.. هذا غير معقول ! »

فهز « بريتام » كتفيـه ، وهو يجلس الى عجلة القيادة ، وقال :

ـ عجبا !.. هذه ليست سوى وسـيلة من الوسـائل لمواجهة الأمور . انهم يضحون بكائن بشرى فى سبيل انقاذ حياة المئات من الآدميين .. وفى الوقت ذاته ، نحن هنـا نرى أن من الشجاعة ارسال الناس الى بلد أجنبى ، بهدف قتل اناس آخرين لا يكنون لهم شيئا من العداء !.. وعلى أية حال ، فان هذه العادة قد انقرضت منذ عهد بعيد .

وصرخ السيد « تريانا » بلهجة غاضبة :

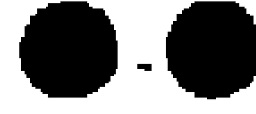
ـ هل تتطاول فتقارن تلك الشعائر الوحشـية ، التى تؤديها قبيلة بدائية جاهلة ، بالحملات التى تنظم تنظيما دقيقا فى الحروب الحديثة ؟

وقال « بريتام » فى نفسه ، وقد بلغ به الضيق مبلغـه : « ها هو ذا يعيـد الكرة ! » .. ولكنه بذل جهـدا جبارا للسيطرة على نفسه .

كانت السيارة تسير ببطء فى طريقها المرسوم ، فصرف ذهنه الى تأمل روعة الآلات الحديثة .. قد لا تواتيه الفرصة ـ بعد اليوم ـ ليقود سيارة لها مثل هذه الروعة والمرونة . وراح ـ وهو مقطب الجبين ـ يركز كل اهتمامه على الطريق .. ترى بالله ، ماذا سيتاح لهـذا الكائن المترهل أن ينشر فى صحيفته ؟

كانت الحقول العارية ـ التى ألهبتها الشمس وأجدبتها ـ تتتابع فى خط واحد ، على مـدى البصر .. وعلى مسافات متباعدة ، كانت الأبصار تلتقى بهيكل شجرة وحيدة ، تمتـد أغصانهـا الى السماء ، أو مجمـوعات صغيرة من الأكـواخ

المتناثرة ، عبر تلك المساحات المترامية الموحشة .. ولكنها لم تكن تقع على كائن بشرى ، وكأنما لم يقدر لمخلوق من الأحياء ان يخاطر ويتوغل فى هذه الصحراء !



● وأخيراً بلغوا « الشاليه » . وعند عتبة « الفيراندا » ، ظهر كهل بادى النعاس ، راح يتأمل السيارة الفارهة وركابها فى بلاهة .. كان المسكن نموذجا لمأوى كلاسيكى : أثاث عتيق تغطيه الأتربة ويخيم عليه نسيج العنكبوت ، وحشيات يسمع صرير زنبركاتها المحطمة . واسرع القوم ينشرون الملاءات النظيفة ، قبل الشروع فى اتخاذ الترتيبات الخاصة بوجبة المساء.

وأقبل على المكان بعض الأهالى الشاحبين ، النحاف ، فى أسمال بالية ، وقد اجتذبتهم انوار المصابيح والضوضاء والحركات غير العادية ، فراحوا يحومون حول « الشاليه » .

وكانت « هيلين » اول من رآهم ، فاطلقت صيحة قصيرة ، تنبه بها رفاقها . ولمحوا بعض الأطفال .. كائنات صغيرة تثير الشفقة ، اذ ضمرت أعضاؤهم ، وانتفخت بطونهم ، وراحوا يتاملون الغرباء بنظرات ثابتة ، لا تشى بشىء .. نظرات كانت تنبعث من عيون واسعة ، ذوى بهاؤها !

وغمغمت « هيلين » وقد غص حلقها : « اواه !.. يا للصغار المساكين ! »

بيد أن السيد « تريانا » أخذ يفرك كفيه ، وقد بدت عليه علامات الاغتباط .. وقال :

ـ أنا على يقين من اننى سأحصل على ما أبتغيه من صور مثيرة !

والتفت الى « بريتام » ، قائلا : « اخبرهم بأننى أريد ان يحضروا غدا ، لألتقط لهم بعض الصور الفوتوغرافية !.. وقل لهم أن يحضروا معهم أنحف نساء المنطقة واشدهن

سمورا .. نسوة يعطين الاحساس بالموت جوعا !.. انك تفهم ما اعنى .. قل لهم انى سأمنحهم بقشيشا طيبا ! »

ونطق « بريتام » ببعض الألفاظ السريعة مخاطبا أكبر الرجال سنا . واتجهت نظرات الشيخ الى السيد « تريانا » ، فظل يتأمله محدقا فيه لحظات طويلة ، حتى اضطرب السيد « تريانا » ، واحس بالارتباك ، فاخذ يردد : « ماذا أصابه ؟.. الم يفهم ؟.. ام ماذا ؟ »

ودمدم المواطن مخاطبا « بريتام » بشيء ما ، فقام هـذا بترجمة حديثه :

ــ صباح غد ، عند شروق الشمس ، عليك ان تذهب الى أكواخهم ، وسيعرض عليك هؤلاء القوم كل ما تحب ان تراه ! .. هل تحب أن توجه أسئلة اخرى ؟

فقال « تريانا » بلهجة مفعمة بالاغتباط : « قل لهم اننى احب ان اشهد عملية تقديم قربان بشرى ! » .. وراح يطلق قهقهة صاخبة .. فرمقه « بريتام » فى صمت اخرس ضحك الرجل فى حلقه ، بينما تسلل الأهالى فى طيات الظلام .



● وعندما اعد العشاء ، اتخذ أفراد الجماعة الصغيرة أماكنهم الى المائدة .. كانت وجبة رائعة ، تشهد بما لصناعة الأغذية المحفوظة من افضال .. وتناولوا بعدها أكوابا من القهوة المسكرة ، الممزوجة باللبن .

وكانت ((هيلين)) ــ خلال الغداء ــ تأكل بطرف شفتيها. وحين رفعت عينيها ، لاحظت أن ((بريتام)) لم يمس اى طبق من الطعام ، بل انصرف الى احتساء قهوته فى رشفات صغيرة ، غافلا عما حوله ، وقد شردت نظرته بعيدا فوق رؤوس الموجودين .. وكانت السيدة « جوردان » فريسة للتوجس ، فأخذت تقضم الطعام دون اقبال عليه ، وهى

تتلفت نحو النوافذ ــ من آن الى آخر ــ بنظرات قلقــة ، تسائل الظلام الذى كان يلف الشاليه ، وكأنها تخشى ظهــور عينين لامعتين فى وجه هزيل !

أما السيد « تريانا » ، فأخذ يأكل بارتياح تام ، متذوقا كل الأصناف ، مجففا شفتيه بمنشفة ناصعة البياض، ملتهما كميات ضخمة من الطعام .

وعندما بدت طلائع الفجر التالى ، كان السيد « تريانا » على أهبة الاســتعداد .. وكان الجو ينــذر بيوم قائظ ، والسماء شديدة الزرقة . وعلى البعد ، كان الناظر يمينــا يلمح مجموعة من الأشجار قرب بئر جافة .. وكانت الأبصار ترتد دائما الى هذا المكان ، تجذبها اليه قوة خفية لا سبيل الى مقاومتها .

وقام السيد « تريانا » بإعداد آلة التصوير ، وعلقها الى عنقه بسير من الجلد ، ثم قال :

ــ حسن !.. قم معى « يا بريتام » !

وأجاب ((بريتام)) فى برود : ((كلا . لن أذهب !))

ولو ان أحدا رأى السيد « تريانا » ــ اذ ذاك ــ لخيــل اليه أنه لن يلبث أن يصاب بسكتة قلبية . وكرر الشــاب ، بنفس اللهجة اللامبالية ، قوله : « لن آتى !.. اننى أتقاضى أجرى لأريك البلد فحسب !.. وهذا هو كل عملى ! »

● ●

● مكث السيد « تريانا » مسمرا فى مكانه ، وقد أخرسه الذهول ، وغاب عن وجهه كل اشراق .. وكان الجهد ــ الذى راح يبذله كى يكتم غضبه ــ يزيد من انتفاخ شرايين رقبتــه وصدغيه .. ثم وضع قبعته فوق رأســه ، دون أن يضيف كلمة واحدة ، وسط الضوء الباهر الذى كان يغمر السهول .

وانقضت عليه حرارة الجو دفعة واحــدة ، فى قســوة

لا ترحم ، ولكنه لم يعرها أى اهتمام .. كان الحنق والسخط يمدران فى داخله !.. وكانت الأرض الوعرة تحيل سيره تعثرا . والمحصولات القليلة توشك ــ تحت لفح الشمس ــ ان تذبل فى حقولها . وكان مجرى النهر قد جف من أمد بعيد وتراكمت فيه الرمال . واخذ السيد ((تريانا)) يتعثر فى مشيته ــ من وقت لآخر ــ فيتناثر السباب خافتا من بين اسنانه . وشعر بان ثيابه ــ على رقتها ــ ثقيلة جدا ، لا تتناسب مع حرارة الجو ، فقد أخذ العرق يتفجر من جسمه غزيرا ، فيغمره ويملأ سترته بقعا مبتلة .. وعلى مقربة من القرية ، اخرج من جيبه منديلا مضمخا بالعطر ، فجفف به وجهه .

كان ثمة رجال ونساء راقدون أمام الأكواخ ، أو على عتبات الأبواب ، وكأنهم غابوا فى سبات مخيف .. ولم يكن من اليسير ــ لأول وهلة ــ أن يميز الانسان بين الشباب منهم والشيوخ ،من فرط ما فعل العذاب والجوع بوجوههم .. ولم يأت أحدهم بأدنى حركة ، عند اقتراب السيد « تريانا » ، وان بدت عيونهم ــ التى كانت تتقد محمومة ــ مفتحة ، وقد اتجهت نحوه ، تحملق فيه !

واتخذ السيد « تريانا » الطف مظهر له ، اذ كان بازاء موقف فريد تماما .. كانت سحنهم تبعث على الذهول . يالها من مجموعة صور مثيرة سيحدث نشرها فى صحيفته دويا هائلا !!

وفى رقة مصطنعة ، مال السيد ((تريانا)) على سيدة شابة منبطحة فوق التراب ، شبه عارية ، وهى تحتضن طفلا وليدا . وازداد السيد ((تريانا)) انحناء عليها ، واخذ يتفحص الطفل بعناية .. كان ميتا !.. وكان لايزال فاغرا شفتيه ، وكانه كان يصر ــ حتى بعد الموت ــ على طلب الزاد !

ووضع السيد « تريانا » يده الغليظـــة فوق كتف الام الهزيلة البادية العظام .. كل ما كان يبغيه هو أن تخرج الأم من منطقة الظل ، كى يلتقط لهـا صورة فوتوغرافية . ولكن حركته فجرت فى ذلك الجـو السـاخن ما يشبه الصدمة الكهربائية ، فتراجع الى الوراء خطوة ، وتطلـع الى ما يدور حـــوله !..

كان الرجال والنساء جميعا قد نهضوا فى حركة واحـدة مرنة ، وفى صمت ، كأنهم أشـــباح فى حـلم مزعج .. كانت المساكن قائمة على ثلاثة أضلاع من منطقة مربعة .. أما الضلع الرابع ، فكان المخرج الوحيد من القرية .. وعند هذا المخرج، تجمع القوم كشخصيات فى أحد ((الباليهات)) الخرافيـة ، فقطعوا بذلك خط الرجعة على السيد ((تريانا)) .. وأخذوا يتقـدمون نحـوه فى صمت رهيب ! ورأى السـيد « تريانا » عشرات النظرات المتقـــدة مسلطة عليه .. نظرات تنم عن تصميم لا يرد . ومضـــوا يقتربون ، ويقتربون ، ويزدادون اقترابا !

وسرت فى أوصاله رعشة رعب .. وراح يتراجع ــ وقد استسلم للخوف بدافع غريزى ــ حتى أحس بجدار ساخن خلفه ، فاستند اليه . محال أن يمضى الى أبعد من هذا !.. ومن كل الجهات حوله ، ظلت ترمقـه عيون قريبة ، يصليه بريقها ويحطمه .. عيون داكنة ، فى وجوه داكنة ، غامضـة ، قاسية ، ملتهبـــة !

ها هوذا يشتم رائحتهم !.. كان كمن يترقب نهايتـه ، دون أن يأتى بمجرد حركة يدفع بها عن نفسه . وبيد مرتعدة فتح سترته ، وأخرج من جيبه حافظة منتفخة بأوراق النقد .. وتلعثم قائلا وهو ينزع حفنـة من الأوراق الماليـة التى بسطهـا :

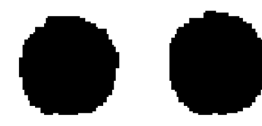
ــ خذوا !.. هذه لكم !!

وسقطت الأوراق من يده وديست بالأقدام . وأجهز هذا الاحتقار — الذى قوبل به المال — على أعصابه وحطمها نهائيا ، فانهار .. وصرخ : « النجدة ! » .. ولكن صوته ارتد اليــه مرتعشا ، بالغ الضعف !

— النجدة ! النجدة !

العيون !.. الوجوه !.. كل شىء ضده !.. وبغتة برزت اطراف الخناجر تومض شررا تحت اشعة الشمس . صرخة مكروب .. حادة ومتصلة !.. وفى الســماء ذات الشمس الحارقة ، شرعت العقبان تحوم .. بلا عجلة !..

وفى « الشاليه » : انقضى النهار ببطء ، ولم يظهر السيد « تريانا » وقت الغداء ، ولكن احدا لم يسرف فى القلق عليه ، وان كانت دقات الطبول الأولى ، قد أثارت فى نفوسهم شعورا غامضا بعدم الارتياح .. اذ كانت دقات الطبول تتصاعد — وسط وهج القيظ — بطيئة فى البداية ، كأنهــا وجيب قلب هامد .. ثم أخذت تزداد سرعة وشدة ، حتى اصبحت تدوى بوحشية ضارية .. وسرعان ما امتلأ الجو كله بهذه الدقات الظافرة ، يصاحبها ترنيم رتيب ، رهيب !



● **وتناهت** كل هذه الضوضــاء الى الجالســين فى « الشاليه » ، فأخذ تتابعهـا السريع يلقى فى قلوبهم رعبا لا سبيل الى وصفه !

وعندما قرروا — أخيرا — أن يخرجوا للبحث عن السيد « تريانا » ، وجدوا الطبول تحاصرهم من كل اتجاه .. شعروا بها أمامهم ، وخلفهم .. وكانت تدور ، وتدوى ، فى نشــوة عاطفة بدائية هوجاء !

ولم ير أحد السيد « تريانا » ، بل اصطدمت ابصــارهم بوجوه خالية من كل تعبير .. وجوه جامدة ، لا ســبيل الى

النفاذ الى ما ورائها .. وكأنما أصيب أهل القرية بالعمى ، فلم يكونوا يبصرون .. وبالصمم ، فلم يعودوا يسمعون !

ولم يلح الأغراب فى سؤال القوم .. وما كانت بهم حاجة الى السـؤال ، اذ أن المخـاوف التى خامرتهـم ، سرعان ما تجسدت أمام أبصارهم .. جسدها منظر الطيور السوداء تحوم فى السماء ، ثم تحط على مكان قريب .. وسعوا الى ذلك المكان ، فانزعجت الطيور الجارحة ، وطارت .. وتبين الأغراب أنها كانت تحط على جثة السيد « تريانا » .. والحق انهم لم يتعرفوا على الجثـة الا بالحدس .. أو ما يشـبه الحدس !

ودثروه فى ملاءة بيضـاء ، ورفعوه الى سـيارة النقل الصغيرة .. وكانت السيدة « جوردان » تئن بصوت واهن مبحوح .. وراحت « هيلين » تتطلـع ــ وقد نضبت دمـاء وجهها ــ الى « بريتام » ، وكأنها تهم بأن توجه اليه سؤالا ما !

ولم يكن « بريتام » قد فقد شيئا من هدوئه ، مما مكنه من أن يعجل باتخاذ التدابير للرحيل ..

وعندما هموا بمغادرة المكان ، بدأت الأمطار تتساقط .. نقاط ضخمة ، ثقيلة ، واخذت تزداد غزارة ، حتى تحـولت الى سيل تدفق فوق سقف السـيارة ، بينما كان قصف الرعود يتتابع فى هدير !

وتطلع الثلاثة الذين كانوا فى السيارة ، كل الى الآخر ، فى صمت ..

ومن خلال خرير الميـاه المتدفقة وهزيم الرعود ، ظلوا يسمعون دقات الطبول المنتصرة ، الظافرة ، وكأنها تنبعث من أحشاء الأرض ذاتها .. الأرض الجائعة ، التى اخذت قوتهـا تعود اليها من جديد ، فى تلك اللحظات !

قصة من اليابان

الإبن والأم!

للقصصي الياباني :
چوارن هــيزاءو



ترجمة : حمادة ابراهيم

لا يفلح الاستعمار فى تغيير الشعوب العريقة !

تعمد دعايات مغرضة ان تصور للرأى العام العالمى ، ان الشعب اليابانى قد تغير تحت الاحتــلال الامريكى ، وتخلى عن حضارته العريقة ، وتقاليده التى كانت مصدر فخر واعتزاز لليابان ..

ولكن القصة الانسانية ، التى يقدمها « كتابى » على هــذه الصفحات ، والتى كتبها قصــاص يابانى شاب ، هو « جواران هيزامو » ، تؤكد ــ فى وضوح ــ ان الشخصية اليابانية ما زالت قائمة خلف استار المظاهر ، وان حضارة اليابان وتقاليدها لا تزال مكينة متاصلة .. حتى فى نفوس الاطفال !

● تلقى مدرس الصف الأول باحدى المدارس الابتدائية، الواقعة بالقرب من المعسكر الأمريكى ، استدعاء من الشرطــة المحلية فى (أستوجي) ، بصــدد أمر يتعلق بأحد تلاميذه .. وحين كان فى حجرة الانتظار ، دخل المأمور ، وتبعته سـيدة تتألق عيناها بحيوية طاغية أثارت دهشة المدرس .. وقدمها المأمور اليه قائلا ، وهو يجلس فى مواجهته : « آسف لازعاجك .. الآنسة مشرفة اجتماعية ، تهتم باصلاح الشبيبة فى المدينة .. ولما كان قسم الشرطة التابع لنا قد انشىء حديثا ، وليس لدينا قسم خاص بالأحداث ، فقد طلبنا الى الآنسة أن تجىء لمعاونتنا .. وأود أن أخبرك بأن الموضوع الذى استدعيناك من أجله ليس خطيرا ، فلا داعى لأن تقلق ! »

وتدخلت المشرفة قائلة « ان الموضوع كما ذكر السيد المأمور ليس خطيرا فى حد ذاته .. فان تلميذك لم يرتكب — فى الواقع — جريمة كبرى .. كل ما هنالك انه قام باشعال النار فى حصن قديم ، ولكن بعض المهمات المملوكة للأمريكيين كانت مودعة فى هذا الحصن ، ونحن بالطبع نشك فى ان يكون هذا الغلام قد أشعل النار متعمدا .. لابد أنه كان يلعب لعبة القراصنة ، أو اى شىء من هذا القبيل .. غير انه يرفض باصرار أن يفتح فمه ، ونحن فى حاجة الى اى عذر او تعليل نذكره فى التحقيق !

وقال المأمور : « اننا لا نريد أن نحتجزه هنا أكثر مما احتجزناه ، ولكننا لا نستطيع أن نخلى سبيله ما دام التحقيق لم ينته ، ولذلك طلبنا اليك الحضور ، فأنت معلمه ، ولابد انك تعرف عنه ما يزودنا ببعض المعلومات عن طباعه ، وعن حياته العائلية ، وما الى ذلك .. ومن ثم تستطيع أن تكتب تقريرا بنتيجة التحقيق ، ونطلق سراحه » .

فانحنى المدرس فى ادب وقال : « لا يسعنى الا أن اشكر لك المشقة التى تتجشمها من أجل هذا الطفل » .. فقال المأمور : « لتدخل فى الموضوع ! »



● وفتحت المشرفة ملفا ، وأخذت تقرأ بعض ما جاء فيه :

« تارو تزومى .. ستة عشر عاما وشهران .. ولد فى (سايبان) ، وهو الآن بالفصل الدراسى الثانى من السنة الأولى بمدرسة « سان جوزيف » الابتدائية .. ويتمتع بمنحة « أدان » الدراسية .. كان والده يعمل خبيرا فى الارصاد ، لحساب مكتب الادارة اليابانى ، وتوفى عام ١٩٤٠ . اما أمه فكانت موظفة فى شركة « نانيو كاهاتو » ، ومن المرجح

انها لقيت مصرعها عند استيلاء الأمريكيين على (سايبان) .. »

ثم وجهت المشرفة الكلام الى المدرس قائلة : « كيف يكون « ثارو » فى مثل هذه السن ، ولا يزال فى الصف الأول ؟.. انه متأخر . اليس كذلك ؟ »

فقال المدرس : « عند انتهاء الحرب ، أرسل « ثارو » الى (هاواى) مع مجموعة من الأيتام ، وألحق باحدى المدارس الأمريكية التى تكاد أن تكون معادلة لمدارسنا الابتدائية . وقد قضى بها ست سنوات ، جاء بعدها الى اليـــابان ، وسجل بمدرسة « سان جوزيف » .. وكان من المفروض أن يلتحق بالصف الخامس ، الا أن معرفته باللغـة اليابانيـــة لم تكن كافية .. »

ــ ماذا تقصد بمنحة « أدان » ؟

ــ انها ليست منحة بالمعنى الدقيق .. كان ((ادان)) ضابط استعلامات أمريكيا مسئولا عن الأيتام فى (سايبان) ، فاختار منهم خمسة ، تكفل هو شخصيا بنفقات دراستهم ، بشرط أن يتجهوا فيما بعـد الى دراسـة علم اللاهوت .. ولدينا ثلاثة من هؤلاء الأطفال فى مدرسة ((سان جوزيف)) .

ــ عندما مات والد « ثارو » ، كان الطفل فى الرابعة من عمره .. فالأرجح أنه لا يتذكره . أما أمه ، فهل تستطيع أن تحدثنا عن أى صنف من النساء كانت ؟

كانت من ذلك الصنف من النساء الذى يمكن أن نسميه بالنساء المثقفات .. فقد كانت حاصلة على شهادة من جامعة (طوكيو) ، وكانت مديرة الموظفات بالشركة التى كانت تعمل بها فى (سايبان) .. **ولكنها بعـد ذلك قامت بانشـاء مركز للترفيه عن الضباط يسمى ((هاللو)) .. وكانت جميلة جدا ، بل لعلها مفرطة الجمال .. فكانت النساء يكرهنها !**

ــ وهل كان الطفل يعيش فى هذا الوسط ؟

ــ كلا ، فقد ذكرت لك أن أمه كانت مفرطة الجمال ، ومن ثم كانت فرصة اللهو والمتعة كثيرة أمامها ، فكانت مشغولة لدرجة لا تستطيع معها أن تهتم بالطفل . ولذلك عهدت الى مبشر فى احدى جزر المحيط الهادى ، كان يعيش هناك منذ ايام سيطرة الألمان على تلك الجزر !

ــ اذن ، فالطفل لم يتأثر ــ أيما تأثير ــ بالحياة التى كانت تحياها أمه ؟

ــ كلا ، بل انه يجهل تماما ما يمكن أن يعرفه شاب فى مثل سنه عادة .. فمثلا هو لم يذهب الى السينما مطلقا .. وهو مجتهد فى عمله ، ولكنه يحيى حياة صارمة قاسية ، الى درجة تثير قلقى فى بعض الأحيان !

فقالت المشرفة ، وهى تقلب صفحات الملف الخاص بالغلام :

ــ جائز !.. ولكن هل علمت أنه فى الثالث من مايو ، تنكر فى زى فتاة ، وراح يبيع زهورا فى حى (چينزا) ؟.. لقد لمحته احدى زميلاتى ووجهت اليه انذارا .. وهل تعرف أنه استدرج ــ فى يوم من الأيام ــ بعض الجنود الامريكيين من امام باب المعسكر ، واصطحبهم الى طوكيو .. **ومنذ أيام قليلة ، وجدوه ــ فى الساعة الثالثة صباحا ــ بالقرب من محطة (ابريا) ، على خط قطار (سجانى) ، وهو فى اشد حالات السكر .. وكاد ان يدهمه قطار الصباح لولا انه انقذ فى آخر لحظة ؟**

وسادت ــ بعد ذلك ــ لحظة صمت ، لم يكن يقطعها سوى صفير الرياح التى كانت تعوى خلال الأعشاب الجافة فى الحقول ..

● ●

● وما لبثت المشرفة أن قالت ، محاولة أن تخفف من الم المدرس :

ــ انك تعرف الطفل منذ زمن بعيد ، وأنا واثقة من أنك لم تكن تتخيله الا فى أفضل صورة ، وانه لم يرتكب أمامك أبدا ما يضطرك لأن تلومه أو توبخه .. ولكن من الجائز أن تكون أخلاقه قد تغيرت فى المدة الأخيرة .. أصبح يتنكر فى صورة فتاة ، ويسكر ، ويلعب لعبة القراصنة ، ويلهو باشعال النار في مكان من المحظور دخوله حظرا تاما .. هذه الأعمال التى تختلف فى صورتها ، ولكنها تشكل نهجا واحدا من السلوك ، يبدو أنه تعبير عن التمرد على سائر الأوضاع .. أو ربما كان مصابا بخلل نفسى .. ولكن لا بد أن يكون ثمة سببا اساسيا لهذا التحول .. ان الشخصية لا تتحول هكذا بين يوم وليلة ، ومن المحتمل أن تكون هناك ذكرى مؤلمة تدفعه لأن يتصرف على هذا النحو .. فهل تستطيع أن تمدنا باى معلومات فى هذا الشأن ؟

فقال المدرس ، وهو يهز رأسه : « لست أعلم ان كان الحادث الذى أعرفه سيفيدكم ، ولكنه ــ بلا شك ــ قد أثر فى « ثارو » تأثيرا شديدا .. فقد حاولت أمه أن تقتله يوما ، وقد عثرنا عليه ــ أنا و « أدان » ــ فاقد الوعى تحت أحدى الأشجار ، فى هضبة (شيما ليتا) ، وقد التف حبل حول رقبته ثلاث لفات ، وكان يضغط على رقبته ضغطا شديدا ، حتى أننا لقينا مشقة فى فكه وازالتــه ، اذ كان مدهونا بالصابون ، ليسهل انزلاقه !.. ومع أننا أدركنا الدافع وراء هذه الجريمة ، فانها ــ من ناحية العقل والضمير ــ كادت أن تخرجنــا عن وعينا . وقد تجشمنا مشــقة كبيرة فى اعادة الحياة الى « ثارو » ، حتى لقد كنا فى شك كبير من أن الروح ستعود اليه ، ونقلناه فى سـيارة « جيب » الى المستشفى العسكرى ، بعد أن أجرينا له عملية التنفس الصــناعى .. فى ذلك الحين ــ كما تعلمون ــ انتحر ثلاثون ألفا من اليابانيين

المدنيين ، اذ كانوا على ثقة من ان الامريكيين سيقتلونهم على اى حال !.. انتحرت عائلات باسرها بالقنابل اليدوية .. وهناك عائلات أمسك كل فرد من افرادها بيد الآخر ، والقوا بانفسهم من فوق الجبال الى البحر .. ولكن ، فى جميع هذه الحالات كانت الجثث توجد مجتمعة .. اما حالة ((ثارو)) ، فهى الوحيدة التى وجد فيها طفل واحد بمفرده !))

وساد الصمت هنيهة ، ثم قطعه المأمور قائلا :

« انها قصة رهيبة ! » .. وأردف ـ بعد لحظة ـ قائلا :

« لا بد ان هذا الحادث كان ذا تأثير عميق فى نفسية الطفل ! »

وتململ المدرس قليلا فى مقعده ، ثم قال : « هل أستطيع ان اراه الآن ؟ .. أود أن أوجه اليه بعض الأسئلة .. وقد خطرت لى فكرة ، قد تهدينا الى الطريق » .. فقال المأمور : « بكل تأكيد ! »

وقادته المشرفة الى باب فى الناحية اليسرى ، قائلة له : « من هنا لو سمحت ! »



● كان « ثارو » جالسا على الأرض ، فى غرفة ضيقة مظلمه ، مخصصة للشبان الموضوعين تحت المراقبة ، وكان يتأمل السماء خلال نافذة صغيرة ، كأنها فتحة فى قفص عصفور ، وهو يفكر فى الأيام الأخيرة التى قضاها فى (سايبان) ..

كان الظلام الخافت ، والرطوبة اللزجة ، والسماء المعتمة ، والصمت الشامل ، والاعياء الشديد .. هذه كلها كانت تذكره بمغارة (سايبان) ، منذ سنوات .. حيث كانت الصخور مغطاة بالطحالب ، والظلمة والرطوبة يجثمان طوال النهار والليل .. فلم تكن الشمس تعرف طريقا للمغارة

الا قبيل افولها ، اذ ترسل بصيصا منها فينير جدران المغارة ، ويكشف وجوه المختبئين فيها !.. كانت هناك فتاة لم يبق منها سوى الجـلد والعظم ، وقد راحت تبحث - بين الصخور - عن بعض حبـات ساقطة من الأرز ، فتلتقطها وتفركها ثم تأكلها واحدة بعد واحدة !.. وكان خلفها جندي زائغ العينين ، أخذ يسد رمقه بالعشب البري ، وقد سالت عصارة خضراء على زاويتي فمه !.. ثم لا يلبث هذا المشهد ان تغيب في أدراج الظلام ، ويزحف على الكوم يوم آخر ..

وفي أحـد تلك الأيام ، قال « ثارو » في نفسـه : « حان وقت الذهاب لاحضار الماء » .. كان ينتظر هذه اللحظة نافد الصبر ، فمنذ أن أقام في المغارة وهو يشعر بسعادة غامرة لوجوده بصحبة أمه وقيامه بخدمتها !.. كان ينتظر منها كلمة ، وقد تعلقت عيناه بمحياها الجذاب .. ولم تلبث أن قالت له : « اذهب لتحضر لي ماء يا ثارو ! » .. كان حين يسمع صوتها يرتعد حبا وحنينا ، وكان على استعداد لأن يعمل أي شيء من أجلها ..

وكان نبع الماء العذب على مسافة خمسين مترا الى أسفل المغارة ، فكان لزاما عليه أن يتدلى على طول الصخرة المدببة كل هـذه المسـافة ، مما كان يسببه الدوار له ، ولو انه لم يكن يحمـل الا زجاجة فارغة .. فضـلا عن ان الجنـود الأمريكيين الواقفين فوق الصخرة ، كانوا يطلقون النار على كل شيء يتحرك !.. ولكن ثارو لم يكن خائفا على الاطـلاق ، ولم يكن مدركا للخطر بأية حال .. وانما كانت السعـادة تفيض في قلبه ، اذ يشعر بأن في وسـعه أن يقدم الى أمه شربة ماء !

وحدث نفسه قائلا : « كم كان عمري حينذاك ؟ » .. ثم راح - وهو يحك رأسه في جدار « الزنزانة » - يتلو عن ظهر قلب : « أيها العابر ، اذهب وقل للاسيديمون ، اننـا

تنفيذا لأوامر الملك ، ننام هنا » !.. وكانت أمه قد لقنته القصيدة ، وجعلته يكررها مرارا حتى حفظها ..

وقالت له أمه : « أن (لاسيديمون) هي (اسبرطة) .. وقد تصدت حفنة من جنودها ــ منذ الفى عام ــ لجيوش الفرس واوقفت زحفها ، فى مكان يسمى (ترمويولين) .. وماتوا جميعا فى المعركة ، فأقيم ــ فى ذلك المكان ــ نصب كتبت عليه هذه الكلمات .. الم يكن أولئك الأسبرطيون شجعانا ؟ .. يجب الا ننساهم ! »



● كانت امه تحاول ــ بالأحلام الجميلة ــ ان تنسيه قسوة تلك اللحظات الرهيبة .. ولكن الكارثة لم تلبث ان حلت أخيرا .. وانه ليتذكر كيف كان الاباء والأبناء كانوا يتماسكون ، ثم يلقون بأنفسهم من أعلى الجبل متعانقين ، أو يربطهم جميعا بحبل متين .. وكانت مياه البحر تتلقاهم .. وفى كل يوم ، كانت تختفى مجموعات امام عينيه بهذه الطريقة !.. وكان « ثارو » يتصور انه سيرتمي فى البحر ــ فى النهاية ــ وهو ممسك بيد أمه ، ولذلك لم يكن يشعر باى خوف او حزن على الاطلاق !..

وكانت الشمس الآفلة تصبغ السماء بلون وردى فاتن ، فى تلك الأمسية الهادئة التى تناولت فيها أمه حبلا ، وطلبت منه أن يخرج معها من المغارة ، وهى تقول له : « انك لا تحب ان افعل بك هذا على مشهد من كل هؤلاء القوم ، فتعال الى الخارج ! »

وفى تلك اللحظة ، لم يكن « ثارو » يتصور انه سيموت بمفرده .. ولكنه حين أدرك انها تنوى أن تخنقه ، أذعن لارادتها ، وسار وراءها حتى أعلى الجبل ، مبديا لها وجها مشرقا باسما .. كى يسعدها !

— ٢ —

● أقبلت المشرفة فقادت « ثارو » الى الغرفة المجاورة ، حيث جلس — على المنصة — المدرس الذى كان يعرفه « ثارو » ورفاقه باسم « سان جان » .

وكان « سان جان » رجلا من (أوكيناوا) ، يعمل مديرا لمزارع قصب السكر فى (سايبان) ..

وتقدم منه « ثارو » ، فراح المدرس يعظه بطريقته المعتادة ، التى كانت تبعث على الضيق .. **وبينما كان « ثارو » يصغى اليه ، وهو مطاطىء الرأس ، وقعت عينه الشاردة على المسدس المتدلى من حزام شرطى كان جالسا يكتب ، على منضدة بجوار الجدار .. فقال فى نفسه : « هذا المسدس من نفس النوع ! » .. وقد خطر بباله مسدس كان أحد ضباط البحرية قد سمح له . حين كان فى المغارة — أن يلعب به !**

وواصل المدرس لومه : قائلا : « انك تنكرت فى زى فتاة ، ورحت تبيع الزهور فى حى (جينزا) » .. فتساءل « ثارو » — فى نفسه — عمن يمكن أن يكون قد أخبر المدرس بهذه الأمور .. أهى المشرفة ؟ أم « توناكو » ، زميله فى الدراسة ، الذى أعاره رداء الفتاة ؟

واستطرد المدرس متسائلا : « انك لا تحب أن تكون عالة على غيرك ، ولذلك فكرت فى أن تكسب عيشك بنفسك ، أليس كذلك ؟ وانني لأحترم نزوعك الى الاستقلال ، ولكن ما الذى يدعوك الى أن تتنكر فى زى فتاة ، وتبيع الزهور ؟ »

قال « ثارو » فى نفسه : « أما فى هذه فانك أخطأت » ! .. لقد ارتدى زى بائعة زهور حقا ، ولكنه لم يكن يبيع زهورا .. ان المدرس لم يكن يدرى شيئا !

كان « ثارو » قد سمع فى (هونولولو) أن أمه تدير حانة

فى (چينزا) .. فما ان وصل الى طوكيو حتى بحث عن الحانة .. واهتدى اليها ، ولكن دخول الحانات محظور على الاحداث ، فيما عدا بائعات الزهور وعازفات ((الأكورديون)) .. والجميع يعرفون ذلك !.. فما كان من « ثارو » الا أن استعر رداء بائعة زهور ، ولبسه ــ فى أمسية يوم من أيام الأحد ــ ثم توجه الى الحانة التى كانت أمه تديرها .. ولم يكن بها رواد كثيرون . وكانت أمه منحرفة المزاج ، فما أن رأته حتى صرخت فى وجهه فى غضب : « يا لك من وقح !.. كم مرة حاولت أن تدخل هنا ؟.. ان روادى لا يرغبون فى زهورك ! » . وفى مرة أخرى ، امسكت خادم بثوبه ، وألقت به الى خارج الحانة .. ومع ذلك عاد ثانية !



● ومضى المدرس (ســان چان) فى توبيخه قائلا : « .. وكنت تصحب ــ فى سيارات الأجرة ــ اناسا ممن يأتون من (كوريا) ، فى أيام السبت . وقد جلب عليك هذا العمل شيئا من المال . ولكننى أشعر بالأسف حين أتصور أنك تستغل معرفتك باللغــة الانجليزية فى هــذه الأغراض الوضيعة ! »

وهنا قال ((ثارو)) فى نفسه : ((وهذه المرة ايضا ، لم تفهم شيئا يا سان چان !.. فانا لم أكن أسعى لكسب النقود لنفسى ، وانمــا رأيت أن رواد الحانة ــ التى كانت أمى تديرها ــ قليلون ، فحاولت أن أجيئها بمزيد من الرواد)) !

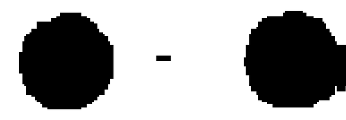
لقد أراد أن يساعد أمه دون أن تعلم ، ولكنه ارتكب خطأ جسيما .. اذهب يوما الى حــانة صــغيرة ، بالقــرب من معسكر (فيزفام) ــ الذى يعتبر ملتقى لسائقى ســيارات الأجرة ــ كى يطلب سيارة ، فبادره أحد السائقين قائلا : « ان صاحبة الحانة التى تتحدث عنها هى أمك ، أليس كذلك ؟..

انك حقا ولد بار جدا ، ولكن هل تعلم أيها الصغير ما تفعله أمك مع الرجال الذين تذهب بهم اليها ؟ »

واذ سكت « ثارو » ، أردف السائق قائلا : « اذا كنت لا تعرف ، فسأتيح لك معرفة ذلك ! » .. ثم استدعى سائقا آخر وأشار له نحو « ثارو » ، وأسر فى أذنه كلمات ..

فى تلك الليلة ، عاد ((ثارو)) متـأخرا الى عنبر نومه فى مدرسة ((سان جان)) ، وارتمى فوق سريره وهو يتلوى من الألم .. ان أمه لم تعد أمه .. انها ليست سوى امرأة !.. ولم تعد لديه رغبة فى هذه الحياة التى أفاق فجأة ، فوجدها بهذا القدر من القسوة والخسة !

واراد أن يموت فى تلك الليلة بالذات ، فأخرج من خزانته كل صور أمه وخطاباتها ، ومزقها وألقى بها فى وعاء القمامة بالمطبخ .. وتطلع حوله خشية أن يكون قد نسى شيئا منها ، ولكنه لم يكن قد نسى شيئا على الاطلاق .. وحين أدرك أن كل ما بقى عليه أن يفعله ، هو أن ينام قليلا قبل مرور أول قطار ، صدم لقصر الفترة التى بقيت له فى الحياة ، فانفجر باكيا !



● واستطرد المدرس « سان جان » ، بلهجـة التأنيب والاتهام قائلا : « .. ولقد انتقلت من سيىء الى أسوأ .. هذا طبيعى !.. ويبدو انك كنت تسير مخمورا تماما ، على طول خط السكة الحديدية . وكان مصرعك وشيك الحدوث .. ما كنت أظن مطلقا أن من الممكن أن تنحدر الى درجة أن تشرب الخمر وتسير مخمورا ! »

فقال ((ثارو)) فى نفسه : ((هذا صحيح ، ولكنه فى نفس الوقت خطأ !.. فأنا لم أكن قد شربت خمرا ، ولكن من

المحتمل اننى كنت اترنح كالمخمور !.. كان الفجر وشيكاً ، والمصابيح الكهربائية ترسل نورها على طول رصيف المحطة ، وعلامة الاشارة مفتوحة ايذانا بأن قطار الصباح لن يلبث أن يمر بين لحظة واخرى .. فخلعت سترتى ، والقيت بها فوق العشب ، ثم استلقيت منبطحا بين قضبان السكة الحديدية ، انتظر أن يمر القطار فوق جسدى .. ولقد مر القطار ، ولكنه لم يمسنى . وسمعت العامل الذى اخذنى الى ناظر المحطة ، يقول له : لو كان يرتدى سترة ، لعلقت اطرافها بالقطار ، وقضى عليه ، اذ كان ينام بين القضبان .. ولكنــه لم يكن يرتدى الا قميصا ، وهذا هو الذى انقذه !))

بيد أن فكرة الموت ظلت تسيطر على « ثارو » . وفى ليلة من ليالى الخريف ، سرق بعض البترول من المطبخ ، واجتاز الحقل المترامى خلف عنبر النوم ، ودخل خندقا متهدما .. ثم سكب البترول فوق جسمه ، وأشعل النار فى أكمامه .. ولكن الاشتعال كان ضعيفا ، فان البترول الحديث لا يلتهب بسرعة كالبترول القديم .. وسرعان ما اطفات الرياح اللهب الضعيف ، فحاول مستميتا أن يشعل النار ـ من جديد ـ فى اماكن اخرى من ملابسه ، ولكن الاحتراق كان بطيئا ، وقد تصاعد دخان لفت الأنظار ، فلم يلبث الناس أن حضروا ، فوجدوا ((ثارو)) مختنقا من الدخان ، وقد فقد وعيه .

وقال له رجل الشرطة : « لماذا أشعلت النار فى مهمات الجيش الأمريكى ؟.. سنخلى سبيلك اذا قلت الحقيقة ، والا فستلقى عقابك ! »

ولم يكن « ثارو » يعرف أن بالخندق مهمات .. فضــلا عن انه لم يفلح فى اشعال النار فى نفسه !

● ووجد نفسه يصرخ فجأة : « اقتلونى !.. اقتلونى ! »
فصاح سان چان : « أسكت ! » .. ثم نهض وغادر الغرفة مسرعا ، كما لو كان قد تأكد أن « ثارو » قد أصيب بالجنون !

ولم يلبثه أن دخل ضابط شاب ، فنزع حزامة وألقاه ـ والمسدس فى جرابه ـ على المنضدة ، ثم استلقى وأغمض عينيه ..

ونظر « ثارو » الى المسدس طويلا .. وكان الشرطى الآخر لا يزال منهمكا فى الكتابة ، على الكتب الملاصقة للجدار ، موليا ظهره نحوه .. فقال تارو فى نفسه : « هذه هى الفرصة ! »

وفى حذر اتجه نحو حزام الضابط النائم ، وأخرج المسدس من جرابه ، وتحسس زر الأمان ، ثم جذبه الى الخلف .. ونهض فجاة ، وضغط الزناد ، فاذا بقطع من الجبس تتطاير من الجدار المقابل !

وقفز الضابط النائم مرسلا صرخة مدوية ، واختبأ تحت المكتب . أما الشرطى الآخر ، فقد ألقى بنفسه وراء المكتب ، واخرج مسدسه ، واطلق النار على الصبى الذى كان يمسك المسدس والدخان يتصاعد من فوهته !

وتهالك « ثارو » نحو الجدار الذى خلفه ، واطلق زفرة طويلة ، وقد انبثقت الدموع من عينيه .. ثم سقط على الأرض !

(بقية المنشور صفحة ١٨)

الا لأضلل الحاكم المستعمر الطاغية ، عساى أن أعيش أيضا ، وأن أخدعه يوما ، وأن أتمكن من قتل نفس أخرى من رجاله مرة أخرى !.. وانت .. أنت اصبحت اليوم من رجاله . أنت الذى ضحيت بأبيك وأمك وخطيبتك ، أصبحت أشد شرا على بلادك من المستعمر نفسه !.. فانت الذى يجب أن أستكمل به اليوم واجب حقدى وثأرى وجهادى !.. لن أطفىء الشمعة حتى تنطفىء حياتك ، فاذهب ، اذهب الآن جثة هامدة الى معبودتك الفاجرة ايفونا !

وسددت ذراعها ، وهمت بأن تضغط على السلاح وتقتل حفيدها . واذ ذاك ارتجت الحجرة ، ودوى فى فضائها طلق نارى — لم ينبعث من سلاح ماريا — أصاب كارلو فى صدره ، والقى به على الأرض صريعا مضرجا بدمه . فذهلت العجوز وجمدت ، ثم تلفتت مذعورة وحدقت ..

اذ ذاك أبصرت تجاهها ، على حافة النافذة المفتوحة ، هيكلا ضامرا تعرفه ، هيكل خطيبة كارلو ، هيكل الفتاة البطلة المجاهدة التى خدعها الشاب وغرر بها وانصرف عنها الى الفاجرة ايفونا . فاندفعت اليها العجوز والسلاح مشهر فى يدها ، وضمت الفتاة الى صدرها وهتفت :

— مرحى !.. مرحى لك يا جلوريا !.. لو انك تاخرت لحظة واحدة لكنت انا التى قتلته لا انت !

فغمغمت الفتاة وهى ترتجف :

— انا لم اقتله لانه خان عهدى ، بل لانه خان وطنى . ولقد عرف الزعيم بخيانته فاختارنى انا للقضاء عليه !

فصاحت العجوز وهى تدفعها :

— اذن فاسرعى .. اسرعى بالفرار من هنا والا اتهمك

الحاكم بالجريمة ، أو اعتبرك شريكة فيها ، فعوقبت بالموت لا محالة . انقذى نفسك يا جلوريا . صونى حياتك من موت رخيص بيد العدو . انت شابة وقوية وباسلة والمجاهدون فى حاجة اليك . أما أنا فأى نفع من حياتى ، والى أين يمكن ان اذهب الآن ؟.. **لقد كان فى عزمى ان اقتل الخائن — وهو حفيدى — وأتحمل كل شيء .. ففرى أنت اذن بنفسك ودعينى اعترف بانى انا القاتلة وأتحمل وحدى كل شيء !**

فلم تعترض الفتاة . ولكنها أجهشت بالبكاء ، ومضت تلثم فى حرارة يد العجوز . فعانقتها ماريا وقبلتها ، ثم دفعتها عنها واستعجلتها .. وظلت واقفة تتبعها النظر ، وهى تعدو مسرعة وسط الحقول ..

ولما اختفت الفتاة ، تحولت العجوز نحو مقعدها ، وتأملت لهب الشمعة الكبيرة لحظة ، وأطفأته .. ثم أرسلت نفساً مستطيلا ، وارتمت على المقعد .. ولبثت هادئة ثابتة ، تنتظر مصيرها !



قصة من أمريكا

ينبوع الشباب

للقصصي الأمريكي الكبير

ناثانيل هوثورن



ترجمة : رمسيس فرعون المحامى

.. لو عاد الشباب !

كل فرد لا بد ان يسائل نفسه يوما : « كيف اتصرف لو أتيح لى ان اعيش عمرى مرة اخرى ؟ هل أستفيد من التجاربه التى مرت بى ؟ ».

انه ولا شك سؤال مثير .. وبوحى من هذا السؤال ، نبعت هذه القصة .. فهى مبنية حول فكرة « ينبوع الشباب » واثره فى اعادة الشباب ...

وفى هذه القصة يقدم « هاوثورن » اجوبة قد تثير اعظم الدهشة، الا انها يمكن ان تكون منطقية ومعقولة فى الوقت نفسه .

● فى احدى الأمسيات ، دعا الدكتور « هايديجر » أربعة من معارفه المحترمين ، ليقابلوه فى عيادته ... كان ثلاثة منهم رجالا دب الشيب فى شعرهم ، هم مستر « مدبورن » ، والكولونيل « كليجرو » ، ومستر « جاسكونى » .. أما رابعتهم ، فكانت عجوزا متصابية ، هى الأرملة « ويشرلى » .

كانوا أربعة مسنين بائسين ... صادفتهم التعاسة فى حياتهم . ولعل أكبر تعاسة صادفتهم ، هى أنهم حتى الآن لم يذووا فى قبورهم ، ليستريحوا من الآلام التى تلاحقهم وتاخذ بخناقهم !

كان مستر « مدبورن » ـ فى مستهل حياته ـ تاجرا ناجحا مرموقا ، ولكنه فقد كل ثروته فى مضاربات محمومة ، وأصبح فى حالة لا يحسد عليها .

ولقد أضاع الكولونيل « كليجرو » أفضل سنى عمره ، كما أضاع صحته وثروته ، فى البحث عن الملذات المحرمة ، التى

ادت به الى كثير من الأمراض المؤلمة ـ كالتهاب المفاصل والنقرس ـ فضلا عن الكثير من الآلام الأخرى ، التى سقط صريعها روحا وبدنا ...

اما مستر « جاسكونى » ، فكان سياسيا محطما .. كان رجلا ذا سمعة سيئة ، أو هكذا كانت شهرته من قبل ـ على الأقل ـ حتى محا الزمن اسمه من ذاكرة الجيل الحاضر ، فأصبح مغمورا بعد أن كان مرموقا ...

هذا عن الرجال المسنين الثلاثة ...

أما الأرملة « ويشرلى » ، فان الشائعات تنقل الينا انها كانت ملكة تتربع على عرش الجمال ابان ريعان شبابها ، ولكنها اصبحت تعيش ـ ومنذ أمد طويل ـ فى غمرة النسيان ، بسبب بعض الأقاويل الفاضحة التى تناثرت عنها ، والتى آذت أسماع الطبقة المحترمة فى المنطقة .

ومما هو جدير بالذكر ، ان الرجال الثلاثة كانوا قد وقعوا فى غرام الأرملة ((ويشرلى)) ـ وهى فى ريعان شبابها ـ وبلغ بهم التزاحم من اجل الفوز بقلبها حد التضارب والعراك !

وقبل أن نوغل فى سرد قصتنا ، يهمنا أن نقول أن الدكتور « هايديجر » وضيوفه الأربعة كانوا جميعا يستبد بهم القلق ، ويسيطر على جوانحهم ومشاعرهم ، كما هى حال كل من تقدمت به السن ، سواء كان ذلك ناجما عن متاعب معاصرة ، أو عن ذكريات أليمة مريرة ...

● ●

● وبدأ الدكتور « هايديجر » حديثه ، مشيرا الى ضيوفه بالجلوس : « أيها الأصدقاء الأعزاء .. اننى لفى شديد الحاجة الى معونتكم فى احدى التجارب ، التى تعلمون اننى اسلى بها نفسى هنا ـ فى عيادتى ـ بين الفينة والفينة » .

ولقد كانت عيادة الدكتور « هايديجر » مكانا مثيرا حقا

.. كانت تتكون من غرفة واحـــدة مظلمة ، أكلّ الدهر على الأثاث الموجود بها وشرب ، وعشش العنكبوت فى أركانها .. وحول الحوائط الكالحة ، كانت ثمة رفوف تعـلوها الكتب ، فملأت الرفوف السفلى منها كتب ضخمة تناهت فى الضخامة .. أما الرفوف العليا فكانت تشغلها كتيبات مكسوة بالجـلد الاسود الموشى بحروف ذهبية .

وفى ركن من قاعة المكتب ، كانت هناك مائدة يعلوها تمثال نصفى لأبوقراط اله الطب ، كان الدكتور « هايديجر » ـ كما تروى الاشاعات ـ يستشيره فى جميع الحالات المستعصية التى يتعرض لبحثها وفحصها .. وفى أشد أركان الغرفة ظلاما ، كانت ثمة خزانة شامخة ، بدا من أحد مصراعيها هيكل عظمى يترنح فى حركات رتيبة !

ولم يكن يكسو الجدران سوى ستائر قديمة العهـــد ، ومرآة يحوطها اطار مذهب بهت طلاؤه .. **ومن الأساطير التى تروى عن هذه المـرآة ، أن جميـع أرواح مرضى الدكتـور « هايديجر » ـ الذين انتقلوا الى العالم الآخر ـ كانوا يعيشون فى اطارها ، ويحملقون فى وجه الدكتور عندما يتطلع اليها !**

وعلى الجانب الآخر من جدران الغرفة ، كانت هنـــاك صورة ـ بالحجم الطبيعى ـ لسيدة فى مقتبل الشـباب ، فى ثوب باهت من الحرير الغالى المطرز بالساتان .. وكان وجهها باهتا كثوبها ! .. ولقد كان الدكتور « هايديجر » على أهبـة الزواج من هذه السيدة ـ منذ حوالى نصف قرن ـ ولكنهـا فى فترة اضطرابها ، قبيل الزواج ، ابتلعت قرصا أوصاها به خطيبها لتهدئة أعصابها ، فاذا به يؤدى الى وفاتهـا فى نفس ليلة زفافهـا .

أما أكثر ما كان يبعث على العجب فى العيادة ـ بعد كل ذلك ـ فهو كتاب ضخم مكسو بالجـــلد الأسود ، وتحيـط

باطرافه مشابك من الفضة الخالصة .. ولم يكن يحمل على ظهره اية حروف ، لا ولم يقدر احد ان ينبئنا باسمه ، ولكن .. كان من المعروف انه كتاب عن السحر !

وفي احدى الأمسيات ، حاولت احدى الخادمات رفعه ، لكي تزيل التراب من تحته ، فاضطرب الهيـكل العظمي في خزانته ، وتقدم خطوة على الأرض الى الأمام ، كما برزت عدة وجوه مخيفة ، أطلت من المرآة ، بينما تجهم التمثال النصفي لابوقراط ، وهو يصيح : ((كفى عن هذا !))

هكذا كان مظهر عيـادة الدكتور ((هايديجر)) ، حينما اجتمع وضيوفه الاربعة حول مائدة مستديرة في لون الابنوس الأسود اللامع ، يعلوها اناء للزهور من ((الكريستال)) الغالي ، ينم عن ذوق رفيع .. وكانت أشعة الشمس الغاربة تتسلل الى الغرفة من بين ثنيات ستـارتين من الحرير الدمشقي الغالي ، لتقع مباشرة على اناء الزهور فينعكس ضوؤها على الوجوه المغبرة للأشخاص الخمسة الملتفين حول المائدة .. كما كان على المائدة اربع كؤوس فارغة من كؤوس الشمبانيا !

ووجه الدكتور حديثه الى ضيوفه الأربعة قائلا :

((أيها الأصدقاء الأعزاء .. هل لي أن أعتمد عليـكم في القيام بتجربة تتناهى في الغرابة ؟))

● ●

● والآن ننتقل الى الدكتور ((هايديجر)) نفسه . كان سيدا متقدما في السن ، غريب الأطوار ، حتى أصبح شذوذه نواة لعشرات القصص الخيالية التي تحاك حوله .. ولعلي انا (الكاتب) ، من أصحاب بعض هذه القصص . فاذا ما هزت قصتي وجدان القارىء ، فانه ليسعدني أن أساهم في شـهرة الدكتور وشذوذه !

واذ استمع ضيوفه الأربعة اليه ، وهو يحدثهم عن تجربته المقترحة ، لم يتوقعوا ان تتجاوز قتل فأر في أنبوبة اختبار ، أو

فحص مجهرى لعنكبوت ، أو احدى هذه الترهات التى كان دائما يحب أن يداعب بها أصدقاءه ومريديه ويبهرهم .

ولكنه ـ دون أن ينتظر ردا منهم ـ عبر الغرفة فى خطوات سريعة ، وعاد حاملا المجلد الضخم الكبير ذا الغلاف الأسود ، الذى قلنا أن الاشاعات تصفه بأنه أحد كتب السحر .. وبعد أن فك المشابك الفضية التى كانت تغلقه ، فتح الكتاب ، والتقط من بين صفحاته وردة .. أو شيئا كان وردة فى وقت ما ، ولكن أوراقها ذبلت وتغضنت ، فبدا أنها كانت على وشك التهشم والانهيار بين أصابع الطبيب النحيلة الطويلة ..

قال الطبيب وهو يتنهد :

« هذه الوردة .. هذه الوردة بالذات التى ذوى غصنها ، كانت فى أوج نضارتها منذ خمس وخمسين سنة ... لقد أعطتنيها « سيلفيا وارد » التى ترون صورتها خلفكم فوق الجدار .. وكنت على وشك أن أضعها فى عروة سترتى يوم الزفاف !.. وهى ـ منذ ذلك الحين ـ وهى تقبع بين أوراق هذا المجلد ... **والآن ، هل بوسعكم أن تتصوروا أن من الممكن لهذه الوردة ـ التى يرجع عهدها الى هذا الزمن السحيق ـ أن تستعيد رواءها فى لحظة واحدة ؟! »**

هنا لم تتمالك الأرملة « ويشرلى » نفسها ، فصاحت فى حركة عصبية : « كلام فارغ !.. كأنى بك تريد أن تقول أيضا ، أن السيدة العجوز المغضنة الوجه يمكن أن تستعيد رونقها ، هى الأخرى ، فى لحظة واحدة ! »

قال الدكتور هايديجر : « انظروا اذن ..! »

ثم كشف الغطاء عن اناء الزهور ، والقى بالوردة الذاوية فى الماء الذى كان يملأه .. وفى أول الأمر ، ظلت الوردة ساكنة تطفو على سطح السائل لا تتشرب شيئا منه .. **ولكن أمرا غريبا بدأ يبدو ـ وفى بطء ـ بعد لحظات .. فاذا الأوراق**

الذاوية تستعيد رونقها رويدا ، واخذ العنق المتيبس يسترد اخضراره .. كما لو كانت الوردة تفيق من حلم طويل عميق ! .. وان هي الا دقائق معدودات حتى بدات الوردة في نضارتها التي كانت عليها منذ نصف قرن ، يوم اهدتها ((سيلفيا وارد)) الى خطيبها لاول مرة ، وقد بدت بعض نقط الماء تلمع على اوراقها كاللؤلؤ فوق القطيفة الحمراء .

وصاح أصدقاء الطبيب بدون اكتراث ، اذ كانوا قد شاهدوا — من قبل — معجزات أكبر وأعظم ، في عروض قام بها بعض الحواة ((انها ولا شك خدعة باهرة !.. بربك كيف قمت بها ؟))

أجاب الطبيب : ((ألم تسمعوا أبدا عن ينبوع الشباب ، الذي حاول المغامر الأسباني ((بونس دى ليون)) البحث عنه ، منذ قرنين من الزمن أو يزيد ؟))

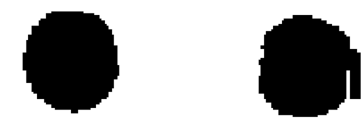
فتساءلت الأرملة ويشرلى : ((ولكن هل استطاع بونس دى ليون العثور عليه ؟))

— كلا .. لأنه لم يبحث عنه أبدا ، في مكانه الحقيقي . فان ينبوع الشباب — اذا كان ما وصل الى علمي عنه صحيحا — يقع في الجزء الجنوبي من شبه جزيرة (فلوريدا) ، ويتوارى منبعه في غابات كثيفة من أشجار (الماتوليا) الضخمة ، التي لا تزال — برغم مرور السنين الطويلة — يانعة كزهور البنفسج ، بفضل مياه هذا الينبوع ... ولما كان أحد أصدقائي يعرف تضلعي في مثل هذه المسائل ، فقد أرسل لي خصيصا هذا القدر من المياه الذي ترونه في اناء الزهور !

وتساءل الكولونيل ((كليجرو)) ، وهو لا يصدق كلمة واحدة من قصة الدكتور : ((وماذا يمكن ان يكون اثر هذا السائل على الجسم الانساني ؟))

فأجاب الدكتور هايدېجر : ((سوف تحكم بنفسك يا صديقي الكولونيل !.. اذ انكم — ايها الأصدقاء المحترمين

ـ مدعوون الى أن تتناولوا من هذا السائل قدر ما تستطيعون لكي يعيد اليكم نضارة الشباب .. أما أنا فقد عانيت كثيراً فى دنياى حتى وصلت الى سن الشيخوخة ، فلم أعد متلهفـنا للرجوع مرة أخرى الى سن الشباب !.. لذلك فكل ما سأفعله هو أن أرقب مدى نجـاح هـذه التجربة اذا سمحتم لى بذلك ! »



● واخذ الدكتور « هايديجر » يملأ كؤوس الشمبانيا من ماء ينبوع الشباب ، وهو يتكلم .. وبدا الماء فوارا ، لأن بعض الفقاقيع اخذت تطفو من القـاع الى وجه الماء ، على شكل حبيبات فضية لامعة .. بينما انتشر فى الجو شـذي رائحة طيبة ، مما جعل المسنين الأربعة لا يشكون برهة فى أن يكن لهذا السائل مفعول غريب ولا بد ، فحثهم هذا على أن يمدوا أيديهم بسرعة الى الكؤوس ليجرعوا ما بهـا . ولكن الدكتور « هايديجر » أومأ اليهم بيده أن يتريثوا برهة ، وهو يقول : « عليكم قبل أن تشربوا ، أن تقدروا ما انتم مقدمون عليه ، مسترشدين فى ذلك بخبرة حياة كاملة !.. ماذا ينبغى أن تفعلوا اذا ما رجعتم مرة أخرى الى سنى شبابكم وسط مخاطر الحياة الحالية ؟.. تصوروا كم يكون الأمر مشينا ، اذا لم تصبحوا نماذج للفضائل ، وعنوانا للحكمة ، ومثالا يجب أن يحتذيه جميع شباب عصرنا الحاضر ! »

وظل أصـدقاء الطبيب لا يحيرون جوابا .. كانت كل لهفتهم تتجه الى شرب المياه بأسرع ما يمكنهم ، ليقتنصوا كل دقيقة من الوقت .. فكل دقيقة تنقضى ، باتت فى نظرهم عبثا وهباء ؟

وقال الدكتور ، وهو يشير الى الاناء : « اشربوا اذن ،

فأنا على ثقـة الآن من أنني قد اخترت من يناسب تمـاما موضوع تجربتي !.»

وبايد مرتعشة – موزعة بين التردد واللهفة – رفعـوا الكؤوس الى افواههم ، وقد بدوا وكأنهم لم يروا شـبابا أو متعة في حياتهم كلها .. بل كأنهم ولدوا مسنين ، فهم يتطلعون الى أن يعرفوا ما تناهى الى سمعهم عن متع الدنيا وزخرفها .. وبعد أن افرغوا كؤوسهم ، أعادوها الى المـائدة وظلوا يترقبـون !

وسرعان ما لوحظ تطور غريب على وجوه الجماعة .. لم يكن تطورا كذلك الذي يحدث عقب شرب زجاجة من الخمر المعتقة ، ولكن .. كأنمـا كان ثمة ضوء وهاج أنار وجوههم فجأة ... وظهرت لمحة من الصحة تكسو وجوههم وتمحـو عنها تلك الجهامة الكابية التي كانت تبديها كوجوه الموتى !.. واخذوا يحملقون في وجوه بعضهم بعضا ، وهم يخالون أن معجزة حلت لتمسح أحزانهم ، وتزيل آلامهم التي أضفاها الزمن على جباههم وملامحهم !

واخذت الأرملة « ويشرلي » تعدل من وضع قبعتها ، اذ شعرت بأنها عادت ناضرة الأنوثة مـرة أخـرى ، وقالت : « ناولنا المزيد من هذه المياه العجيبة !.. اننا الآن أصغر مما كنا ، ولكننا لا نزال كبار السن .. بسرعة ، بسرعة .. ناولنا المزيـد ! »

ورد الدكتور « هايديجر » ، الذي ظل صامتـا طول الوقت ، يرقبه التجربة في رزانة الفلاسفة : « صبرا ، صبرا ! .. لقد وصلتم الى السن التي كنتم عليها بعد عمر طويل .. ولن ينتقص من اغتباطكم ان تستغرق عودتكم الى الشـباب نصف السـاعة فقط !.. وعلى أي حال ، فالمـاء تحت تصرفكم ..! »

وعاد يملأ الكؤوس من مشروب الشباب . وبقى فى اناء الزهور من الماء ما يكفى لأن يحول نصف سكان المدينـة من الشيخوخة الى أعمار أحفادهم !



● وفى حركة بادية الانفعال جذب الأربعة كؤوسهم من على المائدة ، وأفرغوها فى حلوقهم دفعة واحدة .. ترى هل كان الأمر خداعا ؟ ؟ لقد كان الشراب ــ وهو ينسـاب فى حلوقهم ــ يبدو وكأنه يسجل أثرا على كل كيانهم .. اذ بدأت عيونهم تلمع وتفيض بنظرة أكثر رقة وشـبابا .. وجلسوا حول المائدة : ثلاثة رجال فى أوسط العمر ، وسيدة تكاد تكون فى ربيع الحياة !

وصاح الكولونيل « كليجرو » ، وعيناه مثبتتان عـلى وجهها ، الذى بدأت مظاهر الشيخوخة تبارحه كما يتسلل الظلام عندما يغزوه نور الفجر : « سيدتى ، كم أنت فاتنة ! »

ولكن السيدة الفاتنة كانت تعلم ــ بخبرتها القديمة ــ ان أقوال الكولونيل « كليجرو » لا تتسم دائما بطابع الصدق المنبعث من القلب ..

لذلك فقد جرت الى المرآة تستشيرها ، وهى تخشى أن يطالعها على صفحتها وجه العجوز الشـمطاء التى تعلو وجنتيها آثار السنين الخوالى ..

وأخذ الرجال الثـلاث يتصرفون بما أوحى بأن لماء ينبوع الشباب هذا الأثر الناجح فعلا .. ففيما عدا الدوار الخفيف الذى أحسوا به ــ نتيجة ارتدادهم فجأة عشرات السنوات الى الوراء ــ أخذ الشباب ومرح الشباب وطيشه يسيطر على كل تصرفاتهم !..

وانطلق لسان مستر « جاسكونى » يتشدق بالموضوعات السياسية ، ولكن .. هل تتصل هذه الموضوعات بالأحوال

السياسية فى الماضى ، او هى تتصل بالحاضر ، أو المستقبل ؟ .. كان من الصعب ادراك هذا ، اذ كان كل ما انساب منه من عبارات ، هو عين ما اعتادوا أن يرددوا خلال الخمسين عاما الأخيرة ! .. **فراح مستر « جاسكونى » يتحدث عن الوطنية ، والمجد القومى ، وحقوق الشعب .. وكان يتحدث بصوت منخفض - احيانا - حتى لا يسمعه ضميره ، ويرفع من صوته - احيانا اخرى - فى نبرة مهيبة ، كما لو ان اذنا ملكية كانت تستمع اليه ، وقد تكافئه عن اقواله بمنصب وزارى !**

اما الكولونيل « كليجرو » فقد راح يردد - طيلة هذا الوقت - نشيدا حربيا حماسيا ، ويدق بكاسه على المائدة فى « سيمفونية » تتجاوب مع النشيد ! .. بينما كانت عيناه معلقتين بوجه الأرملة « ويشرلى » ، الذى رجع تماما - فى تلك الاثناء - الى مقتبل الشباب ..

وفى الجانب الآخر من المائدة ، كان المستر « ميدبورن » منهمكا فى حساب الدولارات التى ستعود عليه من مشروع اعتزم القيام به ، وهو تسيير قافلة من الحيتان والأسماك البحرية الكبيرة ، لتنقل الثلوج من الجبال الجليدية بالمحيطات ، الى بلاد الهند الشرقية الحارة ..

وظلت الأرملة « ويشرلى » تحملق مشدوهة فى صورتها المنعكسة على المرآة ، وهى ترحب بها ، وكأنها كانت ترى - بعد طول فراق - صديقا قديما احبته اكثر من اى شىء آخر فى حياتها .. واخذت تزداد بوجهها قربا من المرآة ، لترى ما اذا كان اى ظل للتجعدات باقيا .. وما اذا كان الشيب قد زال تماما من شعرها !! .. واخيرا ، دارت فى حدة - وقد اطمأنت تماما - لتعود فى خطوات راقصة الى

المائدة ، وهتفت : « يا عزيزى الدكتور .. بربك امنحنى كأسا أخرى ! »

رد الدكتور مجاملا « طبعا يا عزيزتى ... انظرى ، لقد ملأت الكؤوس فعلا ! »

● ● ●

● وكانت الكؤوس الاربع ممتلئة فعلا حتى حافتها بالسائل العجيب الفوار ، الذى كانت حبيباته مواظبة على على الارتفاع من أسفل الكؤوس حتى أعلاها ، كحبات اللؤلؤ ... وبدأ الغسق ينشر ألويته ، ولكن نورا خافتا ظل ينبعث من اناء الزهور ، وينعكس على وجوه الضيوف الأربعة ووجه مضيفهم الطبيب المحترم ، الذى ظل جالسا فى مقعده العالى ، يطل فى كبرياء الرجل الوقور على ضيوفه الاربعة وهم يتصرفون كما لو كانوا فى ريعان الشباب !.. فلقد ظلوا — حتى تناولوا الكؤوس للمرة الثالثة — ينظرون فى احترام الى التعبير الرزين الذى كان يتراءى على وجهه .. **ولكن ، ما ان سرى ماء الكأس الثالثة فى عروقهم ، حتى اصبحوا فى مرح المراهقين وطيشهم !.. وبدا لهم العمر الطويل — بهمومه وأحزانه وآلامه وأمراضه — قد انحسر ، كما لو كان ذكرى بغيضة الى نفوسهم ، أو شتات حلم مزعج افاقوا منه !.. فلقد احسوا بأنهم ولدوا من جديد .. فى دنيا جديدة !**

وراحوا يرددون : « لقد عدنا الى الشباب ! عدنا الى الشباب !.. »

واصبحوا — وقد زال عنهم كل أثر لرزانة الشيخوخة ووقارها — مجموعة من الشباب ، تحكم تصرفاتهم جميعا حماقات المراهقين . وتحول حديثهم الى سخرية لاذعة من الشيخوخة التى كانوا — فترة ما — فرائس لها .. واخذوا

يضحكون من ملابسهم التى عفا الزمن على طرازها ؛ ومن قبعاتهم العريضة الغريبة ، ومن القفازين القديمين الغريبى المظهر ، اللذين ارتدتهما السيدة الفاتنة التى كانت تجلس امامهم !.. وأخذ احدهم يقلد عجوزا يعرج ؛ وهو يسير على عكازين وهميين .. ووضع الآخر نظارته على قصبة انفه ، كما يفعل المسنون ، وهو ينكب على كتاب السحر الضخم ، وكأنه يجد صعوبة فى قراءته !.. بينما اتكأ الثالث فى مقعد واسع ، يحاول أن يقلد رزانة الدكتور « هايديجر » ووقاره .. ثم أخذ الجميع يصيحون ويغنون بأعلى صوتهم وهم يقفزون فى الغرفة !

اما الأرملة « ويشرلى » ــ اذا حق لنا ان نسمى آنسة فى مثل هذا الجمال والسن بالأرملة ــ فقد خطت فى استحياء ماكر نحو المقعد الذى جلس عليه الدكتور ، وقالت تداعبه : « يا احب الناس الى قلبى .. أليس لك فى رقصة معى ؟ ! »

وهنا علا ضحك بقية الشبان ، وهم يتخيلون مدى الجهد والعناء الذى يتحمله الدكتور الشيخ ، اذا هو رقص مع هذه الآنسة الشابة !

ولكن الدكتور أجاب فى هدوء : « أرجو معذرتك يا سيدتى ، فأنا كبير السن ، ولم أرقص منذ عهد بعيد ، ولكن أيا من هؤلاء الشبان المرحين ، سيسعده ــ ولا شك ــ أن يحظى بالرقص معك ! » .. وهنا هتف الكولونيل كليجرو « تعالى أرقصى معى يا كلارا ! » .. ولكن المستر جاسكوين صاح فى وجهه معترضا : « كلا .. كلا .. انا الذى سأزاملها فى هذه الرقصة ! » .. فتدخل المستر مدبورن قائلا : « بل انا الذى سيرقص معها ، لانها وعدتنى بالزواج منذ خمسين سنة ! »

● **والتفوا** جميعا حولها : واحد يشدها من كلتي يديها في انفعال ، والآخر يلف خصرها بذراعه ، والثالث يجوس بأصابعه خلال جدائل شعرها الذهبية .. وهي تحاول – في تمنع ودلال – أن تفلت من بين أيديهم ، وصدرها الناهد يعلو ويهبط .. ولكن دون أن تبذل من جانبها أية محاولة جدية في اصطناع ذلك ! كم كان جميلا منظر هذه المنافسة التي كانت جائزتها وجها باسما فاتنا في مقتبل الشباب !.. **ولكن المرآة الخبيثة لم تعكس هذه الصورة الجميلة ، بل ظلت تعكس صورهم في شكل ثلاثة شيوخ متهالكين ، في ملابس قديمة الطراز ، تملأ الأخاديد وجوههم ، وقد راحوا يتنازعون فيما بينهم – بصورة غير مستساغة – عجوزا شمطاء ، عفا عليها الزمن فتركها جلدا على عظم !**

ولكنهم كانوا شبابا .. كانت عواطفهم الملتهبة تؤكد لهم ذلك !.. وعندما أثارهم دلال الفتاة – التي بينهم – الى حد الجنون ، أخذوا يتبادلون فيما بينهم نظرات غاضبة . ثم انقلبت هذه النظرات الى أن أمسكوا برقاب بعضهم البعض . وبينما هم يتلاحمون في غضب ، انقلبت المائدة بما عليها ، وهوى اناء الزهور الغالي ، فتهشم الى آلاف القطع .. ويجري الماء الثمين لامعا على أرض الغرفة ، معيدا الشباب الى جناحي فراشة عجوز ، كانت ترقد في استسلام على أرض الغرفة ، وتهيء نفسها للموت .. فما كاد الماء يلمسها حتى انتفضت ، وانطلقت تطير لتستقر على رأس الدكتور « هايدجر » ، الذي تخلله الشعر الأبيض . وهتف الدكتور : « كلا كلا ، أيها السادة !.. كلا كلا ، يا مدام ويشرلي !.. الآن يحق لي أن احتج على هذه الفوضى الضارية ! » .

ووقفوا صامتين لا يبدون حراكا ، اذ بدا واضحا ان الزمن الفاتى بدأ يدعوهم الى العودة من رحلة شبابهم المشوقة ، الى وادى الشيخوخة مرة اخرى !.. واخذوا ينظرون الى الدكتور « هايدجر » ، الذى جلس فى مقعده الواسع حاملا الزهرة التى بلغ عمرها خمسين سنة ، والتى استطاع انقاذها بين أشلاء الاناء المحطم . وباشارة وقور من يده ، عاد الأربعة الطائشون الى مقاعدهم طواعية ، اذ ان الشجار أنهك قواهم رغم شبابهم .. الظاهرى !

واخذ الدكتور يناجى زهرته : « يا لزهرة سيلفيا المسكينة ! انها بدأت تذبل من جديد !.. »

وهذا ما كان يحدث فعلا !.. فقد اخذت الزهرة فى التغضن ــ والجميع يحملقون فيها ــ حتى اصبحت جافة ، هشة كما كانت ساعة أن ألقى بها الدكتور فى الاناء ، قبل فترة وجيزة !

وقال الدكتور ، وهو يقرب الزهرة لتلامس شفتيه : « اننى أحبها هكذا ، أكثر مما أحببتها فى أوج نضارتها ! » .



● **وبينما** كان يتكلم ، طارت الفراشة من فوق رأسه ، وحومت مترنحة ، ثم سقطت على الأرض جثة هامدة ..

وبدأت قشعريرة باردة تسرى فى أوصال الرجال والمرأة . اتراها كانت تسرى فى أرواحهم .. أو فى أبدانهم ؟.. هذا ما لم يستطيعوا أن يقطعوا به !.. واخذوا يحملقون فى بعضهم البعض ، ويحسون بأن كل دقيقة تمر عبر الزمن ، تسلبهم متعة وشبابا ، وتحضر أخدودا جديدا فى وجوههم !.. **ترى هل كان الأمر كله وهما ؟.. هل كان من الممكن أن تحدث كل هذه التغييرات المذهلة ، فى مثل هذه**

الفترة الوجيزة ، ثم يعـودوا من جديد أربعـة ضـيوف مسنين ، يجلسون مع صديقهم القديم دكتور ((هايديجر)) ؟..

وتساءلوا فى حزن : « هل عدنا مسنين مرة أخرى » ؟..

الحقيقـة المريرة ، انهم اصبحوا كذلك !.. فقد كان مفعول ماء الشباب سريع الزوال كالخمـر !.. وتبخرت النشوة ـ التى خلقها ـ كالفقاقيع التى تملؤه !.. نعم ، لقد عادوا مسنين مرة أخرى !

وبدافع لا شعورى ، رفعت الأرملة « ويشرلى » يديها ـ التى تهدل الجلد حولهما ـ أمام عينيها مرة أخـرى ؛ وتمنت لو ان هذين اليدين كانتا دفينتين تحت التراب منـذ زمن ؛ فهـذا أرحم من استردادهما الجمال لدقائق ، ثم عودتهما الى قبح الشيخوخة !

ووجه اليهم الدكتور حديثه قائلا : « نعم أيها الأصدقاء .. لقـد أصبحتم مسنين مرة أخـرى .. ولقـد سكبتم ـ للأسف الشديد ـ كل ما تبقى من ماء الشباب فى عشكم الأرض !.. **وأنا شـخصيا غير آسف لذلك ، فانى لم أفكـر لحظة واحدة أن أبلل شفتى بهذا المـاء .. حتى لو كانت نشوته تستمر لعدة سنوات ، وليس للحظات معدودات !.. هذا هو الدرس الذى علمتمونى اياه بتجربتكم الوجيزة ! »**

ولكن ضيوف الطبيب الاربعة لم يتعلموا شيئا من هذا الدرس !... بل انهم وطنوا العزم عـلى أن يحجـوا الى « فلوريدا » ، لكى يجرعوا ـ كل صباح ومساء ـ من مـاء ينبوع الشباب !.. وكان أشدهم حماسا لهذه الفكرة ... الارملة « ويشرلى » !

قصة من فيتنام

الجسر المعلق!

للكاتب المعاصر
توى آن هونج دان



ترجمة : ح . ا

كلهم فى العدوان على الآمنين سواء !

اذا كانت الكاتبة الانجليزية « ايثيل منين » قد استطاعت أن تنقل لنا صورة راعة لمأساة فرار أهل القرى الفلسطينية الوادعة من ارهاب الصهيونيين ووحشيتهم ـ فى الاربعينات من هذا القرن ـ فان الكاتب الفيتنامى « ثوى آن هوانج دان » يرسم لنـــا ـ فى القصة التى نقدمها على الصفحات التالية ـ صورة لا تقل روعـــة واثارة للمشاعر الانسانية ، لفرار اهل القرى الفيتنامية السالمة ، من وحشية الامريكيين ، فى الستينات من القرن ..

● **كانت** طلقات النيران قد اقتربت من جميع الجهات .. وفجأة ، اقترنت بها انفجارات عنيفة تصم الآذان ، ولا يعلم غير الله مصدرها !

ولم يجد الذين لم يكونوا قد رحلوا بعد ـ من سكان قرية (انجين) ـ وقتا للتفكير أو الجـدال .. فسرعان ما أصبح صخب فرارهم الجنونى يتردد فى جميع الطرق المفضية الى خارج القرية الصغيرة ، والرعب والكرب يثقلان صراخهم : **« لقد أصبحنا فى قلب النار ! .. لقد زحفت الينا الجبهة ! »**

واندفع بعض الذين سمعوا آخر الأنباء ـ عند مدخل القرية ـ يسعون الى بيوتهم ، ليحملوا منها كل ما تصل اليه أيديهم . وبقى بعض منهم فى المؤخرة ، ليساعدوا المسنين ، ويحملوا الأطفال .. وكدست النساء فوق ظهورهن ما كانت تضمه بيوتهن الفقيرة من أمتعـــة ، بينما حمل الرجال على أكتافهم أدوات الزراعة وآلاتها .. وراح الجميع يتدافعون ـ فى عجلة ـ فرارا من القرية المهددة ، دون أن تكون لدى واحد

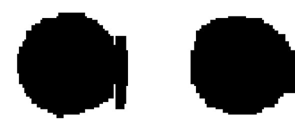
منهم فكرة محددة ، عن الوجهــة التي يتخــذها .. فكانوا ينضمون ــ بلا وعي أو ارادة ــ لأكثف الجماعات الهاربة التي تصادفهم ، دون أن يفسحوا لإنفسهم فرصة ليسألوا : من اى نواحي الجبهــة ينبعث ضجيج المعــركة ؟ .. والى اية مسافة من القرية وصل المحاربون ؟ .. كان كل هم القرويين أن ينطلقوا فى فرارهم مسرعين ، لاهثين ، حاملين ابنــاءهم وزادهم وأمتعتهم !

وبدا ان الطلقات كانت تنبعث من كل ناحية ، وفى وقت واحد ، تصحبها جلبة وسائل النقل ، التي كانت تتناهى الى اسماع القرويين ، فكانوا يحسون بها ــ اكثر مما يسمعونها ــ اذ كانت تزلزل الأرض تحت اقــدامهم ! .. **وفى تدافعهم واضطرابهم ، كان بعضهم يسقط فوق بعض ، وكان الأزواج يفترقون عن زوجاتهم ، والامهات ينفصلن عن أولادهن .. فتتصاعد النداءات لاهثة ملهوفة .. وكلما قطعوا شوطا ، انضم اليهم فريق جديد ، يضاعف ذعرهم بما يحمل من انباء:**

ــ لقد بلغوا الجسر ! .. انهم قادمون من طريق (دان اجزين) ! .. لديهم مصفحات ! .. انهم يطلقون النار على القرية!

وتأكيدا لهذا الخبر الأخير ، مرقت فوق رؤوس النازحين ــ وهم مصطفون على ضــفة النهر ــ دفعات من القنــابل القاصفة ، فانبطحوا جميعا .. وأرسلت النسوة عاصفة من الصراخ والعويل :

ــ لقد احاطوا بنا ! .. لقد حوصرنا ! .. يجب أن نعبر النهر ، فهذه هي فرصتنا الوحيدة للنجاة !



● **وفى حركة** واحــدة ، اندفع المهــاجرون نحو حافة النهر ، وقد تركوا مناجلهم وأدواتهم وما كان يضايقهم حمله

من حزم .. والكهول منهم يئنون ، والأطفال يبكون .. ومن احدى النساء ، انطلقت صرخة مرتاعة ، فارتفع صوت رجل يقول : ((اغلقن افواهكن يا نسوة ! .. انهم اذا سمعونا فسوف يقصفوننا بالقنابل ، فيمزقوننا اربا !))

وازاء هذا التحذير كتم الكهول اناتهم ، وأخذت الأمهات يسكتن أبناءهن ويلصقن راحاتهن بأفواههم !

وعلى طريق الجسر ، أخذت ضوضاء المصفحات تدنو ، مختلطة بطلقات الرصاص ، تعزف موسيقى الموت .. واستمر الضجيج الرهيب فى الاقتراب .

ولكن الذين بلغوا ضفة النهر — اسفل طريق الجسر — لم يلبثوا أن هدأوا ، وكأنهم أيقنوا من انهم بلغوا — فى النهاية — مأوى أمينا .. وعادوا يلتقطون أدواتهم وأمتعتهم التى كانوا قد القوها أرضا . وأسرع الأقوياء من الرجال الى قواربهم المستديرة — الشبيهة بالسلال — فشرعوا ينقلون الهاربين ، ويجدفون بكل ما أوتوا من قوة !

وفى لحظة وجيزة ، كانت القوارب قد غصت بالشيوخ والنسوة اللائى حملن اطفالهن على اكتافهن .. أما الشبان ، فاندفعوا الى الماء ، يعبرون النهر سباحة . وأفرد القارب الأخير للأمتعة التى لم يلتقطها اصحابها ..

واذ اصبحت القوارب فى عرض النهر — وهى تتمايل باضطراب ينذر بالخطر — أخذ العابرون يرتجفون خوفا ، اذ فطنوا الى أنهم اصبحوا فى مساحة مكشوفة ، مما يجعلهم هدفا سهلا للقنابل .. ولم يجرؤ أحد على الالتفات نحو القرية الصغيرة ، والشاطىء الذى وقف عنده من لم تتسع لهم القوارب ، ينتظرون دورهم فى العبور ، وهم نهب للرعب ، خشية أن يصيبهم العدو ، قبل أن تعود اليهم القوارب ..

ولكن المجدفين راحوا يجدفون فى استبسال مستميت ، فعادت القوارب مرات .. وعندما تمت آخر رحلة عبر النهر ، وتم نقل جميع الأمتعة الى الضفة الأخرى ، استرد الهاربون هدوءهم ، وانبطحوا على الأرض ، يرسلون أبصارهم نحو القرية التى هجروها !

● ●

● **كانت** سماء القرية تتوارى فى سحب من دخان اسود ، تمزقه ــ من حين لآخر ، السن اللهب ! .. وأخذت أعمدة الدخان والسن اللهب تتمازج وتتلوى كالأفاعى المذعورة .. وامتدت الحرائق من أحد أطراف القرية ، حتى بلغت المبانى الرئيسية فيها ، ثم تشعبت فانتشرت فى كافة الأنحاء ، واجتاح الدخان كل شىء .. والرياح تحمل الرماد الى ضفة النهر ، ثم عبره الى الضفة الأخرى ، لتصفع به وجوه الهاربين الذين التصقوا بالأرض فى الم وذهول ، وقد سمرتهم اليها فجائية الأحداث والدمار ..

ومسح أحد الرجال وجهه الذى كساه الرماد ، ثم اخذ يصرخ ، وهو يحدق فى يده : « انظروا ! .. ثمار كل تلك السنين من الجهد والعناء ، تتلاشى فى الدخان .. أهذا مصير العمل الدائب والحرمان ؟ .. يا الهى ! »

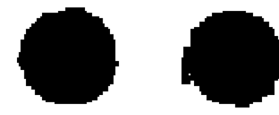
وسمع كل امرىء هذه الحسرة ، فكأنما كانت اشارة بدء ، اذ أخذت الدموع تسيل من العيون .. وافلتت من الرجال زفرات اسى .

ولكن أحد المبرزين فى القرية ، صاح بصوت قوى : « ان المصيبة مصيبة الوطن بأسره ، فلا تعتقدوا أن منازلكم وقريتكم هى التى احرقت فحسب ! »

وبينما هو يتكلم ، صرخ أحد الموجودين : « انظروا ! .. هناك رجل على الشاطىء .. ومعه ثور ! »

واتجهت الأبصار جميعا الى الضفة المقابلة .. كان هناك رجل حقا ؛ لاح خلال الدخان ، وهو يقود ثورا ، ويسير فى خط متعرج ، وكأنه كان يحاول تفادى الضربات التى كان يوجهها اليه خصم متوار عن الأنظار . وعرف القرويون الرجل .. كان « ترونج به » ، وثوره .. وراحوا ينادونه ، ويحيطون أفواههم براحاتهم ، حتى تتضخم أصواتهم وتبلغ الشاطىء الآخر للنهر . ولكن .. **أكان من الممكن أن يسمع نداءاتهم وسط ضجيج القنابل والمفرقعات والمصفحات وطقطقة الأخشاب واعواد الغاب المشتعلة ؟**

ولوح « ترونج به » بيده ، ثم شد الحبل ليقود الثور الى منحدر يفضى الى حافة النهر .. ولكنه ما لبث أن غير اتجاهه فجأة ، ولاح أنه اراد أن يحتمى خلف جسم الحيوان .. وفجأة ، أنزل يديه والصقهما ببطنه ، بينما انتفض الثور جامحا ، وأفلت وانطلق مترنحا ، وكأنه أصيب هو الآخر .. وايقظ هذا المشهد الذعر فى القرويين من جديد ، وقد تبينوا أن الخطر يلاحقهم . وانطلقوا يجرون على غير هدى ، مندفعين نحو مزارع الأرز التى جفت لطول ما هجرها أصحابها !



من خلال أحراش الغاب ، تراءت ــ أخيرا ــ منازل سمراء وحمراء .. تلك كانت طلائع منازل قرية (نكون) ، وقد بدت ــ بمتانة بنيانها ــ بمثابة ميناء أو مرفأ يلوذون به من الموت الذى كان يلاحقهم من ضفة النهر الأخرى !

واخذوا يركضون الى (نكون) بأقصى ما وسعهم من سرعة ، وقد تهدجت أنفاسهم ، وانصب عرقهم انصبابا .. وكان القادرون يأخذون بأيدى المسنين ، ويجرون وراءهم الاطفال .. ولكنهم ــ بعد أن عبروا نحو اثنتى عشرة مزرعة ــ فوجئوا بجماعة أخرى من الهاربين تبرز من دغل الى يمينهم ..

وخيل اليهم أنهم ينظرون الى صورتهم فى مرآة : كان الآخرون مثلهم ، جمهرة من الناس ، مثقلين بالأدوات والحزم ، يفرون مرتجفين والموت فى أعقابهم .. فمن الجانب الآخر للدغل ، كان ثمة خط من النيران ، تنطلق من ورائه القنـابل كثيفة مركزة !

وصاح شخص ما : « انها عملية تطويق ، فهم على جانبى النهر ! .. كيف السبيل الى النجاة ! »

لقد أدرك الهاربون انهم وقعوا بين نارين ، بعد أن ظنوا انهم قد بلغوا ملجأ أمينا ، فى قرية منعزلة عن المعركة !

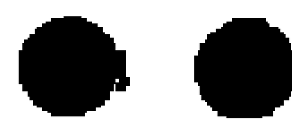
ـ كيف السبيل الى النجاة ؟ !

وجمدوا فى أماكنهم ، لا يدرون الى أين يذهبـون .. واخذت حلقة النيران تضيق من حولهم فى كل لحظة .. وازداد ارتفاع قصف المدافع ، وهى تقترب من ناحية (نكون) !

وانبعثت من الفريق الآخر ـ من الفارين ـ صيحات التحذير :

ـ اتبعونا ، فنحن على دراية بكل الطرق ! .. اننا نيمم شطر (يين دا) ، لنختبىء فى الجبال !

وعادوا الى الجرى ، يحاولون اللحاق بالجماعة الثانية !



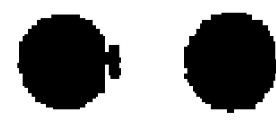
● **اخذت** حـدة الشـمس تخف فوق مزارع الأرز ، وهدأت حرارة الهواء .. ولم يجرؤ احد من الفارين على التوقف ، بالرغم مما أصابهم من ارهاق . بل أن أحدا لم يعد يحفل بأنين الشيوخ . وعويل النسوة والأطفال .. واستمر الجميع فى هرولتهم خلال السهل المقفر ، المترامى .. **وزاد الطين بلة ، أن أخذت السحب المنخفضة تتكاثف . ثم تساقط المطر مصحوبا ببرد قارس ! .. ولكن ، ماذا بهم من المطر والبرد ؟ .. لم يكن القوم يفكرون الا فيما بقى من مسـافة بينهم وبين الملاذ الأمين** .. واذ كان الذين قدموا من (نجين)

يجهلون موقع (بين دا) ، فقد كانوا يسألون العارفين ، فيجيبهم هؤلاء :

ـ لا تزال المسافة بعيدة .. هناك جسر معلق فى الفضاء ، فوق مجرى مائى .. عندما تجتازونه ، تكونون قد وصلتم الى مقاطعة (بين دا) !

وما لبث الجسر الصغير أن لاح ـ خلال ستار المطر وضباب المساء ـ وكأنه يطفو فى الهواء ، وعوارضه الرقيقة : المصنوعة من الغاب ، تتأرجح وسط الرياح بشدة تنذر بالخطر .. والليل يهبط مسرعا ، والسماء محجوبة بسحب سوداء كثيفة ، ينعكس عليها وهج النيران .. فكأنما السماء حلق وحشى خرافى مرعب ، ينبعث منه دخان ولهب !

واذ ازدادت معالم الجسر وضوحا ، ابتسم بعض الهاربين ، وقد أخذت الطمأنينة تخالجهم .. كان قصف القنابل لا يزال مركزا ، وانفجاراتها بعد قريبة ، ولكنهم شعروا بأنهم زايلوا نطاق الخطر .. وراح بعض المسنين يلهجون بالدعوات ، وعيونهم معلقة بالجسر المتاخم للحدود !



● على أن الحيرة عاودت القوم ، عند ما بلغوا الجسر المعلق ! .. لم يكن مجرى الماء واسعا ، ولكنه كان بالغ العمق .. وكان التيار سريعا وقويا ، والمسافة بين أسفل الجسر وسطح الماء لا تجاوز الشبر . ولم يثر بنيان الجسر عجب أحد : كان مكونا من سيقان من الغاب طويلة ـ بعرض المجرى مربوطة من الطرفين ، ومرتكزة فوق مجموعات أخرى من الغاب ، كل وحدة تتألف من ساقين على شكل صليب ، غرست فى المياه لتكون دعامات .. وكان ثمة سياج من الغاب المضغوط أقيم على جانبى الجسر ، ليتكىء عليه العابرون .

وفى غمرة القلق ، انبعثت نصائح الهاربين وتساؤلاتهم :

ـ الآن .. لم يبق الا ان نجتاز الجسر !

ـ نعم ، هذا امر يسير على الشباب .. ولكن ، ما شان الشيوخ والأطفال ؟ .. وكيف تنقل الأمتعة فوق الجسر ؟

وسأل أعيان قرية (نجين) زملاءهم من قرية (نكون) :

ـ أما من طريق آخر لعبور النهر ؟ .. ليس بوسعنا أن نظل هنا جميعا ، فى انتظار أن يعبر القوم النهر واحدا واحدا ، فوق هذا الجسر الضعيف !

وفجاة ، وقع انفجار رهيب وراء القوم ، على مسافة مائة متر تقريبا ، فقطع الحوار ، ونثر الوحل على رؤوس الهاربين . وتوالت الانفجارات ! .. ولعل المدافع كانت تطلق قنابلها جزافا من الشاطىء الآخر ، ولكن الهاربين ظنوا ان العدو يصوب قذائفه عليهم ، فاستبد بهم الذعر ، وعلا صراخهم ، وغاص بعضهم فى الماء يحاولون اجتياز المجرى سباحة ، وتدافع بعض آخر نحو الجسر ، فأخذ يهتز بعنف تحت ثقلهم ..

وبقيت قلة ضئيلة احتفظ أفرادها برباطة جأشهم ، وراحوا يحاولون اقرار قسط من النظام ، ويرفعون أصواتهم وسط الصخب والضجيج : « اعبروا الجسر فرادى ! .. واحدا واحدا ، ولا تثقلوه ، والا غرقتم جميعا ! »

ولعل هذه التحذيرات كانت تذهب دون تأثير ، لو أن دفعة أخرى من القنابل تبعت الأولى ! .. ولكن القنابل انقطعت .. غير أن الجسر كان مبعث خطر لا يقل عن خطر المقذوفات ، اذ أخذ يهتز بشدة تحت الخطوات الملهوفة ، وكأنه وشيك الانهيار .. وما كان انهياره ـ فى المياه السريعة الجريان ـ ليثير دهشة أو عجبا ازاء التزاحم المضطرب !

● وبعد أن عبر الجسر عدد من الأفراد ، تقدمت اليه عجوز حملت على كتفها عصا طويلة من الخشب ، علقت فى طرفيها سلتين . وكان الليل قد لف المكان ، فلم ير الرجل ــ الذى كان خلف العجوز ــ شيئا من محتويات السلتين ، ومن جذب الحبل الذى علقتا به ، وقال للمرأة :

ــ ارمى هذا فى النهر ! .. انك تكونين سعيدة الحظ لو استطعت العبور وحدك ، دون أن تثقلى الجسر بالسلتين !

وتشبثت المرأة بالسلتين فى اصرار ، وقد رابهـا قول الرجل الذى لم تكن تعرفه .. وكأنما أثاره اصرارها ، فهز السلتين بخشونة ، واذا بصراخ طفل ينبعث من احداهما .. فصاح : « ماذا تحملين فيهما ؟ »

ورأى المحيطون بهما طفلا ــ فى حوالى الثالثة أو الرابعة من عمره ــ منكمشا فى احدى السلتين .. بينما استغرق فى النوم ــ فى السلة الثانية ــ وليد صغير !

ــ يا لله !.. كيف تريدين عبور الجسر بهذين الولدين ؟

واجابته السيدة فى جفاء : « سأفعل .. لقد عبرت ــ من قبل ــ جسورا أسوأ حالا ، بأحمال أثقل ! »

وأخذ القوم يرقبون المرأة ــ بانفعال بالغ ــ وهى تتقدم ببطء فوق أعواد الغاب، تحت ستار المطر الدقيق ، الذى تخلله ضوء القمر الشـاحب .. كانت محـاولتها ضربا من المجازفة ! .. وقال بعض الحاضرين لأنفسهم ، وهم يقدرون الاحتمالات ، ان نجاحها فى بلوغ الشاطىء الآخر بسلام ــ اذا

البقية فى صفحة ١٥٠

قصة من الكونغو

خطة محكمة ولكن..!

للكاتب البلچيكى: "ڤير دات"



خطة محكمة ، ولكن ... ؟!

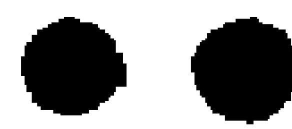
كان قويا ، متين البنية ، بالرغم من أنه لم يكن صغير السن .. ولقد عاش ، وناضل ، واحتمل كثيرا من الحرمان ، فى العمل فى مناجم افريقيا .. وعند ما آن له أن ينعم بثمار جهوده ـ الطيبة منها والشريرة على السواء ـ ظهر شاب يهدد أمنه ومستقبله ، ويسعى لحرمانه ـ فى الوقت ذاته ـ من زوجته الشابة الحسناء . فماذا يفعل ... ؟

هذا ما نكشفه لك القصة التى يقدمها « كتابى » على الصفحات التالية .. قصة تصور أبدع تصوير خفايا النفس البشرية ، كما تصور ـ أوضح تصوير ـ ما كان يفعله الاجانب فى القارة التى كانوا يسمونها : القارة المظلمة !

● لم يكن ثمة غير شعاع واحد من الضوء ، ينبعث من احدى النوافذ ، فى كتلة الظلام التى لفت مكاتب « شركة معادن كيماش المساهمة » .. وكان صرير الحصى ـ المنتشر فى الممر ـ تحت وقع أقدام « آنسون » ، يعكر صفو اللحن الذى كان يصدر عن « الجوقة » الليلية للصراصير البرية !

كانت الساعة تناهز الثامنة مساء .. ولم يثر دهشة آنسون » ما بدا له من نشاط « سامى » أمين المخزن ـ وهو شاب خلاسى يختلط فى عروقه الدماء البيضاء والزنجية اذ يبدو أن شعوره بالقدر الضئيل من الدماء البيضاء ـ التى كانت تجرى فى عروقه ـ غرس فى ذهنه الرغبة فى أن يكون ممتازا ومتميزا عن سائر المستخدمين الملونين ، الذين كانت بلادتهم الواضحة تسود مكاتب « شركة معادن كيماش المساهمة » .

وتذكر ((آنســون)) ـ كمـا يفعـل الكثيرون حين يسترجعون ذكريات شبابهم من قبيل اللهو والتسلية ـ أنه ظل فترة طويلة يعتقد أنه والد ((سامى)) ! ... أما الآن ، فقد كف عن هذا الاعتقــاد ، كلا .. لم يكن هو والده ! .. لقد كانت معرفته بالنساء الوطنيات ، كافية لأن تصرفه عن هذا الوهم !



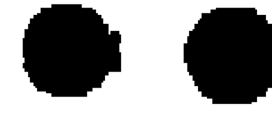
● ودفع ((آنسون)) الباب الزجاجى ـ الذى كان يعكس على الممر ضوءا خافتا ـ فنهض ((سامى)) واقفا .. كان على الدوام يبــدو موزعا بين الولاء المفرط ، وبين صلف الزنوج .. وكان ((آنسون)) يتساءل أحيانا عما اذا كان هذا الصلف ـ الذى لا يكاد يبدو ـ كان يستمد جذوره من ذلك الاعتقاد بأبوته الموهومة .. ثم تمتم لنفســـــه : ((ليكن ! .. اذا كان هذا الاعتقاد يسره ، فليتشبث به ، ولكن .. على أن يحتفظ لنفسه !))

وبانحناءة تدلل أخيرة ، أعاد ((سامى)) اغــلاق البــاب خلفه .. ودلف ((آنســون)) الى مكتبه ، دون أن يوقــد المصباح .. كان ضوء القمر يضفى من النور ما يكفى لانجاز ما كان يعتزم أن يفعل .. وكان التعب قد أضناه ، فجلس متثاقلا فى المقعد الوثير ، بعيدا عن بساط النور الفيروزى الذى كان القمر ينشره تحت النافذة الوحيــدة .. وأغمض عينيه ، غافلا عن سحر الليل الأفريقى .. رحماك يا رب ! لكم هو مرهق ! .. ثلاثون عاما فى أفريقيا ، لا تتخللها الا بضعة شهور ـ التقطها من وقت لآخر ـ لقضاء اجازة سريعة فى أوروبا .. ولا يزال هناك احتمال قضــاء عشرة أعوام أخرى ، فى هذه الاصقاع !

وتضاحك فى مرارة ، وهو يقول لنفسه : « انك لتوهم نفسك يا « آنسون » .. لم يعد ثمة عشرة أعوام .. لم يعد ثمة عام واحد ، ولا حتى ستة أشهر ! .. ((أنهم)) سيطيحون بك قبل ذلك .. سيشمون رائحة السر قبل ذلك ! .. ((أنه)) سيشم رائحة السر ، بأنفه الصغير القذر ، انف الدخيل ، الوصولى .. « ابن الذوات » ! .. **ثم ماذا ؟ .. بتقرير سريع ، بل بغير تقرير .. تكفى بضع كلمات ، وبضع أرقام ، فى خطابه القادم الى ((بابا)) ! .. وبعد ذلك ، ينفسح الطريق أمامه ليحتل مقعدك الوثير !))**

وراح « آنسون » يستعرض حياته الوظيفية ..

سنوات التنقيب عن المعادن .. والتقدم البطىء المنهك داخل الأدغال .. لحظات الأمل العابرة .. الاكتشافات التافهة بعد شهور ، بل بعد سنوات من العمل المضنى بلا جدوى ... والملاريا .. واليأس !



● **كان** « آنسون » قد جاء الى (الكونغو) بعد وفاة امه ، ليلحق بأبيه الذى كان يعمل فى التنقيب عن المعادن فى افريقيا . ثم توفى الأب ، فواصل هو التنقيب لحسابه الخاص ، ولكن سنوات الأزمة الطاحنة هى التى قضت على استقلاله .. وقد شعر بسعادة عظيمة ، حين وجد عملا فى « شركة معادن كيماش » ، التى أنشأها — فى ذلك الوقت — بعض المتفائلين من رجال المال .. وكان هو (آنسون) الذى حقق للشركة ما بلغته من نجاح ، فهل يكون هذا هو جزاؤه ؟ .. كانوا قد عينوه مديرا بطبيعة الحال ، ولم يكن مرتبه ضئيلا ، ولكنه مع ذلك لم يكن يوازى ما يستحق ..

« ان سياسة الشركة تستهدف الاقتصاد ، يا سيد

آنسون » ! .. هكذا اعتاد أن يقول والد هذا الفتى « اورين سميث » .. هذا الأبله الذى ...

لم يكن من المستغرب ـ بعد هذا ـ ان يحاول « آنسون » ان يقتطع لنفسه جزءاً من كل هذا الذهب الذى كان يملأ به أيدى اعضاء مجلس الادارة .. ولم يكن هذا بالأمر العسير ، فقد كانوا جميعا يولونه ثقتهم ، ولا يفتأون يقولون عنه : « السيد آنسون النزيه ! » .. ثم ان هذه البقعة ـ التى كان مقرا لعمله ـ كانت تخلو من كل ما يمكن أن يجتذب مفتشى الحسابات ومن على شاكلتهم من الخبراء !

كان بوسعه ـ منذ الآن ـ أن يستغنى عن تلك المكافأة الضئيلة التى كان يمنحها « اورين سميث » ـ فى شح وتقتير ـ لمن يسمونهم بالمندوبين السامين للشركة .. وقد كان هو الذى يقوم ـ فى نهاية كل اربعة أشهر ـ بالاشراف على نقل شحنة الذهب المستخرج ، الى محطة السكة الحديدية التى تؤدى الى ميناء (سيموس) .. وكان يحرص على أن ينتخب للحراسة أشهر المشاغبين من الجنود الوطنيين .. وكان فى كل شحنة ، ودائما ، صندوق كتبت عليه كلمة « آلات » ، يرسل الى عنوان معين فى (سيموس) ، حيث يودع بصفة أمانة . **ولما كان « آنسون » يتولى بنفسه تحرير الوثائق ، فقد كان يستطيع ـ بغير ما مشقة ـ ان يجعل كل شىء يبدو صحيحا .. فلم يكن يعوزه الا عملية تزييف بسيطة فى احصائيات الانتاج وفى أرقام الحسابات ، ليكون فى مأمن من كل خطر .. بشرط الا يعقب ذلك عملية مراجعة جادة !**

ولكن .. ها هم أولاء يرسلون اليه « أورين سميث ـ الابن » ، ليقوم بالاطلاع على سير العمل فى المشروعات التى كان مقررا أن يتولى ادارتها فيما بعد .. ومما زاد الطين بلة ، أن هذا الابن كان يقوم بعمله بطريقة جادة !

● **انطلقت** من بين شفتى « آنسون » بضع شتائم بصوت خافت .. لقد نجح حتى اليوم فى اقصاء « أورين سميث » عن الجانب الادارى من العمل ، ولكن .. كان لابد لذلك من نهاية .. « وهم » قد ألمحوا له صباح اليوم — فى ادب ؛ ولكن فى حزم — بأن السيد « أورين سميث — الابن » يهتم فعلا بالجانب الفنى للعمل ، ولكن استعداداته وميوله الشخصية تجعله أكثر اتجاها الى الاهتمام بالجانب الادارى .. ومن ثم فانه اعتزم — فور انتهاء العطلة الأسبوعية — القيام بفحص دقيق للحسابات والأعمال الادارية بصفة عامة .

كان « آنسون » يعلم ان هذا لابد ان يحدث فى يوم من الأيام .. ولكنه لم يكن يتوقع أن يحدث ، قبل أن يقرر هو ذلك .. **لم يكن يتوقع أن يحدث ، قبل أن يتمكن من أن يجعل بضعة آلاف من الكيلومترات تفصل بينه وبين العدالة فى المستعمرة .. وبعد ان يتم ذلك ، وبعد أن يجمع أمواله وينقلها ، سيقولها عالية : « الوداع ! » ..**

ولقد كانت قوانين تسليم المجرمين غير معروفة كثيرا فى امريكا اللاتينية ؛ فيما يقال .. فضلا عن أنه بوسع أى امرىء أن يستبدل باسمه اسما جديدا ، ما دام فى يديه مال

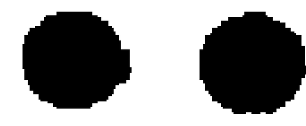
وها هى ذى الخطة الرائعة تبوء بالفشل ..

لقد أخذوه على غرة ، قبل الأوان .. قبل الأوان بكثير .. وحتى لو حاول أن يهرب الآن ، فلن يجد تحت يده من المال ما يكفى لأن يتيح له النجاة بنفسه .. وأخذ يلعن الحيطة الحمقاء التى دفعته الى أن يضع كل أمواله فى الخارج .. وربما كان فى وسعه أن يتصرف ، لو أنه كان بمفرده ، ولكن .. كانت هناك « واندا » !

كان قد تذكر فجأة — اجازته الأخيرة — انه بلغ الخامسة

والاربعين من العمــر ، ففكر فى الزواج ، حين رآها .. حين راى « واندا » ! .. وكانت خبرته بالنساء - ولا سيما الاوربيات منهن - ضئيلة ، فبدت له الفتاة أنسب انثى له .. صحيح ان عمرها كان - عندئذ - يقل عن عمره عشرين عاما ، ولكن لا حرج .. فقــد كان قوى البنية بالنســبة لسنه ، وما كان يمكن لاحــد ان يقدر عمره بأكثر من أربعين عاما .. ولقد غازلها ، ثم تزوجها قبل عودته الى أفريقيا بخمسة عشر يوما .. وسرعان ما توالت الايام والشهور ، فاذا ثلاثة أعوام تنقضى منذ ذلك الحين !

وما كان يدرى - حين تزوج « واندا » - أن كان يحبها حقيقة . ولكنه أصبح لا يتصور الحياة بدونها ! .. وأصابته غصة فى حلقه .. انه لا يستطيع أبدا أن يفقدها ، مهما يكن الثمن ! .. لا ، لا ينبغى أن يفقدها أبدا ! .



● وخالجه شعور جديد ، لم يكن قد اتضح له فى هذه اللحظة .. انها لم يتح لها أن تعاشر طوال هذه السنوات الثلاث الا موظفى « شركة معــادن كيماش » ، وقلما كان يحدث أن تلتقى بهم ، وكان أغلبهم - على أى حال - قرويين لم يكادوا يتعدون مرحلة الطفولة ، أو شيوخا محطمين ! .. لذلك فان وصول هذا الشاب ايقظ فى نفسه - لأول مرة - الشعور بالغيرة .. ولقد حاول « اورين سميث » - منــذ اول وهلة - ان يغازل « واندا » . وكانت هى - فى بادىء الأمر - تصده ، ولكنها لم تلبث بعد ذلك ان تخاذلت ، وان كانت لم ترفع الكلفة بينها وبينه !

ولم ترق لاتسون هذه اللعبة كثيرا ، بل انهــا أثارت حفيظته ضد ذلك الدخيل ..

بعد هذا كله ، وعند النقطة التى وصل اليها ، ما الذى

يدعوه الى ان يتراجع ؟ .. لابد له من أن يمضى فى تنفيذ خطته ، وأن يفعل ذلك بمهارة ، وأن يتجنب ــ وبأى ثمن ــ اثارة شك « سميث » .. ان أمامه الليل بطوله ليعد ضربته ، كما ان أمامه نهار الأحد كذلك ! .. لابد أن يضع كل شيء فى موضعه الصحيح ، حتى لا يرتكب أية حماقة .. فان أقل خطأ قد يودى الى الهلاك !

ومهما يكن ، فان أسوأ ما يمكن أن يحدث ــ بعد أحتراق السجلات .. فى غير تعمد ظاهر ــ هو أن توجه اليه تهمة الاهمال ، وأن يحال الى المعاش قبل الأوان ! .. فهو لن يترك اى دليل يشي به .. اما الشكوك .. يا الهى ، أنها لا يمكن أن تحوم أبدا حوله !



● وما أن اتخذ قراره ، حتى بدأ يفكر فى خطته بطريقة جادة .. لا داعى للعجلة ، فهو لن يفعل شيئا هذا المساء ، ومن ثم فأمامه فترة ما بعد ظهيرة اليوم التال كلها .

لا ، ليس هذا المساء .. عليه أن يتجنب اثارة الشك فى نفس « أورين سميث » ، بقيامه بنشاط غير عادى .

ان مباراة فى « الجولف » مع العدو ــ قبل المعركة ــ لشيء رائع ! .. شيء مريح للأعصاب ! .. ولقد اعاد هذا الى ذهنه أول خطة وضعها لانقاذ موقفه . كانت خطة خطيرة جدا .. فضلا عن أنها تتضمن .. حياة بشرية !

ذلك أن رؤوس الجبال ــ التى تطل على وديان (كاربوبو) الضيقة ــ تعلو الشلال بعشرين مترا ، ومن بينها راس صخرى ، يبدو كأنما أعد خصيصا ليكون مريضا للاستطلاع .. وهناك ، يمكنه التظاهر بالاعياء ، أو التعب المفاجيء ، فيتهالك قائلا : « فى مثل سنى يا سيد سميث ، وبعد ثلاثين عاما فى أفريقيا ، هل لى أن أسألك بضع دقائق

للراحة أمام هذا المنظر الرائع ؟ .. شكرا ، شكرا جزيلا .. هل تسمح لي ؟ »

وتمر لحظة .. وقد يظلان يلهثان قليلا .. ولا يلبث أن يقول : « هل لك في شراب مرطب لا ضرر منه ؟ .. زجاجة كوكاكولا ؟ .. عظيم ! .. يا غلام ، اذهب واحضر لنا من النادي زجاجتين من الكوكاكولا ! »

والآن ، رحل الشاهد الوحيد لبضع دقائق ، فالنادى على مسافة تتجاوز خمسمائة متر ، خلف نتوء في الجبل .. ثم ، دفعة بسيطة .. يا للسماء ! يا للشباب المسكين ! .. لا أمل في النجاة ، فان الهوة سحيقة ، يصل عمقها الى عشرين مترا ، وفي أسفلها الصخور ، والماء — والشاب لا يجيد السباحة .. يا للمسكين ! يا للشاب المسكين .. كم كان لطيفا !

ولكن ، كلا ، يا للشيطان ! .. هذه مجازفة تنطوي على أخطار أكثر مما يجب ! .. ان الخطة محكمة بالتأكيد ، وتخلو من أية ثغرة ، ولكن .. ما الذي يجري بعد ذلك ؟ .. سيأتي « أورين سميث — الأب » مسرعا .. وبعد لحظات من الراحة يقضيها في ابداء الألم الأبوي الشريف اللائق ، لا يلبث أن يقول : « يا سيد آنسون .. ان العمل هو انجح دواء للهم .. هو وحده السبيل الى النسيان ! .. فلننظر كيف سارت أعمالنا هذا العام ؟ .. **انني افضل أن احبس نفسي معك بضعة أيام ، حتى أكون لنفسي فكرة عن نتائج السنة المالية الجارية .. هيا ، هات لي دفاترك لو سمحت ! .. لا تنسي دفاتر السنوات الماضية ، حتى تتسنى لي وسيلة المقارنة ! »**

يا للعجوز الخبيث الرهيب !

وارتعد آنسون .. كلا .. لن يكون القتل مهربا ! ..

يكفي حريق بسيط .. نار نشعلها علامة على الفرح ، كما يفعل فتيان الكشافة .. لا ضير فى هذا ، وسيكون البرد القارس تفسيرا كافيا للمدفأة التى تركها « السيد آنســون الطيب » موقدة ، عنـــدما غادر الشركة .. كان المسكين مرهقا ، فقد قضى ساعات الليل ساهرا فى جمع كل الوثائق التى طلبها السيد « أورين سميث » .. وهذا القط الغبى ، الذى اجتذبه الدفء ، ولا توجد غير اشلائه المحترقة ، هو بلا شك الذى قلب المدفأة فوق البســاط ! .. وستكون التعليقات مترفقة رحيمة : « حقا ان ذلك لمن سوء الحظ ، ولكن لا توجد خسائر فى الأرواح ، هذا هو المهم ! .. ونتعشم الا يوجه الى « آنســون » المسكين أى لوم جارح ، فهــو سيبلغ سن الاحالة الى المعاش قريبا .. وبالمناسبة ، من الذى سيخلفه فى ظنكم ؟ »

● ●

● تنحنح « آنسون » تعبيرا عن الرضى .. ولكن ، كلا بالتأكيد .. ليس هذا المساء ، فهو مرهق جدا .. بيد أن سهرة الغد كفيلة على أية حال ــ بأن تتيح له وقتا كافيــا لتدبير الأمر .. **ثم أن المستخدمين من أبناء البلاد يكونون ــ مساء الأحد ــ منهكين ، اثر احتسائهم الخمر طوال يومين متوالين ، وهذا مما يمنع مغفلا مثل « سامى » من أن يأتى الى مكاتب الشركة ، فينتبه الى الخطر وينذر به قبل الأوان !**

وتطلع الى الساعة المضيئة ، التى كانت تحيط معصمه : لم تكن قد تعدت التاسعة والنصف .. وبدا له الوقت طويلا جدا .. بقيت أربع وعشرين ساعة !

واستوثق ــ قبل انصرافه ــ من أن المدفأة الكهربائية كانت تؤدى عملها بشكل طبيعى .. ان كل شىء سيسير على ما يرام .. كان متأكدا من ذلك !

وفى الخارج ، لذعته برودة الليل ، فأسرع الخطى .. ستندهش « واندا » اذ تراه يعود مبكرا هكذا ، اذ كان قد اخبرها بالا تنتظره ، لانه لن يعود قبل منتصف الليل ..

واقترب من البيت ، فادهشه ان راى الظلام والسكون يسودان كل شيء .. وتسلل عبر الممر المفضى الى المدخل الرئيسى ، فاصطدم بسيارة كان نصفها يختفى بين دغلين ، فلا سبيل الى رؤيتها من الخارج .. كانت سيارة « اورين سميث » .. ماذا فى الأمر بحق الشيطان ؟ !

ومكث فترة طويلة جامدا ، لا يتحرك ، وقد بدا له أن عقله قد تعطل تماما ، فعجز عن التفكير .. حتى اخرجته من غيبوبته حركة خفيفة ، صدرت عن الباب وهو ينفرج قليــلا ، فتراجع متسللا الى جوف مجموعة من شجيرات الزهور .. **وفى ضوء القمــر ، رأى « واندا » و « أورين سميث » يخرجان من المنزل صامتين ، ويتجهان صــوب السيارة ..** وغابا عن ناظره لحظة ، ثم لم يلبث صوتهما أن تناهى اليه فجأة ، فى وضوح تام :

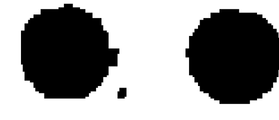
ــ انصرف الآن .. انني خائفة .. لو رجع « وليم » ..!

ــ لا خطر على الاطلاق ، هيا بنا ! .. ألم يخبرك بأنه لن يعود قبل منتصف الليل ؟

ــ لا يا حبيبى ، انصرف ! .. فى مساء الغد ، نستطيع ان نفعل ما يروق لنا ، دون ما خطر .. اذهب ! ارجوك ! . لم يعد علينا أن ننتظر لأكثر من أربع وعشرين ساعة ، ثم يلتئم شملنا الى الأبد ! .. لا ينبغى أن نخــاطر .. سيكون الامر رهيبا ، لو خالجه اى شك !

وهنا ساد صمت طويل .. لابد أنهما كانا يتعانقان .. وقاوم « آنسون » رغبة مفاجئة فى أن يندفع نحوهما .. ومرة أخرى ، سمع صوت زوجته وهى تقول « اذهب الآن

يا حبيبى ! » .. ثم سمع محرك السيارة يدور ، وسرعان ما انطلقت السيارة بعيدا ، حتى لم يعد يبدو منها سوى بصيص من النور الأحمر فى حلكة الظلام ..



● الله وحده يعلم كم من الوقت مكث « آنسون » فى ذلك المكان ، منكمش فى جوف الدغل .

وراح يحدث نفسه ، وهو مذهول :

« واندا حبيبتى ؟ ! .. غير معقول ، لابد اننى أحلم ! .. لابد اننى احلم ، ولن البث أن استيقظ ! .. انت مرهق آنسون .. انها الملاريا ، انه كابوس الحمى .. اننى أكرهك يا « واندا » ! .. أكرهك ؟ ! .. كلا ، لا استطيع .. بل أكرهه هو : هو .. الوغد الصغير القذر .. **ماذا كانت تعنى بقولها بعد أربع وعشرين ساعة ؟ لم يعد أمامنا أن ننتظر اكثر من أربع وعشرين ساعة ؟ .. أتراها سترحل معه ؟ تهجرنى من اجل هذا الولد ؟ هذا الوغد الطائش ؟ أولى بها ان تقتل .. ولكن كلا ، بل هو الذى يقتل ! »**

وارتدت الى ذهن « آنسون » الخطة التى كان قد دبرها .. خطة بسيطة ، هى النموذج الرائع للجريمة الكاملة ؟ .. جريمة بدون دافع ، وبدون فاعل ، وبدون شاهد ! .. دفعة بسيطة ، بحركة ودية تقريبا .. بالابهام لا أكثر ! .. وهمس لنفسه : « وبعد ذلك ، لا أهمية للمخاطر ؟ .. فلأفقد كل شىء ، ولا افقد واندا ! »

وفجأة ارتعدت فرائصه .. كان البرد قد أصابه دون أن يدرى .. وكان النور الذى اضىء فى احدى الحجرات قد اطفىء ، وسيطر النعاس على مظهر المنزل .. وتسلل « آنسون » كاللص خلال باب « الجراج » ، كى يتجنب السير فوق الحصى .. لم يكن يريد أن يرى « واندا » هذا المساء ، فهو لن يستطيع أن يتحملها ! ..

● واستيقظ عند الفجر ، بعد أن قضى ليلته مستلقيا على احد المقاعد ، وكابوس مروع يقلق نومه .. وكانت الساعة السادسة صباحا . وبكل ما استطاع من هدوء ، تسلل الى الحمام .. وجرح نفسه مرتين وهو يحلق ذقنه ، ولكنه كظم حنقه .. « اياك يا آنسون واضطراب الأعصاب ! .. انك ستحتاج الى كل ما لديك من رباطة جاش ! » ..

وافاده حمام فاتر ، واكمل انتعاشه قدح من القهوة .. وكانت معدته خاوية ، ولكنه لم يستطع أن يأكل شيئا ، وانما مزج قهوته بكأس كبيرة من « الروم » ، مما أشاع فيه حيوية ودفءا .. وشعر بأنه أصبح مستعدا للعمل !

وبينما هو يهم بالخروج ، سمع صوت سيارة تتوقف امام المنزل ، فتوقف قلبه عن النبض لحظة ، وشعر بتقلص يعتصر معدته .. يا الهى ! لو أن دخيلا ثقيلا ..

ولكنه أحس بروحه ترتد اليه ، حين سمع صوت « اورين سميث » يناديه .. لقد كانت السماء تساعده بالتأكيد ، فها هو ذا الغبى قد جاء الى الفخ بقدميه !

ـ هاللو يا سيد آنسون ! .. لقد فكرت فى أن مباراة صباحية فى الجولف ..

ـ ان الطقس بديع ، كعهده دائما فى هذا الفصل من العام .. نعم ، بكل سرور .. طبعا ، بكل سرور !

وتظاهر بالحرج وهو يحضر قبعته وصديريته الصوفية ، ويتمتم معتذرا : « سيكون من العسير أن نعثر ـ فى هذه الساعة ـ على صبى لجمع الكرات .. سأستدعى ابن خادمى .. ولنضع مضاربنا فى حقيبة واحدة ! »

ووافق « أورين سميث » ، وهو شارد الفكر ..

كان كل شيء يبدو على ما يرام .. وكانت حلقات اللعب خالية من الرواد .. ولم تستطع الدقائق الأولى من التمرين

أن تكسب « آنسون » لياقته البدنية ، فكان يخطىء المرة بعد الأخرى ، حتى اضطر أن يتخلى عن الحفرات الثلاث الأولى فى الملعب لمنافسه الشاب ، وهو يعتذر قائلا : « أشعر بأننى لست فى كامل لياقتى هذا الصباح .. »

وكانا يتجهان معا ناحية الحفرة الرابعة ، عند قمة الجبل التى فوق الشلال .. فأجاب أورين سميث : « وأنا نفسى لست على ما يرام .. لسوف ندفأ وننشط أثناء اللعب ! » .. وقذف الكرة فانطلقت فى مسارها الصحيح وسقطت على بعد بضعة أمتار من قمة الجبل ، التى كانت تشد انتباه « آنسون » ..

ولم يلبث « آنسون » — حين قذف بالكرة بدوره — أن فشل فى تسديد ضربته ، فلم تبتعد الكرة سوى بضعة أمتار .. أما ضربته الثانية ، فقد أجاد تصويبها بحساب دقيق ، ومن ثم استقرت كرته بالقرب من كرة خصمه .. واتجها معا ناحية حافة القمة المطلة على البحر ، وقد أصبح الأمر الآن سهلا للغاية .. لعبة أطفال ! وحين وصلا الى كرتيهما ، استجمع « آنسون » كل طاقته ، فقد حانت اللحظة الحاسمة .. وسبقه « أورين سميث » قائلا :

— ما رأيك فى أن نتناول هنا شرابا مرطبا ، قبل استئناف اللعب ؟ .. هذا من شأنه أن يريح أعصابنا ، وربما تحسن مستوى لعبنا بعد ذلك !

— كنت على وشك أن أقترح عليك هذا .. ماذا تحب أن تشرب ؟ كوكاكولا ؟ .. يا غلام ، اذهب واحضر لنا من النادى زجاجتين من الكوكاكولا !

واختفى الولد بين الأشجار ..

— آه يا سيد سميث ، ما أروع هذه المناظر .. انها تنسيك وطأة ثلاثين عاما فى أفريقيا .. فى التراب ، فى الوحل

والملاريا .. أنظر الى الطبيعة ، وهذه الصخور ، وبخار المياه الناصع البياض ، الذى يتصاعد فيختلط بالسحب ، وسط زرقة السماء !

كانت اللحظة الحاسمة قد أوشكت .. فهاهما قد اصبحا وحيدين ، فوق صخرة معلقة بين السماء والأرض .. وشعر « آنسون » بأنه ثمل من فرط القوة .. ان حياة انسان بين يديه الآن ..

« اله .. انا اله ! »

ثم .. الفضاء .. الماء .. الصخور .. وقد تقدم للقائها فى حركة رعب ، ويداه مبسوطتان فى حركة دفاع عديمة الجدوى !

.. ..

● وكانت « واندا » تنتظر فى لهفة وقلق ..

ولم تنبس بكلمة واحدة ، حين رأته يعود وحده !

ــ انتهى الأمر يا حبيبتى .. كأنما كان يسعى الى تيسير مهمتى ، فقد تقدم من تلقاء نفسه الى الحافة .. وكان يحدثنى عن الطبيعة ، والسماء الزرقاء ، و .. بدفعة خفيفة ، انتهى كل شىء !

وكان « أورين سميث » يبدو منتشيا ، حالما ، وهو يتكلم ..

ــ كان الأمر غاية فى السهولة .. ترى هل ... ؟

ولم تدعه يتم سؤاله ، اذ أدركت ما طاف بخاطره ..

ــ هيا يا حبيبى ! .. كيف كان له أن يشك فى الأمر ؟

وهز « أورين سميث » كتفيه ، وقال وهو شارد البال :

ــ كان رجلا ساذجا كل السذاجة .. بيد أنه كان متين البنية !

....



ترجمة : محمود بدر الدين خليل

● كان لاصطفاق الباب فعل رنين الســاعة المنبهة على عقله ، فأيقظه من جموده وسكونه . فمن أغرب الأمور ، أن المرء يستطيع التعرف على صوت اصطفاق بابه كتعرفه على صوت انطلاق محرك سيارته !

ولم يكن بحاجة الى أن يلتفت ، اذ أدرك أن « رودا » هى التى صفقت الباب . ولو أنه توقف وأصغى ، لالتقطت أذناه دقات كعبى حذاءيها ، وهى تسرع الى الناصية ، حيث كانت فى انتظارها سيارة أجرة .. **كان موقنا من أن السيارة هناك فعلا ، وذلك الشاب « ويد » يفتح بابها وهو يرتجف لفرط التوجس والانفعال ..**

لا بد أن « ويد » ســيبادرها قائلا : « ما كان أقسى الانتظار يا حبيبتى !.. لقد خشيت الا تأتى . هل صادفت مشقة فى الحضور الليلة ؟.. هل تظنين أن الشك راوده ؟ »

ولا بد أن ضحكة « رودا » الخافتة ، المخملية ، ستنبعث وهى تقول : « يا له من شخص وديع !.. ما من مشــقة البتــة ، فهو فى طريقــه الى النــادى البغيض كعادته .. ونحن منطلقان فى الاتجاه المضـــاد ، نحو الأضواء المتألقــة والموسيقى ..! »



● وقال فى نفســه : « هــذه نتيجة الغبــاء الأحمق ، يا ستيفن هارتلاند .. هذا ما يتأتى عن زواج شيخ مخرف بفتاة كالنحلة تحوم سعيا وراء الرحيق الشهى !.. فى طريقه الى النادى ؟ !.. كأنها كانت تقول : فى طريقه الى القبر ! »

ولكن ، هل كان هذا مقصده الليلة حقا ؟.. لقد كان ثمة أمر علق بذاكرة « هارتلاند » فى تلك الأمسية ، وان لم تتضح له معالمه .. كل ما كان يتذكره هو أن عليه أن يذهب لمقابلة « مانيستى » بصدد ذلك الأمر . وأخذ يفكر :

« انني لا اصيب حظا كافيا من النوم ، وان كان يبدو أن مخي يخلد للنعاس من وقت لآخر ، فلست ادرك ما افعل .. يا لها من صدمة ، أن اتبين ان جسمي يسير دون ارشاد من مخي ! انني أفطن الى نفسي — احيانا — فاذا بي في منتصف سلم أرقى درجاته .. ووجدتني — في مرة أو اثنتين — استخدم التليفون ، دون أدنى فكرة عما أقول .. انها أمور تحدث ، ولكنها لا تستغرق أكثر من ثوان .. ولا يبقى منها شيء في ذاكرتي اطلاقا .. فكأنها حالة اظلام تام ! »

وكان بوسعه أن يتمثل صورة « مانيستي » ، برأسه المائل قليلا الى احد جانبيه — كأنه عصفور يفكر في أمر لا يفهمه — وصوت جهوري بدرجة تدعو للدهشة ، اذا قيس بحجم الجسم الذي يصدر عنه .. لا ريب في أن مانيستي سيقول : « انك ترهق نفسك بالعمل فوق ما ينبغي .. متى حظيت بآخر عطلة للاستجمام ؟.. أمم ، هذا ما خطر لي . سأعطيك دواء يكفل لك نوما أحسن .. انه أقراص .. ودواء مقويا ، لا ضرر منه . ولكن ما بك من الحالات التي تستطيع علاجها بنفسك .. راحة من العمل ، واستجمام واسترخاء كاملين ، واقصاء لكل الهموم عن العقل .. »

وهذه مسألة سهلة كل السهولة يا « ستيفن هارتلاند » ! .. ليس عليك سوى أن تنسى ، فحسب !



● **ولكن** هناك أمورا لا سبيل الى تناسيها .. أمور تثقل عقلك ، بل هي في جوف عقلك .. بل هي في قاعه ، تزحف منه الى أحلامك . لقد جاءت « رودا » مرة ، وقالت ان الأمر كله خطأ جسيم ، فهي لا تحب « توم ويد » .. كان هذا في المنام !.. ولقد جاء « توم ويد » يوما الى البيت ،

خلال ضباب كثيف ، واذا بحافلة تنحرف عن الطريق ، وتضغطه الى باب البيت بشدة الصقته به ، وقد انبسطت ذراعاه الى جانبيه ، فكأنه « خيال المآتة » الذى يقيمونه فى الحقول لارهاب الطيور .. أو كأنه كان يحاول أن يمسك بالحياة اذ فارقت جسده .. **وكان هذا حلما آخر !**

ونبضت الذاكرة خلال أفكار « هارتلاند » ، لتبلغه رسالة !

أجل ، هو ذلك حقا !.. الجسر !.. كان ذاهبا ليقابل رجلين عند الجسر . هذا هو الاتفاق الذى ارتبطوا به ليلة أمس . هكذا بدا لهم الأمر ليلة أمس ، ولكنه لم يعد الآن موقنا من صواب اللقاء .. ومن المحتمل أنهما شعرا بمثل تردده هذا . لكم يكون من الطريف أن يظل الجسر فى انتظارهم ، دون أن يظهر عنده واحد منهم !

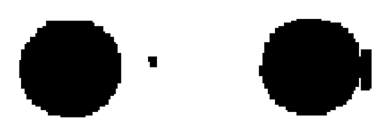
ولكنك وعدت يا ((ستيفن هارتلاند)) !.. وعدت ، ووعد الحر دين عليه !

ولكن هذا الوعد صدر فى ليلة أمس ، التى كانت حافله بالمشاعر الجياشة .. وكانت الظروف غير عادية .. ثلاثة أفراد كانوا يعتزمون الانتحار ، فأنقذ كل منهم الآخر من الموت !

لعله يشكر لهذا الانقاذ حدوثه يوما ما .. بل ان الرغبة فى القضاء على نفسه قد زالت فعلا . وقد أصبح الآن قادرا على تدبير الأمور وتحليلها .. **لقد حومت ((رودا)) بعيدا عنه ، ولعل فى وسعه أن يستبقيها فى اساره بعض الوقت . ولكن لا خير فى ذلك ، فهى قد أصبحت غريبة فى بيته ، وأحكم ما يفعله هو أن يفتح لها الباب ، ويدعها تنطلق .. ان يسمع طرقات كعبيها على درجات السلم لآخر مرة !**

أما الحل الآخر فكان أكثر صعوبة .. كان عليه أن

يحبس نفسه فى حجرة ، وينصرف ــ فى هدوء ــ الى ملء صفحة من الورق بالأرقام ، ليتأكد من مقدار ما بقى له من مال .. كان عليه ان ينفق دون مبالاة لفترة من الوقت ، كمحاولة اخيرة لاستبقاء « رودا » . لكم أنذر نفسه ــ مرة بعد الأخرى ــ وفى بطنه شعور قارس البرودة يلسع أحشاءه بانه قد أوشك على الافلاس ، وان من الخير أن يقبض يده !



● وكان من الغريب أن يستعرض كل هذه الأفكار بهدوء ، دون ما انفعال ، فى حين أن كل هموم الجحيم كانت تطارده فى الليلة الماضية .. لقد ذهب الى الجسر ــ اذ ذاك ــ وهو مقتنع تماما بأنه لم يعد ثمة حل للموقف سوى أن يضع لحياته نهاية ..

وكان ثمة شرطى فى أحد الأركان ، فأوشك « ستيفن هارتلاند » أن ينكص على عقبيه مدبرا .. وفكر فى نفسه : « لو أن مسلكى أثار ريب الشرطى ، فانه سيراقبنى ، ولن تسنح لى الفرصة » .. **ولكنه ــ وقد بلغ النهر ــ كان كارها لارجاء المسألة . فان للبدن ارادته الخاصة ، التى لا تستند الى منطق ، وقد يشرع ــ فى اية لحظة ــ فى تأكيد حقه فى الحياة .. وهو ــ صاحب البدن ــ قد أصبح يكره الحياة !**

وتحرك « ستيفن هارتلاند » ــ فوق الجسر ــ فى تؤدة .. قد يحسن أن يدخن للمرة الأخيرة ؛ وفى وسع المرء أن يدخن غليونه ، وهو متكىء بذراعيه على السياج الحجرى للجسر ، دون اثارة أية شبهات . فأفكار الناس تنطلق عادة على خطوط العرف والعادة ، والمدخن مفكر ، والمفكر لا يلقى بنفسه فى النهر !.. كان عليه أن يفعل شيئا ما ــ على أية حال ــ لأنه لم يكن وحيدا فوق الجسر ، فعلى بضع ياردات منه ، كان ثمة بصيص سيجارة .. وفى الجانب المقابل ــ من

الجسر ـ كان ثمة شيء مقيم ، له وجود مادى لا يبرر الظن بأنه ظل أو شبح !

وتطلع ببصر نافذ ، الى حيث كان بصيص السيجارة باقيا .. يا للعنة ! لا بد أن ذلك الشخص أشعل سيجارة جديدة !.. ماذا وراء وجوده هناك ؟ أهو فى انتظار فتاة ؟.. وأخذ ((ستيفن هارتلاند)) يزداد شعورا ببرودة الطقس ، فقد كان الجسر مكانا مكشوفا .

وغمغم لنفسه : « لا داعى لأن أسلم نفسى للبرودة قبل الأوان ! » .. وتحرك قليلا ـ فوق الجسر ـ ليستحث دورة الدم فى جسمه من ناحية ؛ وليرضى فضوله من ناحية أخرى . وتوهج التبغ فى غليونه ، فذكا بصيص السيجارة ردا عليه . واضطره دافع خفى الى أن يتوقف . وانفثأ نفاد الصبر فى كلمات انطلقت ، قبل أن يحاول أن يمسك لسانه ويلزم الحذر :

ـ هل تعتزم البقاء هنا طيلة الليل ؟

ـ ... تعتزم البقاء هنا طيلة الليل ؟

ورانت لحظة صمت مشدوه . عقلان امليا على لسانين تساؤلا واحدا ، فى وقت واحد !.. وكان « ستيفن هارتلاند » الأسبق الى نفض الصمت المشدوه عن ذهنه . ولعل ضحكته كانت متوترة ، ولكن كلماته انسابت بيسر :

ـ أترانا هنا لغرض واحد يا صاحبى ؟

وانساب من الآخر صوت واضح ، فى تثاقل توحيه المرارة المدمرة عادة :

ـ يبدو أن الأمر كذلك ...

قال ستيفن هارتلاند : « موعد مع الجسر !.. لكم قرأت بأن الأمر ليس بالقسوة التى تتصورها ، بعد التعرض لصدمة البرودة الأولى ، عندما تمس الماء » .

ـ أمن المعقول ان يكون اقسى من ان يفتح المرء عينيه على يوم جديد .. مئات الأيام ؟

ـ انك مثلي يا صاحبي ، لا تصدر عن وحي اللحظة ، بل انك فكرت في الأمر .. فلست تندفع متهورا .

ـ لقد ذروت رماد دنياي في الهواء ...

ـ لندخن معا .. نفثات أخيرة ، في جو من الزمالة ، قبل أن نمضي !

وانبعث الصوت في شيء من السرعة : « فكرة طيبة .. اعتقد أن هذا يخفف عنا الأمر .. يخفف عنا الشعور بأن الوحشة تمد قبضتها لتحتويك ! »

● ●

● **وواصلا** الحديث في الموضوع ، وهما يقفان خارج اطاري حياتيهما لأول مرة في سياق هاتين الحياتين .. فشاهدا نفسيهما وكأنهما ممثلان على خشبة مسرح !

وقال « ستيفن هارتلاند » لنفسه : « **ولكني لم أعد مرورا بنفس الدرجة التي كنت عليها ليلة أمس .. لعل مرد ذلك الى أنني قد شخت ، ولم أعد شابا له في الحياة ما يدفعه للتشبث بها ...** »

لقد قال الرجل ، بعد أن تبادلا قصتيهما : « هذا هو الموقف .. عودة بعد الحرب ، وتخلص من الزي العسكري ، ولكن .. ماذا ؟ .. بيت تلاشى ، وعمل زال . انني واحد من أصحاب المهن الحرة المنبوذين !.. ثم المرض .. ونفاد النقود ! .. ومن يحفل بالمرء ؟ .. انه يصبح هدف الاهانات الرخيصة من السياسيين الذين استقروا في مناصب مأمونة . لقد ضقت بكل شيء . **بوسعهم أن ينتشلوا جثتي من النهر ، ويهدهد المجتمع ضميره بأن يعلن أن توازن عقلي قد اختل !** »

قال ستيفن هارتلاند ، بواعز خفي : « انك شاب ، وبوسعك أن تبدأ من جديد » .

ـ وأنت لديك من الخبرة ما يساعدك على بداية جديدة !

وتحول الحوار الى قذائف يرمى بها كل منهما الآخر ليثنيه عن عزمه . واخيرا ، رأى « ستيفن هارتلاند » الا سبيل لترجيح رأيه على رأى الآخر ، الا بأن يضحى برغبته ، فقال :

ـ اسمع .. هناك غد دائما . فهل تحذو حذوى ، اذا أنا ابديت استعدادا لأن افسح للصباح التالى فرصة ، يثبت فيها ان كان من ورائه خير أو شر ؟

ثم ابتسم فى الظلام ، وأردف : « .. وعلى أية حال ، فان الجسر لن يغيب عن مكانه ! »

ـ الصباح ؟!.. أتراني لم أعان قسوة الشعور بالحرمان عندما أجد صندوق البريد خاويا ، يوما بعد يوم ؟

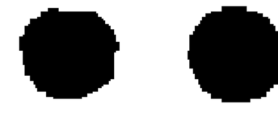
ـ تحملها مرة أخرى .. وسأفعل مثلك ؟

وتغيرت لهجة الصوت ، وهو يقول : « وهل نلتقى مساء الغد ؟ .. هنا ، حوالى هذا الوقت ؟ »

قال ستيفن هارتلاند : ((**اتفقنا !**))

وتحرك فى الظلام شىء ما .. وداخل « ستيفن هارتلاند » شعور غامض بأن شخصا ما عبر الجسر من الجانب الآخر ، ولكنه لم يحاول تبينه ، لفرط استغراقه فى الحديث ..

وانبعث ـ بالقرب منهما ـ صوت مبحوح ، لاهث : « بالله عليكما ، ألن تنصرفا من هنا ؟ .. اننى أريد أن أخلو الى نفسى فوق الجسر للحظات قلائل ! »



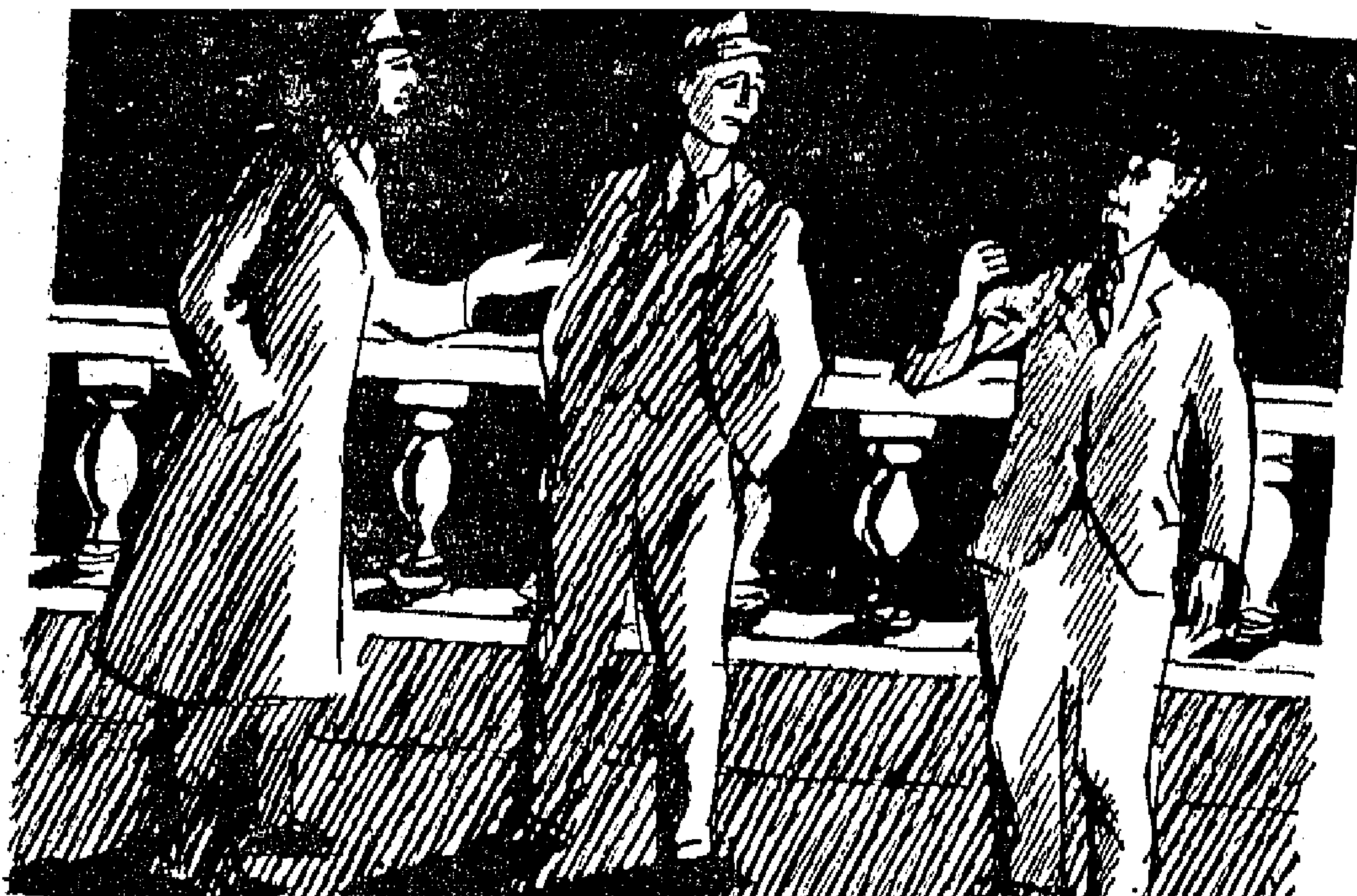
● **هكذا** كان الجسر فى الليلة الماضية ..

انك على موعد هناك الليلة يا « ستيفن هارتلاند » !.. موعد مع الرجلين .. ستلتقون ثلاثتكم فوق الجسر !

كان هذا اللقاء يبدو معقولا ، اذ ذاك ، أما الآن ، فالأمر يبدو مختلفا . يبدو خياليا بعض الشىء ، أحمق نوعا ما !..

وشعر « ستيفن هارتلاند » بارتياب فى أن يحضر الرجلان . او .. قد يأتى الرجل الضئيل الجسم ، ذو الصوت المبحوح .. انه قادم بلا مراء ، بجسمه واسمه .. كان اسمه « البيرت كزينز » . يا للمسكين ! لن يكون للتأخر يوما واحدا اثر عليه ، فإن النهاية محتومة ، لا مناص منها ، فقد قال :

ـ انهم لا يستطيعون اجراء جراحة لى .. احسبهم بذلوا كل ما فى طوقهم . انها من تلك الحالات التى لا حيلة فيها . قد أكون مخطئا فيما اعتزمت ، ولكنى اؤثر أن اسير لنهايتى على قدمى ، بدلا من أن اضمر واذبل واصبح جلدا وعظاما ، فى انتظارها .. لقد شهدت وفاة مريض بالسرطان . اننى اعرف أن لدى فرصة لأن اعيش بضعة أشهر ، ولكنى افضل أن اختم حياتى بسرعة ، وانا بعد على شىء من المقدرة ...



يا للمسكين !.. أجل ، لابد أن « ألبرت كزينز » قادم . لقد تقبل الاقتراح ، من قبيل العطف فحسب : « الأمر سيان بالنسبة لي ، ولكن الارجاء للغد قد يساعدكما ، وسوف .. أجل ، سأقابلكما مساء غد ! »

لعله حدس انه سيجد الجسر خاليا .. وعنـــدما تكون موقنا من أن الفجر الجديد لن يأتى لك بجديد ، فهذا لا يعنى أنه سيطلع على غيرك خالى الوفاض !

هل من العطف والرحمة أن يصـــافح الرجل الضئيل الجسم ، قبل أن يهوى فى الفضاء ؟ .. ربمـا ! ولكن المرء ــ ولا ريب ــ يشعر بشىء من الحماقة اذ يقول : « لا يبدو الأمر عاجل الضرورة ، كما كان يبدو بالأمس . أشعر بأن تغيرا طرأ على الموقف ، ولكن التوتر خف .. لعل بوسعى أن أمضى فى التجربة ، أنا الآخر ! »

وعرج فى نهاية الشارع ، فلاح له النادى ، وفى مدخـله أضواء ترحب بالوافدين . سيكون جو النادى مريحا ، فماذا يمنع من الدخول ؟

ولكن « البرت كزينز » ينتظر هناك !

ليس من الشهامة تركه يذهب الى الجسر وحيدا . ومن الأفضل توديعه بكلمة رقيقة . ولكن ذلك الشـاب المغرور النفس قد يكون هناك !.. **عجبا ، لقد أصبحت مشكلتنا سواه هما اللتان تشغلان باله ... !**

ترى هل يكون ذلك الشرطى اللطيف هنــاك ؟.. لكم سيكون تبادل التحيات ــ من جديد ــ أمرا غريبــا .. انهــا دراسة فى المتناقضات !.. ان الحيـــاة ــ حتى فى وضعهــا الراهن ــ تلد مواقف طريفة حقا !



● وكان الجسر فى مكانه ، ولكن ما من شرطى هناك ..

ولمة مركبات قليلة تجتاز الجسر ، فقد كان الوقت مبكرا ـ بعض الشيء ـ عن موعـد الأمس .. وهنـــاك النهر ، بمائه البارد ، أشبه بزيت أسود تتخلله ديدان ملتوية من الضوء .. انها انعكاسات المصابيح !

وها هنا مكان اللقــاء .. بعد أقواس دعامات الجسر بقليل ..

ـ أهلا ! اذن فقد جئت ؟! .. يا للعجب ، كنت أظنك لن تأتي !

ـ أصارحك بأنني أوشكت الا اجيء ، ولكني شـــعرت بخزي لا أدرى ماتاه .. انه خوف وليد المدنية .. الخوف من الظهـور بمظهـر الأحمق السخيف .. ومن ثم كنت ادخل النادى أثناء مجيئي .. اصدقك القول ، انني لم اتوقع ان القاك .. انما كنت افكر في ذلك البائس ((البرت كرينز)) !

ـ كذلك كان الأمر معي . كنت اتســلى بتأمل النهر في انتظار أن يأتي . هل تلمح أضواء زورق الشرطة ، في منتصف النهر ؟ . أن الزورق يتحرك ببطء شديد ، ولن يدهشني أن تكون ثمة عملية انتشال . ما أغرب الشعور الذي يخامرك اذ تفـكر في أنه كان من المحتمــــل ان تكون جثتــك هي التي ينتشلون ..!

ـ فكرة لا تبعث على السرور . الا قل لي .. كيف كان حظك اليوم ؟

ـ لقد مر اليوم ، كغيره من الايام . الامانة تحملني على أن اقول انني كنت في شبه غيبوبة .. وجــوم كئيب خامل .. ما أراني الآن مسـتعدا للقفز الى المـــاء ، فالأمر لا يستحق المجهود الذي يتطلبه .. واذا كانت الظروف لا تبـــدو قد تغيرت ، فاني أنا تغيرت .. لقد جرفني تيـــار اللامبـــالاة بعيــــدا ...

ـ تكاد حالي تشبه حالك . لو انك سـألتني عما كنت أفعل في يومي ، لوجدت عناء في أن أوافيك بصورة واضحة . ألم أخبرك بأن مخي يركن الى النعاس أحيانا . هكذا كانت حاله اليوم . **على أن التوتر تلاشى ، حتى وأنا أعلم أن زوجتي خرجت الليلة مع عشيقها ، فالأمر لم يعد .. أجل ، لم يعد يثير اهتمامي .. عجبا ، ها هو صديقنا ((ألبرت كزينز)) !**

ـ مساء الخير ! .. اذن فقد اجتمعنا مرة أخرى ؟ .. كأسرة سعيدة !

ـ ربما كأسرة ، ولكني لا أجزم بأنها « سعيدة » ، فالبرد هنا قارس ، ولو انني في النادي لكنت أسعد حالا ، فيما أرى .. ولكن ، حدثنا أولا عن نفسك .. ماذا فعلت بعد انصرافك ليلة الأمس ؟

ـ ماذا فعلت ؟ .. ياله من سؤال ! .. فعلت ما فعلتماه . تريثت برهة ، ثم عدت الى هنا لأقفز في النهر !

واقبلت على الجسر سيارة ، مزقت أضواؤها الأمامية الظلام ، فاذا الجسر جامد ، عار ، خال ..

اذن فقد كان الذى واتاهما في الموعد ، هو شبح « كزينز » ، وليس « كزينز » نفسه ..

وتبخرت من راسيهما كل رغبة في الموت ، ولم تبق سوى الرغبة في الفرار .. من الشبح !

قصة من إيطاليا

شرخ فى عقل "دون لولو" !

للكاتب الإيطالى الخالد
لويجى بيراندللو



ترجمة : م . ب

أسلوب واقعي وفلسفة غريبة !

يعتبر « لويجي بيرانديللو » من احسن القصصين المعاصرين ، لا فى ايطاليا وحدها ، بل فى العـــالم بأسره .. وقد فاز بجائزة « نوبل » للأدب . وقد اتسمت قصصه القصيرة ــ التى كتب معظمها فى الفترة بين سنتى ١٨٩٤ واندلاع الحرب العالمية الاولى ــ بغرابة فلسفتها ، مع واقعية احداثها ، ولعل القصة التى نقدمها لك على الصفحات التالية ، تشهد بذلك .

على ان « بيرانديللو » ــ الذى ولد فى (صقلية) سنة ١٨٦٧ ومات سنة ١٩٣٦ ــ يدين بالقدر الاكبر من شهرته ، الى مسرحياته ، ومن ثم فهو لم يعرف ككاتب قصة قصيرة ، بقدر ما عرف ككاتب مسرحى .. ولعل اشهر مسرحياته المعروفة للقارىء العربى ، هى : « ست شخصيات تبحث عن مؤلف » .. واتسمت مسرحياته بعين ما اتسمت به قصصه : الواقعية ، مع غرابة الفلسفة ، حتى ليسائل المشاهد ــ او القارىء ــ نفسه : « ماذا يقصد المؤلف ؟ » .. ويحمله هذا على التفكير ، وعلى ان يستخلص لنفسه الغاية المقصودة من العمل الادبى .

● كان محصول الزيتون وفيرا ، فى ذلك العــام ، حتى انه أثقل الأشجار .. وساعد على اكتمال جودته ما شاع فى الجو من ضباب ، طيلة الفصل ، مما جعل « لولو زيراففا » يعلق آمالا جســاما على مزرعته فى (بريموسول) فلم يكتف بالأوانى والقــدور الفخــارية القديمة ــ التى كان يودعها

يخزن الخمور — لاستيعاب كل الزيت الذى توقع ان يدره عليه محصوله ، واوصى بصنع جرة اخرى كبيرة ، فى (سانت ستيفانو دى كامسترا) ، حيث اعتاد ان يوصى بقدوره وجراره المصقولة .

وكانت الجرة الجديدة هائلة ، تبلغ قامة الانسان طولا ، ولها بطن كبيرة الانتفاخ ، مما يبوئها مكانة الام بين الجرار الخمس التى كان يمتلكها .

وقد يكون من الضرورى ان اذكر انه — الى جانب الخلاف الذى نشب بين « دون لولو » وصانع القدور — كان من العسير ان تجد شخصا سلم يوما من الشجار مع « دون لولو » لاتفه الاسباب .. اذ كان يكفى ان يسقط حجر عفوا ن حائط مجاور ، او ان يطير شىء من القش نحو مزرعته ، ليصيح بخدمه آمرا ان يسرعوا فيسرجوا بغلته ، ليطير الى المدينة ، فيرفع الامر الى السلطان !.. حتى لقد اوشك على الافلاس لفرط ما كان ينفق على المحامين والقضايا .. ودائما ما كان ينتهى الامر بان يخسر الدعوى ، ويدفع نفقات الاجراءات القضائية عن الجانبين !

ويقول الناس ان محامى « دون لولو » قد سئم رؤيته مرتين او ثلاثا فى كل اسبوع .. كما يقال ان « دون لولو » حاول ان يختصر سجل قضاياه ، فجمعها فى دفتر فى حجم « كتاب الصلوات » ، ضمنه ملخصا لكل قضية ، وموجزا لكل مشكلة مرت به ، ليسترشد بذلك فى الحكم على مدى صواب او خطأ موقفه من اى نزاع ، قبل ان يسارع الى رفع الامر للقضاء !

وقد اعتاد القوم — اذا ما اختلفوا معه فى امر — ان يستثيروه ، فيصيحوا مقلدين اياه : « اسرجوا البغلة ! » .. ولكنهم — بعد ان اعد هذا الدفتر — اصبحوا يقولون له :

« اذهب واستشر دفتر احـــوالك ! » .. فكان يرد عليهم متوعدا : « سأفعل ، وسأخرب بيوتكم ! »



● ووصلت الجرة الفخارية الجديدة ، التى دفع فيها « دون لولو » أربعة « فلورينات » ، فوضعها الى جوار مخزن العنب . ريثما يعد لها مكانا مناسبا . .

وكانت جرة لم تر البـلدة أبدع منها ، ولذلك ضاقت صدور الكثيرين لرؤيتها فى ذلك المكان . الذى كانت رائحة عصير العنب والرطوبة العطنة تثقل جوه .

وكان على « دون لولو » ــ وقد بدأ جمــع العنب قبل يومين ــ أن يبقى الى جوار عمال الحصاد يراقبهم ، ويراقب ــ كذلك ــ الرجال الذين اخـذوا يجيئون بالبغــال محملة بالسماد ، ليكدسوه الى جوار التلّ ، حيث كان يمتلك حقلا اعتزم أن يزرع به « فاصوليا » للموسم القادم . وكان يشعر بأن هذا العمل اكبر من أن يقــوم به رجل واحد ، اذ كان مضطرا الى أن يروح ويجيء ليراقب الفـــريقين .. وكثيرا ما نازعته نفسه الى أن يقتل شخصا او اثنين ، لمجرد أن حبة من العنب وقعت اثناء النقل .. وكان يحاسب الحاصدين وكأنما أحصى حبات العنب قبل جمعها !.. ومن حين الى آخر ، كان ينصرف عن جامعى العنب الى أصحاب البغول ، مهددا اياهم بالويل والثبور ، اذا ما اكتشف أن أحدهم حمل مقدارا أقل مما ينبغى !

وكان يقى رأســه بطاقية بيضاء ، وقد شمر كميه عن ساعديه ، وفتح صدر قميصه ، وراح يجرى هنا وهناك ، وحبات العرق تجلل وجهه الأحمر .. وقد أومضت عيناه بشراسة ، وأخذت يده تحك ــ بحركة غاضبة ــ ذقنه التى

نبت شعرها .. وما كان أسرع الشعر الى النمو غزيرا بمجرد ان يرفع الموسى عن فوديه !



● وكانت قد انقضت ثلاثة أيام كاملة من العمل ، عندما ذهب ثلاثة من عمال المزرعة ــ ذوى الوجوه القذرة ــ الى مخزن العنب ، ليودعوه احمالهم من المحصول .. ولكنهم لم يكادوا يدخلونه ، حتى سمروا فى أماكنهم مشدوهين ، اذ رأوا الجرة الجديدة مكسورة الى نصفين ، وكأنما شقتها موسى حادة الى شطرين !

ــ اواه ! يا الهى !.. انظرا !

ــ يا للسماء !.. كيف حدث هذا ؟

ــ ما الذى سيفعله « دون لولو » عند سماعه بالأمر ؟

واقترح اول الثلاثة ــ وكان اكثر من زميليه خوفا ــ ان يغلقوا باب المخزن ، ويبادروا بالانصراف فى هدوء ، تاركين احمالهم الى جوار الجدار ، فى الخارج . بيد أن الثانى عارضه ساخطا :

ــ يا لغبائك !.. ان يغتر « دون لولو » بهذا ، وقد يتهمنا بأننا الذين كسرنا الجرة .. كلا ، لنبق جميعا هنا !

وتقدم الى الباب ، فصفق بيديه مناديا : « دون لولو !.. دن لولوو ..! »

واقبل الرجل ، فما ان راى القدر مكسورة ، حتى صب جام سخطه على المزارعين الثلاثة ، وامسك برقبة احدهم ، فدفعه الى الجدار ، وصاح :

ــ ستدفع ثمن فعلتك ، وحق العذراء !

وانقض زميلا العامل على « دون لولو » بحركة ضارية ، وابعداه عن صاحبهما .. واذ ذاك تحولت ثورة « دون لولو » لتنصب على نفسه ، فأخذ يدق الأرض بقدميه ،

وطوح بقبعته ، وانهال لطما على وجهـه ، باكيا خسارته ، وكأنما فقد قريبا عزيزا..

ـ الجرة الجـديدة !.. لقد دفعت من أجلهـا اربعة فلورينات !

من عساه يكون قد كسرها ؟.. أيحتمل أن تنكسر من تلقاء ذاتها ، دون فاعل ما ؟.. لابد أن شخصا كسرها .. ولابد انه كسرها بدافع الحقد ، أو لعله الحسد !.. ولكن ، متى ؟.. وكيف ؟.. لم يكن ثمة ما ينم عن عنف .. أفيحتمل أن تكون قـد وصلت من المصنـع مكسورة ؟.. كلا ، لقد كانت سليمة ، وكان لها رنين كالجرس ، عندما أحضروها !



● واذ رأى العمال أن سورة غضبه قد هدأت أخيرا ، شرعوا ينصحونه بألا يقسو على نفسه بهذا الشكل ، ما دام من الممكن اصلاح الجرة ، لا سيما أن الكسر لم يكن فادحا .. كان خطا واحدا ، فى وسع أى مجبر ماهر أن يجبره باللحام ، فتعود الجرة كالجديدة تماما !

وكان العم « ديما ليساس » أول من خطر ببالهم ، فهو قـد اخترع نوعا من « أسمنت اللحـام » حرص على تكتم تركيبه ، واثبت أنه كان لحاما فريدا ، اذا جبر به شيئا فلن تستطيع له كسرا ، ولو طرقته بمطرقة !.. لذلك اقترحوا على « دون لولو » استدعاءه ، وتعهدوا بأن يحضر مع اشراق النهار التالى ، اذا قبل اقتراحهم !

ولم يعرهم « دون لولو » ـ فى البداية ـ سمعا ، اذ بدا له الا أمل يرتجى ، وما من شىء يصلح الكسر .. بيـد انه ما لبث أن مال الى الاقتنـاع ، فلم يسفر الصبح حتى كان العم « ليساس » قد وصل الى « بريموسولى » ، وعلى ظهره ربطة ضمنت كل معداته .. وكان شيخا أشوه الوجه ، دقيق

الأطراف ، كشجرة زيتون هرمة .. لا تخرج الكلمة من فمه الا بعناء ، وكأنك تنتزعها منه انتزاعا !

وكانت ظلالا من الأسى ترين على اساريره ، لعل منشأها انه لم يكن يلقى من الناس تقديرا لموهبته كمخترع !.. ولم يكن العم « ديما ليساس » قد سجل اختراعه بعد ، ففد آثر الابطاء حتى تثير نتائجه الباهرة ضجيجا يكفل له الشهرة والرواج .. وهذا ما دعـــاه الى ان يكتم سره ، فلم يطلع عليه أحدا .



● **ألقى** « دون لولو » على العم « ديما ليساس » نظرة فاحصة ، شملته من رأسه الى قدميه لعدة دقائق ، ثم قال في ارتياب :

ـ ارني هذا اللحام الذي اخترعت !

فهز العم ((ليساس)) رأسه رافضا ، وقال : ((لسوف ترى نتائجه !))

ـ ولكن .. هل سيكون متينا ؟

ووضع الرجل ربطته على الأرض ، فأخرج منها لفافة حمراء ، عبـــارة عن منديل أحمر كبير ، التف لفات عديدة حول شيء ما . وبدأ يفك اللفات في حرص ، والجميع حوله يرقبونه بانتباه شـــديد . ثم انفجروا ضاحكين حين تبينوا أن المنديل لم يكن يضم سوى نظارة كسرت ذراعاها ، فحل محلهما رباطان من خيط .. ولم يحفـــل بهم العـــم « ديما ليساس » ، بل ثبت النظارة فوق أنفه بحرص ، ثم أخـــذ يفحص الجـــرة بعناية وأناة ، وما لبث أن قال : **((سيكون متينا !))**

قال دون لولو : « ولكني لا اثق باللحام وحده .. لا بد من استعمال مشابك حديدية ! »

وكان جواب الرجل : « **اذن .. فانا منصرف !** »

واعاد لف نظارته فى المنديل ، ورفع الربطة الى كتفه ، ولكن « دون لولو » أمسك بذراعه ، وهو يصيح :

ـ منصرف ؟.. الى أين ؟.. ان أخلاقك ليست خيرا من أخـــلاق الخنزير !.. يا لك من صعلوك تتعاظم !.. الذى يحنقك أيها الغبى ؟.. اننى سأضع فى الجرة زيتا ، أفلا تعـلم أن الزيت قـد يرشـح خـلال الكسر ، اذا أنت استخدمت « الأسمنت » وحـده ؟.. اننى أريد مشـابك حديدية مع الأسمنت ، ومن حقى أن أقرر ما أريد !

واغمض العم « ديما ليساس » عينيه ، وزم شفتيه .. هكذا شأن الناس جميعا ، لا يريدون أن يتركوه يعمل وفق ما يراه اصلح ، على هدى فنه ، ليثبت لهم ميزات اللحـام الذى اخترعه ..

وقال اخيرا : « اذا لم يعد سليما تماما ، من جديد .. »

ولكن « دون لولو » قاطعــه قائلا : « لا أريد أن أسمع كلمة واحدة .. افعل ما أريد ، وسأدفع لك لقاء الأسمنت والمشابك ، كم تريد ؟

ـ اذا أنا استخدمت « الأسمنت » وحده ..

ـ يا الهى !.. يا لك من عنيد !.. ماذا قلت لك ؟ قلت أريد مشابك حديدية ، وسأجزيك بعد اتمام العمل ، فان وقتى لا يتسع لأن أبدده معك !



● **وانصرف** الى مراقبة رجاله ، بينما شرع العم « ديما ليساس » فى العمل ، وهو يشعر بأن كرامته قد جرحت ، فأخذ يصب سخطه مع كل ثقب كان يحفره فى جانبى الكسر من الناحيتين ـ للمشابك ..

واختلطت ضوضاء آلته الثاقبة بصيحات الخنازير في حظيرة قريبة .. وما أن اتم حفر الثقوب ، حتى القى بالآلة الثاقبة بضيق ، ورفع شطري الكسر ليسوى احدهما بالآخر ، ويتأكد من تقابل الثقوب . ثم تناول مقصا معدنيا ، وراح يقطع اجزاء صغيرة من سلك حديدى .. ثم دعا أحد العمال - الذين كانوا يجمعون العنب - وسأله أن يساعده .

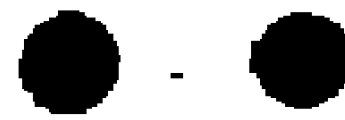
وبحركة غاضبة فتح صندوق « الاسمنت » ، ورفعه الى السماء وكأنه يشهدها على انكار البشر لقيمته .. واخذ يسبغ من المادة على طول جانبى الشق .. ثم حمل قطع السلك و « كماشة » ، ودخل في أحد شطرى القدر المكسورة ، وطلب الى العامل ان يطبق عليه الشطر الآخر . وقبل ان يسلك القطع الحديدية في الثقوب ، قال من داخل القدرة .

- احكم اطباق الشطرين ليلتصقا بالأسمنت .. هكذا ! .. ارايت كيف التصق الشطران !.. لعنة الله على من يأبى ان يصدقنى من الناس !.. اطرق جانبى القدر ! اترى كيف ترن كالجرس ، برغم وجودى بداخلها ؟.. اذهب واخبر مخدومك بذلك !

فقال الرجل ، وهو يطلق زفرة : « للسادة أن يصدروا الاوامر ، وما على الصغار الا ان يطيعوا .. ثبت الأسلاك في الثقوب ! »

وشرع العم « ديما » يدس الأسلاك في الثقوب المتقابلة ، ويحكم ربطها من الداخل .. واستغرقت العملية ساعة ، اغرقه العرق خلالها ، وهو طيلة الوقت لا يكف عن التذمر والشكوى ، والعامل يحاول أن يسرى عنه .. حتى اذا انتهى العمل ، قال العم ديما : « والآن ، ساعدنى على الخروج ! »

ولكن .. بقدر ما كان بطن الجرة واسعة ، اذا بعنقها ضيق ! وعبثا حاول العم « ديما » أن يفلت من العنق ، فقد عجز عن الخــروج برغم ما راح يبذل من جهــود . ووقف العامل مستغرقا في الضحك ، بدلا من أن يحاول مساعدته !



● **وهكذا** أضحى الشــيخ « ديما » المسكين ، سجين الجــرة التي أصلحها . ولم تعد ثمة وســيلة لاخراجه الا بكسرها ثانية . . ولكن الكسر ــ في هذه المرة ــ قد يكون كبيرا !

وسمع « دون لولو » الضحك والصياح ، فأقبل مهرولا ، ليرى العــم « ديما » داخل الجــرة ، مهتاجا كقط ثائر ، وهو يصيح :

ــ **اخرجني من هنا ، بحق السماء !.. أخرجوني !.. أسرعوا !.. ساعدوني !**

وتراجع « دون لولو » مشدوها ، لا يكاد يصدق شيئا .. وأخذ يردد : « ماذا ؟.. داخل الجرة ؟.. هل حبس نفسه بالداخل ؟ »

وتقدم من الجرة ــ أخيرا ــ وصاح بالعم ديما :

ــ أساعدك ؟!.. أية مساعدة تحسبني قادرا على أن أقدمها لك ؟.. ما معنى هذا أيها العجــوز ، المخرف ؟.. لماذا لم تتفقد حجم الرقبة منذ البداية ؟.. تعال ، حاول ! أخرج ذراعك !.. نعم ، هكذا !.. والآن ، أخرج رأسك!.. لا ، لا ، برفق !.. أدخل ثانيــة !.. انتظر ! ليس بهـــذه الطريقة !.. ارجل الى الداخل ! كيف تضع نفسك في هذا الوضع ؟.. ماذا أنا فاعل بقدري الآن ؟

وصرخ في الواقفين حوله : « هدوءا !.. هدوءا ! » .. كأنما كانوا هم مصدر الجلبة ، وليس هو !

واستطرد يصيح : « ان راسي يدور !.. هدوءا ، فهذه مشكلة جديدة ، لا عهد لى بها .. اسرجوا البغلة ! »

ودق على الجرة بيده ، فاذا بها ترن كالجرس !..
وصاح راضيا : « حسن !.. انك أعدتها جديدة !.. ولكن ، انتظر لحظة ! »

وضغط جبينه بأصابعه ، واضاف : « يا للحيرة !.. اى الطرق اتبع !.. ليست هذه جرة ، وانما هى لعنة من الشيطان !.. الزم الهدوء ! »

واسرع يثبت الجرة ، اذ كانت حركات العم « ديما » لا تهزها ، وهو فى هياج كوحش فى مصيدة !

ـ انها مشكلة جديدة ، يجب ان استطلع راى المحامي فيها !.. اين ذلك البغل ؟.. اسرعوا فاسرجوا البغل !.. سانطلق بسرعة ، ثم اعود ، فاصبر يا رجل !.. اهدءا حتى اعود ، فلابد من ان اتبين حقوقى القانونية ، وان اعرف الصواب .. اليك ، سادفع لك اجر عملك ، اجر يوم كامل اليك خمس ليرات ، فهل يكفيك هذا ؟

وصاح العم ديما : « كلا ، لا اريد شيئا .. سوى الخروج ! »

ـ ستخرج عندما اعود .. وحتى ذلك الوقت ، اليك اجرك .. خمس ليرات !

والقى بالنقود فى جوف الجرة ، ثم تساءل : « هل تناولت غداءك ؟.. احضروا له خبزا وشيئا ما ، حالا !.. ماذا ؟ لا تريد طعاما ؟.. لا باس ، القِ به الى الكلاب ان شئت ، ولكنى افعل ما يقضى به الواجب ، فاقدمه لك ! »

● ●

● وامتطى « دون لولو » بغلته ، وانطلق نحو المدينة

.. وراح طيلة الطريق يحدث نفسه ، ويأتي باشارات جعلت كل من رآه يظن انه انما كان ذاهبا ليحل نزيلا على مستشفى الامراض العقلية !

وساعده الحظ فلم يطل انتظاره ، قبل ان يدخل مكتب المحامي .. ولكنه اضطر للانتظار طويلا ، حتى يفرغ المحامي من ضحكه ، بعد أن أصغى الى القصـــة .. وأحنقه ســلوك المحامي ، فقال فى انفعال :

ــ عفــوا ، لست أرى ما يستدعي الضحك .. الأمر بسيط بالنسبة اليك ؛ لأنك لا تعانى شيئا .. فلست أنت صاحب الجرة !

ومن جديد ، عاد المحامي يضحك .. ما لبث ان سأله أن يروى الحكاية ــ مرة اخرى ــ بتفصيل واسهاب .. ثم عاد يضحك ، وهو يقول :

ــ فى جوف الجرة ؟!.. اذن ، حبس نفسه بالداخل ؟.. وماذا يريد ((دون لولو)) أن يفعل ؟ .. أتريد أن تبقى .. تبقيه داخل القــدر ؟.. ها ! ها ! ها !.. تبقيه بداخلها ، لكى لا تكسرها !؟

وصاح دون لولو : « ولماذا أكسرها ؟.. ماذا يدعونى لأن أبدد نقود ؟.. ولماذا يضحك الناس منى اذ أحرص على حقوقى ؟ »

وقال المحــامي أخيرا : **((مهلا .. الا تدرى ماذا يسمى ذلك قانونا ؟.. انه يسمى : السجن خطأ !))**

ــ سجن ؟.. ليكن ! ومن الذى سجنه ؟.. هو الذى سجن نفســه ، فلماذا أتحمل خطأه ؟

وشرح له المحامي ان للمشكلة شقين . أولا : على « دون لولو » أن يطلق سراح الرجل فورا ، اذا شاء الا يتهم بسجن الغــير خطأ !.. وثانيا : ان الرجل مســئول عن تعويض

« دون لولو » عن الخسارة التى سببها بعدم مهارته أو بغبائه !

اذ ذاك فقط ، تنهد « دون لولو » بارتياح ، وقال :

ـ آه !.. اذن فعليه ان يدفع لى ثمن القدر !

ـ مهلا !.. انتظر !.. لن يدفع ثمن الجرة وهى جديدة . تذكر هذا !

ـ ولم لا ؟.. اليست هى جديدة ؟

ـ ولكنها كانت مكسورة .. وكان الكسر بالغا ، كذلك !

ـ مكسورة ؟!.. كلا يا سيدى ، انها ليست الآن مكسورة ، بل أصبحت أفضل مما كانت !.. الرجل نفسه يشهد بهذا ، واذا كان لزاما ان اكسرها ثانية ، فسيتعذر أصلاحها فى هذه المرة ، وسافقدها تماما .

ورأى المحامى ان هذه نقطة جديرة بالاعتبار ، ومن ثم سيكون على الرجل ان يدفع ثمن الجرة بحالها الراهنة .. وقال : « **وعلى هذا ، استدرج الرجل ليقدر بنفسه حال الجرة وقيمتها الراهنة ، قبل كل شىء !** »

واعجب « دون لولو » بالفكرة ، فانصرف مهرعا !



● **واذ عاد** الى مزرعته قبيل الغروب ، وجد الرجال ملتفين حول الجرة ـ التى كان الرجل بداخلها ـ وكلاب الحراسة تشاركهم ضجيجهم . ولم يكن العم « ديما » قد هدأ فحسب ، بل انه راح يضحك من نفسه فى وضعه هذا !

ودفعهم « دون لولو » جانبا ، ونظر داخل الجرة ، وصاح : « كيف حالك ؟ »

فأجابه الرجل : « **بخير !.. حال سعيدة ، فهنا مكان أحسن من بيتى !** »

ــ لكم يسعدنى أن أسمع هذا !.. ولكنى أود أن أعرفك بأن هذه الجرة كلفتنى أربعة فلورينات وهى جديدة .. كم تظنها تساوى الآن ؟

وسأله العم ديما : « أتقصد قيمتها .. وأنا بداخلها ؟ »

وضحك الناس ، فصاح بهم دون لولو : « سكوتا ! » .. ثم عاد يخاطب سجين الجرة :

ــ اما أن يكون لحامك ذا قيمــة ، أو لا يكون كذلك ، وليس هناك احتمال ثالث !.. فاذا كان غير ذى قيمة ، فأنت غشاش !.. أما اذا كان ذا قيمــة ، فمعنى هذا أن الجــرة الآن قيمــة .. فماذا عســاها أن تكون ؟.. إننى اسألك ان تقدرها بنفسك !

وفكر العم « ديما » لحظات ، ثم قال :

ــ اليك اجابتى : لو أنك كنت قــد تركتنى أصلحهــا بالأسمنت فقط ، لما وجدتنى فى هذا الوضع ، ولكانت الجرة قد عادت الى قيمتها الحقيقية دون ما شــك .. أما وقد أصلحت بهــذه السلوك الحديدية ، التى تطلبت ضرورة احكامها من الداخل ، فقد اصبحت آثار اللحــام ظاهرة ، وفقدت الجــرة بذلك معظم قيمتها ، فهى الآن لا تســاوى سوى ثلث قيمتها الأصلية .. لا أكثر ، ولا أقل !

ــ ثلث قيمتها ؟!.. أى فلورين واحدا ، وثلاثة وثلاثين سنتا ؟

ــ قد تكون اقل ، ولكنها لا يمكن أن تكون أكثر !

ــ ليكن !.. عدنى بأن تدفع لى فلورين وثلاثة وثلاثين سنتا !

وصاح العم « ديما » متسائلا ، وهو لا يفهــم شيئا : ماذا ؟ »

ـ ساكسر الجرة لأخرجك منها ، وقد اخبرني المحامي بأن عليك أن تعوضني عنها ، ومن ثم فعليك أن تدفع قيمتها وفقـا لمـا قدرته بنفسـك : فلورين واحـدا وثلاثة وثلاثين سنتا !

وضحك « ديما » قائلا : **انا ادفع ؟!.. انني افضـل البقاء فيها حتى اتعفن ! »**



● **وبعناء** أخرج من جيبه غليونا واشعله ، وأخذ ينفخ الدخان خارج الجـرة .. فوقف « دون لولو » في مـكانه مغيظا ، اذ لم يخطر ببـاله وبال محاميه أن « ديمـا » قد يفضل البقاء في الجرة .. فماذا تراه فاعلا الآن ؟

واوشك ان يأمر رجاله بان يسرجوا البغلة ، ولكنه رأى ان الليـل قد هبط ، فلم يملك سوى ان يقـول : « آه ، آه !.. اذن فانت تريد الاقامة في الجرة !.. انني اشهدكم ايها الرجال على انه يرفض الخروج ، ليتهرب من الدفع !.. انني مستعد لأن اكسر الجرة !.. **ما دمت تصر على البقاء ، فسارفع عليك في الغـد دعوى ، لاقامتك غير القانونيـة في الجرة ، وحيلولتك بيني وبين استعمالها كما اشاء ! »**

ونفخ العـم « ديما » آخر نفس من الدخان ، وقال في هدوء :

ـ كلا .. لست امنعك اطلاقا !.. اتظنني هنا حبا في البقاء ؟.. اخرجني ، وسيسرني أن انصرف الى حال سبيلي .. اما ان ادفع نقـودا ، فهـذا ما لا استسيغه ، ولو في الحـلم !

واوشك « دون لولو » ـ في سورة الغضب ـ أن يدفع الجـرة بقدمه ، ولكنه كبح جماح انفعاله ، وأمسك الجرة

يـــــديه وراح يهزها بعنف ، وهــو يزمجـر ، فصــاح « ديما » من جوف القدر :

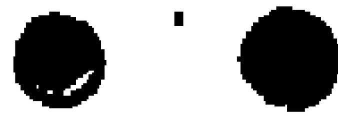
ـ أرأيت مدى متانة الاسمنت !

وصاح « دون لولو » مهتاجا :

ـ غلطة من هذه ، أيها اللئيم ؟ . . غلطتك أم غلطتى ؟ . . أأدفع من مالى ثمن خطأك ؟ . . مت حيث أنت ، أن شئت ، وسنرى أينا الرابح !

وانصرف مهتاجـا ، ناسيا كل شىء عن الليرات الخمس التى كان قد ألقاها للرجل فى الجرة ، عنـــدما انطلق ليزور المحامى . . **وكان أول ما جال بخاطر العم « ديما » ، هو اتفاق هذه الليرات فى اللهو مع عمال المزرعة ، الذين كانوا قد قرروا أن يقضوا ليلتهم حول الجرة . .**

ومن ثم ، أرسل العم « ديما » أحد الرجال بالليرات الى حانة قريبة ، ليأتيهم بما يلزم السهرة . .



● وكان القمر ساطعا ، أحال بضوئه الليل نهارا ، مما أدخل على السهرة بهجة . وأقبل الجميع على الشراب . .

ومرت ساعات ، ولم يغمض لدون لولو جفن ، لفـرط غيظه وحنقه . .

وفجـأة ، فطن الى صخب وصياح مزعجين . . وأسرع يطل من شرفة داره ، واذا به يرى الرجــــال وقد شعشعت الخمر فى رؤوسهم ، فراحوا يصيحون مخمورين ، وأمســك بعضهم بأيدى بعض وهم يرقصون حول الجرة ، بينما كان العم « ديما » يغنى ـ بداخلها ـ بأعلى صوته . .

وفى هذه المرة ، أفلتت أعصاب « دون لولو » ، فانطلق يجرى من الدار . . ومن المزرعة . . وقد فقد عقله !


الحياة الجنسية عند الإغريق
للباحث الاجتماعي
"هانز ليشت"

التزعات الجنسية وسلوك الانسان فى الحياة

من الحضارة الاغريقية ، اقتبست الحضارة الغربية المعاصرة فلسفتها ومبادئها . ومن ثم فلا بد من ان ندرس حضارة الاغريق القدامى ، اذا شئنا ان نفهم حضارة الغرب . ويرى الباحث المدقق البروفيسور « هانس ليشت » ، انه لدراسة اية حضارة ، لا بد من البحث عن السلوك الجنسى لابنائها ، لان النزعات الجنسية تنعكس على معظم نواحى سلوك الانسان ، لا سيما فى النشاطات الفنية والذهنية ..

وعلى الصفحات التالية ، يقدم لك « كتابى » تلخيصا وافيا للحلقة الاخيرة من الدراسة الممتعة والقيمة ، التى قام بها البروفيسور « ليشت » حول « الجنس فى الحضارة الاغريقية » ، والتى قدمنا لك منها اربع حلقات فى الاعداد الاربعة السابقة ..

حب الرجل للمرأة

● كانت الفكرة السائدة عند القدماء — وعند الاغريق بوجه خاص — هى أن الحب ، أو بالأحرى الجزء الجسدى من الحب ، ليس سوى مرض !.. وهو نوع من الجنون أقل عنفا من الجنون المتعارف عليه !.. واعتبار الحب البدنى مرضا ، نشأ عن أنه ينجم عن الشهوة . والشهوة اختلال فى التوازن الصحيح بين الجسم والعقل ، وهو التوازن الذى لابد من توفره ليكون المرء سليما . فتحت دفع الرغبة الجنسية ، يفقد العقل سلطانه على الجسد . أما اعتبار الحب البدنى نوعا من « الجنون » ، فمرجعه الى أن المقدرة العقلية

ـ او قدرة الذهن على الادراك ـ تصاب بتبلد مؤقت خلال المواقعة .

ومن الطريف أن العلم الحديث ـ فى شرحه للظواهر الجنسية ـ يبين ان المواد الكيماوية التى تتكون فى الجسم ـ عند المواقعة ـ تكون ذات أثر مخدر . ومن ثم فانها تسبب خمولا عابرا فى القوى الذهنية .

ولقد اعتنق الفيلسوف الألماني « هارتمان » ـ ومن قبله « شوبنهاور » ـ هذه الفكرة عن الأغريق ، واستخلص منها الاستنتاج المنطقي . القائل : « ان الحب يسبب من الألم أكثر مما يسبب من اللذة . فاللذة ليست سوى تصور . وكان خليقا بالعقل ان ينهانا عن الحب ، لولا ان الدافع الجنسي يتغلب على سلطان العقل .. ومن ثم ، فقد يكون الخصى (بتر الأعضاء التناسلية) افضل » !.. غير ان المنطق شيء ، والعلم القائم على المشاهدة والحقائق شيء آخر . وقد أثبت العلم ان الخصى لا يذهب بالحافز الجنسي ، وكان الاغريق يعلمون ذلك .. بدليل القصة التى رواها « فيلوستراتوس » عن مغامرة عبد خصي مع سيدة من « الحريم » فى بيت مولاه .. وفى الأدب الاغريقى القديم الكثير من أمثال هذا الدليل .

العين مصدر الفتنة وحمرة الخجل توقد النار

● ولقد نظم « ثيوكريتوس » قصيدة كاملة فى الرثاء لصديقه الطبيب « نيسياس » ، والتوجع للواعجه ولوعاته الناشئة عن الحب ، بدأها بقوله :

« ما من علاج آخر للحب يا نيسياس ، سوى عرائس الخيال .. وانه لعلاج رقيق ، عذب ، ولكن الوصول اليه عسير » !..

ولو تاملنا هذه النصيحة ، لوجدناها تطابق ما ينصح به علم النفس الحديث من « التسامي » .. فكان الأغريق يدركون

أن خير علاج للحب ، هو تحويل الذهن والعواطف عنـــه ، بالاشتغال بأمور أخرى تستغرق تفكير المرء ومشـــاعره . وقد دعا « ثيوكريتوس » صديقه الطبيب ــ فى هذه القصيدة ــ الى ان يحاول نظم الشعر ، ليشغل به عن هواه .

على أن الاغريق لم يكونوا يعرفون العـــلاج لداء الحب فحسب ، بل انهم كانوا على الما بكيفية سريان « سم الحب » من النفس والقلب الى الأعضاء . ويقول « سوفوكليس » أن منفذ السم هو **العين** .. فهى التى ترى « ما فى عينى العذراء من سحر فاتن ، تمارس خلاله الربة « افروديت » هوايتها التى لا سبيل الى مقاومتها » !.. ويقول « يوريبيدس » عن دور العين : « ان ايروس يقطر الشوق من العينين ، فيوقظ الرغبة فى نفس الشخص الذى يريد أن يخضعه للهوى » !.. ويتكلم « ايخيلوس » عن « سهم الحب الرقيق ، الذى ينطلق من العينين » .. كما يقول « آخيل طاطيوس » ان للجمـــال جراحا تفوق ما يحدثه السهم .. « فهو ينفذ خلال العينين الى النفس ، لأن العين هى المسلك الذى يسلكه الهوى ليحدث جراحــه » !

وتضرج وجنتى العذراء خجلا ، يوقظ الحب فى الرجل .. حتى اذا أرسلت العذراء صوتها خلال شفتيها الورديتين ، تم استسلام العاشق ، على حد تعبير ((سيمونيدس)) . ولكن هذه الغلبة ليست ساحقة ، لأن سحر العيون والخـــدود ، ينتهى الى صراع تكون فيه الغلبة للرجل !.. وفى هذا يقول أريستوفينس : « ولكن ، اذا كان ايروس وفينوس القبرصية ينفثان الرغبة فى صدورنا وأفخاذنا ، ويحـدثان توترا لذيذا وقاسيا ــ فى آن واحد ــ فى الرجال ، فانى أرجو أن يقال عنا اننا نحن (الرجال) الذين نقرر نهاية الصراع » !.. وذلك عن طريق « المعابثات » : الشفتان فوق الشفتين ، والعنـــاق

الرقيق الطويل . والشفاه فاغرة ولسـان كل من الحبيبين يداعب لسان الاخر .بينما تنطبق يدا الشـاب على ثديي الفتاة واصابعه تتحسس الحلمتين .. وتعقب القبلات عضات رقيقة المنكبين والثديين ـ بوجه خاص ـ ثم تمتد يد الشاب فتنحسر غلالة الفريسة الحسناء .. توطئة لقربان الهوى !

كل هذه المداعبات و ((الطقوس)) ـ في معبد الهوى ـ ماخوذة عن الكتابات الاغريقية القديمة .. على أن لكل مرحلة منها انواعا : فهناك القبلة التي يتناول فيها كل من العاشقين اذني حبيبه . ليقرب وجهه اليه .. وهناك القبلة التي تطبع على الكتف او النحر او الثدي .. الخ .

صدر الانثى هو المنفذ الى المتعة

● ويبدو أن صدر الأنثى كان مصدر الهام عظيم للادباء والفنانين الاغريق . ولا يبين مدى مشاعرهم نحو الصـدر ، قدر قصة « فيرني » ومحاميها « هيبريدس » . فقد اتهمت « فيرني » بجريمة خطيرة . وانعقدت المحكمة للنظر في امرها .. **وبدا ان الرأى العام كان يتجه الى اعدام المذنبة الجميلة . فما كان من ((هيبريدس)) الا ان مزق ثوبهـا عن صدرها ، وكشف عما لثدييها من جمال رائق ، فاذا ((تقدير القضاة للجمال)) يحملهم على أن يحجموا عن اعدام صاحبة مثل هذا الصدر الفاتن !..** والذين قراوا قصة الحروب الطروادية ، يذكرون مدى نقمة الملك « مينيلاوس » ـ ملك اسبارطة ـ عندما افتتنت زوجته « هيلين » بالفتى « باريس » وتبعتـه الى طروادة .. وبعد الغضب والحروب الأليمـة ، لم يكد « مينيلاوس » يرى ثديي « هيـلين » عاريتين ، وصـدرها مكشوفا ، حتى نسي غوايتها ، وصفح عنها !

ولو أن كاتبـا جمع كل ما انعكس على الأدب والفـن الاغريقيين ، من مفاتن صدر الانثى ، لملأ مجلدات . ولكنـا

نكتفي بمثال أو مثالين .. فقد كتب « نونس » يشبه حلمتي الثديين بمصدرين لانطلاق سهام الحب .. وهو يصف كيف ان « ديونيسس » - كرمز للعاشق - يقرب يده الملهوفة من صدر الفتاة الواقفة أمامه ، و ..« **بحركة تبدو غير مقصودة ، يلمس البروز المتكور تحت صدرها ، فاذا ما لمس النهدين الشامخين ، بدات يد الرب المفتون بالنساء - يقصد « ديونيسس » - ترتعش** » !.. وفي موضع آخر - من القصيدة عينها - يقول نونس : « وكان جزائي أن أمسكت بيدي تفاحتين كانتا تبدوان كفاكهتين توأمين نبتتا من جذع واحد » !

ومثالنا الثاني ، هو ما نظمه « أوفيد » الشاعر : « وأخيرا نضوت عنها ثوبها ، الذي كان من الرقة بحيث أنه لم يكن ذا اثر يذكر .. ومع ذلك فقد ظلت تناضل محاولة أن تستتر به . **وراحت تقاوم وكأنها غير راغبة ، ولكن تصرفها كشف عن حقيقة رغبتها ، اذ لم تلبث أن انهزمت بسهولة** ! واذ وقفت امامي عارية تماما ، لم أر أية شائبة في كل جسمها . فيا للمنكبين ويا للذراعين التي رأيتها وزحت أتحسسها !.. ويا للثديين البديعتي التكوين ، وكأنهما خلقتا للمداعبة !.. ولكم بدا قوامها مشدودا في اتساق تحت ثدييها الناهدين ، لا تشوبه أية غضون !.. كان كل ما رأيت خاليا من أي عيب .. وفي افتتاني ، شددت قوامها العاري الى قوامي .. » !

العادة السرية عند الذكور والاناث

● **الشائع** أن العادة السرية مصدر اكتفاء ذاتي يعوض عن ممارسة الحب . ومهما يكن من الأسماء التي أطلقت على هذا النوع من العمليات الجنسية ، فنحن نؤثر أن نسميه - في هذا الفصل - « العادة السرية » ..

ولقد كان للعادة السرية ـ فى حياة الاغريق ـ دور ليس بالصغير .. اذ انهم لم يكونوا يعتبرونهـا رذيلة ، ولم يكن لديهم نحوها من التحرج الخلقى ما هو معروف لدينا اليوم ، وان كانوا ـ فى الواقع ـ قد ادركوا اضرار الافراط فيهـا ، بقدر ما كانوا يعترفون بما تتيحه من لذة ومتعة . **وقصارى القول انهم كانوا ينظرون اليها كبديل لممارسـة الحب ، وكصمام امن خلقته الطبيعة لتفادى الامراض الجنسـية ، وتجنب آلاف الآثام والخطايا التى تترتب على ممارسة الحب : كالانجاب غير الشرعى ـ وما ينجم عنه من نتائج ـ وكالسجن فى حالات الاغتصاب ، وكالانتحار الذى قد تقدم عليه الفتاة ..**

ومن ثم ، فان الاغريق كانوا يقرون العادة السرية ، حتى ان فنانيهم كانوا مشغوفين بتصوير مناظر ممارسـتها على الأوانى الخزفية . وفى المتحف الملكى ببروكسل ، توجد إلى اليوم كأس اغريقية مزدانة برسم فتى يكلل الغار راسه ، وهو يمارس هذه العملية !

على أن العادة السرية للاناث ، كانت من الموضوعات التى لم ترد كثيرا فى آثار الاغريق الادبية . هذا امر طبيعى ، اذا راعينا أن أحاديثهم عن الرجال كانت هى الغالبة .. **والواقع ان الفتيات الاغريقيات لم يكن اقل ممارسة للعادة السرية من الفتيان .. وكن يمارسنها باليد او باستخدام آدوات كانت تبتكر وتصنع لهذا الغرض !..** وكانوا يسمون هذه الأدوات « بوبون » Baubon أو « اوليسبوس » Olisbos .. ولقد كانت مدينة (ميليتس) التجارية ـ الوافرة الثراء والبذخ ـ مركزا لصناعتها ، ومنها كانت هذه الأدوات تصدر الى جميع البلدان .. وينم بعض ما ورد فى مخلفات الاغريق المكتوبة ، عن أن اعارة هذه الأدوات كانت عادة شائعة بين الصديقات !.. بل أن منهن من كانت تتحرى الصانع الماهر ، لتعهد اليه بأن

يصنع لها أدوات تلائمها وترضيها بشكل خاص .. وكانت الفتاة تستخدم هذه الأدوات وحدها ـ فى خلوة ـ أو تشرك احدى صديقاتها معها . ومن هنا امتزجت العادة السرية ـ لدى الاغريقيات .. ب « السحاق » ، وهو ممارسة العملية الجنسية بين أنثيين .

((سافو)) .. ملكة عاشقات الجنس المماثل !

● **وتجمع** المعلومات على أن السحاق كان شائعا فى جزيرة (ليسبوس) بوجه خاص ، ولهذا اشتقت تعبيرات فى بعض اللغات الأوربية ـ مثل « الليسبيانيزم » و « الحب الليسبى » للاشارة الى العلاقات المشينة بين الاناث بعضهن وبعض .. كما أن مصطلح « امرأة ليسبية » يطلق ـ فى بعض البلدان الأوربية ـ على المرأة الفاجرة ، بل على العاهرة أحيانا .

ولقد كانت (ليسبوس) مسقط راس ((سافو)) ، التى وصفت فى مخلفات الأغريق بانها من ((ملهمات الشعراء)) و ((عرائس الخيال)) و ((راهبات فينوس)) ، كما وصفت بانهـا ((ملكة المساحقات)) ، ملكة عشق الجنس المماثل فى الحضارة الاغريقية ـ وكانت شاعرة موهوبة ، طبقت اشعارها الآفاق . وقد ولدت « سافو » فى حوالى سنة ٦١٢ قبل الميلاد ، وكان لها ثلاثة أخوة ، هاجر أكبرهم ـ وكان يدعى « كاراكسوس » ـ الى (نوكراتيس) بمصر ، وهى أحد المواقع التى أقيمت عليها مدينة الاسكندرية .. فاستقر هناك بصحبة غانية هاجرت معه ، وتدعى « دوريكا » .

ولقد قيل أن « سافو » تزوجت ـ فى صباها ـ وأنجبت ابنة تدعى « كلائيس » ، ولكن الأدلة على زواجها ضئيلة وضعيفة ، كما أن هناك ما يرجح أن « كلائيس » كانت احدى صديقاتها ، وليست ابنتها . **والذى تجمع عليه كل الأدلة ، هو أن حياة ((سافو)) واشعارها كانت تفيض بالحب لجنسها .**

وكانت تحيط نفسها بحاشية من الفتيات الحسان .. وكانت اجتماعاتها بهن تمتاز بتبادل الأشعار ، وبعزف الموسيقة ، وباللعب والرقص والغناء !

وكان حب « سافو » لفتياتها حبا عارما ، مشبوبا ، لم تتورع عن وصفه فى أشعارها بعبارات تتمثل فيها العواطف الفياضة ، والتصوير المتأجج الاثارة . وعلى ضوء ما تناهى الينا من كتابات الاغريق ، لم يكن حب « سافو » هذا معتبرا من الرذائل ، بل ان حب الجنس المماثل بين الاناث لم يكن رذيلة .. واذا كان ثمة لوم قد وجه الي « سافو » ، فما كان ذلك الا لصراحتها وعلانيتها فى المجاهرة بشىء كانوا يعتبرونه من الأسرار الشخصية !

الفحولة فى حب الأنثى لابنة جنسها !

● ولقد وصف « هوراس » سافو بأنها « ذكر » ، لأن طابع الفحولة كان أغلب ما يميز حبها .. وكانت تهتز بقوة هذا الحب العاتى « كما تهتز السنديانة فى العاصفة » !.. وبفيض شعرها بما كانت تلقاه من نشوة ، وهناء ، وآلام ولوعات فى هذا الحب .

وكانت أحب فتياتها اليها ، فتاة تدعى « آتثيس » .. وقد روت « سافو » — فى كثير من أشعارها — كيف تولد هذا الحب فى أعماقها فراحت تقاوم تدفقه الطاغى ، ثم .. « وكطفل يطير الى أمه ، ها أنذى أطير اليك ! » وراحت تناجى الربة « أفروديت » وتشكو اليها لوعاتها وأساها ، وتضرع اليها كي تعينها على تحقيق ما تصبو اليه نفسها .. ولم تكن الربة على أن تصم أذنيها دون هذا الدعاء ، فبثت فى قلب « آتثيس » الجرأة والشعور بالثقة المفعمة بالبهجة فى الحب ، وبهذا تفتحت نفس الفتاة لتقبل حب « سافو » !.

وكان كلف « سافو » بصاحبتها أقوى بكثير من هيام أي رجل بامرأة ، كما أن الهوى الذي جمع بين « سـافو » و « آتثيس » ـ بعد ذلك ـ كان اقوى من أي غرام بين ذكر وانثى ، فكأنما امتزجت الاثنتان في كيان واحد شطر الى جسدين !.. على أن الغيرة كانت تفري فؤاد « سافو » أحيانا ، كلما ساورتها الهواجس ازاء علاقة « آتثيس » بأحد من البشر ، ذكرا كان أو أنثى .. ثم ضرب الفراق بين الاثنتين ، اذ انتقلت « آتثيس » الى (ليديا) .. ولكنه لم ينل من وجد « سافو » وهيامها ، فكانت تنظم القصائد شوقا الى فتاتها .

وكان القدامى يزون في علاقة ((سافو)) بتلميذاتها ، مقابلا للعلاقة التي كانت بين ((سقراط)) وتلاميذه .. وفي تعلق « سافو » بالفتاة « آتثيس » ما يقابل علاقة الفيلسوف الكبير بتلميذه « السيبياديس » .. وكم كتب فلاسفة وادباء في في تحليل اوجه الشبه بين الفريقين . والواقع أن الحساسية المرهفة نحو الجمال لدى « سافو » و « سقراط » ، كانت الأساس الذي قامت عليه علاقات الهوى والوصال بين كل منهما والشباب من أبناء جنسه !

البغاء عن الاغريق

● **بالرغم** من صعوبة الحصول على مراجع وافية عن « البغاء » في الحضارة الاغريقية القديمة ، فان القدر الذي استطعنا التوصل اليه يبين بجلاء ان « البغـاء » كان من الظواهر الجنسية الشائعة عند الإغريق ، **وأنه لم يكن يقتصر على ((بائعات الهوى)) اللائي يرتزقن ببيع أجسادهن ، بل كان يشمل الخليلات اللائي يعشن مع من يحببن حياة زوجية كاملة لا ينقصها سوى طقوس الزواج الشرعي ، و ((كاهنات**

فينوس » اللاتى كن يمارسن العلاقات الجنسية مع الرجال كلون من الطقوس التى تتطلبها عبادة الربة « فينوس » !

ومن هنا تعددت الألفاظ التى كانت تطلق على « البغى » . كما ان الاغريق كانوا يتحاشون استعمال كلمة « البغي » او « العاهر » على بائعات الهوى ، فكانوا يسمون ارقى طبقاتهن : « الرفيقات » أو « الانيسات » .. وكان من الأسماء الشائعة لبائعة الهوى : « المعبرة » ــ بكسر الميم وسكون العين ــ اي « المعدية » ، وهو اسم اقتبس عن عادة الغواني فى التسكع عند الجسور لاصطياد العملاء !.. و « المرأة العامة » ، و « الجارية » ــ من الجرى ، لأنها كانت تؤدى مهمتها ثم تسارع بالانصراف ــ و « أداة المخدع » ، اشارة الى انها مجرد « أداة » للمتعة .. و « الذئبة » و « النرد » ــ او « زهر الطاولة » ــ تشبيها لها بالنرد الذى تتداوله ايدى الرجال فتهزه ثم تلقيه !

كانت لبيوت الهوى « تسعيرات » تفرضها الدولة !

● وكانت للبغايا ــ اللاتى يتجرن فى اجسادهن ــ بيوت الهوى ، وفى هذه البيوت ، كانت أدنى طبقات البغايا يستقبلن الرجال . فكن يقفن فى مداخلها عاريات ، أو فى غلالات رقيقة شفافة ، حتى يتحن للزائر أن يختار من بينهن من توافق ميوله وذوقه .

وكان لدخول بيوت الهوى رسم زهيد ، يتباين فى فئاته وفقا لتباين البيوت . والى جانب هذا الرسم ، كان على الزائر أن يقدم للبغى « هدية » ، بمثابة الأجر . وكان صاحب البيت ــ أو صاحبته ــ يدفع من حصيلة رسم الدخول ضريبة سنوية للدولة ، اسمها « ضريبة البغاء » .. **كما ان الهدية ــ او « الاكرامية » ، كما كانت تسمى ــ التى**

يدفعها الزائر للفتــاة ، كانت محددة وفقا لـ « تسعيرة » خاصة .. اذ كانت بيوت البغاء ــ والبغايا انفسهن ــ تحت رقابة دقيقة من الدولة ، صونا للآداب العامة ، وللصحة .

وكانت معظم بيوت البغاء ــ فى المدن الساحلية ــ تتجمع فى الأحياء القريبة من الموانىء .. كما كانت تنتشر ــ بوجه عام ــ فى الأحياء التى كان يطلقون عليها اسم (سيراميكس) ، أو أحياء صناع الأوانى الفخــارية . فكانت تمتد فى شارع عريض ، يبدأ فى سوق الحى ، ويتجـــه شمالاً حتى أبواب المدينة . وكثيرا ما كان هذا الشارع يخترق أحد الأحياء ذات الصبغــة الدينية ، فلم يكن الاغريق يرون فى هــذا ما يمس قداسة الحى ، لأنهم كانوا يرون فى البغاء نظــاما اجتماعيــا يصرف الرجال عن محــاولة النيل من أعراض الفتيــات .. وبالتالى ، لم تكن زيارة بيوت البغاء أو أحياء الدعارة بالأمــر المســتهجن !

تعال « فتيات الشوارع » تطبع الدعوة للمفتونين !

● ولم تكن أحياء البغــاء تفتح ابوابها « قبل الســاعة الرابعــة من بعــد الظهر ، وذلك « **لكى لا ينصرف الشــباب عن الأعمال وممارسة الرياضة** » . وفى تلك الأحياء ، لم تكن ثمة بيوت ــ على النســق الذى شرحناه ــ بل كانت هناك غرف تجلس أمامها البغايا فى أوضاع مثيرة . فاذا عرج زائر على احداهن ، دخلت معه غرفتها ، وأوصدت بابها ، بعد أن تعلق عليه لوحة تحمل كلمة « مشغولة » . وكان الزائر يدفع الأجر للفتاة مباشرة .

وعرف الاغريق طبقة اخرى من البغايا ، يطفن باماكن وشوارع معينة من المــدينة ، ليتصيدين العمــلاء .. وهى طبقــة لم تكن تحترف البغــاء احترافا كاملا ، وانما كانت

تمارسه كمهنة ثانوية .. وتقع هذه الطبقة ـ في الترتيب ـ بين نزيلات بيوت البغاء ، وفتيات احياء الدعارة .

ومن طريف ما يروى عن فتيات الشوارع ، انهن كن يسرن في احذية نقش على نعالها بالمسامير عبـارة : ((اتبعني)) !.. فكانت العبـارة تنطبع على الأرض غـير الحجرية ، فتلفت نظـر السـائر خلفهـا وتنبهـه الى مهنتها !.. ويروى ((السبياديس)) ، انه شغل مرة بفتاة ، كانت تحيط خصرها بحزام كتب عليه : ((حبني ، ولكن لا تغار اذا نالني غيرك من الرجال)) !.. وكانت هذه الطبقة تتسكع عادة في الشوارع الحافلة بالحركة ، أو المفضيـة الى ارصـفة الميناء . وكن يصطحبن سيدهن الى الحجرات التى يقمن فيها ، او الى الاركان المظلمة والبقاع غير المطروقة من المدينة !.. وربما اصطحبنهم الى الحمامات العامة ، أو الى فنـادق وحانات اعدت حجرات خاصة تؤجرها لهن !

((الأنيسات)) .. طبقة كانت موضع تقدير المجتمع !

● اما ((الرفيقات)) أو ((الأنيسات)) فكن يشغلن مكانة مهمة في الحيـاة الاغريقية . وكن ـ على نقيض الطبقـات الاخرى من البغايا ـ يستمتعن باحترام المجتمع . اذ كن يمتزن بذكاء وقاد ، وتعليم راق ، وبديهة ولباقة . اى انهن كن قديرات على ان يبهرن من يتولين الترفيه عنهم ، من علية القوم .. من قادة ، وسياسيين ، وادباء ، وفنانين . وبهذا كن يجمعن بين الامتاع الذهني والامتاع الجسدي . ومن ثم كان من اثر ملحوظ في حياة كثير من الشخصيات المبرزة في التـاريخ الاغريقي .. وقد يمكن ان يقـال انهن كن اشـبه بسيدات ((الصالونات)) في الحضارة الفرنسية ـ في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر ـ وبفتيات ((الجيشا)) في اليابان ، الى حد ما !

وكان للرفيقة منهن بيت خاص ، مؤثث بأفخم الرياش ، لا يخجل احد من دخوله .. بل ان تماثيل البعض منهن ، كانت توضع فى المعابد والبنايات العامة الى جوار تماثيل القادة والزعماء !.. ولعل ابرز دليل على قدرهن فى المجتمع الاغريقى ، ان مهنتهن كانت أكثر رواجا وازدهارا ، فى المدن التى تجتذب الأجانب ، كالمدن التجارية والبحرية ، لا سيما (كورنثه) .. حتى لقد كان من الأمثال الشائعة : ((**الرحلة الى كورنثه لا تعود بالربح على رجل**)) !.. اذ كانت المتع التى يجدها الرجل هناك ، تشده اليها حتى ينفق كل أمواله ، فيرحل عائدا الى بلاده خالى الوفاض !.. فقد كانت (كورنثه) تزخر بالأنيسات ، وبالبغايا ، وبكاهنات معبد « فينوس » أو « أفروديت » ، اللائى كن يتجاوزن الألف عددا ، وكن يعرفن بـ « الكاهنات » أو « خادمات المعبد » .. وكانت ارض القلعة — وهى أقوى معقل فى المدينة — تضم معبد « افروديت » ، وقد حفت به أسوار من الكتل الحجرية الكبيرة . ويراه القادمون — فى البحر — من مسافة بعيدة .. وقد أقام الأتراك — أثناء احتلالهم بلاد اليونان — مسجدا فوق موقعه !

اهداء الفتيات الى معبد ((افروديت)) !

● **ومن** طريف ما يؤثر ، أن « اكسينوفون » بن « تثيسالوس » — وكان من أغنى نبلاء (كورنثه) ، نذر للربة « أفروديت » أن يكرس مائة فتاة لخدمتها فى المعبد ، اذا هو فاز فى المباريات الأوليمبية ، فى سنة ٤٦٤ قبل الميلاد . وقد بر بوعده عندما فاز ، فنظم الشاعر « بيندار » — وكان من أعظم شعراء اليونان — قصيدة لم تلبث أن أصبحت انشودة على كل لسان ، وقد جاء فيها :

((أيتها المشتهيات المنشودات فى (كورنثه) الغنية ،

يا أخلص الوفيات ل ((بيبيتو)) ـ الغواية والاغراء ـ يا من ترسلن دموع العطر الذهبية ، وسحائب البخور فى تقوى وخشوع ، وتتجهن بارواحكن محلقات الى ((افروديت)) ام الحب السماوية ، التى تكفل لكن ـ من السماء ـ الصفح الجميل والغفران العذب .. يا من تتضرعن ، كى ترتشفن رحيق فاكهة الشباب الغض ، فى مباهج الغرام .. لقد ساق ((اكسينوفون)) الى بستان الملكة القبرصية (افروديت) مائة فتاة ، برا بوعده)) !

وفى مجتمع هذه نظرته الى البغاء ، كان من الطبيعى أن يزدهر الادب الذى يدور حول هذه الظاهرة الاجتماعية الجنسية ، وحول « كاهنات افروديت » ، و « كاهنات فينوس » .. والواقع أن الأدب الذى تناهى الينا ـ فى هذا المجال ـ راخر ، متعدد الالوان .. وكم من مسرحية كوميدية ونسجها مؤلفها لتصوير احدى هؤلاء الغوانى ، أو لتقوم بتمثيل أهم دور فيها غانية ذات شهرة فى زمنها !

((تاييس)) عشيقة الاسكندر المقدونى

وزوجة بطليموس !

● ولعل التمثيلية التى وضعها « فريكراتيس » ـ تحت عنوان « كوريانو » ـ من اطرف هذه « الكوميديات » موضوعا .. اذ تدور حول أب وابن هاما معا ـ وفى وقت واحد ـ بحب احدى الغانيات ، وراحا يتنافسان على التقرب اليها ، ويتصارعان على الحظوة لديها ..

ومن « الكوميديات » التى وضعت خصيصا لارضاء غانية معينة ، وأطلق عليها اسم هذه الغانية : « ثالاتا » لديوقليس ، و « أوبورا » لألكسيس ، و « فانيون » لميناندر .. وقد خلد « ميناندر » غانية اخرى فى مسرحية وصلته

الى العصر الحديث ، وان تناولتها الأقلام بالتحوير والتعديل ، من جيل الى جيل .. تلك هى « تاييس » الأثينية ، التى كانت عشيقة الاسكندر الأكبر ، والتى كانت من أقدم الغوانى اللائى استغللن سلطان جمالهن فى المسائل السياسية .

ومما يروى عن تأثير « تاييس » على الاسكندر ، أنها صحبته فى معركة (جوجاميلا) ، التى انتصر فيها الفاتح الاغريقى على الفرس ، ودخل بابل غازيا ، واستولى بعدها على العاصمة الفارسية القديمة (برسيبوليس) .. وهناك أقام مأدبة هائلة ، احتفـالا بالنصر ، أريقت فيها الخمور أنهارا ، وحضرها عدد كبير من الغوانى ، كانت « تاييس » أجملهن على الاطلاق .. **وعندما شعشعت الخمر فى الرؤوس ، وجرى الدم حاميـا فى العروق ، صاحت « تاييس » فى الاسكندر أن الوقت قد حان ليتوج أمجاده باشعال النار فى القصر الملكى الفارسى ، انتقاما لما فعله الفرس بالمعابد والمقدسات الاغريقية فى (أكروبوليس) و (أثينا) فى عهد « اكزيركسيس »** .. وسرعان ما تحمس الجميع .. وعلى أنغام الموسيقى ، أشعلت النار فى القصر ، وكان الاسكندر صاحب أول مشعل ألقى فى القصر ، وكانت « تاييس » صاحبة المشعل الثانى !

ولقد ارتفعت « تاييس » ـ بعد موت الاسكندر ـ الى مكانة الملكة ، اذ تزوجت من بطليموس الأول ، الذى آل اليه حكم مصر .

عشيقة الملك تترك آثارها على ذراعيه !

● ومن أشـهر « الأنيسات » الاغريقيات « لاميـا » الأثينية ، التى كانت عازفة قيثارة ، وراعية للفنون ، فى عهد « ديمتريوس بوليوكريتس » . وقد اكتسبت شهرة وثروة طائلة ، حتى أنها أعادت تشييد معرض الصور فى (سيسيون)

ـ على عشرة أميال الى الغرب من (كورنثه) ، بعد تدميره ..

ويروى « بلوتارخ » أن « ديمتريوس » أوفد مرة فريقا من السفراء لمفاوضة حاكم كان على شقاق معه . وبعد أن انتهت المفاوضات السياسية ، لاحظ السفراء على ذراعي الحاكم وساقيه آثار جروح وندوب . فلما سألوه عن سببها ، قال انها عضات أسد اضطر الى أن يصارعه يوما .. وهنا ضحك السفراء وقالوا ان ملكهم كان يحمل آثارا وندوبا كهذه ، من وحش خطير ، يدعى « لاميا » !.. وكانوا يقصدون الغانية ، عشيقة الملك !

وفى التاريخ الاغريقى « أنيستان » تحملان اسم « لائيس » . كانتا من أشهر الغوانى .. وكانت كبراهما تعيش فى (كورنثه) أيام حرب (البلوبونيز) ، وقد عرفت بجمال باهر ، وجشع لا يفتر . وكان كثير من كبار الاغريقيين يتهالكون على بابها !.. أما « لائيس » الصغرى ، فقد ولدت فى (صقلية) ، وكانت ابنة « تيماندرا » صديق « السبياديس » . وقد تنافس على حبها أشهر الشعراء والفنانين . ولقيت مصرعها قتيلة بأيدى الحاقدات عليها لجمالها !

تمثال لغانية وسط تماثيل الأبطال والملوك

● وبين تمثالى الملك « أرشيداموس » والبطل « فيليبوس » ـ فى (دلفى) ـ أقام الاغريق تمثالا للغانية « فيرنى » ، دون أن يجدوا فى ذلك آية غضاضة . وقد روينا ـ فى الحديث عن صدور النساء ـ كيف أن جمال صدر « فيرنى » أنقذها من الاعدام ، أثناء محاكمتها .

وقد ولدت « فيرنى » فى مدينة (طيبة) اليونانية ، وكانت مثالا للجمال الكامل ، وقد اعتادت أن تستر هذا الجمال تحت أثواب سميكة لا تكشف حسنه . ولم تكن

تتردد على الحمامات العامة ، كما أن رؤيتها عارية كانت من اندر الأمور . ويروى أنها لم تكن تتعرى الا فى الاحتفال بعيد « بوسيدون » . **فاذا ما اشتد تزاحم الاغريق ــ الوافدين من كافة ارجاء اليونان ــ على شاطىء البحر ، نضت ((فيرنى)) عنها ثيابها ، وسرحت جدائل شعرها ، ثم وقفت لحظات ليتأملها القوم عارية ، وقفزت بعد ذلك الى البحر .. وقد أوحى هــذا المنظــر الى ((آبيليس)) بتحفتــه الخالدة : ((أفروديت تبرز من البحر)) !**

وكان صانع التماثيل « براكسيتيلس » مشغوفا بها ؛ وقد استوحى جمالها كثيرا من تحفه . وكثيرا ما حاولت أن تسأله عن أجمل أعماله ؛ ولكنــه كان يراوغهــا ؛ الى أن كان معها ــ ذات يوم ــ ودخل خادم لينهى اليه أن النار شبت فى « الاستوديو » ؛ فقفز « براكسيتيلس » مذعورا ، وصاح : « اذا لم تكن النــار قد أتت على تمثـــالى « ســـاتير » و « ايروس » ، فالخسارة طفيفة ! » .. واذ ذاك ، ابتسمت « فيرنى » واخبرته بأن النبأ كاذب ، وانها كانت حيلة منها لتعــرف ابدع آثاره . وكان جزاؤها أن أهداها تمثـــال « ايروس » ، فأهدته بدورها لمعبد « ايروس » ، وقدر له أن يصبح من أهم المعالم التى كانت تجتذب الناس الى زيارة (طيبة) زهاء قرن من الزمن !

ولم يكن التمثال كل ما قدمتــه هذه الغانيــة لمسقط رأسها .. بل انها انفقت على اعادة بناء أسوار المدينة ، بعد أن كان الاسكندر الأكبر قد هدمها . فكافأها القوم على ذلك بأن نقشوا على الأسوار : **((هدمها الاسكندر وأعادت بناءها الغانية فيرنى))** !.. كما عهدوا الى « براكسيتيلس » بصنع تمثال لها موشى بالذهب ، هو الذى أقاموه بين تمثالى الملك والبطل !

السياسي الذي طلق زوجته ليتزوج غانية !

● من هذا نرى أن الغواني لم يكن مفتقرات الى الذكاء واللباقة والمشاعر النبيلة .. ولعل أشهرهن — في هذا المضمار — هي « اسباسيا » التي فتنت « بركليس » ، وكان سياسيا ورجل حكم واسع الشهرة ، عظيم المكانة ، كما كان زوجا وابا ، في حين أنها لم تكن سوى .. غانية !

ولقد استطاعت ((اسباسيا)) بجمالها ، وبراعتها ان ترقى الى مكانة كبيرة ، فكانت تجمع في بيتها علية القوم في زمنها ، ومنهم ((سقراط)) .. ولقد بلغ الافتتان ببركليس أن طلق زوجته ، ليتزوج من ((اسباسيا)) . وسرعان ما اكتسبت نفوذا سياسيا ، حتى ليعزو اليها ((بلوتارخ)) أنها التي حرضت على قيام الحرب بين (أثينا) و (ساموس) ..
وأتاح تدخلها في الشئون السياسية مادة لمعارضي «بركليس» ، كما أثار استهجانا لدى الشعب ، لا سيما أن الغانية لم تكن من بنات (أثينا) ، وانما ولدت في (ميليتوس) ، كما أن زواجها من « بركليس » — بعد طلاقه من زوجته — لم يكن يتيح لها مكانة الزوجة ، بل كان يجعلها بمثابة المحظية ، أو زوجة « من الدرجة الثانية » !.. **ومن ثم اشتدت عليها الحملات ، حتى لقد قيل انها كانت تتصيد النساء لزوجها .. وقال السياسي ((اثينايوس)) انها كانت تمتلك بيتا للدعارة .. وتبارى الشعراء في وضع ((الكوميديات)) عنها !**

ومن الطبيعي أن مهنة « الرفيقات » أو « الأنيسات » او الغواني ، كانت تتطلب عناية فائقة بالجمال ، وبراعة في اخفاء آثار السنين على البشرة ومعالم الجسم .. وكانت — الى جانب ذلك — تتطلب دراية واسعة بأساليب السلوك ، وبنواحي الضعف في الرجال . ولم يكن الوفاء من الفضائل التي يجب أن يتزودن بها ، بل انهن كن يتلقين — منذ بداية

شأنهن ـ ان الوفاء لا يمكن أن يكون سلما يرقى الى المكانة المنشودة ، وان الكذب يجب أن يكون فنا يمارس ببراعة ، وان الحشمة والحياء ليسا من صفات الغواني !

أم تعد ابنتها لمهنة البغاء !

● وفي « حوار الغواني » ، نجد مناقشة طريفة بين أم وابنتها .. كانت الأم قد فقدت زوجها قبل عامين ، واضطرت الى معاناة الشظف ، ثم لم تجد بدا من أن تدفع ابنتها الى البغاء ..

كروبيل (الام) : وهكذا ترين ، أن التحول الى امرأة ـ بدلا من عذراء ـ ليس بالأمر الفظيع ، كما كنت تخالين .. فقد كنت مع سيد لطيف ، أهداك نقودا ، وسأبتاع لك بجزء منها قلادة .. **وعليك ان تتعلمي كيف تعاملين الرجال ، فليس لنا مورد آخر للقوت .. لقد عانيت الكثير ـ خلال العامين ـ للحصول على غذاء لنا ، ورحت أربيك وأرتقب بصبر وامل** .. كنت أوقن من أنك حين تصلين الى سن البلوغ ستعولينني ، وستثبتين قدميك وتصبحين غنية ..

كورينا (الابنة) : عم تتكلمين يا أماه ؟.. ماذا تعنين ؟

كروبيل : اذا خرجت مع الرجال ، فاشربي ونامي معهم ، من أجل النقود !

كورينا : على غرار « ليرا » ، ابنة « دافنيس » ؟.. ولكنها عاهرة !

كروبيل : ليس هذا بالشيء البغيض ، فانك ستصبحين غنية مثلها ، وسيكون لك عشاق كثيرون . **ما الذي يبكيك ؟ .. ألا ترين كثرة العاهرات ، ومدى تهافت الرجال عليهن ، وما يجمعن من مال ؟** .. لقد كانت « ليرا » في أسمال ، وها أنتذى ترين ما أصبح لديها من ذهب ، وثياب مطرزة ، وأربع خادمات . لقد أحسنت التصرف مع الرجال وأرضت

الجميع .. لم تكن تنفجر بالضحك لأتفه الأسباب كما تفعلين ، بل كانت تبتسم بطريقة عذبة جذابة . ثم انها عاشرت الرجال بحكمة ، فما خدعت واحداً ممن كانوا يأتونها أو يطلبونها ، ولا تعلقت بأحد منهم ، في الوقت ذاته . **واذا ما ذهبت للعشاء مع أحد — بعد أن يقدم لها هبة بسيطة — فانها لا تسرف في الشراب ، لأن الرجال يكرهون النساء اللاتي يخرجهن الشراب عن الوعي .. ولا تملأ بطنها بنهم ، بل تمس الأكل مسا بأطراف أناملها ، وتمضغ في سكون دون أن تحشو شدقيها ، وتشرب في تؤدة ودون افراط ..** ولا تنطق بأكثر مما تدعو الضرورة لقوله ، ولا تضحك من أحد من الحضور ، بل تقصر نظراتها على الرجل الذى استأجرها .. واذا حان أن ترافقه الى المخدع ، تجنبت كل نزق وتبذل ، وجعلت كل همها أن تأسره وتجعله عشيقاً لها .. فاذا تعلمت أنت كل هذا ، فاننا سنعيش في هناء !

وفي حديث الأم ، نجد كل قواعد السلوك التي كان المجتمع الاغريقي يتطلبها من الغانية ..

هكذا أصبح الجنس من الطقوس الدينية !

● **كان** من العادات المتبعة في (كورنثه) — منذ أقدم العصور — ان القوم اذا سعوا الى معبد « افروديت » في موكب كبير ، ليرفعوا اليها الصلوات ، ساقوا معهم أكبر عدد ممكن من الغواني . اذ كانت ممارسة الجنس من الطقوس ، لا سيما عند تقديم القرابين .. ويقول بعض المؤرخين القدامى ، ان هذه العادة ترجع الى أيام أن غزا الفرس بلاد اليونان ، فاتجهت جموعهم الى معبد « افروديت » ، **كما سعت الغواني الى هناك ، ورحن يصلين من أجل خلاص الوطن من أعدائه . وقد أقام أهل (كورنثه) في المعبد لوحة كبيرة ، نقشت عليها أسماء جميع الغانيات اللاتي اشتركن في**

هذه المناسبة ، وجاء فيها : ((هؤلاء الفانيات قد اتحدن فى صلاة صادقة الى الربة القبرصية ، من اجل الاغريق وأبطالهم الشجعان ، ومن ثم لم تشأ أفروديت المقدسة أن تسلم (الاكروبول) الاغريقى للفرس)) •• وأصبح من المعتاد — بعد ذلك — أن ينذر المرء عددا من العاهرات للمعبد ، اذا أراد التقرب الى « أفروديت » !

ومن الواضح هنا أن البغاء — فى المعبد — كان ذا طابع دينى • ولم يقتصر هذا « البغاء الدينى » على معبد « أفروديت » فى قبرص ، بل انه كان شائعا فى كافة معابد هذه الربة فى بلاد اليونان • **ولقد كرس معبد (ابيدوس) الى ((أفروديت)) ، بعد أن استطاعت احدى الفانيات — عندما احتل الأجانب (أبيدوس) مرة — ان تسكر حراس العدو بالحب والخمر ، وأن تسرق منهم مفاتيح القلعة وتسلمها الى المجاهدين ، الذين هاجموا الحراس وهم سكارى ، واستولوا على القلعة وحرروا المدينة •**

ولقد كان البغاء الدينى معروفا — قبل ذلك — فى بابل ، وفى معبد « أفروديت » بعد ذلك ، فى مدينة (بيبلوس) ، وهى مدينة فينيقية كانت تقوم فى موقع « جبيل » الحالية • على أن « هيرودوت » يقول ان هذا النوع من البغاء لم يعد موجودا هناك ، فى أيامه • وفى الوقت ذاته ، ذكر أن العذارى — فى (ليديا) — كن يمارسن البغاء ليجمعن « دوطة » يتوسلن بها الى الزواج !•• وأنه « من أشنع القوانين المرعية فى بابل ، أنه ما من امرأة الا ويجب أن تجلس فى رحاب أو جوار معبد « افروديت » ، وتضاجع رجلا غريبا عنها ، ولو مرة واحدة فى حياتها •• واذا جلست امرأة عند المعبد ، فليس لها أن تعود الى بيتها الا بعد أن يلقى رجل غريب بقطعة ذهبية فى حجرها ، ثم يجامعها خارج جدران المعبد •• واذا ألقى رجل قطعة ذهبية فى حجر امرأة ، فليس لها أن

ترفض مضاجعته ، والا كان رفضها اهانة للربة !.. فاذا فرغت من العملية ، أصبحت المرأة مباركة ، ولم يعد لأى غريب أن يشتريها ، مهما يكن ما يقدمه لها » !

فلسفة ((بغاء المعبد)) عند الاغريق

● ولكى نفهم تقليد « بغاء المعبد » عند الاغريق ، نذكر انه يقوم على فكرة ان « أفروديت » لا تكتفى بأن تمنح بهجة الحب ، وانما هى تأمر الاناث جميعا بأن يساهمن فى تحقيقها . واذا كسبت الفتاة صداقها من البغاء عند المعبد ، فان زواجها يكون مباركا . **اما اذا وهبت الفتاة نفسها نهائيا للبغاء وأسلمت مكاسبها لصندوق المعبد ، فان هذا يكون منها نوعا من التقوى التى تقربها الى الربة مانحة الجمال والنضوج والخصوبة للاناث** .. وفى فترات كثيرة ــ من تاريخ الاغريق ــ كانت الفتاة التى تمنح نفسها لزوجها قبل الزواج ــ وفى رحاب المعبد ــ أعز مكانة من تلك التى تحمل بكارتها معها الى بيت الزوجية !

وكانت الفتيات اللاتى يكرسن أنفسهن للبغاء فى المعبد ، لا يقتصرن على ممارسة الاتصال الجنسى مع الرجال ، بل كن يضفين بهجة وتألقا على أعياد الربة ، بالرقص والغناء وعزف الموسيقى ..

وكان هذا هو الشأن فى البغاء العادى ــ عند الاغريق القدامى ــ كذلك . فان البغى لم تكن تكسب عيشها فقط بتكريس نفسها لارضاء رغبات الرجال ، بل كانت بعملها تساهم فى تكريم الجمال .. **ولكى نفهم هذا ، يجب ان ندرك ان الحضارة الاغريقية لم تكن ترى فى البغاء منكرا ، بل ان بعض من كانوا موضع تكريم الرأى العام ــ مثل ((تيمستوكليس)) ــ كانوا أولاد بغايا ، ولم ينل هذا من سمعتهم او مكانتهم !.. وكان للفيلسوف ((ارسطوطاليس))**

ابن من بغى تدعى ((هربيليس)) ، ظلّ يحبها حتى نهـــاية حياته . وكان ((افلاطون)) مدلها فى هوى ((أركيانانسا)) ، وهى من أجمل غوانى (كولوفون) . وقد أوردنا من قبل نبأ غرام « بريكليس » بالبغى « اسباسيا » وزواجه منها . وقد كانت لهذه البغى علاقة كذلك بالفيلسوف « سقراط » .

يضاف الى ذلك ، أن القوم لم يكونوا يجدون حرجا فى أن يسجلوا « أمجـاد ! » البغى على قبرها .. ويقــول « ديكاياركوس » فى كتابه « الهبوط الى كهف تروفونيوس » :

« يرى المسافر الوافد على أثينـــا ـ من ايليوسيس ـ بالطريق المعروفة بالطريق المقدسة ، منظرا عجبا .. فعندما يصل الى الموقع الذى يتراءى له عنده ـ لأول مرة ـ معبد أثينا ، وتتكشف المدينة أمامه ، يرى فى الطريق ضريحا سامقا يعلو على كل ما يحيط به . **وسيظن المســافر ـ فى بادىء الأمر ـ أنه ضريح أحد عظماء أثينا ، وسيعتقد أنه أنشىء على نفقة الدولة .. فماذا يكون شعوره ، اذا ما علم أنه ضريح عاهرة تسمى بايثيونيكه ؟ »**

وكانت هذه البغى فاتنة حاكم بابل ، أيام الاسكندر المقدونى . وقد انتهز الحاكم ـ وكان يدعى « هاربالوس » ـ انشغال الاسكندر فى فتوحاته ، وحمل معه ذهبا كثيرا من بابل ، وهرب الى (أثينا) ، وراح ينفقه على فاتنته .. وبعد موتها ، أقام لها هذا الضريح !

عشق الذكور عند الاغريق

● **أكثر** الكلمات شيوعا ، فى تسمية هذا النــوع من العــلاقات التى تنشــأ بين ذكر وآخر من جنســه ، هى Paederasty . ولو أننا رجعنا الى الأصــل اليونانى الذى اشتقت منه هذه الكلمة ، لوجدناها مؤلفة من كلمتين « حب »

و « فتى » .. والحب هنا بمعناه الشامل ، أى الروح والحس . أما الاشتهاء الجنسي لدى ذكر لذكر آخر ، فكان يسمى Paedomanic . والتعبيرات الغالبة التى تصادفنا — فيما خلفه الاغريق — توحي بأن **« حب الفتيان » كان ينطوى على حب كل ما هو جميل فى « الفتى » من ميزات عقلية وبدنية ، ومن ثم فان الاشتهاء — أو الحب الجنسي — لم يكن هو الغالب** .. وكان الحب يتضمن أن ينفث المحب فى محبوبه ما يود تلقينه اياه من معرفة وقيم ومبادىء . وفى هذا يقول اكسينوفون : « اننا اذ ننفث حبنا فى الغلمان الملاح ، انما ننأى بهم عن الجشع والبخل ، ونضاعف حبهم للعمل ولمغالبة الصعاب وخوض المخاطر ، ونعزز تواضعهم ومقدرتهم على ضبط النفس » !

لا بد من النضوج الجنسي للمحبوب !

● وليس معنى هذا أنه لم يكن للحب الجنسي وجود .. ومن المهم أن نذكر دائما — ونحن نستعرض هذا الموضوع — **أن « المحبوب » أو « الحمل » ، كما كانوا يطلقون عليه ، لم يكن قط فى سن الطراوة ونعومة الاظافر ، وانما كان دائما من ذوى النضوج الجنسي ، الذين وصلوا الى مرحلة البلوغ** . ويجب أن نذكر — بجانب هذا — أن اليونان تقع فى المنطقة التى تتيقظ فيها المشاعر الجنسية مبكرة ، وهذه المنطقة تضم : اليونان ، واسبانيا ، وايطاليا ، وجنوب فرنسا ، والشرق الأوسط ، وشمال افريقيا .. ومن ثم فان الفتى غالبا ما يكون فى أوائل أو وسط العقد الثانى من العمر . **ولهذا ، فان الحب الجنسي وممارسة الجنس مع أولاد دون البلوغ ، كان موضع استنكار وعقاب** .

ولقد وصف « هوميروس » فى « الأوديسة » كيف أن « أوديسيوس » ارتاد جزيرة (سيرس) وأوغل فيها ، فاذا

به يلتقى بالرب « هيرمز » ــ دون أن يعرفه طبعا ــ فى صورة فتى « وقد نبتت فى ذقنه بوادر اللحية ، فزادت سحر صباه حسنا » .

ويشير « أفلاطون » الى عبارة « هوميروس » هذه ، فى بداية كتابه « بروتاجوراس » ، اذ يقول : « من أين أنت آت يا سقراط ؟.. وان كنت فى غير حاجة للسؤال ، لأننى أعرف أنك كنت تطارد « ألسبياديس » المليح . لقــد رأيته أول امس ، وقد أوتى لحية .. ولى أن أهمس فى أذنك بأنه رجل ، ومع ذلك فقد خيل الى أنه لا يزال جد فاتن !

« **سقراط** : وما بال لحيتــه ؟.. ألست من رأى هوميروس ، الذى يقول أن « الصبا يغدو أعظم فتنة ، عندما تبدو بوادر اللحية » ؟.. وهذا هو مبعث سحر ألسبياديس الآن ! »

ويقول ستراتون : « لكم يطربنى ازدهار الصــبا فى ابن الثانية عشرة ، ولكن ابن الثالثة عشرة مرغوب أكثر منه . ويظل ابن الرابعة عشرة نبعا دافقا لأنواع الحب ، وان كان ابن الخامسة عشرة أكثر سحرا . أما ابن السادسة عشرة ، فهو مشتهى الأرباب ، ولست أرغب فى ابن السابعة عشرة ، وان كان هو هوى الرب « زيوس » وحده . أما اذا تاق المرء الى من هو فوق هذه السن ، فان الحب هنا لن يكون مجرد عبث ، بل هو يتطلب استجابة ، وأخذ وعطاء » !

حب الفتيان مظهر لامتياز الرجل على المرأة

● ولا بد من أن نضع نصب أعيننا ــ فى هذا الجزء من البحث ــ ان الثقافة الاغريقية القديمة كانت تقوم أصلا على الذكر . أما الأنثى فكانت كل مهمتها انجاب الأطفال وتدبير البيت . **وبالتالى ، كان الرجل هو مركز الحياة الفكرية . لهذا كانت العناية الأولى موجهة الى تربية الولد وتعليمه .**

وكانت من اغرب عاداتهم أن يجتذب الرجل اليه غلاما أو فتى يرافقه في حيـــاته اليومية ، ويكون له ناصحا ، وموجها ، وراعيا ، وصديقا يدفعه الى فضائل الرجال . وقد بلغ من تاصل هذه العـــادة في نفوسهم ، أن انصراف أي رجل عن رعاية ولد كان يعتبر انتهاكا للواجب ، وأن انصراف أي ولد عن شرف صداقة رجل كان يعتبر عارا !

وكانت رعاية الرجل الولد تتجه الى فهم عقله ونفسه ، والى تربيته جسميا وعقليا وروحيا على أكمل وجه .. وكان الكمال في الذكر يتمثل في أن يكون ((طيبا وجميلا)) وأن يكون جماله شاملا للجسد والعقــل والنفس . وكان الاهتمام بجمال الجسم يجعل الاغريقي يقضي ثلاثة أرباع نهـــاره في الملاعب الرياضية ، يمارس التمرين عاريا ..

ويحفـــل التراث الأدبي الاغريقي بالأحاديث عن المتعـــة الجمالية التي كانت عين الاغريقي تستمتع بها بتأمل جمال الفتيان .. وكان الشعراء يتغنون بهذا الجمال ويمجدونه ، كما أن الفنانين كانوا يرون في جمـــال الذكور تجسيدا لكل جمـــال دنيوي على ســـطح الأرض .. وكانت أسماء أبرع الفتيان جمالا تكتب على بعض التحف الفنية ـــ كأوعيـــه الزهور ـــ من قبيل الزخرفة والتمجيد معا .

وكانت العينان أبرز معـــالم الجمال في الذكور ، لدى قدماء الاغريق ، وكم تغنى الشعراء بسحرهما وفتنتهما .. وتليهما الوجنتان ، اللتان قال الشـــــاعر ((فرينيكوس)) في وصفهما : ((يشـــــع على وجنتيه وهج الحب)) ، وقال سوفوكليس : ((ان ايروس يســـــهر على صون الخـــدود الناعمة)) .. ويأتي شعر الفتى في المرتبة التالية . ويروى عن ((بوليكريتس)) ـــ حاكم (ساموس) ـــ انه لم يكن يمل النظر الى جدائل شـــعر ((سمرديس)) الفتى الجميل الذي

اصطفاه لنفسه .. ولكنه فى نوبة من الغضب والغيرة ، أمر بقص الشعر الجميل ، حين رأى الفتى يغتر به !

بغاء الذكور لا يقل رواجا عن بغاء الاناث

● والرأى القديم فى الحب ، هو أنه « النزوع لكل ما هو جميل » .. واذا كنا قد أبرزنا هـذا على ما سواه ـ حتى الآن ـ فليس معناه أن حب الاغريق للذكور كان منزها عن كل ميل حسى أو نزعة جنسية . بل ان منهم من كان يرى فى العلاقة الجنسية تنمية للحب وزيادة فى اثراء العاطفـة . كما ان الايناس والمنادمة يدخلان فى العلاقة بين ذكر وذكر . ومن ثم فان حب الاغريق للغلمان والفتيان يبـــدو للرجل الحديث أشبه بلغز غير واضح .. ولكن الواضح أن انعكاس هذا الحب على الأدب الاغريقى ، جعله من دعامات ثقـافة القوم ، ومن الوجوه التى تتبدى بها حضارتهم .

وفى كل الأزمان والأقوام ، نجد أن من الحب ما يمكن شراؤه بالمال . ومن ثم فان حب الاغريق للذكور لم يشذ عن هذه القاعدة ، حتى لقد شهدت الحضارة الاغريقية « بغاء » بين الذكور ، لم يكن أقل شأنا من دعارة النساء . وكان بغاء الذكور متفشيا فى (أثينا) ، حتى ان ((سولون)) ـ الفيلسوف والشاعر والسياسى الكبير ـ حرم اللواطة على العبيد ، لأن فى ممارستها مظهرا من أبرز مظاهر ((حرية الارادة)) .. وضمن تشريعه ـ فى الوقت ذاته ـ عقابا لمن يتخذون من جمالهم تجارة وحرفة .. بل انه اعتبر أن ((من يبيع جسمه لقاء مال ، يفرط بنفس الاستهتار فى مصالح الدولة)) !

وبوجه عام ، فان عشق الذكور كان مبـــاحا فى أغلب الأوقات ـ عند الاغريق ـ اذا قام على « الميل المتبادل » بين ذكرين .. ولكنهم كانوا يستنكرونه اذا قام على أساس البيع

الشراء .. ومع ذلك ، فكم حفلت القصائد ـ التى خلفها شعراء قدامى ـ بالشكوى من جشــع « صبيانهم » ، ومن جمهم الى المال .

ومن ناحية اخرى ، لم يكن مما يعاب ان يتهافت الغلمان الفتيان على الرجال الذين يبرزون بين اقرانهم ، كابطال الرياضة ، والشعراء ، وذوى المال والملاحة ..

غلمان يؤجرون للرجال بموجب عقود !

● وكذلك لم يحـل استنكار الحب القائم على المال ، دون أن يكون هناك غلمان يباعون ، أو يؤجرون ـ بعقــود ايجار تتفاوت آجالها ـ لمن يهوون جمال الذكور من الرجال .. كما كانت فى (اثينا) وبعض المدن الساحلية ، دور للبغاء يعمرها الذكور ، كدور العاهرات تماما . على أن اكثر سكان هــذه الدور كانوا من أسرى الحــرب .. ومن ابرز هؤلاء « فيدو » الذى وقع أسيرا فى أيدى أهل (اسبارطه) فى حربهم مع أهل (ايليس) ، فباعوه للأثينيين الذين أودعوه دارا للدعارة ، حتى أغرى سقراط أحد اتباعه بأن يشتريه !

وبرغم كل هذه الحقائق ، فان الناحيــة الجمالية كانت اكثر غلبــة على الناحيــة الحسية ، فى عشق الذكور لدى الاغريق .. وكان الأساس فى علاقة الرجل بصبى او فتى ، هو تربية هذا الصغير ليحرز الفضائل التي يجب ان تتوفر فى الرجل .. وكان العاشق مسئولا عن فتاه ، حتى ان بعض المدن الاغريقية كانت تعاقب العاشق ، اذا صرخ فتاه اثنــاء القتال مع اى عدو !.

ونستخلص من كل ما قيل فى هذا الموضوع ، أن حب الغلمان كان شائعا عند الافريق ، وكان اصلا يقوم على أسس دينية وجمالية . وكانت غايته هى الوصول الى المقدرة على

احراز الفضائل الشخصية والاجتماعية : ولم يكن عشق الغلمان يتعارض مع الزواج ، بل كان مكملا له ، كعامل مهم فى التربية والتعليم .. وكان القوم يعتقدون أنه أبقى انواع الحب ، وانه يدوم حتى بعد الموت .. وكان — فى كثير من الأحيان — يخلو من العلاقة الجنسية ، ويتخذ شكل الصداقة الأثيرة ، وان كان عشق الغلمان — بمعناه الجنسى — يصادفنا فى الحضارة الاغريقية منذ أقدم عهودها .

ختام البحث



الجسر المعلق (بقية ص ٧٦)

استطاعت — قال حسن يبشر المهاجرين بأنهم خليقون بأن يبلغوا (يين دا) ، دون ما خسارة !

ولكن القنابل عادت تستأنف انهمارها فجأة ، وقد ازدادت قربا .. وقبل أن يجد أحد فرصة للانبطاح على الأرض ، انفجرت قنبلة كبيرة وسط الجموع المتزاحمة أمام الجسر .. وفى غمرة الاضطراب الجنونى ، أخذ الكثيرون يلقون بأنفسهم فى مجرى الماء .. بينما تدافعت أعداد كبيرة الى الجسر ..

والتفتت السيدة — وقد بلغت منتصف الجسر — خلفها ، وقد شل الذعر حراكها .. وتشبثت مستميتة بسياج الجسر الذى راح يتأرجح فى عنف تحت تدافع القادمين .. وفجأة ، مالت احدى السلتين بانحراف شديد ، فاختل توازن العصا على كتف السيدة ، وسقطت مع السلتين الى الماء ..

وضاع صراخ الأم فى غمرة صخب الناس ، ودوى القنابل !





ترجمة : جورج عزيز

صورة من جهاد الشعب البلغارى

هذه القصة تنقل لنـــا صفحة من صفحات حرب من الحروب العديدة التى اضطرت (بلغاريا) الى خوضها ، بعد استقلالها ، فى أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين .. صفحة مجيدة من صفحات الجهاد القومى ، ولكنها ــ فى الوقت ذاته ــ مأســاة انسانية حافلة بالمشاعر والانفعالات المثيرة ..

والقصـــة من أروع ما كتب ((ايفان فازوف)) ، الذى يعـــده البلغاريون ((شيخ الادب البلغـــارى)) ، والذى أطلق عليـه كاتب روسيا الخالد ((مكسيم جوركى)) لقب : ((شاعر البعث البلغـارى الناضل)) ، اذ عكست أعماله عقلية ونضـــال دعاة التحرر الوطنى والثوار ، وقد نظم عددا كبيرا من القصائد ، ضمتها دواوين : ((الراية والربابة)) ، و ((مصائب بلغاريا)) ، و ((الخلاص)) ، و ((ملحمـــة المنسيين)) ، و ((امرأة من زاجورا)) .. كما كتب كثيرا من القصص والروايات ، أشـــهرها : ((جوابو الافاق)) ، و ((رجال التربة)) ، و ((الثوار)) ، و ((تحت النير)) .. وهذه الرواية الاخيرة أذاعت صيته فى أرجاء العالم .. وقد ترجم كثير من انتـــاجه الى لغـات عديدة ، كما تعد قصائده وأغانيه من تراث بلغاريا الثقافى .

وفى سبيل أداء رسالتـــه القومية ، خاض ((فازوف)) أغلب ميادين الادب ، فهو رائد القصة البلغارية القصيرة ، ورائد الرواية التاريخية ، وأول شعراء الوطنية .

● ياله من ضباب ! .. ضباب كثيف خيم على قـــرية (فيترين) فى ذلك الخريف . كان الجو رطبا نديا ، بعـــد أن تساقط مطر خفيف ، وبدت السماء كأنها ذابت واستحالت الى بخار بارد ، اشتدت وطأته على البيوت المنخفضة فى القرية .. بيد أن كل شيء كان قائما على قدم وســاق فى الشـــارع

الوحل : طنين اصوات عالية ، وتيار مستمر من جماهير المارة، وعربات ركوب تجرها جياد قصيرة حزينة ، وعربات نقل محملة بالذخيرة تجرها الثيران ، ومواش تسد الشارع بين الفندقين الصغيرين ، اللذين هما أقرب الى النوع الذى يطلق عليه « الخان » .

وفى وسط هذا الخليط ، شقت وحدة من الجنود طريقها .. كان عدد قليل من افرادها يرتدى معاطف الجنود ، واخرون يتدثرون بمعاطف من جلد الغنم المقلوبه ظهراً لبطن ليكون الفراء الى الخارج . اما أكثرهم كانوا ملتحفين ببطاطين رثة بالية صنعوا منها ما يشبه « الحرامل » ، ونعالهم مبتلة ، وكلهم مثقلون باحزمة الرصاص .. بينما كانت بنادقهم ــ التى تزينها غصون شجر (البقس) ــ تطل من فوق مناكبهم .. وكانت اجسامهم توشك أن تتجمد ، بينما أقدامهم تغوص فى الطين حتى الركبة ، والعاصفة تقذف وجوههم بحبات البرد المتساقطة . لكنهم ــ رغم ذلك كله ــ كانوا يغنون .. وكانت اغانيهم تعبر عما فى صدورهم من مشاعر وآمال !

● ●

● وعند باب احد الفندقين وقفت جماعة من الضباط والمسافرين ، ومن حولهم بعض القرويين يتفرسون ــ فى دهشة وفضول ــ فى وجوه أولئك الذين بلل المطر ثيابهم .. وامام الفندق أو « الخان » الآخر ، وقفت جماعات متفرقة من السيدات والفتيات والصبية : كانوا جميعا متدثرين بالحرامل يرتجفون ، وقد احمرت وجوههم من قسوة البرد . وقد احتشدوا فى هذا المكان ليستقبلوا ويودعوا الجنود المحنكين المخضرمين الذين كانوا يمرون ، ضمن الفصيلة القادمة من (هرمانلى) ، حيث كانوا قد ذهبوا لمحاربة الاتراك . وكان عليهم ان يتجهوا بسرعة الى (صوفيا) ، ومن هناك إلى ميدان القتال لمحاربة الصرب .

.. وسمعت صيحات بين جماعات الواقفين :

ــ ها هو ذا ابن « جورجي » !.. نتمنى لك حظا سعيدا يا « تشغيتكو » .

ــ أوه !.. انظروا هناك .. انه « رانجيل » !

ــ أوه !... وهذا هو ابن « نيديلكا » أيضا !.. انظر يا « ايفان » ، ان أمك هنا .

وفي لهفة وسرعة قدمت باقات الزهور ، بينما كانت الدموع تبلل الخدود والألفاظ تنبعث من الأفواه غير مكتملة .. وظل الجنود في سيرهم ماضين .

وصاحت فتاة صغيرة شقراء متوردة الخدين ، تضع وشاحا زاهي الألوان : « أماه .. هو ذا أخي ! » .. وهتف أخوها الصغير الذي يناهز الثامنة ، وهو واقف الى جوارها مادا ذراعيه الى أحد الجنود : « أخي سنويان ! » .. وصاحت أمه بالجندي ، من خلال دموعها : « ابني ..! ! ابني ! ! »

وعندئذ خرج من الصف شاب قوي أنيق ، ذو عينين سوداوين ، فقبل يد أمه ، وطبع قبلة على جبين كل من أخته وأخيه .. ثم ثبت وردة صغيرة في عروة سترته ، ووضع خلف أذنه وردة أخرى قدمتها اليه فتاة صغيرة ، وأخيرا أسرع الخطى ليلحق بالجنود ويشاركهم ترديد الأناشيد من جديد ..

وقالت له أمه : « ليحالفك الحظ السعيد يا بني ! » . وصاحت الفتاة بصوتها الخافت : « سنويان ! » .. بيد أن صوتيهما غرقا في الجلبة والضوضاء . واختفى « سنويان » أو كاد بين الجنود ، وما لبث الجنود كلهم أن اختفوا وراء الضباب !

وظلت الأم تحدق فيهم بعينين لا تريان شيئا !.. بينما أحاطت الفتاة رأسها ووجهها بالوشاح الزاهي الألوان .. وعندما دخلت الأم بيتها انفجرت باكية ، ثم فتحت خزانة

ثياب قديمة واخرجت منها بعض الثياب الداخلية ، وجاءت بشمعة وثبتتها امام الأيقونة المقدسة واشعلتها .. ثم راحت تصلى بحرارة وهي مطرقة طول الوقت فى خشوع .

.. فى ذلك الوقت كانت المدافع تقصف بالقرب من (دراجومان) .. وكان ذلك فى الرابع من نوفمبر سنة ١٨٨٥ .

— ٢ —

● وفى تلك الليلة ذاتها ، رات الأم « تسينا » — فى منامها — حلما مفزعا !.. رات سحابة ضخمة ، يتوغل الجنود فيها ، و « ستويان » بينهم .. أوه يا سيدتى العذراء الطاهرة !.. ما أبشعه من منظر ! السحابة تقعقع وتدمدم ، والانفجارات تملأ السماء ، والأرض تهتز وترتج .. اذن لقد استمرت المعركة !.. **رباه !.. لقد ضاع « ستويان » وسط السحابة ، ولم يعد له وجود !**

وحينما استيقظت الأم « تسينا » ، كانت الظلمة حالكة مطبقة ، ولم يكن يسمع فى الخارج سوى عويل الريح .. فهتفت : « انها المعركة .. أيها السيد المسيح اشمله بحمايتك !.. سيدتى العذراء الطاهرة ، ارحمى ستويان ..! »

ولم تعاود النوم الا مع بزوغ الفجر ..

وفى صباح اليوم التالى ، سالت العم بيتر : **« ما معنى السحابة فى الحلم ؟ »**

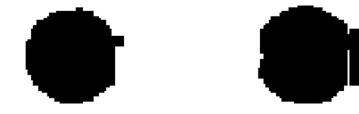
— السحب !؟.. هناك نوعان : سحب تتحول الى امطار ، وسحب تذوب . ما نوع السحابة التى حلمت بها ؟

.. وروت له قصة الحلم . ولاذ العم بيتر بالصمت هنيهة ليفكر .. لم يتذكر انه قرا فى الكتاب الذى عنده عن الأحلام اشارة الى سحابة من هذا النوع !.. واذ راى امارات الجزع مرتسمة على وجه الأم — وهى تتطلع اليه ملهوفة شبه لاهثة — قال لها فى اشفاق : « لا تنزعجى يا « تسينا » .. انه حلم

طيب . أن السحابة معناها أنباء طيبة أيضا .. سيصل اليك خطاب من ستويان » .. وعندئذ أشرق وجه العجوز !

وبعد ستة أيام تلقت خطابا حمله اليها أحد أصدقاء ستويان ، من المتطوعين المنوط بهم حراسة الأسرى ..

انشرح قلب « تسينا » الحزين بهذا الخطاب وامتلأ بالفرحة ، فانطلقت تجرى بأقصى سرعة تسمح بها عظامها الهرمة ، الى ستويانكا ، خطيبة ابنها .. وغمرتهم البهجة جميعا ، بيد أن « رادولشو » كان أشدهم ابتهاجا حينما علم أن أخاه سيشرح له كيف تصفر القنبلة اليدوية !



● وما ان خرجت الام « تسينا » الى الشارع ، حتى رأت جماعة من الاسرى ، وخلفهم جندى بلغارى خيل اليها انه « ستويان » نفسه ، اذ كان يشبهه الى حد كبير . لكنه لم يكن هو .. بيد ان الاسرى ـ الذين وقع عليهم بصرها لاول مرة ـ شغلوا انتباهها ، فاخذت تحدث نفسها هامسة : « يا الهى !.. اهكذا يبدو الصربيون ! ؟.. انهم يبدون اناسا طيبين ، ولكم اشفق على امهاتهم !.. ترى هل يعرفن اين هم الآن ؟.. ثم رفعت صوتها تناديهم : « أيها الشبان .. انتظروا قليلا ! »

واسرعت الى بيتها ، ولم تلبث ان عادت حاملة زجاجة « راكيا » (١) ، وأهابت بالجنود الصربيين أن يقفوا لتقدم لهم شيئا منها . ولم يسع الجندى البلغارى ـ المرافق لهم ـ الا أن يبتسم ابتسامة عبرت عن طيبة قلبه .. واوقفهم عن السير .

وصاح الاسرى المرهقون ، بعد أن أشاعت « الراكيا » الدفء فى أجسامهم ، معربين للام « تسينا » عن اعترافهم بجميلها : « شكرا لك .. شكرا لك » .. كما صاح الجندى البلغارى فى انشراح : « لقد بقيت لى أيضا جرعة .. فى صحتك ايتها الجدة ! »

وتساءلت الام « تسينا » ، بعد أن مضى الرجال فى طريقهم : « انهم جميعا مسيحيون مؤمنون بالله .. فماذا دفعهم الى القتال ؟ »

---

(١) شراب مصنوع من عصير البرقوق .

— ٣ —

● وتم توقيع الهدنة ..

ودنا عيد الميلاد ، وبدأ الجنود يعودون لقضاء عطلة العيد مع ذويهم . وعاد الى قريتنا (فيترين) نفسها عدد من الجنود ، ولكن « ستويان » لم يكن بينهم .. واستبد القلق والانزعاج بالأم « تسينا » ، وامتلأ ذهنها بأفكار بشعة ..

وأخذت الأيام تتعاقب ، والأم لا تكاد تحول نظرها عن باب البيت ، ترقب العائدين اثناء مرورهم بدارها .. لقد عاد رانجيل ، وستويتوف ، ثم بيتر ـ ابن دينكو ـ والأخوان ستامانوف .. وفى كل مرة كانت تنهض من مكانها وتخرج لتسأل عن ابنها ((ستويان)) .. ولكن احدا لم يكن يعرف عنه شيئا !.. لقد شاهدوه فى ميدان القتال فى وقت من الأوقات ، ولكنه لم يلبث ان اختفى !.. وكان قلبها يوشك ان يكف عن النبض كلما سألت عنه ، ثم تروح تذرع البيت جيئة وذهابا فى قلق .. دون ان ينقطع تفكيرها فى ستويان !

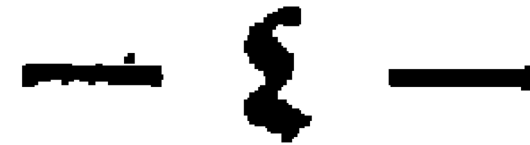
واخيرا .. دخلت ابنتها « كينا » مهرولة لاهثة ، وهى تصيح : « أماه ، لقد عاد العم ديمتر ! » .. فانتصبت واقفة ، واسرعت ملهوفة نحو ديمتر قائلة : « مرحبا بك يا ديمتر .. اين تركتم ستويان ؟ »

ولم يكن ديمتر يعرف عنه شيئا هو الآخر ، ولكنه قال مشفقا على الأم : « من الجائز ان يكونوا قد أرسلوه صوب (فيدين) .. ثم غمغم الجندى فى اضطراب : « وربما يكون عائدا من طريق آخر » !

... فتنهدت قائلة : ((يا الهى .. اين يمكن ان يكون ولدى ؟)) ..

وعاودت الخروج لتلتقى بمحبوبة ابنها « ستويانكا » .. ولكنها لم تكد تصل الى الباب ، حتى اشتدت دقات قلبها

مرة اخرى ، تحت تدافع الأماني .. كانت تأمل أن تذكر لها « ستويانكا » أنها تلقت رسالة من « ستويان » ، وأنه قادم للاشتراك معهم فى الاحتفال بعيد الميلاد !.. كانت تتمنى أن تنبس « ستويانكا » بكلمة .. ولكن الفتاة استقبلتها فى وجوم ، وظلت لائذة بالصمت ، وقد احمرت عيناها !



● كانت القرية كلها تعج بالحركة كالخلية ، اذ كان أهلها يحتفلون بعودة الكتيبة الأولى ، وقد ثبتوا فى وسط الشارع ــ أمام بيت الأم « تسينا » ــ عمودين تعلوهما عصا كبيرة كالقوس ، واحضروا من الجبل غصون أشجار زكية الرائحة ، لفوها حول العمودين والقوس ، ثم ثبتوا فيها ورقة أحضروها خصيصا من (بازاردجيك) ، بعد أن كتبوا عليها : « مرحبا بكم أيها الجنود الشجعان ! » .. ثم زينوا القوس بأعلام مثلثة الألوان . وهكذا أقاموا قوس النصر !

واخذت القوات المنتصرة تروح وتجىء .. بينما كانت الأم المسكينة تفكر :

« قد يكون قادما بعدهم .. ولعله يتعمد الا يحضر الا عشية عيد الميلاد .. لماذا يحتفل بالعيد فى مكان آخر ؟ هؤلاء هم الجنود ما زالوا يتوافدون ، الواحد تلو الآخر .. زرافات لا نهاية لها .. انه سيعود هذا المساء ، فهو يعرف أن ثمة كثيرين فى انتظاره ، بقلوب تفيض هلعا وشوقا ! »

وفى الصباح التالى ، بكرت الأم فى الذهاب الى الكنيسة . و « فكت » عملة « الليفا » (١) ــ التى كان « ستويان » قد أرسلها اليها ــ واشترت شمعات أشعلتها بعد أن وضعتها أمام كل الأيقونات المقدسة في الكنيسة .. ثم عادت الى بيتها

---

(١) اسم العملة البلغارية

مشرقة الوجه ، وهمست لنفسها قائلة : « سيعود اليوم على اى حال .. ان غدا عيد الميلاد .. اليس هذا هو الموعد الأقصى ؟.. آه يا سيدتى العذراء الطاهرة ، أعيديه الى ، يا ملاكى !.. يا يسوع ، املأ قلبى فرحا ! »

وجاءت ابنتها « كينا » مهرولة لتقول : ان مزيدا من الجنود قد عادوا للقرية .. فارتسمت امارات العبوس على جبين الأم « تسينا » ، وغمغمت فى غضب : « انك تجيئينى بالشائعات منذ مدة طويلة .. الا اذهبى للترحيب بأخيك كما يفعل الآخرون ! »

وصاح الأخ الأصغر رادولشو : « أريد ان أذهب أنا أيضا مع أختى ! »

.. وهرع الصبيان الى الشارع الذى يكسوه الجليد ، ثم انطلقا الى الخلاء على طول الطريق الزراعى .. بينما وقفت الأم « تسينا » خارج الباب ، متأهبة لاستقبال ابنها ..



● وهبت الرياح باردة من الجبال .. وكانت القمم ، والوديان ، والسهول تبدو كلها بيضاء .. اما السماء فكانت فى سورة غضب . وفوق الطريق كانت جماعات من الغربان السوداء تحلق ، او تقف على الأشجار ذات التيجان غير المرسمة ، وهنا وهناك ، على طول الطريق الزراعى الصاعد الى ممر (اهتيمان) ، كانت جماعات الناس الذين قدموا للترحيب بالجنود ، تبدو كالبقع السوداء على الجليد .. وكانت هناك فتيات ، وأطفال ، وسيدات مسنات .. وأخذ الجنود يصلون أفرادا وجماعات .

ومرت « كينسا » ، ومعها اخوها « رادولشو » ، امام الجماعة الأولى ، ثم الثانية ، والثالثة ، ومضيا فى السير .. كانا يتلهفان على ان يكونا اول من يلتقى ب « ستويان » ويرحب

به . انهما ، ولا شك ، سيتعرفان عليه رغم أن البرد الذى بدأ يتساقط أخذ يحد من مجال رؤيتهما !

وكان الطريق يزداد صعودا حتى يختفى عند قمة التل . ولذلك صعدت « كينا » ، ومعها « رادولشو » الى القمة .. وهناك كانت الريح أقوى ، واشد عنفا . وبدا جنديان عند المنحنى ، وقد غطاهما البرد المتساقط ، ولكن « ستويان » لم يكن واحدا منهما .

وسألتهما كينا : « أيها الجنديان .. هل هناك جنود آخرون قادمون ؟ »

فأجابا فى اقتضاب : « لا نعرف أيتها الصبية .. لكن من تنتظرين ؟ »

وصاح رادولشو : « اننا ننتظر أخانا » .

ومضى الجنديان المرهقان فى طريقهما ..

وامتد بصر « كينا » وأخيها الصغير الى الطريق مرة أخرى .. كانا يشعران بشدة البرد ، وأخذت أطرافهما ترتجف ، بل ان أسنان « رادولشو » أخذت تصطك .. ولكن أخاهما قادم ، وعليهما أن ينتظراه ، والا نهرتهما أمهما وتعالى صراخها ان لم يعد معهما الى البيت !

وظهرت عربة بها شخصان ، تدثر كل منهما بقلنسوة و « حرملة » من جلد الغنم . وحين وصلت العربة الى حيث كانا يقفان ، اعترضت « كينا » طريق الجواد ، وسألت الراكبين : « أهناك جنود آخرون قادمون فى الطريق ؟ »

فأجاب أحدهما ، بعد أن رفع القلنسوة قليلا ، ونظر فى دهشة الى الفتاة التى كان لون بشرتها خليطا من الحمرة والزرقة ، بسبب البرد القارس : « لسنا نعرف يا بنيتى ! » .. ثم انطلقت العربة هابطة التل .

وتسمرت أقدام « كينا » وأخيها فى ذلك المكان . ومضت ساعات .. وازدادت ريح الجبل قوة ، وأخذت تصفع

وجهيهما وثوبيهما .. ومن حولهما تتدحرج حبـات البرد تذروها الريح فى رقصة جنونية .. ولكنهما لم يحركا ساكنا ! .. واستمرت اعينهما مركزة على المنحنى ، وهما يحدقان فى لهفة ، منتظرين ان يظهر اى كائن حى !



وكانت ((كينا)) فى تلك الاثناء تبكى .. وبدا ((رادوليشو)) يبكى بدوره ، وقد كانت أيديهما وأقدامهما تتجمد من شدة البرد ، كما بدت خدودهما زرقاء .. وكان الطريق ممتدا امامهما الى القرية ، وقد اقفر تماما ، اذ عاد الذين قدموا للترحيب بذويهم من الجنود الى بيوتهم ، بعد ان بدا ظلام الليل يزحف حالكا . وزاد اشتداد الريح وقسوة البرد ، الى حد لم يعهده الشقيقان فى أى وقت مضى .. وبدا الفرسان المبتعدون كاشباح سوداء وسط الجليد الأبيض .. وحملت الريح اغانى الجنود المرحة الى آذان الفتاة والصبى اللذين شرعا يسيران نحو القرية .

.. وارخى الليل سدوله ، وهما يغذان السير ، منتحبين فى خفوت .. كانا يفكران فى امهما التى تنتظرهما عند البـاب !.. وفجـاة جلجلت من خلفهما عربة اخرى ــ قادمة من فوق التل ــ تجرها ثلاثة جيـاد ، فصاحا بمن فيهـا :

((هل هناك جنود آخرون قادمون فى الطريق ؟))

.. لكن العربة مرقت امامهما واختفت فى الظلام !

وكانت العاصفة الثلجية تعوى حولهما بعنف ، وبدا كان عنفها وترنحها يوحيان الى ((كينا)) واخيها بالجواب ... كانت قادمة من ((الغرب)) ، من ميدان القتال ، حيث كان الجليد الذى يتغلل مزارع العنب ، يتراكم فوق .. قبر ((ستويان)) !



محتويات الكتاب

مجلة الصغار للأولاد والبنات

شاب ينتصر على امبراطور ! ـ هل تعلم ؟ ـ شخصيات تغلبت على العجـز ـ الحساب مادة مسـلية لذيذة ! شخصيات خالدة : مدام كورى ـ اخطاء شائعة .. الخ .

كتابى

تصدر عن الشعب مؤسسة صحفية عربية

إخصائيون فى المطبوعات العاجلة

الإدارة : ٩٢ شارع قصر العينى بالقاهرة ـ ت ٣١٨١٠ ● مكتبة دار الشعب ـ ت ١٩٩١

التوزيع : مكتبة دار الشعب

رئيس مجلس ... السيد أبو ...